المحتويات



الشبهة الأولى

الطعن في الأحاديث الواردة بشأن الجن والشياطين(*)

مضمون الشبهة:

انطلاقًا من مماراة الطاعنين المغرضين في حقيقة عالم الجن والشياطين، باعتباره عالـمًا غيبيًّا لا تقع عليه الحواس - طعن بعض منكري السنة في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ بشأن هذا العالم، وحاكوا حول هذه الأحاديث نسيجًا متنوعًا من الأباطيل والشكوك مختلفة الوجهات والمقاصد، فأنكروا الأحاديث الصحيحة الواردة في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما، والتي تثبت أن الجن يأكلون ويشربون، كنهي النبي ﷺ عن الاستنجاء بالعظم والروث؛ لأنها طعام الجن، وما ورد صريحًا من أن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله.

وحجتهم في ذلك زعمهم أن الجن عالم روحاني كالملائكة، فلا يأكل ولا يشرب ولا يتناكح.

ونظر المنكرون في اتجاه آخر، فأنكروا حديث نهي النبي ﷺ عن الصلاة في أعطان الإبل؛ لأنها خلقت من الشياطين، وقالوا: كيف تكون كذلك ومعلوم أنها خلقت من الإبل أمثالها؟

وفي سفور وتبجُّح ينبئ عن جهل فاضح بطلاقة القدرة الإلهية - أنكر المغرضون تصوُّر الجن وتشكلهم في الصور، وعليه أنكروا حديث طلوع الشمس بين قرني الشيطان، وقالوا: كيف يتفق هذا - من العظمة لهم - مع ما ورد من جريانهم من ابن آدم مجرى الدم في هذه الصورة اللطيفة الرقيقة، فادَّعوا التناقض بين هذين الحديثين، وأن الخبر والنظر يكذبانها.

وامتدادًا لهذه الأضلولة أنكروا حديث تمثل الشيطان لأبي هريرة ﷺ في صورة رجل يخادعه، ويسرق من صدقة الفطر.

وأما عن طعن المدَّعين المغرضين في الأحاديث الواردة بشأن علاقة الجن والشيطان بالإنسان - فحدِّث ولا حرج، وكأنهم قد خفيت عليهم تلك المعركة الحتمية والصراع الأبدي بين الشيطان والإنسان؛ فطعن المغرضون في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ قال: "كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبه حين يولد غير عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب"، واستندوا إلى توقُّف الزمخشري في صحته، وتشكيكه في مضمونه.

وراح المغرضون يبطلون الأحاديث الواردة بشأن وسائل الشيطان في سبيل إغواء الإنسان وإضلاله عن الإيمان والطاعة، مثل حديث عقد الشيطان على قافية النائم ثلاث عقد، وحديث بول الشيطان في أذن النائم إذا لم يُصَلِّ، وقالوا: كيف يعقد وكيف يبول؟ وأنكروا هذا التسلط من الشيطان على الإنسان.

وقياسًا على هذا أنكروا حديث: "التثاؤب إنما هو من الشيطان" معتقدين خطأً نسبة الفعل نفسه إلى

(*) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، تحقيق: أبي المظفر سعيد بن محمد السناري، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م. ضلالات منكري السنة، د. طه حبيشي، مطبعة رشوان، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٩م. دفاع عن السنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م. الإسلام وصياح الديك، جواد عفانة، دار جواد، الأردن، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م. رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية ومنكري السنة، د. سيد حسين العفاني، دار العفاني، مصر، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م. تحرير العقل من النقل، سامر إسلامبولي، مطبعة الأوائل، دمشق، ٢٠٠١م.

الشيطان؛ ولذا قالوا: هذه عملية فسيولوجية ليس للشيطان دخل فيها!

وقالوا: إن كان للشيطان ما ذكرتموه من هذا التسلط، فكيف يمتنع عليه اختراق الأبواب المغلقة، وحل الأسقية، مع اعترافكم بإمكانه الإضرار بالصبيان، كما في حديث: "إذا كان جُنْح الليل أو أمسيتم، فكفُّوا صبيناكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإن ذهب ساعة من الليل فخلُّوهم، وأغلقوا الأبواب، واذكروا اسم الله؛ فإن الشيطان لا يفتح بابًا مغلقًا، وأوكوا قُرَبَكم، واذكروا اسم الله، وخمِّروا آنيتكم، واذكروا اسم الله، ولو أن تعرضوا عليها شيئًا، وأطفئوا مصابيحكم".

ثم قالوا: فإن قلتم: إنه ينـدفع بالذكر، فَلِمَ يعص الناس، ويرتكبون الذنوب والفواحش، والأبواب مغلقة؟!

ثم يزعمون بطلان الأحاديث التي نهت عن قتل الحيَّات التي في البيوت، قائلين: إن مناقشة الجانب العلمي للأحاديث يبطله؛ إذ كيف يترك الإنسان بيته لأفعى ثلاثة أيام دون قتلها، فإن تركت البيت بعد هذه الثلاث فبها ونعمت، وإلا قام بقتلها. ويرمون من وراء هذه الأباطيل إلى إنكار تلك الأحاديث الصحيحة التي تقدِّم لنا صورة جلية عن حقيقة هذا العالم الغيبي، الذي ليس لنا طريق إلى معرفته إلا بالوحي.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن عالم الجن والشياطين من الغيب الذي أُمرنا بالإيمان به؛ إذ لا نمتلك أدوات التعرف إليه، وطريق معرفتنا به الوحي من قرآن وسنة، وجمهور طوائف المسلمين، بل أهل الكتاب من اليهود والنصارى على إثبات الجن.

٢) لقد أثبتت الأحاديث الصحيحة من رواية البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث ـ أن الجن يأكلون ويشربون، ودلَّ القرآن على أنهم يتناكحون، فلا وجه للقول بأنهم عالم روحاني كالملائكة؛ إذ بينهما فرق واضح.

٣) معنى خَلْقِ الإبل من الشياطين ـ كما ذكره العلماء ـ أنها خُلقت من جنس الشياطين، فهي متصفة بصفاتها، ومتطبعة بطباعها من النفور والهياج، وليس من نسلها وصلبها، وذلك مثل قول الله ﷻ: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (الأنبياء: ٣٧)؛ أي طبيعته هكذا. وأعطان الإبل مأوى الشياطين؛ ولذا نُهي عن الصلاة فيها، كما نُهي عن الصلاة في الحمام؛ لأنها بيوت الشياطين.

٤) للجن قدرة على التصوُّر والتشكُّل في الصور المختلفة، بما أعطاه الله من قدرة على هذا، وليس هذا غريبًا على قدرة الله، وإنما ينكر ذلك من لم يحط علمًا بعجائب المقدورات، فلا غرو ـ إذن ـ أن يظهر الشيطان بتلك الصورة من العظمة، منتصبًا في محاذاة الشمس وله قرنان، أو أن يجري من ابن آدم مجرى الدم، أو أن يتشكل في صورة إنسان متمثلًا لأبي هريرة ﷺ، وقد جاء بذلك كله الخبر الصحيح، فلا نكران.

٥) لقد أعلن الله ﷻ في كتابه عداوة الشيطان للإنسان فقال: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (فاطر: ٦) فالشيطان يخدع ويُضل، ويزين ويغوي عن الإيمان والطاعة، وقد أعطاه الله هذه الفرصة، وفي

الوقت نفسه حذَّر الإنسان منه ونهى عن الركون إليه، وأعطاه فرصة الاختيار تحقيقًا للابتلاء والاختبار، وعلى هذا فللشيطان وسائل لإغواء الإنسان جاء مخبرًا عنها الوحي، كطعنه لكل مولود عند ولادته، وعقده على قافية النائم، وبوله في أذنه إذا لم يُصلِّ، هذا إذا لم يكن هذا الإنسان من عباد الله المخلصين المحترزين من الشيطان بالذكر، وأما المحترزون فإنه لا يستطيع إغواءهم، ومن ثم فتسلُّطه مشروط، ولذا لا يقدر على فتح باب مغلق، ولا حلِّ سقاء، أو كشف إناء إذا ذُكر اسم الله.

٦) إن الأحاديث التي وردت في النهي عن قتل الجنان - الحيَّات - أحاديث صحيحة رواها مسلم في صحيحه وغيره من أصحاب السنن والمسانيد، ولكنها خاصة بالحيات في بيوت المدينة فقط دون غيرها، وقد صرح النبي ﷺ بسبب ذلك النهي، وهو أنه أسلم طائفة من الجن بها، فيتمثَّل بصورة حيَّات، لذلك يحرج علينا قتلها إلا بعد استئذانها بثلاثة أيام. هذا كله في تفصيل لا تغني الإشارة إليه هنا عن الرجوع إليه في مواضعه.

التفصيل:

أولا. عالم الجن والشياطين عالم غيبي ثابت بإخبار الأنبياء المتقدمين، والرسالة الخاتمة من قرآن وسنة صحيحة، فوجب الإيمان به، فهذا طريقنا الوحيد لمعرفتنا به:

لا ريب أن من أَلْزَم لوازم المسلم أن يكون لديه يقين راسخ بكليات العقيدة وجزئياتها، فالإنسان - أيًّا كان على اختلاف مشارب الناس ومداركهم ومقاصدهم، وحيثما كان وفي كل زمان، وفي أي ظرف وُجد - لا يخلو من عقيدة أبدًا، صحيحة كانت أو باطلة.

وعقيدة الإسلام تتطلب من المسلم إيمانًا راسخًا، وهذا الإيمان يتطلب بدوره الإيمان بالغيب الذي أخبرت به أنوار الوحيين الشريفين؛ إذ الإيمان في أصوله غيب.

ولما كان مدار العقيدة الإسلامية على الإيمان بالغيب، كان الغيب هدفًا مستهدفًا من قِبَل أعداء الإسلام والمسلمين؛ إذ التشكيك في الغيب تشكيك في الدين، وإيقاع للمسلم في الحيرة والشك والاضطراب، وتوهين وتضعيف لشخصية المسلم.

وتحقيقًا لهذا الهدف المسموم راح أعداء الإسلام يغرقون الساحة الإسلامية بالنظريات المادية، التي تجعل المادة هي الأصل في التسليم بوجود الأشياء، وتحكم على كل ما لم يقع عليه الحس بالعدم، وتلك شكاة ظاهر عنك عارها.

ذلك أن وجود الغيب حقيقة لا تُنكر، فالإنسان يلفُّه الغيب، ويحيطه من كل جانب، فهو قادم من غيب، وماضٍ إلى غيب، بالإضافة إلى أن ما يعلمه قطرة من بحر لا ساحل له.

ومن هذا المنطلق أنكر المدَّعون على المسلمين اعتقادهم في الجن، ومن ثم أنكروا أحاديث الشياطين والجن، وزعموا تناقض بعضها بعضًا، أو تناقض بعضها للعقول، وأنكروا أحاديث صحيحة في أعلى درجات الصحة.

وقبل أن نتناول هذه الأحاديث لنزيل عنها كل لَبْس واشتباه، لزم علينا أن نقدم بمقدمة مهمة عن علاقة العقل بالغيب، وحدود مدارك العقول في عالم الشهادة

وعالم الغيب، وبادئ ذي بدء نقرر حقيقة لا مندوحة عن إغفالها أو تجاهلها، وهي حقيقة لا ينبغي أن تغيب عن بال المتأمل المتحرر عن الأسبقيات الفكرية والعصبية، وهي أن الإسلام أطلق للعقل العنان، بل أرشده إلى اكتشاف قوانين عالم الشهادة بالنظر فيه والتأمل في آياته، فالقرآن الكريم يحثُّ العقل، ويدفعه دفعًا إلى التعرُّف إلى هذا الكون واكتشاف قوانينه، ومعرفة خصائصه، والتعرُّف إلى العلاقات المتبادلة بين أنواعه وأجزائه للوقوف على خصائص العلاقات السببية الكامنة فيه؛ لأن ذلك كله يرتبط برسالة الإنسان في هذا الكون والهدف من وجوده، واستخلافه في الأرض، وتنفيذه للأمر القرآني باستعمارها، وهذه المهام لا تتحقَّق للمسلم إلا باكتشاف قوانين الأشياء ومعرفة العلاقات السببية فيها؛ ليستطيع أن يحقق فيها المعنى الإلهي المقصود من تسخير هذا العالم من سمائه إلى أرضه لصالح الإنسان[1].

من هذا المنطلق جعل القرآن الكون مسرحًا لنظر الإنسان العقلي وعمله الفكري، وفتح أمامه مجالًا أرحب وآفاقًا أوسع للعقل؛ ليتأمل وليصل إلى ما يجهل من صفحة هذا الكتاب المنظور.

وقدَّم القرآن الكريم في هذا الصدد آيات عديدة، منها ما يدعو إلى النظر في البيئة التي يعيش فيها الإنسان وما فيها من أصناف الموجودات، وما فيها من دقة الصنعة وإتقانها، مثل قوله ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الغاشية).

وأحيانًا يطلب القرآن من العقل ألا يكتفي بمجرد النظر إلى هذا الكون، بل لا بد أن يخترق ظواهره؛ ليكشف ما في داخله وباطنه، قال ﷻ: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس:١٠١).

ومعلوم أن النظر في الشيء أعلى درجة ومرتبة من النظر إليه، فليصعد الإنسان إلى القمر وإلى الكواكب، وليهبط إلى باطن الأرض مكتشفًا وباحثًا، فالكون كله مسرح للعقل وميدان لعمله.

إن المنهج الصحيح في قضايا الغيب هو الاعتصام بالنص، من قرآن وسنة صحيحة، والإيمان بما جاء فيهما، فليس للعقل سبيل إليه إلا بهذا؛ إذ إنه ليس مؤهلًا للبحث فيه.

الشيطان والجان عالم غيبيٌّ:

الجن خلق من خلق الله ﷻ، وهم عالم غيبي أمرنا الله بالإيمان به، وهو عالم مستقل عن الإنسان والملائكة، له تكوينه الخاص، وقوانينه الخاصة، وسُمِّي جنًّا لاستتارهم، فهم مستورون عن الخلق لا يرونهم، "وتحت نوع الجن: الكافر والمؤمن، فالكافر منهم هو الشيطان، وأولهم إبليس"[2].

وطريق معرفتنا بهذا العالم هو الوحي وليس العقل؛ لأن العقل ـ كما تقدم ـ لا يمتلك التعرف إلى عالم الغيب، ومنه عالم الجن. قال القاضي عبد الجبار (ت:٤١٥هـ):"اعلم أن الدليل على إثبات وجود الجنِّ السمعُ دون العقل؛ وذلك أنه لا طريق للعقل إلى إثبات

١. قضية الألوهية بين الدين والفلسفة، د. محمد السيد الجلينـد، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٥٢ بتصرف.

٢. علاقة الإنسان بالمَلَك والشيطان، د. حبيب الله حسن أحمد، ص٥٢.

أجسام غائبة؛ لأن الشيء لا يدل على غيره من غير أن يكون بينهما تعلق، كتعلق الفعل بالفاعل، وتعلق الأعراض بالحال... والذي يدل على إثباتهم - أي الجن - آي كثير من القرآن تغني شهرتها عن ذكرها، وأجمع أهل التأويل على ما يذهب إليه من إثباتهم بظاهرها، ويدل أيضًا على إثباتهم ما علمناه باضطرار من أن النبي ﷺ كان يتدين بإثباتهم"[1].

إن طريق العلم بهذا العالم الغيبي من الجن إنما يؤخذ من السمع؛ لأن الله ﷻ أعلمُ بهذا الغيب الذي استأثر بعلمه، وحجبه عن خلقه؛ ولذا قال ابن حزم (ت: ٤٥٦هـ): "لم ندرك بالحواس ولا عَلِمْنَا وجوب كونهم (أي: الجان) ولا وجوب امتناع كونهم في العالم أيضًا بضرورة العقل، لكن عَلِمْنَا بضرورة العقل إمكان كونهم؛ لأن قدرة الله ﷻ لا نهاية لها، وهو ﷻ يخلق ما يشاء، ولا فرق بين أن يخلق خلقًا عنصرهم التراب والماء، فيسكنهم الأرض والهواء والماء، وبين أن يخلق خلقًا عنصرهم النار والهواء، فيسكنهم الهواء والنار والأرض، بل كل ذلك سواء ممكن في قدرته، لكن لما أخبرت الرسل - الذين شهد الله ﷻ بصدقهم بما أبدَى على أيديهم من المعجزات المحلية للطبائع - بنص الله ﷻ - على وجود الجن في العالم، وجب ضرورة العلم بخلقهم ووجودهم، قد جاء النص بذلك، وبأنهم أمة عاقلة مميزة متعبدة، موعودة متوَعَّدة، متناسلة يموتون، وأجمع المسلمون كلهم على ذلك، نعم والنصارى والمجوس والصابئون، وأكثر اليهود حاشا السامرة فقط، فمن أنكر الجن أو تأوَّل فيهم تأويلًا يخرجهم به عن هذا الظاهر فهو كافر مشرك"[2].

إن وجود هذا العالم الغيبي حقيقة ثابتة، ومعلوم من الدين بالضرورة، وتواترت بذلك الأخبار عن الأنبياء، ولا يُنقض هذا ويُعترض عليه بعدم رؤيتهم؛ فليس كل ما لا يقع عليه الحس منكورًا معدومًا؛ فالحواس نفسها لا تستطيع إدراك ما يتوصل إليه العقل من أفكار مجرَّدة ونظريات عقلية، مع أن الحواس هي التي تساعد العقل على اكتساب المعارف، فهي - كما سبق - روافد المعرفة العقلية، وجواسيس العقل على عالم الشهادة، وهذه الأفكار لا يستطيع الحس أن ينكرها أو يدعي عدمها، والعقل بالمثل لا يختلف عن الحواس، ومن ثم فليس من حقه أن ينكر ما عداه، فكما أن لكل حاسة مجالها، كذلك للعقل مجاله ومحيطه الذي لا يتعداه ولا يتخطاه، وليس من حقه أن ينكر ما يخرج عن نطاق إدراكه، فهناك مستويات من المعرفة لا يستطيع العقل أن يتوصل إليها، وذلك بلا ريب لا يعني عدم وجودها.

إن عالم الجن عالم غيبي، العقل مقيَّد فيه بما يخبره به السمع والنقل، وما أتى به الوحي على الأنبياء، فوجود الجن مما تواترت به أخبار الأنبياء تواترًا معلومًا بالضرورة، وإنكار المنكرين للجن تكذيب بالوحي وإخبار الأنبياء، وتكذيب للأنبياء أنفسهم، ولذا حكى الإجماع على وجود الجن ابنُ تيمية (ت: ٧٢٨هـ) فقال: "لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمدًا ﷺ إليهم، وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن، أما أهل الكتاب من اليهود

---

١. آكام المرجان في أحكام الجان، بدر الدين أبو عبد الله الشبلي، (١/ ٤).

٢. الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الظاهري، تحقيق: د. محمد إبراهيم نصر ود. عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، (٥/ ١١١).

والنصارى، فهم مُقِرُّون بهم كإقرار المسلمين، وإن وُجد فيهم من ينكر ذلك... وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواترًا معلومًا بالضرورة، ومعلوم بالضرورة أنهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة، بل مأمورون منهيُّون، ليسوا صفاتٍ وأعراضًا قائمة بالإنسان أو غيره، كما يزعم بعض الملاحدة، فلما كان أمر الجن متواترًا عن الأنبياء تواترًا تعرفه العامة والخاصة، فلا يمكن لطائفة من المنتسبين إلى الرسل الكرام أن تنكرهم"[1].

وذكر إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (ت: ٤٧٨هـ): "أن العلماء أجمعوا في عصر الصحابة والتابعين على وجود الجن والشياطين والاستعاذة بالله ﷻ من شرورهم، ولا يراغم هذا الاتفاق متدين متشبث بمسكة من الدين"[2].

ليس لعاقل إذن أن ينكر وجود الجن والشياطين "لمجرد أنه خارج عن مألوفنا العقلي أو تجاربنا المشهودة، ونحن لم ندرك بعدُ كل أسرار أجسامنا وأجهزتها وطاقاتها، فضلًا عن إدراك أسرار عقولنا وأرواحنا"[3].

تلك هي خلاصة الحقيقة التي أردنا الكشف عنها، والتي نستطيع بعدها أن نقول: إنه قد ثبت وجود الجن بالدليل القطعي الذي لا احتمال فيه، والدليل هو الخبر الصادق الذي جاء به القرآن بنصوص قاطعة لا احتمال فيها، وما جاءت به السنة النبوية من نصوص صحيحة ثابتة.

وقد أخبر القرآن عن الجان في مواضع كثيرة؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (الذاريات)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ (الأحقاف: ٢٩)، ومنه قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ (الرحمن).

وقد جاء في السنة أحاديث ثابتة صحيحة تثبت حقيقة الجان وتخبر عنهم، ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم والترمذي، وابن إسحاق وعامة أصحاب السيرة، واللفظ للبخاري أنه ﷺ "انطلق في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشُّهب، فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلت علينا الشهب. قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث؟ فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء؟ قال: فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة، وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلِّي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تَسَمَّعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا، ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ (الجن). وأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ

---

1. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، مصر، ط٣، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، (٩/ ١٠).
2. آكام المرجان في أحكام الجان، الشبلي، مرجع سابق، (١/ ٣).
3. عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٦.

﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ (الجن) وإنما أُوحِيَ إليه قول الجن"[1].

وإذا كان وجود هذا العالم مستندًا إلى هذه الأخبار اليقينية وما سيأتي بعدُ، والتي وردت في الكتاب وفصَّلتها السنة، وكان أمرها معلومًا من الإخبارات الإلهية بالضرورة، كان الفرق بين مَن يؤمن بهذا العالم ومن ينكره، هو الفرق بين من يؤمن بوجود الله ﷻ وبكلامه ووحيه، ومن لا يؤمن به.

إن صح لنا استيعاب ما مضى من الكلام، وتوصلنا إلى إثبات هذا العالم الغيبي شرعًا وعقلًا، وآمنا بأن هذا العالم يُتَعَرَّف إليه من خلال ما جاء به الوحي، وجب علينا التصديق بكل ما جاء به النقل عن هذا العالم، فنصدِّق ما جاء عنهم في القرآن والسنة الصحيحة الثابتة من أخبارهم وصفاتهم وقوانينهم... إلخ، وإن كان في هذه الأخبار ما يخرج - أو يُظن كذلك - عن إدراك عقولنا القاصرة، وقد نبه على معانيها العلماء وشراح الحديث، وهذا هو موضوع التفصيل والبيان في الوجه الآتي®.

ثانيًا. الجن يأكلون ويشربون ويتناكحون، ومن كانت هذه صفاته بطل الزعم بروحانيته كالملائكة:

لقد جاء الوحي مخبرًا عن عالم مستقل عن عالم الإنس، ومستقل أيضًا عن عالم الملائكة، ذاك العالم هو عالم الجن.

وقد أخبر الوحي عنهم، مجليًا صورة هذه الأمة، ومظهرًا مادة خلقهم، وصفاتهم وقوانينهم، والغاية من خلقهم، وعلاقتهم بالإنسان... إلخ؛ كل هذا في كلام واضح بيِّن ينجينا من الوقوع في براثن الحيرة والتخبط، شريطة أن نؤمن بما جاء به الوحي الشريف دون إقحام العقل في تأويلات فاسدة، ودون أن نضني عقولنا فيما لا طائل من ورائه.

أخبر الله تعالى أن الجن خُلقوا من النار، قال تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ (الحجر)، قال: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾ (الرحمن)".

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصف لكم"[2].

وجاء التصريح في القرآن بأن للجن قلوبًا وأعينًا وآذانًا: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ (الأعراف: ١٧٩)، وصرَّح القرآن بأن للشيطان صوتًا، قال ﷻ: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ (الإسراء: ٦٤).

وثبت في الأحاديث الصحيحة أن الجن يأكلون ويشربون، فهم مفتقرون إلى الغذاء المناسب لذواتهم افتقارَ سائر الحيوانات والنباتات إلى أغذيتها المناسبة؛

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التفسير، باب: سورة ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾، (٨/ ٥٣٧)، رقم (٤٩٢١).

® في **"وجوب الإيمان بما أخبر عنه النبي من الغيبيات"** طالع: الشبهة الخامسة، من هذا الجزء. و في **"أهمية الوحي في الإيمان والتصديق بعالم الغيب"** طالع: الشبهة الرابعة والثلاثين، من هذا الجزء. وفي **" صحة حديث "لقاء النبي بالجن" ورواية بعض الصحابة له غير ابن مسعود"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة التاسعة والعشرين، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الزهد والرقائق، باب: في أحاديث متفرقة، (٩/ ٤٠٨٤)، رقم (٧٣٦٠).

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ أمره أن يأتيه بأحجار يستجمر بها وقال له: "ولا تأتني بعظم ولا بروثة"، ولما سأل أبو هريرة الرسول ﷺ عن سر نهيه عن العظم والروثة، قال: "هما من طعام الجن، وإنه أتاني وَفْدُ جِنِّ نصيبين[1] - ونعم الجن - فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا عليها طُعمًا"[2].

وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام، فإنه زاد إخوانكم من الجن"[3].

وقد أخبر النبي ﷺ أن الشيطان يأكل ويشرب بشماله، ومن ثم نهانا عن الأكل والشرب بالشمال؛ فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: "إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه؛ فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله"[4].

وهنا تعرض شبهة من شبه المنكرين؛ إذ قالوا: الشيطان روحاني كالملائكة، فكيف يأكل ويشرب، وكيف له يد يتناول بها؟

ونقول: أما قولهم: إن الشيطان كائن روحاني - فهذا مردود بما ورد أنهم يأكلون ويشربون، وهذا على الحقيقة وليس على المجاز، ولا يمنع أن يكون لهم يد يأكلون بها؛ لما ثبت أن لهم عيونًا وآذانًا وقلوبًا وصوتًا كما تقدم، ومما يثبت أن أكلهم وشربهم على الحقيقة ما ثبت بالآثار الدالة والأخبار الصادقة التي جاءت في أصح كتب السنة، أن طعامهم العظم والروث، ولا يقول عاقل: إن هذا ليس حقيقيًّا.

ولا يقول عاقل بروحانية من يأكل ويشرب ويتناكح، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾﴾ (الرحمن)، وقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ (الكهف: ٥٠).

ولا يصح الزعم بأن الجن لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون، فهذا الزعم تبطله الآثار الدالة، والأخبار الصادقة التي سقناها من الكتاب والسنة، ونحن مأمورون بالإيمان بها؛ لأنها السبيل الوحيد لمعرفتنا بهذا العالم الغيبي.

ونحن نؤمن بما جاء به النقل كما أخبر به، ودون بحث عما سكت الشرع عنه، فنتقيد بما جاء به النقل. "وقد حاول بعض العلماء الخوض في الكيفية التي يأكلون بها، هل هو مضغ وبلع، أو تشمُّمٌ واسترواح، والبحث في ذلك خطأ لا يجوز؛ لأنه لا علم لنا بالكيفية، ولم يخبرنا الله ورسوله ﷺ بها"[5].

ثالثًا. حيوانات تصاحبها الشياطين:

من الحيوانات التي تصاحبها الشياطين الإبل؛ ولذا نهى الرسول ﷺ عن الصلاة في مَبَارِكِ الإبل، فعن البراء بن عازب أن الرسول ﷺ قال: "لا تصلُّوا في

١. نصيبين: بلدة مشهورة بالجزيرة العربية.
٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: مناقب الأنصار، باب: ذكر الجن، (٧/ ٢٠٨)، رقم (٣٨٦٠).
٣. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في كراهية ما يستنجى به، (١/ ٧٤)، رقم (١٨). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (١٨).
٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الأشربة، باب: آداب الطعام والشراب وأحكامها، (٧/ ٣١١٥)، رقم (٥١٦٧).
٥. عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٣٠.

مبارك الإبل؛ فإنها من الشياطين، وصلُّوا في مرابض الغنم؛ فإنها بركة"[١].

وعن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ: "صلوا في مرابض الغنم، ولا تصلوا في أعطان الإبل، فإنها خُلقت من الشياطين"[٢].

وهنا تعرض شبهة أخرى من شبه القوم؛ إذ قالوا: كيف يُقال: إن الإبل خلقت من الشياطين، ومعلوم أنها خُلقت من إبل مثلها، كما أن البقر خُلقت من البقر، والخيل من الخيل، والأسد من الأسد، والذباب من الذباب؟!

والنبي ﷺ بلا شك "يعلم أن البعير تلده الناقة، وأنه لا يجوز أن تكون شيطانة تلد جملًا، ولا أن ناقة تلد شيطانًا"[٣]. وقوله: "إنها خلقت من الشياطين" يريد أنها من جنس الشياطين ونوعهم؛ فإن كل عاتٍ متمرد شيطانٌ من أي الدواب كان، فالكلب الأسود شيطان، والإبل شياطين الأنعام كما للإنس شياطين... والشياطين خَلْقٌ من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فأمر بالوضوء من لحومها؛ كسرًا لتلك الصورة، وقمعًا لتلك الحال، وهذا لأن قلب الإنسان وخلقه يتغير"[٤].

ولذا فإن الشيطنة من طبيعة الإبل، وقد ورد في رواية الإمام أحمد: "ألا ترون عيونها وهبابها إذا نفرت"[٥].

وعلى هذا فالمعنى "أنها في أصل الخلقة ـ خُلقت من جنس ما خُلِقَت منه الشياطين"... ولو كانت من نسلها لقال: فإنها خُلقت من نسلها، أو بطونها أو أصلابها، وما يشبه هذا. ولم تزل العرب تنسب جنسًا من الإبل إلى الحوش، فتقول: ناقة حوشية وإبل حوشية، وهي أنفر الإبل وأصعبها"[٦].

وقد ذكر العلامة ابن عثيمين الحكمة من الوضوء من لحم الإبل، بعد أن ذكر أن هذا أمر من الله على لسان رسوله يجب الامتثال له، وإن لم نعلم الحكمة؛ فذكر أن لحم الإبل شديد التأثير على الأعصاب؛ فيهيِّجها، ولهذا يحذِّر الطب الحديث الإنسان العصبي من الإكثار من لحم الإبل. والوضوء يسكن الأعصاب ويبردها، كما أمر النبي ﷺ بالوضوء عند الغضب لأجل تسكينه[٧].

مما سبق يتبيَّن أن المقصود أن الإبل تحمل صفات الشياطين، ومن ثم فلا مانع من أن تصحب الشياطين الإبل، فتكون الإبل ومعاطنها مأوى الشياطين، ولذا نُهي عن الصلاة في أعطان الإبل، وهذا يشبه النهي عن الصلاة في الحمام؛ لأن الحمامات بيوت الشياطين.

ولكن نقول ـ وإن كنا قد قدمنا تأويلات سائغة مقبولة تقرِّب المعنى للأفهام: أليس من الأفضل

---

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: الصلاة، باب: النهي عن الصلاة في مبارك الإبل، (٢/ ١١٢، ١١٣)، رقم (٤٨٩). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٤٦٤).

٢. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: المساجد والجماعات، باب: الصلاة في أعطان الإبل ومراح الغنم، (١/ ٢٥٣)، رقم (٧٦٨). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٧٦٨).

٣. تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، مرجع سابق، ص١٩٢.

٤. شرح العمدة في الفقه، ابن تيمية، تحقيق: د. سعود صالح العطيشان، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٣هـ، (١/ ٢٣١).

٥. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث عبد الله بن مغفل المزني، رقم (٢٠٥٧٦). وحسنه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٦. تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، مرجع سابق، ص١٩٢.

٧. انظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع، ابن عثيمين، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ، (١/ ٣٠٨).

والأصوب والأرشد أن نأخذ هذا النهي على أنه أمر تعبدي، ولا نسأل عن الحكمة ما دام النص قد ثبت؟ أعتقد أن هذا أسلم وآمن، وما يعقلها إلا العالمون!

رابعًا. تشكُّل الجن والشيطان في الصور بقدرة الله:

جاء في كتب السنة بأسانيد صحيحة وألفاظ متقاربة أن النبي ﷺ قال: "إن الشمس تطلع من بين قرني شيطان، فلا تصلوا لطلوعها"[1].

ولم يعجب هذا الحديث الطاعنين في أحاديث الجن والشياطين، فزعموا أن هذا الحديث يكذبه النظر والخبر، وقالوا: كيف جعلتم للشيطان قرونًا تبلغ السماء، وجعلتم الشمس ـ التي هي مثل الأرض ـ مرات تجري بين قرنيه؛ وأنتم ـ مع هذا ـ تزعمون أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فهو في هذه الحال ألطف من كل شيء، وهو في تلك الحال أعظم من كل شيء؟!

وجعلتم علة ترك الصلاة في وقت طلوع الشمس طلوعَها من بين قرنيه، وما على المصلِّي لله ﷻ إذا جرت الشمس بين قرني الشيطان، وما في هذا مما يمنع الصلاة لله ﷻ[2]؟!

وقد ادعى المغرضون التناقض بين هذين الحديثين، وقد فند هذه الشبهة، ودفع هذا الاشتباه ابن قُتيبة فقال: "إن إنكارهم لهذا الحديث، إن كان من أجل أنهم لا يؤمنون بخلق الشياطين والجن، وبأن الله ﷻ جعل في تركيبها أن تتحول من حال إلى حال، فتتمثَّل مرة في صورة شيخ، ومرة في صورة شاب، ومرة في مثال نار، ومرة في مثال كلب، ومرة في مثال جان، ومرة تَصِل إلى السماء، ومرة تَصِل إلى القلب، ومرة تجري مجرى الدم!!

فهؤلاء مكذبون بالقرآن، وبما تواطأت عليه الأخبار عن رسول الله ﷺ، والأنبياء المتقدمين، وكتب الله ﷻ المتقدمة، والأمم الخالية؛ لأن الله ﷻ قد أخبرنا في كتابه أن الشياطين يقعدون من السماء مقاعد للسمع، وأنهم يُرْمَونَ بالنجوم.

وأخبرنا الله ﷻ عن الشيطان أنه قال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ (النساء: ١١٩) وهو لا يظهر لنا. فكيف يأمرنا بهذه الأشياء، لولا أنه يصل إلى القلوب بالسلطان الذي جعله الله ﷻ له، فيوسوس بذلك، ويزيِّن ويمنِّي، كما قال الله ﷻ"[3].

فالجن يتشكلون ويتصورون بصور مختلفة بما أعطاهم الله من قدرة على التحول والتشكل والتصور، فلا مانع من أن يبلغ الشيطان أن "ينتصب في محاذاة مطلع الشمس حتى إذا طلعت كانت بين جانبي رأسه، لتقع السجدة له إذا سجد عَبَدَة الشمس لها، وكذا عند غروبها"[4].

ولا مانع أيضًا من أن يصل إلى قلب ابن آدم حتى يوسوس له، وكل هذا خاضع لمقتضى القدرة الإلهية وعموم الإرادة الحاكمة، ولو نظرنا إلى عجائب قدرة

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده، (٦/ ٣٨٦)، رقم (٣٢٧٣). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: أوقات الصلوات الخمس، (٣/ ١١٩٠)، رقم(١٣٦٢).

٢. تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، مرجع سابق، ص١٨١.

٣. المرجع السابق، ص١٨٢.

٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرين، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، (٦/ ٣٩٢).

الله المشاهدة في كونه؛ لسهل علينا تصديق ما نحن بصدد إثباته، وسهل على العقل أن يتصور تشكُّل الجن وتصوره بما يراه من قدرة الله، ولو أن هؤلاء المنكرين "اعتبروا ما غاب عنهم بما رأوه من قدرة الله ﷻ؛ لعلموا أن الذي قَدَرَ على أن يفجر مياه الأرض كلها إلى البحر منذ خلق الله الأرض وما عليها، فهي تفضي إليه من غير أن يزيد فيه أو ينقص منه، ولو جُعِل لنهر منها مثل "دجلة" أو "الفرات" أو "النيل" سبيل إلى ما على وجه الأرض من المدائن والقرى والعمارات والخراب شهرًا - لم يبق على ظهرها شيء إلا هلك؛ هو الذي قدر على ما أنكروا.

وأن الذي قدر أن يحرِّك هذه الأرض، على عظمها، وكثافتها، وبحارها، وأطوادها، وأنهارها حتى تتصدع الجبال، وحتى تغيض المياه، وحتى ينتقل جبل من مكان إلى مكان - هو الذي لطف لما قدر. وأن الذي وسع إنسان العين[1]، مع صغره وضعفه لإدراك نصف الفلك على عظمه، حتى رأى النجم من المشرق ورقيبه من المغرب وما بينهما، وحتى خرق مسيرة خمسمائة عام - هو الذي خلق ملكًا ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة خمسمائة عام[2]. فهل ما أنكر إلا بمنزلة ما عَرَف؟ وهل ما رأى إلا بمنزلة ما لم يره؟ فتعالى الله أحسن الخالقين"[3].

إن قدرة الله التي تقول للشيء كن فيكون هي التي منحت الجن التشكل بصور مختلفة؛ ولذا فالجن "يتصور في صور الإنس والبهائم، فيتصورون في صور الحيات والعقارب وغيرها، وفي صور الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير، وفي صور الطير، وفي صور بني آدم، كما أتى الشيطان قريشًا في صورة سراقة بن مالك بن جشعم لما أرادوا الخروج إلى بدر، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ (الأنفال).

كما روي أنه تصور في صورة شيخ نجدي لما اجتمعوا بدار الندوة، هل يقتلون الرسول ﷺ أو يحبسونه أو يخرجونه، كما قال ﷻ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأنفال)[4].

أما عن إنكار الحديث من جهة النظر؛ إذ لا معنى لترك الصلاة من أجل أن الشمس تطلع بين قرني شيطان؛ فالجواب عنه أنه: "إنما أمرنا بترك الصلاة مع طلوع الشمس، لأنه الوقت الذي كانت فيه عَبَدَة الشمس يسجدون فيه للشمس.

---

١. إنسان العين: هو تلك النقطة التي تُرى بداخل الحدقة، وبها يقع الإبصار والنظر.

٢. فقد جاء عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: "أُذن لي أن أحدث عن مَلَك من ملائكة الله تعالى من حَمَلة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام"، وهذا حديث صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: السنة، باب: في الجهمية، (١٣/ ٢٦)، رقم (٤٧١٢). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٤٧٢٧).

٣. تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، مرجع سابق، ص١٨٧.

٤. ومما يدل على أن التمثل مقيد بقدرة الله الفاعلة - ما صح أن الشيطان لا يتمثل في صورة النبي ﷺ. انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، (١٩/ ٤٥، ٤٦).

وقد درج كثير من الأمم السالفة على عبادة الشمس والسجود لها، فمن ذلك ما قص الله ﷺ علينا في نبأ مِلكة سبأ - أن الهدهد قال لسليمان ﷺ: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (النمل:٢٤)، وكان في العرب قوم يعبدون الشمس ويعظمونها ويسمونها الآلهة... فكره لنا رسول الله ﷺ أن نصلي في الوقت الذي يسجد فيه عبدة الشمس للشمس، وأعلمنا أن الشياطين حينئذ - أو أن إبليس في ذلك الوقت - في جهة مطلع الشمس، فهم يسجدون له بسجودهم للشمس، ويؤمونه"[1].

ومما ورد فيه ذكر قرن الشيطان حديث ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ وهو مستقبلٌ المشرق يقول: "الفتنة ها هنا من حيث يطلع قرن الشيطان"[2]، والمراد بقوله: حيث يطلع قرن الشيطان؛ أي: جهة المشرق.

هذا عن حديث طلوع الشمس بين قرني شيطان، وأما عن دخوله في قلب بني آدم، فقد "صح النص بأنهم يوسوسون في صدور الناس، وأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فوجب التصديق بكل ذلك حقيقة"[3].

ومما يتعلق بتشكل الجن، روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ قال: "وكَّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج وعليَّ عيال، ولي حاجة شديدة. قال: فخليت عنه. فأصبحت، فقال النبي ﷺ: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟ قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالًا، فرحمته فخلَّيت سبيله.

قال: أَمَا إنه قد كذبك وسيعود، فَعَرَفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ إنه سيعود، فرصدته، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. قال: دعني فإني محتاج وعليَّ عيال، لا أعود، فرحمته فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك؟ قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالًا، فرحمته فخليت سبيله. قال: أما إنه قد كذبك وسيعود، فرصدته الثالثة، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات؛ إنك تزعم لا تعود ثم تعود. قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت: ما هن؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ (البقرة: ٢٥٥) حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنَّك شيطان حتى تصبح. فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله تبارك وتعالى بها، فخليت سبيله. قال: ما هي؟ قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شيء على الخير - فقال

---

١. تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، مرجع سابق، ص١٨٣، ١٨٤.

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الفتن، باب: قول النبي ﷺ: "الفتنة من قِبَل المشرق"، (١٣/ ٤٩)، رقم (٧٠٩٣).

٣. الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، مرجع سابق، (٥/ ١١٢).

النبي ﷺ: أما إنه قد صدقك وهو كذوب. تَعْلَمُ من تخاطب مُذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟ قال: لا، قال: ذاك شيطان"[1].

وقد أنكر المغرضون هذا الحديث، وقالوا: إن الجن ممنوعة من رؤية الإنسان لها، سواء أكان بشرًا عاديًا أم نبيًّا من عند الله، فكيف يراها أبو هريرة؟ وقالوا: زعم أبو هريرة أن الشيطان علَّمه كلمات تحصنه من الشيطان، والإنسان لا يسلم من الشيطان مع قراءته لهذه الكلمات: آية الكرسي.

والجواب: عن قضية تشكل الجن تحدثنا عنها فيما تقدم، وأن الله أعطاه القدرة على التصور والتحول بصور وأشكال مختلفة، ومن ضمنها التشكل بصور بني آدم، وقد سمَّى الله ﷻ الجن رجالًا كما سمى الإنس رجالًا فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ (الجن): وإنما ينكر ذلك من لا يحيط علمًا بعجائب المقدورات، وقد ثبت أن جبريل عليه السلام كان يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، ومن عرف ذلك لم ينكر ما كان بمنزلته من تصور الجن في صورة شخص، ولا مانع من أن يراه أبو هريرة، وهذا لا يعارض قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف:٢٧)، لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ﴾ "مخصوص بما إذا كان على صورته التي خلق عليها"[2].

وعلى هذا المعنى يُحمل قول الشافعي: من زعم أنه يرى الجن أبطلنا شهادته إلا أن يكون نبيًّا، فهذا محمول على من يدَّعي رؤيتهم على صورهم التي خُلِقُوا عليها، وأمَّا من ادَّعى أنه يرى شيئًا منهم بعد أن يتصور على صور شتى من الحيوانات فلا يُقدح فيه، وقد تواترت الأخبار بتصورهم في الصور[3].

وقد أخبر الله عن تصور الجن بصور مختلفة، وقيامهم بوظائف شتى حينما كانوا مسخرين - بإذن الله - لنبي الله سليمان: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ (ص)، وأخبر عن قدرتهم التي أعطاها الله لهم، والتي تفوق قدرة البشر: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ (النمل: ٣٩).

وإذا ثبت رؤية الإنسان للجن حين تشكل في صورة من الصور على غير صورته التي خلق عليها، وأن هذا غير ممتنع، ثبت من باب أولى عدم امتناعه عن الأنبياء، وادعاء امتناع رؤية النبي للجن أظهر وأبين في التهافت من أن يرد عليه، بل النبي من الممكن أن يراه على صورته التي خلق عليها.

وأما قول القائل: إننا لنقرأ آية الكرسي مرارًا، ثم لا يندفع عنا الشيطان، فهذا جهل بتنوع أعداء الإنسان التي يمثل الشيطان واحدًا منها، فالنفس من أعدى أعدائه، وكذلك الدنيا وهوى الإنسان، فإذا استطاع الإنسان دفع الشيطان وكيده الضعيف بآية الكرسي والاستعاذة وذكر الله، فإنه لا بد له من قمع النفس الأمارة بالسوء ومجاهدتها بالمخالفة "فهذه النفس التي يحملها الإنسان بين جنبيه، والتي تضم مجموعة الغرائز

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الوكالة، باب: إذا وكَّل رجلًا فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكِّل فهو جائز وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، (٤/ ٥٦٨، ٥٦٩)، رقم (٢٣١١).
٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٤/ ٥٧١).
٣. انظر: المرجع السابق، (٦/ ٣٩٦).

الحيوانية أو الهابطة، التي يشعر بها الإنسان في شكل رغبات ملحَّة. هذه النفس من مظاهرها هذا الخيال الجامح الذي يرسم صورة مغرية للمعصية أو المخالفة، ويسهِّل الوصول إليها، ويهيِّئ للإنسان من المُتع التي تترتب على هذه المخالفات ما يجعل إرادته أمام كل هذه الأمور تضعف وتتراجع، ما لم تكن هذه الإرادة صارمة بَتَّارة تقطع كل رغبة، وتقف دون كل هوى، فتحول بين الإنسان وبين ما يشتهي من هذه الرغبات.

أما إذا كانت الإرادة ضعيفة فإن النفس برغباتها تستطيع من خلالها أن تنفذ إلى ما تريد، خصوصًا إذا كانت هذه النفس أمارة بالسوء، لم يعوِّدها صاحبها على الالتزام، ولم يفطمها عن المخالفات"[1].

وصدق الشاعر إذ يقول:

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على

حب الرَّضاع وإن تفطمه ينفطم

فأعداء الإنسان كثيرون، والشيطان أحدهم، وربما كان أضعفهم كيدًا: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ (النساء)، وصدق الشاعر حين قال:

إبليس والدنيا ونفسي والهوى

كيف الخلاص وكلهم أعدائي

ولو كان الشيطان هو العدو الوحيد للإنسان، لكان الإنسان أتقى ما يكون في رمضان، ولم يرتكب أي معصية أو ذنب فيه؛ إذ صح أن الشياطين تُسلسل في رمضان، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين"[2].

لكن يوجد هناك شياطين الإنس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ (الناس)، وقال عز وجل في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: ١١٢).

خامسًا. علاقة الإنسان بالجن والشيطان:

بدأ الصراع بين الإنسان والشيطان برفض الشيطان أمر الله عز وجل بالسجود لآدم، استكبارًا منه وكفرًا وعنادًا ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (البقرة) وظن أنه خير منه لخلقه من النار بينما خلق آدم من طين: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ (الأعراف)، وكان الجزاء وفاقًا من الله بطرده ولعنه: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ (الأعراف).

وامتلأ لذلك إبليس حنقًا وغيظًا وحقدًا على آدم وبنيه، وطلب من ربه إمهاله لغوايتهم وإضلالهم، فأخرج آدم من الجنة حين وسوس له، وجعله يأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها، وتوعَّد إبليس الإنسان وأعلنها صريحة: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ

١. ضلالات منكري السنة، د. طه حبيشي، مرجع سابق، ص٢٢٧.

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: بدء الخلق، باب: صفه إبليس وجنوده، (٦/ ٣٨٧)، رقم (٣٢٧٧). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الصيام، باب: فضل شهر رمضان، (٤/ ١٧٢١)، رقم (٢٤٥٦).

يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (ص). وقد أطلعنا الله ﷻ على الغاية من تلك العداوة، والهدف الأسمى منها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ (فاطر).

واستخدم الشيطان في سبيل تحقيق هذا الهدف كل طريق ووسيلة، وقد وردت هذه السبل في القرآن، ومنها الوسوسة ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ (الناس)، ومنها التزيين والزخرفة ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (الحجر: ٣٩)، ومنها الفتنة ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ (الأعراف: ٢٧)، ومنها أن ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ (النساء)، ومنها النزغ، "والنزغ دخول في أمر لإفساده"[1]، ومنها المس والتخبط، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، إلى غير ذلك من الأساليب والوسائل، وكل هذا بما أعطاه الله من قدرة، وما يستخدمه الشيطان من جنوده وحزبه وأوليائه.

إنها معركة حقيقية وصراع حتمي إلى يوم القيامة، ولم يُترك الإنسان في هذه المعركة أعزل، ولم يجعل الله تعالى للشيطان عليه سلطنًا مطلقًا، فهذا يشبه أن يكون جبرًا، إن لم يكن الجبر ذاته، وهذا لا يوافق العدل الإلهي.

وقد صوَّر ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) هذا الصراع بين الإنسان والشيطان تصويرًا رائعًا فقال: "واعلم أن القلب كالحصن، وعلى ذلك الحصن سور، وللسور أبواب، وفيه ثَلْم[2]، وساكنه العقل، والملائكة تتردد إلى ذلك الحصن، وإلى جانبه رَبَضٌ[3] فيه الهوى، والشياطين تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع، والحرب قائمة بين أهل الحصن وأهل الربض، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من ذلك الثلم، فينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذي قد وُكِل بحفظه وجميع الثلم، وألا يفتر عن الحراسة لحظة، فإن العدو ما يفتر... وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق الإيمان"[4].

ومن ثم فإن كيد الشيطان ضعيف، وسلطانه ليس له تأثير على عباد الله المخلصين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (الحجر)، وقال ﷻ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (ص).

وكل هذا من كمال الابتلاء والاختبار للإنسان؛ ولذا قال تعالى في شأن أصحاب مملكة سبأ الذين كفروا بربهم: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ

١. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان، ص٤٨٨.

٢. الثَّلْم: الشق والصدع.

٣. الرَّبض: ما حول القصر أو المدينة من مساكن ومحلات.

٤. تلبيس إبليس، ابن الجوزي، تحقيق: صلاح عويضة، دار المنار، القاهرة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص٣٥.

حَفِيظٌ (21)﴾ (سبأ) فهو اختبار من الله وابتلاء؛ فإن الطريق إلى الجنة طريق محفوف بالمكاره، وغير مذلَّل معبَّد إلا من تخطى هذه المكاره؛ فقد روى مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات"[1].

"فلا يوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المكاره، والنار إلا بالوقوع في الشهوات، وكذلك هما محجوبتان بهما، فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب، فهَتْكُ حجاب الجنة باقتحام المكاره، وهتك حجاب النار بارتكاب الشهوات"[2].

وبعد، فهذه العلاقة - على وضوحها - بصريح النصوص الشرعية والأدلة العقلية يتمارى فيها المغرضون، فينكرون أفعال الشيطان وأعماله مع الإنسان، وينكرون الأحاديث الواردة في هذا الشأن مع بلوغها الذروة في الصحة والثبوت.

وأول هذه الأحاديث - والذي يصور أول تعرُّض للإنسان للشيطان - ما رواه البخاري ومسلم - وغيرهما من أئمة الحديث - أن النبي ﷺ قال: "كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبه حين يولد غير عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب"[3].

وفي رواية سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد؛ فيستهل صارخًا من مس الشيطان غير مريم وابنها"[4].

وقد طعن القوم في هذا الحديث، وشككوا في صحته، أو أنه - على فرض صحته - من باب التمثيل؛ لأن الشيطان يوسوس ويغوي فقط.

وللرد على ذلك نقول: إن هذا الحديث صحيح؛ رواه البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث، وما دلَّ عليه هو استجابة لدعاء أم السيدة مريم؛ حيث قالت كما حكى الله عز وجل: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36)﴾ (آل عمران). وأي ضير في أن يصدع النبي ﷺ - الذي لا ينطق عن الهوى - بخصيصة من خصائص لأحد إخوانه من الأنبياء، ويدل هذا على أمانته في التبليغ.

وليس في إسناد هذه الخصوصية لعيسى عليه السلام نقص في إخوانه من الأنبياء، أو انتقاص من شأنهم.

وأما طبيعة هذا المس، فالأكثرون من العلماء على أن الحديث على ظاهره، وهو أن المس حقيقة، وأن الشيطان حاول ذلك مع مريم وابنها، فلم يمكن منه استجابة لدعاء أمها لها؛ إذ لا يلزم من وقوع المس وقوع الإغواء، وذلك بالنسبة إلى الأنبياء ومن على شاكلتهم من المخلصين الأصفياء، وعلى هذا فلا يكون الحديث - كما تُوُهِّم - مخالفًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر: 42)، وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ

---

1. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها، (9/ 3940)، رقم (6997).
2. شرح صحيح مسلم، النووي، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط2، 1422هـ/ 2001م، (9/ 3941).
3. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: بدء الخلق، باب: صفه إبليس وجنوده، (6/ 389)، رقم (3286). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام، (8/ 3490)، رقم (6019).
4. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التفسير، باب: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، (8/ 60)، رقم (4548).

﴿ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (ص). ولا يلزم أن تمتلئ الدنيا صراخًا كما توهم الزمخشري، (ت:٥٣٨هـ)؛ لأن الحديث إنما جعل ذلك عند الولادة فحسب، وأما بعدها فلا، ولو حكَّمنا المشاهدة والواقع فما من مولود إلا ويستهل صارخًا أو باكيًا، وإنكار ذلك مكابرة.

والإمام الزمخشري ليس حجة في الحديث، فلا يرجع إليه في معرفة الصحيح وغيره[1]، وقد رد عليه الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر اعتراضه وبيَّن أنه غير مسلَّم، فقال: "والذي يقتضيه لفظ الحديث لا إشكال في معناه، ولا مخالفة لما ثبت من عصمة الأنبياء، بل ظاهر الخبر أن إبليس مُمَكَّن من مس كل مولود عند ولادته، ولكن من كان من عباد الله المخلصين لم يضره ذلك المس أيضًا، واستُثْنِي من المخلصين مريم وابنها، فإنه ذهب يمس على عادته فحيل بينه وبين ذلك، فهذا وجه الاختصاص، ولا يلزم منه تسلطه على غيرهما من المخلصين"[2].

وقال القرطبي في تفسيره: "قال علماؤنا: ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال الممسوس وإغواؤه، فإن ذلك فاسد؛ فكم تعرض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء، ومع ذلك عصمهم الله مما يرومه الشيطان، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ (الحجر: ٤٢)، ثم قال القرطبي: هذا مع أن كل واحد من بني آدم قد وُكِلَ به قرينه من الشياطين، كما قال رسول الله ﷺ، فمريم وابنها وإن عُصِمَا من نخسه، فلم يُعْصَمَا من ملازمته لهما ومقارنته"[3].

ونحن إذ خرجنا من هذه الشبهة نجد المغرضين يطعنون في جملة أحاديث أخرى صحيحة ثابتة، وردت بشأن وسائل يستخدمها الشيطان لإغواء الإنسان، ومنها ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم - إذا هو نام - ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة مكانها: عليك ليل طويل، فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان"[4]. وطعنوا في الحديث الذي رواه البخاري أيضًا من حديث أبي وائل عن عبد الله رضي الله عنه قال: "ذُكِرَ عند النبي ﷺ رجل فقيل: ما زال نائمًا حتى أصبح، ما قام إلى الصلاة، فقال: بال الشيطان في أذنه"[5]. وقالوا: كيف يعقد وكيف يبول؟

وجوابنا أن هذا كله ليس محالًا ولا ممتنعًا، وهذا التسلط إنما هو اختبار، فإذا دفعه الإنسان بالذكر اندفع، وقد ذكر ابن حجر أن هذه العُقُد لمن نام عن الصلاة المكتوبة، فيكون التقدير: إذا لم يصل العشاء، فكأنه يرى أن الشيطان إنما يفعل ذلك بمن نام قبل صلاة العشاء

---

١. انظر: دفاع عن السنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٨٦، ٨٧.

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٨/ ٦٠).

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، (٤/ ٦٨).

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التهجد، باب: عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل، (٣/ ٣٠)، رقم (١١٤٢).

٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: صلاة التهجد، باب: إذا نام ولم يصل بال الشيطان في أذنه، (٣/ ٣٤)، رقم (١١٤٤).

بخلاف من صلاها، وكذلك يحفظ منه من ورد في حقه أنه يحفظ من الشيطان كالأنبياء، ومن تناوله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ ومن قرأ آية الكرسي ـ كما عرض حديث أبي هريرة من التحصُّن بها ـ فقد ثبت أنه يحفظ منه حتى يصبح، وكمن كان متوضئًا ناويًا الصلاة، وكذلك إذا نام المرء عن صلاته بال الشيطان في أذنه، فهذا لم يدفع كيد الشيطان عنه بالذكر والصلاة.

ولا مانع من كون العقد على الحقيقة، وكذلك بول الشيطان، قال القرطبي وغيره: لا مانع من ذلك إذ لا إحالة فيه؛ لأنه ثبت أن الشيطان يأكل ويشرب وينكح، فلا مانع من أن يبول[1].

وقد تقدم أن هذا العالم غيبي وجب التصديق بكل ما جاء عنه في الشرع والنقل، فنحن لا نعرف عنه إلا ما عرَّفنا الله ورسوله، وليس كل ما لا يقع تحت الحس ينكر.

ومما أنكره المغرضون الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب، فإذا عطس أحدكم وحمد الله كان حقًّا على كل مسلم سمعه أن يقول له: يرحمك الله. وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان"[2].

وفي رواية مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "التثاؤب من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع"[3].

وقد طعن المغرضون في هذا الحديث، وقالوا: إن العطاس والتثاؤب عمليات فسيولوجية، فما علاقة الشيطان بالتثاؤب؟

وللرد على ذلك نقول: لسنا في حاجة إلى إسهاب للتحقق من صحة الحديثين؛ فقد رواهما البخاري ومسلم، وهما من هما في التثبت من صحة الأحاديث.

وأما ما يتعلق بمعنى الحديث فإن الخطابي قال: "معنى المحبة والكراهة فيهما منصرف إلى سببهما، وذلك أن العطاس يكون من خفة البدن، وانفتاح المسام، وعدم الغاية في الشبع، وهو بخلاف التثاؤب، فإنه يكون من علة امتلاء البدن وثقله، مما يكون ناشئًا عن كثرة الأكل والتخليط فيه، والأول يستدعي النشاط للعبادة، والثاني عكسه"[4].

ولذا يحب الشيطان من الإنسان التثاؤب، "وذلك لأن التثاؤب علامة الكسل، والشيطان يعجبه ويفرحه من الإنسان كسله وفتوره؛ إذ بذلك يقل علمه وبذله الذي يرفعه عند ربه"[5].

"قال ابن بطال: إضافة التثاؤب إلى الشيطان بمعنى إضافة الرضا والإرادة؛ أي: أن الشيطان يحب أن يرى الإنسان متثائبًا؛ لأنها حالة تتغير فيها صورته فيضحك

١. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٣/ ٣٠: ٣٥).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأدب، باب: ما يستحب من العطاس وما يكره من التثاؤب، (١٠/ ٦٢٢)، رقم (٦٢٢٣).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الزهد والرقائق، باب: تشميت العاطس وكراهة التثاؤب، (٩/ ٤٠٨١، ٤٠٨٢)، رقم (٧٣٥٥).

٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٠/ ٦٢٢).

٥. عالم الجن والشياطين، د. عمر الأشقر، مرجع سابق، ص١٧٤.

منه، لا أن المراد أن الشيطان فعل التثاؤب. وقال ابن العربي: قد بيَّنا أن كل فعل مكروه نَسَبَه الشرع إلى الشيطان لأنه واسطته، وأن كل فعل حسن نسبه الشرع إلى المَلَك لأنه واسطته. قال: والتثاؤب من الامتلاء، وينشأ عنه التكاسل، وذلك بواسطة الشيطان، والعطاس من تقليل الغذاء وينشأ عنه النشاط، وذلك بواسطة المَلَك"[1].

وقال النووي: "أضيف التثاؤب إلى الشيطان لأنه يدعو إلى الشهوات إذ يكون عن ثقل البدن واسترخائه وامتلائه، والمراد التحذير من السبب الذي يتولد منه ذلك، وهو التوسع في المأكل وإكثار الأكل"[2].

وحبُّ الشيطان للتثاؤب، كحبِّه لصفة العجلة، كما في الحديث "التأني من الله، والعجلة من الشيطان"[3]. ذاك أن العجلة توقع الإنسان في كثير من الأخطاء، ففي التأني السلامة وفي العجلة الندامة.

وعَوْد على بدء نقول: إن الله ﷻ لم يعط الشيطان القدرة المطلقة التي لا تندفع على إضلال الإنسان وإغوائه: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (الإسراء)، إنما تسلطه على البعيدين عن الله وعن ذكر الله، الذين يرضون بفكره، ويتابعونه عن رضا وطواعية: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (النحل)، ولذا يقف الشيطان يوم القيامة يقول لأتباعه، كما أخبر الله عنه في كتابه الكريم: ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ (إبراهيم:٢٢).

وليس لأحد على الله حجة أو اعتراض؛ ذلك أن الله نبَّه الإنسان إلى مكائد الشيطان وحذره منه، وأوقفه على غاياته ووسائله، ودله على طرق التحصُّن منه.

وما أعطاه الله للشيطان من قدرة التسلط مدفوعة بالتحصن بذكر الله، ومن ثم فلا مطعن في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: "إذا كان جنح الليل ـ أو أمسيتم ـ فكفوا صبيانكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعة من الليل فخلوهم، وأغلقوا الأبواب، واذكروا اسم الله؛ فإن الشيطان لا يفتح بابًا مغلقًا، وأوكوا قربكم واذكروا اسم الله، وخمِّروا آنيتكم، واذكروا اسم الله، ولو أن تعرضوا عليها شيئًا، وأطفئوا مصابيحكم"[4].

وقد أثار المغرضون حول هذا الحديث أسئلة فحواها: كيف لا تخترق الشياطين الأبواب المغلقة وغيرها، وهي أجسام لطيفة رقيقة أعطاها الله القدرة على اجتياز كل ساتر؟ وكيف تُحجب عن إغواء بني آدم

١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٠/ ٦٢٧).
٢. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٤٠٨٣).
٣. حسن: أخرجه أبو يعلى في مسنده، مسند أنس بن مالك ﷺ، من حديث سعد بن سنان عن أنس بن مالك، (٧/ ٢٤٧)، رقم (٤٢٥٦). وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٧٩٥).
٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده، (٦/ ٣٨٧)، رقم (٣٢٨٠). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الأشربة، باب: الأمر بتغطية الإناء، (٧/ ٣١١٠)، رقم (٥١٤٨).

وقد سلَّطت عليهم؟ ثم إذا كان لهم النجاة منه فكيف يتفق ذلك مع عصيانهم لله، واقترافهم الآثام والأبواب مغلقة؟ فما الذي دفعهم إلى العصيان والشيطان بعيد عنهم؟ وإن لم يكن ذلك فكيف دخل إليهم وأغواهم؟

ويرد على هذه الأسئلة بما قررناه بإسهاب فيما تقدم - من أن تسلط الشيطان بإضلال الإنسان وإغوائه متعلق ومرتبط بغفلة الإنسان عن ذكر الله ارتباط النتيجة بالمقدمات، فمن غفل عن ذكر الله وطاعته خرج من زمرة عباد الله المخلصين الممتَنَعين عن إغواء الشيطان وإضلاله؛ ولذا "أمر ﷺ بهذه الآداب التي هي سبب للسلامة من إيذاء الشيطان، وجعل الله ﷻ هذه الأسباب أسبابًا للسلامة من إيذائه، فلا يقدر على كشف إناء، ولا حل سقاء، ولا فتح باب، ولا إيذاء صبي وغيره إذا وجدت هذه الأسباب؛ وهذا كما جاء في الحديث الصحيح: "إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله، وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء"[١]؛ أي: لا سلطان لنا على المبيت عند هؤلاء، وكذلك إذا قال الرجل عند جماع أهله: "اللهم جنِّبنا الشيطان، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا"[٢] كان سبب سلامة المولود من ضرر الشيطان، وكذلك أشباه هذا مما هو مشهور في الأحاديث الصحيحة. وفي هذا الحديث: الحث على ذكر الله ﷻ في هذه المواضع، ويلحق بها ما في معناها، قال أصحابنا: يستحب أن يذكر اسم الله ﷻ على كل أمر ذي بال"[٣].

وعلى هذا فإن الشيطان لا يستطيع أن يفتح بابًا مغلقًا ذكر عنده اسم الله ﷻ ولا حل سقاء ذكر اسم الله عليه؛ ولذا أُمر بكف الصبي مخافة أن يصيبه الشيطان؛ لكونهم غير محترزين بالذكر غالبًا.

قال ابن الجوزي: "إنما خيف على الصبيان في تلك الساعة، لأن النجاسة التي تلوذ بها الشياطين موجودة معهم غالبًا، والذكر الذي يحرز منهم مفقود من الصبيان غالبًا، والشياطين عند انتشارهم يتعلقون بما يمكنهم التعلق به؛ فلذلك خيف على الصبيان في ذلك الوقت، والحكمة في انتشارهم حينئذ أن حركتهم في الليل أمكن منها لهم في النهار؛ لأن الظلام أجمع للقوى الشيطانية، وكذلك كل سواد"[٤].

إذن أعطى الله ﷻ للشيطان القدرة على اختراق كل مانع واجتياز كل ساتر، ما لم يُذكر اسم الله، فإذا ذُكِرَ اسم الله فلا سبيل له ولا سلطان له، فالله ﷻ "وإن كان قد أعطاهم القدرة على اختراق الحواجز، والقدرة على مس بني آدم والتأثير فيهم، إلا أنه في الوقت نفسه قد أعطى بني آدم من قوة السلطان ما يحول بينهم وبين تأثيرات الجن وأرشدهم إلى ذلك؛ إذ المرء يكفيه أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويكفيه أن يقرأ آية الكرسي، ويكفيه أن يقرأ خواتيم سورة البقرة، ويكفيه أن يقرأ سورة الإخلاص وسورتي المعوذتين عند نومه، ويكفيه أن يغلق عليه بابه مسمِّيًا الله ﷻ، إلى غير ذلك

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الأشربة، باب: آداب الطعام والشراب وأحكامهما، (٧/ ٣١١٥)، رقم (٥١٦٤).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا أتى أهله، (١١/ ١٩٥)، رقم (٦٣٨٨). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: النكاح، باب: ما يستحب أن يقوله عند الجماع، (٥/ ٢٢٣٠)، رقم (٣٤٧٠).

٣. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٧/ ٣١١٣).

٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٦/ ٣٩٣).

مما ورد في السنة النبوية"[١].

وأما سؤالهم عن أن الناس يعصون ربهم والأبواب مغلقة، فقد بيّنا من قبل أن الشيطان ليس العدو الوحيد للإنسان؛ إذ إن له نفسًا أمارة بالسوء تدفعه إلى ارتكاب المعصية، واقتراف الموبقات إن لم يجاهدها بالمخالفة، وليس بينه وبين نفسه حجاب أو ستر، فهي بداخله لا تفارقه، هذا فضلًا عن الدنيا والهوى.

وإن كان لنا من كلمة أخيرة في هذا الصدد، فإننا نؤكد استمرارية هذه المعركة الحقيقية بين الحق والباطل، المعركة بين الهدى والضلال، بين الشيطان وأوليائه وبين المؤمنين أولياء الرحمن.

معركة تمتد جذورها ويعود تاريخها إلى لحظة خلق آدم وأمر الله ﷻ الملائكة بالسجود له، وعناد إبليس ومكابرته ورفضه لأمر الله؛ وهي معركة ممتدة إلى قيام الساعة: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ (الأعراف) وحصل بذلك الشيطان اللعين على وعد مقضيٍّ بالبقاء الطويل، وهنا أعلن في تبجُّح خبيث: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الأعراف).

إنها عداوة حقيقية، هدفها الحيلولة بين بني آدم وبين الإيمان والطاعة، ومحاولة إغوائه وإضلاله محاولات دائبة مستمرة، فيها الحِلُّ لاستخدام جميع الأسلحة، وهنا كرّس الشيطان جميع ما يملك، وخطّط لتلك المعركة مع بني البشر، فراح يضع قواعده ويرسل بعوثه وسراياه في كل اتجاه، ويعقد المجالس يستحث فيها جنوده على مزيد من الإغواء والإضلال والتزيين للإنسان وإيقاعه في المهلكات والفواحش، وقد روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا. قال: ثم يجيء أحدهم فيقول:ما تركته حتى فرَّقت بينه وبين امرأته. قال: فيدنو منه، ويقول: نِعم أنت"[٢]. وفي رواية ابن حبان من حديث أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: "إذا أصبح إبليس بثَّ جنوده في الأرض، فيقول: من أضل مسلمًا ألبسته التاج، فيقول له القائل: لم أزل بفلان حتى طلق امرأته، فيقول: يوشك أن يتزوج. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى عق والديه،فيقول: يوشك أن يبرهما، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى أشرك، فيقول: أنت أنت، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى قتل، فيقول: أنت أنت ويلبسه التاج"[٣].

فهلّا استيقظ الإنسان لهذا العدو الكامن المتربص المترصد®!!

---

١. ضلالات منكري السنة، د. طه حبيشي، مرجع سابق، ص٣٥٧.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينًا، (٩/ ٣٩٣٢)، رقم (٦٩٧٣).

٣. صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق، (١٤/ ٦٨). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٢٨٠).

® في **"نفي إمكانية زواج الإنس من الجن"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء.

سادسًا. الأحاديث التي نهت عن قتل الحيَّات أحاديث صحيحة ثابتة عن النبي ﷺ:

إن الأحاديث التي نهت عن قتل الحيات التي في البيوت إلا بعد ثلاثة أيام أحاديث صحيحة وردت في صحيح مسلم وغيره من كتب السنن، وهذا ما رواه مسلم في صحيحه ـ ونحن نعلم أن كل ما في صحيح مسلم صحيح مثل صحيح البخاري باتفاق الأمة ـ فقد روى من حديث أبي السائب مولى هشام بن زهرة؛ أنه دخل على أبي سعيد الخدري في بيته، قال: فوجدته يصلي، فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته، فسمعت تحريكًا في عَرَاجِين[1] في ناحية البيت، فالتفَتُّ فإذا حيَّة، فوثبت لأقتلها، فأشار إليَّ: أنِ اجلس، فجلست، فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار، فقال: أترى هذا البيت؟ فقلت: نعم، قال: كان فيه فتى مِنَّا حديث عهدٍ بعُرسٍ. قال فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله، فاستأذنه يومًا، فقال له رسول الله ﷺ: "خذ عليك سلاحك، فإني أخشى عليك قُريظة، فأخذ الرجل سلاحه، ثم رجع فإذا امرأته بين البابين قائمة، فأهوى إليها الرمح ليطعنها به، وأصابته غَيْرَةٌ، فقالت له: اكفف عليك رمحك، وادخل البيت حتى تَنْظُر ما الذي أخرجني، فدخل فإذا بحيَّة عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به، ثم خرج فَرَكَزَهُ في الدار، فاضطربت عليه، فما يُدْرَى أيهما كان أسرع موتًا، الحية أم الفتى؟ قال: فجئنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، وقلنا: ادع الله يحييه لنا، فقال:

[1]. العراجين: جمع عرجون، وهو ما يحمل التمر، وهو من النخل كعنقود العنب.

"استغفروا لصاحبكم"، ثم قال: "إن بالمدينة جنًّا قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئًا فَآذِنُوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه؛ فإنما هو شيطان"[2].

وروي عن أبي سعيد الخدري أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: "إن بالمدينة نفرًا من الجن قد أسلموا، فمن رأى شيئًا من هذه العوامر فليؤذنه ثلاثًا، فإن بدا له بعد فليقتله فإنه شيطان"[3].

ورواه الإمام مالك عن صيفي مولى بن أفلح عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة قال: دخلت على أبي سعيد الخدري... فذكره[4].

ورواه ابن حبان قال: أخبرنا عمر بن سعيد بن سنان قال: أخبرنا أحمد بن أبي بكر عن مالك عن صيفي مولى ابن أفلح عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة أنه قال: دخلت على أبي سعيد الخدري... فذكره[5].

ورواه أبو داود في سننه عن أبي السائب أيضًا[6].

فالحديث بهذه الروايات المتعددة صحيح لا يشك أحد في ذلك، فقد ورد في صحيح مسلم ـ الذي هو

[2]. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: السلام، باب: قتل الحيات وغيرها، (٨/ ٣٣٦٨)، رقم (٥٧٣١).

[3]. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: السلام، باب: قتل الحيات وغيرها، (٨/ ٣٣٦٨)، رقم (٥٧٣٣).

[4]. أخرجه مالك في موطئه، كتاب: الاستئذان، باب: ما جاء في قتل الحيات وما يقال في ذلك، (٢/ ٩٧٦)، رقم (١٧٦١).

[5]. صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: الحظر والإباحة، باب: قتل الحيوان، (١٢/ ٤٥٣)، رقم (٥٦٣٧). وقال الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[6]. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: الأدب، باب: في قتل الحيات، (١٤/ ١١٢)، رقم (٥٢٤٦). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٥٢٥٩).

أصح كتب السنة بعد صحيح البخاري ـ ورواه الإمام مالك في موطئه، ورواه ابن حبان في صحيحه، وأبو داود في سننه، وصححه من العلماء ـ حديثًا ـ الألباني، وشعيب الأرنؤوط، وهما من هما في الحديث ونقده، وهذا يوجب على كل مسلم أن يُصدق بصحة الحديث أولًا، ثم ينظر في حكمة النبي ﷺ من هذا النهي.

قال العلماء: إن النهي عن قتل الحيات إنما قُصد به النهي عن حيات المدينة دون غيرها، والسبب في ذلك أن طائفة من الجن كانت قد أسلمت بالمدينة، وكانت تتمثل في صورة الحيات، فنُهي عن قتلها حتى تُستأذن ثلاثًا، فإن لم تنصرف عن البيت فهي شيطان، فتقتل.

"قال المازري: لا تقتل حيات مدينة النبي ﷺ إلا بإنذارها كما جاء في هذه الأحاديث، فإذا أنذرها ولم تنصرف قتلها، وأما حيات غير المدينة في جميع الأرض والبيوت والدور، فيندب قتلها من غير إنذار؛ لعموم الأحاديث الصحيحة في الأمر بقتلها، ففي هذه الأحاديث: "اقتلوا الحيات"[1]، وفي الحديث الآخر: "خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم، منها: الحية"[2] ولم يذكر إنذارًا، وفي حديث: الحية الخارجة بمنى:[3] أنه ﷺ أمر بقتلها، ولم يذكر إنذارًا، ولا نقل أنهم أنذروها.

قالوا: فأخذ بهذه الأحاديث في استحباب قتل الحيات مطلقًا، وخُصَّت المدينة بالإنذار؛ للحديث الوارد فيها، وسببه صرح به في الحديث: أنه أسلم طائفة من الجن بها"[4].

كما روى ابن أبي مليكة عن عائشة بنت طلحة: "أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها رأت يومًا في مغتسلها حية فقتلتها، فأتيت في منامها، فقيل لها: إنك قتلت مسلمًا، فقالت: لو كان مسلمًا ما دخل على أمهات المؤمنين، فقيل: ما دخل عليك إلا وعليك ثيابك، فأصبحت ففرقت في المساكين اثني عشر ألفًا"[5].

"وقال ابن نافع: لا ينذر عوامر البيوت إلا بالمدينة خاصة، على ظاهر الحديث"[6] قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ (الجن: ١٤)، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ (الجن)، وأخرج ابن حبان من حديث أبي ثعلبة الخشني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الجن على ثلاثة أصناف: صنف كلاب وحيات، وصنف يطيرون في الهواء، وصنف يحلون ويظعنون"[7][8].

"وفي مرقاة الصعود: قيل إنه ـ أي: النهي عن قتل الحيات ـ عام في جميع البيوت، وعن مالك تخصيصه ببيوت المدينة وهو المختار، وقيل تختص ببيوت المدن

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: السلام، باب: قتل الحيات وغيرها، (٨/ ٣٣٦٨)، رقم (٥٣١٧).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الحج، باب: ما يندب للمحرم وغيره، (٥/ ١٨٧٧، ١٨٧٨)، رقم (٢٨١٦).

٣. صحيح: أخرجه النسائي في سننه، كتاب: مناسك الحج، باب: قتل الحية في الحرم، (٢/ ٤٦٩)، رقم (٢٨٩٦). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٢٨٨٣).

٤. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٨/ ٣٣٦٩).

٥. أخرجه الحارث في مسنده، كتاب: الصيد والذبائح وما أمر بقتله، باب: في جنان البيوت، (٢/ ١٦٧)، رقم (٤١٣).

٦. شرح صحيح البخاري، ابن بطال، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، د. ت، (٤/ ٤٩٤).

٧. يظعن: يغادر من مكان إلى مكان.

٨. عون المعبود شرح سنن أبي داود مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية، شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، (١٤/ ١١١).

دون غيرها، وعلى كل حال فتقتل في البراري والصحاري من غير إنذار، وروى الترمذي أنها الحية التي تكون دقيقة كأنها فضة ولا تلتوي في مشيتها"[1].

وفي رواية عند مسلم من حديث أبي سعيد مرفوعًا: "إن لهذه البيوت عوامر... وذكر الحديث"، وقد أعطاهم الله ﷻ قدرة على التشكل بأشكال مختلفة، منها التشكل في صورة إنسان، كما في صحيح البخاري عندما جاء الشيطان لأبي هريرة في صورة رجل فقير أخذ يحثو من طعام الصدقة، ومنها التشكل في صورة حيوان كالكلب الأسود، كما ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: "الكلب الأسود شيطان"[2]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الكلب الأسود؛ لأن السواد أجمع للقوى الشيطانية من غيره، وفيه قوة الحرارة[3].

وبهذا يتضح المراد من نهي النبي ﷺ عن قتل عوامر البيوت آنذاك، وهو إسلام الجن في هذه الآونة؛ حتى لا يتشكل الجن المسلم في صورة حية، فيقتله إنسيٌّ مسلم.

"واختلف العلماء في الإنذار: هل هو ثلاثة أيام أو ثلاث مرات، والأول عليه الجمهور، وكيفية ذلك أن يقول: أنشدكن بالعهد الذي أخذه عليكن نوح وسليمان - عليهما السلام - أن لا تبدون ولا تؤذونا"[4].

والتحريج عليهم أن يقول له: أحرج عليك بالله واليوم الآخر ألا تبدو لنا ولا تؤذينا، أو يقول لها: أنت في حرج إن عدت إلينا فلا تلومينا أن نضيق عليك بالطرد والتتبع، ومنهم من قال: هذا لا يكون إذا علمنا بالأمارات والقرائن أن الجن موجود، فهذا يحرج عليه إلا الأبتر، وهو مقطوع الذنب، وإلا ذو الطُّفَيْتَيْن، وهي أفعى يكون على ظهرها خطان أسودان، فهذان الصنفان يسقطان الحمل، ويذهبان البصر؛ لشدة السم الذي فيهما، فيقتلان على أي حال[5].

ونخلص من هذا كله أن الحيات المنهي عن قتلها هي الحيات التي هي في بيوت المدينة؛ لأنها جنٌّ مسلم تمثل في صورة حية؛ لذلك تستأذن ثلاثة أيام، فإن ظلت في البيت بعد الثلاث تقتل، فإنها شيطان وليست جنيًّا مسلمًا، وبهذا فلا إشكال في الحديث؛ لظهور علة النهي واضحة.

الخلاصة:

- من أصول الإيمان في الشريعة الإسلامية الإيمان بالغيب، وهذا الإيمان ينبني على تصديق ويقين جازم بكل ما جاء به القرآن والسنة الصحيحة عن كل ما هو غيب.
- إن الوحي هو السبيل الوحيد لتعرف الإنسان على كل ما غاب عن حواسه؛ لأن العقل لا يمتلك من أدوات التعرف على الغيب إلا التصور والتخيل، وهو لا يفيد في مجال الاعتقاد شيئًا، هذا بخلاف عالم الشهادة

١. صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق، (١٤/ ٢٦)، رقم (٦١٥٦). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الصلاة، باب: قدر ما يستر المصلي، (٣/ ١٠٧٦)، رقم (١١٧).

٣. تشكيل الجان بصورة الإنس، فتاوى الشبكة الإسلامية، (٩/ ١٦٧٦).

٤. عون المعبود شرح سنن أبي داود، شمس الحق العظيم آبادي، مرجع سابق، (١٤/ ١١٠).

٥. كيف يحرج على الجن الذي يظهر على شكل أفعى في البيوت؟ مشهور حسن سليمان، مقال بموقع شبكة المنهاج الإسلامية، بتاريخ ٢١/ ٥/ ٢٠٠٧م.

الذي يمتلك العقل أدوات التعرف عليه من خلال الحواس التي هي جواسيس العقل في عالم الشهادة، وروافد المعرفة العقلية به.

- لما كان عالم الجن والشياطين من هذا الغيب، وجب الإيمان به والتصديق بكل ما جاء عنه في النقل الصحيح، ووجب إثبات وجودهم والإيمان بذلك، وقد أجمعت جماهير طوائف المسلمين، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى على إثباتهم، إلا ما شذ منهم، كما حكى ذلك ابن تيمية.

- إن مُنْكِر الجن والشياطين مُكَذِّبٌ بالرسل والأنبياء، وبما جاءوا به؛ إذ ثبت وجودهم بصريح النصوص، وثبت أن رسول الله ﷺ كان يدين بوجودهم.

- لـمَّا كان طريق معرفتنا بهذا العالم الغيبي الوحي فقط، فنحن لا نعرف من خلقتهم وصورهم وحواسهم إلا ما عرَّفنا الله ورسوله عنهم، وقد ثبت بالوحي من قرآن وسنة صحيحة أنهم يأكلون ويشربون ويتناكحون ـ كان الزعم بروحانية عالم الجن كالملائكة زعم باطل بالأدلة.

- لقد وردت أحاديث صحيحة ثابتة عن رسول الله ﷺ عن عالم الجن والشياطين وقوانينهم وخلقتهم، في صحيحي البخاري ومسلم، وهي من الأخبار التي نقلها رجال تحيل العادة تواطؤهم على الكذب؛ فالطعن في هذه الأحاديث وما جاء فيها محض افتراء، وإيغال في السفه والضلال.

- إن المقصود من أن الإبل خلقت من الشياطين، أنها خلقت من جنس ما خُلقت منه الشياطين، وليس من نسلها، وإلا لقال النبي ﷺ: فإنها خلقت من نسلها أو من أصلابها. فالمقصود أن طبيعتها الشيطنة كما قال الله تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (الأنبياء: ٣٧)؛ أي: طبيعته هكذا، ولذا نرى أن من صفات الإبل النفور والهياج، وأكل لحومها ـ كما أثبت الطب الحديث ـ يهيِّج الأعصاب؛ لذلك أمر النبي ﷺ بالوضوء من أكل لحومها.

- لقد أعطى المولى ﷻ الجن القدرة على التشكُّل والتصوُّر في الصور المختلفة، فيتشكلون في صور الحيوانات والحيات وصور بني آدم، وهذا على مقتضى القدرة الإلهية وعموم الإرادة الحاكمة؛ ولذا فهم لا يتمثلون في صور النبي ﷺ.

- إنما يُنكِر تشكل الجن والشياطين في الصور من لم يحط علمًا بعجائب المقدورات، وعجائب المقدورات أظهر وأبين من أن يُمثَّل لها، ومن ثم فلا مانع من أن يكون للشيطان قرنان تطلع الشمس بينهما، وهو مع ذلك يصل إلى القلوب، ويجري من ابن آدم مجرى الدم، فلا تعارض ولا تناقض، ولا غرو أن يظهر لأبي هريرة رضي الله عنه في صورة إنسان يريد السرقة من صدقة الفطر.

- إن الشيطان والإنسان في صراع حقيقي، فالشيطان عدو لدود لبني آدم، منذ أن طُرد إبليس ـ أول الشياطين ـ من الجنة لامتناعه عن السجود لآدم كما أمره الله، وهو صراع ممتد في الزمان إلى قيام الساعة، قال ﷻ: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾ (ص)، وممتد في أبعاد الوسائل ليشمل كل ما يستطيعه الشيطان من وسائل الإضلال لبني آدم وإغوائهم: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ

﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ (الأعراف: ١٧).

- يبدأ الشيطان إغواءه للإنسان بمجرد ولادته، فكل مولود له نصيب من مس الشيطان عند ولادته، فيستهل صارخًا إلا مريم وابنها عيسى عليه السلام، كما ورد في الحديث الصحيح، وهذا الاستثناء استجابة لدعاء امرأة عمران بأن يعيذ الله مريم وذريتها من الشيطان الرجيم. ولا إشكال في معنى الحديث، ولا مخالفة فيه لما ثبت عن عصمة الأنبياء جميعًا؛ لأن ظاهر الحديث أن إبليس مُمَكَّن من مسِّ كل مولود عند ولادته، ولكن من كان من عباد الله تعالى المخلصين لم يضره ذلك المس شيئًا.

- لقد أخبرت السنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ عن بعض وسائل الشيطان في إغوائه الإنسان عن الطاعة، مثل عقده على قافية النائم حتى لا يقوم للصلاة، وبوله في أذن النائم إذا لم يُصلِّ، ولا مانع من كون هذا كله على الحقيقة، وقد ثبت أن الجن يأكلون ويشربون، فلا مانع من أن يبولوا، وهذا التسلط إنما هو على من لم يكن من عباد الله المخلصين.

- ليس نسبة التثاؤب إلى الشيطان في قول رسول الله ﷺ: "التثاؤب إنما هو من الشيطان" نسبة الفعل إلى فاعله الحقيقي، إنما هي نسبة الباعث عليه، فهو يدعو إلى الشهوات التي ينتج عنها الكسل، وثقل البدن واسترخاؤه، فالتثاؤب علامة الكسل؛ لذا يعجب الشيطان ويفرحه فتور الإنسان؛ إذ بذلك يقل عمله وبذله الذي يرفعه عند ربه. كما يحب منه العجلة "العجلة من الشيطان نفسه"؛ لأنها توقع الإنسان في الأخطاء، ولا ينكر أحد أن التثاؤب عملية فسيولوجية.

- حينما أجاب الله عز وجل إبليس إلى مطلبه من الإنظار إلى يوم القيامة، وأعطاه فرصة الإغواء لبني آدم بما منحه من قدرات وامتيازات؛ لم يترك الله الإنسان هملًا، بل حذره منه، وأوقفه على عدوه الحقيقي، وأرشده إلى طرق التحصن منه، وأطلع بني آدم على كيفية التخلص من إغواء الشيطان ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ (الحجر: ٤٢)، ومنحه فرصة الاختيار تحقيقًا للابتلاء والاختبار، والشيطان ممتنع عمن تحصن بذكر الله، والاستعاذة منه بالله إلى غير ذلك مما ورد في السنة، وعلى هذا، فإن الله أعطى القدرة للشيطان على اختراق كل مانع، واجتياز كل ساتر ما لم يذكر اسم الله عليه، أما ما ذكر اسم الله عليه فليس للشيطان سبيل إليه، فلا يستطيع فتح باب مغلق، ولا حل سقاء، ولا كشف إناء إذا ذكر اسم الله، أما من لم يتحصن بالذكر فللشيطان سبيل إليه؛ ولذا أمر النبي ﷺ بكف الصبيان عند الليل، عند انتشار الشياطين، فالليل أمكن لحركتهم من النهار ـ لأن الصبيان مفقود منهم الذكر الذي يحرز من الشيطان.

- أما قول القائل: كيف يعصي الناس، ويرتكبون الفواحش والأبواب مغلقة، وقد اندفع الشيطان عنهم؟ نقول: الشيطان عدو من أعداء الإنسان، وليس كل أعدائه، فهناك النفس التي بين جنباته، والدنيا، والهوى، وهي لا ترتدع إلا بمخالفتها وإدانتها، بخلاف كيد الشيطان الضعيف الذي يندفع بالاستعاذة والذكر.

- لقد صحت الأحاديث النبوية في النهي عن قتل حيات المدينة إلا بإنذارها، فإن لم تنصرف بعد ثلاثة أيام

تقتل، وأما حيات غير المدينة في جميع الأرض والبيوت والدور فيندب قتلها من غير إنذار؛ والسبب في ذلك أنه أسلم طائفة من الجن في المدينة المنورة في عهد رسول الله ﷺ، فغالبًا ما تكون هذه الحيات جنًّا مسلمًا، فإن لم تترك البيت في خلال ثلاثة أيام تقتل، فإنها شيطان.

الشبهة الثانية

توهم صحة حديث "أحد أبوي بلقيس كان جنيًّا"(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض الواهمين صحة حديث "أحد أبوي بلقيس كان جنيًّا". ويستدلون بذلك على إباحة زواج الإنس بالجن؟!

رامين من وراء ذلك إلى إدخال أحاديث باطلة في السنة المطهرة.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن حديث "أحد أبوي بلقيس كان جنيًّا" حديث منكر، وعلته سعيد بن بشير، وهو ضعيف منكر الحديث، فكيف نعتمد عليه؟!

٢) لقد جعل الله ﷻ أزواج بني آدم من أنفسهم من عالم الإنس، وليس من عالم الجن؛ تحقيقًا لقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء:١).

(*) دفاع عن السنة المطهرة، علي إبراهيم حشيش، دار العقيدة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

التفصيل:

أولا. إن حديث أحد أبوي بلقيس كان جنيًّا حديث منكر، وعلته سعيد بن بشير:

إن حديث "أحد أبوي بلقيس كان جنيًّا" حديث منكر، رواه ابن عدي في الكامل عن سعيد بن بشير عن قتادة عن النضر بن أنس بن نهيك عن أبي هريرة مرفوعًا[1]، وعلته: سعيد بن بشير.

ذكر الحافظ ابن حجر في "تهذيب التهذيب": أن سعيدًا هذا روى عن قتادة وغيره، وعنه الوليد بن مسلم وغيره.

وقال فيه محمد بن عبد الله بن نمير: منكر الحديث، ليس بشيء، ليس بقوي، يروي عن قتادة المنكرات.

وقال الساجي: حدَّث عن قتادة بمناكير. وقال الآجري عن أبي داود: ضعيف. وقال الميموني: رأيت أبا عبد الله يضعف أمره. وقال الدوري وغيره عن ابن معين: ليس بشيء. وقال ابن المديني: كان ضعيفًا[2].

وأجمع فيه الرأي على ضعفه ابن حجر في التقريب، فقال: سعيد بن بشير الأزدي مولاهم، أصله من البصرة أو واسط: ضعيف[3].

وقال النسائي في "الضعفاء والمتروكين": سعيد بن

١. أخرجه ابن عدي في الكامل، (٣/ ٣٧٢). كما أخرجه بهذا الإسناد الإمام الطبري في جامع البيان، عند تفسير قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾، (١٩/ ٤٧٢).

٢. تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، (٤/ ٨، ٩) بتصرف.

٣. تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: أبي الأشبال صغير أحمد شاغف الباكستاني، دار العاصمة، السعودية، ط١، ١٤١٦هـ، ص٣٧٤ بتصرف.

بشير، يروي عن قتادة: ضعيف[1].

وقال الإمام البخاري في كتابه "الضعفاء الصغير": سعيد بن بشير عن قتادة، روى عنه الوليد بن مسلم: يتكلمون في حفظه[2].

وأورده الذهبي في "الميزان"، ثم أورد ما قاله فيه ابن نمير، وكذا يعقوب بن سفيان أنه: منكر الحديث، ثم قال: وذكره أبو زرعة في الضعفاء، وقال: لا يحتج به. ثم ساق هذا الحديث مما أنكر عليه[3].

ولقد ذكره الإمام ابن حبان في "المجروحين": وقال: سعيد بن بشير من أهل دمشق، وكنيته أبو عبد الرحمن، يروي عن قتادة وعمرو بن دينار، وروى عنه الوليد بن مسلم والشاميون، مات سنة تسع وستين ومائة، وله يَوْمَ مات تسع وثمانون سنة كان رديء الحفظ، فاحش الخطأ، يروي عن قتادة ما لا يتابع عليه[4].

ومما يؤكد ضعف هذا الحديث أن له علة أخرى متمثلة في: الوليد بن مسلم الدمشقي: ذكره ابن حجر في "طبقات المدلسين" في المرتبة الرابعة، وعدتهم اثنا عشر نفسًا، كان الوليد بن مسلم رقم (١١) في هذه المرتبة، تلك المرتبة التي قال عنها في المقدمة الرابعة: "من اتفق على أنه لا يحتج بشيء من حديثهم إلا بما صرحوا فيه بالسماع؛ لكثرة تدليسهم على الضعفاء والمجاهيل"، ثم قال عن الوليد بن مسلم: إنه موصوف بالتدليس الشديد[5].

والرواية هنا مردودة؛ إذ لم يصرح فيها بالسماع كما ذكر الطبري في "جامع البيان"، فقد عنعن في إسناده، فلا تقوم الحجة به.

وبعد هذا التحقيق نعلم أن الحديث منكر، ولا يصح الاستدلال به، ولا بناء أحكام عليه[6].

ثانيًا. لقد جعل الله ﷻ أزواج بني آدم من أنفسهم من عالم الإنس، وليس من عالم الجن؛ تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: ١)**:**

لقد جعل الله ﷻ الزواج آية من آيات قدرته، حيث قال ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ (الروم: ٢١).

"ومن هنا نرى أن القرآن الكريم قيَّد الزوجية في بني آدم، وجعلها من أنفسهم، ولا يوجد استثناء واحد، أو حالة تدل على أن الإنس يتزوج من عالم الجن في الكتاب أو السنة، والحديث القائل بأن أحد أبوي بلقيس كان جنيًّا بالتحقيق كما بينا - حديث غير صحيح (منكر)[7].

"فإن قال قائل: وهل يجامع النساءَ الجنُّ؟ فيقال: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ (الرحمن).

١. كتاب الضعفاء والمتروكين، النسائي، نقلًا عن: دفاع عن السنة المطهرة، علي حشيش، مرجع سابق، ص١٤٥.

٢. الضعفاء الصغير، البخاري، نقلًا عن: دفاع عن السنة المطهرة، علي حشيش، مرجع سابق، ص١٤٥.

٣. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، د. ت، (٢/ ١٢٨، ١٢٩) بتصرف.

٤. كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، ابن حبان، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، سوريا، ط٢، ١٤٠٢هـ (١/ ٣١٥) بتصرف.

٥. طبقات المدلسين، ابن حجر، مكتبة المنار، الأردن، ط١، (١/ ٥١) بتصرف.

٦. دفاع عن السنة المطهرة، علي حشيش، مرجع سابق، ص١٤٦.

٧. المرجع سابق، ص١٤٦.

فإن مجاهدًا رُوي عنه ما حدَّثني به محمد بن عمارة الأسدي، قال: حدثنا سهل بن عامر، قال: حدثنا يحيى بن يعلى الأسلمي عن عثمان بن الأسود، عن مجاهد قال: إذا جامع الرجل ولم يسمِّ، انطوى الجانّ على إحليله فجامع معه، فذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾﴾، وكان بعض أهل العلم ينتزع - أي يستدل - بهذه الآية في أن الجن يدخلون الجنة.

ذكر من قال ذلك:

حدثني أبو حُميد أحمد بن المغيرة الحمصي قال: حدثني أبو حَيْوة شريح بن يزيد الحضرمي قال: حدثني أرطأة بن المنذر قال: سألت ضَمْرة بن حبيب: هل للجنّ من ثواب؟ قال: نعم، ثم نزع بهذه الآية ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾، فالإنسيات للإنس، والجنيات للجنّ"[1].

وعليه، فلو وقع النكاح بين الجن والإنس، فلا يمكن أن يحدث التآلف والانسجام بين الزوجين لاختلاف الجنس، فتصبح الحكمة من الزواج لاغية؛ إذ لا يتحقق السكن والمودة المشار إليهما في الآية الكريمة[2].

ومن المعلوم "أن الله سبحانه خلق الزوجية لكل شيء، فعلى سبيل المثال: للبقر زوجية، وللماعز زوجية، وللإبل زوجية، وفي النبات كذلك، وفي الإنسان؛ تحقيقًا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (الذاريات).

تلك الزوجية التي أظهرها الله ﷻ لأعين العلماء من تحت عدسات المجاهر التي تكبر الأشياء مئات وآلاف المرات حتى رأوا أن كل كائن حي يعمل في نوايا خلاياه أمشاجًا يسمونها "كروموسومات" وما هي إلا خرائط دقيقة غاية الدقة. وتحمل هذه الخرائط أو الأمشاج أو السجلات الوراثية مواقع محددة تبدو كأنها خيوط تحمل حبات كحبات العقود المتراصَّة، وأن هذه "الحبات" التي يسمونها "الجينات" قد جاءت بدورها أزواجًا.

وجعل الله تعالى لكل شيء خريطة خاصة به تحدد صفاته، فالإنسان يحدد صفاته (٢٣) زوجًا من الأمشاج، بينما القرد (٢١) زوجًا، والبقرة (٣٠) زوجًا، وفوق ذلك الاختلاف في أعداد الأمشاج، اختلاف الأبعاد الجينية من نوع لآخر على هذه الأمشاج"[3].

وهذا برهان على أن كل شيء خلق منفصلًا بزوجية تخصه بعيدًا عن الآخر®.

الخلاصة:

- إن الحديث الذي بُنِيَت عليه الشبهة "أحد أبوي بلقيس كان جنيًّا" حديث منكر، وعلته: سعيد بن بشير، الذي أجمع علماء الحديث على تضعيفه؛ فلقد ذكره النسائي في "الضعفاء والمتروكين"، والبخاري في

---

١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، (٢٣/ ٦٥).

٢. عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٣١ بتصرف.

٣. دفاع عن السنة المطهرة، علي حشيش، مرجع سابق، ص١٤٦.

® في **"علاقة الإنسان بالجن والشيطان"** طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الأولى، من هذا الجزء. وفي **"الأهداف من الزواج في الإسلام"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية، من الجزء الثاني عشر (المعاملات).

كتابه "الضعفاء الصغير"، وابن حبان في "المجروحين" وغيرهم من العلماء، كما أن في سند الحديث الوليد بن مسلم الدمشقي، وهو أيضًا من المدلسين، فكيف يعتمد على هذا الحديث وهو منكر السند؟!

- إن الله ﷻ جعل من آياته أن يكون أزواج بني آدم من أنفسهم، يقول ﷻ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الروم)، ولذلك فإن زواج الإنسي بجنية لا يستقيم؛ لاختلاف الجنس الذي يعوق وجود السكن والمودة، واللذان هما مقصودا الزواج، كما أن العلماء أثبتوا أن لكل جنس جيناته الخاصة به وبطبيعته، وبه ينتفي أن يكون هناك زواج بين الإنس والجن، فضلًا عن وجود تناسل بينهما، كما أن أصحاب هذه الشبهة لا يملكون دليلًا من القرآن أو السنة، وقد اتضح لنا بطلان ما استندوا إليه، بما تبطل هذه الشبهة من أساسها.

الشبهة الثالثة

الطعن في أحاديث إرسال الشهب على الشياطين(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المشككين في الأحاديث الواردة بشأن رمي الشياطين التي تَسْتَرِقُ السمع من السماء بالشهب، زاعمين أن هذه الأحاديث متعارضة؛ ويستدلون على ذلك بأنه قد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما حديثان متعارضان؛ أحدهما صريح جدًّا في أن الشهب قد كان يُرمى بها في الجاهلية، بينما الحديث الثاني يدل على أن الرمي بالشهب إنما كان بعد مبعث النبي ﷺ ونزول القرآن! ومن جانب آخر، فإن الحديثين يثبتان استراق الشياطين السمع، وفي ذلك مخالفة لما جاء في قول الله ﷻ: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ ﴾ (الصافات)، وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ (الشعراء).

رامين من وراء ذلك إلى الطعن في السنة النبوية واتِّهامها بالتعارض والتناقض، وأنها مخالفة للقرآن الكريم.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن الأحاديث التي تثبت أن رمي الشياطين بالشهب كان في زمن الجاهلية، والأخرى التي تؤكد أن ذلك كان بعد البعثة ونزول القرآن - أحاديث صحيحة، لا تعارض بينها؛ فإن إرسال الشهب على الشياطين واقع، لكنه لم يكن على الدوام في الجاهلية، بل كانت تُرمى في وقت دون وقت، ومن جانب دون جانب، فلما بعث رسول الله ﷺ كَثُر ذلك وغُلِّظ، وشُدِّد في حراسة السماء، فأصبحوا يُرمَون بالشهب في كل وقت ومن كل جانب.

٢) إن ما جاء في كتاب الله ﷻ بشأن استراق الشياطين السمع لا يتعارض مع الأحاديث النبوية التي وردت في هذا الموضوع، وحقيقة ما تعرَّض له القرآن الكريم بشأن هذا الموضوع لا ينفي استراق الشياطين السمع.

(*) أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، د. سليمان بن محمد الدبيخي، دار المنهاج، الرياض، ط١، ١٤٢٧هـ.

التفصيل:

أولا. رجم الشياطين بالشهب ثابت قبل البعثة وبعدها إلى قيام الساعة، ولا تعارض بين الأحاديث:

روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رُمي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله ﷺ: ماذا كنتم تقولون في الجاهلية، إذا رُمي بمثل هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: وُلِدَ الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: فإنها لا يُرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا - تبارك وتعالى اسمه - إذا قَضَى أمرًا سبَّح حملة العرش، ثم سبَّح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربُّكم؟ فيخبرونهم ماذا قال. قال: فيستخبر بعض أهل السماوات بعضًا؛ حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم، ويُرْمَون به، فما جاءوا على وجهه فهو حق، ولكنهم يَقْرِفُون[١] فيه ويزيدون"[٢].

وروى ابن عباس أيضًا فيما أخرجه الشيخان "أن النبي ﷺ انطلق في طائفة من أصحابه، عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء؟ فانصرف أولئك الذين توجَّهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ، وهو بنخلة، عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ (الجن)، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ ﴾، وإنما أُوحِيَ إليه قول الجن"[٣].

وبالنظر إلى هذين الحديثين استحال على بعض الناس الجمع بينهما؛ إذ إن الحديث الأول يفيد أن الشهب التي كان يُرمى بها في الجاهلية الذين يسترقون السمع من الشياطين، والثاني من هذين الحديثين يدل على أن الرمي بالشهب إنما كان بعد البعثة ونزول القرآن.

لكن المتأمل الحصيف لهذين الحديثين لا يلمس أي تعارض بينهما؛ وذلك لما قاله أهل العلم من شرَّاح الحديث؛ إذ قالوا: إن الشهب كانت تُرمى بها الشياطين في الجاهلية، ولكن ليس على سبيل الدوام، فكانت تُرمى في وقت دون وقت، ومن جانب دون جانب فلما بعث النبي ﷺ كثر ذلك وغُلِّظ، وشُدِّد في حراسة السماء، فأصبحوا يُرمون في كل وقت، ومن كل جانب،

١. يقرفون: يخلطون فيه الكذب.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان، (٨/ ٣٣٦١)، رقم (٥٧١١).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأذان، باب: الجهر بقراءة صلاة الفجر، (٢/ ٢٩٥)، رقم (٧٧٣). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، (٣/ ١٠٢٠)، رقم (٩٨٩).

وإلى هذا الرأي ذهب ابن عباس والزهري، وابن قتيبة، والطحاوي، وابن بطال، والسهيلي، وأبو عبد الله القرطبي، وابن تيمية، وابن كثير، وابن رجب، وقال ابن حجر: هذا جمع حسن. وذكر القرطبي أنه قول الأكثرين[1].

وقد قال ابن حجر: "ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﷺ: "إذا رُمي بها في الجاهلية"؛ أي: جاهلية المخاطبين، ولا يلزم أن يكون ذلك قبل المبعث؛ فإن المخاطب بذلك الأنصار، وكانوا قبل إسلامهم في جاهلية؛ فإنهم لم يسلموا إلا بعد المبعث بثلاث عشرة سنة.

وقال السهيلي: لم يزل القذف بالنجوم قديمًا، وهو موجود في أشعار قدماء الجاهلية، كأوس بن حجر، وبشر بن أبي حازم، وغيرهما.

وقال القرطبي: يجمع بينهما بأنها لم تكن يُرمى بها قبل المبعث رميًا يقطع الشياطين عن استراق السمع، ولكن كانت ترمى تارة، ولا ترمى أخرى، وترمى من جانب ولا ترمى من جميع الجوانب، ولعل الإشارة إليه بقوله ﷻ: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ⑧﴾ (الصافات).

وقال الزين بن المنير: ظاهر الخبر أن الشهب لم تكن يُرمى بها، وليس كذلك؛ لما دلَّ عليه حديث مسلم"[2].

قال ابن تيمية: "وقد تواترت الأخبار بأنه حين المبعث كَثُر الرمي بالشهب، وهذا أمر خارق للعادة؛ حتى خاف بعض الناس أن يكون ذلك لخراب العالم، حتى نظروا هل الرمي بالكواكب التي في الفلك، أم الرمي بالشهب؟ فلما رأوا أنه بالشهب علموا أنه لأمر حدث، وأرسلت الجن تطلب سبب ذلك، حتى سمعت القرآن، فعلموا أنه كان لأجل ذلك، وهذا من أعلام النبوة ودلائلها، وقبل زمان البعث وبعده كان الرمي خفيفًا، لم تمتلئ به السماء كما مُلئت حين نزل القرآن"[3].

وعلى هذا يكون الجمع بين النصوص، ومتى أمكن الجمع - بشرط احتمال النصوص له - وجب المصير إليه؛ لأن فيه إعمالًا لكلا الدليلين، وإعمال الدليلين أولى من إهمال أحدهما؛ ولذا قال ابن كثير: "لعل المراد من نفي ذلك أنها لم تكن تحرس حراسة شديدة، ويجب حمل ذلك على هذا؛ لما ثبت في الحديث..."[4]، ثم ذكر حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: "ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رُمي بمثل هذا"؟

وعلى هذا يكون الرمي بالشهب موجودًا في الجاهلية، كما يدل عليه حديث ابن عباس المتقدم، لكن ذلك لم يكن متواصلًا ومستمرًا في كل وقت، وفي كل حال، ومن كل جانب، فلما بُعث النبي ﷺ شُدد في حراسة السماء، وكثر الرمي بالشهب، وعلى هذا يُحمل حديث ابن عباس الآخر: "فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين السماء، وأرسلت علينا الشهب"؛ أي الرمي بالشهب، لما بعث النبي ﷺ زاد وكثر، على خلاف المعتاد والمعهود، مما

1. أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، د. سليمان الدبيخي، مرجع سابق، ص٤٦٠، ٤٦١ بتصرف.
2. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٨/ ٥٤٠، ٥٤١).
3. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، تحقيق: علي حسن ناصر وآخرين، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ، (٥/ ٣٥٣).
4. البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٩٨م، (٣/ ٢٧).

جعل الناس تستغرب ذلك، والشياطين تنكره وترتاع له، حتى ضربوا مشارق الأرض ومغاربها بحثًا عن سبب ذلك، فلما رأوا النبي ﷺ، وسمعوا القرآن عرفوا أن هذا هو الذي حال بينهم وبين خبر السماء، وكان ذلك من آيات النبي ﷺ ودلائل نبوته.

قال ابن قتيبة: "الرجم قد كان قبل بعثته، ولكنه لم يكن مثله الآن في شدة الحراسة، وكانت تسترق في بعض الأحوال فلما بعث مُنعت من ذلك"[1][2].

وإن قيل: هل هذا الرمي بالشهب للشياطين الذين يسترقون السمع مستمر بعد زمن النبي ﷺ؟

نقول: نعم؛ لأنه طالما حصل منهم استراق للسمع، فلا بد أن يلاقوا تعذيبًا لفعلهم هذا، واستراق الشياطين مستمر بعد زمن النبي ﷺ؛ لأنه إذا كان وقع في حياة النبي ﷺ فمن بعد حياته يكون من باب أولى.

قال الحافظ في "الفتح": فإن قيل: إذا كان الرمي بها غُلِّظ وشُدد بسبب نزول الوحي، فهلا انقطع بانقطاع الوحي بموت النبي ﷺ ونحن نشاهدها الآن يُرمى بها؟

فالجواب يؤخذ من حديث الإمام مسلم والذي فيه: كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: "فإنها لا تُرمى لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا إذا قضى أمرًا أخبر أهل السماوات بعضهم بعضًا؛ حتى يبلغ الخبر السماء الدنيا، فيخطف الجن السمع، فيقذفون به إلى أوليائهم". فيؤخذ من ذلك أن سبب التغليظ والحفظ لم ينقطع؛ لما يتجدد من الحوادث التي تلقى بأمره إلى الملائكة، فإن الشياطين مع شدة التغليظ عليهم في ذلك بعد البعث لم ينقطع طمعهم في استراق السمع في زمن النبي ﷺ، فكيف بما بعده؟! وهذا ظاهر في أن استراقهم السمع استمر بعد النبي ﷺ وسيظل إلى يوم القيامة[3].

وبهذا يمكن الجمع بين الحديثين بأن يكون الرمي بالشهب واقعًا في الجاهلية قبل الإسلام، وإلى قيام الساعة، وأن ما كان في الجاهلية لم يكن دائمًا في كل وقت، ومن كل جانب، أما بعد البعثة ونزول القرآن على النبي ﷺ فقد شُدِّد في الأمر وغلِّظ، وأصبح كل من استرق السمع من الجن والشياطين يجد له شهابًا رصدًا، ولم تمتنع الشياطين من محاولة استكشاف خبر السماء حتى بعد البعثة، مما يؤكد ثبوت ودوام محاولاتهم في استراق السمع إلى يوم القيامة.

ثانيًا. إثبات هذين الحديثين لاستراق الشياطين لا يُعارض ما جاء في القرآن بشأن حفظ السماء من كل شيطان مارد:

لقد استفاض القرآن المجيد في ذكره اقتصار علم الغيب على الله ﷻ، وبما أن عالم الجن من الغيبيات التي حُجبت عنا حسًّا، إلا أنه قد راق لبعض الناس أن يستعينوا بهم في بعض أمور الغيب، وكان للجن حِيَلٌ تستطيع أن تفعلها ليستمعوا خبر السماء بعد انقضائه من قبل الله ﷻ، والإيحاء به إلى ملائكته، كما بيَّن لنا النبي ﷺ في الحديثين الماضيين، إلا أن الله ﷻ من يوم أن خلق السماوات قال: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ

---

١. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٤٣٠.

٢. انظر: أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، د. سليمان الدبيخي، مرجع سابق، ص٤٦٨، ٤٦٩.

٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٨/ ٥٤١) بتصرف.

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ (الملك: ٥)، فتأكد من صدق حديث رسول الله ﷺ بأن الشياطين كانت تُرجم قبل البعثة المحمدية، إلا أنه بعد نزول القرآن وتكريم الأرض برسالة الحبيب المصطفى ﷺ، أراد الله أن يرفع التكهن الذي اشتبك فيه الجاهليون إثر إخضاعهم الجِنَّة لرغباتهم، وغير ذلك مما كان موجودًا في الجاهلية مما أصبح عقيدة.

فبدأ الله المسألة بنفي أن يكون هذا القرآن قول شيطان رجيم؛ وذلك لإعجازه، خشية أن يُظَن أن محمدًا يأتيه من الجن مَن يوحي إليه من زخرف القول، وأكد ذلك ﷻ بقوله عن الشياطين: ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ (الشعراء).

ثم أثبت الله محاولات بعض الجِنَّةِ تَسَمُّع أخبار السماء، مع أنهم علموا (أي: الجن) أنه بعد بعثة رسول الله ﷺ قد شدد عليهم بحراسة السماء بالشهب الثاقبة، التي تحرق مَن حاول منهم استراق السمع.

- لا تعارض بين الأحاديث والقرآن في موضوع الاستراق يقول ﷻ عن الجن: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾﴾ (الصافات)، وهذه الآية في زعمهم تنفي التسمُّع من الشياطين لأخبار السماء، لكن نرد عليهم بما قاله العلماء.

قال صاحب فتح البيان: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ مستأنفة لبيان حالهم بعد حفظ السماء منهم. قال النسفي: والفرق بين سمعت فلانًا يتحدث، وسمعت إليه يتحدث، وسمعت حديثه، وإلى حديثه: أن المعدَّى بنفسه يفيد الإدراك، والمعدَّى بـ (إلى) يفيد الإصغاء مع الإدارك.

﴿الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ أهل السماء الدنيا فما فوقها. والضمير في ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ للشياطين، وقيل: إن جملة ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ صفة لكل شيطان.

وقيل: جواب عن سؤال مقدر، كأنه قيل: فما حالهم بعد حفظ السماء عنهم؟ فقال: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾، قرأ الجمهور: بسكون السين وتخفيف الميم، وقرئ بتشديدها، والأصل (يتسمعون).

فالأولى تدل على انتفاء سماعهم دون استماعهم، والثانية تدل على انتفائهما، وفي معنى الأولى قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ (الشعراء) قال مجاهد: كانوا يستمعون، ولكن لا يسمعون. واختار الثانية أبو عبيدة، قال: لأن العرب لا تكاد تقول: سمعت إليه، وتقول: تسمعت إليه، وكان ابن عباس يقرأ مخففة، قال: إنهم كانوا يتَسَمَّعُون لكن لا يسمعون.

﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا﴾ (الصافات)؛ أي: يرمون من كل جانب من جوانب السماء ونواحيها وجهاتها بالشهب، إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع، والدحور: الطرد.

وقد اختلف هل كان هذا الرمي لهم بالشهب قبل المبعث أو بعده، فقالت بالأول طائفة، وبالآخر آخرون، وقالت طائفة بالجمع بين القولين: إن الشياطين لم تكن تُرمى قبل المبعث رميًا يقطعها عن السمع، ولكن كانت تُرمى وقتًا ولا تُرمى آخر، وترمى من جانب ولا ترمى من جانب آخر، ثم بعد المبعث رُميت من كل جانب وفي كل وقت؛ حتى صارت لا تقدر على استماع شيء.

أما قوله ﷻ: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ ﴾ (الصافات: ١٠) الاستثناء هو من قوله: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ ﴾ أو من قوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ ﴾، وقيل: الاستثناء راجع إلى غير الوحي؛ لقوله ﷻ: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾، بل يخطف الواحد منهم خطفة مما يتفاوض فيه الملائكة، ويدور بينهم مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض، والخطف: الاختلاس مسارقة وأخذ الشيء بسرعة، ﴿فَأَتْبَعَهُۥ ﴾ (الصافات: ١٠)؛ أي: لحقه وتبعه ﴿ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (الصافات)؛ أي: نجم مضيء، أو مستوقد، فيحرقه أو يقتله و يخبله، وربما لا يحرقه، فيلقي إلى إخوانه ما خطفه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا رمي الشهاب لم يخطئ من رمي به، وتلا: ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (الصافات)، وقال: لا يقتلون بالشهاب، ولا يموتون، ولكنها تحرق وتخبل وتجرح في غير قتل[1].

إذن فهذه الآية لا تعارض الحديث بأي حال من الأحوال، فإن كان الحديث يثبت استراق الشياطين، فكذلك الآية مثبتة له لا نافية، فقد قال الله في هذه الآية: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (الصافات) فذاك دليل على محاولة الاختطاف من أخبار السماوات.

وقد أكد هذا المعنى الشيخ الشعراوي؛ حيث قال: "فإن قلت: فلماذا لا يمنع بداية من استراق السمع؟ قالوا: فرق بين أن يُمنع من الشيء أصلًا، وبين أن يناله ثم لا يَنْفُذ به، ولا يستفيد منه، إن الله يُمكِّنه من بعض الأخبار بالفعل فيسمعها، لكن تعاجله الزاجرات والشُّهب من كل ناحية، فتكون حسرته أعظم حسرة أنه تعب، وتحمل المشاق في استراق السمع والخطف، وحسرة أنه لم ينتفع بما سمع"[2].

وعلى هذا فاستدلالهم بهذه الآية على نفي القرآن استراق الشياطين ـ استدلال مرفوض؛ فالآية صريحة جدًّا في محاولة الشياطين القيام بذلك، ثم مهاجمة شهب السماء لهم بالحرق وغيره.

أما احتجاجهم بقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ (الشعراء)، فتأويله على هذا الوجه، أن الله بيَّن أولًا: أن هذا القرآن الكريم ما تنزلت به الشياطين، "وهذا رد لما زعمه الكفرة في القرآن أنه من قبيل ما تُلْقيه الشياطين على الكهنة بعد تحقيق الحق ببيان أنه نزل به الروح الأمين، فلا يكون سحرًا أو كهانة، أو شعرًا أو أضغاث أحلام كما يقولون.

ثم بيَّن الله بعد ذلك أنهم (أي: الشياطين) ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ ﴾ ذلك وما يصح منهم، ولا يصلح أن ينزلوا به ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾ ما نسبه الكفار إليهم أصلًا، ولا يمكنهم ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ ﴾ للقرآن أو لكلام الملائكة ﴿ لَمَعْزُولُونَ ﴾ أي: لمحجوبون مرجومون بالشهب"[3].

والمتأمل في سياق هذه الآيات يجد قوله ﴿تَنَزَّلَتْ ﴾

---

١. فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، (٥/ ٥٦١، ٥٦٢) بتصرف.

٢. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطبعة أخبار اليوم، القاهرة، د. ت، (٢٠/ ١٢٧٤٦، ١٢٧٤٧).

٣. فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان، مرجع سابق، (٥/ ١٠٤).

(الشعراء: ٢١٠)، ومرجعها للشياطين - يثبت أن هناك تَنَزُّلًا بشيء عن طريق الشياطين إلى الكهان والدَّجالين، وهذا دليل يرجح استراق الشياطين للسمع، إلا أنهم محجوبون عن مساس القرآن؛ لحفظ الله له، وحتى لا يدخل بجانب الوحي شك أو تكهن، فتُنزع الثقة من الشرع بأكمله.

ثم اعترض القوم على تلك الأحاديث المثْبِتة لاستراق الشياطين السمع بآية ثالثة من كتاب الله ظانين أنها صريحة في تعارضها مع الأحاديث، وهذه الآية هي قوله ﷻ في سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ (الجن).

وهاتان الآيتان صريحتان في إثبات ما أثبته الحديث الشريف من استراق الشياطين السمع، إلا أنها زادت شيئًا على ما كانت عليه في الجاهلية، وهي أنها مُلئت - أي السماء - حرسًا شديدًا وشهبًا.

قال الطاهر ابن عاشور في معنى هذه الآية: "إننا (أي: الجن) اختبرنا حال السماء لاستراق السمع فوجدناها كثيرة الحراس من الملائكة، وكثيرة الشهب للرجم، فليس في الآية ما يؤخذ منه أن الشهب لم تكن قبل بعث النبي ﷺ... والجن لا تنكف عن ذلك؛ لأنهم منساقون إليه بالطبع، مع ما ينالهم من أذى الرجم والاحتراق، شأن انسياق المخلوقات إلى ما خُلقت له، مثل تهافت الفَرَاش على النار؛ لاحتمال ضعف القوة المفكرة في الجن، بحيث يغلب عليها الشهوة، ونحن نرى البشر يقتحمون الأخطار والمهالك تبعًا للهوى، مثل مغامرات الهواة في البحار والجبال والثلوج...

ولعل كيفية حدوث رجم الجن بالشهب كان بطريقة تصريف الوحي إلى الملائكة في مجارٍ تمر على مواقع انقضاض الشهب، حتى إذا اتصلت قوى الوحي بموقع أحد الشهب انفصل الشهاب بقوة ما يغطه من الوحي، فسقط مع مجرى الوحي؛ ليحرسه من اقتراب المسْتَرِق حتى يبلغ إلى الملك المُوحى إليه، فلا يجد في طريقه قوة شيطانية أو جنية إلا أحرقها وبخرها، فهلكت أو استطيرت، وبذلك بطلت الكهانة، وكان ذلك من خصائص الرسالة المحمدية"[1].

وعلى هذا، فإن هاتين الآيتين أيضًا تثبتان حقيقة استراق الشياطين للسمع، إذن فالقرآن مؤيد لما جاء في الحديث؛ وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ لأن إثبات اللمس من الجن للسماء يثبت يقينًا حقيقة استراقهم للسمع، لمعرفة الخبر من السماء، إلا أنهم شُدد عليهم في ذلك بعد رسالة النبي ﷺ كما بينا؛ حيث قالوا: "ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا لأمر حدث" وكان هذا الأمر هو بعثة النبي ﷺ، فقد قالوا: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ (الجن: ٩) هذا كان قبل البعثة، لكن بعدها ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ (الجن).

وبعد أن أثبتنا أن الاستراق ثابت بالقرآن الكريم، كما هو ثابت بالسنة نريد أن نشير إلى أمر مهم، ألا وهو:

- **حقيقة استراق الشياطين، وانتفاء علاقته بالوحي والغيب:**

لقد نقل الحافظ ابن حجر عن الخطابي أنه قال: "بَيَّن النبي ﷺ أن إصابة الكاهن أحيانًا إنما هي لأن الجني

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت، (٢٩/ ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٠).

يلقي إليه الكلمة التي يسمعها استراقًا من الملائكة، فيزيد عليها أكاذيب يقيسها على ما سمع، فربما أصاب نادرًا، وخطؤه الغالب"[1].

فهذا يبين أن الشياطين يحاولون استراق السمع من الملائكة فيما يتحدثون فيه بينهم، فقد يقفون على بعض الأخبار الصحيحة، إلا أنهم يكذبون في معظمها، ويلقون بها إلى الكهنة، كما أنهم لا يطلعون صراحةً على الوحي أو الغيب؛ فقد حِيلَ بينهم وبين ذلك.

"قال الخطابي: الكهنة قوم لهم أذهان حادة، ونفوس شريرة، وطباع نارية، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في هذه الأمور، ومساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه، وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية خصوصًا في العرب لانقطاع النبوة فيهم.

وهي - أي الكهانة - على أصناف:

أولها: ما يتلقونه (أي الكهان) من الجن، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضًا إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام، فيلقيه إلى الذي يليه، إلى أن يتلقاه مَنْ يُلْقه في أذن الكاهن فيزيد فيه، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرست السماء من الشياطين، وأرسلت عليهم الشهب، فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (الصافات)، وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جدًّا، كما جاء في أخبار شق وسطيح ونحوهما، وأما في الإسلام فقد ندر ذلك جدًّا حتى كاد يضمحل.

ثانيها: ما يخبر الجني به من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالبًا، أو يطلع عليه من قَرُب منه، لا من بَعُد.

ثالثها: ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس، وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه.

رابعها: ما يستند إلى التجربة والعادة، فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك، ومن هذا القسم الأخير ما يضاهي السحر.

وقد يعتضد بعضهم في ذلك بالزجر والطرق والنجوم، وكل ذلك مذموم شرعًا"[2].

والذي يخص حديثنا هنا ما جاء في القسم الأول، وفيه يثبت أن الجن يُلقي إلى الكهان، ويكون قد استرقه من خبر السماء.

وهذا ما قد ثبت في الأحاديث.

واستراق السمع موجود من قبل البعثة كما بينّا، وفي أثناء حياة النبي ﷺ، وكذلك بعد موته ﷺ، فاستراق السمع لم ينقطع، وهو على ثلاث أحوال:

- قبل البعثة كان كثيرًا جدًّا؛ لانقطاع زمن نبوة كل من موسى وعيسى - عليهما السلام.
- أثناء البعثة ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا، وكان قليلًا ونادرًا جدًّا ما يحدث استراق.
- وبعد موت محمد ﷺ زاد، ولكن لا يوصف بالكثرة ولا بالقلة.

فالكهان كانوا قبل البعثة كثيرين، فيخبرون ببعض الغيبيات، وسواء كان الاستراق قبل البعثة أو بعدها،

---

١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٠/ ٢٣٠).

٢. المرجع السابق، (١٠/ ٢٢٧).

فإنه لم يكن كاملًا، مثل ما جاء في حديث ابن صياد الذي رواه البخاري في صحيحه: عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال النبي ﷺ: "ماذا ترى؟ قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب، قال النبي ﷺ: خلط عليك الأمر، إني قد خبأت لك خبيئًا، قال ابن صياد: هو الدُّخ، قال النبي ﷺ: اخسأ، فلن تعدو قدرك..."[1]؛ أي: إن الشياطين لا تحسن استماع الوحي الذي يوحى إلى النبي ﷺ. فربما تحدث أشياء في وقت النبوة، مما يقضي الله ﷻ في السماء، مما لا يختص بالوحي إنما هو من الأوامر الكونية[2].

وبهذا يتبين أنه لا تعارض بين السنة والقرآن في مسألة استراق الجن السمع للسماء ليعلموا أشياء قد قضيت في السماوات، ثم يخبرون بها الدجالين والكهان. فكلاهما يثبت ذلك، لكن بشيء من التفصيل كما بينا، إلا أنه مع ذلك فإن الجن لا تعلم الغيب، ولا علاقة لها بالوحي، فهو محفوظ عن أي أحدٍ إلا الأنبياء.

الخلاصة:

- إن أحاديث إرسال الشهب على مسترق السمع من السماء - صحيحه، ولا تناقض بينها؛ لأن الرمي واقع قبل البعثة وبعدها وإلى يوم القيامة، لكن قبل البعثة كان الرمي ليس على الدوام، أما بعد البعثة فكان تكريمًا للرسالة المحمدية فقد شُدد وغُلِّظ، وأرسلت الشهب عليهم إرسالًا شديدًا، وهذا يؤكده قول الشياطين أنفسهم: "حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب".
- نفى الله ﷻ أن يكون القرآن قول شيطان رجيم، ومن أجل تحقيق عصمة الوحي سُدت كل الذرائع التي تؤدي إلى الشك في الوحي أو الرسالة عمومًا، فزاد الله في حراسة السماء، وتحصينها بالشهب الثاقبة؛ لتحرق من يحاول أن يسترق خبر السماء من الشياطين، وعلى هذا فلا تعارض مطلقًا بين القرآن والسنة.
- إن استراق السمع لم يكن من "الوحي"، فالقرآن صرَّح بعزل الشياطين والجن عنه، وذلك ما يقصد من قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ (الشعراء). فإذا حدث استراق فيكون في غير الوحي مما لو عُرف لا يفسد.
- إن الخبر المسترق من السماء لا يصل خالصًا بل يشوبه الكذب الكثير مما ينفي صدقه تمامًا.
- لقد أجمع أهل العلم على تحريم إتيان الكهان أو سؤالهم أو تصديقهم.

الشبهة الرابعة

إنكار أحاديث السحر وحدِّ الساحر(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المتوهمين أحاديث السحر التي جاءت

(*) التبيان فيما جَدَّ من أمر الجان، فوزي بن عبد العزيز الإبشاني الأثري، دار الدعوة الإسلامية، مصر، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (٣/ ٢٥٨)، رقم (١٣٥٤).

٢. التعليقات الحسان على كتاب الفرقان، صالح آل الشيخ، (٢٦/ ٢٦٣).

بها السنة الصحيحة، ويستدلون على ذلك بأن السحر أوهام وخيالات لا حقيقة لها؛ لذلك قال الله ﷻ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ (طه). كما يزعمون أن ما ورد في قتل الساحر حدًّا لا يصح؛ لأنه لم يرد عن النبي ﷺ أنه أقام الحد على ساحر، ولأن النبي ﷺ قال: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإن قالوها فقد عصموا مني دماءهم، وأموالهم"، وقول النبي ﷺ: "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة" والساحر ليس من هؤلاء جميعًا، كما يستدلون بما قصَّه الله علينا من خبر سحرة موسى عليه السلام وكيف أنهم صاروا من أوليائه تعالى في ساعة من نهار!!

رامين من وراء هذه الأدلة إلى تشكيك المسلمين في الأحاديث الصحيحة الثابتة في أمر السحر.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد بَيَّن القرآن حقيقة السحر ووقوعه؛ قال ﷻ: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ (البقرة:١٠٢)، وقول الله ﷻ: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ (الأعراف)، لذلك أنزل الله سورة الفلق؛ حفظًا للنبي ﷺ وأمته من كيد الشيطان والسحرة.

٢) ثبوت صحة الأحاديث التي تؤكد أن السحر حقيقة وليس خيالًا كما يدعون، وليس أدل على ذلك من حديث سحر النبي ﷺ الذي ورد في الصحيحين، وهذا الذي عليه جمهور المسلمين.

٣) لقد ذهب جمهور العلماء - قديمًا وحديثًا - إلى وجوب إقامة الحد على الساحر وقتله لدلالة القرآن والسنة على كفره، قال ﷻ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ (البقرة:١٠٢)، وقال النبي ﷺ فيمن يذهب إلى العرَّاف أو الساحر فيصدقه: فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ، وقد ورد عن الصحابة أنهم أقاموا الحد على الساحر وأمروا بقتله، ورُوي ذلك عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله، وحفصة، وجندب البجلي رضي الله عنهم، وكلها وردت بأسانيد صحيحة.

التفصيل:

أولا. إثبات القرآن أن السحر حقيقة وتحذيره منه:

إن السحر حقيقة واقعة قررها القرآن الكريم في غير ما آية، يقول ﷻ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ (البقرة:١٠٢).

وقد اختلف العلماء في حقيقة السحر؛ فمن قائل: "إنه تخييل لا حقيقة له: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ (طه)، ومن قائل: إن له حقيقة كما دلت عليه آية البقرة"[1].

يقول الإمام القرطبي: السحر، قيل: أصله التمويه بالحيل والتخاييل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعانيَ،

١. عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص١١١.

فَيُخيَّل للمسحور أنها بخلاف ما هي به. واختلف هل له حقيقة أم لا؟ فذكر الغزوني الحنفي في "عيون المعاني" له: أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل له. وعند الشافعي: وسوسة وأمراض، قال: وعندنا أصله طلسم، ويُبنى على تأثير خصائص الكواكب، كتأثير الشمس في زئبق عِصِيِّ فرعون، أو تعظيم الشياطين؛ ليُسَهِّلوا له ما عسر. ثم يقول: وعندنا أنه حق، وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء، فقد ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة؛ لأنه وردت أمور جوَّزها العقل، وورد بها السمع، فمن ذلك ما جاء في هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه، ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس، فدل على أن له حقيقة، وقوله تعالى في قصة سحرة فرعون: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾﴾ (الأعراف) وسورة "الفلق"، مع اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لبيد بن الأعصم للنبي ﷺ - يدل على أنه حقًّا وحقيقة، ومقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه[1].

وإلى هذا ذهب ابن كثير رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية، فيقول: "حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر، قال: وربما كفَّروا من اعتقد وجوده، قال: وأما أهل السنة فقد جوَّزوا أن يَقْدِرَ الساحر أن يطير في الهواء، ويقلب الإنسان حمارًا، والحمار إنسانًا، إلا أنهم قالوا: إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر تلك الرقى والكلمات المعينة، فأما أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلك والنجوم فلا، خلافًا للفلاسفة والمنجِّمين والصابئة، ثم استدل على وقوع السحر، وأنه بخلق الله تعالى - بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة:١٠٢) ومن الأخبار بأن النبي ﷺ سُحِر، وأن السحر عَمِل فيه"[2].

وقال الخطابي رحمه الله: قد أنكر قوم من أصحاب الطبائع السحر، وأبطلوا حقيقته، والحق أن السحر ثابت وحقيقته موجودة اتفق أكثر الأمم من العرب، والفرس، والهند وبعض الروم على إثباته، وهؤلاء أفضل سكان أهل الأرض وأكثرهم علمًا وحكمة، وقد قال الله ﷻ: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ (البقرة:١٠٢) وأمر بالاستعاذة منه، فقال ﷻ: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ (الفلق)، وورد في ذلك عن رسول الله ﷺ أخبار لا ينكرها إلا من أنكر العيان والضرورة، وفرع الفقهاء فيما يلزم الساحر من العقوبة، وما لا أصل له لا يبلغ هذا المبلغ في الشهرة والاستفاضة، فنَفْيُ السحر جهل، والرد على من نفاه لغو وفضل[3].

"لقد حذَّر الإسلام من عمل السحر وذمَّه في مواضع، وليس ذلك بمقتضٍ إثبات حقيقة وجودية للسحر على الإطلاق، ولكنه تحذير من فساد العقائد، وخلع قيود الديانة، ومن سخيف الأخلاق، وقد اختلف علماء الإسلام في إثبات حقيقة السحر

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (٢/ ٤٣: ٤٦) بتصرف.

٢. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، (١/ ١٤٤).

٣. شرح السنة، البغوي، تحقيق: زهير الشاويش وشعيب الأرنؤوط، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، (١٢/ ١٨٧، ١٨٨) بتصرف.

وإنكارها، وهو اختلاف في الأحوال فيما أراه، فكل فريق نظر إلى صنف من أصناف ما يُدعى بالسحر، وحكى عياض في "إكمال المعلم" أن جمهور أهل السنة ذهبوا إلى إثبات حقيقته، قلت: وليس في كلامهم وصف كيفية السحر الذي أثبتوا حقيقته، فإنما أثبتوه على الجملة"[1].

إن السحر هو "القدرة على الإيحاء والتأثير، إما في الحواس والأفكار، وإما في الأشياء والأجسام، وإن كان السحر الذي ذكر القرآن وقوعه من سحرة فرعون كان مجرد تخييل لا حقيقة له: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦)﴾ (طه)؛ ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه، وبين الصديق وصديقه، فالانفعالات تنشأ من التأثيرات وإن كانت الوسائل والآثار، والأسباب والمسببات، لا تقع كلها إلا بإذن الله"[2].

وقد فصَّل القول في ذلك ابن قدامة فقال: "السحر: هو عُقَد ورُقى وكلام يتكلم به، أو يكتبه أو يعمل شيئًا يؤثر في بدن المسحور، أو قلبه، أو عقله، من غير مباشر له، وله حقيقة، فمنه ما يقتل، وما يُمرض، وما يأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه، وما يبغِّض أحدهما إلى الآخر، أو يحبب بين الاثنين، وهذا قول الشافعي، وذهب أصحابه إلى أنه لا حقيقة له، وإنما هو تخييل؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦)﴾ (طه)، وقال أصحاب أبي حنيفة: إن كان شيئًا يصل إلى بدن المسحور، كدخان ونحوه، جاز أن يحصل منه ذلك، فأما أن يحصل المرض والموت من غير أن يصل إلى بدنه شيء، فلا يجوز ذلك؛ لأنه لو جاز لبطلت معجزات الأنبياء عليهم السلام؛ لأن ذلك يخرق العادات، فإذا جاز من غير الأنبياء بطلت معجزاتهم وأدلتهم، ولنا قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)﴾ (الفلق) يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن، وينفثن عليه، ولولا أن السحر له حقيقة، لما أمر الله تعالى بالاستعاذة منه، وقال الله ﷻ: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (البقرة:١٠٢)، وقد اشتهر بين الناس وجود عَقْدِ الرجل عن امرأته حين يتزوجها، فلا يقدر على إتيانها، وحل عقده، فيقدر عليها بعد عجزه عنها؛ حتى صار متواترًا لا يمكن جحده، ورُوِيَ من أخبار السحرة ما لا يكاد يمكن التواطؤ على الكذب فيه"[3].

وبهذا يتبين أن القرآن قد أثبت أن السحر حقيقة واقعة بين الناس، وهو نوعان: نوع هو تخييل يعتمد على الحيل وخفة الحركة، ونوع له حقيقة يفرق بين المرء وزوجه ويؤذى به[4]، وقد حذر القرآن من تعلمه أو

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، (١/ ٦٣٧).

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م، (١/ ٩٧).

٣. المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ود. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢م، (١٢/ ٢٩٩، ٣٠٠).

٤. عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص١١ بتصرف.

عمله، وذكر أن الساحر كافر لا يجب اتباعه. فكيف ينكرون وجود السحر ويعتبرونه أوهام وخيالات؟!

ثانيًا. ثبوت صحة الأحاديث التي تؤكد حقيقة السحر:

لقد حذر النبي ﷺ أمته من عاقبة السحر في الدنيا والآخرة، وجعله من الموبقات، قال ﷺ: "اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يا رسول، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولِّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات"[1].

قال الإمام النووي تعليقًا على الحديث: "وأما عده ﷺ السحر من الكبائر فهو دليل لمذهبنا الصحيح المشهور، ومذهب الجماهير أن السحر حرام من الكبائر: فعله وتعلمه وتعليمه"[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "من أتى كاهنًا أو عرَّافًا فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ"[3].

قال الإمام الشوكاني: "ظاهره أنه الكفر الحقيقي، وقيل: هو الكفر المجازي، وقيل: من اعتقد أن الكاهن والعراف يعرفان الغيب، ويطلعان على الأسرار الإلهية كان كفرًا حقيقيًّا، كمن اعتقد تأثير الكواكب، وإلا فلا"[4].

وقال ﷺ محذرًا من الكهان: عندما سأله ناس عن الكهان: "ليس بشيء، فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثوننا أحيانًا بشيء فيكون حقًّا، فقال رسول الله ﷺ: تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرُّها في أذن وليِّه، فيخلطون معها مائة كذبة"[5].

وقد روت بعض نساء النبي ﷺ أنه قال: "من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم يقبل الله له صلاة أربعين ليلة"[6].

قال ابن حجر: "والوعيد جاء تارة بعدم قبول الصلاة، وتارة بالتكفير، فيحمل على حالين، كما أشار إلى ذلك القرطبي"[7].

وليس أدل على حقيقة السحر وتأثيره في الإنسان من حديث سحر النبي ﷺ الذي ورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: "سحر رسول الله ﷺ يهوديٌّ من يهود بني زُرَيْق، يُقال له: لبيد بن الأعصم، قالت: حتى كان رسول الله ﷺ يُخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى إذا كان ذات يوم، أو ذات ليلة، دعا رسول الله ﷺ، ثم دعا، ثم دعا، ثم قال: يا عائشة، أَشَعَرْتِ أن الله أَفْتَاني فيما استفتيته فيه؟ جاءني رجلان،

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الوصايا، باب: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾، (٥/ ٤٦٢)، رقم (٢٧٦٦). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: الكبائر وأكبرها، (٢/ ٤٧٦)، رقم (٢٥٦).

٢. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٢/ ٤٨٢).

٣. صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب: الإيمان، رقم (١٥). وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم (٥٩٤٢).

٤. نيل الأوطار، الشوكاني، تحقيق: عبد المنعم إبراهيم، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، (٨/ ٣٦٧٩).

٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الطب، باب: الكهانة، (١٠/ ٢٢٧)، رقم (٥٧٦٢). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان، (٨/ ٣٣٦٠)، رقم (٥٧٠٩).

٦. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهانة، (٨/ ٣٣٦٢)، رقم (٥٧١٣).

٧. فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٠/ ٢٨٨).

فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي، أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب[١]، قال: من طبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة[٢]، قال: وجُبِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ[٣]، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان، قالت: فأتاها رسول الله ﷺ في أناس من أصحابه، ثم قال: يا عائشة، والله لكأن ماءها نُقَاعَةُ[٤] الحناء، ولكأن نخلها رءوس الشياطين. قالت: فقلت: يا رسول الله أفلا أحرقته؟ قال: لا، أما أنا فقد عافاني الله، وكرهت أن أثير على الناس شرًّا، فأمَرْتُ بها فدُفنت"[٥].

وقد علَّق الإمام النووي على الحديث قائلًا: "قال الإمام المازري: مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة، خلافًا لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته، وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها، وقد ذكره الله تعالى في كتابه، وذكر أنه مما يتعلم، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به، وأنه يفرق بين المرء وزوجه، وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له.

وهذا الحديث أيضًا مصرح بإثباته، وأنه أشياء دفنت وأخرجت، وهذا كله يبطل ما قالوه، فإحالة كونه من الحقائق محال، ولا يستنكر في العقل أن الله ﷻ يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق، أو تركيب أجسام، أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر، وإذا شاهد الإنسان بعض الأجسام منها قاتلة كالسموم، ومنها مسقمة كالأدوية الحادة، ومنها مضرة كالأدوية المضادة للمرض - لم يستبعد عقله أن ينفرد الساحر بعلم قوى قتالة، أو كلام مهلك أو مؤدٍّ إلى التفرقة.

قال - أي المازري: وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر، فزَعَم أنه يحط منصب النبوة، ويشكك فيها، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع، وهذا الذي ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل؛ لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ، والمعجزة شاهدة بذلك، وتجويزه ما قام الدليل بخلافه باطل، فأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث بسببها، ولا كان منفصلًا من أجلها، وهو مما يعرض للبشر، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا ما لا حقيقة له"[٦].

"وقد قال بعض الناس: إن المراد بالحديث أنه كان ﷺ يخيل إليه أنه وطئ زوجاته ولم يكن وطأهن، وهذا كثيرًا ما يقع للإنسان في المنام، فلا يبعد أن يخيل إليه في اليقظة... قال عياض: فظهر بهذا أن السحر إنما تسلط على جسده، وظواهر جوارحه، لا على تمييزه ومعتقده... وقال بعض العلماء: لا يلزم من أنه كان يظن أنه فعل الشيء ولم يكن فعله أن يجزم بفعله ذلك، وإنما يكون ذلك من جنس الخاطر يخطر ولا يثبت؛ فلا

١. مطبوب: مسحور، وفيه كناية عن السحر بالطب تفاؤلًا.

٢. المشاطة: هي الشعر الذي يسقط من الرأس أو اللحية عند تسريحه.

٣. جُبُّ طلعة ذكر: الجب: وعاء طلع النخل، وهو الغشاء الذي يكون عليه، ويطلق على الذكر والأنثى، فقيد في الحديث بالذكر.

٤. النُّقاعة: الماء الذي ينقع فيه الحناء.

٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الطب، باب: السحر، (١٠/ ٢٣٢)، رقم (٥٧٦٣). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: السلام، باب: السحر، (٨/ ٣٣١٢)، رقم (٥٥٩٩).

٦. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٨/ ٣٣١٢، ٣٣١٣).

يتبقى على هذا للملحد حجة. وقال عياض: يحتمل أن يكون المراد بالتخيل المذكور أنه يظهر له من نشاطه ما ألفه من سابق عادته من الاقتدار على الوطء، فإذا دنا من المرأة فتر عن ذلك كما هو شأن المعقود"[1].

إن هذا المرض يُعدُّ من جنس ما كان يعتريه ﷺ من الأسقام والأوجاع، وهو مرض من الأمراض، وإصابته ﷺ به كإصابته بالسُّم لا فرق بينهما[2]، "وكان غاية هذا السحر فيه إنما هو في جسده ﷺ، وظاهر جوارحه، لا على عقله وقلبه؛ ولذلك لم يكن النبي ﷺ يعتقد صحة ما يُخيل إليه من إتيان النساء، بل يعلم أنه خيال لا حقيقة له، ومثل هذا قد يحدث من بعض الأمراض"[3].

وقد ذهب الإمام القرطبي إلى صحة الخبر كما جاء في الصحيحين، فقال: "إن النبي ﷺ قال لما حُلّ السحر: "إن الله شفاني"، والشفاء إنما يكون برفع العلة وزوال المرض، فدل على أن له حقًّا وحقيقة، فهو مقطوع به وبإخبار الله تعالى ورسوله ﷺ على وجوده ووقوعه، وعلى هذا أهل الحل والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع... ولقد شاع السحر وذاع في سابق الزمان وتكلم الناس فيه، ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله"[4].

وبهذا يتبين أن السنة التي أثبتت السحر صحيحة ثابتة، وقد حذر النبي ﷺ فيها من اتباع السحرة، بل وكَفَّرَ الساحر ومَنْ صدقه، وحديث سحره ﷺ أكبر دليل على وقوع السحر، وأنه حقيقة®.

ثالثًا. جمهور العلماء على قتل الساحر حدًّا:

ذهب جمهور العلماء إلى إقامة الحد على الساحر، وقالوا: إن حد الساحر القتل، خلافًا لمن لم يرَ عليه القتل بمجرد السحر، كما هو مذهب الشافعي، قال الإمام النووي: "عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع، وقد سبق في كتاب "الإيمان" أن رسول الله ﷺ عدَّه من السبع الموبقات، ومختصر ذلك أنه قد يكون كفرًا، وقد لا يكون كفرًا بل معصيته كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر كفر، وإلا فلا، وأما تعلمه وتعليمه فحرام، فإن تضمَّن ما يقتضي الكفر كفر، وإلا فلا، وإذا لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عُزِّر واستُتِيب منه، ولا يقتل عندنا، فإن تاب قُبلت توبته. وقال مالك: الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب، ولا تُقبل توبته، بل يتحتم قتله. والمسألة مبنية على الخلاف في قبول توبة الزنديق؛ لأن الساحر عنده كافر كما ذكرناه، وعندنا ليس بكافر، وعندنا تقبل توبة المنافق والزنديق.

قال القاضي عياض: وبقول مالك قال أحمد بن حنبل، وهو مرويٌّ عن جماعة من الصحابة والتابعين.

قال أصحابنا: فإذا قتل الساحر بسحره إنسانًا، واعترف أنه مات بسحره، وأنه يقتل غالبًا لزمه القصاص، وإن قال: مات به، ولكنه قد يُقتل وقد لا، فلا قصاص، وتجب الدية والكفارة، وكون الدية في

1. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٠/ ٢٣٧، ٢٣٨).
2. انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، (٤/ ٢٤).
3. المرجع السابق، (٤/ ١٢٦).
4. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (٢/ ٤٦).

® في **"صحة حديثي سحر النبي وسمه ونفي تعارض ذلك مع عصمته"** طالع: الوجهين الأول والثاني، من الشبهة الثانية والعشرين، من الجزء التاسع (النبوات).

ماله لا على عاقلته؛ لأن العاقلة لا تحمل ما ثبت باعتراف الجاني.

قال أصحابنا: ولا يتصور القتل بالسحر بالبينة، وإنما يتصور باعتراف الساحر"[١].

أما ابن قدامة فقد قال: "تعلُّم السحر وتعليمه حرام لا نعلم فيه خلافًا بين أهل العلم، قال أصحابنا: ويَكْفُرُ الساحر بتعلمه وفعله، سواء اعتقد تحريمه أو إباحته، ورُوي عن أحمد ما يدل على أنه لا يكفر، فإن حنبلًا رَوَى عنه، قال: قال عَمِّي في العراف والكاهن والساحر: أرى أن يستتاب من هذه الأفاعيل كلها، فإنه عندي في معنى المرتد، فإن تاب وراجع - يعني - خُلِّيَ سبيله، قلت له: يُقتل؟ قال: لا، يحبس لعله يرجع، قلت له: لم لا تقتله؟ قال: إذا كان يصلي، لعله يتوب ويرجع، وهذا يدل على أنه لم يُكفِّره؛ لأنه لو كفره لقتله. وقوله: في معنى المرتد، يعني الاستتابة. وقال أصحاب أبي حنيفة: إن اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء كفر، وإن اعتقد أنه تخييل لم يكفر، وقال الشافعي: إن اعتقد ما يُوجِبُ الكفر، مثل التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس، أو اعتقد حِل السحر، كفر؛ لأن القرآن نطق بتحريمه، وثبت بالنقل المتواتر والإجماع عليه، وإلا فُسِّقَ ولم يُكفَّر"[٢].

ثم قال: وحدُّ الساحر القتل، رُوي ذلك عن عمر، وعثمان بن عفان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبد الله، وجندب بن كعب، وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز، وهو قول أبي حنيفة، ومالك، ولم يرَ الشافعي عليه القتل بمجرد السحر، وهو قول ابن المنذر، ورواية عن الإمام أحمد، وقد احتج ابن قدامة بما يأتي:

فعن بَجالَة قال: كنت كاتبًا لجَزْءِ بن معاوية، عم الأحنف بن قيس، إذ جاءنا كتاب عمر قبل موته بسنة: اقتلوا كل ساحر، فقتلنا ثلاث سواحر في يوم"[٣].

وهذا اشتُهر فلم يُنكر، فكان إجماعًا. وفي مصنف ابن أبي شيبة عن ابن عمر رضي الله عنهما: "أن جارية لحفصة سحرتها، ووجدوا سحرها، واعترفت به، فأمرت عبد الرحمن بن زيد فقتلها، فبلغ ذلك عثمان فأنكره واشتد عليه، فأتاه ابن عمر فأخبره أنها سحرتها واعترفت به، ووجدوا سحرها، فكأن عثمان إنما أنكر ذلك، لأنها قُتلت بغير إذنه"[٤].

وقد أخرج الطبراني في معجمه الكبيرعن أبي عثمان النهدي: "أن ساحرًا كان يلعب عند الوليد بن عقبة، فكان يأخذ السيف ويذبح نفسه ويعمل كذا ولا يضره، فقام جندب إلى السيف فأخذه فضرب عنقه، ثم قرأ: ﴿ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ ﴾ (الأنبياء)"[٥][٦].

وهذه أدلة الذين ذهبوا إلى إقامة الحد على الساحر،

---

١. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٨/ ٣٣١٤).

٢. المغني، ابن قدامة، مرجع سابق، (١٢/ ٣٠٠، ٣٠١).

٣. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: الخراج، باب: أخذ الجزية من المجوس، (٨/ ٢٠٥)، رقم (٣٠٤١). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٣٠٤٣).

٤. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب: الديات، باب: الدم يقضي فيه الأمراء، (٦/ ٤٣٠)، رقم (٤).

٥. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب: الجيم، جندب بن كعب الأزدي، (٢/ ١٧٧)، رقم (١٧٢٥).

٦. المغني، ابن قدامة، مرجع سابق، (١٢/ ٣٠٢، ٣٠٣).

أما الذين لم يروا إقامة الحد على الساحر، فاستدلوا بأن النبي ﷺ لم يقم الحد على لبيد بن الأعصم الذي سحره، وكذلك استدلوا بقوله ﷺ: "أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه، وحسابه على الله"[١].

وقول النبي ﷺ: "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة"[٢].

كما استدلوا على رأيهم هذا بما قصَّه الله علينا من خبر سحرة فرعون، وكيف أنهم صاروا من أوليائه تعالى في ساعة من نهار.

أما ما استدلوا به من كون النبي ﷺ لم يقم الحد على لبيد بن الأعصم فذلك من حكمة النبي ﷺ، قال الإمام القرطبي: لا حجة على مالك من هذه القصة؛ لأن ترك قتل لبيد بن الأعصم كان لخشية أن يثير بسبب قتله فتنة، أو لئلا ينفر الناس عن الدخول في الإسلام، وهو من جنس ما راعاه النبي ﷺ من منع قتل المنافقين حيث قال: "لا يتحدث الناس من أن محمدًا يقتل أصحابه"[٣][٤].

وقد ذهب إلى ذلك الإمام الشوكاني؛ حيث قال: "إن النبي ﷺ لم يقتل من سحره، فإن النبي ﷺ إذا ترك إخراج ما سحر فيه من البئر لمخافة الفتنة، فبالأولى تركه لقتل الساحر، فإن الفتنة في ذلك أعظم وأشد"[٥].

ومن ثم فإن العلة في الترك تقوى هنا في هذه القصة؛ لأن سبب المؤاخذة ليس أمرًا ظاهرًا يعلمه كل أحد، فلو أخذه النبي ﷺ بذلك وقتله، لقال الناس من المشركين والمنافقين في ذلك مقالاتهم، ولكان ذلك سببًا للصد عن دين الله تعالى، فلهذا ترك النبي ﷺ لبيدًا ولم يقتله، وهذا من وفور عقله، وعظيم فطنته، ورحمته، وحرصه على دخول الناس في دين الله أجمعين، وقد يضاف إلى هذه العلة ما كان يخشاه ﷺ من إثارة الفتنة؛ لقوله ﷺ: "فكرهت أن أثير على الناس فيه شرًّا"، فإنه إذا أقبل على قتل ذلك اليهودي، لأوشك أن يغضب له قومه، فتثور فتنة، كما حدث في حديث الإفك"[٦].

أما استدلاهم بقوله ﷺ: "أُمرت أن أُقاتل الناس..." الحديث، فهذا لا دليل لهم فيه؛ لأن وجود هذا الاستثناء "إلا بحقه" قيد لا بد منه، فكل من كان

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجهاد والسير، باب: دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة، (٦/ ٩٣٠)، رقم (٢٣٩٤٦). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلى الله، (١/ ٣٤٨)، رقم (١٢٥).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الديات، باب: قول الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ...﴾، (١٢/ ٢٠٩)، رقم (٦٨٧٨). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: القسامة، باب: ما يباح به دم المسلم، (٦/ ٢٦٠٠)، رقم (٤٢٩٦).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾، (٨/ ٥١٦)، رقم (٤٩٠٥). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، (٩/ ٣٧٠٩)، رقم (٦٤٦٠).

٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٠/ ٢٤٢).

٥. نيل الأوطار، الشوكاني، مرجع سابق، (٨/ ٣٦٧٨).

٦. التبيان فيما جَدَّ من أمر الجان، فوزي الإبشاني الأثري، مرجع سابق، ص١٤٣، ١٤٤.

من حق الإسلام وجب أن يكون داخلًا تحت هذا الاستثناء خارجًا عن هذين الأصلين، عصمة الدماء وعصمة الأموال، وإلا لو كان الأمر كذلك لما جاز قتل المرتد أو الزاني المحصن.

قال الحافظ ابن حجر: "عن الضمير في قوله "إلا بحقه" للإسلام، فمهما يثبت من حق الإسلام تناوله، ولذلك اتفق الصحابة الكرام على قتال من جحد الزكاة"[1][2].

وأما قوله ﷺ: "لا يحل دم امرئ مسلم..." الحديث. فهذا لا ينفي إقامة الحد على الساحر؛ لأنه كافر كما دلَّ القرآن الكريم، والسنة النبوية، وإجماع العلماء على ذلك، يقول الإمام النووي: "وأما قوله ﷺ: "والتارك لدينه المفارق للجماعة" فهو عام في كل مرتد عن الإسلام بأي ردة كانت، فيجب قتله إن لم يرجع إلى الإسلام، قال العلماء: ويتناول أيضًا كل خارج عن الجماعة ببدعة أو بغي أو غيرهما... واعلم: أن هذا عام يخص منه الصائل ونحوه، فيباح قتله في الدفع، وقد يجاب عن هذا بأنه داخل في المفارق للجماعة، أو يكون المراد لا يحل تعمد قتله قصدًا إلا هذه الثلاث"[3].

"وقال القرطبي في "الـمُفهم": ظاهر قوله "المفارق للجماعة" أنه نعت للتارك لدينه؛ لأنه إذا ارتدَّ فارقَ جماعة المسلمين، غير أنه يلتحق به كل من خرج عن جماعة المسلمين، وإن لم يرتد، كمن يمتنع من إقامة الحد عليه إذا وجب، ويقاتل على ذلك كأهل البَغْي، وقُطَّاع الطريق، والمحاربين من الخوارج وغيرهم، قال: فيتناولهم لفظ "المفارق للجماعة" بطريق العموم، ولو لم يكن كذلك لم يصح الحصر؛ لأنه يلزم أن ينفي من ذكر ودمه حلال، فلا يصح الحصر، وكلام الشارع منزَّه عن ذلك، فدل على أن وصف المفارقة للجماعة يعم جميع هؤلاء"[4].

وأكد الحافظ ابن حجر هذا الكلام بقوله: "والمراد بالجماعة جماعة المسلمين؛ أي فارقهم أو تركهم بالارتداد، فهي صفة للتارك أو المفارق لا صفة مستقلة، وإلا لكانت الخصال أربعًا، وهو كقوله قبل ذلك: "مسلم يشهد أن لا إله إلا الله"، فإنها صفة مفسرة لقوله "مسلم" وليست قيدًا إذ لا يكون مسلمًا إلا بذلك"[5].

وبناءً على ما سبق "فإن النبي ﷺ خصَّ هذه الثلاث؛ لأن عامة أسباب القتل إنما ترجع إليها، فكل من ثبت القتل في حقه مما لا يندرج تحت هذه الثلاث انضاف إليها، على أن الساحر كافر كما قدمنا ـ فهو داخل في قوله ﷺ: "التارك لدينه المفارق للجماعة"[6].

أما استدلالهم بما قصَّه الله من خبر سحرة فرعون، وأنهم صاروا من أوليائه في ساعة من نهار بعد أن كانوا سحرة كفارًا، وذلك في قوله ﷻ: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ

١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٢/ ٢٩٠).
٢. التبيان فيما جدَّ من أمر الجان، فوزي الإبشاني الأثري، مرجع سابق، ص١٤٦.
٣. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٦/ ٢٦٠٩).
٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٢/ ٢١١).
٥. المرجع السابق، (١٢/ ٢١٠).
٦. التبيان فيما جدَّ من أمر الجان، فوزي الإبشاني الأثري، مرجع سابق، ص١٤٨.

لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ (طه).

"إن هؤلاء كانوا كفرة أصليين انتقلوا من الكفر إلى الإيمان، وذلك لما علموا أن ما جاء به موسى عليه السلام لم يكن من قبيل السحر، وإنما كان معجزة وآية من الله تعالى له، فقبل الله تعالى منهم وتاب عليهم، فأين موضع الحجة من هذا؟ وما هو وجه الاستدلال؟"[1].

يقول الإمام القرطبي في تفسير الآية: "أي صدَّقنا بالله وحده لا شريك له، وما جاءنا به موسى عليه السلام: ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ (طه:٧٣) يريدون الشرك الذي كانوا عليه، وقيل: ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ (طه: ٧٣)"[2].

إن هؤلاء السحرة كانوا تبعًا لفرعون وخدمًا له، ثم إنه اختارهم لمواجهة موسى عليه السلام فمن كان سيقيم عليهم الحد؟! أيقيمه عليهم موسى ﷺ الذي جاء يدعو فرعون وقومه لعبادة الله وحده، ولم يكن في الأرض من الموحدين إلا عدد قليل من بني إسرائيل المستضعفين في الأرض؟

وبهذا يتبين لنا أنه لا حجة لهم في هذه الآية وغيرها، لما دلت عليه النصوص من ضرورة إقامة الحد على الساحر؛ وذلك لأنه لا يتصور بحال أن رجلًا من أكابر أصحاب النبي ﷺ كعمر يأمر بقتل الساحر من عند نفسه، أو أن يقتل جندب ساحرًا لمجرد رأيه، أو يقول بذلك عبد الله بن عمر، على ما هو معلوم عنه من شدة اتباعه لرسول الله ﷺ، من غير أن يكون هذا من هديه ﷺ وحكمه في الساحر، على ما يعلم هؤلاء جميعًا من حرمة دماء المسلمين وأنها محظورة، ولا تستباح إلا بيقين لا مرية فيه[3].

الخلاصة:

- لقد أشار القرآن الكريم إلى أن السحر حقيقة، وذلك في غير آية من كتاب الله عز وجل، قال عز وجل: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ (البقرة: ١٠٢)، وقال عز وجل أيضًا: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ (الأعراف)، وقال الله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ (طه)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (يونس)، وليس أدل على حقيقة السحر من نزول سورة الفلق وقوله عز وجل: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ (الفلق) وذلك عندما سُحر النبي ﷺ.
- أثبت القرآن الكريم حقيقة السحر، ثم أشار إلى أن الساحر كافر ولا ينبغي اتباعه، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ (البقرة:١٠٢)، وفي قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (يونس)، والإفساد في الأرض يكون من الكافر الذي لا يلتزم بمنهج الله عز وجل، بل يضاهيه بأنه يعلم الغيب أو أنه يضر أو ينفع، وهذه أمور اختص بها المولى عز وجل، لذلك قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ (يونس:٨١).

---

١. المرجع السابق، ص١٥٢.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (١١/ ٢٢٦).

٣. التبيان فيما جد من أمر الجان، فوزي الإبشاني الأثري، مرجع سابق، ص١٥٢، ١٥٣ بتصرف.

- لقد حذر النبي ﷺ أمته من السحر فجعله من الموبقات؛ أي: المهلكات وقرنه بالشرك وغيره، وهذا يدل على حقيقة وقوعه، وأن صاحبه كافر كما بيَّن في الحديث: "من ذهب إلى عراف أو كاهن فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ". وهذا يدل على كفر الساحر.

- ليس أدل على حقيقة السحر في السنة النبوية من حديث سحر النبي ﷺ، فقد سحره لبيد بن الأعصم اليهودي، والحديث في الصحاح، وبعض السنن، وعند الإمام أحمد، وقد شفاه الله ﷻ منه بعدما دلَّه على مكانه، وأنزل عليه سورة الفلق، لتكون حفظًا له ولأمته من كيد السحرة والشياطين.

- أجمع العلماء ـ قديمًا وحديثًا ـ على كون السحر حقيقة ثابتة، وليس أوهامًا أو خيالات، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، مستدلين على ذلك بما جاء في القرآن والسنة النبوية الصحيحة، ولم يخالف في ذلك إلا المعتزلة.

- اتفق العلماء على أن الساحر كافر لدلالة القرآن الكريم، والسنة المطهرة على ذلك، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ (البقرة:١٠٢)، وقوله ﷺ: "من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ".

- لقد ذهب جمهور الأئمة إلى وجوب قتل الساحر ـ ولم يخالف إلا الإمام الشافعي، ورواية عن الإمام أحمد ـ لما رُوي أن عمر بن الخطاب ؓ أمر بقتل السواحر، وبما رُوي عن حفصة أنها قتلت جارية لها سحرتها، وبما ورد أن جندب بن كعب قتل ساحرًا كان يسحر بين يدي الوليد بن عقبة، ولأنه كافر فيقتل.

- لم يقتل النبي ﷺ لبيد بن الأعصم الذي سحره؛ لأنه كان يخاف فتنة أصحابه، فينفر الناس من اتباع من الدخول في الإسلام.

- إن قوله ﷺ في حديث: "أُمرت أن أقاتل الناس..."، وحديث: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث..." لا يدل على أن الساحر لا يُقتل، لأن الإسلام أمر بقتال مانعي الزكاة، وقطاع الطرق، والساحر، وهذه ليست مذكورة في هذين الحديثين، ولكنها تدخل تحت هذه الأنواع.

الشبهة الخامسة

الطعن في حديث تكلم الذئب والبقرة بلغة البشر(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض الطاعنين بطلان ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة ؓ بشأن تكلم البقرة والذئب، والذي جاء فيه:" بينما راعٍ في غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منها شاةً، فطلبه الراعي، فالتفت إليه الذئب فقال: من لها يوم السَّبُع يوم ليس لها راعٍ غيري؟ وبينما رجل يسوق بقرة قد حَمَلَ عليها، فالتفتتْ إليه فكلمته، فقالت: إني لم أُخلق لهذا...". مستدلين على ذلك بأن هذين الحدثين قد وقعا لشخصين عاديين من البشر، ولو حدث ذلك لنبي لقلنا: إنه معجزة؛ لأنه خرق

(*) دور السنة في إعادة بناء الأمة، جواد موسى محمد عفانة، جمعية عمال المطابع التعاونية، الأردن، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

للنواميس، ومثل هذه القصص تخالف السنن الكونية والبدهيات، فلا يمكن للعقل تصديقها، ومثل هذه الأحاديث وضعها أصحاب الكتب للاستخفاف بعقول المسلمين، والاستهزاء بهم. رامين من وراء ذلك إلى الطعن في السنة النبوية، وما أخبرت به من غيبيات.

وجه إبطال الشبهة:

إن الأحاديث الواردة في تكلُّم الذئب والبقرة بلغة البشر ـ صحيحة؛ رواها الشيخان في صحيحيهما، وبهذا فهي في أعلى درجات الصحة، وهذا الأمر من الغيبيات الواقعة التي أخبر بها رسول الله ﷺ، ويجب الإيمان بها، وقد آمن بها النبي ﷺ والصحابة، وهذان الحدثان من الأشياء الممكنة الوقوع، والداعية إلى الاستغراب، والتي تندرج تحت مشيئة الله وقدرته المطلقة.

التفصيل:

لا شك أن السنة المطهرة قد نالت الكثير والكثير على أيدي الذين جردوا أنفسهم للنيل مما ثبت وصح في أقوى الكتب وأصحها، ومقصدهم معروف، وهدفهم ليس خَفيًّا عنا، وقد اخترع هؤلاء كافة الحجج العقلية؛ ليهدموا التراث النبوي من أساسه، إذ نالوا من صحيحيه: البخاري ومسلم، فساقوا الأدلة العقلية وحكموها أمام كل حديث يريدون أن ينسخوه من الإسلام؛ لواقع تغيَّر، أو لنشر إلحاد؛ لما وقع في ظنهم أن "الدين" محكوم بالعقل والواقع؛ لكنهم أخطئوا؛ فالواقع لا يخضع للعقل بقدر ما يخضع لحقائق الدين، والدين لا يخضع للعقل بقدر ما يخضع هو للدين.

وتتنوع قضايا الدين بين أمور الغيب والشهادة، وما الغيب عن الشهادة بمنكَر، بل الشهادة دليل على الغيب، وتلك الغيبيات هي ما غابت عن حواسنا، ولا استغراب لها، وإنكارها يفتح بابًا لإنكار وجود الباري سبحانه، ومن حكَّم إدراكه وعقله في مثل تلك الغيبيات فقد أخطأ طريق الهداية والرشاد.

ونتيجة لتحكيم هؤلاء للعقل في أمور الغيب دَسوا سمومهم في حديث رواه الشيخان في صحيحيهما، والذي نصه: عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "بينما راعٍ في غنمه عدا عليه الذئب، فأخذ منها شاة، فطلبه الراعي، فالتفت إليه الذئب فقال: من لها يوم السَّبُع، يوم ليس لها راعٍ غيري؟ وبينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها، فالتفتت إليه فكلمته، فقالت: إني لم أُخْلَق لهذا، ولكني خُلقت للحرْث، فقال الناس: سبحان الله، قال النبي ﷺ: فإني أُومِنُ بهذا، وأبو بكر، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما"[1].

وقالوا: كيف يكون هذا؟ إن هذا لهو خرق للمسلَّمات والبدهيات التي ألفناها منذ أن وجدنا؛ إذ إن الكلام صفة تميز بها البشر عن بقية الحيوانات، أتتكلم بقرة وذئب؟! أيصح أن ينسب هذا الكلام الهراء إلى صاحب الرسالة الخاتمة ﷺ؟ إن هذا لبعيد، وما وضعت تلك الأحاديث وأمثالها إلا من أجل الاستخفاف بعقول المسلمين الجهلاء.

نقول ـ وبالله التوفيق: إن الحديث صحيح قد رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، فهو في أعلى درجات

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلًا"، (٧/ ٢٢)، رقم (٣٦٦٣). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ، (٨/ ٣٥٢٠)، رقم (٦٠٦٦).

الصحة سندًا؛ حيث اتُّفق عليه بين الشيخين، وكَفَى بهما حجة، وذلك في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عن أبي هريرة رضي الله عنه. ولم يرو هذا الحديث أحد من مسلمة أهل الكتاب حتى يظن أنه دسيسة إسرائيلية.

- **ما أخبر عنه النبي ﷺ في هذا الحديث من باب الغيبيات الواجب الإيمان بها، دون تكييف:**

لقد أخبر النبي ﷺ بأمور غيبية كثيرة حدثت في الزمن الماضي، ذلك بما أوحاه الله عز وجل إليه من عنده، فقد قال عز وجل: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ (هود: ٤٩)، فهذا إخبار القرآن للنبي ﷺ بالغيبيات عما كان في الأمم الغابرة.

وقد تفرَّد رسول الله ﷺ بالإخبار عن بعض الغيبيات الماضية والمستقبلة، مما يزيد القلب طمأنينة للعمل والإيمان بما أخبر به صدقه في كل ما أخبر به، سواءً عن أمر حدث قبل زمنه ﷺ، أو عن أمر حدث في زمانه، ولم يطلع عليه ولكن أخبر به، أو عن أمر سيحدث في المستقبل فحدث وفق ما أخبر به ﷺ؛ إذ ذلك يدل على أنه رسول الله، وأن الذي علَّمه هو اللهُ العليم الخبير، فلقد أخبر ﷺ عن أشياء سابقة لم يطلع عليها، فجاءت طِبْق ما أخبر.

ومما أخبر به عن الأمم السابقة، إخباره عن قاتل المائة نفسٍ[1]، وعن المرأة البغي التي سقت كلبًا فدخلت الجنة[2].

وقد أخبر عن أشياء ستحدث في المستقبل وقد حدثت، ومنها إخباره بعلامات الساعة الصغرى والكبرى.

وما أخبر به رسول الله ﷺ في هذا الحديث عن تكلُّم البقرة والذئب، هو من إخباره بالأمور الغيبية مما قد مضى، وفيه دليل على نبوته ﷺ، ويجب الإيمان بها، وبعد أن ذكر النبي ﷺ هذه الحادثة أكد على إيمانه بها، فقال: "وأنا أومن بذلك" ولم يكتف بذلك، بل قال: "وأبو بكر وعمر بن الخطاب"، مع أن الصحابة الموجودين قد تعجبوا من الأمر.

وتعجبهم هذا لا يدل على أنهم كذبوا الخبر، كلا، بل هم قد آمنوا به رغم هذا التعجب؛ لأنهم مصدقون بكل ما أخبر به الرسول عمومًا، لا سيما وأن المخبر بذلك يعلن أمامهم بعد إخبارهم بذلك أنه (مؤمن به)؛ وذلك حتى لا يداخلهم أدنى شك، ويقتدوا برسول الله ﷺ في إيمانه بما أخبر به، ولولا حقيقته وصدقه لما أخبر به ﷺ، فهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يُوحى.

- **ما وقع في هذا الحديث هو من الأشياء الممكنة الوقوع لا المستحيلة، ولا المعتادة، ويخضع لقدرة الله المطلقة.**

إن مثل هذه الأمور والأحداث التي تقع على غير العادة البشرية لا تدخل في باب المستحيلات التي يستحيل وقوعها بحال من الأحوال، وإنما هي من باب الممكنات؛ أي يمكن وقوعها وإن لم يكن من العادة أن

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث بينا امرأة ترضع ابنها إذ مر بها راكب، (٦/ ٥٩١)، رقم (٣٤٧٠). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، (٩/ ٣٨٦٧)، رقم (٦٨٧٥).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: بدء الخلق، باب: إذا وقع الذباب في شراب أحدكم... (٦/ ٤١٤)، رقم (٣٣٢١).

تحدث، فهي تأتي خروجًا عن العادة، وإن لم تكن مستحيلة الوقوع. وذلك راجع إلى قدرة الله ﷻ وإرادته، فإن شاء تعالى أحرقت النار، أو امتنعت عن الإحراق، وإن شاء صارت العصا حية، أو نطقت الأحجار، وتكلمت العجماوات، فالممكن أوسع من المعهود وليس من المستحيل في شيء.

وهذا ما يوضحه د. جعفر شيخ إدريس، فيقول عن الممكن والمعهود والمستحيل: الممكن أوسع دائرة من المعهود، وأوسع دائرة مما يمكن تفسيره في صدور معارفنا العلمية الحالية، لكن كثيرًا من الناس تضيق أعطانهم[1] عن هذا؛ فيسارعوا إلى إنكار ما لم يعهدوا، ويسارعوا إلى إنكار ما لا تفسير له في حدود ما عندنا من علم، بل إن بعضهم يظن أن غير المعهود، أو غير ما يمكن تفسيره في حدود العلم المعهود مستحيل عقلًا.

ويزداد الأمر عجبًا حين ترى أن ضيِّقي الأفق هؤلاء كثيرًا ما يدَّعون العقلانية، أو يدَّعون العلميَّة.

المعهود هو ما عرفناه وعهدناه واقعًا، كطلوع الشمس من جهة الشرق، وكمقدرة الناس على الكلام بألسنتهم، وكإرواء الماء للظمآن والممكن هو ما يمكن وقوعه وإن لم يقع، فوصول الناس إلى القمر كان ممكنًا قبل أن يقع، وكذلك السفر بالطائرات، والحديث بالهواتف.

والمستحيل ما لا يمكن أن يحدث بأي حال من الأحوال، كوجود الشيء الواحد نفسه في مكانين مختلفين، وكاجتماع الإيمان والإلحاد في قلبٍ واحدٍ، وكالكلام والصمت.

١. أعطانهم: صدورهم.

ومن الأمثلة التي ذكرت في القرآن الكريم لهذه المستحيلات: قوله تعالى - ردًّا على الذين زعموا أن إبراهيم كان يهوديًّا أو نصرانيًّا: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ (آل عمران:٦٥).

وقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ (الأنعام)؛ أي أنه من المستحيل أن يكون له ولد ولم يكن له ﷻ صاحبه، وأما قوله ﷻ: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ (الزمر: ٤). فليس المقصود ولدًا يلده ﷻ، فهذا يتناقض مع الآية السابقة؛ وإنما المقصود به ولد متبنٍ، بدليل قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾.

إن كون الشيء ممكنًا لا يعني كونه لا بد أن يقع؛ لأن الممكن إنما يقع إذا تحققت شروط وقوعه، وإذا لم تتحقق فقد لا يقع أبدًا، وإن ظل وقوعه ممكنًا.

والمعهود نوعان: معهود طبيعي، ومعهود ثقافي، المعهود الطبيعي هو الذي يقع بحسب ما وضع الله تعالى في الكون من قوانين، وأما المعهود الثقافي فأعني به ما يعتاده الناس باختيارهم سواءً كان حسنًا أو سيئًا.

وإذا كانت أعطان بعض الناس تَضِيق، فتنكر ما لم تعهد في الطبيعة، فإن بعض الأعطان تكون أضيق من ذلك؛ فتنكر كل ما لم تعهده في ثقافتها وعاداتها وتقاليدها، وتعده مُنكرًا.

والناس بالنسبة للممكن غير المعهود نوعان: نوع يستغرب وقوعه؛ لكنه لا يعتقد استحالته، ونوع يعتقد أن وقوعه غير ممكن؛ أي يعتقد استحالته.

إنه لأمر طبيعي أن يستغرب الإنسان ما لم يُعهد،

وأن يتعجب منه إذا ذكر له؛ لذلك كان من الطبيعي أن يستغرب نبي الله زكريا عليه السلام أن يكون له ولد من امرأة عاقر وقد بلغ من الكبر عتيًّا، مع أن الذي أخبره بذلك هو الله تعالى الذي أرسله، قال الله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩﴾ (مريم).

وكان من الطبيعي أن تستغرب مريم ابنة عمران قول الملك لها: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾ (مريم)، وكان من الطبيعي أن تسأله مستغربة: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠﴾ (مريم)، وكان من الطبيعي أن يقول قوم مريم لها: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾ (مريم). مثل هذا الاستغراب أمر لا بد منه، وإلا استوى كون الشيء معهودًا معروفًا، وكونه ليس بمعهود ولا معروف، وكان من لوازم ذلك أن يصدِّق الإنسان كل ما يقال له من غرائب؛ لذلك فإن الله تعالى لم يذم زكريا ولا ذم مريم - عليهما السلام - على استغرابهما، وإنما بين لهما أن ما استغرباه أمر ممكن، وأنه داخل في قدرة الله تعالى، وأنه سيقع فعلًا.

والتصديق بمثل غير المعهودات - هذه التي يخبر بها الله تعالى أناسًا لم يشهدوها - هو من علامات حُسن العلم به تعالى، وقوة الإيمان به.

وعلى ما بينا يُحمل ما ذكره النبي ﷺ من تكلُّم البقرة والذئب؛ حيث تعجب الناس - الصحابة - من ذلك الأمر؛ لأنه مخالف للمعهود، حيث إن الحيوانات لا تتكلم؛ لأن الكلام من خصائص بني آدم.

لكن الخلط بين الممكن والمعهود والمستحيل هو أساس الحجج التي اعتمد عليها كل الذين أنكروا بعض حقائق الدين التي بلَّغتهم إياها الأنبياء، وكان هو أساس حجج العرب الجاهلين، ومن سبقهم ممن كفر برسل الله، ومن جاء بعدهم من الزنادقة والمنافقين والملحدين إلى يومنا هذا. انظر إلى الحجج التي اعتمدوا عليها في إنكارهم للبعث: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١﴾ (النازعات)، ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ٥١﴾ (الإسراء).

فهؤلاء قوم ظنوا أنه من المستحيل على عظام أَرِمت وتفتتت أن تدبَّ فيها الحياة من جديد. لكن القرآن الكريم أعطاهم أدلة على أن هذا أمر ممكن، بل هو أمر لازم.

كان القرآن الكريم يخاطب أناسًا يؤمنون بأن الله تعالى خالق كل شيء، فبيَّن لهم أنه إذا كان سبحانه قد خلقهم أول مرة، فلماذا يستغربون أن يعيد خلقهم مرة ثانية، مع أن الإعادة أهون من البداية؟ وبيَّن لهم أن فيما يشاهدون من إحيائه الأرض بعد موتها ما يدلهم على إمكانية البعث ويقربه إليهم، ثم بيَّن لهم أن هذا البعث أمر تستلزمه صفات الله تعالى.

كيف يرسل الله عز وجل رسلًا فيؤمن بعض الناس بهم ويصلحون، وقد يضحُّون في سبيل ذلك ببعض المكاسب الدنيوية، بينما يكفر آخرون، ويعيشون في

الأرض فسادًا، ثم يساوي بين مصير الفريقين؟ ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾ (القلم). ومن أمثلة ما يخالف ما عهدوه من أمور ثقافية قول العرب الجاهليين: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) ﴾ (ص).

وليس هذا أمرًا خاصًّا بالعرب الجاهليين، بل هو ضعف بشريٌّ عام، وهو الآن من أكبر سمات الحضارة الغربية السائدة في العالم اليوم؛ فالغربيون في جملتهم يعتقدون أن ما ألفوه من قيم وتقاليد في الأكل والشراب، واللباس، والتعامل، والحكم، والاقتصاد وغير ذلك، هو الأمر الطبيعي الذي ينبغي أن يكون عليه الناس، بل هو المعيار الذي يقاس به مدى صلاحية ما عند الآخرين.

ولقد كان من فوائد الكشوف والمخترعات العلمية الحديثة أنها وسعت من تصور الناس لدائرة الممكن؛ لإتيانها كشفًا أو اختراعًا بأشياء ما كان الناس سيصدقون بها لولا قيام الأدلة الحسية أو العقلية على وجودها. من كان يصدق في شيء كالهاتف الجوَّال، أو الأقراص التي تحوي من الكلام ما يساوي آلاف الصفحات[1].

والمذكور في الحديث الذي معنا لا يقاس بنواميس الكون بقدر ما يقاس بقدرة القادر سبحانه، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو جل شأنه، إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، سبحانه وتعالى، جل وعلا.

- **شواهد ومقويات:**

لقد روت لنا كتب السنة أحاديث كثيرة فيها تكلم الحيوانات مع رسول الله ﷺ، بل أكثر من ذلك، حيث الجمادات قد صدر منها أمثال ذلك، فقد سبَّح الحصى في يديه ﷺ، وحَنَّ الجذع إليه، وأشباه ذلك.

وإذا قيل: إن ذلك من معجزات النبي ﷺ، وتلك من دلائل نبوته، أما الحديث الذي معنا فإنه خاص بأناس عاديين.

نقول: نذكر لكم دليلًا واحدًا يؤكد لنا صحة الحديث الذي معنا، وجوازه عقلًا وشرعًا، وإثبات التعجب فيه من قدرة الله مع عدم إنكاره.

قال ابن حجر رحمه الله: "وقد وقع كلام الذئب لبعض الصحابة في نحو هذه القصة، فروى أبو نعيم في "الدلائل" من طريق ربيعة بن أوس عن أنيس بن عمرو عن أهبان بن أوس قال: كنت في غنم لي، فشدَّ الذئب على شاة منها، فصِحتُ عليه فأقعى الذئب على ذنبه يخاطبني، وقال: من لها يوم تشتغل عنها؟ تمنعني رزقًا رزقنيه الله تعالى، فصفقت بيدي، وقلت: والله ما رأيت شيئًا أعجب من هذا، فقال: أعجب من هذا، هذا رسول الله ﷺ بين هذه النخلات يدعو إلى الله، قال: فأتى أهبان إلى النبي ﷺ، فأخبره وأسلم"[2].

وفي هذا دليل على وقوع بعض الخوارق لأناس غير مُسلمين، فأهبان كان السبب في إسلامه وقوع كلام الذئب له، لما خطف الشاة منه ليأكلها، وقد حدث هذا في عهد النبي ﷺ.

---

١. الممكن والمعهود والمستحيل، د. جعفر شيخ إدريس، موسوعة الخطب والدروس، جمع وترتيب: الشيخ علي بن نايف الشحود، ص١، ٢ بتصرف.

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٧/ ٣٣).

وبهذا يتبين لنا صدق ما أخبر به رسول الله ﷺ فيما أخبر، وأن هذا الأمر محتمل الحدوث؛ لأنه محكوم بقدرة الله، وليس كل الأمور غير المعتادة مستحيلة الوقوع، وهذا الذي أخبر عنه رسول الله من الغيبيات الواجب الإيمان بها®.

الخلاصة:

- إن حديث تكلم البقرة والذئب بلغة البشر حديث صحيح، رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو من الغيبيات الواجب الإيمان بها دون تكييف، مع إثبات التعجب بدون إبطال أو إنكار.
- لقد احتوى حديث تكلم البقرة والذئب مع الراعي على ما يسمى بإمكانية حدوث أشياء خارقة للعادة مفتتة لنواميس الكون وقوانينه، فقد ثبت فيه نطق الحيوانات وتحدثها بلغة البشر؛ وهذا أمر ملموس ومشاهد في أمثلة كثيرة أخبر بها الرسول ﷺ، وكذلك القرآن، وهو من باب توسعة دائرة الممكن عن المعهود، وليس ذلك مستحيلًا على قدرة الله.
- ليس في الاستغراب من أمر واقع غير معتاد أدنى ملابسة أو إنكار، فقد تعجبت مريم - عليها السلام - من خطاب جبريل لها، وكذلك تعجب زكريا من بشارته بيحيى - عليهما السلام، ولم يُذمَّا على هذا، مع انتفاء نواميس الكون في حالتهما.
- إن في إخبار النبي ﷺ بهذه الأمور دليلًا على نبوته؛ وهو قد أخبر بذلك وآمن به، وفي حديث أهبان وإسلامه بسبب نطق الذئب، وإخباره بمكان الرسول محمد ﷺ ودعوته - أكبر دليل على ذلك.

® في "السنة مصدر أصيل في معرفة الغيب لكونها وحيًا" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الأولى، من الجزء الثامن (الإلهيات). وفي "الإيمان بالغيب من لوازم العقيدة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الأولى، من هذا الجزء. وفي "اتفاق القرآن والسنة على اطلاع النبي على بعض الغيبيات" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السادسة عشرة، من هذا الجزء. وفي "إخبار النبي ببعض الغيبيات هو من باب ما علمه الله تعالى له" طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة عشرة، من هذا الجزء. وفي "أهمية الوحي في الإيمان والتصديق بعالم الغيب" طالع: الشبهة الرابعة والثلاثين، من هذا الجزء.

الشبهة السادسة

الطعن في حديث "المؤمن يأكل في مِعًى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء"(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المشككين في حديث "المؤمن يأكل في معًى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء". ويستدلون على ذلك بأن الحديث يناقض المكتشفات العلمية الحديثة، ويتعارض مع واقع الحال الذي خُلق عليه الإنسان؛ إذ إن كل إنسان له قلب ورئتان، ومعدة وأمعاء دقيقة وغليظة، وغير ذلك من الأعضاء. متسائلين: كيف يذكر الحديث أن المؤمن يأكل في معى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء مع أن التركيب العضوي للإنسان لا يختلف من شخص لآخر؟

(*) مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م. موسوعة الإعجاز العلمي في سنة النبي الأمي، حمدي عبد الله الصعيدي، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

هادفين من طعنهم هذا إلى التشكيك في السنة النبوية.

وجه إبطال الشبهة:

إن حديث "المؤمن يأكل في معًى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء" حديث صحيح سندًا ومتنًا، فقد جاء في أصح كتب السنة، كما أنه لا يتعارض مع الحال التي خلق الإنسان عليها، والحديث له منطوق ومفهوم، وإلى كلٍّ ذهب فريق من العلماء.

التفصيل:

إن الأحاديث الواردة في أن المؤمن يأكل في مِعًى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء - أحاديث صحيحة في أعلى درجات الصحة؛ حيث رُويت في الصحاح والسنن والمسانيد بطرق صحيحة متصلة إلى النبي ﷺ.

فقد روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عُبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمؤمن يأكل في مِعًى واحد"[1].

كما روى البخاري من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ﷺ قال: "قال رسول الله ﷺ: يأكل المسلم في مِعًى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء"[2].

وقد روى الإمام مسلم من حديث أبي الزبير عن جابر وابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "المؤمن يأكل في مِعًى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء"[3].

وغير ذلك من الأحاديث التي جاءت في الصحيحين بهذا المعنى، كما رُويت هذه الأحاديث في كثير من كتب السنن الأخرى، فقد رواها الإمام الترمذي وابن ماجه والنسائي في سننهم، والإمام أحمد في مسنده، بطرق صحيحة متصلة مرفوعة إلى النبي ﷺ. وعلى هذا فالأحاديث الواردة في هذا الأمر ثابتة عن النبي ﷺ، وفي أعلى درجات الصحة.

أما عن معنى الحديث والمقصود منه فكان للعلماء فيه آراء وتفسيرات وترجيحات ذكرها الإمام ابن حجر في "فتح الباري" عند شرحه للأحاديث السابقة، فمنهم من حمله على ظاهره، وبعضهم قال: إن ظاهر الحديث ليس هو المراد أصلًا.

فأما الذين قالوا بظاهر الحديث فقد ذهبوا في ذلك إلى أقوال عدة:

أولها: أنه ورد في شخص بعينه، واللام عهدية لا جنسية.

قال ابن عبد البر: هذا الحديث خرج على غير مقصوده بالحديث، والإشارة فيه إلى كافر بعينه لا إلى جنس الكافر، ولا سبيل إلى حمله على العموم؛ لأن المشاهدة تدفعه وتكذبه، وقد جلَّ رسول الله ﷺ عن ذلك، ألا ترى أنه قد يوجد كافر أقل أكلًا من مؤمن، ويسلم الكافر فلا ينتقص أكله ولا يزيد... ويروى أن

1. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأطعمة، باب: المؤمن يأكل في مِعًى واحد، (٩/ ٤٤٦)، رقم (٥٣٩٤). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الأشربة، باب: المؤمن يأكل في معًى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء، (٧/ ٣١٧٤)، رقم (٥٢٧٤).
2. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأطعمة، باب: المؤمن يأكل في مِعًى واحد، (٩/ ٤٤٧)، رقم (٥٣٩٦).
3. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الأشربة، باب: المؤمن يأكل في مِعًى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء، (٧/ ٣١٧٥)، رقم (٥٢٧٧).

الرجل الذي قال فيه رسول الله ﷺ هذه المقالة هو جهجاه بن سعيد الغفاري... فقد روى مسلم من طريق أبي هريرة "أن رسول الله ﷺ ضافه ضيف وهو كافر، فأمر له رسول الله ﷺ بشاة فحلبت، فشرب حلابها، ثم أخرى فشربه، ثم أخرى فشربه، حتى شرب حلاب سبع شياه، ثم إنه أصبح فأسلم، فأمر له رسول الله ﷺ بشاة فشرب حلابها، ثم أمر بأخرى فلم يستتمَّها، فقال رسول الله ﷺ: المؤمن يشرب في مِعًى واحد، والكافر يشرب في سبعة أمعاء"[1].

وهذا أيضًا لفظ عموم والمراد به الخصوص، فكأنه قال: هذا إذ كان كافرًا كان يأكل في سبعة أمعاء، فلما آمن عوفي وبورك له في نفسه، فكفاه جزء من سبعة أجزاء مما كان يكفيه إذ كان كافرًا خصوصًا له.

فكان قوله ﷺ: "الكافر يأكل في سبعة أمعاء" إشارة إليه، كأنه قال: هذا الكافر، وكذلك المؤمن يأكل في معى واحد، يعني هذا المؤمن. والله أعلم. وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ (آل عمران: ١٧٣) وهو يريد رجلًا، فيما قال أهل العلم بتأويل القرآن، وقيل رجلان ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ (آل عمران: ١٧٣)؛ يعني: قريشًا، فجاء بلفظ عموم ومعناه الخصوص، ومثله ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (الأحقاف: ٢٥)، ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ﴾ (الذاريات: ٤٢) كل هذا عموم يراد به الخصوص، ومثل هذا كثير في القرآن ولسان العرب، وفي هذا الحديث دليل على ذم الأكول الذي لا يشبع، وأنها خلة مذمومة، وصفة غير محمودة، وأن القلة من الأكل أحمد وأفضل، وصاحبها عليها ممدوح[2].

وعلى هذا أيضًا حمله الطحاوي فقال: "إن ذلك منه إنما كان في رجل بعينه في حال كفره، وفي حال إسلامه، فلم يكن في الحديث عندنا وجه غير هذا الوجه، وكان قول رسول الله ﷺ: "المؤمن يأكل في معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء" خرج مخرج المعرفة، وما خرج مخرج المعرفة لم يتعدَّ مَنْ قُصد به إليه إلى مَنْ سواه، ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ (الشرح)، فقال أهل العلم في ذلك: لا يَغْلِب عسرٌ يُسْرَيْن، مستخرجين لذلك المعنى في هذه الآية؛ لأن العسر خرج مخرج المعرفة، فكان على واحد، وخرج اليسر مخرج النكرة فكان في كل واحد من قوله ﷻ: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ (الشرح) يسرًا غير الذي في الآخر منهما"[3].

قال ابن حجر: وقد تُعُقِّب هذا الحمل بأن ابن عمر - راوي الحديث - فهم منه العموم؛ فلذلك منع الذي رآه يأكل كثيرًا من الدخول عليه واحتج بالحديث، ويؤيد عدم جواز حمله على الخصوص تعدد الوقائع، وإيراد الحديث بعد كل واقعة منها في حق الذي وقع له نحو ذلك[4].

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الأشربة، باب: المؤمن يأكل في معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء، (٧/ ٣١٧٥)، رقم (٥٢٨١).

٢. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، مؤسسة قرطبة، القاهرة، د. ت، (١٨/ ٥٣: ٥٦) بتصرف.

٣. شرح مشكل الآثار، الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، (٥/ ٢٥٧، ٢٥٨).

٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٩/ ٤٥٠) بتصرف.

ثانيها: أن الحديث خرج مخرج الغالب، وليست حقيقة العدد مرادة، وتخصيص السبعة للمبالغة في التكثير، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ (لقمان: ٢٧). والمعنى: أن من شأن المؤمن التقلل من الأكل؛ لاشتغاله بأسباب العبادة، ولعلمه بأن مقصود الشرع من الأكل هو ما يسدُّ الجوع، ويمسك الرمق، ويعين على العبادة، ولخشيته أيضًا من حساب ما زاد على ذلك، والكافر بخلاف ذلك كله، فإنه لا يقف مع مقصود الشرع، بل هو تابع لشهوة نفسه مسترسل فيها غير خائف من تبعات الحرام، فصار أكل المؤمن إذا نُسِبَ إلى أكل الكافر كأنه بقدر السُّبْع منه، ولا يلزم من هذا اطراده في حق كل مؤمن وكافر، فقد يكون في المؤمنين من يأكل كثيرًا إما بحسب العادة، وإما لعارض يعرض له من مرض باطن، أو لغير ذلك، ويكون في الكفار من يأكل قليلًا إما لمراعاة الصحة على رأي الأطباء، وإما للرياضة على رأي الرهبان، وإما لعارض كضعف المعدة.

قال الطيبي: ومحصل القول أن من شأن المؤمن الحرص على الزهادة والاقتناع بالبُلْغة[1]، بخلاف الكافر، فإذا وجد مؤمن أو كافر على غير هذا الوصف لا يقدح في الحديث. ومن هذا قوله ﷺ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ﴾ (النور: ٣) وقد يوجد من الزاني نكاح الحرة، ومن الزانية نكاح الحر.

ثالثها: أن المؤمن يسمِّي الله تعالى عند طعامه وشرابه فلا يشركه الشيطان، فيكفيه القليل، والكافر لا يسمِّي فيشركه الشيطان، وفي صحيح مسلم في الحديث مرفوع: "إن الشيطان يستحل الطعام أن لا يذكر اسم الله عليه..."[2].

رابعها: أن المؤمن يقل حرصه على الطعام، فيبارك له فيه وفي مأكله، فيشبع من القليل، والكافر طامح إلى المأكل فلا يشبعه القليل، وهذا يمكن ضمُّه إلى الذي قبله، ويجعلان جوابًا واحدًا مركبًا[3].

خامسها: وهو المختار عند النووي: "أن المراد أن بعض المؤمنين يأكل في معًى واحد، وأن أكثر الكفار يأكلون في سبعة أمعاء، ولا يلزم أن يكون كل واحد من السبعة مثل معى المؤمن"[4].

القول الثاني: أما الذين قالوا: إن ظاهر الحديث ليس هو المراد أصلًا، فقد وجَّهوا الحديث ثلاث وجهات:

أحدها: "أن هذا مَثَلٌ ضُرِب للمؤمن وزهده في الدنيا والكافر وحرصه عليها، فكأن المؤمن لتقلله من الدنيا يأكل في معى واحد، والكافر لشدة رغبته فيها، واستكثاره منها يأكل في سبعة أمعاء، فليس المراد حقيقة الأمعاء، ولا خصوص الأكل، وإنما المراد التقلل من الدنيا والاستكثار منها، فكأنه عبَّر عن تناول الدنيا بالأكل، وعن أسباب ذلك بالأمعاء، ووجه العلاقة ظاهر"[5].

ونقل الطحاوي نحوه عن ابن أبي عمران فقال: "كان قوم حملوا هذا الحديث على الرغبة في الدنيا، كما

---

١. البُلْغة: الكفاف من العيش.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الأشربة، باب: آداب الطعام والشراب وأحكامها، (٧/ ٣١١٤)، رقم (٥١٦١).

٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٩/ ٤٤٩) بتصرف.

٤. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٧/ ٣١٧٦).

٥. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٩/ ٤٤٩).

تقول: فلان يأكل الدنيا أكلًا؛ أي: يرغب فيها، ويحرص عليها، فجعلوا معنى قوله ﷺ: "المؤمن يأكل في معى واحد" أي لزهادته في الدنيا، "والكافر في سبعة أمعاء" أي لرغبته فيها، ولم يجعلوا ذلك على الطعام، وقالوا: قد رأينا مؤمنًا أكثر طعامًا من كافر"[١].

ثانيها: معناه أن المؤمن يأكل الحلال، والكافر يأكل الحرام، والحلال أقل من الحرام في الوجود.

ثالثها: معناه حضّ المؤمن على قلة الأكل إذا علم أن كثرة الأكل صفة الكافر، فإن نفس المؤمن تنفر من الاتصاف بصفة الكافر، ويدل على أن كثرة الأكل من صفة الكفار قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ (محمد: ١٢)[٢].

وبذلك يكون قوله ﷺ: "المؤمن يأكل في معى واحد..." إنما هو من الأسلوب الخبري المراد به "الإنشائي"؛ أي: الأمر الناهي، وكأنه ﷺ يريد أن يقول: ليأكل المؤمن في معى واحد، ولا يتشبه بالكافر الذي يأكل في سبعة أمعاء"[٣].

"قال العلماء: يؤخذ من الحديث الحض على التقلل من الدنيا، والحث على الزهد فيها، والقناعة بما تيسر منها، وقد كان العقلاء في الجاهلية والإسلام يتمدَّحون بقلة الأكل، ويذمون كثرة الأكل"[٤].

١. شرح مشكل الآثار، الطحاوي، مرجع سابق، (٥/ ٢٥٨).

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، (٩/ ٤٤٩) بتصرف.

٣. موسوعة الإعجاز العلمي في سنة النبي الأمي، حمدي عبد الله الصعيدي، مرجع سابق، ص٩٣٠.

٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٩/ ٤٥١).

على أن هناك من يقول: "إن الأكل المذكور هنا لا يراد به الأكل المعروف، وهو ازدراد الطعام، وإنما يراد به معنى أعم وهو التمتع بالأكل، أو اللبس، أو الجمع، أو الادخار. وهو كقوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، وقول المولى ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ (النساء: ١٠).

فهذه الآيات الكريمة لا تعني الأكل المعروف، وإنما تعني شيئًا أعم من ذلك وهو ما تقدم... وسبب الحديث لا يكون مخصوصًا عمومه، فالعموم باقٍ على حاله، وإن كان السبب خاصًا لا عموم له، وبيان هذا أن رسول الله ﷺ لما رأى ذلك الكافر وكثرة ما يأكل ذكر خُلُقًا من أخلاق الكافرين، وهو التمتع باللذات المادية بشَرَهٍ وشدة. والمعاني تتداعى.

وتفسير هذا قول العلماء: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، يريدون أن اللفظ يكون عامًا في دلالته وإن كان خاصًا سببه، وغالب عمومات الشرع أسبابها خاصة، هذا من جهة الأكل، وأما من جهة العدد فلا ريب أنه لا يريد في مثل هذا الاستعمال تحديد العدد. ومثل ذلك أن تقول: فلان يتكلم بسبعة ألسنة أو بسبعة أفواه، ويأكل في سبعة بطون، وأمثال ذلك.

ولا شك أن القائل لذلك لا يقصد العدد المذكور وإنما يريد المبالغة"[٥].

٥. مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مرجع سابق، ص٩٦، ٩٧.

وقال ابن القيم: "لما كان الكافر ليس في قلبه شيء من الإيمان والخير يغتذي به انصرفت قواه ونهمته كلها على الغذاء الحيواني البهيمي، لما فقد الغذاء الروحي القلبي، فتوفرت أمعاؤه وقواه على هذا الغذاء، واستفرغت أمعاؤه هذا الغذاء، وامتلأت به بحسب استعدادها وقبولها، كما امتلأت به العروق والمعدة، وأما المؤمن فإنه إنما يأكل العلقة ليتقوى بها على ما أُمِر به، فهمّته وقواه مصروفة إلى أمور وراء الأكل، فإذا أكل ما يغذيه ويقيم صلبه استغنى قلبه ونفسه وروحه بالغذاء الإيماني عن الاستكثار من الغذاء الحيواني، فاشتغل معاه الواحد بالغذاء، فأمسكه حتى أخذت منه الأعضاء والقوى مقدار الحاجة، فلم يحتج إلى أن يملأ أمعاءه كلها من الطعام، وهذا أمر معلوم بالتجربة، وإذا قويت مواد الإيمان ومعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته والشوق إلى لقائه في القلب استغنى بها العبد عن كثير من الغذاء، ووجد لها قوة تزيد على قوة الغذاء الحيواني"[1].

ومن خلال ما سبق يتبين أن ما يؤخذ من الحديث هو الحض على التقلل من الطعام، ومن ثم الحث على الزهد في الدنيا، والقناعة بما تيسر منها، وأن من شأن أهل الإيمان التقليل من الطعام والشراب، حذرًا من الإسراف المذموم، والتزامًا بما أخرجه الترمذي وغيره من حديث مقدام بن معديكرب، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطنٍ، بحسب ابن آدم أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لِنَفسِهِ"[2].

وبهذا يسلم الحديث من الإشكال المشهور الذي أُورد عليه.

الخلاصة:

- إن حديث "الكافر يأكل في سبعة أمعاء" حديث صحيح ورد في أصح كتب السنة، كما أنه لا يعارض الحال التي خلق عليها الإنسان.
- لقد اختلف العلماء في المراد من الحديث، فمنهم من فهمه على ظاهره، ومنهم من قال: إن ظاهر الحديث ليس هو المراد أصلًا.
- إن الحديث يحض المؤمن على قلة الأكل، وهي ممدوحة لدى العقلاء في الجاهلية والإسلام، ويذم كثرة الأكل ويعدها صفة من صفات الكافرين.

الشبهة السابعة

إنكار حديث "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغرضين حديث: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"، زاعمين أنه يعارض نصوص القرآن الكريم التي جاءت بشأن التمتع بملاذ الدنيا، وذلك

١. التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم، تحقيق: طه يوسف شاهين، دار الطباعة المحمدية الأزهرية، القاهرة، ط١، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، (١/ ٢٣٦).

٢. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في كراهية كثرة الأكل، (٧/ ٤٣)، رقم (٢٤٨٦). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٣٨٠).

(*) تحرير العقل من النقل، سامر إسلامبولي، مرجع سابق.

كما في قوله ﷻ: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (القصص: ٧٧)، وقوله ﷻ: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (الأعراف:٣٢). فظاهر الآيات يدل على إباحة التمتع بالدنيا قدر المستطاع؛ فالتعارض واضح بين ما تدل عليه الآيتان، وما يشير إليه الحديث من ذم الدنيا، وجعلها شقاءً وتعبًا وعذابًا وأغلالًا وسجونًا، وكلها أوهام باطلة؛ وعليه يكون هذا الحديث باطلًا. هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في السنة النبوية وادِّعاء تناقضها مع القرآن.

وجه إبطال الشبهة:

إن حديث: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" صحيح؛ فقد رواه الإمام مسلم في صحيحه، وغيره من رواة الحديث، وقد جاء كاشفًا القناع الزائف عن وجه الدنيا القبيح، وأظهر حقيقتها لدى كل من المؤمن والكافر؛ فالمؤمن وإن كان فقيرًا أو بلغ من الغنى ما بلغ؛ فإنما دنياه هي كالسجن بالنسبة إلى ما أعدَّه الله له في الآخرة من نعيم مقيم. أما الكافر وإن كان غنيًّا أو فقيرًا، فإنما دنياه كالجنة بالنسبة إلى ما ينتظره في الآخرة من العذاب الأليم الدائم، وإذا كان هذا هو معنى الحديث؛ فليس فيه إذن ما يعارض آيات القرآن.

التفصيل:

مما لا شك فيه أن حديث "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"[1] حديث صحيح ثابت في كتب السنة النبوية؛ فقد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ، ورواه من هذا الطريق أيضًا الإمام أحمد في مسنده[2]، وكذلك الترمذي في جامعه[3]، وابن ماجه في سننه[4]؛ وبهذا يكون الحديث صحيحًا بهذا السند إلى النبي ﷺ، ولم يطعن فيه أحد من نقاد الحديث بشبهة في سلسلة سنده.

أما بالنسبة لمتن الحديث، فقد توهم بعض المغالطين أن فيه دلالة على أن المؤمن يجب عليه أن يعيش حياةً بائسة كلها شقاء وتعاسة، لا يضحك ولا يفرح ولا يروِّح عن نفسه مطلقًا، وهذا التوهم غير صحيح على إطلاقه هذا ألبتة؛ فإذا نظرنا إلى ما ذكره شُرَّاح الحديث بشأنه؛ تبيَّن مدى شناعة ما توهمه الجاهلون، كما أنه لا تعارض مطلقًا بين الحديث والآيات التي ذكروها، فالمراد من هذا الحديث هو بيان مكانة كلٍّ من المؤمن والكافر في الدنيا، بالمقارنة بين ما ينتظر المؤمن من النعيم المقيم في الآخرة، وما ينتظر الكافر من العذاب والشقاء الدائم في الآخرة، وقد جاءت أقوال العلماء كلها تدور حول هذا المعنى.

فقد قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث: "قوله ﷺ: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"، معناه:

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الزهد والرقائق، (٩/ ٤٠٥٨)، رقم (٧٢٨٣).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ، (١٦/ ١٢٦)، رقم (٨٢٧٢). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٣. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، (٦/ ٥٠٦)، رقم (٢٤٢٦). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٣٢٤).

٤. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الزهد، باب: مَثَل الدنيا، (٢/ ١٣٧٨)، رقم (٤١١٣). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٤١١٣).

أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة، مكلَّف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا، وانقلب إلى ما أعدَّ الله تعالى له من النعيم الدائم، والراحة الخالصة من النقصان، وأمَّا الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد"[1].

وقال الزمخشري: "أراد أنها للمؤمن كالسجن في جنب ما أُعِدَّ له من المثوبة، وللكافر كالجنة في جنب ما أُعِدَّ له من العقوبة.

وقيل: إن المؤمن صرف نفسه عن الملاذ وأخذها بالشدائد، فكأنه في السجن، والكافر أمرحها في الشهوات، فهي له كالجنة"[2].

فالحديث يهدف إلى حثِّ المؤمن على عدم الانغماس في شهوات الدنيا وزينتها؛ فتُبْعده عن هدفه الأساسي الذي جاء إليها لتحقيقه، وهو عبادة الله، حيث قال ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الذاريات)؛ فالمؤمن في سجن إيمانه؛ أي: في قيد إيمانه الذي يرغِّبه عن شهوات النفس المحرمة، كما أنه يرغبه في العمل الصالح الذي ينفعه في الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم: "الدنيا سجن المؤمن" فيه تفسيران:

أحدهما: أن المؤمن قيد إيمانه عن المحظورات، والكافر مطلق التصرف.

والآخر: أن ذلك باعتبار العواقب، فالمؤمن لو كان أنعم الناس، فذلك بالإضافة إلى مآله في الجنة كالسجن، والكافر عكسه؛ فإنه لما كان أشد الناس بؤسًا، فذلك بالنسبة إلى النار جنته، فائدة المبالغة في المدح"[3].

ويؤكد هذا أيضًا ما ذكره الشافعي المكي في تعقيبه على هذا الحديث قائلًا: "أي بالنسبة لما أُعِدَّ له من النعيم، و"جنة الكافر"؛ أي بالنسبة لما أُعِدَّ له من العذاب، أو يقال: المؤمن ممنوع من شهواته المحرمة فكأنه في السجن، والكافر عكسه، فهي كالجنة له، قاله الشيخ أكمل الدين، وأشار إلى أنه من التشبيه البليغ؛ أي: حذفت أداته وحمل المشبه على المشبه به؛ مبالغةً وادعاءً أنه من أفراده، لا استعارة؛ لأن شرطها طيُّ ذكر المشبه أو المشبه به، وأشار بعضهم إلى أنه على حقيقته، وأن المؤمن لما عليه في الدنيا من التكاليف وتوالي المحن والمكابدات للهموم والغموم والأسقام وغير ذلك في سجن، وأي سجن أعظم من ذلك؟! ثم هو في السجن لا يدري بماذا يُختم له من عمل، كيف وهو يتوقع أمرًا لا شيء أعظم منه، ويخاف هلاكًا لا هلاك فوقه، فلولا أنه يرتجي الخلاص من هذا السجن لهلك حالًا، ولكن لطف الله به بما وعده على صبره، وبما كشف له من حميد عاقبة أمره، والكافر منفك عن تلك التكاليف، آمن من تلك المخاوف على لذاته، منهمك في شهواته، فهو كالأنعام، وعن قريب يستيقظ من هذه الأحلام، ويحصل في السجن الذي لا يُرام.

وحكى القرطبي عن سهل الصعلوكي الفقيه

1. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٤٠٦٨).
2. الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٦م/ ٢٠٠٥م، (٢/ ١٦٨).
3. بدائع الفوائد، ابن القيم، تحقيق: هشام عطا وآخرين، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، (٢/ ٦٩٦).

الخراساني، وكان ممن جمع رياسة الدين والدنيا: أنه كان في بعض مواكبه ذات يوم؛ إذ خرج عليه يهودي من إيوان حمام، وهو بثياب دنسة وصفة نجسة، فقال: أنتم تزعمون أن نبيكم قال: "الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر"، وأنا عبد كافر وترى حالي، وأنت مؤمن وترى حالك؟! فقال له على الفور: إذا صرتَ غدًا إلى عذاب الله كانت هذه الجنة لك، وإذا صرتُ أنا إلى النعيم ورضوان الله، صار هذا سجني، فعجب الخلق من فهمه وسرعة جوابه"[1].

وهذا الحديث يُعدُّ من الأخبار التي جاءت في ذم الدنيا، وقد ترادفت الآيات وتواترت الآثار بذم الدنيا وزينتها، ومدح التقلل منها والإعراض عنها، والزهد فيها وفي لذاتها. قال ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ...﴾ (آل عمران: ١٤)، وقال ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)﴾ (آل عمران)، وقال ﷻ: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ (العنكبوت)، وقال ﷻ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧)﴾ (الأعلى)، إلى غير ذلك من الآيات.

وروى الترمذي في سننه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم"[2]. وقال الحافظ ابن الجوزي رحمه الله: واعلم أن خلقًا كثيرًا سمعوا ذم الدنيا ولم يفهموا المذموم، وظنوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التي خُلقت للمنافع من المطاعم والمشارب، فأعرضوا عما يصلحهم منها فتجففوا فهلكوا، ولقد وضع الله ﷻ في الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها، فكلما تاقت منعوها؛ ظنًّا منهم أن هذا هو المراد، وجهلًا بحقوق النفس، وعلى هذا أكثر المتزهِّدين... واعلم كذلك أن الأرض خُلقت مسكنًا، وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح. وقد جعلت المعادن فيها كالخزائن، فيها ما يُحتاج إليه، والآدمي محتاج إلى ذلك لصلاح بدنه الذي هو كالناقة للمسافر، فمن تناول ما يصلحه لم يُذمَّ، ومن أخذ فوق الحاجة بكف الشَّره وقع الذم لفعله، وأُضيف إلى الدنيا تجوزًا، وليس للشَّره وجه؛ لأنه يخرج إلى الأذى، ويُشغل عن طلب الأخرى، فيُفوِّت المقصود ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة، ويبرد لها الماء، ويغير عليها أنواع الثياب، وينسى أن الرُّفقة قد سارت، فإنه يبقى في البادية فريسة السباع هو وناقته، ولا وجه في التقصير في تناول من الدنيا؛ لأن الناقة لا تقوى على السير إلا بتناول ما يصلحها... وإذ قد عرفت المذموم من الدنيا، فكن قائمًا بالقسط لا تأخذ فوق ما يصلحك، ولا تمنع نفسك حظها الذي يقيمها[3].

---

١. دليل الفالحين لطريق رياض الصالحين، الشافعي الأشعري المكي، دار البيان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، (٢/ ٤٠٦).

٢. حسن: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله، (٦/ ٥٠٤)، رقم (٢٣٢٢). وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٣٢٢).

٣. غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، محمد بن أحمد السفاريني، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، (٢/ ٥٤٥: ٥٤٨) بتصرف.

فالإعمار مطلوب في الدنيا، فعلى قدر عمل الإنسان للخيرات، وإكثاره للأعمال التي تقربه من الله تعالى؛ يحصل المؤمن على الجنة والفلاح والنجاح، والقرآن كثيرًا ما حث على هذا؛ فقد قال ﷻ: ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ (الملك)، فالحديث لم يقصد أبدًا تقييد المؤمن من كل خيرات الدنيا، بل مقصود الحديث ـ والإسلام عمومًا ـ هو الإقبال على خيرات الدنيا التي أحلها الله ﷻ لعباده؛ حتى تعينهم على طاعته ﷻ، دون إسراف أو مَخِيلة[1]، وقد بيَّن ﷻ ذلك فقال: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (الأعراف).

"قال ابن عباس: أحلَّ الله في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفًا أو مَخِيلة، فأما ما تدعو الحاجة إليه، وهو ما سدَّ الجوعة وسكَّن الظمأ، فمندوب إليه عقلًا وشرعًا؛ لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس؛ ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال ـ أي في الصوم؛ لأنه يُضعف الجسد، ويُميت النفس، ويُضعف عن العبادة، وذلك يمنع منه الشرع ويدفعه العقل. وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظٌّ من بر، ولا نصيب من زهد؛ لأن ما حرمها من فعل الطاعة بالعجز والضعف أكثر ثوابًا وأعظم أجرًا"[2].

وقول الله ﷻ: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (الأعراف: ٣٢)، "قيل في معناه: إن الطيبات من الرزق خالصة يوم القيامة من التنغيص والغم للمؤمنين، فإنها لهم في الدنيا مع التنغيص والغم"[3].

وهذا يقتضي أن يكون غير المؤمنين مشتركين معهم في ملذات الدنيا إلا أن الأمر يختلف بالنسبة للاثنين، فالمؤمن يتمتع بنعم الله في نطاق إيمانه، وعليه فهو محكوم بألَّا يُفرِّط أو يُفْرِط، وهو بذلك مضيق عليه، كأنه في سجن ـ كما جاء في الحديث الذي معنا ـ أمَّا غير المؤمن فإنه يترك العنان لنفسه وهواه، فهو في جنة بالقياس بما ينتظره من جحيم يوم القيامة.

وعليه؛ فالحديث لا يعارض الآية؛ لأنه ليس دعوة لترك الدنيا مطلقًا، بل هو حثٌّ على الزهد المأثور به في الدنيا، وهذا إنما يكون بالقلب؛ بمعنى ألَّا يكون للدنيا قدر عند المؤمن، ولا له إليها التفات، ولا هي أكبر همه، وأمَّا كونه ينتفع بها فيما أذن الله فيه، وهي محقورة، غير مهتم بها، فذلك من المحاسن[4]، وبذلك فلا تعارض بين الحديث وهذه الآية الكريمة.

وأما قول الله ﷻ مخاطبًا قارون: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (القصص: ٧٧)، فهي تؤكد ما سبق، قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية:

"أي: لا نلومك على أن تأخذ نصيبك من الدنيا؛ أي الذي لا يأتي على نصيب الآخرة، وهذا احتراس في الموعظة؛ خشية نفور الموعوظ من موعظة الواعظ؛

١. المخيلة: الكِبْر.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (٧/ ١٩١).

٣. معالم التنزيل، البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرين، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، (٣/ ٢٢٥).

٤. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (٣/ ١٩٩) بتصرف.

لأنهم لما قالوا لقارون: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أوهموا أن يترك حظوظ الدنيا، فلا يستعمل ماله إلا في القربات، فأفيد أن له استعمال بعضه فيما هو متمحض لنعيم الدنيا إذا آتى حق الله في أمواله. فقيل: أرادوا أن لك أن تأخذ ما أحل الله لك"[1].

وقد ذكر الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية ما نصه: "قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ اختلف فيه؛ فقال ابن عباس والجمهور: لا تضيِّع عمرك في ألا تعمل عملًا صالحًا في دنياك؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها، فالكلام على هذا التأويل شدَّةٌ في الموعظة، وقال الحسن وقتادة: معناه لا تضيع حظك من دنياك في تمتُّعك بالحلال، وطلبك إياه، ونظرك لعاقبة دنياك، فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به، وإصلاح الأمر الذي يشتهيه. هذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدة؛ قاله ابن عطاء.

قلت: وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر في قوله: احرث لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا، وعن الحسن: قَدِّم الفضل، وأمسك ما يبلغ، وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرف، وقيل: أراد بنصيبه الكفن، فهذا وعظ متصل؛ كأنهم قالوا: لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذي هو الكفن، ونحو هذا قول الشاعر:

نصيبك مما تجمع الدهر كله

رداءان تُلوى فيهما وحنُوط

وقال آخر:

وهي القناعة لا تبغي بها بدلا

فيها النعيم وفيها راحة البدن

انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها

هل راح منها بغير القطن والكفن

قال ابن العربي: وأبدع ما فيه عندي قول قتادة: ولا تنس نصيبك الحلال، فهو نصيبك من الدنيا، ويا ما أحسن هذا.

﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ (القصص: ٧٧)؛ أي: أطع الله واعبده كما أنعم عليك"[2].

وعليه؛ فهذه الآية - إذن - ليس فيها ما يعارض الحديث أو يبطله كما ادَّعى المغرضون.

ومن خلال ما سبق يتضح أن الحديث لا يعارض القرآن على الإطلاق؛ فالحديث والقرآن يخرجان من مشكاة واحدة، وكل ما أشار إليه الحديث: هو التحذير من الدنيا والافتتان بنعيمها الذي مهما كَثُر عند المؤمن، فهو ليس بشيء لما ينتظره من نعيم في الآخرة، وعلى العكس من ذلك حال الكافر الذي لو اطلع على ما ينتظره من جحيم في الآخرة، لعلم أن هذه الدنيا التي يعيشها مهما كانت فهي جنته الوحيدة البالية، التي لا يطول وقتها حتى تنقلب إلى السجن الأبدي.

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يؤتى بأنعم أهل الدنيا - مِنْ أهل النار - يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، (٢٠/ ١٧٩).

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (١٣/ ٣١٤).

بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا - من أهل الجنة - فيُصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدَّة قط"[1].

وليس من الضروري أن يكون المؤمن فقيرًا حتى يدخل الجنة، فيا حبذا الغني الشاكر الذي يتقي الله في أمواله، وينفقها فيما أحلَّ له، ويبتعد عمَّا حُرِّم عليه، فتكون دنياه كالسجن، بالنسبة لما ينتظره عند الله في الآخرة من نعيم مقيم لا يزول أبدًا، وربما يكون الكافر فقيرًا جدًّا في دنياه، فتكون دنياه جنةً على هذه الحال، بالنسبة للعذاب الدائم الذي أعده الله له يوم القيامة.

وهكذا يتضح أن حديث: "الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر" حديث صحيح، ولا تعارض بينه وبين القرآن الكريم.

فالحديث جاء مبيِّنًا لحقيقة هذه الدنيا، والفرق في ذلك عند كل من المؤمن والكافر؛ فهو في ذم حالها وليس لتحريم طيباتها، وإن كان الأمر كذلك، فأين التعارض إذًا؟!

الخلاصة:

- إن النبي ﷺ لم يترك خيرًا قط إلا وبيَّنه ونبَّه عليه، ولم يترك شرًّا قط إلا وحذر منه؛ حرصًا منه ﷺ على ما فيه صلاح الأمة ونجاتها ورشدها.
- إن حديث: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" بيان منه ﷺ لحقيقة الدنيا، وهو حديث صحيح أخرجه مسلم في صحيحه، وغيره من المحدثين، وليس فيه ما يحرم الطيبات التي أحلها الله، أو التحجير على من أرادها، كما ادَّعى الواهمون.
- لقد جاء الحديث في ذم الدنيا مثله في ذلك كثير من الأخبار والآثار التي جاءت في مثل هذا الباب، والذي دل عليه القرآن الكريم في غير آية، قال تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨)﴾ (التوبة)، وقال ﷻ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ (العنكبوت)، إلى غير ذلك من الآيات والأخبار التي جاءت في ذم الدنيا.
- الحديث يوضح مكانة الدنيا عند كل من المؤمن والكافر، بالنظر إلى مآل كل منهما في الآخرة.
- المؤمن مهما كان متنعمًا بما آتاه الله من النعم في دنياه، فهذا كالسجن بالنسبة إلى مآله في جنة الآخرة. أما الكافر، وإن كان أشد الناس بؤسًا وفقرًا في الدنيا، فتلك هي جنته بالنسبة إلى ما ينتظره من العذاب الأليم في الآخرة.
- إن كان الحديث ذمًّا في الدنيا؛ فليس هذا باعثًا إلى الإعراض عن الانتفاع بمنافعها وطيباتها، بل يجب الأخذ منها بالقسط، وهذا بيان لحقيقة الدنيا منه ﷺ، وليس لتحريم طيباتها.

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: صفة المنافقين وأحكامهم، باب: صَبْغ أَنْعَم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بُؤسًا في الجنة، (٩/ ٣٩٢٤)، رقم (٦٩٥٥).

الشبهة الثامنة

الطعن في حديث "حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض الواهمين في صحة حديث: "بلِّغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار". ويزعمون أن أبا كبشة ـ أحد رواة الحديث ـ قد دسَّ فيه ما ليس منه، فبدَّل جملة "وحدِّثوا عني ولا حرج" ـ التي هي عند الإمام مسلم ـ إلى "وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"، ويدعون أن هذه الجملة من الإسرائيليات التي أدخلت في الحديث. رامين من وراء ذلك إلى التشكيك في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن حديث "حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" حديث صحيح ثابت في كتب السنة المتعددة؛ فقد أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، والإمام أحمد في مسنده، والإمام الترمذي وأبو داود في سننيهما، وذكره الطحاوي في شرح مشكل الآثار، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط أيضًا. كما أن أبا كبشة من الرواة الثقات كما أجمع العلماء والمحدثون.

٢) إن جملة: "وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" صحيحة ثابتة من ناحية المتن؛ لأنها تدل على إباحة النبي ﷺ الحديث عن بني إسرائيل بعد أن كان قد نَهَى عن ذلك؛ خشية الفتنة، قبل استقرار الأحكام التشريعية.

(*) دور السنة في إعادة بناء الأمة، جواد عفانة، مرجع سابق.

التفصيل:

أولا. صحة حديث "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" من ناحية السند:

لقد ثبتت صحة حديث: "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار"، فقد رواه البخاري في صحيحه، قال: حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد، أخبرنا الأوزاعي، حدثنا حسان بن عطية عن أبي كبشة عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال... ثم ذكر الحديث السابق[1].

وقد رواه الإمام الترمذي في سننه عن: محمد بن يحيى، عن محمد بن يوسف عن ابن ثوبان: هو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن حسان بن عطية، عن أبي كبشة السلولي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ، ثم ذكر الحديث، وقال: حديث حسن صحيح[2].

وأخرجه الترمذي من طريق آخر عن محمد بن بشار، حدثنا أبو عاصم عن الأوزاعي عن حسان بن عطية، عن أبي كبشة السلولي، عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ، ثم ذكر الحديث، وقال: حديث صحيح[3].

وقد ذكر الحديث أيضًا الإمام الطحاوي، فقال:

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، (٦/ ٥٧٢)، رقم (٣٤٦١).

٢. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: العلم، باب: ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، (٧/ ٣٦٠)، رقم (٢٨٠٦). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٦٦٩).

٣. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: العلم، باب: ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، (٧/ ٣٦٠)، رقم (٢٨٠٧).

حدثنا يونس، حدثنا بشر بن بكر، وحدثنا الربيع المرادي، حدثنا بشر عن الأوزاعي، حدثنا حسان بن عطية، حدثني أبو كبشة السلولي قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ثم ذكر الحديث[1].

وأخرجه أبو داود في سننه، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثني علي بن مسهر عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" وقال: حديث صحيح[2].

وبهذا يتبين لنا أن الحديث المذكور صحيح؛ فقد أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، والترمذي، وأبو داود في سننيهما، والطحاوي في شرح مشكل الآثار، والإمام أحمد في مسنده، وكلها عن أبي كبشة.

أما إذا تتبعنا أبا كبشة السلولي الشامي - وقد زعموا أنه واضع جملة "وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" في الحديث الذي معنا، فإن صاحب التهذيب يقول عنه: "أبو كبشة السلولي، بفتح المهملة وتخفيف اللام، الشامي، ثقة، من الثانية"[3].

أما المزِّيّ صاحب تهذيب الكمال فيقول عنه: "أبو كبشة السلولي الشامي، رَوَى عنه: حسان بن عطية، وربيعة بن يزيد، ويونس بن سيف الكلاعي، وأبو سلام الأسود.

وذكره أبو زُرعة الدمشقي في الطبقة الثانية من تابعي أهل الشام...

وقال الإمام العجلي: شامي، تابعي، ثقة... روى له البخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي...

وأخبرنا أبو إسحاق ابن الدرجي قال: أنبأنا أبو جعفر الصيدلاني في جماعة، قالوا: أخبرتنا فاطمة بنت عبد الله قالت: أخبرنا أبو بكر بن ريذة.

قالا: أخبرنا أبو القاسم الطبراني، قال: حدثنا أبو مسلم الكشي، قال: حدثنا أبو عاصم، قال: حدثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية عن أبي كبشة السلولي عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ قال: فذكر الحديث...

وقال: رواه أحمد بن حنبل، والبخاري عن أبي عاصم فوافقناهما فيه بعلو"[4].

إذن فإن أبا كبشة من الرواة الثقات، ولم يجرحه أحد من المحدثين والعلماء®.

ثانيًا. إباحة النبي ﷺ الحديث عن بني إسرائيل بعد النهي عن ذلك:

إن قوله ﷺ: "وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"؛ أي: لا ضيق عليكم في التحديث عنهم؛ لأنه كان تقدم

---

١. صحيح: أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار، باب: بيان مشكل ما رُوي عن رسول الله ﷺ من قوله: وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، (١/ ١٢٥)، رقم (١٣٣). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على مشكل الآثار.

٢. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: العلم، باب: الحديث عن بني إسرائيل،(١٠/ ٦٩)، رقم (٣٦٥٧). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٣٦٦٢).

٣. تقريب التهذيب، ابن حجر، مرجع سابق.

٤. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، (٣٤/ ٢١٥، ٢١٦).

® في **"عدم صحة دس كعب الأحبار إسرائيليات في السنة"** طالع: الشبهة السادسة، من الجزء الخامس (الأئمة والرواة).

منه ﷺ الزجر عن الأخذ عنهم، والنظر في كتبهم، ثم حصل التوسُّع في ذلك، وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية والقواعد الدينية خشية الفتنة، ثم لما زال المحذور وقع الإذن في ذلك لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار، وقيل: معنى قوله "لا حرج": لا تضيق صدوركم بما تسمعونه عنهم من الأعاجيب، فإن ذلك وقع لهم كثيرًا، وقيل: لا حرج في ألا تحدثوا عنهم؛ لأن قوله: أولًا: "حدثوا" صيغة أمر تقتضي الوجوب، فأشار إلى عدم الوجوب، وأن الأمر فيه للإباحة بقوله: "ولا حرج": أي في ترك التحديث عنهم.

وقيل: المراد رفع الحرج عن حاكي ذلك؛ لما في أخبارهم من الألفاظ الشنيعة نحو قولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ (المائدة: ٢٤)، وقولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ (الأعراف:١٣٨)، وقيل: المراد ببني إسرائيل أولاد إسرائيل نفسه، وهم أولاد يعقوب، والمراد حدثوا عنهم بقصتهم مع أخيهم يوسف، وهذا أبعد الأوجه. وقال مالك: المراد جواز التحديث عنهم بما كان من أمر حسن، أما ما علم كذبه فلا. وقيل: المعنى: حدثوا عنهم بمثل ما ورد في القرآن والحديث الصحيح. وقيل: المراد جواز التحديث عنهم بأيِّ صورة وقعت من انقطاع أو بلاغ لتعذر الاتصال في التحديث عنهم، بخلاف الأحكام الإسلامية، فإن الأصل في التحدث بها الاتصال، ولا يتعذر ذلك لقرب العهد.

وقال الشافعي: من المعلوم أن النبي ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب، فالمعنى: حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم، وهو نظير قوله: "إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم"[1]، ولم يرد الإذن ولا المنع من التحدث بما يقطع بصدقه"[2].

ويؤكد ذلك صاحب "شرح مشكل الآثار" فيقول: فتأملنا ما في هذا الحديث من قوله ﷺ لأمته: "وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"، فكان ذلك عندنا إرادة منه أن يعلموا ما كان فيهم من العجائب التي كانت فيهم، ولأن أمورهم كانت الأنبياء تسوسها... فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي، خلفه نبي..."[3].

قال أبو جعفر: وكان فيما يتحدثون به في ذلك ما عسى أن يعظهم، ويحذرهم من الخروج عن التمسك بدين الله، كما خرجت عنه بنو إسرائيل، فيعاقبهم بمثل ما عاقبهم به، وكان مع ذلك يحدثهم منها، وعن عمران بن حصين قال: "كان رسول الله ﷺ يُحَدِّثنا عامَّة ليله عن بني إسرائيل، وما يقوم إلا لِعُظْمِ صلاة"[4].

وقال أبو جعفر: وكان قوله عقيبًا لما أمرهم به من الحديث عن بني إسرائيل "ولا حرج"؛ أي: ولا حرج

---

١. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث أبي نملة الأنصاري، رقم (١٧٢٦٤). وحسنه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٦/ ٥٧٥، ٥٧٦).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، (٦/ ٥٧١)، رقم (٣٤٥٥). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأوَّل فالأوَّل، (٧/ ٢٩٠٦)، رقم (٤٦٩١).

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند البصريين، حديث عمران بن حصين، رقم (١٩١٣٩). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

ألا تحدثوا عنهم[1].

أما حديث: "حدثوا عني ولا حرج" فهذا جزء من حديث رواه الإمام مسلم في صحيحه، قال: حدثنا هدَّاب بن خالد الأزدي، حدثنا همَّام، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: "لا تكتبوا عني، ومن كتب غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليَّ، قال همَّام: أحسبه قال متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار"[2].

وبهذا يتبين أن متن الحديث صحيح لا غبار عليه؛ فقد أجاز النبي ﷺ التحديث عن بني إسرائيل بعدما نهى عنه أولًا، خوفًا من الفتنة قبل استقرار الأحكام الإسلامية؛ فإن الحديث عن بني إسرائيل فيه من العبر والعظات ما فيه، وكذلك فيه معرفة أخبارهم وما أصابهم بسبب عصيانهم لله ورسله. وأما حديث "حدثوا عني ولا حرج" فإنه حديث صحيح عند الإمام مسلم، ولكنه يُستدلُّ به على نهي النبي ﷺ عن الكتابة في بادئ الأمر؛ خوفًا من اختلاط السنة بالقرآن، ولا ينافي إباحة النبي ﷺ التحديث عن بني إسرائيل ®.

---

1. شرح مشكل الآثار، الطحاوي، مرجع سابق، (١/ ١٢٦، ١٢٧) بتصرف.

2. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الزهد والرقائق، باب: التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، (٩/ ٤٠٨٩)، رقم (٧٣٧٥).

® في **"موقف الصحابة والعلماء من روايات أهل الكتاب"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة التاسعة عشرة، من الجزء الثاني (تدوين السنة والوضع فيها)، والوجه الثاني، من الشبهة السادسة عشرة، من الجزء الثالث (أبو هريرة). وفي **"حكم رواية الإسرائيليات في الشريعة الإسلامية"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة عشرة، من الجزء السادس (دواوين السنة).

الخلاصة:

- قول النبي ﷺ: "حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" جزء من حديث صحيح يقول: "بلِّغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار"، وهذا الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، والترمذي وأبو داود في السنن، والإمام أحمد في مسنده، وذكره الطحاوي في شرح مُشكِل الآثار.
- إن سند هذا الحديث لا إشكال فيه، وأما أبو كبشة ـ الذي زعموا أنه واضع قوله: "وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" ـ فإنه ثقة تابعي كما قال العجلي ويعقوب بن سفيان، ولم يجرحه أحد قط، فقد روى له البخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي.
- إن متن الحديث صحيح؛ لأنه يتحدث عن إباحة النبي ﷺ الحديث عن بني إسرائيل، وكان قد نهى قبل ذلك عن الحديث عنهم، خوفًا من الفتنة في بادئ الأمر، ثم أباح لهم بعد ذلك الحديث عنهم للعبرة والعظة مما أصابهم نتيجة عصيانهم لله ورسله.
- إن الحديث الذي جاء فيه: "وحدثوا عني ولا حرج" قد أخرجه الإمام مسلم في معرض حديثه عن نهي النبي ﷺ عن الكتابة في بادئ الأمر؛ خوفًا من اختلاط السنة بالقرآن الكريم وهذا الحديث أخرجه مسلم من طريق يختلف عن الحديث الآخر الذي أخرجه البخاري وغيره من أئمة الحديث، وبهذا فاختلاف الحديث في مسلم عن غيره لا يطعن في صحة أحدهما؛ لأنهما حديثان مختلفان.



الشبهة التاسعة

إنكار حديث "إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة" (*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المشككين حديث: "إن الله لا يجمع أمتي ـ أو قال: أمة محمد ـ على ضلالة"، ويستدلون على ذلك بأن الحديث ضعيف سندًا؛ إذ رواه واحد عن واحد، ولا شاهد عليه، وفيه سليمان المدني الذي ضعَّفه أئمة الحديث، ويزعمون أن هذا الحديث إن صحَّ ـ فيعد خاصًّا بالصحابة والتابعين؛ لوجود دليل شرعي على عصمتهم من الوقوع في ذلك، مثل ثناء الله ﷻ ورسوله ﷺ عليهم. أمَّا من جاء بعد الصحابة والتابعين من أمة محمد فلا دليل على عصمتهم من الضلالة.

رامين من رواء ذلك إلى التشكيك في مصداقية إجماع علماء الأمة على الحق.

وجها إبطال الشبهة:

١) ذهب جمهور أهل العلم من المحدثين والعلماء إلى أن حديث "لا يجمع الله أمتي على ضلالة "حديث حسن؛ لتعدد طرقه وشواهده، وهذا ما قرره الحاكم في "المستدرك"، وابن حجر في "التلخيص الحبير"، والشيخ الألباني في "السلسلة الصحيحة".

٢) لقد اتفق علماء الأمة قديمًا وحديثًا على عصمة الأمة من الضلال، إذا اجتمعت على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وذلك إلى يوم القيامة، وهذا من خواص هذه الأمة، ويؤيد ذلك قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين... إلى قوله: إلى يوم القيامة".

(*) الإسلام وصياح الديك، جواد عفانة، مرجع سابق.

التفصيل:

أولا. إن حديث"إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة" حسن لتعدد طرقه وشواهده:

ذهب جمهور العلماء إلى أن حديث "إن الله لا يجمع أمتي ـ أو قال أمة محمد ـ على ضلالة..."[1] حديث حسن بمجموع طرقه وتعدد شواهده، يقول ابن حجر: هذا حديث مشهور له طرق كثيرة، لا يخلو واحد منها من مقال، فعند أبي داود من حديث أبي مالك الأشعري مرفوعًا: "إن الله أجاركم من ثلاث خلال: ألَّا يدعو عليكم نبيكم لتهلكوا جميعًا، وألَّا يظهر أهل الباطل على أهل الحق، وألَّا تجتمعوا على ضلالة"[2] وفي إسناده انقطاع، والترمذي والحاكم من حديث ابن عمر مرفوعًا: "لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة أبدًا"[3] وفيه سليمان بن شعبان المدني وهو ضعيف، وأخرج له الحاكم شواهد، ويمكن الاستدلال له بحديث معاوية مرفوعًا: "لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم مَنْ خذلهم، ولا مَنْ خالفهم، حتى يأتي أمر

١. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: الفتن، باب: في لزوم الجماعة، (٦/ ٣٢٢)، رقم (٢٢٥٥). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢١٦٧).

٢. ضعيف، والزيادة الأخيرة صحيحة: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: الفتن والملاحم، باب: ذكر الفتن ودلائلها، (٦/ ٢١٩)، رقم (٤٢٤٥). وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود: الفقرة الأخيرة من الحديث صحيحة.

٣. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب: العلم، (١/ ٣٨٥)، رقم (٣٦٥). وصححه الألباني في بداية السول برقم (٧٠).

الله"[1]. أخرجه الشيخان، وفي الباب عن سعد وثوبان عند مسلم، وعن قرة بن إياس عند الترمذي وابن ماجه، وعن أبي هريرة عند ابن ماجه، وعن عمران عند أبي داود، وزيد بن أرقم عند أحمد.

ووجه الاستدلال منه: أن بوجود هذه الطائفة القائمة بالحق إلى يوم القيامة، لا يحصل الاجتماع على الضلالة، وأخرج ابن أبي شيبة عن يسير بن عمرو قال: شيَّعنا ابن مسعود حين خرج، فنزل في طرق القادسية، فدخل بستانًا فقضى الحاجة، ثم توضأ ومسح على جوربيه، ثم خرج، وإن لحيته ليقطر منها الماء، فقلنا له: اعهد إلينا فإن الناس قد وقعوا في الفتن، ولا ندري هل نلقاك أم لا ؟ قال: "اتقوا الله واصبروا حتى يستريح بَرٌّ، أو يُستراح من فاجر، وعليكم بالجماعة، فإن الله لا يجمع أمة محمد على ضلالة"[2]، ومثله لا يقال من قبل الرأي، وله طريق أخرى عنده عن يزيد بن هارون، عن التيمي، عن نعيم بن أبي هند، أن ابن مسعود خرج من الكوفة فقال: "عليكم بالجماعة، فإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد علي ضلال"[3].

يؤكد ذلك ما قاله الحاكم في تعليقه على الحديث: فقد استقر الخلاف في إسناد هذا الحديث على المعتمر بن سليمان، وهو أحد أركان الحديث من سبعة أوجه. لا يسعنا أن نحكم أن كلها محمولة على الخطأ بحكم الصواب؛ لقول من قال: عن المعتمر، عن سليمان بن سفيان المدني، عن عبد الله بن دينار، ونحن إذا قلنا هذا القول نسبنا الراوي إلى الجهالة فَوَهَّنَّا به الحديث، ولكنَّا نقول: إن المعتمر بن سليمان أحد أئمة الحديث، وقد رُوي عنه هذا الحديث بأسانيد يصح بمثلها، فلا بد من أن يكون له أصل بأحد هذه الأسانيد، ثم وجدنا للحديث شواهد من غير حديث "المعتمر"، لا أَدَّعي صحتها، ولا أحكم بتوهينها، بل يلزمني ذكرها لإجماع أهل السنة علي هذه القاعدة من قواعد الإسلام، فمن روي عنه هذا الحديث من الصحابة عبد الله بن عباس[4].

وقد صرَّح الشيخ الألباني بأن الحديث حسن بمجموع طرقه، وذلك في "السلسلة الصحيحة" فقال: أمَّا حديث "إن الله قد أجار أمتي من أن تجتمع على ضلالة" فقد رواه ابن أبي عاصم في السنة، عن سعيد بن زربي، عن الحسن، عن كعب بن عاصم الأشعري أنه سمع النبي ﷺ يقوله... فذكره. وسعيد بن زربي منكر الحديث كما في "التقريب"، وسائر رجالهُ ثقات، إلا أن الحسن (وهو البصري) مدلس، وقد عنعنه، ثم رواه من طريق مصعب بن إبراهيم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس مرفوعًا... ومصعب بن إبراهيم هذا منكر الحديث أيضًا، كما قال ابن عدي، وساق له حديثًا آخر مما أنكر عليه.

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المناقب، باب: بقية أحاديث علامات النبوة، (٦/ ٧٣١)، رقم (٣٦٤١). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق"، (٧/ ٢٩٩٢)، رقم (٤٨٧٢).

٢. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب: الفتن، باب: مَنْ كره الخروج في الفتنة وتعوذ عنها، (٨/ ٦٠٤)، رقم (٨٤). وقال عنه ابن حجر في التلخيص الحبير: إسناده صحيح.

٣. التلخيص الحبير، ابن حجر، مؤسسة قرطبة، مصر، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، (٣/ ٢٩٨، ٢٩٩) بتصرف.

٤. المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، (١/ ٣٨٤) بتصرف.

وقال الذهبي: "قلت: وله حديث آخر عن قتادة، فذكره، ثم رواه من طريق محمد بن إسماعيل بن عياش: حدثنا أُبيٌّ عن ضمضم بن زرعة، عن شُرَيح بن عبيد عن كعب بن عاصم به مرفوعًا بلفظ: "... من ثلاث: أن لا يجوعوا، ولا يجتمعوا على ضلالة، ولا يستباح بيضة المسلمين"، قال: رجاله ثقات غير محمد بن إسماعيل بن عياش، قال أبو داود: لم يكن بذاك، وقال أبو حاتم: لم يسمع من أبيه شيئًا، حملوه على أن يحدث عنه فحدث... فالحديث بمجموع طرقه حسن"[١].

وبهذا يتبيَّن أن الحديث وإن كان ضعيفًا إلا أنه يتقوَّى بمجموع طرقه وشواهده، كما ذكر الإمام الحاكم في المستدرك، والحافظ ابن حجر في "التلخيص الحبير"، والشيخ الألباني في "السلسلة الصحيحة".

ثانيًا. عصمة الأمة من الضلال ثابتة إلي يوم القيامة عند الاجتماع على الحق:

لقد أجمع جمهور أهل العلم على أن الأمة معصومة من الاجتماع على الضلالة، وهذه العصمة باقية إلى يوم الساعة، ويؤيد ذلك قوله ﷺ في الحديث الصحيح: "لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون علي الناس"[٢].

يقول الإمام النووي: وأمَّا هذه الطائفة، فقال البخاري: هم أهل العلم.

وقال أحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم ؟

وقال القاضي عياض: إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث.

ثم قال الإمام النووي: ومحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونوا متفرقين في أقطار الأرض، وفي الحديث معجزة ظاهرة، فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله ﷻ من زمن النبي ﷺ إلى الآن، ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور في الحديث، وفيه دليل لكون الإجماع حجة، وهو أصح ما استدل له من الحديث[٣].

ويؤكد ذلك ما نقله الحافظ ابن حجر عن الطبري قائلًا: "قال قوم المراد بالجماعة الصحابة دون مَنْ بعدهم، وقال قوم: المراد بهم أهل العلم؛ لأن الله جعلهم حجة على الخلق، والناس تبع لهم في أمر الدين. قال الطبري: والصواب أن المراد من الخبر لزوم الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره، فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة"[٤].

وإلى ذلك ذهب ابن حزم رحمه الله قال: فصح أنه لا

---

١. سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، (٣/ ٣١٩، ٣٢٠)، رقم (١٣٣١) بتصرف.

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المناقب، باب: بقية أحاديث علامات النبوة، (٦/ ٧٣١)، رقم (٣٦٤١). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، (٧/ ٢٩٩٢)، رقم (٤٨٧٢).

٣. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٧/ ٢٩٩٣) بتصرف.

٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٣/ ٤٠).

تجتمع أمة محمد ﷺ علي غير الحق أبدًا، لأنه ﷺ قد أنذر بأنه لا يزال منهم قائم بالحق أبدًا، وهذا يدل علي أن الأخبار التي ذُكرت عن رسول الله ﷺ فإنما فيها أن أمته ﷺ لا تجتمع ولا ساعة واحدة من الدهر على باطل، بل لا بد أن يكون فيهم قائل بالحق وقائم به"[1].

وقد فصل الإمام الشاطبي هذه المسألة قائلًا: اختلف الناس في معنى الجماعة المرادة في هذه الأحاديث على خمسة أقوال.

أولها: أنها السواد الأعظم من أهل الإسلام، وهو الذي يدل عليه كلام أبي غالب: إن السواد الأعظم هم الناجون من الفرق فما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق، ومن خالفهم مات ميتة جاهلية سواء خالفهم في شيء من الشريعة، أو في إمامهم وسلطانهم، فهو مخالف للحق، وممن قال بهذا أبو مسعود الأنصاري، وابن مسعود رضي الله عنهما.

الثاني: أنها جماعة أئمة العلماء المجتهدين، فمن خرج مما عليه علماء الأمة مات ميتة جاهلية؛ لأن جماعة الله العلماء، جعلهم الله حجة علي العالمين، وهم المعنيون بقوله ﷺ: "إن الله لن يجمع أمتي على ضلالة"، وذلك أن العامة عنها تأخذ دينها، وإليها تفزع من النوازل، وهي تبع لها، فمعني قوله: "لا تجتمع أمتي"؛ أي: لن يجتمع علماء أمتي على ضلالة، وممن قال بهذا عبد الله بن المبارك، وإسحاق بن راهويه، وجماعة من السلف، وهو رأي الأصوليين، فقيل لعبد الله بن المبارك: مَنْ الجماعة الذين ينبغي أن يقتدى بهم؟ قال: أبو بكر وعمر ـ فلم يزل يحسب حتى انتهى إلي محمد بن ثابت، والحسين بن واقد ـ فقيل: هؤلاء ماتوا، فمَن الأحياء؟ قال: أبو حمزة السكري.

وعن المسيب بن رافع قال: كانوا إذا جاءهم شيء من القضاء ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله سمَّوه (صوافي الأمراء) فجمعوا له أهل العلم، فما أجمع رأيهم عليه فهو الحق.

الثالث: أن الجماعة هي الصحابة على الخصوص، فإنهم الذين أقاموا عماد الدين، وأرسوا أوتاده، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أصلًا، وقد يمكن فيمن سواهم ذلك، وهذا مطابق للرواية الأخرى في قوله ﷺ: "ما أنا عليه وأصحابي"[2]، فكأنه راجع إلى ما قالوه وما سَنُّوه، وما اجتهدوا فيه حجة على الإطلاق، وبشهادة رسول الله ﷺ لهم بذلك، خصوصًا في قوله: "فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين"[3].

الرابع: أن الجماعة هي جماعة أهل الإسلام، إذا أجمعوا على أمر فواجب على غيرهم من أهل الملل اتباعهم، وهم الذين ضمن الله لنبيه ﷺ أن لا يجمعهم على ضلالة، فإن وقع بينهم اختلاف فواجب تعرُّف الصواب فيما اختلفوا فيه. قال الشافعي: الجماعة لا تكون فيها غفلة عن معنى كتاب الله ولا سنّة ولا قياس، وإنما تكون الغفلة في الفرقة.

الخامس: ما اختاره الطبري الإمام من أن الجماعة

---

١. الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، (١/ ٥٤٠، ٥٤١) بتصرف.

٢. حسن: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: الإيمان، باب: افتراق هذه الأمة، (٧/ ٣٣٢)، رقم (٢٧٧٩). وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٦٤١).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث العرباض بن سارية عن النبي ﷺ، (٤/ ١٢٦)، رقم (١٧١٨٤). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، فأمر ﷺ بلزومه، ونهى عن فراق الأُمَّة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم.

قال: وأما الخبر الذي ذكر فيه أن لا تجتمع الأمة على ضلالة، فمعناه: أن لا يجمعهم على إضلال الحق فيما أنابهم من أمر دينهم حتى يضل جميعهم عن العلم ويُخطئوه، وذلك لا يكون من الأمة.

فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والاتباع، وأنهم المرادون بالأحاديث[1].

ولذلك فقد تظاهرت الرواية عن رسول الله ﷺ بألفاظ مختلفة مع اتفاق المعنى في عصمة هذه الأمة من الخطأ، يقول الشيخ الألباني: إن تلقي الأمة للخبر تصديقًا وعملًا إجماعٌ منهم، والأمة لا تجتمع على ضلالة، كما لو اجتمعت على موجب عموم أو مطلق أو اسم حقيقة أو على موجب قياس. فإنها لا تجتمع على خطأ، وإن كان الواحد منهم لو جرَّد النظر إليه لم يُؤْمَن عليه الخطأ، فإن العصمة تثبت بالنسبة الاجتماعية، كما أن خبر التواتر يجوز الخطأ، والكذب على واحد واحد من المخبرين بمفرده، ولا يجوز على المجموع، والأمة معصومة من الخطأ في روايتها، ثم يقول: إن العصمة من الانحراف والضلال إنما هو التمسك بالكتاب والسنة، وأن ذلك حكم مستمر إلي يوم القيامة، فلا يجوز التفريق بين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبهذا يتبيَّن أن هذه العصمة خاصة بأمة النبي ﷺ، وهي باقية فيهم إلي يوم القيامة، طالما أنهم مجمعون علي الحق من الكتاب والسنة، وقد دلَّ عليه قوله ﷺ: "حتى يأتي أمر الله وهم كذلك"[2]، وكذلك قوله: "ظاهرين إلى يوم القيامة"[3][4]®.

الخلاصة:

- ذهب العلماء إلى أن الحديث "لا يجمع الله أمتي على ضلالة" حديث حسن، وذلك لتعدد طرقه وشواهده، فقد رواه ابن عباس، وابن عمر ﷺ بألفاظ مختلفة، ولكنها متفقة في المعنى، وقد جاء معنى هذا الحديث عند الترمذي وابن ماجه، وأبي داود، والإمام أحمد، وكلها ألفاظ مختلفة، ولكن يعضد بعضها بعضًا كما قال العلماء.
- لقد ذهب الإمام الحاكم في المستدرك إلى أن كثرة هذه الطرق تؤكد أن الحديث أصلٌ، وهذا يدل علي صحته، وهو ما أكَّده ابن حجر رحمه الله إذ ذكر أن حديث: "لا تزال طائفة من أمتي" يؤكد معنى هذا الحديث، وكذلك الشيخ الألباني الذي حسَّن الحديث لتعدد طرقه كما ذكر في "السلسلة الصحيحة" برقم (١٣٣١).
- اتفق معظم العلماء قديمًا وحديثًا على أن الأمة لا

---

١. الاعتصام، الشاطبي، دار المعرفة، بيروت، د. ت، (٢/ ٢٦٠، ٢٦٥) بتصرف.

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ ﴾، (١٣/ ٤٥١)، رقم (٧٤٦٠). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق..."، (٧/ ٢٩٩١)، رقم (٤٨٦٧).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق..."، (٧/ ٢٩٩٢)، رقم (٤٨٧١).

٤. الحديث حجة بنفسه، الألباني، ص٦٩ بتصرف.

® في **"المقصود بالطائفة الظاهرة على الحق إلى قيام الساعة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الخامسة والعشرين، من هذا الجزء.

تجتمع على ضلالة إلى يوم القيامة، وهذا ما ذكره الإمام النووي عند شرحه حديث: "لا تزال طائفة من أمتي"، وكذلك الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث في "الفتح".

واستدل جمهور العلماء بهذا الحديث على صحة الإجماع، وأن الأمة معصومة من الضلال إلى يوم القيامة. خاصة إذا كان اجتماعها علي الكتاب والسنة، كما بيَّن العلماء، وهذا ما وضحه ابن حزم في "الإحكام".

- اختلف العلماء في تحديد الجماعة المعصومة عند الاجتماع إلي خمسة أقوال:

الأول: أنها سواد الأمة وجماعتها.

الثاني: أنها الصحابة ﷺ؛ لأنهم هم الذين زكَّاهم الله ورسوله ﷺ.

الثالث: أنها علماء الأمة وفقهاؤها، كأهل الحديث، والمفسرين، وأئمة الفقه.

الرابع: أنها جماعة أهل الإسلام دون غيرهم من الأمم الأخرى، إذا اجتمعوا علي أمر فلا يجوز الاختلاف عليه.

الخامس: أنها جماعة المسلمين.

- من مجموع هذه الأحاديث والآثار يُستنتج أنهم أهل السنة والجماعة من العلماء ومن تبعهم علي ذلك من العامة، ويُستنتج أيضًا أنها خصوصية من خصوصيات هذه الأمة دون غيرها من الأمم.

الشبهة العاشرة

رد أحاديث كون ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن الأحاديث التي وردت بشأن كون ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان أحاديث مردودة، مستدلين على ذلك بأنه لا مانع من وقوعها في أي ليلة من ليالي شهر رمضان. رامين من وراء ذلك إلى الطعن في السنة النبوية.

وجه إبطال الشبهة:

إن الأحاديث الواردة في ثبوت ليلة القدر صحيحة في أعلى درجات الصحة، وهي تحصر وقوعها في العشر الأواخر من رمضان بوجه عام، وفي الليالي الوترية بوجه خاص، ولا دليل لمن يزعم إمكانية وقوعها في أي ليلة من ليالي رمضان.

التفصيل:

إن الأحاديث التي تثبت أن ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان على العموم، والوتر منها على الخصوص صحيحة، بل في أعلى درجات الصحة، ومن هذه الأحاديث: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "تحرَّوْا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان"[1].

(*) اللعاب الأخير في مجال إنكار سنة البشير النذير، د. طه حبيشي، مطبعة رشوان، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضل ليلة القدر، باب: تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر، (٤/ ٣٠٥)، رقم (٢٠١٧).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ يجاور[١] في رمضان العشر التي في وسط الشهر، فإذا كان حين يمسي من عشرين ليلة تمضي، ويستقبل إحدى وعشرين رجع إلى مسكنه، ورجع من كان يجاور معه، وأنه أقام في شهر جاور فيه الليلة التي كان يرجع فيها، فخطب الناس فأمرهم ما شاء الله، ثم قال: كنت أجاور هذه العشر، ثم قد بدا لي أن أجاور هذه العشر الأواخر، فمن كان اعتكف معي فليثبت في معتكفه، وقد أُريت هذه الليلة ثم أُنسيتها، فابتغوها في العشر الأواخر، وابتغوها في كل وتر، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين، فاستهلَّت السماء في تلك الليلة فأمطرت، فوكف المسجد[٢] في مُصلَّى النبي ﷺ ليلة إحدى وعشرين، فبَصُرَت عيني رسول الله ﷺ، ونظرت إليه انْصَرف من الصبح، ووجهه ممتلئ طينًا وماء"[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله ﷺ يجاور في العشر الأواخر من رمضان، ويقول: تحرَّوْا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان"[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، ليلة القدر في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى"[٥].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "تَحَيَّنوا ليلة القدر في العشر الأواخر - أو قال - في التسع الأواخر"[٦].

وعن الزهري عن سالم عن أبيه ﷺ قال: "رأى رجل أن ليلة القدر ليلة سبع وعشرين، فقال النبي ﷺ: أرى رؤياكم في العشر الأواخر، فاطلبوها في الوتر منها"[٧].

وعن سالم بن عبد الله بن عمر أن أباه رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لليلة القدر: "إن ناسًا منكم قد أُرُوا أنها في السبع الأُوَل، وأُرِيَ ناس منكم أنها في السبع الغوابر، فالتمسوها في العشر الغوابر"[٨].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "أُريت ليلة القدر، ثم أيقظني بعض أهلي فنُسِّيتها فالتمسوها في العشر الغوابر"[٩].

وعن زِرِّ بن حُبيش قال: سألت أُبَيَّ بن كعب ﷺ، فقلت: إن أخاك ابن مسعود يقول: من يَقُم الحول يُصب ليلة القدر. فقال: رحمه الله! أراد إلا يتَّكل الناس، أمَا إنه قد علم أنها في رمضان، وأنها في العشر

١. يجاور: يعتكف.

٢. وكف المسجد: قطر الماء من سقفه.

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضل ليلة القدر، باب: تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر، (٤/ ٣٠٥)، رقم (٢٠١٨). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الصيام، باب: فضل ليلة القدر والحث على طلبها، (٤/ ١٨٢٥)، رقم (٢٧٢٣).

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضل ليلة القدر، باب: تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر، (٤/ ٣٠٦)، رقم (٢٠٢٠). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الصيام، باب: فضل ليلة القدر والحث على طلبها، (٤/ ١٨٢٨)، رقم (٢٧٣٠).

٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضل ليلة القدر، باب: تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر، (٤/ ٣٠٦)، رقم (٢٠٢١).

٦. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الصيام، باب: فضل ليلة القدر والحث على طلبها، (٤/ ١٨٢٥)، رقم (٢٧٢١).

٧. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الصيام، باب: فضل ليلة القدر والحث على طلبها، (٤/ ١٨٢٤)، رقم (٢٧١٧).

٨. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الصيام، باب: فضل ليلة القدر والحث على طلبها، (٤/ ١٨٢٥)، رقم (٢٧١٨).

٩. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الصيام، باب: فضل ليلة القدر والحث على طلبها، (٤/ ١٨٢٥)، رقم (٢٧٢٢).

الأواخر، وأنها ليلة سبع وعشرين. ثم حلف لا يستثني أنها ليلة سبع وعشرين، فقلت: بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟! قال: بالعلامة، أو بالآية التي أخبرنا رسول الله ﷺ، أنها تطلع يومئذ لا شعاع لها"[1].

أقوال أهل العلم في وقت ليلة القدر والراجح منها:

قال ابن حجر رحمه الله بعد أن ذكر ما ينيف على ستة وأربعين قولًا في تحديد ليلة القدر: "وأرجحها كلها أنها في وتر من العشر الأخير، وأنها تنتقل كما يُفْهَم من أحاديث هذا الباب، وأرجاها أوتار العشر، وأرجى أوتار العشر عند الشافعية ليلة إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين... وأرجاها عند الجمهور ليلة سبع وعشرين"[2]

وقال الجمهور: هي منحصرة في العشر الأواخر، واختلفوا في أي ليالي العشر أرجى:

فحُكي عن الحسن ومالك أنها تُطلب في جميع ليالي العشر، أشفاعه وأوتاره؛ لأن قول النبي ﷺ: "التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى"[3]، إنْ حُمِلَ على تقدير كمال الشهر كانت أشفاعًا، وإنْ حُمِلَ على ما بقي منه حقيقة كان الأمر موقوفًا على كمال الشهر فلا يُعلم قبله، فإن كان تامًّا كانت الليالي المأمور بها بطلبها أشفاعًا، وإن كان ناقصًا كانت أوتارًا، فيوجب ذلك الاجتهاد في القيام في كلتا الليلتين الشفع منها والوتر.

وقال الأكثرون (يعني من الجمهور): بل بعض لياليه أرجى من بعض. وقالوا: الأوتار أرجى في الجملة، ثم اختلفوا أي الأوتار أرجى؛ فمنهم من قال: ليلة إحدى وعشرين، وهو المشهور عن الشافعي لحديث أبي سعيد الخدري ـ وقد ذكرناه فيما سبق ـ وحكي عنه أنها تُطلب ليلة إحدى وعشرين، وثلاث وعشرين. قال في القديم[4]: كأني رأيت ـ والله أعلم ـ أقوى الأحاديث فيه ليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين ـ وهي التي مات فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد جاء في ليلة سبع عشرة، وليلة أربع وعشرين، وليلة سبع وعشرين.

وقد روي عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما: أنها تُطلب ليلة إحدى وعشرين، وثلاث وعشرين، وحُكي للشافعي قول آخر: أرجاها ليلة ثلاث وعشرين، وهذا قول أهل المدينة، وحكاه سفيان الثوري عن أهل مكة والمدينة، وممن روي عنه أنه كان يوقظ أهله فيها ابن عباس وعائشة، وهو قول مكحول.

ورجَّحت طائفة ليلة أربع وعشرين، وهم: الحسن وأهل البصرة، وقد روي عن أنس، وكان حميد، وأيوب، وثابت يحتاطون فيجمعون بين الليلتين؛ أعني ليلة ثلاث وأربع.

ورجَّحت طائفة ليلة سبع وعشرين، وحكاه الثوري عن أهل الكوفة، وقال: نحن نقول: هي ليلة سبع وعشرين؛ لما جاءنا عن أبي بن كعب، فكان يحلف عليه ولا يستثني، وزِر بن حبيش، وعبدة بن أبي لبابة.

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الصيام، باب: فضل ليلة القدر والحث على طلبها، (٤/ ١٨٢٨)، رقم (٢٧٣١).

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٤/ ٣١٣).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضل ليلة القدر، باب: تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر، (٤/ ٣٠٦)، رقم (٢٠٢١).

٤. فقه الشافعي القديم: ما أفتى به في العراق قبل قدومه إلى مصر.

وذهب أبو قِلابة إلى أنها تنتقل في ليالي العشر، وروي عنه أنها تنتقل في أوتاره خاصة، وممن قال بانتقالها في الليالي العشر: المزني وابن خزيمة، وحكاه ابن عبد البر عن مالك والثوري والشافعي وأحمد وأبي ثور، وفي صحة ذلك عنهم بُعد، وإنما قول هؤلاء: إنها في العشر، وتطلب في لياليه كلها[1].

وقال أبو عيسى الترمذي: "وفي الباب عن عمر، وأبي بن كعب، وجابر بن سمرة، وجابر بن عبد الله، وابن عمر، والفَلَتَان بن عاصم، وأنس، وأبي سعيد، وعبد الله بن أنيس، وأبي بكرة، وابن عباس، وبلال، وعبادة بن الصامت... وأكثر الروايات عن النبي ﷺ أنه قال: "فالتمسوها في العشر الأواخر في كل وتر"[2]، وروي عنه ﷺ في ليلة القدر أنها ليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين، وتسع وعشرين، وآخر ليلة من رمضان.

قال الشافعي: كأن هذا عندي ـ والله أعلم ـ أن النبي ﷺ كان يجيب على نحو ما يُسأل عنه، يقال له: نلتمسها في ليلة كذا؟ فيقول: التمسوها في ليلة كذا. قال الشافعي: وأقوى الروايات عندي فيها ليلة إحدى وعشرين.

قال أبو عيسى: وقد روي عن أُبي بن كعب: أنه كان يحلف أنها ليلة سبع وعشرين، ويقول: أخبرنا رسول الله ﷺ بعلامتها فعددنا وحفظنا، وروي عن أبي قِلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر، أخبرنا بذلك عبد بن حميد، أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة بهذا"[3].

ومما سبق من أقوال أهل العلم حول تحديد ليلة القدر يتبين أن للعلماء فيها أقوالًا متعددة، وصلت إلى ما يقرب من ثمانية وأربعين قولًا، ولكن قد تتكاثر الأقوال في باب من الأبواب، وإذا جئت تبحث عن الأقوال المدعَّمة بالدليل، تجدها لا تصل إلا إلى بضعة أقوال، فلا تخيفنا كثرة الأقوال في مسألة من المسائل؛ فنقول: كل قول لا يستند إلى دليل يُطرح، سواء كان الدليل صريحًا غير صحيح، أو صحيحًا غير صريح، ولنبدأ في تصفية الأقوال التي لا تستند إلى دليل.

قال جمهور العلماء: إن هذه الليلة في رمضان؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ (القدر)، ولقوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ (البقرة: ١٨٥)؛ فبالجمع بين الآيتين يفهم أن ليلة القدر في رمضان، فخرج بهذا القول كل قول يقول: إنها في أي وقت من أوقات السنة؛ لأن بعضهم قال: إنها في أي شهر من شهور العام، وفي أي ليلة من لياليه، فخرج بذلك كل قول يخرجها عن شهر رمضان، ثم هي في العشر الأواخر منه؛ لقول النبي ﷺ: "التمسوها في العشر الأواخر من رمضان"[4]، فخرج بذلك أيضًا

---

١. فضائل الصيام وشهر رمضان، إعداد: علي محمد ونيس، أرشيف ملتقى أهل الحديث، (١/ ٩٠٩٥، ٩٠٩٦) بتصرف.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الصيام، باب: فضل ليلة القدر والحث على طلبها، (٤/ ١٨٢٥)، رقم (٢٧٢٢).

٣. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، (٣/ ٤٢٢، ٤٢٣).

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضل ليلة القدر، باب: تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر، (٤/ ٣٠٦)، رقم (٢٠٢١). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الصيام، باب: فضل ليلة القدر والحث على طلبها، (٤/ ١٨٢٥)، رقم (٢٧٢٣).

الأقوال التي تقول إنها في العشرين الأول، ثم هي في الوتر من العشر الأواخر؛ لقول النبي ﷺ: "تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر"[1].

وقد قال فريق من العلماء: إنها في ليلة السابع والعشرين، وهذا رأي الجمهور، ودليلهم على ذلك أن أبي بن كعب روى عن رسول الله ﷺ ذلك، كما في صحيح مسلم[2]، ومن حجة أُبيٍّ أن الشمس خرجت صبيحتها بيضاء نقية كما قال الرسول ﷺ، لكن هل هذا يكون في كل عام في ليلة السابع والعشرين، أو أنه في العام الذي رآها فيه أبي بن كعب ﷺ؟ نحن لا نشكك في صدق أُبيٍّ ﷺ، ولكن نقول: هل هي ثابتة في كل عام في ليلة السابع والعشرين، أو أنها متنقلة في الليالي التي هي وتر؟ ومما لا يخفى أن شؤم الخلاف بين المسلمين كان سببًا في رفع العلم بليلة القدر؛ وذلك لأن النبي ﷺ خرج ليخبر أصحابه بليلة القدر؛ فتلاحى رجلان فلان وفلان؛ (أي اختلفا وتجادلا)؛ فرُفع العلم بها، فخرج النبي ﷺ فقال: "خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت"[3] [4].

وبناء على ما تقدَّم، فقد ترجَّح بالأدلة الصحيحة الثابتة أن ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، وقد وردت رواية - إضافة إلى ما تَقدَّم - تؤكد ما ذهب إليه أهل العلم - وهو الصواب - من أن ليلة القدر في العشر الأواخر، وليست على مدار الشهر كله كما يدَّعي هؤلاء، وتلك الرواية هي: عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: "إن رسول الله ﷺ اعتكف العشر الأول من رمضان، ثم اعتكف العشر الأوسط في قبة تُرْكِيَّة[5] على سُدَّتها حصير. قال: فأخذ الحصير بيده فنحاها في ناحية القبة، ثم أطلع رأسه فكلم الناس، فدنوا منه، فقال: إني اعتكفتُ العشر الأول ألتمس هذه الليلة، ثم اعتكفت العشر الأوسط، ثم أُتيت فقيل لي: إنها في العشر الأواخر، فمن أحب منكم أن يعتكف فليعتكف، فاعتكف الناس معه"[6].

ولا نرى قولًا يرد هذه الدعوى إلا ما ذكرناه من أقوال الرسول ﷺ الصحيحة الثابتة، وتوجيهات أهل العلم، وترجيحهم أن ليلة القدر في العشر الأواخر على العموم، والوتر منها على وجه الخصوص، وليس لمن ذهب إلى أنها في الشهر كله أي دليل، بل هو محض رأي لا غير، وأي قول يفتقد الدليل يُرد بلا نقاش.

الخلاصة:

- إن الأحاديث الواردة بشأن ليلة القدر، وأنها في العشر الأواخر من رمضان على وجه العموم، والوتر منها على وجه الخصوص أحاديث صحيحة ثابتة عن النبي ﷺ، جاءت في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة النبوية.
- لقد ساق ابن حجر العسقلاني في "فتح الباري"

1. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضل ليلة القدر، باب: تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر، (٤/ ٣٠٥)، رقم (٢٠١٧).
2. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الصيام، باب: فضل ليلة القدر والحث مع طلبها، (٤/ ١٨٢٨)، رقم (٢٧٣١).
3. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضل ليلة القدر، باب: رفع معرفة ليلة القدر لتلاحي الناس، (٤/ ٣١٤)، رقم (٢٠٢٣).
4. تفسير سورة القدر، مصطفى العدوي، مقال بموقع الشبكة الإسلامية. www. islamweb.net
5. التركية: قبة صغيرة من صوف ونحوه.
6. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الصيام، باب: فضل ليلة القدر والحث على طلبها، (٤/ ١٨٢٦)، رقم (٢٧٢٥).

ما يزيد على ستة وأربعين قولًا في تحديد ليلة القدر، ثم رجَّح منها القول بأنها في الوتر من العشر الأواخر؛ وذلك لدخول التخصيص في النصوص.

- اتفق العلماء قديمًا وحديثًا على أن ليلة القدر في العشر الأواخر، فمنهم من قال: إنها في ليلة إحدى وعشرين، ومنهم من قال: إنها في ليلة ثلاث وعشرين، ومنهم من قال: إنها في ليلة أربع وعشرين، ومنهم من قال: إنها في ليلة سبع وعشرين... إلخ، والراجح أنها في وتر العشر الأواخر؛ لقول النبي ﷺ: "فالتمسوها في العشر الأواخر في كل وتر"، وهي متنقلة وليست ثابتة.
- لقد اعتكف النبي ﷺ في العشر الأول عَلَّه أن يلتمسها، ثم اعتكف في العشر الأوسط من أجل أن يدركها، ثم أُوحي إليه أنها في العشر الأواخر، فاستحب النبي ﷺ الاعتكاف في هذه العشر من أجل إدراكها.
- إن في إخفاء ليلة القدر، وإطلاق زمانها في العشر الأواخر من رمضان ـ جملة للفضل الواسع والخير العميم، كما أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ في قوله: "عسى أن يكون خيرًا لكم".

الشبهة الحادية عشرة

دعوى بطلان حديث "إن أحدكم يُجمع خَلْقُه في بطن أمه أربعين يومًا..."(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المغرضين بطلان متن الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: "حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: إن أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يَبعثُ الله إليه ملكًا بأربع كلمات: فَيُكتَب عمله، وأجله، ورزقه، وشقي أم سعيد، ثم يُنفَخُ فيه الرُّوح...".

ويستدلون على ذلك بأن الحديث يفيد أن الجنين لا يتشكل على صورة الإنسان إلا بعد مرور أربعة أشهر من بدء الحمل، وذلك يتعارض مع بعض الأحاديث الصحيحة التي ذكرت أن الجنين يتشكل بعد أربعين يومًا، كما يخالف ما جاء به العلم وثبت يقينًا أن الجنين يتشكل ويصبح خلقًا آخر (على صورة إنسان) في خلال ستة أسابيع (اثنان وأربعون يومًا)، وقد أصبح هذا واقعًا علميًّا، لا ينكره أحد.

كما أن متن الحديث يخالفه مخالفة صريحة ما جاءت به نصوص القرآن الكريم، فالحديث يقول بنفخ الروح في الجنين بعد ثمانين يومًا أو مائة وعشرين يومًا، علمًا بأن الجنين فيه الروح منذ مرحلة النطفة، وأنه لم يرد أن الله تعالى نفخ من روحه في أحد سوى آدم وعيسى ابن

(*) دور السنة في إعادة بناء الأمة، جواد موسى محمد عفانة، مرجع سابق. الإسلام وصياح الديك، جواد عفانة، مرجع سابق.

مريم - عليها السلام - أما باقي البشر فخلقهم جميعًا من آدم عليه السلام، والقرآن يقول بتصوير الجنين لا بنفخ الروح فيه، قال ﷻ: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ (آل عمران).

كما يزعمون أن الحديث لم يذكر مرحلة النطفة التي تُعدُّ أولى مراحل التخلُّق في رحم الأم، بيد أن القرآن قد ذكرها في قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (المؤمنون).

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد جاء حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند الإمام البخاري مجملًا، وعند الإمام مسلم مفصلًا بزيادة صحيحة توضح مجمل رواية الإمام البخاري، وهي قوله: "في ذلك"، فجمع الخلق يتم في أربعين يومًا، وذكر العلقة والمضغة يتم من قبيل التفصيل لهذا المجمل، ويدل على ذلك الأحاديث الصحيحة عند الإمام مسلم والإمام أحمد التي تحدد مدة جمع الخلق في اثنين وأربعين يومًا، وهذا ما أكده العلم الحديث.

٢) الروح سر من أسرار الله تعالى أخفاها عن جميع خلقه، يقول ﷻ: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء)، وقد أثبت العلم الحديث أن الروح تنفخ في الجنين بعد مرحلة التصوير التي ذكرها الحديث، ولم يحدد اليوم الذي تنفخ فيه الروح حتى أربعة أشهر، وهذا يدل على تطابق الحقائق العلمية مع أحاديث النبي ﷺ الصحيحة.

٣) لم يذكر النبي ﷺ طور النطفة في الحديث؛ لأنه يتحدث عن مراحل "التخلق"، وهي العلقة والمضغة. أما مرحلة النطفة، فهي تجميع لخلايا البيضة الأنثوية وخلايا الحيوان المنوي الذكوري، وليست مرحلة "تخلُّق" كالعلقة والمضغة التي يتم فيها تخليق بعض الأعضاء الأولية في جسم الجنين؛ لذلك قال ﷻ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾، ولم يقل ﷻ: "ثم خلقناه نطفة في قرار مكين"، كما قال تبارك وتعالى عن المضغة والعلقة: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾ (المؤمنون: ١٤)، وهذا يدل على إعجاز النبي ﷺ في اختيار ألفاظه الدقيقة.

التفصيل:

أولا. لا تعارض بين الأحاديث في أن خلق الجنين يجمع في بطن أمه بعد أربعين يومًا؛ إذ لا دلالة قاطعة في نص البخاري على ذلك:

إنه من الثوابت لدى علماء المسلمين في كل زمان أنه إذا صحَّ حديث سندًا إلى النبي ﷺ، يجب تصديقه والأخذ به، والثبوت من صحته متنًا على الإطلاق.

ثم نعمل عقولنا بعد ذلك في إدراك الحكمة من وراء هذا الخبر، ومحاولة تفسير ما قد يستشكل علينا، فإن وفقنا الله ﷻ إلى فهم الخبر وما يتعلق به من ألفاظ كان بها، وإن قصر إدراكنا وعلمنا عن فهم الحديث، فيجب التوقف مع التصديق والعمل بالخبر مطلقًا - حتى يكشف الله عن سر ذلك الحديث حينما يشاء وحده.

وبعد؛ فإن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي رواه البخاري في صحيحه: أن رسول الله ﷺ، قال: "إن أحدكم يُجْمَعُ في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة

مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا بأربع كلمات: فيُكتَبُ عمله، وأجله، ورزقه، وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح..."(١).

وفي رواية مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إن أحدكم يُجْمَعُ خلقه في بطه أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يُرْسَل إليه الملك، فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلماتٍ..."(٢).

وهذا الحديث سنده صحيح إلى النبي ﷺ؛ فقد اتفق عليه الشيخان (البخاري ومسلم) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وتلقته الأمة بالقبول والتصديق.

وإذا صحَّ الحديث، فلا يعقل أن يزعم بعض الجهال بشذوذ متنه، فالحديث صحيح سندًا ومتنًا باتفاق العلماء.

فلا تعارض بين هذا الحديث الصحيح والأحاديث الصحيحة الأخرى، ومنها كما رواه مسلم من حديث ابن مسعود أيضًا عن النبي ﷺ قال: "إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكًا، فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها..."(٣).

فكلا الحديثين رواه راوٍ واحد وهو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ونحن لسنا بحاجة إلى التوفيق بين حديث نبوي وبين قول الأطباء؛ فإن قول النبي ﷺ معصوم، وقولهم عرضة للخطأ، ولكن الحاجة إلى التوفيق بين الحديث المتقدم وبين حديثه المتأخر، والأحاديث الأخرى التي جاءت بنفس المعنى، كحديث حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: "إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة، ثم يتصور عليها الملك"(٤).

فقد فسَّر معظم العلماء قديمًا هذا الحديث بأن جمع الخلق يكون في أربعين يومًا، وأن مرحلة العلقة تكون في الأربعين الثانية، وأن مرحلة المضغة بعد العلقة تكون في الأربعين الثالثة، ثم ينفخ الروح بواسطة الملك بعد الأربعين الثالثة التي هي مائة وعشرون يومًا.

وفسروا رواية مسلم بأن اسم الإشارة (في ذلك) يعود على بطن الأم، و(مثل ذلك) إلى مدة الأربعين يومًا، كأنه قيل: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك البطن نطفة أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك البطن علقة أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك البطن مضغة أربعين يومًا، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات...

ومما ساهم في فهم الحديث على النحو الذي أشرنا إليه سابقًا هو: وظيفة حرف العطف (ثم)؛ الترتيب والتراخي، فتبعًا لوظيفتها على (العلقة) أن تتبع زمنيًّا (جمع الخلق) وعلى (المضغة) أن تتبع (العلقة).

هذا ما فهمه شراح الحديث النبوي - قديمًا - من متن هذا الحديث، ومعلوم أن هؤلاء العلماء بشرٌ أمثالنا يصيبون ويخطئون، والمعصوم من الخطأ هو الصادق المصدوق نبينا ﷺ وحده، فهذا اجتهاد منهم وهم

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأنبياء، باب: خلق آدم عليه السلام وذريته، (٦/ ٤١٨)، رقم (٣٣٣٢).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: القدر، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، (٩/ ٣٧٥٩)، رقم (٦٥٩٩).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: القدر، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، (٩/ ٣٧٦٠)، رقم (٦٦٠٢).

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: القدر، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، (٩/ ٣٧٦٠)، رقم (٦٦٠٤).

مجازون عليه خير الجزاء إن شاء الله.

وهناك اجتهاد آخر يخالف الاجتهاد السابق، وهذا لاحتمالية تفسير الحديث بعدة أوجه، فدلالة هذا الحديث تعد ظنية من حيث المفهوم. فالزيادة في نص مسلم زيادة ثقة، وهي لراوٍ واحد؛ ولم يذكرها نص البخاري، وهو اسم الإشارة (في ذلك)، أي في خلال المدة نفسها، مما يعني أن المراحل الثلاث تتم جميعها في الأربعين الأولى.

ومما يؤيد ذلك ما ذكره النووي في شرحه صحيح مسلم، قال: "وجوابه أن قوله: "ثم يبعث إليه الملك فيؤذن فيكتب" معطوف على قوله: "يجمع في بطن أمه"، ومتعلق به لا بما قبله، وهو قوله: "ثم يكون مضغة مثله" ويكون قوله: "ثم يكون علقة مثله، ثم يكون مضغة مثله" معترضًا بين المعطوف والمعطوف عليه، وذلك جائز موجود في القرآن والحديث الصحيح وغيره من كلام العرب"[1].

فتفسير النص يكون أن جمع الخلق في أربعين يومًا، والعلقة يجتمع خلقها في تلك الأربعين، فيكون جمع الخلق في مرحلتين: الأولى العلقة، والثانية المضغة، وكلاهما في أربعين يومًا.

وليس جمع الخلق هو مرحلة من المراحل الثلاث كما قال العلماء السابقون رحمهم الله.

فإذا تأملنا قوله ﷺ: "يُجْمَع خلقه" في إطار اللغة العربية نجد أنه بمعنى: يُتقن ويُحْكَم، والبيان لهذا المعنى يعطي صورة واضحة لمعنى الحديث؛ حيث يغيِّر مجريات تفسير الجمهور، ولا يفسر الحديث إلا من خلال أطر اللغة العربية التي تحدد المعاني لكل النصوص القرآنية والحديثية.

وبناءً على رواية ابن مسعود رضي الله عنه، فخلق الجنين يجمع خلال الأربعين يومًا الأولى من عمره، وأطوار النطفة والعلقة والمضغة تتم وتكتمل خلال هذه الأربعين.

قال ابن الزملكاني: "وأما حديث البخاري، فيدل على ذلك؛ إذ معنى يجمع في بطن أمه؛ أي: يُحْكَم ويُتْقَن، ومنه رجل جميع أي مجتمع الخلق، فهما متساويان في مسمى الإتقان والإحكام لا في خصوصه، ثم إنه يكون مضغةً في حصتها أيضًا من الأربعين، محكمة الخلق مثلما أن صورة الإنسان محكمة بعد الأربعين يومًا، فنصب مثل ذلك على المصدر لا على الظرف، ونظيره في الكلام قولك: إن الإنسان يتغير في الدنيا مدة عمره، ثم نشرح تغيره، فيقول: ثم إنه يكون رضيعًا ثم فطيمًا ثم يافعًا ثم شابًا ثم كهلًا ثم شيخًا ثم هرمًا ثم يتوفاه الله بعد ذلك، وذلك من باب ترتيب الإخبار عن أطواره التي ينتقل إليها مدة بنائه في الدنيا.

ومعلوم من قواعد اللغة العربية أن (ثم) تفيد الترتيب والتراخي بين الخبر قبلها وبين الخبر بعدها، إلا إذا جاءت قرينة تدل على أنها لا تفيد ذلك، مثل قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ (الأنعام).

ومن أن وصية الله لنا في القرآن جاءت بعد كتاب موسى عليه السلام، فـ(ثم) لا تفيد ترتيب المخبر عنه في الآية، وعلى هذا يكون حديث ابن مسعود رضي الله عنه: إن أحدكم

1. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٣٧٦٥).

يُجمَع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك (أي في ذلك العدد من الأيام) علقةً (مجتمعة في خلقها) مثل ذلك (أي مثلما اجتمع خلقكم في الأربعين) ثم يكون في ذلك (أي في نفس الأربعين يومًا) مضغة (مجتمعة مكتملة الخلق المقدر لها) مثل ذلك (أي مثلما اجتمع خلقكم في الأربعين يومًا)[1].

والذي يؤكد ما ذهبنا إليه من أن اسم الإشارة (في ذلك) في الحديث يرجع إلى العدد أن هناك أحاديث أخرى عن رسول الله ﷺ تثبت إرسال الملك الذي يؤمر بأربع كلمات، ثم ينفخ فيه الروح بعد الأربعين.

ذكر الإمام مسلم ثلاث روايات عن حذيفة بن أسيد ﷺ، وقد ذكرنا منها الرواية السابقة.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا استقرت النطفة في الرحم أربعين يومًا ـ أو أربعين ليلة ـ بعث الله إليها ملكًا، فيقول: يا رب: ما رزقه؟ فيقال له..."[2].

فالنص المجمل يبقى على إجماله، حتى يأتي نص آخر مبيِّن، فيحمل عليه، وهذا ما اتفق عليه علماء الأصول.

فإنه لما كان اسم الإشارة (مثل ذلك) لفظًا يمكن صرفه إلى واحدٍ من ثلاثة أشياء ذكرت قبله في الحديث، وهي: جمع الخلق، وبطن الأم، وأربعين يومًا ـ فهو لفظ مجمل يحمل على اللفظ المبيِّن للمقصود من اسم الإشارة في قوله، والذي بين لنا ذلك حديث حذيفة ﷺ الذي يمنع مضمونه أن يعود اسم الإشارة على الفترة الزمنية (أربعين يومًا)، ولا يصح أن يعود اسم الإشارة على (بطن الأم) لأن تكراره في الحديث لا يفيد معنى جديدًا.

فإنه لما كان ذلك تعيَّن ـ بناءً عليه ـ أن يعود اسم الإشارة في قوله (مثل ذلك) على جمع الخلق لا على الأربعينات[3].

وتقوى حجتنا من خلال النص القرآني الواضح الذي يشير إلى أن خلق العظام يكون بعد طور المضغة، يقول الله تعالى: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ وخلق العظام ثابت في الحديث الشريف بعد اثنين وأربعين يومًا لما في صحيح مسلم: "إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة... "، فيتبيَّن لنا أن المضغة نشأتها في مدة الأربعين يومًا، كما هو مدلول النص القرآني والحديث النبوي الشريف.

إذن، فاتجاهات النصوص الشرعية التي جعلناها دليلًا لمسألتنا تفسر نص البخاري في جمع الخلق على النحو الذي فسرناه، وإلا حدث التعارض البيِّن بين النصوص، وشريعتنا منزَّهة عن مثل هذا التخبط.

فالمجمل لا بد له من مسائل إيضاحية تبين المراحل في الإجمال، وعلى هذا فله وسيلتان:

الوسيلة الأولى: هي وجود نص بيِّن يُظهر الإجمال.

الوسيلة الثانية: وجود وسيلة علمية يقينية توضح هذا المجمل.

---

١. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن الكريم، ابن الزملكاني، ص٢٧٥، نقلا عن: أطوار الجنين ونفخ الروح، د. عبد الجواد الصاوي، مقال بموقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة. www.nooran.org.com.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة ﷺ، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، (١٥٣٠٤). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٣. انظر: إعجاز القرآن فيما تخفيه الأرحام، كريم نجيب الأغر، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص٤٢٣ وما بعدها.

فالعلم أقر بأن هناك ثلاث مراحل أساسية تحدث في الأربعين الأولى: فالجنين يكون نطفة مؤلَّفة من خلايا في بادئ الأمر إلى اليوم السابع. ومن ثم تجمع خلايا الجنين ضمن قرص جنيني داخل النطفة ما بين اليوم السابع إلى الثالث عشر. ومن ثم يتحول القرص الجنيني إلى علقة، وتخرج النطفة عن مظهرها ما بين اليوم الخامس عشر إلى الرابع والعشرين. ومن ثم تتحول العلقة إلى مضغة ما بين الخامس والعشرين إلى اليوم الثاني والأربعين تقريبًا.

ويتبين لنا - بناء على هذا - أن العلم الحديث يطابق القرآن وحديث رسول الله ﷺ بشكل يقيني، ولا يمكن أن يتعارضا معه، ومن ثم لا يمكن تجاهل الوسائل العلمية اليقينية التي تبين المجمل من النصوص الشرعية، وإن أشكل علينا التوفيق بينها[1].

وخلاصة ما سبق أن حديث ابن مسعود رضي الله عنه صحيح سندًا؛ لاتفاق الشيخين على روايته، ومتن الحديث لا يخالف الأحاديث الأخرى؛ فالزيادة الموجودة في رواية مسلم زيادة ثقة، يجب الأخذ بها وحمل النص عليها، وعندئذ يفهم أن خلق الجنين في بطن أمه يتم ويحكم في أربعين يومًا، وعلى ذلك فلا تعارض بين الحديث وبين الأحاديث الأخرى في هذا الشأن، وبذلك تسقط شبهتهم بحمد الله.

ثانيًا. نفخ الروح ثابت في الجنين، ولا تعارض بين الأحاديث والقرآن في ذلك:

أما ادِّعاؤهم أن الحديث مردود؛ لأنه يعارض القرآن عندما نص على أن الروح تنفخ في الجنين، علمًا بأن الجنين فيه الروح منذ مرحلة النطفة، ولذلك فالصواب ما ذكرته الروايات الصحيحة الأخرى في مثل هذا الباب، فهي لا تقول بنفخ الروح؛ وإنما تقول بتصوير الجنين، علاوةً على أن الله عز وجل لم ينفخ من روحه إلا في آدم وعيسى ابن مريم عليهما السلام.

فهذا ادعاء باطل واستدلال فاسد؛ فنفخ الروح في الجنين ثابت، ولا شك فيه، وقولهم: إن نفخ الروح لم يكن إلا في آدم وعيسى ابن مريم - عليهما السلام - قول لا دليل عليه، بل قامت الأدلة على دحضه وبيان زيفه.

ومما يؤكد ثبوت نفخ الروح في الجنين ما أوضحه ابن حجر في شرحه حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: "ومعنى إسناد النفخ للملك أنه يفعله بأمر الله، والنفخ في الأصل إخراج ريح من جوف النافخ ليدخل في المنفوخ فيه، والمراد بإسناده إلى الله سبحانه وتعالى أن يقول الله: كن فيكون"[2].

يقول ابن القيم: "الجنين قبل نفخ الروح هل كان فيه حركة وإحساس أم لا؟ قيل: كان فيه حركة النمو والاغتذاء كالنبات، ولم تكن حركة نموه واغتذائه بالإرادة، فلما نفخت فيه الروح انضمت حركة حسِّيته وإرادته إلى حركة نموه واغتذائه"[3].

كما أن استدلالهم بأن التصوير هو نفخ الروح استدلال باطل أيضًا، فالتصوير غير نفخ الروح، وهذا ما أكده الإمام النووي عندما قال: "لأن نفخ الروح لا يكون إلا بعد تمام صورته"[4].

1. المرجع السابق، ص٤٢٧: ٤٢٩.

2. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١١/ ٤٩٤).

3. التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم، مرجع سابق، ص٢١٨.

4. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٣٧٦٤).

وهذا ما أكده العلم الحديث؛ حيث يقول د. عبد الجواد الصاوي:

إن هذه القضية كما قلنا لا يفصل فيها العلم الحديث، ولكن تفصل فيها النصوص الشرعية. ولا يوجد فيما أعلم نص صريح وصحيح إلا حديث جَمْعِ الخلق الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد...".

وقد اتفق علماء المسلمين على أن الجنين تنفخ فيه الروح بعد اكتمال طور المضغة، بناء على هذا النص النبوي الصريح. وبما أنه قد ثبت أن زمن المضغة يقع في الأربعين يومًا الأولى، بنص رواية الإمام مسلم لحديث جمع الخلق، وحديث حذيفة بن أسيد (إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة...)، وتوافق حقائق علم الأجنَّة الحديث مع هذه الأوصاف الشرعية لأطوار الجنين؛ فالروح ـ إذن ـ تنفخ بعد الأربعين الأولى من عمر الجنين ليس قبل ذلك، لكن متى يحدث ذلك بالضبط؟ أبعد شهرين أم ثلاثة أم أربعة أو أقل أو أكثر؟ لا أظن أن أحدًا يستطيع أن يحدد موعد نفخ الروح على وجه الجزم واليقين في يوم بعينه بعد الأربعين يومًا الأولى! حيث لا يوجد ـ فيما أعلم ـ نص صحيح في ذلك. لكن يمكن أن يجتهد في تحديد الموعد التقريبي استئناسًا بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ (السجدة: ٩)؛ حيث يمكن أن يفهم منه أن الروح تنفخ في الجنين بعد التسوية، وبما أن التسوية تأتي بعد الخلق مباشرة لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ ﴾ (الانفطار). فيمكن القول ـ بناءً على هذا ـ بأن الروح تنفخ في الجنين بعد مرحلة الخلق؛ أي بعد الأسبوع الثامن من عمره وهي مرحلة النشأة خلقًا آخر. وهو استنتاج معظم المفسرين الذين قالوا إن طور النشأة خلقًا آخر هو الطور الجنيني الذي تنفخ فيه الروح، والذي لا يكون إلا بعد طورَي العظام وكسائه باللحم، كما نصت الآية الكريمة. ويعضد ذلك حرف (ثم) الذي يفيد التراخي في حدوث الفعل، حينما ذُكر مع نفخ الروح في حديث جمع الخلق: (ثم ينفخ فيه الروح ـ كما في البخاري ـ أو ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ـ كما في مسلم).

وحيث إنه لا ينتهي الأسبوع الثامن إلا وجميع الأجهزة الرئيسة قد تخلَّقت، وانتهى طور المضغة في الأربعين يومًا الأولى من عمر الجنين، وتميزت الصورة الإنسانية، وسُوِّي خلق الإنسان في خلال هذه المدة أو بعدها بقليل؛ فيمكن للروح أن تنفخ في الجنين بعد انتهاء عملية الخلق في الأسبوع التاسع أو العاشر، أو بعد تميز الأعضاء التناسلية في الأسبوع الثاني عشر أو بعد ذلك! والله أعلم.

لكن هل توجد علامات تدل على أن الجنين قد نفخت فيه الروح؟ نعم، يمكن أن يكون نوم الجنين علامة على نفخ الروح فيه قياسًا على النائم الذي يتمتع بالحياة رغم أن الروح قد قبضت منه مؤقتًا، وذلك لقول الله ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ

﴿الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (الزمر).

كما يمكن أن تكون الحركات الإرادية دليلًا على وجود الروح. وقد أشار إلى ذلك ابن القيم في وصفه الجنين قبل نفخ الروح وبعده، فقال: كانت فيه حركة النمو والاغتذاء كالنبات، ولم تكن حركة نموه واغتذائه بالإرادة، فلما نفخت فيه الروح انضمت حركة حسِّيته وإرادته إلى حركة نموه واغتذائه.

وقد أثبتت الأجهزة الحديثة رؤية حركات جسم الجنين في وقت مبكر؛ حيث يمكن أن تصور عند الأسبوع الثامن، أو عندما يبلغ كيس الحمل ٣سم، أو يبلغ طول الجنين نحو ١٥مم. كما يمكن أن ترى الحركات الجنينية التي تعبر عن حيوية الجنين، مثل: حركات التنفس، وحركات الأطراف العليا، وضربات القلب، وحركات عدسة العين، والبلع، وحركات الأمعاء الدودية. كما رُصِدت الحركات التي تعبر عن نشاط الجنين، مثل: البلع، وحركة اليد إلى الفم، والمضغ، وحركات اللسان، وحركة اليد إلى الوجه، ومصِّ الأصابع، تلك الحركات التي يمكن أن تُرى عند الأسبوع السادس عشر؛ أي قبل مائة وعشرين يومًا.

وتعتبر هذه الحركات انعكاسًا غير مباشر لحالة الجهاز العصبي المركزي، فكلما كانت هذه الحركات موجودة ومتوازنة؛ كانت حالة الجهاز العصبي نشطة وسليمة.

وهكذا أثبت علماء الأجنَّة بهذه الأجهزة الدقيقة هذه الحقائق التي تؤكد في مجملها أن أطوار الجنين الأولى من النطفة، والعلقة، والمضغة تحدث كلها في خلال الأربعين يومًا الأولى، ويجمع في كل منها خلق أعضاء الجنين وأجهزته في صورته الابتدائية في خلال الأربعين يومًا الأولى من عمره، وأن حركات الجنين الإرادية، وبدء عمل وظائف أعضاء الجنين الرئيسية تحدث في الأربعين يومًا الثانية من عمره، ومن ثم يبطل الاحتجاج بالجزم بعدم نفخ الروح في الجنين قبل أربعة أشهر.

وتأسيسًا على ذلك، فإمكانية نفخ الروح في الأجنة قائمة في أي وقت بعد الأربعين يومًا الأولى؛ في نهاية الأسبوع السابع، أو الثامن، أو التاسع، أو حتى بعد أربعة أشهر.

وإن كان الراجح من النصوص أن الروح تنفخ بعد الأسبوع الثامن من التلقيح؛ لدلالة النصوص الصريحة والصحيحة على ذلك، ولعدم وجود حديث واحد صحيح أو حسن يصرح بأن الروح لا تنفخ في الجنين إلا بعد أربعة أشهر.

ومما يؤكد ذلك الحقائق العلمية الثابتة في علم الأجنة، ومن أهمها رؤية مراحل الجنين المختلفة منذ بداية تكوُّنه واكتمال خلقه وتصويره، وقيام معظم أجهزته بوظائفها، ورصد حركته الذاتية وأنشطته البدنية قبل أربعة أشهر على وجه القطع.

وينبني على ذلك حرمة الإجهاض بعد الأربعين؛ لأن الإجهاض محرم عند جمهور الفقهاء بعد نفخ الروح، ونفخ الروح يكون بعد طور المضغة، وطور المضغة يبدأ ويكتمل وينتهي في خلال الأربعين يومًا الأولى. وعليه يرجح القول بحرمة الإجهاض بعد الأربعين يومًا الأولى من بداية تلقيح البويضة، وتكون النطفة الأمشاج، وتشتد الحرمة بعد مرحلة التخليق؛

أي بعد ثمانية أسابيع، وهي أشد بعد الشهر الثالث أو الرابع، والله أعلم[1].

وهذا ما أكده د. عبد الدائم الكحيل عندما قال: إن هناك تغيرات جذرية تحدث بعد مرور الاثنين والأربعين يومًا الأولى، وفي اليوم الثالث والأربعين يبدأ الدماغ بإطلاق الموجات، ويبدأ الطفل في التفاعل مع محيطه، ويبدأ بالإحساس والشعور، إنه يعني أن الروح قد بدأت تمارس نشاطها في جسد الجنين، ويعني أيضًا أن النبي ﷺ قد سبق علماء الغرب إلى الحديث عن هذه القضية الدقيقة.

ولهذا استدل فقهاؤنا أنه لا يجوز إجهاض الجنين بعد مضي ثنتين وأربعين ليلة من بداية الحمل، ويمكن فعل هذا الأمر إذا كان هناك ضرورة تدعو لذلك. وهذه إشارة نبوية رائعة إلى أن الروح تُنفخ في الجنين عند هذا العمر. وقد تم قياس الموجات التي يطلقها الدماغ عند هذا العمر ـ أي: ثنتان وأربعون ليلة ـ وكذلك تم تسجيل ضربات القلب، وكأن هنالك علاقة بين الروح وبين عمل الدماغ والقلب[2].

ثالثًا. مرحلة النطفة ليست مرحلة تخلُّق، ولكنها مرحلة تجميع لخلايا الذكورة والأنوثة؛ لذلك لم يذكرها النبي ﷺ:

إن الحديث الوارد في خلق الجنين وتكوينه لم يذكر مرحلة النطفة؛ لأنها ليست مرحلة تخليق، ولكنها مرحلة تجميع بين الخلايا، لذلك لم يذكر الرسول ﷺ في الحديث إلا ما لزم من الأطوار، ويبتعد عن ذكر الأطوار التي ليس لها صلة مباشرة بالموضوع المتناول، أو التي لا ينطبق عليها الوصف المذكور في الحديث. ومن ثم نؤمن بأن الرسول امتنع عن ذكر طور النطفة؛ لأن معنى الحديث يقتضي عدم ذكر طور النطفة. والحديث غايته ليست سرد وترتيب الأطوار التي تحدث فيها ظاهرة "جمع الخلق".

والمتتبع لمعنى "جمع الخلق" يفهم لماذا لم يذكر الرسول ﷺ طور النطفة، وذلك للآتي: أن "جمع خلق" الشيء يقتضي ـ كما ذكرنا ـ جمع خلايا الشيء المقصود في أعضاء مختلفة تعطي هذا الشيء الصورة التي تمليها عليها تسميته، وهذا شرط على أي شيء أن يحققه؛ حتى يحق أن يُطْلَق عليه صفة "مجموع الخلق"، فمثلًا: على خلايا "المضغة" أن تجتمع فيما بينها حتى تؤلِّف أعضاء جديدة لدى "المضغة" تعطيها صورة المضغة، فإن لم يكن هناك جمع للخلايا حتى تؤلِّف أعضاء مختلفة لم يندرج هذا الطور تحت ظاهرة "جمع الخلق"، وكما رأينا، فإن خلايا القرص الجنيني تنقسم، ومن ثم تتمايز وتجتمع ضمن فلقات هي بدرجة طلائع للعظام واللحم والجلد، مما يعد جمعًا أوليًّا للخلايا التي ستعطي فيما بعد الأعضاء ضمن فلقات تعطي الجنين مظهر "العلقة"، ولذلك يصدق أن نقول عن العلقة "مجموع الخلق"، ومن ثم تتكاثر تلك الفلقات وتتفكك وتهاجر خلاياها تدريجيًّا، وتجتمع مؤلِّفة الأيدي والأرجل، وسائر الأعضاء على صورة براعم أولية دون أن يفقد الجنين مظهر الفلقات، فتجتمع الخلايا من خلال هذه العمليات ضمن أعضاء مختلفة مُكْسِبَة "العلقة" صورة "المضغة المخلَّقة وغير المخلَّقة"، فيحق عندئذ أن يندرج

---

١. أطوار الجنين ونفخ الروح، د. عبد الجواد الصاوي، مقال بموقع الهيئة العلمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

٢. "الإعجاز في قول النبي ﷺ: إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة..."، د. عبد الدائم الكحيل، www.kaheel.com

الطور الجديد ضمن ظاهرة "جمع الخلق"[1].

ويؤكد ذلك أيضًا د. أحمد شوقي فيقول: قال ﷻ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ (المؤمنون) في هذه الآيات الكريمات إعجاز علمي وبلاغي عجيب، نفهمه إذا علمنا أن أمشاج الذكر وأمشاج الأنثى كانتا منفصلتين إحداهما عن الأخرى - فالبويضة في جسم المرأة، والخلية الذكرية في جسم الرجل - ثم تلاقت البويضة والخلية الذكرية واتحدتا، وكونتا البويضة الملقحة، أو النطفة الأولى. إذن، فما الفرق بين خلق النطفة والعلقة والمضغة؟ خلق العلقة والمضغة هما أطوار في الخلق يعقب بعضها بعضًا في نفس الجنين، وفي نفس الرحم، ولا تختلف إحداهما عن الأخرى إلا في درجة التسوية في الخلق.

إذن، هناك فرق واضح بين خلق النطفة من أمشاج ذكر وأنثى، كانت متفرقة في جسمين مختلفين ثم تجمعت، وبين العلقة والمضغة بعد ذلك؛ لذلك نجد التعبير القرآني بالغ الدقة البلاغية والعلمية: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ (المؤمنون)، فالجعل في اللغة أشمل من الخلق؛ فالجعل يعني الجمع بعد تفرق، والخلق والأمر. لذلك لم تقل الآية: "ثم خلقناه نطفة في قرار مكين"؛ لأن الله خلق النطفة من مشيجين كانا متفرقين فجمعهما وخلطهما، وخلق منهما نطفة. وهذا النمط في خلق النطفة لم يكن في خلق العلقة والمضغة، لذلك وصف طور خلق النطفة بالجعل، وطور كل من العلقة والمضغة بالخلق[2].

ومما سبق يتبيَّن أن في هذين الطورين هناك خلق أعضاء عن طريق جمع خلايا، وصور جديدة محدثة وفق هذا الجمع. أما في حال نطفة الأمشاج، فليس هناك جمع خلايا يؤدي إلى نشوء أعضاء جديدة لدى النطفة تضفي عليها صورة النطفة، بل هناك تكاثر للخلايا في اتجاهات مختلفة، لا يؤدي في هذه المرحلة إلى تخلق أعضاء تعطيها صورة النطفة. وجمع الخلايا إلى قسمين الذي حصل في داخل غلاف النطفة في نهاية طورها لم يؤدِ إلى جمع أعضاء للنطفة، بل أدى إلى جمع شيء جديد هو الجنين. وهذا بدوره يؤدي إلى أن مفردات الحديث الشريف تتطابق بتفاصيله مع المعطيات العلمية اليقينية[3].

وخلاصة القول في ذلك أنه لا تعارض بين حديث ابن مسعود ﷺ والقرآن الكريم في ذكر نفخ الروح في الجنين بعد أربعين يومًا من بدء الحمل؛ فالحديث صريح في ذلك، أما التعبير بالتصوير في القرآن، وفي بعض الأحاديث الصحيحة الأخرى، فالمراد منه هو تصيير الجنين إلى هيئة خاصة، كخلق السمع والبصر، والجلد

١. إعجاز القرآن فيما تخفيه الأرحام، كريم نجيب الأغر، مرجع سابق، ص٤٣٠، ٤٣١.

٢. موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي، د. أحمد شوقي إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، (٢/ ٥٨: ٦٠) بتصرف.

٣. إعجاز القرآن فيما تخفيه الأرحام، كريم نجيب الأغر، مرجع سابق، ص٤٣١ بتصرف.

واللحم والعظم، ولذلك تبطل شبهتهم وتزول.

الخلاصة:

- إن حديث ابن مسعود ﷺ صحيح سندًا ومتنًا، ولا يقدح في صحته خطأ بعض المفسرين - قديمًا - في توجيهه؛ فهم بشر يصيبون ويخطئون.
- لا تعارض بين الحديث والأحاديث الأخرى في هذا الباب، بشأن الفترة الزمنية التي يُجمع فيها خلق الجنين في بطن أمه (من ٤٠: ٤٢ يومًا)، وذلك حسب اجتهاد بعض العلماء في توجيه الحديث توجيهًا آخر - وهو الصواب إن شاء الله.
- لقد جاءت توجيهات هؤلاء العلماء للحديث على النحو الآتي:
    - إن قوله (يبعث إليه الملك فيؤذن فيكتب) معطوف على قوله (يجمع في بطن أمه)، ومتعلق به لا بما قبله، وهو قوله: (ثم يكون مضغة مثله)، ويكون قوله: (ثم يكون علقة مثله، ثم يكون مضغة مثله) معترضًا بين المعطوف والمعطوف عليه، وذلك جائز في القرآن الكريم والسنة النبوية وكلام العرب.
    - لم تكرر الروايات لفظة (أربعين يومًا)، بل قالت: (في ذلك... مثل ذلك) والمعنى: في ذلك الوقت أي: الأربعين يومًا علقة، أو مضغة مكتملة النمو تامة الإحكام، مثلما تكونت النطفة في الأربعين نفسها مكتملة النمو وتامة الأحكام.
    - إن وصف النطفة يكون في الأسبوع الأول تقريبًا، والعلقة في الأسبوعين الثاني والثالث، والمضغة في الأسابيع الرابع والخامس والسادس، وهذا ما تؤيده باقي النصوص الصحيحة، ويتفق معه العلم الحديث.
    - إن جميع الروايات لم تتحدث إلا عن أربعين يومًا واحدة يكون فيها جمع الخلق، والعلقة يجتمع خلقها في تلك الأربعين وكذلك المضغة، فيكون جمع الخلق في مرحلتين: الأولى العلقة، والثانية المضغة، وكلاهما في الأربعين يومًا.
    - بضم الحديث إلى الأحاديث الأخرى الصحيحة أيضًا يتبين أنه يمتنع عود اسم الإشارة (في ذلك) على الفترة الزمنية (أربعين يومًا)، وكذلك يمتنع عود اسم الإشارة (في ذلك) على (بطن الأم)؛ لأنه لا يفيد معنى جديدًا، ولما كان ذلك تعين عوده على جمع الخلق، لا على الأربعينات.
- الروح سر من أسرار الله التي أخفاها عن خلقه؛ يقول ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء)، ونفخ الروح في الجنين حقيقة ثابتة بما ورد عن رسول الله ﷺ، وذلك بعد أربعين يومًا أو اثنين وأربعين يومًا.
- لقد أثبت العلم الحديث أن الجنين بعد اثنين وأربعين يومًا يصدر منه بعض الحركات، كنبضات القلب والمخ وبعض الأطراف. وهذا يدل على أن الروح قد نُفخت، ولكن لم يُحدد وقتٌ معين لنفخ الروح في الجنين، وهذا ما ذكره العلم الحديث وأكده.
- يتحدث الحديث الشريف عن "جمع الخلق"، وهي المراحل التي يتم فيها تخلق بعض أعضاء الجنين، سواء في مرحلة العلقة أو مرحلة المضغة، لذلك لم يذكر النبي ﷺ مرحلة النطفة؛ لأنها مرحلة تجميع بين خلايا الذكر والأنثى، ولا يحدث فيها تخلُّق.
- أشار القرآن الكريم إلى مراحل تطور الجنين،

فوصف مرحلة النطفة بقوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾ (المؤمنون)، ووصف ﷻ المراحل الأخرى بقوله: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (المؤمنون). وهذا يدل على أن مرحلة النطفة ليست مرحلة تخلق، ولكنها مرحلة تجميع لأمشاج الرجل والمرأة. وهذا يدل على دقة اختيار النبي ﷺ لألفاظه؛ فهي وحي من الله ﷻ.

الشبهة الثانية عشرة

دعوى بطلان حديث "العين حق"(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض أعداء السنة النبوية بطلان حديث رسول الله ﷺ الذي رواه الشيخان، والذي جاء فيه: "العين حق". وزاد مسلم: "ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين". ويستدلون على ذلك بأن هذا الحديث يخالف العقل، فكيف تعمل العين من بُعد، حتى تُعل وتُسقِم؟ فلا يمكن أن يصيب شخصٌ شخصًا آخر بغير اتصال أو ملامسة، ولا يمكن أن يُؤثِّر في الحس المادي إلا حسٌّ مادي مثله نراه ونبصره بأعيننا. رامين من وراء ذلك إلى إنكار هذا الحديث برواياته، تمهيدًا للطعن في السنة جميعها.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن حديث ﷺ "العين حق" صحيح في أعلى درجات الصحة، فقد اتفق الشيخان على صحته، فضلًا عن تعدد طرق الحديث وتنوعها، وورده في أغلب كتب الحديث بأسانيد صحيحة، علاوة على تصريح القرآن الكريم بذلك، وكذلك الأحاديث الشريفة في التأكيد على ما للعين من تأثير واضح على الأشياء والأجسام الأخرى دون ملامسة أو اتصال.

٢) لقد كثرت الوقائع المشاهدة أمام أعيننا في كل زمان ومكان، بما لا يدع مجالًا للشك أن للعين تأثيرًا لا ينكر في تغير طبائع الأشياء، كما أن اختلاف الناس وتغيُّر أحوالهم وتفاوت طبائعهم ليدل على أنهم يختلفون أيضًا في الإضرار بأعينهم أو عدم الإضرار، ولا ينبغي لمن لا يملك الشيء أن ينكر وجود الشيء لدى من يملكه.

٣) لقد جاء العلم الحديث بما توصل إليه من نظريات وأساليب علمية حديثة، وبما قام به من تجارب علمية في هذا الشأن، فأثبت أن العين لها قدرة عظيمة على التأثير في طبائع الأشياء والأشخاص مما يؤكد صدق نبوة المصطفى ﷺ.

التفصيل:

أولا. حديث "العين حق" حديث صحيح في أعلى درجات الصحة سندًا، وتأثير العين أمر ثابت بالقرآن والسنة وإجماع الأمم والملل:

إن ما يدعيه بعض المغرضين من أعداء سنة البشير

(*) مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مرجع سابق. تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، مرجع سابق. التأويل "دراسة موضوعية في الأحاديث النبوية"، د. محمد رأفت سعيد، دار الوفاء، مصر، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

النذير؛ من أن حديث رسول الله ﷺ: "العين حق" حديث باطل لا يصح؛ لأنه - في زعمهم - يخالف العقل؛ فلا يقبل العقل أن يصيب شخصٌ شخصًا آخر بغير اتصال أو ملامسة، ولا أن يؤثر في الحسِّي المادي إلا حسِّي مادي مثله، نراه ونبصره بأعيننا، فلذلك فهم يتساءلون: كيف تعمل العين من بُعد، حتى تعل وتسقم؟

وفي الحقيقة كل هذا كلام باطل، ولا أساس له من الصحة؛ فحديث رسول الله ﷺ الذي ينكرونه هو حديث ثابت عن النبي ﷺ يقينًا؛ فقد رواه الشيخان، واتفقا على صحته، فقد رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " العين حق، ونهى عن الوشم "[1].

ومعنى العين: "نظر باستحسان مشوب بحسد من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر"[2].

وروى مسلم بنفس الطريق أيضًا عن رسول الله ﷺ قال: "العين حق"[3].

وأخرج الإمام مسلم أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استُغسِلتم فاغسلوا"[4].

وللحديث شواهد أخرى كثيرة، وبطرق متعددة؛ منها:

ما رواه الحاكم في المستدرك: عن عامر بن ربيعة، عن النبي ﷺ قال: "إذا رأى أحدكم من نفسه، أو ماله، أو من أخيه ما يعجبه، فليبرِّك[5]؛ فإن العين حق"[6].

وروى ابن ماجه في سننه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "استعيذوا بالله؛ فإن العين حق"[7].

وجاء في صحيح ابن حبان عن سهل بن الأحنف، عن رسول الله ﷺ قال: "علام يقتل أحدكم أخاه، ألا برَّكت؟! إن العين حق توضأ له"[8].

فالحديث صحيح سندًا ولا غبار عليه، وهو في أعلى درجات الصحة، فقد رواه الشيخان، وروي من طرق كثيرة في أغلب كتب الحديث؛ مما يؤكد صحة نسبته إلى النبي ﷺ.

أما من حيث المتن؛ فالحديث معناه صحيح ومستقيم، ولا مطعن في متنه على الإطلاق، فالعين حق: أي لها تأثير لا ينكر في الأشخاص والأشياء الأخرى، شهد بذلك القرآن الكريم، وتواترت الأحاديث النبوية الشريفة في بيان ذلك.

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الطب، باب: العين حق، (١٠/ ٢١٣)، رقم (٥٧٤٠).

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٠/ ٢١٠).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: السلام، باب: الطب والمرض والرُّقى، (٨/ ٣٣٠٧)، رقم (٥٥٩٧).

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب السلام، باب: الطب والمرض والرقى، (٨/ ٣٣٠٧)، رقم (٥٥٩٨).

٥. يبرِّك: يدعوا بالبركة.

٦. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب: الطب، (٤/ ٢٤٠)، رقم (٧٥٠٠). وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي في تعليقه على المستدرك.

٧. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الطب، باب: العين، (٢/ ١١٥٩)، رقم (٣٥٠٨). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٣٥٠٨).

٨. صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: الرقى والتمائم، (١٣/ ٤٦٩)، رقم (٦١٠٥). وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان: رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن أبي أمامة.

أما من القرآن نذكر ما يأتي:

- قوله ﷻ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾ (الفلق)، حيث أمر الله بالاستعاذة من شر الحاسد والعائن.

- قوله ﷻ على لسان يعقوب عليه السلام موصيًا بنيه: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)﴾ (يوسف).

وقد ذكر الطبري في تفسير هذه الآية: وذكر أنه قال ذلك لهم؛ لأنهم كانوا رجالًا لهم جمال وهيأة، فخاف عليهم العينَ إذا دخلوا جماعة من طريق واحدٍ، وهم ولد رجل واحد، فأمرهم أن يفترقوا في الدخول إليها"[1].

وقال القرطبي رحمه الله في تفسيرها: "لَّما عزموا على الخروج خشي عليهم العين، فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد، وكانت مصر لها أربعة أبواب، وإنما خاف عليهم العين؛ لكونهم أحد عشر رجلًا لرجل واحد، وكانوا أهل جمال وكمال وبسطة، قاله ابن عباس، والضحاك، وقتادة وغيرهم"[2].

- وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩)﴾ (الكهف).

قال القرطبي: "ورُوي أن من قال أربعًا أَمِنَ من أربع: من قال هذه أَمِنَ مِنَ العين..."[3].

- وقوله ﷻ: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١)﴾ (القلم).

قال القرطبي في تفسيرها: "أخبر بشدة عداوتهم للنبي ﷺ، وأرادوا أن يصيبوه بالعين؛ فنظر إليه قوم من قريش، وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حججه. وقيل: كانت العين في بني أسد، حتى إن البقرة السمينة، أو الناقة السمينة تمر بأحدهم فيعاينها، ثم يقول: يا جارية، خذي المِكْتَل والدرهم فأتينا بلحم هذه الناقة، فما تبرح حتى تقع للموت فتُنحر.

وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئًا يومين أو ثلاثة، ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الإبل أو الغنم، فيقول: لم أر كاليوم إبلًا ولا غنمًا أحسن من هذه! فما تذهب إلا قليلًا حتى تسقط منها طائفة هالكة.

فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبي ﷺ بالعين فأجابهم، فلما مر النبي ﷺ أنشد:

قد كان قومك يحسبونك سيدًا

وإخال أنك سيد معيون

فعصم الله ﷻ نبيَّه ﷺ ونزلت: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١)﴾ (القلم).

وذكر نحوه الماوردي، وأن العرب كانت إذا أراد أحدهم أن يصيب أحدًا - يعني في نفسه وماله - تجوَّع ثلاثة أيام، ثم يتعرض لنفسه وماله، فيقول: تالله ما رأيت أقوى منه، ولا أشجع، ولا أكثر منه، ولا أحسن،

---

١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، مرجع سابق، (١٦/ ١٦٥).

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (٩/ ٢٢٦).

٣. المرجع السابق، (١٠/ ٤٠٧).

فيصيبه بعينه فيهلك هو وماله، فأنزل الله تعالى هذه الآية"[١].

أما من السنة فالأدلة على حقيقة العين وتأثيرها، وكيفية الترقي والاسترقاء منها كثيرة جدًّا، تصل إلى حد التواتر؛ منها:

ما جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: "أمرني النبي ﷺ - أو أمر - أن يُسترقى من العين"[٢].

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل قال: باسم الله يُبْرِيك، ومن كل داء يَشْفِيك، ومن شر حاسد إذا حسد، وشر كل ذي عين"[٣].

وقد صحَّ عن أم سلمة رضي الله عنها: "أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة، فقال: "استرقوا لها، فإن بها النظرة"[٤].

وروي عن عبيد بن رفاعة قال: قالت أسماء (بنت عميس): "يا رسول الله، إن بني جعفر تصيبهم العين، أفأسترقي لهم؟ قال: نعم؛ فلو كان شيء سابق القدر سبقته العين"[٥].

وروى الطيالسي عن جابر ﷺ عن النبي ﷺ قال: "أكثر من يموت من أمتي بعد قضاء الله وقدره بالأنفس - يعني العين"[٦].

وروى البخاري عن رسول الله ﷺ قال: "أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامَّة، وَمِنْ كُلِّ عين لامَّة"[٧].

قال ابن حجر في "الفتح": قوله (باب العين حق): أي الإصابة بالعين شيء ثابت موجود، أو هو من جملة ما تحقق كونه. قال المازري: أخذ الجمهور بظاهر الحديث، وأنكره طوائف المبتدعة لغير معنى؛ لأن كل شيء ليس محالًا في نفسه، ولا يؤدي إلى قلب حقيقة، ولا إفساد دليل، فهو من متجاوزات العقول، فإذا أخبر الشرع بوقوعه لم يكن لإنكاره معنى، وهل من فرق بين إنكارهم هذا وإنكارهم ما يخبر به من أمور الآخرة؟!"[٨].

وجاء في "فتح الباري" أيضًا: قوله: "فلو كان شيء سابق القدر لسبقته العين" إشارة إلى الرد على من زعم من المتصوفة أن قوله: "العين حق" يريد به القدر: أي العين التي تجري منها الأحكام، فإن عين الشيء حقيقته؛ والمعنى أن الذي يصيب من الضرر بالعادة عند نظر الناظر؛ إنما هو بقدر الله السابق لا بشيء يحدثه الناظر في المنظور، ووجه الرد أن الحديث ظاهر في المغايرة بين القدر وبين العين، وإن كنا نعتقد أن العين

---

١. السابق، (١٨/ ٢٥٤، ٢٥٥).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الطب، باب: رقية العين، (١٠/ ٢١٠)، رقم (٥٧٣٨).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: السلام، باب: الطب والمرض والرقي، (٨/ ٣٣٠٧)، رقم (٥٥٩٥).

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الطب، باب: رقية العين، (١٠/ ٢١٠)، رقم (٥٧٣٩).

٥. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الطب، باب: العين، (٢/ ١١٦٠)، رقم (٣٥١٠). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٢٨٢٩).

٦. حسن: أخرجه الطيالسي في مسنده، كتاب: ما روى عبد الرحمن بن جابر عن جابر، ص٢٤٢، رقم (١٧٦٠). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٧٤٧).

٧. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: رقم (١٠)، (٦/ ٤٧٠)، رقم (٣٣٧١).

٨. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٠/ ٢١٣، ٢١٤).

من جملة المقدور، لكن ظاهره إثبات العين التي تصيب، إما بما جعل الله تعالى فيها من ذلك، وأودعه إياها، وإما بإجراء العادة بحدوث الضرر عند تحديد النظر، وإنما جرى الحديث مجرى المبالغة في إثبات العين، لا أنه يمكن أن يرد القدر شيء؛ إذ القدر عبارة عن سابق علم الله، وهو لا راد لأمره. أشار إلى ذلك القرطبي، وحاصله: لو فرض أن شيئًا له قوة بحيث يسبق القدر لكان العين، لكنها لا تسبق، فكيف غيرها[1]؟!

قال النووي "ومذهب أهل السنة أن العين إنما تفسد وتهلك عند نظر العائن بفعل الله تعالى، أجرى الله ﷻ العادة أن يُخْلَق الضرر عند مقابلة هذا الشخص لشخص آخر، وهل ثَمَّ جواهر خفية أم لا ؟ هذا من مجوزات العقول، لا يقطع فيه بواحد من الأمرين، وإنما يقطع بنفي الفعل عنها وبإضافته إلى الله تعالى. فمن قطع من أطباء الإسلام بانبعاث الجواهر فقد أخطأ في قطعه، وإنما هو من الجائزات. هذا ما يتعلق بعلم الأصول، أما ما يتعلق بعلم الفقه، فإن الشرع ورد بالوضوء لهذا الأمر في حديث سهل بن حنيف لما أصيب بالعين عند اغتساله، فأمر النبي ﷺ عائنه أن يتوضأ"[2].

ثانيًا. كثرة الوقائع المشاهدة في كل زمان ومكان مما يثبت تأثير العين الذي لا ينكر:

كثيرة هي تلك الوقائع والمشاهد التي تؤكد حقيقة العين، وظهور أثرها في الأشياء والأجسام، مما يصدِّق على صحة الأحاديث الواردة في هذا الباب، وقد شرح هذه الوقائع والمشاهد كما رآها أو سمعها كثير من العلماء مثل ابن القيم وابن حجر وابن قتيبة، فابن القيم يرد على من أنكر العين، ويقول: "فأبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل أمر العين، وقالوا: إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل، ومن أغلظهم حجابًا، وأكثفهم طباعًا، وأبعدهم عن معرفة الأرواح والنفوس، وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها، وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا تدفع أمر العين، ولا تنكره، وإن اختلفوا في سببه، وجهة تأثير العين.

ثم قال ابن القيم أيضًا: "ولا ريب أن الله ﷻ خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة، وجعل في كثير منها خواصَّ وكيفيات مؤثرة، ولا يمكن لعاقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام؛ فإنه أمر مُشَاهد محسوس، وأنت ترى الوجه يحمر حمرةً شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه ويستحي منه، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه إليه، وقد شاهد الناس من يسقم من النظر وتضعف قواه، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح، ولشدة ارتباطها بالعين يُنسب الفعل إليها، وليست هي الفاعلة؛ وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذىً بيِّنًا؛ ولهذا أمر الله ﷻ رسوله أن يستعيذ به من شره.

وتأثير الحاسد في أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية، وهو أصل الإصابة بالعين؛ فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة، وتقابل المحسود، فتؤثر فيه بتلك الخاصية، وأشبه الأشياء بهذا الأفعى، فإن السم كامن فيها

---

١. المرجع السابق، (١٠/ ٢١٤).

٢. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٨/ ٣٣٠٩).

بالقوة، فإذا قابلت عدوها، انبعثت منها قوة غضبية، وتكيَّفت بكيفية خبيثة مؤذية، فمنها ما تشتد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر في إسقاط الجنين، ومنها ما تؤثر في طمس البصر، كما قال النبي ﷺ في الأبتر، وذي الطُّفْيَتَيْنِ[١] من الحيات: "إنهما يطمسان البصر، ويستسقطان الحَبَلَ"[٢].

وذكر أيضًا: "والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية، كما يظنه من قلَّ علمه ومعرفته بالطبيعة والشريعة، بل التأثير يكون تارة بالاتصال، وتارة بالمقابلة، وتارة بالرؤية، وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه، وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات، وتارة بالوهم والتخيل، ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية، بل قد يكون أعمى، فيوصف له الشيء فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره، وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ (القلم:٥١)[٣].

وقد بيَّن ابن حجر في "الفتح" ما قد يشكل على البعض في ذلك، فقال: " وقد أشكل ذلك على بعض الناس فقال: كيف تعمل العين من بُعْد حتى يحصل الضرر للمعيون؟ والجواب: أن طبائع الناس تختلف، فقد يكون ذلك من سمٍّ يصل من عين العائن في الهواء إلى بدن المعيون، وقد نُقل عن بعض من كان معيانًا أنه قال: إذا رأيت شيئًا يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني. ويقرب ذلك بالمرأة الحائض تضع يدها في إناء اللبن فيفسد، ولو وضعتها بعد طهرها لم يفسد، وكذا تدخل البستان فتضر بكثير من الغروس من غير أن تمسها يدها، ومن ذلك أن الصحيح قد ينظر إلى العين الرمداء فيرمد، ويتثاءب واحد بحضرته فيتثاءب هو، أشار إلى ذلك ابن بطال"[٤].

ويرد ابن قتيبة على من يقول: "وكيف تعمل العين من بُعْد، حتى تعل وتسقم"؟ ويقولون: "هذا لا يقوم في وهم، ولا يصح على نظر"، فيرد ابن قتيبة ويقول: "ونحن نقول: إن هذا قائم في الوهم، صحيح في النظر من جهة الديانة، ومن جهة الفلسفة التي يرتضون بها، ويردون الأمور إليها، والناس يختلفون في طبائعهم، فمنهم من تضر عينه إذا أصاب بها، ومنهم من لا تضر عينه، ومنهم من يعض فتكون عضته مَعَضَّة الكلْب الكلِب في المضرة، أو كنهشة الأفعى، لا يسلم جريحها، ومنهم من تلسعه العقرب، فلا تؤذيه وتموت العقرب... فما الذي ينكر من أن يكون في الناس ذو طبيعة في نفس ذات سم وضرر؟

فإذا نظر بعينه، فأعجبه ما يراه، وصل من عينه في الهواء شيء من تلك الطبيعة أو ذلك السم، حتى يصل إلى المرئي فيعلّه.

وقد زعم صاحب المنطق "أن رجلًا ضرب حية بعصا، فمات الضارب، وأن من الأفاعي ما ينظر إلى الإنسان، فيموت الإنسان بنظره، وما يصوت، فيموت

---

١. الأبتر: الثعبان مقطوع الذنب، وذو الطفيتين: هي أفعى يكون على ظهرها خطان أسودان.

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: بدء الخلق، باب: قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾، (٦/ ٣٩٩)، رقم (٣٢٩٧).

٣. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، مرجع سابق، (٤/ ١٦٥: ١٦٧).

٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٠/ ٢١٠).

السامع بصوته" فهذا قول أهل الفلسفة[1].

"وقد اتفقت الأمم بالإجمال على أن للعين تأثيرًا، فلا تجد أمة إلا وفيها من يعرف بذلك، ومن يصدقه ويعترف به، ويروي فيه الروايات الكثيرة العجيبة التي يستحيل أن تكون كلها كذبًا، وأن يكونوا تواطئوا على الجهل والغلط والكذب فيها، بل يكاد يكون في كل بلدة من يعرف عنه الداء الوبيل، والناس يحكون عنه الأشياء الكثيرة، ويذكرون أنهم شاهدوها، أو حدثهم من شاهدوها"[2].

وخلاصة القول في ذلك: أن حديث رسول الله ﷺ "العين حق" حديث صحيح في أعلى درجات الصحة؛ لاتفاق الشيخين البخاري ومسلم على صحته، ولوروده بطرق كثيرة متنوعة في أغلب كتب الحديث بأسانيد قوية وصحيحة، هذا من حيث السند، أما من حيث المتن فقد أكَّد معناه القرآن الكريم في غير آية، وتواترت الأحاديث في شأن بيان تأثير العين بعد إرادة الله على المعين، ذلك ما لم تنكره أمة من الأمم، أو ملة من الملل من قبل.

ثالثًا. العلم الحديث والتجربة المشاهدة تثبت أن للعين قوةً خارقة في التأثير في الآخرين دون اتصال أو ملامسة:

إنه ليس صحيحًا ما زعمه هؤلاء المغرضون من أن أحاديث تأثير العين مردودة؛ بحجة أنها تخالف العلم، وما هي إلا خرافة؛ لأنه لا يمكن أن يصيب الشخص شخصًا آخر بغير اتصال وملامسة، وشق عليهم أن يصدقوا أن العين تؤثر من بُعد، حتى تعل وتسقم.

فقد أثبت العلم الحديث صدق ما جاء به النبي ﷺ بشأن قدرة العين الخارقة في التأثير في الآخرين.

فَتَحْتَ عنوان: (من شر حاسد إذا حسد) كتب الأستاذ فراس نور الحق ـ مدير موقع الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ـ يقول:

"تقول الكاتبة والباحثة الإنجليزية والصحفية التي جمعت أخطر دراسات في مجال الطاقة (لين ماكتاجارات) في كتابها: "البحث عن سر قوة الكون": "لقد كشف العلم الحديث أن للعين قوى خارقة، كما أظهرت الدراسات أن هذه القدرات ليست حكرًا على أحد، أو خاصية يتمتع بها أناس متميزون عن غيرهم، بل هي موجودة في معظم البشر، وأقل البشر شريطة أن يدرك قدراته، ويعرف الطرق لاستخدامها"[3].

وقد أوردت هذه الباحثة عدة شواهد ونماذج توفرت فيهم هذه الخاصية، فقالت: "ولعل أعجب القدرات على اختراق المادة بالنفس، امتلكها الشاب (ماثيو مانينغ) من قرية (لينتون) قرب مدينة كامبردج، فقد كان باستطاعته طوي الملاعق والسكاكين وتغيير شكلها بمجرد النظر، وكان ينظر إلى عقارب الساعة فيوقفها عن الحركة، ويستطيع إيقاف التيار الكهربائي... وثبتت لديه القدرة على التأثير في سريان الدم في الأوعية والشرايين، وكذلك التأثير على مرض السرطان.

ويُعرف عن نابليون بونابرت أنه كان ذو نظرة

---

1. تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، مرجع سابق، ص٤٢٤: ٤٢٦.
2. مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مرجع سابق، ص٩٩.
3. العين والقدرات الخارقة، د. محمد السقا، مقال بموقع: اسم الله.

(حسد ثاقبة) فقد عُرف عنه أنه إذا ثبت نظره على خصمه سبَّب له متاعب كبيرة، وإذا نظر بنظرته الحاسدة إلى شيء ما حطم ذلك الشيء، ولم يكن بياض عينيه أبيض، بل كان لونه صفراويًّا.

أما أكثر هذه الحالات غرابة، وأكثرها مصداقية، وذات توثيق علمي، هي التجربة التي أجريت على **(نيليا ميخايلوفا)** التي كانت باستطاعتها، وبمجرد النظر من على بعد ستة أقدام أن تفصل بياض البيضة عن صفارها، مستخدمة في ذلك مقدرتها الخاصة جدًّا في تحريك الأجسام المادية عن بُعد ودون أن تقربها.

وقد أجريت هذه التجربة وسط حشد من العلماء بجامعة لينجراد، وباستخدام آلات التصوير لتسجيل الحدث لحظة بلحظة، وباستعمال العديد من الأجهزة التي تقيس الضغط والنبض، وأنواع الإشعاعات التي تسود المخ أثناء التجربة، وقد نجحت السيدة نيليا في فصل صفار البيضة عن بياضها خلال نصف ساعة، وقد كشفت الملاحظة وأجهزة القياس على جسد السيدة نيليا عن الآتي:

- نشاط غير منتظم في القلب مع زيادة النبض (٢٤٠).
- ارتفاع شديد في نسبة السكر.
- فقدت رطلين من وزنها.
- خرجت من التجربة تعاني من الضعف بشكل عام.
- أُصيبت بما يشبه فقدان البصر المؤقت.
- تعاني من آلام شديدة في الأطراف.
- وظلت لعدة أيام بعد التجربة غير قادرة على النوم.
- فقدت قدرتها على التذوق.

ولقد كان اكتشاف حالة السيدة **(نيليا)** كان بفضل العالم البيولوجي **(إدوارد فاموف)**، الأستاذ بجامعة موسكو - الذي أعدَّ دراسات على قدراتها، وذلك باستخدام عيدان الثقاب التي تستطيع **(نيليا)** تحريكها بتمرير يدها عليها، وهي مبعثرة على طاولة، ثم باستخدام لوح زجاجي بين يديها وبين عيدان الثقاب.

فمن أخبر محمدًا ﷺ قبل ألف وأربعمائة سنة عن الطاقة التي تولدها العين؟ إنه الله خالق الكون رب العالمين[١].

وكان من رواد هذا المجال د. هيروشي موتوياما (وهو عالم ياباني حصل على ***Ph.D*** في علم وظائف الأعضاء، وعلى ***Ph.D*** في علم النفس، وهو مدير معهد علم النفس الديني بطوكيو) الذي أجرى العديد من التجارب العلمية حول الموضوع - نُشرت خلال السبعينات من هذا القرن - نلخصها فيما يلي: ميَّز هيروشي موتوياما بين الشخص العادي، وشخص غير عادي سماه ***Psi-ability*** له قدرة طاقية نفسية داخلية، ونستسمحه أن نسميه مؤقتًا (الشخص النفسي) فوجد أن الشخص النفسي يمكنه التحكم في بعض وظائف لا إرادية للجهاز مثل سرعة ضربات القلب، وسرعة التنفس، وبعضهم استطاع أن يوقف ضربات قلبه خمس ثوانٍ.

ولاحظ أن هؤلاء الأشخاص النفسيين هم من ذوي الطبائع التأملية، والرياضيات العقلية النفسية،

١. "من شر حاسدٍ إذا حسد"، مقال بموقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، فراس نور الحق، نقلا عن: العين والقدرات الخارقة، د. محمد السقا، مقال بموقع: اسم الله.

وأنهم منطوون على أنفسهم، وأنهم قليلو الاختلاط بالناس، قليلو الحركة الحياتية، منهمكون في التأمل العقلي النفسي، وليس التأمل العقلي الرياضي، أو العلمي أو الفني.

وتمكن هذا العالم من رصد وتسجيل بعض مؤشرات عن وظائف أعضاء هؤلاء الأشخاص مقارنة بالأشخاص العاديين، وقد ظهر من هذه المؤشرات معدل تدفق البلازما، وسرعة التنفس والمقاومة الجهدية الكهربية للجلد في شخص عادي وشخص نفسي.

ثم تمكن هذا العالم من ملاحظة ما يمكن أن ينتاب الشخص العادي من تأثير التركيز العقلي من الشخص النفسي عليه، فوجد أن التركيز العقلي من الشخص النفسي على شخص عادي يسبب له خللًا في المقاييس الثلاثة التي قاسها، وهي معدل تدفق البلازما، وسرعة التنفس، والمقاومة الجهدية الكهربية للجلد.

وقد استطاع أن يصمم أجهزة دقيقة لقياس الطاقة، فأثبت أن هناك انبعاثًا للطاقة من جسد الشخص النفسي، وهي التي تسبب التأثير على الشخص العادي، وأنها تنبعث من بؤرات سمَّاها(شَاكْرَا) توجد على امتداد الحبل الشوكي مع المحور الطولي للإنسان، وأن أشدها نشاطًا هي البؤرة الموجودة بين العينين، والتي تقابل تمامًا الغدة النخامية فيه، فأثبت تأثير التركيز العقلي من هذه البؤرة على الشخص العادي الذي تم عزله تمامًا في صندوق، ووضع في حجرة معزولة بالرصاص عن أي إشعاع يدخل من الخارج.

ولخص "هيروشي موتوياما" معلوماته على النحو التالي:

- الأشخاص العاديون غير قادرين على بعث هذه الطاقة.
- الأشخاص المميزون يمكنهم إيقاظ الانبعاث عن طريق التركيز، أو أثناء ما تنتابهم من حالات نفسية غير مستقرة.
- أقوى النقاط المؤثرة في (الشاكرا) هي البؤرة التي على الجبهة بين العينين[1].

مما سبق يتضح أن التجربة المشاهدة قد أكدت ما للعين من تأثير لا ينكر في الأشياء والأشخاص، وقد تواترت تلك التجارب أمام أعيننا كل يوم وفي كل زمان، وقد جاء العلم الحديث بنظرياته وتجاربه، وكل ما توصل إليه من أساليب علمية حديثة؛ ليثبت ما قد أكده النبي ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان من أن للعين تأثيرًا عظيمًا يؤثر في الآخرين، حتى إنها لتعل وتسقم، وإن دل ذلك على شيء؛ فإنما يدل على صدق نبوته ﷺ. وعلى كذب من ادعى أن كلامه ﷺ خرافات ومضار للعلم والعقل؛ بل هو عين العلم وصحيح العقل، فصدق المصدوق فيما بلَّغ عن رب العزة ﷻ، وكذب من طعن في صدقه وبطلت شبهتهم.

الخلاصة:

- إن حديث "العين حق" صحيح في أعلى درجات الصحة؛ فقد رواه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما، كما ورد في كثير من كتب السنة الأخرى بطرق متواترة صحيحة مرفوعة إلى النبي ﷺ.
- لقد كثرت آيات القرآن الكريم، وتواترت الأحاديث النبوية الشريفة في نفس معنى الحديث، بأن

---

١. العين والقدرات الخارقة، د. محمد السقا، مقال بموقع: اسم الله.

العين حق، ولها قدرة عظيمة لا تنكر في التأثير في طبائع الأشياء والأجسام الأخرى من بُعد دون اتصال أو ملامسة، حتى إنها لتعل الإنسان وتسقمه.

- ما من أمة من الأمم إلا وأدركت ما للعين من هذه الخاصية الخارقة، ولم نجد أمة من الأمم، أو ملة من الملل أنكرت ذلك أو شكَّت فيه.
- إن الواقع المشاهد أمام أعيننا في كل زمان ومكان ليثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن العين لها قدرة خارقة على التأثير في الأشخاص والأشياء الأخرى، وقد جاء العلم الحديث بما أُوتي من وسائل حديثة، ونظريات ليؤكد صدق ما جاء عن النبي ﷺ من خلال التجارب العلمية، من أنه اتضح بما لا يدع مجالًا للشك أن للعين القدرة على التأثير في المعين بإذن الله حتى إنها لتغير طبائع الأشياء، وتعل وتمرض الشخص الآخر.

الشبهة الثالثة عشرة

إنكار حديث جريان الشمس وسجودها تحت العرش(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المشككين حديث رسول الله ﷺ عن ذهاب الشمس وسجودها تحت عرش الرحمن، وذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري أن أبا ذر رضي الله عنه قال: "كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال ﷺ: يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال رسول الله ﷺ: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ (٣٨) ﴾ (يس)". ويستدلون على إنكارهم للحديث بأنه من المقرر في علم الجغرافيا أن الأرض لها دورتان؛ يومية وسنوية، وأن الليل والنهار والفصول تنشأ عن هاتين الدورتين للأرض، ويقتضي هذا أن الشمس ثابتة، ثم إنها لا تغيب عن الأرض أبدًا، ولا تخرج عن مسارها؛ فهي ما إن تغرب عن مكان إلا وتكون في الوقت نفسه تشرق على مكان آخر، فكيف تذهب وتسجد تحت العرش؟

رامين من وراء ذلك إلى الطعن في السنة النبوية، والادعاء بأنها مخالفة للحقائق العلمية.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن جريان الشمس وحركتها حقيقة علمية ثابتة، لا ينزلق في إنكارها أحد، أكد هذا علماء الفلك من خلال أبحاثهم العلمية، وهذا يدل على صحة حديث النبي ﷺ، وموافقته الاكتشافات العلمية الحديثة.

٢) إن سجود الشمس تحت عرش الرحمن لا يتعارض مع جريانها وحركتها، فإن الله عز وجل يسجد له جميع ما في السماوات والأرض، ولكن كل خلق يسجد بالسمت الذي يناسب خلقه، ولا يلزم قياسه بالمعنى الاصطلاحي لدى البشر، فالشمس تسجد لله عز وجل مع جريانها بصورة لا يُستنكر منها شيء.

(*) مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مرجع سابق. تحرير العقل من النقل، سامر إسلامبولي، مرجع سابق. جهود الإمام محمد رشيد رضا في خدمة السنة، د. يوسف عبد المقصود إبراهيم، دار التأليف، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م. ضلالات منكري السنة، د. طه حبيشي، مرجع سابق.

التفصيل:

أولا. جريان الشمس وحركتها حقيقة علمية ثابتة توافق ما جاء في حديث أبي ذر السابق:

لقد كشف العلم الحديث القائم على البحث التجريبي عن بعض المعجزات والآيات العجيبة في ذلك الكون، وذلك بالمشاهدة والملاحظة والتجربة، وعندما يُتأمل في تلك الاكتشافات الباهرة، فغالبًا ما نرى لها أثرًا أو إشارة في كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ، وعندما يتم البحث، وتكشف المعجزات، وتُوضع النظرية المصطلح عليها بين أصحاب هذا الفن، ويوجد إشارة إلى ذلك في القرآن أو السنة، فإنه يشهد لصحة الرسالة عمومًا، وأنها مُوحَاة من قبل الملك الخلَّاق؛ لأن بارئ الكون قد أقام رسالته على الإقناع قبل التصديق، فعندما يحدث مثل هذا في ظل ذلك البعد الزمني بين عصرنا وعصر الرسالة، يكون التصديق أوقع في القلب، وأرجى للقبول، وكذلك إذا وجدت في سنة رسول الله ﷺ، فإنه يؤكد صحتها سندًا ومتنًا؛ لأنه لُمست قضيتها على أرض الواقع، فيكون مجال التصديق بسنة النبي ﷺ أقرب إلى القلب، وذلك عندما نرى سنته قد فتتت حجاب الغيب، وأوثقت من الإيمان به في غيبه، فكيف إذا تحقق ووقع تحت الحس؟ فيكون به الهداية والتصديق.

ونحن ـ المسلمين ـ نؤمن بالصحيح الثابت من أقوال وأفعال وسنن النبي ﷺ، كما نتحرى صحة ما أوردنا عنه ﷺ، فإن تحقق وتأكد صحة الخبر عندنا آمنا به وسلَّمنا بمقتضاه.

فإذا تحققنا يقينًا من صحة الخبر، تحرَّينا الفهم الصحيح لمقصوده ﷺ، وتَحرِّي الفهم الصحيح مطلب شرعي، والتأمل والتفكر وحسن التدبير كلها أوامر ربانية، أتى بها القرآن الكريم، وكثير من الأحاديث النبوية التي صحَّت عن خير الورى نبينا محمد ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وقد طعن بعض المشككين في بعض الأحاديث بحجة أنها تخالف العقل والمألوف عند الناس، ومن تلك الأحاديث ما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه أن أبا ذر الغفاري ﷺ قال: "كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال ﷺ: يا أبا ذر! أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يس)"[1]، وقالوا: كيف يصح أن تذهب الشمس وتسجد تحت العرش، وقد عُلِم أنها ثابتة؟

نقول: إن هذا الحديث صحيح، فقد رواه الإمام البخاري في صحيحه من حديث أبي ذر الغفاري، وقد روي بغير هذا اللفظ عند مسلم[2]، إذن فهو متفق عليه، وهو بذلك في أعلى درجات الصحة.

ونبدأ أولًا بالرد على زعم الطاعن بأن الشمس ثابتة، فإننا لا نعرف مصدر هذه الفرية العجيبة، التي

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التفسير، باب: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾، (٨/ ٤٠٢)، رقم (٤٨٠٢). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، (٢/ ٨٤٥)، رقم (٣٩٤).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، (٢/ ٥٨٣، ٥٨٤)، بأرقام (٣٩٢: ٣٩٥).

أدت به إلى الوقوع في أخطاء علمية بدهية.

ويبدو أن الطاعن قد توقف في حدود فكره، وقراءاته، ومعرفته عند القرن السابع عشر الميلادي؛ حيث كان الاعتقاد السائد لقرون طويلة: أن الأرض ثابتة، وأن الشمس تدور حولها، ثم تغير هذا الاعتقاد مع النهضة العلمية منذ القرن السابع عشر؛ لينظر العلماء وقتها إلى الشمس على أنها ثابتة، وأن الكواكب تدور حولها.

إلى هنا توقفت معارف الطاعن ولم يدرِ شيئًا عن هذا العلم بعدها، ولكن بعد اكتشاف المجرَّات. وبعد الدراسات الدقيقة التي أُجريتْ على الشمس؛ تبيَّن أن الأمر ليس هكذا. فالشمس تسير وتتحرك وليست ثابتة، وقد كان الظنُّ في البداية أن للشمس حركة واحدة دورانية حول مركز المجرَّة، ولكن تبين فيما بعد أن الشمس تتحرك باتجاه مركز المجرة أيضًا، وقد تبين أيضًا أن الشمس تتحرك حركة دورانية، وتتذبذب يمينًا وشمالًا راسمة مسارًا متعرِّجًا في الفضاء، وتَسْبَح حول فلك محدد في المجرة، وتستغرق دورتها مائتين وست وعشرين (٢٢٦) مليون سنة، وتُسمَّى هذه المدة "بالسَّنة المجرية". وهي تجري بسرعة مائتين وسبعة وعشرين (٢٢٧) كيلو مترًا في الثانية.

وتندفع الشمس مع النجوم المجاورة لها بنفس السرعة تقريبًا مع اختلاف نسبي في حدود عشرين كيلو مترًا في الثانية بين الشمس وبين النجوم المحيطة بها، كما أن هناك حركة للشمس لاحظها العلماء حديثًا، وهي حركتها مع المجرَّة، فالعلماء يعتقدون بأن مجرتنا ـ مجرة درب التبانة ـ تسير بسرعة قدرها ستمائة كيلو مترًا في الثانية، وتجرف معها جميع النجوم ومنها الشمس.

ولقد بدأ اهتمام علماء الفضاء بدراسة حركة الشمس والمجموعة الشمسية، فوجدوا أن هناك حركات أساسية للشمس، محصلتها أن الشمس تسير باتجاه محدد لتستقر فيه، ثم تُكرِّر دورتها من جديد، وقد وجد العلماء أن أفضل تسمية لاتجاه الشمس في حركتها هو "مستقر الشمس".

ولنتدبر معًا قول الحق تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يس)، وهي الآية التي تعلمها كل مسلم منذ عهد الوحي، وعرف أن الشمس تجري، وليست ثابتة كما ظن أهل العلم قديمًا ـ وكما يظن الجهلاء حتى يومنا هذا ـ وهي الآية المعجزة التي تحدثت عن حقيقة علمية لم يكن لأحد علم بها في زمن الوحي، إلا أن يكون وحيًا من الله ﷻ نزل على نبيه ﷺ، وفي الآية بيان "مستقر الشمس" وهو ما سأل النبي ﷺ عنه أبا ذر الغفاري ؓ في الحديث الذي تقدم.

واليوم نجد العلماء يتحدثون عن حقيقة كونية جديدة، وهي ما أطلقوا عليه اسم ***solar apex*** أو "مستقر الشمس".

ويعرِّف علماء الفضاء مستقر الشمس بأنه الاتجاه الذي تجري الشمس والمجموعة الشمسية نحوه، وهذا التعريف يتطابق مع التعريف القرآني للكلمة.

فالقرآن يقول: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ (يس:٣٨)، وفي ذلك سبقٌ وإعجاز علمي للقرآن عندما تحدث عن جريان الشمس، وعن مستقر الشمس[1].

---

١. مستقر الشمس، عبد الدائم الكحيل، مقال بموقع موسوعة الإعجاز العلمي. www.55A.net

ولإمام الدعاة الشيخ محمد متولي الشعراوي لفتة طيبة في هذا السياق يقول رحمه الله: "لكن، ما الذي يحرك هذه المجموعة الشمسية؟ وكيف تجري بهذه السرعة؟ ونحن نعلم أن الحركة تحتاج إلى طاقة تمدها، فما الطاقة التي تحرك هذه المجموعة بهذه الصورة وهذا الاستمرار؟ قالوا: إنها تجري؛ لأن الله خلقها على هيئة الحركة والجريان، لذلك تجري لا يوقفها شيء، وستظل جارية إلى أن يشاء الله، فلا يلزمها إذن طاقة تحركها، ومثال ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ (فاطر:٤١).

وفي علم الحركة قانون اسمه قانون العطالة[١]، وهو أن كل متحرك يظل على حركته، إلى أن توقفه، وكل ساكن يظل على سكونه إلى أن تحركه، وهذا القانون فسر لنا حركة الأقمار الصناعية، ومراكب الفضاء التي تظل متحركة لفترات طويلة.

ونتساءل: ما الفترة التي تحركها طوال هذه المدة؟ إنها تتحرك؛ لأنها وضعت في مجالها على هيئة الحركة، فتظل متحركة لا يوقفها شيء؛ لأنها فوق مجال الجاذبية. إذن فإن كل الذي احتاجته هذه الآلات من الطاقة هي طاقة الصاروخ الذي يحملها، إلى أن يعبرَ بها مجال الجاذبية الأرضية، أما هي فتظل دائرة بلا طاقة وبلا وقود.

ثم يذكِّرنا الحق ﷻ بفضله في هذه الحركة، فيقول: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ (يس:٣٨) أي: ما سبق من حركة الليل والنهار وجريان الشمس ﴿ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يس)، يعني: كل هذا الجريان، وكل هذه الحركة إنما هما بتقدير الله، وكلمة ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ هنا مناسبة تمامًا، فالمعنى: أنه تعالى العزيز الذي لا تغلبه القوانين؛ لأنه ﷻ خالق القوانين"[٢].

ومن خلال ما سبق يتبين أن: الآية الكريمة التي شرحها حديث النبي ﷺ قد أثبت العلم الحديث صحة دلالتها، وأن الشمس تجري غير ثابتة، كما توهم المبطلون. وهذا ما أكده علماء الفلك في أبحاثهم العلمية، والتي صرَّحوا بها، وطابقوها مع ما جاء به القرآن الكريم من حركة الشمس نحو مستقرها.

ومن ناحية أخرى: فإن الاكتشافات الحديثة التي أثبتت حركة الشمس وجريانها، هي خير دلالة على صدق ما أخبر به النبي ﷺ، وصحة استدلاله بالآية عند حديثه عن جريان الشمس من ناحية، وعن سجودها تحت العرش من ناحية أخرى®.

ثانيًا. سجود الشمس تحت عرش الرحمن لا يتعارض مع جريانها وحركتها:

بدايةً، نود أن نشير إلى أن النبي ﷺ كان له هدف محدد من هذا الحديث، ويتمثل هذا الهدف في إبطال

١. العطالة: مصطلح فيزيائي يعني مقاومة الجسم الساكن للحركة، ومقاومة الجسم المتحرك بتزويده بعجلة ثابتة أو تغيير اتجاهه.

٢. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، (٢٠/ ١٢٦٦٢، ١٢٦٦٣).

® في **"صحة حديث دنو الشمس من الخلق يوم القيامة واتصال سنده"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السادسة والعشرين، من هذا الجزء. وفي **"اتفاق القرآن والسنة في مسألة دنو الشمس من الخلق يوم القيامة"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السادسة والعشرين، من هذا الجزء.

العبادات السابقة التي كانت تعتبر الشمس إلهًا من دون الله ﷻ، فأراد النبي ﷺ أن يعلم البشرية أن الشمس مخلوق من مخلوقات الله تعالى، تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه، وتسجد له تعالى كأي مخلوق من مخلوقاته الأخرى مهما عظمت قيمتها وضخامتها وحجمها.

ثم إن السجود لله تعالى ثبت وقوعه له سبحانه من كل شيء، كما ثبت له الصلاة والتسبيح من كل شيء، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ (النور: ٤١)، وهذا التسبيح يشبه السجود في عدم معرفة كيفيته من ناحية البشر، وإذا ثبت لنا بالنص القرآني القاطع سجود كل شيء، فلا يُستغرب أن يقول الرسول ﷺ عندما تكلم عن غروب الشمس: "إنها تذهب حتى تسجد تحت العرش".

والسؤال الذي أثاره المشتبه: كيف تستأذن الشمس وتسجد تحت العرش؟ ويبدو أن الطاعن قد فهم معنى السجود على أنه انحناء الأعضاء والأطراف كما يفعل البشر في سجودهم، ومن هنا استبعد أن يقع ذلك من الشمس، وبهذا يكون قد التبس عليه المعنى الاصطلاحي الذي يستعمله الفقهاء في شرحهم لكيفية السجود في الصلاة بالمعنى اللغوي، والذي هو أوسع دلالةً، وأكثر معنى مما دل عليه الاصطلاح.

ومن معاني السجود في اللغة: "الخضوع"، وسجود الشمس مما يختص بها، ولا يلزم أن يكون سجود الكائنات لله ﷻ مثل هيئة سجود الإنسان أو حتى يشبهه؛ قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴾ (الحج).

قال ابن كثير: "يخبر الله تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعًا وكرهًا، وسجود كل شيء مما يختص به"(١).

وقال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء:٤٤)، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (النحل).

وعليه فسجود الشمس مما يختص بها، ولا يلزم أن يكون سجودها كسجود الآدميين، كما أن سجودها متحقق بخضوعها لخالقها وانقيادها لأمره، وهذا هو السجود العام لكل شيء خلقه الله. كما في آية الحج السابقة.

وفي الآيات السابقة أن للشمس سجدتين:

سجود عام مستديم، وهو سجودها المذكور في آية النحل والحج مع سائر المخلوقات، وسجود خاص يتحقق عند محاذاتها لباطن العرش فتكون ساجدة تحته، وهو المذكور في الحديث، وفي كلتا الحالتين لا يلزم من سجودها أن يشابه سجود الآدميين، لمجرد الاشتراك في لفظ الفعل الدال عليه.

ومن أمثلة هذا: أن مشي الحيوان ليس كمشي الآدمي، وسباحة السمك والحوت ليست كسباحة الإنسان وهكذا، مع أنهم يشتركون في مسمى الفعل؛

١. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، (٣/ ٢١١).

وهما المشي والسباحة.

فلا يلزم أن يكون سجود الشمس مشابهًا لسجود البشر، وإن اتفق مسمى الفعل.

وعلى الجانب الآخر: فكما أنه يلزم من سجودنا التوقف عن الحركة لبرهة من الزمن، وهو الاطمئنان الذي هو ركن في الصلاة، فإنه لا يلزم بالمقابل أن يتوقف جريان الشمس؛ لتحقيق صفة السجود؛ لأننا رأينا دلالة عموم لفظ السجود من آيتي الحج والنحل، ومن شواهد لغة العرب على أن السجود هو مطلق الخضوع للخالقﷻ.

ومن المعلوم أن السجود عبادة لله، وقد تَعَبَّدَهُ مختلف مخلوقاته بما يناسب هيئاتها وصفاتها وطبائعها، فكان الانحناء والنزول للآدميين، وكان غير ذلك من كيفيات السجود التي لا يعلمها إلا الله لسائر الكائنات والمخلوقات، مع اشتراكهم في عموم معنى السجود الذي هو الخضوع لله تعالى طوعًا أو كرهًا.

فالشمس تجري في الفلك، ونراها تشرق وتغرب دائبة، ومع ذلك لها سمت أو منتهى يقابلها على وجه الأرض تسجد عنده لله تعالى، ويكون ذلك السمت أو الحد مقابلًا في تلك اللحظة لمركز باطن العرش.

ومما يؤيد ما سبق ويزيل اللبس قوله ﷺ: "فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش". فلم يقل ﷺ: أنها "تغرب تحت العرش" أو "حتى تغرب تحت العرش". وهذا فهم توهمه بعض الناس الذين أشكل عليهم هذا الحديث، وهو فهم مردود؛ لأن ألفاظ الحديث ترده، فقوله: "تذهب" دلالة على الجريان، لا دلالة على مكان الغروب؛ لأن الشمس لا تغرب في موقع حسي معين، وإنما تغرب في جهة معينة، وهذا ما اصطلح عليه الناس باسم الغروب.

والغروب في اللغة: "التواري والذهاب"، ويقال: غَرُبَ الشيء؛ أي: توارى وذهب، وتقول العرب: أغرب فلان، أي: أبعد وذهب بعيدًا عن المقصود[1].

وهنا يجب التفريق بين حقيقة الغروب ومجرد "رأي العين". كما في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٍ ﴾ (الكهف:٨٦).

فالغروب في الحديث هو الذهاب والسير والجريان، كما هو مفسَّر في الرواية الأخرى، وكما هو مستعمل في لغة العرب.

فالغروب في حقيقته ليس إلا جريان الشمس، وليس للشمس مغرب حقيقي ثابت.

قال الطاهر ابن عاشور رحمه الله: المراد بـ "مغرب الشمس" مكان مغرب الشمس من حيث يلوح الغروب من جهات المعمور من طريق غزوته أو مملكته، وذلك حيث يلوح أنه لا أرض وراءه بحيث يبدو الأفق من جهة مستبحرة؛ إذ ليس للشمس مغرب حقيقي إلا فيما يلوح للتخيل[2].

وقد بيّن ﷺ ذلك فقال: "فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش" ولم يقل: "إنها تغرب تحت العرش".

وقد قال رحمه الله في التعليق على قول الله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا ﴾ (يس:٣٨) الجري حقيقته: السير السريع، وهو لذوات الأرجل، وأطلق مجازًا على تَنَقُّل الجسم من مكان إلى مكان تنقلًا سريعًا

---

١. المعجم الوسيط، (٢/ ٦٧٠)، مادة (غ ر ب).

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، (١٦/ ٢٥).

بالنسبة لتنقل أمثال ذلك الجسم، وغلب هذا الإطلاق فساوى الحقيقة، وأريد به السير في مسافات متباعدة جدًّا التباعد، فتقطعها في مدة قصيرة بالنسبة لتباعد الأرض حول الشمس، وهذا استدلال بآثار ذلك السير المعروفة لأهل المعرفة بمراقبة أحوالها من خاصة الناس، وهم الذين يرقبون منازل تنقلها المسماة بالبروج الاثنى عشر، والمعروفة لأهل العلم بالهيئة تفصيلًا واستدلالًا، وكل هؤلاء مخاطبون بالاعتبار بما بلغه علمهم.

والمستقر: مكان الاستقرار، أي القرار أو زمانه، فالسين والتاء للتأكيد، واللام في (لمستقر) يجوز أن تكون لام التعليل؛ أي: تجري لأجل أن تستقر، فسير الشمس لما كانت نهايته انقطاعه، نزل الانقطاع عنه منزلة العلة.

وقد جعل الموضع الذي ينتهي إليه سيرها هو المعبَّر عنه بـ(تحت) العرش، وهو سمت معين لا قبل للناس بمعرفته، وهو منتهى مسافة سيرها اليومي، وعنده ينقطع سيرها في إبان انقطاعه، وذلك حين تطلع من مغربها؛ أي: حين ينقطع سير الأرض حول شعاعها؛ لأن حركة الأجرام التابعة لنظامها تنقطع تبعًا لانقطاع حركتها هي؛ وذلك نهاية بقاء هذا العالم الدنيوي[1].

وقوله ﷺ في رواية الإمام مسلم: "فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكرُ الناسُ منها شيئًا" فيه فائدة كبيرة، والشاهد في قوله ﷺ: "لا يستنكر الناسُ منها شيئًا"[2].

وكأن في هذا دلالة ضمنية على علمه ﷺ بأن هناك من الناس مَنْ قد يستشكل معنى الحديث فيتوهم أن الشمس تقف أو تتباطأ للسجود، فينكر الناس ذلك ويرهبونه، إلا أنه ﷺ أشار في الحديث إلى جريان الشمس على عادتها مع أنها تسجد، ولكنه سجود غير سجود الآدميين؛ ولذلك تصبح طالعة من مطلعها تجري لا يستنكر الناس منها شيئًا.

وواضح من كلامه ﷺ مفهوم المخالفة الدال على عدم استنكار الناس رغم سجود الشمس واستئذانها ـ وكما قدمنا ـ فإن سجود الشمس لا يستلزم وقوفها، وهو اللبس الذي أزاله ﷺ بقوله: "فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئًا"، كما أن العقل يدل على ذلك؛ إذ إن فرق المسافة التي يقطعها الضوء القادم من الشمس إلى الأرض يبلغ حوالي ثماني دقائق من حصوله، وعليه فلا يمنع أن تكون الشمس ساجدة في بعض هذا الوقت ـ ولو بأجزاء من الثانية ـ لله تعالى تحت عرشه.

ونحن لا نعلم عن ذلك شيئًا لغفلتنا وانشغالنا بضيعات الدنيا؛ ولهذا يقول الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (يوسف).

وجاء في موسوعة الإعجاز العلمي للدكتور: أحمد شوقي إبراهيم، تحت عنوان: ما معنى سجود الشمس تحت العرش؟

نفهم ذلك إذًا مما قاله علماء الرياضيات الكونية في هذا القرن، ومن أشهرهم ألبرت أينشتاين وأدوين هابل: إن السماوات وما فيها كون مكور على نفسه

١. المرجع السابق، (٢٣/ ١٩: ٢١) بتصرف.
٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، (٢/ ٥٨٣)، رقم (٣٩٢).

ـ كروي الشكل ـ والقرآن العظيم يخبرنا أن السماوات والأرض في جوف ملكوت الكرسي، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "والذي نفسي بيده ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسيِّ كفضل الفلاة على تلك الحلقة"[1]، إذن فالأرض والشمس داخل ملكوت السماوات السبع، وتحت السماء السابعة، وملكوت السماوات السبع في جوف الكرسي وتحته أيضًا، والكرسي في جوف العرش وتحته؛ لأن أي شيء داخل كرة، هو تحت محيطها وسطحها أيضًا، وكل ما في الوجود يسجد لله عز وجل، هذه حقيقة، والشمس أينما ذهبت إنما تسجد تحت العرش، ونحن جميعًا عندما نسجد لله تعالى في المسجد، إنما نسجد لله عز وجل تحت العرش، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ (الحج: ١٨).

ولماذا جاء ذكر المخلوقات بهذا الترتيب؟ السماوات ثم الأرض ثم الشمس ثم القمر ثم النجوم ثم الجبال ثم الشجر ثم الدواب ثم الناس... جاء ذكرهم حسب ترتيب خلقهم فما أن يخلق الله خلقًا إلا ويبادر المخلوق بالسجود لخالقه تعالى على الفور[2].

ويكفي في سجود الشمس واستئذانها القول بأن (عدم العلم ليس بدليل على العدم)، وهي قاعدة مشهورة، وأكثر عمل الجُهَّال على خلافها، فعدم الوقوف على حقيقة سجودها واستئذانها، لا يلزم منه نفي إمكان السجود والاستئذان، ولذلك يقال لمن ارتاب: إذا أوضحت لنا حقيقة سجود الشمس والقمر والنجوم والشجر في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ (الحج: ١٨)، نقول: إذا استطعت أن توضح لنا حقيقة ذلك، فانتقل إلى إيضاح حقيقة الأخص، وهو سجود الشمس تحت العرش؛ ذلك أن تفسير الأعم في الأغلب أيسر من تفسير الأخص، لما يكتنف الأخص من التقييدات والتحرزات التي لا يتفطن لها كثير من أرباب العلوم، فضلًا عن عوام الناس. فالجاهل يراها من المستحيلات الممتنعات، والأعلم منه يراها من المحارات الممكنات، والناس بين هؤلاء وهؤلاء درجات.

والحق أن الله قد اختص كل مخلوق بسجود يناسب هيئته وخِلْقَتَهُ، لا يشترك فيه مع غيره إلا بموجب الاشتراك اللفظي، لا الاشتراك الفعلي الحقيقي المطابق للفعل والهيئة، وقد أخبرنا الله تعالى أن الشجر يسجد مع كونه أمام نظرنا صباحًا ومساءً، بل يقطف ثمره ويجلس في ظله، ومع ذلك لا نقول: الشجر لا يسجد. مع أن هذا أدعى للاستنكار؛ لقرب الشجر منا وملامستنا له، ورؤيتنا له على الدوام، وأكلنا من ثمره. فدل هذا على جهل بني آدم سجود هذه المخلوقات وحقيقة تسبيحها لله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا

---

١. صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: البر والإحسان، باب: ما جاء في الطاعات وثوابتها، (٢/ ٧٦)، رقم (٣٦١). وصححه الألباني في مختصر العلو.

٢. موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي، د. أحمد شوقي إبراهيم، مرجع سابق، (٣/ ٧٣) بتصرف.

﴿يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء:٤٤)، فحسم الخلاف، وقطع الريب والجدال بنفي قدرتنا على إدراك حقيقة التسبيح، فيصبح السؤال عن ذلك من أشد التكلف. فإذا استقرت هذه المسألة في الأذهان انقطع المستشكل عن بحث ما وراء ذلك والخوض فيه؛ إذ كيف يتوصل إلى نتيجة صحيحة دون القطع بفهم حقيقة مقدمات تلك النتيجة، وهو الأمر المنتفي هنا.

ومن المعلوم أن صحة النتيجة هو ملزوم صحة المقدمات، وصحة المقدمات هو ملزوم صحة إدراك وفهم المقدمات، فاتهام الرأي البشري المحدود المتقلب يأتي قبل اتهام الحقائق الخارجية التي لا تتغير ولا تتبدل ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ (فاطر)[1].

وإذا تقرر هذا اتضح معنى آخر، وهو: أن الشمس لا تسجد تحت العرش عند كل غروب تغربه عن أنظار كل بلد، فإن هذا هو اللبس الذي ينشأ عند مَنْ فهم أن الشمس تسجد عند كل غروب، يراه أهل كل قطر، ولو كان الأمر كذلك لكانت ساجدة على الدوام، ولاستنكر أهل الأرض ذلك. ولذلك جاءت فائدة الاحتراز عن هذا الاحتمال في رواية مسلم: "ثم تجري لا يستنكر منها شيئًا"[2]، فكان هذا واضحًا في إزالة الإبهام، أو الإشكال المتوقع.

وقد قال الحافظ ابن حجر: "وظاهر الحديث: أن المراد بالاستقرار وقوعه في كل يوم وليلة عند سجودها، ومقابل الاستقرار المسير الدائم المعبر عنه بالجري"[3].

وقال البيهقي: "قال الشيخ أبو سليمان الخطابي: وفي هذا - يعني الحديث - إخبار عن سجود الشمس تحت العرش، فلا ينكر أن يكون ذلك عند محاذاتها العرش في مسيرها، والخبر عن سجود الشمس والقمر لله ﷻ قد جاء في الكتاب، وليس في سجودها لربها تحت العرش ما يعوقها عن الدأب في سيرها، والتصرف لما سخرت له"[4].

ومن هذا يتبيَّن أن سجود الشمس تحت عرش الرحمن لا يتعارض مع جريان الشمس ودأبها ليلًا ونهارًا؛ لأن هذا يتم بصورة لا يستطيع أحد أن يحيط بها علمًا، كما أنه يحدث بالشكل الذي يتماشى مع طبيعة الشمس، ولا يصح قياس سجودها بمعناه الاصطلاحي على سجود البشر فهذا غير ذاك، وسبحان الله الذي يسجد له ما في السماوات والأرض، وهو السميع العليم.

الخلاصة:

- إن الخبر إذا نسب إلى النبي ﷺ يجب تحرِّي صحته، فإذا تحققنا من ثبوته عنه ﷺ آمنَّا به يقينًا، بعد تحري الفهم الصحيح لكلامه ﷺ، ومن خلال ذلك فإن حديث سجود الشمس ودورانها حديث صحيح سندًا ومتنًا، رواه الشيخان في صحيحيهما، من حديث أبي ذر

---

١. المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، علي بن نايف الشحود، (٥/ ١٨٥) بتصرف.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، (٢/ ٥٨٣)، رقم (٣٩٢).

٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٨/ ٤٠٣).

٤. الأسماء والصفات، البيهقي، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة، د. ت، (٢/ ٢٧٥).

الغفاري ﷺ.

- إن القول بثبوت الشمس وعدم تحركها قول قديم ظل معتقدًا حتى القرن السابع عشر الميلادي، وعند بداية النهضة الحديثة اكتشف العلماء الحقيقة التي أشار إليها القرآن والسنة من حيث جريان الشمس وعدم ثبوتها.
- لقد أثبت العلم الحديث منذ القرن السابع عشر حركة الشمس ودورانها، فهي تسير باتجاه محدد لمستقر لها، ثم تُكرِّر دورتها من جديد، والذي سماه العلماء ***solar apex***، أو "مستقر الشمس"، كما أنهم جزموا بأن هذا يتطابق مع ما جاء به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يس).
- ليس في هذه الآية إعجاز علمي فحسب، بل إن استدلال النبي ﷺ بها ليوضح ماهية سجود الشمس تحت العرش، كما فيه دلالة واضحة على نبوته ﷺ.
- السجود بالمعنى اللغوي يعني: "الخضوع"، وهذا يختلف عن معناه الاصطلاحي، والذي يقتصر على توافر الأعضاء والأطراف التي في بني آدم.
- إذا ما تقرر أن السجود بمعناه العام هو الخضوع لله، فلا يلزم من سجود الشمس توقفها عن جريانها مثل ما هو معروف عند الآدميين، فيمكن لها أن تسجد دون حدوث أي اضطراب في دأبها ليلًا ونهارًا.
- لقد أكد القرآن الكريم أن الله ﷻ يسجد له كل شيء، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ (الحج:١٨).
- لقد قال علماء الرياضيات الكونية: إن السماوات وما فيها كون مكور، أشار إلى ذلك الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، والأرض والشمس داخل ملكوت السماوات السبع، وتحتها، وملكوت السماوات السبع في جوف العرش وتحته، وكل شيء داخل كرة، فهو تحت محيط وسطها، إذن فكل شيء يسجد لله ﷻ تحت العرش.
- إن سجود الشمس تحت العرش مع ثبوت حركتها أمر واقع، لكن بغير كيفية معلومة لدينا، فيجب الإيمان بذلك لثبوته بالأدلة قرآنًا وسنة، وعدم علمنا بكيفيته لا يعني بحال من الأحوال نفي هذه الكيفية؛ لأن الجهل بالشيء لا يعني عدم وجوده.
- لقد أراد النبي ﷺ من هذا الحديث أن تعلم البشرية ـ التي كانت تعبد الشمس وتعتبرها إلهًا من دون الله ـ أن الشمس مخلوق من مخلوقات الله، يسري عليها قوانين الخالق تبارك تعالى؛ فتسجد وتركع له كما يسجد ويركع غيرها من المخلوقات، وفي ذلك إبطال لعبادتهم لها.

الشبهة الرابعة عشرة

الطعن في حديث "تقارب الزمان"(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المغالطين في حديث: "لا تقوم الساعة

(*) أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، د. سليمان الدبيخي، مرجع سابق.

حتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان..."، مدَّعين أنه يتعارض مع الواقع والحقائق العلمية.

مستدلين على ذلك بأن الحديث يخالف السنن الكونية الظاهرة منذ بدء الخليقة، فالزمان عبارة عن مجموعة الأيام والأسابيع والشهور والسنين، وكلها أوقات محددة معلومة البداية والنهاية، وعلى هذا فكيف يمكننا أن نتصور "تقارب الزمان" وليس هناك دليلٌ ماديٌّ واحدٌ يثبت لنا هذا التصور؟!

ويرمي هؤلاء من وراء كل ذلك إلى نقض بناء العقيدة الإسلامية في قلوب المسلمين، من خلال إسقاط الأحاديث الصحيحة الثابتة التي يقوم عليها هذا البناء.

وجها إبطال الشبهة:

١) لا تعارض بين حديث تقارب الزمان والواقع؛ لأن شراح الحديث لم يصرفوا لفظ "تقارب الزمان" عن حقيقته، وإنما اختلفوا في المقصود من "تقارب الزمان"؛ لأنه أمرٌ غيبي، وقد حملت طائفة من أهل العلم لفظ (تقارب الزمان) على حقيقته، وهو الراجح من أقوالهم، لا سيما أن الحديث صحيح وثابت عن النبي ﷺ، فقد رواه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما، وجاء شاهد مفسر له في مسند الإمام أحمد.

٢) لفظ "تقارب الزمان" المراد به: نقص عدد ساعات اليوم نتيجة لسرعة دوران الأرض، وقد حدث هذا في أول الخلق، وسيحدث في منتهاه، وهذا ما تؤكده الحقائق العلمية، والنظريات الكونية، وقبل ذلك الآيات القرآنية الخالدة.

التفصيل:

أولا. الواجب حمل معنى (تقارب الزمان) على الحقيقة، فهو القول الراجح من أقوال أهل العلم:

إن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستة في الشريعة الإسلامية، وأركان الإيمان هي الأسس التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية، فلا بد للمسلم من أن يؤمن باليوم الآخر، وبما جاء عنه في الكتاب والسنة الصحيحة، واليوم الآخر يبدأ بقيام الساعة، وللساعة مقدمات وعلامات أخبر عنها الله وحيًا - في الكتاب والسنة - وإنما جعل الله هذه العلامات؛ لتكون له الحجة البالغة على خلقه يوم القيامة، حيث أعطى المكذبين بالساعة علامات سابقة لها حتى لا يتعلقوا أمام الله بحجةٍ يوم القيامة، كما أعطى العلامات ذاتها للمؤمنين به؛ ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، ويقينًا مع يقينهم، وحتى تكون هذه والعلامات معينًا لهم يثبِّتهم، ويؤكد لهم صدق ما يعتقدون عندما تشتد عليهم الفتن.

إن من آيات وعلامات الساعة التي يؤمن بها المسلم "تقارب الزمان"؛ لثبوت صحة الحديث الذي تَضَمَّن هذا الإخبار عن النبي ﷺ بوروده في صحيحي البخاري ومسلم؛ أصح كتابين بعد كتاب الله، وقد رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

فقد رواه البخاري بلفظ: "لا تقوم الساعة حتى يُقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج، وهو القتل القتل، حتى يكثر فيكم المال فيفيض"[1]، ومسلم بلفظ: "يتقارب الزمان،

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الاستسقاء، باب: ما قيل في الزلازل والآيات، (٢/ ٦٠٥)، رقم (١٠٣٦).

ويقبض العلم، وتظهر الفتن، ويُلقَى الشح، ويكثر الهرج، قالوا: وما الهرج؟ قال: القتل"[1].

يتكلم الحديث إذن عن تقارب الزمان، ويعدُّه علامةً من العلامات السابقة لقيام الساعة.

هذا عن لفظ الحديث، فما هو المقصود بتقارب الزمان الوارد في الحديث؟

وقد قام د. سليمان الدبيخي بجمع آراء أهل العلم في هذه المسألة ورجح بينها، فقال: "اختلف أهل العلم في معنى هذا الحديث على أقوال:

القول الأول: حمل الحديث على ظاهره، فيكون المراد: أن الزمان نفسه يتقارب حقيقة، وذلك بنقص أيامه ولياليه.

نقل هذا الشيخ مرعي بن يوسف عن أهل الحديث، واحتمله الخطابي حيث قال: "ويحتمل أن يكون أراد به قصر مدة الأزمنة ونقصها عمّا جرت به العادة فيها، وذلك من علامات الساعة إذا طلعت الشمس من مغربها، وهو معنى الحديث الآخر: الذي رواه أحمد بسنده، عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان، حتى تكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كالساعة، والساعة كاحتراق السَّعْفَة[2]" [3][4].

القول الثاني: أن المراد بتقارب الزمان: قربه من الساعة ويوم القيامة. وإلى هذا ذهب القاضي عياض والنووي.

القول الثالث: أن المراد بتقارب الزمان: نزع البركة منه، بحيث يصير الانتفاع من اليوم مثلًا بقدر الانتفاع من الساعة الواحدة.

وإلى هذا ذهب الخطابي، وابن الأثير، والعراقي، وابن حجر، وهو ظاهر صنيع ابن كثير، حيث عنون لهذا الحديث بقوله: "إشارة نبوية إلى نزع البركة من الوقت قبل قيام الساعة"[5].

وقال ابن حجر: "والحق أن المراد نزع البركة من كل شيء، حتى من الزمان، وذلك من علامات قرب الساعة"، وقال: "الذي تضمنه الحديث قد وُجِد في زماننا هذا، فإنا نجد من سرعة مر الأيام ما لم نكن نجده في العصر الذي قبل عصرنا هذا"[6].

القول الرابع: أن المراد بذلك: استقصار مدته لِما يحصل من استلذاذ العيش.

وهذا مروي عن أبي سنان؛ حيث سُئل عن معنى الحديث، فقال: ذلك من استلذاذ العيش، قال الخطابي معقبًا على كلامه: "يريد والله أعلم زمان خروج المهدي ووقوع الأَمَنَة في الأرض بما يبسطه من العدل فيها، فيُستلَذ العيشُ عن ذلك، وتُسْتَقصر مدتُه، ولا يزال الناس يَسْتقصِرون مدة أيام الرخاء وإن طالت وامتدت، ويستطيلون أيام المكروه، وإن قصرت

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: العلم، باب: رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، (٩/ ٣٧٨٦)، رقم (٦٦٦٦).

٢. السَّعَفَة: مفرد سَعَف، وهو جريد النخل وورقه.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ، (١٠٩٥٦). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٤. أعلام الحديث، الخطابي، تحقيق: محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، جامعة أم القرى، د. ت، (٣/ ٢١٨٢).

٥. النهاية في الفتن والملاحم، ابن كثير، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، دار الجيل، بيروت، د. ت، (١/ ٢٣٤).

٦. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٣/ ١٩).

وقلّت"[1].

القول الخامس: أن المراد: تقارب أحوال أهله في قلة الدين، حتى لا يكون فيهم من يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر، لغلبة الفسق وظهور أهله.

وإلى هذا ذهب ابن بطال، والقرطبي، وغيرهما، وذكر ابن حجر أنه اختيار الطحاوي.

القول السادس: ما ذهب إليه بعض العلماء المعاصرين من أن المراد بتقارب الزمان ما هو حاصل في هذا العصر من تقارب ما بين المدن والأقاليم، وقصر زمن المسافة بينها؛ بسبب اختراع وسائل المواصلات المتنوعة - البرية والبحرية والجوية - حيث تُقطع المسافات البعيدة في الزمن القصير، ومثلها وسائل الاتصال الصوتية كالهاتف والإذاعة وغيرهما، فإنها قرّبت البعيد.

وممن ذهب إلى هذا القول سماحة الشيخ ابن باز، والشيخ حمود التويجري، والشيخ محمد رشيد رضا، وغيرهم، عليهم رحمة الله.

قال الشيخ ابن باز في تعليقه على الفتح: "الأقرب تفسير التقارب المذكور في الحديث بما وقع في هذا العصر من تقارب ما بين المدن والأقاليم، وقصر زمان المسافة بينها، بسبب اختراع الطائرات والسيارات والإذاعة وما إلى ذلك، والله أعلم".

وقال الشيخ حمود التويجري: "والظاهر - والله أعلم بمراد رسوله ﷺ - أن ذلك إشارة إلى ما حدث في زماننا من المراكب الأرضية والجوية، والآلات الكهربائية التي قرّبت كل بعيد، والمعنى على هذا: يتقارب أهل الزمان"، إلى أن قال بعد حديثه عن وسائل المواصلات: "وأعظم من ذلك الآلات الكهربائية التي تنقل الأصوات، كالإذاعات والتليفونات الهوائية، فإنها قد بهرت العقول في تقريب الأبعاد، بحيث كان الذي في أقصى المشرق يخاطب مَنْ في أقصى المغرب كما يخاطب الرجل جليسه، وبحيث كان الجالس عند الراديو يسمع كلام من في أقصى المشرق، ومن في أقصى المغرب، ومن في أقصى الجنوب، ومن في أقصى الشمال وغير ذلك من أرجاء الأرض في دقيقة واحدة، كأن الجميع حاضرون عنده في مجلسه، فالمراكب الأرضية والجوية قرّبت الأبعاد من ناحية السير، والآلات الكهربائية قرّبت الأبعاد من ناحية التخاطب وسماع الأصوات، فسبحان مَنْ علّم الإنسان ما لم يعلم"[2].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا: "ويرى بعض أهل هذا الزمان أن المراد قد يكون ما هو حاصل من تقارب المواصلات، وقطع المسافات البعيدة في الزمن القصير برًّا وبحرًا وجوًّا، وهذا أظهر من كل ما قالوه، وأليق بكونه إخبارًا عن غيب لا مجال للرأي فيه، ولا يعرف إلا بوحي من الله تعالى"[3].

والذي يترجح - والله تعالى أعلم بالصواب - أن الزمان نفسه يتقارب حقيقةً تقاربًا حسيًّا، وذلك بنقصه وقصره عما هو معتاد - على ما جاء في القول الأول - وذلك في آخر الزمان، لكن لا يصح الجزم بأن ذلك إنما

---

١. المرجع السابق، (١٣/ ١٩).

٢. إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة، الشيخ: حمود بن عبد الله التويجري، دار الصميعي، الرياض، ط٢، ١٤١٤هـ، (٢/ ١٩٥).

٣. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٣٤٢هـ، (٩/ ٤٨٥، ٤٨٦).

يكون إذا طلعت الشمس من مغربها.

ومما يدل على هذا القول ما يلي:

- أن هذا هو ظاهر الحديث، وقد جاء ما يؤيده ويبين مراده، كما عند الإمام أحمد وغيره من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنة كالشهر، ويكون الشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كاحتراق السَّعَفة) [١].

فهذا الحديث صريح في بيان المراد، ولذا قال الكرماني: "تقارب الزمان مجمل، وبيانه أنه ﷺ قال: "لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنة كالشهر، ويكون الشهر كالجمعة...".

وحكى ابن حجر عن ابن أبي جمرة قوله: "يحتمل أن يكون المراد بتقارب الزمان: قصره على ما وقع في حديث: "لا تقوم الساعة حتى تكون السنة كالشهر"، وعلى هذا فالقصر يحتمل أن يكون حسيًّا، ويحتمل أن يكون معنويًّا، فأما الحسي فلم يظهر بعد، ولعله من الأمور التي تكون قرب قيام الساعة، وأما المعنوي فله مدة منذ ظهر، يعرف ذلك أهل العلم الديني، ومن له فطنة من أهل السبب الدنيوي"[٢].

- ما أخرجه الإمام مسلم من حديث النواس بن سمعان ﷺ: أن النبي ﷺ ذكر الدجال، قال النواس: قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يومًا: يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم، قلنا: يا رسول الله: فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره"[٣].

ففي هذا الحديث أن الأيام تطول حقيقةً، وإذا كان ذلك كذلك فما المانع من كونها تقصر حقيقة كما في حديث تقارب الزمان، وذلك لاختلال نظام العالم وقرب زوال الدنيا.

وكون الطول في أيام الدجَّال حقيقيًّا ظاهرًا، يدل عليه قوله ﷺ: "وسائر أيامه كأيامكم"، وكذا سؤال الصحابة الرسول ﷺ عن الصلاة في اليوم الذي كسنة يدل على أنهم فهموا كون الطول في الأيام حقيقيًّا، وجوابه لهم بقوله: "اقدروا له قدره" يدل على موافقته لهم على هذا الفهم.

قال القاضي عياض: "قوله: "يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة": ما جاء بعد يفسر أنه على ظاهره غير متأول"[٤].

وقال النووي: "قوله ﷺ: "يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم"، قال العلماء: هذا الحديث على ظاهره، وهذه الأيام الثلاثة طويلة على هذا القدر المذكور في الحديث، يدل عليه قوله ﷺ: "وسائر أيامه كأيامكم"[٥].

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ، (١٠٩٥٦). وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: صحيح على شرط مسلم.

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٣/ ١٩).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن، باب: ذكر الدجال وصفته، (٩/ ٤٠٣١، ٤٠٣٢)، رقم (٧٢٣٩).

٤. إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم، عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، (٨/ ٤٨٣).

٥. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٤٠٣٦).

وقال أبو العباس القرطبي: "ظاهر هذا: أن الله تعالى يخرق العادة في تلك الأيام، فيبطئ بالشمس عن حركتها المعتادة في أول يوم من تلك الأيام، حتى يكون أول يوم كمقدار سنة معتادة، ويبطئ بالشمس حتى يكون كمقدار شهر، والثالث حتى يكون كمقدار جمعة، وهذا ممكن، لا سيما وذلك الزمان تنخرق فيه العوائد كثيرًا"[1].

- أن آخر الزمان يختل فيه نظام العالم، وتكثر فيه خوارق العادات: فالدابة تتكلم، والشمس تطلع من مغربها... وعلى هذا فما المانع من أن يكون من جملة ذلك أيضًا تقارب الزمان وقصره، والله تعالى مصرِّف الكون ومدبِّره، وهو سبحانه على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فكما أنشأ الأيام والليالي على هذا النظام الذي نعرفه، فهو قادر على تغيير ذلك.

قال ابن العربي: "فإن قيل: في هذا الحديث إبطال للهيئة، وإفساد للطبيعة، وتغيير للتكوين الذي به قامت الخليقة... قلنا: اتَّئدوا، فإنكم نظرتم إلى جريان اليوم في المخلوقات، وأغفلتم النظر في قدرة الخالق، وما له من الحكم في المصنوعات، والإشكال الذي أشرتم إليه ينحلُّ عنكم بالنظر في معانٍ:

الأول: قد تقرر عقلًا وشرعًا، وثبت دليلًا أن الباري تعالى خالق كل شيء، لا يشذ ذرة عن خلقه، فما كان من سبب أو مسبب، أو علة ومعلول فإنه فطره وأنشأه، وكون ذلك كله على هذا النظام المشاهد ليس بواجب لا يمكن سواه، بل هو على مجرى الإرادة وبعض العادة.

الثاني: أن عاقبة الشمس والقمر التكوير، وآخر السماوات والأرض الانفطار والتدمير، وكما يَعدِمُها خالقها فلا تسير، يجوز أن يُبطِّئها عن سرعتها وينقص من حركاتها، فما كانت تقطعه في يوم تقطعه في جمعة، ثم في شهر، ثم في سنة، أو بعكسه، وهذا قريب ممن وفقه الله لعلمه"[2].

وبهذا يتبيَّن ضعف بقية الأقوال وبُعدها عن ظاهر الحديث، لأنها: إما أن تجعل التقارب الوارد في الحديث تقاربًا معنويًّا لا حقيقيًّا، كالقول بأن المراد من ذلك نزع البركة - وهو القول الثالث - وكذا القول: بأن المراد من ذلك ما يحصل من استقصار الزمان بسبب استلذاذ العيش، وهو القول الرابع.

وإما أن تجعل التقارب المذكور ليس للزمان نفسه وإنما لأهل الزمان، كالقول بأن المراد: تقارب أحوال أهله في قلة الدين - وهو القول الخامس - وكذا القول السادس - وإن كان أظهر وجاهة من غيره - وهو أن المراد: ما حصل من تقارب أهل هذا الزمان بسبب ما استُجد من مخترعات حديثة.

وأما القول الثاني: وهو أن المراد بتقارب الزمان: قربه من الساعة، فقول غريب، لأنه وإن احتمله الحديث الذي أول لفظه: "يتقارب الزمان..."، فإنه لا يحتمله اللفظ الآخر - كما عند البخاري: "لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان"؛ لأن المعنى سيكون حينئذٍ: لا تقوم الساعة حتى تقرب الساعة، وهذا ليس

---

١. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١١هـ، (٧/ ٢٩٧).

٢. عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، ابن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، (٩/ ٦٤) بتصرف.

فيه فائدة، بل هو تحصيل حاصل، ولهذا قال الكرماني بعد أن ذكر هذا القول عن النووي: "حاصل تفسيره: أنه لا تكون القيامة حتى تقرب القيامة، وهذا كلام مهمل، لا طائل تحته"[1][2].

فالراجح إذن من أقوال أهل العلم حَمْلُ الحديث على حقيقة لفظه؛ ويشهد لذلك حديث صحيح الإسناد خرَّجه الإمام أحمد في مسنده، وهذا هو أولى الأقوال بالصواب. ويؤمن المسلمون بحقيقة لفظ الحديث؛ لأنه إخبارٌ بالغيب، والمسلمون يؤمنون بالغيب الذي يقتضيه إيمانهم بالشهادة؛ ولأن الحديث ثابت عن رسول الله ﷺ.

إذن لا مجال كما قلنا للقدح في الحديث، فالحديث ثابت عن النبي ﷺ، ونحن نؤمن بما جاء عن رسول الله على مراده ﷺ؛ فالزمان يتقارب حتى تكون الساعة أقل من مقدارها الزمني الحالي بكثير، وأن هذا سيحدث قُبيل قيام الساعة، وأن الله تبارك وتعالى على كل شيء قدير.

ثانيًا. تقارب الزمان ينشأ نتيجة لقرب الأرض من الشمس، وسرعة دورانها حولها:

إن الشمس ستكون قرب نهايتها نجمًا عملاقًا شديد الجاذبية، يجذب الأرض نحوه فتقترب الأرض من الشمس، فيتسارع دورانها حول الشمس، فكلما قرب الكوكب من الشمس ازدادت سرعة دورانه، فعطارد أقرب الكواكب إلى الشمس؛ لذلك يدور دورة كاملة حول الشمس كل ثلاثة شهور، وبلوتو أبعد الكواكب عن الشمس؛ لذلك يدور دورة كاملة حول الشمس كل ٢٥٠ سنة.

فعندما تنجذب الأرض في المستقبل ـ قرب قيام الساعة، في زمن حدده الله ﷻ ـ وتقرب من الشمس جدًّا، فسوف تتسارع في دورانها حول الشمس، وتصير السنة على الأرض كالشهر، ويصير الشهر كالأسبوع، ويصير الأسبوع كاليوم، ويصير اليوم كالساعة[3].

"فالزمن إذن مرتبط بالحركة، والحركة مرتبطة بالزمن، فلا توجد حركة بدون زمن، ولا تتم حركة إلا في زمن معين، وكل حركة تتم في سرعة معينة... وسرعة الحركة تحدد المدة الزمنية، فالزمن نسبي، يحدد نسبيته مقدار القوة المحركة، والمسافة، والسرعة"[4].

إن دوران الأرض حول نفسها وحركتها الدائمة ينتج عنها أمران، أولهما: تعاقب الليل والنهار، والآخر: تحديد مدة اليوم على الأرض، ولا شك في أن الحركة إذا كانت سريعة ستكون مدة الليل والنهار قصيرة (وهو ما يسمى بتقارب الزمان) وإذا كانت بطيئة ستكون مدة الليل والنهار طويلة.

لقد كانت الأرض في بداية الخلق تدور حول محورها بسرعة رهيبة، وقد أثبت ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ

---

١. الكواكب الدراري بشرح صحيح البخاري، الكرماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ، (٦/ ١٢٣).

٢. انظر: أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، د. سليمان الدبيخي، مرجع سابق، ص٥٩٤: ٦٠٢.

٣. موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي، د. أحمد شوقي إبراهيم، مرجع سابق، (٣/ ١٠٥) بتصرف.

٤. المرجع السابق، (٣/ ١٢٨، ١٢٩).

بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٥٤) ﴾ (الأعراف).

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره للآية السابقة: "أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكلٌّ منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا أي سريعًا، لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه"[1].

وقد جاءت الحقائق العلمية الكونية بعد أربعة عشر قرنًا من الزمان لتؤكد كل لفظة قالها القرآن الكريم، حيث "أثبت العلم الحديث أن الأرض عقب خلقها كانت سرعة دورانها حول نفسها كبيرة، ثم نقصت تدريجيًّا، حتى وصلت أخيرًا إلى سرعتها الحالية في إحداث دورة كاملة حول نفسها كل أربع وعشرين ساعة"[2].

يقول د. زغلول النجار: "يتساءل قارئ القرآن الكريم عن الوصف "حثيثًا" الذي جاء في الآية (رقم ٥٤) من سورة الأعراف في وصف تغشية الليل النهار، ولم يذكر في آية سورة الرعد رقم (٣) والتي جاءت بنفس النص دون ذكر الوصف حثيثًا، كذلك لم يرد هذا الوصف في آيات أخرى ذكرت التغشية بغير تحديد، وللإجابة على ذلك أقول: إن آية سورة الأعراف مرتبطة بالمراحل الأولى من خلق السماوات والأرض، بينما بقية الآيات تصف الظاهرة بصفة عامة، واللفظة (حثيثًا) تعني مسرعًا حريصًا، يقال: (حثَّه) على أمر ما بمعنى: شجَّعه وحضَّه عليه أو ردَّه إليه، و(استحثه) على الشيء أي: حضَّه عليه، (فاحتث) تحثيثًا و(حثحثة) بمعنى: حضًّا، و(تحاثُّوا) بمعنى: تحاضُّوا.

والدلالة الواضحة للآية الكريمة (رقم ٥٤) من سورة الأعراف هي التسارع الشديد في حركة تتابع الليل والنهار (أي حركة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس) في بدء الخلق، والتي لا بد وأنها كانت سريعة متعاقبة بمعدلات أعلى من سرعتها الحالية، وإلا ما غشي الليل النهار يطلبه حثيثًا.

وقد ثبت ذلك أخيرًا عن طريق دراسة مراحل النمو المتتالية في هياكل الحيوانات، وفي جذوع الأشجار المعمرة والمتأحفرة، وقد انضوت دراسة تلك الظاهرة في جذوع الأشجار تحت فرع جديد من العلوم يعرف باسم " علم تحديد الأزمنة بواسطة الأشجار"، أو (*Dendrochronoligy*)، وقد بدأ هذا العلم بدراسة الحلقات السنوية في جذوع الأشجار، والتي تظهر عند عمل قطاعات مستعرضة، فيها مُمَثَّلةً مراحل النمو المتتالية في حياة النبات من مركز الساق حتى طبقة الغطاء الخارجي المعروفة باسم اللحاء، وذلك من أجل التعرف على الظروف المناخية والبيئية التي عاشت في ظلها تلك الأشجار، حيث إن الحلقات السنوية في جذوع الأشجار تنتج بواسطة التنوع في الخلايا التي يبنيها النبات بدرجات متفاوتة في فصول السنة المتتابعة (الربيع، الصيف، والخريف، والشتاء)، فترِقُّ رقةً شديدةً في فترات الجفاف، وتزداد سمكًا في الآونة المطيرة.

وقد تمكن الدارسون لتلك الحلقات السنوية من متابعة التغيرات المناخية المسجلة في جذوع عدد من

---

١. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، (٢/ ٢٢٠، ٢٢١).

٢. الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية، د. أحمد مصطفى متولي، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٩٧.

الأشجار الحية المعمرة، مثل أشجار الصنوبر ذات المخاريط الشوكية المعروفة باسم (***Pinus aristata***)، والتي تعيش لأعمار تمتد إلى أكثر من ثمانية آلاف سنة، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى دراسة الأحافير عبر العصور الأرضية المتعاقبة، وطوَّروا تقنياتهم من أجل ذلك، فتبيَّن لهم أن الحلقات السنوية (***AnnualRings***) في جذوع الأشجار، وخطوط النمو في هياكل الحيوانات (***Lines of growth***) يمكن تصنيفها إلى السنوات المتتالية، بفصولها الأربعة وشهورها القمرية الاثني عشر، وأسابيعها وأيامها، ونهار كل يوم وليلة، كما تبيَّن لهم أن عدد الأيام في السنة يتزايد باستمرار مع تقادم عمر العيِّنة المدروسة، ومعنى ذلك أن سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس كانت في القديم أسرع منها اليوم، حيث يتزايد عدد أيام السنة بتقادم عمر الأرض، وهنا تتضح روعة التعبير القرآني (يطلبه حثيثًا) في وصف إغشاء الليل والنهار عند بدء الخلق، كما جاء في الآية رقم (٥٤) من سورة الأعراف، وعلاقته بالسرعة الفائقة لدوران الأرض حول محورها أمام الشمس عند بدء الخلق، كما أثبت ذلك أحدث الدراسات العلمية.

ففي دراسة الظروف المناخية والبيئية القديمة ـ كما هي مدونة في كل من جذوع النباتات، وهياكل الحيوانات القديمة ـ اتضح للدارسين أنه كلما تقادم الزمن بتلك الحلقات السنوية (أو خطوط النمو) زاد عدد الأيام في السنة، وزيادة عدد الأيام في السنة هو تعبير دقيق عن زيادة سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وبتطبيق ذلك على الأحافير (البقايا الصلبة للكائنات البائدة) بدقة بالغة ـ اتضح أن عدد أيام السنة في العصر الكمبري (***Cambrian Period***)، أي: منذ حوالي ستمائة مليون سنة مضت ـ كان ٤٢٥ يومًا، وفي منتصف العصر الأوردوفيشي (***Ordovician Period***) أي: منذ حوالي ٤٥٠ مليون سنة مضت ـ كان ٤١٥ يومًا، وبنهاية العصر الترایاسي (***Triassic Period***)، أي: منذ حوالي مائتي مليون سنة مضت ـ كان ٣٨٥ يومًا، وهكذا استمر التناقص في عدد أيام السنة (والذي يعكس التناقص التدريجي في سرعة دوران الأرض حول محورها) حتى وصل عدد أيام السنة في زماننا الراهن إلى ٣٦٥.٢٥ يومًا تقريبًا. وباستكمال هذه الدراسة اتضح أن الأرض تفقد من سرعة دورانها حول محورها أمام الشمس واحدًا من الألف من الثانية في كل قرن من الزمان؛ بسبب كل من عمليتي المد والجزر، وفعل الرياح المعاكسة لاتجاه دوران الأرض حول محورها، كما يظن كثير من أهل العلم، أن كلًّا من هذين العاملين يعمل عمل الكابح (الفرامل)، التي تبطئ من سرعة دوران الأرض حول محورها، وبمد هذه الدراسة إلى لحظة تيبُّس القشرة الخارجية للأرض (أي: قريبًا من بداية خلقها على هيئتها الكوكبية)، منذ حوالي ٤.٦٠٠ مليون سنة مضت وصل عدد الأيام بالسنة إلى ٢٢٠٠ يوم تقريبًا، وهذه الأيام كانت قصيرة المدى جدًّا، فلم يكن طول الليل والنهار معًا يصل إلى حوالي الأربع ساعات، ومعنى هذا الكلام أن سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس كانت ستة أضعاف سرعتها الحالية..!! فسبحان الله الذي أنزل في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى

﴿ ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ (الأعراف: ٥٤).

وسبحان الله الذي أبقى لنا في هياكل الكائنات الحية والبائدة ما يؤكد تلك الحقيقة الكونية، حتى تبقى هذه الإشارة القرآنية الموجزة ﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ مما يشهد بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم، وبأنه كلام الله الخالق تعالى، وبأن خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ الذي تلقاه عن طريق الوحي كان موصولًا برب السماوات والأرض، كما وصفه ربه ﷻ بقوله الحق: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ (النجم).

ويكمل د. زغلول النجار كلامه، فيقول: بمعرفة كل من سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس في أيامنا الراهنة، ومعدل تباطؤ سرعة هذا الدوران مع الزمن، توصل العلماء إلى الاستنتاج الصحيح: أن أرضنا سوف يأتي عليها وقت تُجْبَر فيه على تغيير اتجاه دورانها بعد فترة من الاضطراب، فمنذ اللحظة الأولى لخلقها إلى اليوم - وإلى أن يشاء الله - تدور أرضنا من الغرب إلى الشرق، فتبدو الشمس طالعة من الشرق، وغائبة في الغرب، فإذا انعكس اتجاه دوران الأرض حول محورها طلعت الشمس من مغربها، وهو من العلامات الكبرى للساعة، كما أخبرنا المصطفى ﷺ، فعن حذيفة بن أسيد الغفاري ؓ أنه قال: "قد اطَّلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: ما تذاكرون؟ قلنا: نذكر الساعة، فقال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر: الدخان، والدابَّة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم"[1].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول الآيات خروجًا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابَّة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إِثْرِها قريبًا"[2].

وفي حديث الدجال الذي رواه النواس بن سمعان ؓ قال: "ذكر رسول الله ﷺ الدجال قلنا: يا رسول الله: وما لبثه في الأرض؟ قال ﷺ: أربعون يومًا، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم، قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة. أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال ﷺ: لا، اقدروا له قدره..." الحديث[3].

ومن الأمور العجيبة أن يأتي العلم التجريبي في أواخر القرن العشرين ليؤكد أنه قبل تغيير اتجاه دوران الأرض حول محورها أمام الشمس ستحدث فترة اضطراب؛ نتيجة لتباطؤ سرعة دوران الأرض حول محورها، وفي فترة الاضطراب تلك ستطول الأيام بشكل كبير ثم تقصر[4].

مما سبق يتبيَّن أن قصر الزمن، أو "تقارب الزمان"

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في الآيات التي تكون قبل الساعة، (٩/ ٤٠٠٣)، رقم (٧١٥٢).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي) كتاب: الفتن، باب: في خروج الدجال ومكثه في الأرض، (٩/ ٤٠٤٤)، رقم (٧٢٤٩).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن، باب: ذكر الدجال وصفته، (٩/ ٤٠٣١، ٤٠٣٢)، رقم (٧٢٣٩).

٤. السماء في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، ط٤، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص١٧٥: ١٧٨.

حقيقة علمية وحتمية فيزيائية يقرُّ بها العلماء[1]، أما عن السؤال الذي قد يطرح نفسه الآن، ألا وهو: هل سيكون تقارب الزمان قياسًا على الوقت المتباطئ الذي يسبقه قبل أو بعد خروج الشمس من مغربها، أم قياسًا على الوقت الذي نعيشه الآن؟

وللإجابة عن هذا السؤال نقول: هذا غيب لا سبيل إلى الجزم أو القطع به الآن، لكن المسلَّم به أنه سيكون هناك تقارب في الزمان، أي قصر فيه، سواء بالنسبة لما يسبقه من تباطؤ، أو بالنسبة للوقت الذي نعيشه، وهو ما تؤكده الحقائق، وهو ما يهمنا في إطار هذا السياق، حيث تُصَدِّق الآيات القرآنية على الأحاديث الصحيحة التي أخبر فيها النبي ﷺ عن أمور غيبية وحقائق كونية ستحدث، وكان هذا الإخبار قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان، وها هي حقائق العلم تؤكد صحة الحديث، وتبرهن علميًّا على صدق ما جاء فيه، وقد صدَّقت على هذا الحديث آيات القرآن الحكيم التي ذكرناها في موضع الاستشهاد قبل أن يثبت العلم بالحقائق والبراهين الدامغة صدق ما تضمَّنه الحديث بقرون عديدة.

فسبحان من علَّم الإنسان ما لم يعلم، وصلى الله وسلم على الصادق الأمين الذي بلغ عن ربه ﷻ.

الخلاصة:

- إن من الآيات والعلامات التي يؤمن بها المسلم "تقارب الزمان"؛ لثبوت صحة الحديث الذي تضمن هذا الإخبار عن النبي ﷺ.
- الراجح من أقوال أهل العلم حمل الحديث على حقيقة لفظه، وإن وقع بينهم خلاف، فهو خلاف في فهم الحديث، وهذا أمر سائغ، ولم يصرف أحد منهم لفظ الحديث عن حقيقته استشكالًا أو تكذيبًا لما فيه؛ إذ حمْلُ الحديث على ظاهر لفظه تؤيده أحاديث كثيرة وواضحة الدلالة، وهي أحاديث صحيحة وثابتة عن النبي ﷺ.
- إننا نؤمن بما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ، فالزمان يتقارب حتى تكون الساعة أقل من مقدارها الزمني الحالي بكثير، ونوقن أن هذا سيحدث قُبيل قيام الساعة.
- إن تقارب الزمان ينشأ نتيجة قرب الأرض من الشمس، وبه تزداد سرعتها حول الشمس، وكلما زادت السرعة قل الزمن، فتصبح السنة كالشهر، والشهر كالأسبوع... إلخ.
- إن تقارب الزمان حقيقة علمية وحتمية فيزيائية يثبتها العلم الحديث، ويقدم على ذلك البراهين الواضحة التي تؤكد صدق ما جاء في حديث "تقارب الزمان" وذلك بذكر أمثلة وأبحاث من التاريخ تؤكد أن الزمن في حالة انكماش دائمة.



---

1. انظر: نسبية الزمن بين البراهين العلمية وإعجاز الآيات القرآنية، محمد ترياقي، مقالة بموقع.
www.alhasebat.net

الشبهة الخامسة عشرة

توهم تعارض أحاديث تنازع الخيرية بين أول زمان الأمة وآخره(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن أحاديث الخيرية بين أول زمان الأمة وآخره غير صحيحة؛ لأنها متعارضة، ويستدلون على ذلك بأن قول الرسول ﷺ: "لا يأتي زمان إلا والذي بعده أشرُّ منه"، وقوله: "خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم..." يتعارضان مع قوله ﷺ: "مثل أمتي مثل المطر لا يُدْرى أوله خير أو آخره"، وقوله ﷺ: "بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء..."، بالإضافة إلى أن هذه الأحاديث تصيب كل من يحاول الإصلاح وإعادة بناء الأمة كما كانت في سالف عهدها بشتى ألوان اليأس والإحباط؛ لأنها تدل على أن الأمة تسير من السيِّء إلى الأسوأ، وهذا مخالف لتعاليم الدين الإسلامي الذي يدعو إلى الوقوف في وجه الظلم ورد العدوان.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن ثبوت صحة الأحاديث الواردة في خيرية زمان أمة الإسلام أوله وآخره - لينفي التعارض المتوهم بينها؛ لأنه لا تعارض بين الصحيح، والشر المذكور في الحديث ليس على عمومه وإطلاقه؛ فقرن الصحابة ﷺ وإن كان أفضل القرون، إلا أنه لا يدل على نزع الخيرية من آخر الزمان؛ لأن الخيرية بالنسبة للمجموع لا للأفراد، ويدل على ذلك ما يكون من خير ورفعة لراية الإسلام، وذلك بخروج المهدي ونزول عيسى عليه السلام آخر الزمان.

٢) في السنة أحاديث كثيرة تؤكد أن المستقبل للإسلام، ولا داعي لاتهام تلك الأحاديث التي معنا بأنها تثير الإحباط واليأس في قلوب الناس؛ لأنه يجب الجمع بين الأحاديث؛ فالنبي ﷺ قال في حديث له: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين بالحق لا يضرهم من خذلهم أو ناوأهم حتى قيام الساعة"، كما أنها لا تدعو إلى السكوت عن الظلم ورده؛ لأنه ﷺ قال في حديث آخر: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر".

التفصيل:

أولا. صحة الأحاديث تنفي تعارضها، وبالجمع بينها وبين غيرها يكون الخير في الأمة إلى قيام الساعة:

إن هذه الأحاديث المتوهم عدم صحتها بحجة أنها تدعو إلى اليأس والإحباط إنما هي أحاديث صحيحة وردت في كتب السنة الصحيحة؛ فحديث: "لا يأتي زمان إلا والذي بعده أشر منه" حديث صحيح أخرجه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه [1]، وقد أخرجه أيضًا الإمام الترمذي في سننه [2].

وأما قوله ﷺ: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم..."، فهذا أيضًا حديث صحيح في

(*) كيف نتعامل مع السنة النبوية، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الفتن، باب: لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، (١٣/ ٢٢)، رقم (٧٠٦٨).

٢. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في أشراط الساعة، (٦/ ٣٧٣)، رقم (٢٣٠٢). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٢٠٦).

أعلى درجات الصحة؛ لأنه مرويٌّ في الصحيحين: البخاري ومسلم[1]، وأخرجه أيضًا الإمام الترمذي في سننه[2].

وأما قوله ﷺ: "مثل أُمَّتي مثل المطر لا يُدْرى أوله خير أم آخره"، فقد أخرجه الترمذي في سننه[3]. وكذلك الإمام أحمد في مسنده[4].

وأما حديث: "بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء"، فقد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه[5]، وأخرجه ابن ماجه في سننه[6].

وعليه، فهذه الأحاديث صحيحة، وطالما أنها صحيحة، فلا تعارض بينها، يقول الحافظ ابن حجر معلقًا على حديث أنس بن مالك رضي الله عنه حين شكى إليه الناس ما يلقون من الحَجَّاج - وذلك في قوله ﷺ: "لا يأتي زمان إلا والذي بعده أشر منه"، "قال ابن بطال: هذا الخبر من أعلام النبوة؛ لإخباره ﷺ بفساد الأحوال، وذلك من الغيب الذي لا يُعْلَم بالرأي، وإنما يُعْلَم بالوحي. ثم يقول ابن حجر: وقد اسْتُشْكل هذا الإطلاق مع أن بعض الأزمنة تكون في الشر دون التي قبلها، ولو لم يكن في ذلك إلا زمن عمر بن عبد العزيز، وهو بعد زمن الحجاج بيسير، وقد اشتهر الخير الذي كان في زمن عمر بن عبد العزيز، بل لو قيل: إن الشر اضمحلَّ في زمانه لما كان بعيدًا، فضلًا عن أن يكون شرًّا من الزمن الذي قبله، وقد حمله الحسن البصري على الأكثر الأغلب، فسُئِلَ عن وجود عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج، فقال: لا بد للناس من تنفيس.

وأجاب بعضهم: أن المراد بالتفضيل تفضيل مجموع العصر على مجموع العصر، فإن عصر الحَجَّاج كان فيه كثير من الصحابة في الأحياء، وفي عصر عمر بن عبد العزيز انقرضوا، والزمان الذي فيه الصحابة خير من الزمان الذي بعده؛ لقوله ﷺ "خير القرون قرني"، وقوله ﷺ: "أصحابي أمنةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون"[7]، ثم وجدت عن عبد الله بن مسعود التصريح بالمراد، وهو أولى بالاتباع، فأخرج يعقوب بن شيبة من طريق الحارث بن حصيرة عن زيد بن وهب قال: سمعت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: "لا يأتي عليكم يوم إلا وهو شر من اليوم الذي

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل أصحاب النبي ﷺ، (٧/ ٥)، رقم (٣٦٥١). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، (٩/ ٣٦٥٨)، رقم (٦٣٥١).

٢. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في القرن الثالث، (٦/ ٣٨٩)، رقم (٢٣٢٠). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٢٢١).

٣. حسن صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: الأمثال، باب: رقم (٦)، (٨/ ١٣٨)، رقم (٣٠٣٠). وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٨٦٩): حديث حسن صحيح.

٤. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، رقم (١٢٣٤٩). وحسَّنه الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريبًا، (٢/ ٥٦٥)، رقم (٣٦٥).

٦. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الفتن، باب: بدأ الإسلام غريبًا، (٢/ ١٣١٩)، رقم (٣٩٨٦). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٣٩٨٦).

٧. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للأمة، (٩/ ٣٦٥٧)، رقم (٦٣٤٨).

كان قبله حتى تقوم الساعة، لست أعني رخاء من العيش يصيبه، ولا مالًا يفيده، ولكن لا يأتي عليكم يوم إلا وهو أقل علمًا من اليوم الذي مضى قبله، فإذا ذهب العلماء استوى الناس، فلا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، فعند ذلك يهلكون".

ومن طريق أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود إلى قوله: "شر منه" قال: "فأصابتنا سنة خصب، فقال: ليس ذلك أعني، إنما أعني ذهاب العلماء"، ومن طريق الشعبي عن مسروق عنه قال: "لا يأتي عليكم زمان إلا وهو أشر مما كان قبله، أما إني لا أعني أميرًا خيرًا من أمير، ولا عامًا خيرًا من عام، ولكن علماؤكم وفقهاؤكم يذهبون، ثم لا تجدون منهم خلفًا، ويجيء قوم يفتون برأيهم"، وفي لفظ عنه من هذا الوجه: "وما ذاك بكثرة الأمطار وقِلَّتها، ولكن بذهاب العلماء، ثم يُحَدِّث قوم يفتون في الأمور برأيهم فيثلمون الإسلام ويهدمونه"، وأخرج الدارمي الأول من طريق الشعبي بلفظ "لست أعني عامًا أخصب من عام" والباقي مثله وزاد: "وخياركم" قبل قوله: "وفقهاؤكم"، واستشكلوا أيضًا زمان عيسى ابن مريم بعد زمان الدجال، وأجاب الكرماني بأن المراد الزمان الذي يكون بعد عيسى، أو المراد: جنس الزمان الذي فيه الأمراء، وإلا فمعلوم من الدين بالضرورة أن زمان النبي المعصوم لا شر فيه. قلت: ويحتمل أن يكون المراد بالأزمنة ما قبل وجود العلامات العظام كالدجال وما بعده، ويكون المراد بالأزمنة المتفاضلة في الشر من زمن الحجاج فما بعده إلى زمن الدجال، وأما زمن المسيح عيسى عليه السلام، فله حكم مستأنف.

ويحتمل أن يكون المراد بالأزمنة المذكورة أزمنة الصحابة بناء على أنهم هم المخاطبون بذلك فيختص بهم، فأما من بعدهم فلم يُقصَد في الخبر المذكور، لكن الصحابي فهم التعميم، فلذلك أجاب من شكى إليه الحجاج بذلك وأمرهم بالصبر، وهم أو جُلُّهُم من التابعين.

واستدل ابن حبان في صحيحه بأن حديث أنس ليس على عمومه، وقد استدل على ذلك بالأحاديث الواردة في المهدي، وأنه يملأ الأرض عدلًا بعد أن مُلِئَتْ جورًا"[1].

ومن تتبع أحوال هذه الأمة وجد الأمر كذلك، لكن يجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد، فحديث أنس رضي الله عنه حديث صحيح سندًا ومتنًا، فالمتن ليس فيه شذوذ، والسند في البخاري، والمراد به من حيث الجملة؛ ولذلك يوجد في أتباع التابعين مَنْ هو خير من التابعين، فلا تيأسوا فتقولوا: إذن، لا يمكن أن يوجد في زماننا هذا مِنْ سبق، لكننا نقول: إن مثل هذا الحديث يراد به الجملة، وإذا شئتم أن يتضح الأمر، فانظروا إلى جنس الرجال وجنس النساء، أيهما خير؟ والجواب جنس الرجال خير، قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة:٢٢٨)، ولكن يوجد في النساء مَنْ هي خير من كثير من الرجال، فيجب أن نفرِّق بين الجملة والأفراد، فإذا نظرنا إلى مجموع القرن كله نجد أن ما بعد القرن شر منه، لا باعتبار الأفراد، ولا باعتبار مكان دون مكان، فقد تكون أمة في الجهات، يرتفع فيها من حسن على أحسن، كما لو نشأ فيها علماء نفع الله بهم. وقد يقال: إن

١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٣/ ٢٣، ٢٤).

هذا الحديث بناء على الأغلب، فما وقع من خير بعد الشر ولو كان عامًّا، فإنه يكون مخصِّصًا لهذا الحديث[1].

وفي ضوء فهم الحديث على هذا النحو؛ فليس ثمة تعارض بينه وبين حديث "مثل أُمتي كالمطر..."، "قال التوربشتي: لا يُحْمَل هذا الحديث على التردُّد في فضل الأول على الآخر، فإن القرون الأُول هم المفضَّلون على سائر القرون من غير شبهة، ثم الذين يلونهم، وفي الرابع اشتباه من قبل الراوي، وإنما المراد بهم نفعهم في بثِّ الشريعة، والذَّبِّ عن الحقيقة، قال القاضي: نفى تَعَلُّق العلم بتفاوت طبقات الأمة في الخيرية، وأراد نفي التفاوت، كما قال: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (يونس: ١٨)؛ أي: بما ليس فيهنَّ كأنه قال: لو كان لعلم؛ لأنه أمر لا يخفى، ولكن لا يعلم؛ لاختصاص كل طبقة منهم بخاصية وفضيلة توجب خيريَّتها، كما أن كل نوبة من نُوب المطر لها فائدة في النُّشُوِّ والنماء لا يمكنك إنكارها والحكم بعدم نفعها، فإن الأوَّلين آمنوا بما شاهدوا من المعجزات، وتلقوا دعوة الرسول ﷺ بالإجابة والإيمان، والآخِرين آمنوا بالغيب، لما تواتر عندهم من الآيات، واتَّبعوا من قبلهم بالإحسان، وكما أن المتقدمين اجتهدوا في التأسيس والتمهيد، فالمتأخِّرون بذلوا وُسعهم في التلخيص والتجريد، وصرفوا عمرهم في التقرير والتأكيد، فكل ذنبهم مغفور، وسعيهم مشكور، وأجرهم موفور.

قال الطيبي: وتمثيل الأمة بالمطر إنما يكون بالهدى والعلم، كما أن تمثيله ﷺ الغيث بالهُدى والعلم، فتختص هذه الأمة المشبَّهة بالمطر بالعلماء الكاملين منهم المكمِّلين لغيرهم، فيستدعي هذا التفسير أن يراد بالخير النفع، فلا يلزم من هذا المساواة في الأفضلية، ولو ذهب إلى الخيرية، فالمراد: وَصْف الأمة قاطبة سابقها ولاحقها، وأولها وآخرها بالخير، وأنها ملتحمة بعضها مع بعض مرصوصة بالبنيان مفرغة كالحلقة التي لا يُدْرَى أين طرفاها...

فالحاصل: أن الأمة مرتبط بعضها مع بعض في الخيرية بحيث أُبْهِم أمرها فيها، وارتفع التمييز بينها، وإن كان بعضها أفضل من بعض في نفس الأمر، وهو قريب من سَوق المعلوم مساق غيره، وفي معناه أنشد مروان بن أبي حفصة:

تشابه يَوْمَاه علينا فَأَشْكَلا
فما نحن نَدْري أيَّ يومَيْه أفضلُ
أَيومُ بَدَاء العُمر أم يوم يَأسِه
وما مِنهُما إلا أغرُّ مُحَجَّلُ

ومن المعلوم جليًّا أن يوم بداءة العمر أفضل من يوم يأسه، لكن البدء لما لم يكن يكمل ويستتب إلا باليأس أُشكل عليه الأمر فقال ما قال، وكذا أمر المطر والأمة[2].

ويعلق ابن حجر على حديث "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم..."، فيقول: ومقتضى هذا الحديث أن يكون الصحابة أفضل من التابعين، والتابعون أفضل من أتباع التابعين، لكن هل هذه الأفضلية بالنسبة إلى

١. مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين، ابن عثيمين، (٩/ ٣٨٣) بتصرف.

٢. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، مرجع سابق، (٨/ ١٣٨، ١٣٩) بتصرف.

المجموع أو الأفراد؟ وفي المسألة تفصيل؛ فالجمهور نحا إلى الثاني (الأفراد)، والأول (المجموع) قول ابن عبد البر، والذي يظهر: أن من قاتل مع النبي ﷺ، أو في زمانه بأمره، أو أنفق شيئًا من ماله بسببه، لا يعدله في الفضل أحد كائنًا من كان، وأما من لم يقع له ذلك فهو محل البحث، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ (الحديد: ١٠).

واحتجَّ ابن عبد البر بحديث: "مثل أمتي كالمطر لا يُدْرى أوله خير أم آخره"، وهو حديث حسن له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة... وقد أجاب النووي بما حاصله: أن المراد مَنْ يشتبه عليه الحال في ذلك من أهل الزمان الذين يدركون عيسى ابن مريم ؏، ويرون في زمانه من الخير والبركة، وانتظام كلمة الإسلام، ودحض كلمة الكفر، فيشتبه الحال على من شاهد ذلك أي الزمانين خير، وهذا الاشتباه مندفع بصريح قول النبي ﷺ: "خير القرون قرني..."، وروى أحمد، والدارمي، والطبراني من حديث أبي جمعة قال: "قال أبو عبيدة: يا رسول الله، أأَحَدٌ خير منا؟ أسلمنا معك، وجاهدنا معك! قال: قوم يكونون من بعدكم، يؤمنون بي ولم يروني"[1]، وإسناده حسن، وقد صححه الحاكم. واحتج أيضًا بأن السبب في كون القرن الأول خير القرون أنهم كانوا غرباء في إيمانهم؛ لكثرة الكفار حينئذ، وصبرهم على أذاهم، وتمسُّكهم بدينهم، قال: فكذلك أواخرهم إذا أقاموا الدين وتمسكوا به، وصبروا على الطاعة حين ظهور المعاصي والفتن كانوا أيضًا عند ذلك غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الزمان، كما زكت أعمال أولئك. ويشهد له ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رفعه: "بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء"[2] وقد تعقب كلام ابن عبد البر بأن مقتضى كلامه أن يكون فيمن يأتي بعد الصحابة من يكون أفضل من بعض الصحابة، وبذلك صرح القرطبي، لكن كلام ابن عبد البر ليس على الإطلاق في حق جميع الصحابة، فإنه صرح في كلامه باستثناء أهل بدر والحديبية. نعم والذي ذهب إليه الجمهور: أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل، لمشاهدة رسول الله ﷺ، وأما من اتفق له الذَّبُّ عنه، والسبق إليه بالهجرة أو النصرة، وضبط الشرع المتلقى عنه وتبليغه لمن بعده، فإنه لا يعدله أحد ممن يأتي بعده؛ لأنه ما من خصلة من الخصال المذكورة إلا وللذي سبق بها مثل أجر من عمل بها من بعده، فظهر فضلهم. ومُحَصِّل النزاع يتمحَّض فيمن لم يحصل له إلا مجرد المشاهدة كما تقدم، فإن جمع بين مختلف الأحاديث المذكورة كان متجهًا على أن حديث: "للعامل منهم أجر خمسين منكم" لا يدل على أفضلية غير الصحابة على الصحابة؛ لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة، وأيضًا فالأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله في ذلك العمل، فأما ما فاز به مَنْ شاهد النبي ﷺ من زيادة فضيلة المشاهدة، فلا يعدله فيها أحد، فبهذه

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث أبي جمعة حبيب سباع، رقم (١٧٠١٧). وصحَّحه الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: أن الإسلام بدأ غريبًا، (٢/ ٦٥٦)، رقم (٣٦٥).

الطريق يمكن تأويل الأحاديث المتقدمة"[1].

ويؤكد ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في شرحه حديث "بدأ الإسلام غريبًا" يقول: إنه ـ أي الإسلام ـ في أمكنة وأزمنة يعود غريبًا بينهم، ثم يظهر كما كان في أول الأمر غريبًا ثم ظهر، ولهذا قال: "سيعود غريبًا كما بدأ"، وهو لما بدأ كان غريبًا لا يُعْرَف، ثم ظهر وعُرِف، فكذلك يعود حتى لا يعرف، ثم يظهر ويعرف، فيقل من يعرفه في أثناء الأمر كما قلَّ من يعرفه أولًا، ويحتمل أنه في آخر الدنيا لا يَبْقَى مسلمًا إلا قليلٌ، وهذا إنما يكون بعد الدَّجَّال ويأجوج ومأجوج عند قرب الساعة، وحينئذ يبعث الله ريحًا تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة ثمَّ تقوم الساعة، وأما قبل ذلك فقد قال ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة"[2]، وهذا الحديث في الصحيحين ومثله من عدة أوجه، فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا تزال طائفة ممتنعة من أمته على الحق أَعِزَّاء لا يضرهم المخالف، ولا خلاف الخاذل، فأما بقاء الإسلام غريبًا ذليلًا في الأرض كلها قبل الساعة فلا يكون هذا، وقوله ﷺ: "ثم يعود غريبًا كما بدأ" أعظم[3].

وقد ذهب ابن القيم رحمه الله إلى أن هذه الغربة لا تعني الوحشة، ولكنها تعني العزة والكرامة، فيقول: "الغربة ثلاثة أنواع: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق، وهي الغربة التي مدح رسول الله ﷺ أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، وأن أهله يصيرون غرباء، وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم، ولكن أهل هذه الغربة هم أهل الله حقًّا، فإنهم لم يأووا إلى غير الله، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به، وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم، فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بَقَوا في مكانهم، فيُقَال لهم: ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس، ونحن أحوج إليهم منا اليوم، وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده.

فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها، بل هو آنسُ ما يكون إذا استوحش الناس، وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا؛ فَوَلِيُّهُ الله ورسوله ﷺ والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه"[4].

وبهذا يتبين مما سبق أن هذه الأحاديث لا تعارض بينها ألبتة، ولكن يوضح بعضها بعضًا، والخير موجود في الأمة إلى قيام الساعة رغم أنف المخالفين والمعاندين.

ثانيًا. دلالة الشرع على أن المستقبل للإسلام والانتصار له:

لقد بشَّرنا الله ﷻ بأن المستقبل للإسلام، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ

---

١. فتح الباري بشرح فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، (٧/ ٨، ٩).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المناقب، (٦/ ٧٣١)، باب: رقم (٢٨)، رقم (٣٦٤١). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق..."، (٧/ ٢٩٩٢)، رقم (٤٨٧٢).

٣. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، (١٨/ ٢٩٢: ٢٩٦).

٤. مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، (٣/ ٢٠٥، ٢٠٦).

﴿كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ (الصف)، فالآية تبشرنا بأن المستقبل للإسلام؛ لسيطرته وظهوره، وحكمه على الأديان كلها وهيمنته عليها، وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقق في عهده ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين، وليس كذلك، فالذي تحقق إنما هو جزء من هذا الوعد الصادق، وقد وردت أحاديث توضح مبلغ ظهور الإسلام ومدى انتشاره بحيث لا يدع مجالًا للشك في أن المستقبل للإسلام بإذن الله وتوفيقه، وها نحن نسوق ما تيسَّر من هذه الأحاديث عسى أن تكون سببًا لشَحْذ العاملين للإسلام، وحجة على اليائسين المتواكلين. قال ﷺ: "إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها"[١]، وقال ﷺ: "ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعزِّ عزيز، أو بذلِّ ذليل، عزًّا يعز به الله الإسلام، وذلًّا يذل به الكفر"[٢]، وقال النبي ﷺ: "تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًّا، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت"[٣].

ومن البعيد حمل الحديث على عمر بن عبد العزيز؛ لأن خلافته كانت قريبة العهد بالخلافة الراشدة، ولم تكن بعد مُلْكَين؛ ملك عاض، وملك جبري[٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية تعليقًا على حديث "بدأ الإسلام غريبًا...": "إن هذا الحديث لا يقتضي أنه إذا صار المسلم غريبًا أن المتمسِّك يكون في شر، بل هو أسعد الناس، كما قال في تمام الحديث: "فطوبى للغرباء"، وطوبى من الطيب، قال تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ۝٢٩﴾ (الرعد)، فإنه يكون من جنس السابقين الأولين الذين اتبعوه لما كان غريبًا وهم أسعد الناس"[٥].

وقد علَّق الشيخ الألباني على الأحاديث التي تدل على غلبة الإسلام في آخر الزمان بعد ذكره حديث: "لا يأتي زمان..." قائلًا: فهذا الحديث ينبغي أن يُفهم في ضوء الأحاديث التي تدل على أن الغلبة للإسلام مثل أحاديث المهدي، ونزول عيسى ، فإنها تدل على أن هذا الحديث ليس على عمومه، بل هو من العام المخصوص، فلا يجوز إفهام الناس أنه على عمومه فيقعوا في اليأس الذي لا يصح أن يتَّصف به المؤمن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، (٩/ ٢٩٩١)، رقم (٧١٢٥).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث تميم الداري، رقم (١٦٩٩٨). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٣. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ، رقم (١٨٤٣٠). وحسَّنه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٤. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، مرجع سابق، (١/ ٦: ٩) بتصرف.

٥. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، (١٨/ ٢٩٢).

﴿ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (يوسف)[1].

وقال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: إن حديث "بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء"[2] لا يُفهم منه أن الإسلام سينكمش ويضعف، وأن على من يسمع هذا الحديث أن يهادن الإثم، ويداهن الجائرين، ويستكين للأفول الذي لا محيص عنه! وإيراد الحديث وفهمه على هذا النحو مرض شائع قديم. ولو سرت جرثومة هذا المرض إلى صلاح الدين الأيوبي ما فكر في استرداد بيت المقدس من الصليبيين القدامى! ولو سرت جرثومة هذا المرض إلى سيف الدين قطز ما نهض إلى دحر التتار في "عين جالوت"! ولو سرت جرثومة هذا المرض إلى زعماء الفكر الإسلامي في عصرنا الحاضر ابتداء من جمال الدين الأفغاني إلى الشهداء والأحياء من حملة اللواء السامق ما فكروا أن يخطوا حرفًا أو يكتبوا سطرًا!

وقلت في نفسي: أيكون الإسلام غريبًا وأتباعه الذين ينتسبون إليه يبلغون وفق الإحصاءات الأخيرة ثمانمائة مليون نفس[3]؟!

يا للخذلان والعار!

الواقع أن هذا الحديث وأشباهه يشير إلى الأزمات التي سوف يواجهها الحق في مسيرته الطويلة، فإن الباطل لن تلين بسهولة قناته، بل ربما وصل في جرأته على الإيمان أن يقتحم حدوده ويهدد حقيقته، ويحاول الإجهاز عليه!

وعندما تنجلي الظلماء عن رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ويقاومون الضلال بجلد، ولا يستوحشون من جو الفتنة الذي يعيشون فيه، ولا يتخاذلون للغربة الروحية والفكرية التي يعانونها، ولا يزالون يؤدون ما عليهم لله حتى تنقشع الغمة، ويخرج الإسلام من محنته مكتمل الصفحة، بل لعله يستأنف زحفه الطهور فيضم إلى أرضه أرضًا، وإلى رجاله رجالًا.

وذلك ما وقع خلال أَعْصَار مضت، وذلك ما سيقع خلال أعصار تجيء، وهذا ما ينطق به حديث الغربة الآنف، فقد جاء في بعض رواياته: "طوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي"، فليست الغربة موقفًا سلبيًا عاجزًا، إنها جهاد قائم دائم حتى تتغير الظروف الرديئة ويلقى الدين حظوظًا أفضل.

وليس الغرباء هم التافهون من مسلمي زماننا، بل هم الرجال الذين رفضوا الهزائم النازلة، وتوكلوا على الله في مدافعتها حتى تلاشت[4]!

وبناء على هذا لا داعي لليأس؛ لأن النبي ﷺ القائلُ حديث: "لا يأتي زمان إلا والذي بعده أشر منه" هو نفسه الذي قال حديث: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"[5].

---

١. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، مرجع سابق، (١/ ١٠) بتصرف.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريبًا، (٢/ ٥٦٥)، رقم (٣٦٥).

٣. هذا في وقت كتابة المؤلف للكتاب، أما الآن فعدد المسلمين ينيف على المليار مسلم في دول العالم.

٤. قذائف الحق، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٢٥٧، ٢٥٨ بتصرف.

٥. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: الملاحم، باب: ما يذكر في قرن المائة، (١١/ ٢٥٩)، رقم (٤٢٨٢). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٤٢٩١).

فأخبر النبي ﷺ أن الأمة يتجدد لها الدين على رأس كل مائة سنة، وتتحسن الأمور والأوضاع والأحوال، لكن في الإجمال لا شك أن الأمة تسير في طريق تنازلي إجمالًا.

لكن قد يكون في الأمة زمن أحسن مما قبله كما هو الحال بالنسبة لعصور المجاهدين - مثلًا - الإمام محمد بن عبد الوهاب الذي جاء إلى بلاد نجد وهم يعبدون الأصنام والأوثان، وبينهم من الحروب والتطاحن ما هو معروف في تاريخ نجد، فدعاهم وجمعهم على كلمة الإخلاص، ووحَّد الله تعالى قلوبهم به بعدما وحَّد عقائدهم، ووفقه الله تعالى لأن يقيم دعوة راسخة قوية صلبة على مر العصور.

إذًا ليس الأمر مطردًا، وعلى هذه الصورة يحمل حديث: "أمتي كالمطر لا يُدْرَى أوله خير أم آخره"[1]، والمقصود أن آخر الأمة أقل في الخير والقوة حتى لا يلتبس على الناس أهو خير أم أوله، وإلا ففضل الأولين مشهود لا يشك فيه أحد، فالذي قال هذا هو الذي قال ذاك، فلماذا تؤخذ الأحاديث التي فيها يأس، وتترك الأحاديث التي فيها الأمل[2]؟!

وعليه، فهذا الحديث ينبغي أن يُفهم في ضوء الأحاديث التي تدل على أن الغلبة للإسلام، كأحاديث المهدي، ونزول عيسى ﷺ، فإنها تدل على أن هذا الحديث ليس على عمومه، بل هو من العام المخصوص، فلا يجوز إفهام الناس أنه على عمومه؛ فيقعوا في اليأس الذي لا يصح أن يتصف به المؤمن، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (يوسف)"[3].

وأما قولهم: إن حديث "لا يأتي زمان إلا والذي بعده أشر منه" فيه دعوة للسكوت عن الظلم وردِّه، نقول ردًّا عليهم:

قال الشيخ الغزالي رحمه الله تعليقًا على هذا الحديث: والواقع أن أنسًا ﷺ كان يقصد بحديثه منع الخروج المسلح على الدولة بالطريقة التي شاعت في عهده، ومن بعده، فمزقت شمل الأمة، وألحقت بأهله خسائر جسيمة، ولم تنل بأي أذىً يُذكر.

وأنس بن مالك - راوي الحديث - أشرف دينًا من أن يمالئ الحجاج أو يقبل مظالمه، ولكنه أرحم بالأمة من أن يزج بأتقيائها وشجعانها في مغامرات فردية تأتي عليهم، ويبقى الحجاج بعدها راسخًا مكينًا!

وتصبيره الناس حتى يلقوا ربهم - أي حتى ينتهوا هم - لا يعني أن الظلم سوف يبقى إلى قيام الساعة، وأن الاستكانة الظالمة سنة ماضية إلى الأبد.

إن هذا الظاهر باطل يقينًا، والقضية المحددة التي أفتى بها أنس ﷺ لا يجوز أن تتحول إلى مبدأ قانوني يحكم الأجيال كلها[4].

وقد بيَّن الشيخ القرضاوي مفهومه على النحو الآتي:

أولًا: أن القائل: "اصبروا" هو أنس ﷺ، فليس هو

---

١. حسن صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: الأمثال، باب: رقم (٦)، (٨/ ١٣٨)، رقم (٣٠٣٠). وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٨٦٩): حديث حسن صحيح.

٢. "بين اليأس والأمل"، سلمان فهد العودة، مقال بموقع. www.Islamweb.net

٣. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، مرجع سابق، (١/ ١٠).

٤. قذائف الحق، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٢٥٧ بتصرف.

من الحديث المرفوع، وإنما استنبطه منه، وكل واحد يؤخذ من كلامه ويترك عدا المعصوم ﷺ.

ثانيًا: أن أنسًا لم يأمرهم بالرضا بالظلم والفساد، وإنما أمرهم بالصبر، وفرق كبير بين الأمرين، فإن الرضا بالكفر كفر، وبالمنكر منكر، أما الصبر، فقلما يستغني عنه أحد، وقد يصبر المرء على الشيء وهو كاره له، ساعٍ في تغييره.

ثالثًا: أن من لا يملك القدرة على مقاومة الظلم والجبروت ليس له إلا أن يعتصم بالصبر والأناة، مجتهدًا أن يُعدَّ العُدَّة، ويتَّخذ الأسباب، معتضدًا بكل من يحمل فكرته، منتهزًا الفرصة المواتية ليواجه قوة الباطل بقوة الحق، وأنصار الظلم بأنصار العدل.

وقد صبر النبي ﷺ ثلاثة عشر عامًا في مكة على الأصنام وعبَّادها، فكان يصلي في المسجد الحرام، ويطوف بالكعبة وفيها وحولها ثلاثمائة وستون صنمًا، بل طاف بالبيت في السنة السابعة من الهجرة مع أصحابه في عمرة القضاء، وهو يراها لا يمسّها حتى أتى الوقت المناسب يوم الفتح الأعظم؛ ففتح مكة وحطَّمها.

ولهذا قرر علماؤنا أن إزالة المنكر إذا ترتب عليها منكر أكبر منه وجب السكوت عنه حتى تتغير الأحوال.

وعلى هذا ينبغي ألا يفهم من الوصية بالصبر الاستسلام المطلق للظلم والطغيان، بل الانتظار والترقُّب حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين.

رابعًا: أن الصبر لا يمنع من قول كلمة الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمام الطغاة المتألهين، وإن لم تكن واجبة على من يخاف على نفسه أو أهله أو من حوله، فقد جاء في الحديث: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"[1]، وجاء أيضًا: "سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله"[2][3].

من خلال ما سبق يتبين أن الأحاديث يجب أن يُجمع بينها لتكون هناك نظرة عامة وسطى متكاملة في أي قضية من القضايا ـ وهذا ليس تكلفًا، إنما هو متحقق ـ وعلى هذا يكون الحديث الوارد بشأن وقوع الشر في الأمة مخصوصًا وليس عامًّا، وذلك بما جاء بشأن الغلبة للإسلام وتمكنه في آخر الزمان حتى لا يقع الناس في اليأس والإحباط من التغيير؛ استنادًا على ما ورد بأنهم أفضل ممن سيأتي بعدهم.

الخلاصة:

- إن الأحاديث الواردة في خيرية زمان الأمة أوَّله وآخره، والتي نفى الطاعنون صحتها نتيجة فهمهم الخاطئ لما ترمي إليه ـ أحاديث صحيحة؛ لأن هذه الأحاديث رويت في أصح كتب السنة، كصحيحي البخاري ومسلم، وكتب السنن والمسانيد والمصنفات، وصحَّحها علماء الأمة قديمًا وحديثًا.
- لا شك أن قرن صحابة رسول الله ﷺ الكرام هو أفضل القرون على الإطلاق؛ لورود الأحاديث

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث طارق بن شهاب، (١٨٨٥٠). وصححه الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٢. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب: معرفة الصحابة، باب: ذكر إسلام حمزة ﷺ، (٤٨٨٤). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٧٤).

٣. انظر: كيف نتعامل مع السنة، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص١٠٥، ١٠٦.

الصحيحة التي تدل على ذلك؛ ولكونهم ﷺ صاحبوا النبي ﷺ، وجاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم، ففضيلة الصحبة لا يقارنها شيء، وليس معنى ذلك نزع الخيرية من الأمة مطلقًا؛ فالتفضيل لا يعني نزع الخيرية من الباقين؛ لأنهما اشتركا في صفة واحدة، وإن زاد بعضها على الآخر.

- إن الشر المذكور في حديث: "لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه" ليس على عمومه وإطلاقه؛ لأنه من قبيل العام المخصوص، كما أشار إلى ذلك الشيخ الألباني؛ لأن الله ﷻ قيّض لهذه الأمة من يجدِّد لها دينها، ويردها إلى الصواب.

- إن الخيرية موجودة في هذه الأمة إلى أن تقوم الساعة؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٠) ولقوله ﷺ: "فطوبى للغرباء"، وقوله ﷺ: "أمتي كالمطر لا يُدرى أوله خير أو آخره"، وهذا يدل على أن الخير في الأمة إلى قيام الساعة، طالما أن هناك أمرًا بمعروف، ونهيًا عن منكر، فغربة الإسلام في آخر الزمان كغربته في أول دعوته، وهذا يذكِّر بأن الخير موجود، وإن كان الصحابة الكرام أقل عددًا من غيرهم.

- لقد دلَّت أحاديث كثيرة على أن المستقبل للإسلام، كقوله ﷺ: "ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار..."، وقوله ﷺ أيضًا: "تكون النبوة ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله..."، وغيرها من الأحاديث الأخرى، كأحاديث المهدي المنتظر ونزول المسيح عيسى عليه السلام.

- لا داعي لليأس والإحباط؛ لأن الأمة كم مرَّت بفترات ركود واضمحلال، ثم بعث الله فيها مَن يُجدِّد لها أمر دينها؛ فقامت مِن غفلتها، والتاريخ خير شاهد على ذلك.

- لقد دعا الدين الإسلامي إلى ضرورة الوقوف في وجه الطغاة والظالمين، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (هود: ١١٣)، وقال ﷺ: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"، فليس معنى الصبر في الحديث الخضوع والاستسلام، ولكن معناه الترقب والانتظار لفرج الله ﷻ.

الشبهة السادسة عشرة

دعوى تعارض حديث "لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد" مع القرآن والواقع (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض الطاعنين أن هناك تعارضًا بين حديث النبي ﷺ: "أرأيتم ليلتكم هذه؟ فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد" وبين القرآن الكريم؛ مستدلين على ذلك بأن الحديث قد ذكر علم النبي ﷺ بما سيحدث بعد مائة عام، وهذا يتناقض مع قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ (الأعراف: ١٨٨) كما أنهم يزعمون

(*) السنة المطهَّرة، د. سيد أحمد رمضان المسير، مكتبة الإيمان، القاهرة، ط٣، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، دار السلام، القاهرة، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

أن هذا الحديث مخالف للحوادث التاريخية والحس والمشاهدة؛ إذ لم تنته الدنيا كما جاء في الحديث، وإنما ظلت الحياة مستمرة.

رامين من وراء ذلك إلى إسقاط هذا الحديث الصحيح.

وجها إبطال الشبهة:

١) لا يوجد تعارض بين حديث رأس المائة المذكور وبين القرآن، فإخبار النبي ﷺ عن بعض الغيبيات والأمور التي سوف تحدث، لا يعني أنه ﷺ يعلم الغيب كله، وإنما يطلعه الله على بعض غيبه ليؤيد رسالته، وليكون ذلك معجزة له، ودلالة على صدق نبوته؛ فقال تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الجن).

٢) هذا الحديث لا يخالف الواقع في شيء، فليس المراد منه أن تنتهي الحياة بعد مائة سنة، وإنما المراد أنه عند انقضاء مائة سنة من مقالته تلك ينقضي ذلك القرن، فلا يبقى أحد ممن كان موجودًا حال تلك المقالة، وهذا ما وقع بالفعل، فكان معجزة من معجزات نبينا الكريم ﷺ.

التفصيل:

أولا. لا تعارض بين الحديث وبين القرآن في مسألة علم النبي ﷺ الغيب:

لا يوجد تعارض بين حديث رأس المائة وبين القرآن فيما يخص علم النبي ﷺ الغيب، فالحديث ذكر علم رسول الله ﷺ بما سيحدث بعد مائة عام؛ فقال ﷺ "أرأيتم ليلتكم هذه، فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد"[1]، وهذا لا يتعارض مع القرآن؛ فقد قال تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الجن)، فالغيب هو ما غاب عن العباد، وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (الجن: ٢٧) استثناء لمن ارتضى من رسول، فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه؛ لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض الغيبيات.

قال القرطبي: "والمعنى؛ أي: لا يظهر على غيبه إلا من ارتضى؛ أي: اصطفى للنبوة، فإنه يطلعه على ما يشاء من غيبه؛ ليكون ذلك دالًّا على نبوته، قال العلماء رحمة الله عليهم: لما تمدَّح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه؛ كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحدٌ سواه، ثم استثنى مَنْ ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم، وليس المنجِّم ومَنْ ضاهاه ممن يضرب بالحصى، وينظر في الكتب، ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه، بل هو كافر بالله مفترٍ عليه بحدسه وتخمينه وكذبه... وفي قوله ﷻ: ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الجن) يعني: ملائكة يحفظون الرسول عن أن يقرب منه شيطان، فيحفظ الوحي من استراق الشياطين، والإلقاء إلى الكهنة.

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: ذكر العشاء والعتمة ومن رآه واسعًا، (٢/ ٥٣)، رقم (٥٦٤). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: قوله ﷺ: "لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم"، (٩/ ٣٦٦٣)، رقم (٦٣٦١).

قال الضحاك: ما بعث الله نبيًّا إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين عن أن يتشبهوا بصورة المَلَك... وقال ابن عباس وابن زيد: ﴿رَصَدًا﴾ أي: حفظة يحفظون النبي ﷺ من أمامه وورائه من الجن والشياطين"[1].

ويقول الإمام البغوي في تفسيره: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ إلا من يصطفيه لرسالته، فيظهره على ما يشاء من الغيب؛ لأنه يستدل على نبوته بالآية المعجزة بأن يخبر عن الغيب"[2].

ويؤكد الألوسي أيضًا هذا المعنى في تفسيره، فيقول: "لكن الرسول المرتضى يظهره جلَّ وعلا على بعض الغيوب المتعلقة برسالته، كما يُعْرب عنه بيان من ارتضى بالرسول تعلقًا ما؛ إما لكونه من مبادئها بأن يكون معجزة، وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعامة التكاليف الشرعية، وكيفيات الأعمال، ونحو ذلك من الأمور الغيبية"[3].

ومن هذا التصريح القرآني وأقوال المفسرين في هذه الآية يتبيَّن أن إخبار النبي ﷺ في الحديث الشريف عمَّا سيحدث بعد مائة عام، لا غرابة فيه ولا استحالة؛ إذ الرسول ﷺ مؤيد بالمعجزات، ومنها اطلاعه على الغيب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، فالله تبارك وتعالى يطلعه على الغيب، فيتلقى الوحي ممن وسع كرسيه السماوات والأرض، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم[4].

أما قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ (الأعراف: ١٨٨)، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ (٦٥)﴾ (النمل) فلا إشكال فيه؛ لأن النبي ﷺ لا يعلم الغيب "المستقبل"، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا (٢٧)﴾[5]، فالنبي ﷺ لا يعلم الغيب كله كما بينا، ولكن قد يطلعه الله على بعض الغيبيات بما يؤيد رسالته فقط، وليكون معجزة له ودلالة على نبوته، كما ذكرنا آنفًا.

أما بقية الأمور الغيبية فلم يطلعه الله عليها، وهذا ما جاء في قوله ﷻ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ (٦٥)﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ (الأعراف: ١٨٨) وهاتان الآيتان لا تتعارضان مع حديث "رأس المائة" في شيء؛ لأن النبي ﷺ لا يعلم الغيب كله كما بيَّنا؛ ولكن قد أطلعه الله ﷻ على بعض الغيبيات بما يؤيد رسالته فقط، أما بقية الأمور الغيبية فلم يطلعه الله عليها كما بينت الآيات، يقول الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (١٩/ ٢٨، ٢٩).

٢. معالم التنزيل، البغوي، مرجع سابق، (٨/ ٤٤).

٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت، (٢٩/ ٩٦).

٤. السنة المطهرة، د. سيد أحمد المسيّر، مرجع سابق، ص٢٦، ٢٧.

٥. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، (٢/ ٢٧٣).

﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ (الأنعام: ٥٠): "إن الغيب قسمان: حقيقي لا يعلمه إلا الله تعالى، وإضافي يعلمه بعض الخلق دون بعض، وأن هذه الآية تنفي قدرة الرسول على التصرف في خلق الله تعالى بما هو فوق كسب البشر، وتنفي عنه علم الغيب بهذا المعنى، إلا ما أعلمه الله تعالى به بوحيه لتعلقه بوظيفة الرسالة كالملائكة والحساب والثواب والعقاب، وأن ما يطلع الله عليه الرسل من ذلك لا يكون من علمهم الكسبي، بل يدخل في معنى الإجماع على أن النبوة غير مكتسبة"[1].

فدلَّت هذه الآيات على أن هناك من الغيبيات ما لا يطَّلِعُ عليه أحد قط إلا الله وحده، وأن هناك بعض الغيبيات يُطْلِع الله عليها رسله؛ فإذا كان المولى تبارك وتعالى يطلع من يشاء من رسله على بعض الغيبيات فهذا لا يعني أنه يطلعه على الغيب كله، ولهذا فإن علم النبي ﷺ بما أخبر به في الحديث لا يتناقض مع ما أخبر به القرآن من عدم معرفة أحد من البشر الغيب كله®.

ثانيًا. شهادة الواقع صحة حديث "رأس المائة"؛ إذ كل من كان حيًّا وقت مقولة النبي ﷺ هذه قد مات قبل انقضاء مائة سنة:

لقد ظن هؤلاء الطاعنون أن هذا الحديث يخالف الواقع حين فهموا أن قوله ﷺ "فإن رأس مائة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد" يعني: أن الساعة تقوم بعد مائة سنة، فقالوا: إن ذلك لم يحدث، وإنما ظلت الحياة مستمرة، وكثر الناس عن ذي قبل. لكنَّ هذا فهم خاطئ للحديث لم يقل به إلا أمثال هؤلاء المغرضين الذين يريدون تشكيك المسلمين في دينهم، وصحة حديث نبيهم.

لكن المعنى الصحيح للحديث - والذي قصده ﷺ، وأجمع عليه الصحابة وشُرَّاح الأحاديث غير ذلك - هو أن بعد مائة سنة من هذا اليوم لا يبقى على ظهر الأرض أحد ممن هو حيٌّ اليوم؛ فقد قال ابن عمر بعد روايته هذا الحديث: "فوَهِل[2] الناس مِنْ مقالة رسول الله ﷺ إلى ما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة، وإنما قال النبي ﷺ: "لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض" يريد بذلك أنها تَخرِمُ ذلك القرن"[3].

يقول ابن حجر: "وقد بيَّن ابن عمر في هذا الحديث مراد النبي ﷺ، وأن مراده أن عند انقضاء مائة سنة من مقالته تلك ينخرم ذلك القرن، فلا يبقى أحد ممن كان موجودًا حال تلك المقالة"[4].

ويقول الإمام النووي: "هذه الأحاديث قد فسر بعضها بعضًا، وفيها علم من أعلام النبوة، والمراد: أن كل نفس منفوسة كانت تلك الليلة على الأرض لا تعيش بعدها أكثر من مائة سنة، سواء قلَّ أمرها قبل ذلك أم لا، وليس فيه نفي عيش أحد يوجد بعد تلك

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، (٩/ ٥١٣).

® في **"السنة مصدر أصيل في معرفة الغيب لكونها وحيًا"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الأولى، من الجزء الثامن (الإلهيات). وفي **"إخبار النبي ببعض الغيبيات هو من باب ما علمه الله تعالى له"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة عشرة، من هذا الجزء.

٢. وَهِل: غلط أو توهَّم.

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: السَّمَر في الفقه والخير بعد العشاء، (٢/ ٨٨)، رقم (٦٠١).

٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، (٢/ ٨٩).

الليلة فوق مائة سنة، ومعنى نفس منفوسة؛ أي: مولودة... وقوله: "ينخرم ذلك القرن"؛ أي: ينقطع وينقضي"[١].

فعندما قال الرسول ﷺ هذا الحديث لم يفطن بعض الصحابة إلى تقييد الرسول بمن هو على ظهرها اليوم، فظنوه على إطلاقه وأن الدنيا تنتهي بعد مائة سنة، فنبههم ابن عمر رضي الله عنه إلى القيد في لفظ الرسول ﷺ، وبيَّن لهم المراد منه، والقيد هو: لا يبقى ممن هو "اليوم" على ظهر الأرض، يريد بذلك أنها تخرم ذلك القرن.

"قال ابن بطال: إنما أراد رسول الله ﷺ أن هذه المدة تخترم الجيل الذي هم فيه، فوعظهم بقصر أعمارهم، وأعلمهم أن أعمارهم ليست كأعمار من تقدَّم من الأمم ليجتهدوا في العبادة"[٢].

وقد أشار إلى ذلك ابن حجر في "فتح الباري" بقوله: "إن قوله ﷺ "أرأيتكم ليلتكم هذه؟ فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها الآن أحد"، المراد انقراض ذلك القرن، وأن من كان في زمن النبي ﷺ إذا مضت مائة سنة من وقت تلك المقالة لا يبقى منهم أحد، ووقع الأمر كذلك"[٣].

فتبيَّن من ذلك أن النبي ﷺ قد أخبر بأن كل من هو حيٌّ الآن على وجه الأرض لا يعيش أكثر من مائة عام، ولم يقل بأن الساعة سوف تقوم بعد مائة عام. فهل تحقق ما قاله النبي ﷺ؟ وهل شهد التاريخ بصدق ما قاله النبي ﷺ ؟!

نعم، لقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ بالفعل؛ فقد أجمع أهل الحديث والعلم بالرجال على أن آخر من مات ممن كان موجودًا حينئذ هو: أبو الطفيل عامر بن واثلة، وقد تُوفي عند رأس مائة سنة من مقالة النبي ﷺ.

يقول ابن حجر في بيان صحة وقوع الأمر كما قال النبي ﷺ: "ووقوع الأمر كذلك، فإن آخر من بقي ممن رأى النبي ﷺ أبو الطفيل عامر بن واثلة، كما جزم به مسلم وغيره، وكانت وفاته سنة عشر ومائة من الهجرة وذلك عند رأس مائة سنة من وقت تلك المقالة، وقيل كانت وفاته قبل ذلك، فإن كان كذلك فيحتمل أن يكون تأخر بعده بعض من أدرك ذلك الزمان وإن لم يثبت أنه رأى النبي ﷺ"[٤].

وقال عنه الذهبي في السير: أبو الطفيل خاتم من رأى رسول الله ﷺ في الدنيا، واستمر الحال على ذلك في عصر التابعين وتابعيهم وهلمَّ جرا، لا يقول آدمي: إنني رأيت رسول الله ﷺ... وقال الإمام البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا مبارك، عن كثير بن أعين قال: أخبرني أبو الطفيل: بمكة سنة سبع ومائة، وقال وهب بن جرير: سمعت أبي يقول: كنت بمكة سنة عشر ومائة فرأيت جنازة، فسألت عنها، فقالوا: هذا أبو الطفيل. ثم يعلق الذهبي قائلًا: هذا هو الصحيح من وفاته لثبوته[٥].

ومن ذلك فإن هذا الحديث يُعدُّ معجزة من معجزات النبي ﷺ، وعلامة من علامات النبوة تبيِّن أن

---

١. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٣٦٦٥).
٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١/ ٢٥٦).
٣. المرجع السابق، (١١/ ٣٧١).
٤. السابق، (١١/ ٣٧١).
٥. سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، (٣/ ٤٧٠) بتصرف.

ما قاله وحيٌ من عند الله تعالى. وقد وافق قوله الواقع، وشهد التاريخ بصدق ما قاله، فأين التعارض المزعوم بعد هذا كله®؟!

الخلاصة:

- لا يوجد تعارض بين حديث رأس المائة وبين القرآن، فحديث النبي ﷺ عن بعض الغيبيات، لا يعني أنه يعلم الغيب كله، فلمَّا تمدَّح المولى سبحانه وتعالى - في آيات القرآن الكريم - بعلم الغيب، واستأثر به دون خلقه، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ۝٢٧﴾ (الجن)، فلما أعلم رسوله ﷺ بما قاله دل ذلك على أنه ﷺ أطلعه على بعض غيبه.
- الحديث لا يتعارض مع قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ (الأعراف: ١٨٨) ولا يتعارض أيضًا مع قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (النمل: ٦٥)؛ وذلك لأن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب كله، ولكن المولى تبارك وتعالى يطلعه على ما يشاء من غيبه؛ ليؤيد رسالته؛ وليكون دلالة على صدق نبوته، فإذا كان المولى يطلع من يشاء على غيبه، وهذا ما جاء في الحديث والقرآن الكريم، فلا تعارض بينهما.
- إن الحديث لا يخالف الواقع في شيء كما يتوهمون، فقد أخطئوا في فهم المراد من الحديث؛ إذ ليس المراد من الحديث أن الدنيا تنتهي بعد مائة سنة، وإنما المراد أنه عند انقضاء مائة سنة من مقالته ﷺ هذه، لا يبقى أحد ممن كان موجودًا من الأحياء حال تلك المقالة، وهذا ما وقع بالفعل، فقد أجمع أهل الحديث والسير على أن آخر من تُوفِّي ممن كان موجودًا حينئذ هو أبو الطفيل عامر بن واثلة، وقد مات عند رأس مائة سنة من مقالة النبي ﷺ، وهذه معجزة من معجزات نبينا الكريم ﷺ، فأين مخالفة الحديث الواقع الذي يدعون ؟!

***

الشبهة السابعة عشرة

إنكار حديث "تجديد أمر الدين كل مائة سنة" (*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغرضين من أعداء السنة صحة حديث: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَنْ يجدد لها دينها" ويدَّعون أنه يخالف العقل والقرآن، ويثير الإحباط. مستدلين على ذلك بأن الدين الإسلامي لا يُجدَّد؛ فالدين ثابت لا يتغير، وليست مهمة الدين أن يلائم التطور، كما أنه لو تم التجديد في الدين لأصبح من الواجب علينا في كل عصر أن نخرج منهجًا جديدًا لمبادئ وتعاليم الدين؛ ليساير حاجات

® في "معنى حديث: "لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة.." طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء الخامس (الأئمة والرواة).

(*) كيف نتعامل مع السنة النبوية، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق. في نقد الحاجة إلى الإصلاح، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥م.

الناس ومصالحهم ومواكبة التطور، وهذا يعد قلبًا للحقائق.

هادفين من وراء ذلك إلى إنكار كلام النبي ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن حديث: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"حديث صحيح لا مجال للطعن فيه، والصحة ثابتة سندًا ومتنًا، وهناك ما يعضده من الشواهد الأخر؛ فالسند صحيح، رجاله ثقات، والمتن يبعث الأمل في نفوس الأمة بأن جذوتها لن تخبو، وأن دينها لن يموت، وأن الله يقيض لها كل فترة زمنية من يجدِّد لها شبابها.

٢) إن الدين ثابت لا يتغير ولا تتبدل أحكامه، إنما التجديد فيما خفي واندرس من معالمه، فيكون إظهار معالمه على يد عالم مجدد؛ لأن شريعتنا الخالدة قادرة على مواجهة التطور، ومعالجة قضايا عصرنا، وقيادة ركب الحياة؛ إذ إن الشريعة لا تضيق بجديد، ولا تقف عاجزة أمام مشكلة بل عندها لكل مشكلة حل، ولكل داء دواء.

التفصيل:

أولا. صحة الحديث سندًا ومتنًا ينفي الشبهة:

إن الحديث النبوي الوارد في تجديد أمر الدين كل مائة سنة حديث صحيح ثابت عن النبي ﷺ في كثير من كتب الرواية، وقد اتفق على صحته ـ سندًا ومتنًا ـ عدد ليس بقليل من العلماء والأئمة.

فقد أخرجه أبو داود في سننه قال: حدثنا سليمان بن داود المهري، أخبرنا ابن وهب أخبرني سعيد بن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد المعافري عن أبي علقمة عن أبي هريرة ـ فيما أعلم ـ عن الرسول ﷺ قال: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"[1].

وقد ذكر الإمام الألباني روايات هذا الحديث عند تصحيحه له، فقال: "أخرجه أبو داود برقم (٤٢٩١)، وأبو عمرو الداني في "الفتن" (٤٥/ ١)، والحاكم (٤/ ٥٢٢)، والبيهقي في "معرفة السنن والآثار" ص٥٢، والخطيب في "التاريخ" (٢/ ٦١)، والهروي في "ذم الكلام" (ق١١١/ ٢) من طرق عن ابن وهب... والسند صحيح، رجاله ثقات رجال مسلم"[2].

هذا عن تخريج الحديث في كتب السنن، كما أن رجال الحديث وثَّقهم أئمة الجرح والتعديل في كتبهم وأثنوا عليهم خيرًا، وهم ثقات أثبات يُعتدُّ بحديثهم، ومن ثم فلا بأس بهم، وهم رجال مسلم.

فالحديث صحيح اعتمده من العلماء الإمام محمد بن شهاب الزهري، وسفيان بن عيينة، وأحمد بن حنبل، والحاكم، والبيهقي، والنووي، وابن كثير، والذهبي، وابن السبكي، والعراقي، وابن الأثير، وابن حجر، والسيوطي، والمناوي، والسخاوي وغيرهم[3]. فإسناده صحيح صححه كثير من العلماء الأفذاذ منهم العراقي

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: الملاحم، باب: ما يذكر في قرن المائة، (١١/ ٢٥٩)، رقم (٤٢٨٢). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٤٢٩١).

٢. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، مرجع سابق، (٢/ ١٥٠).

٣. حديث: "إن الله يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها" رواية ودراية، د. عبد العزيز مختار إبراهيم، مقال منشور بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، السنة (٢٢)، العدد ٦٨، صفر ١٤٢٨هـ/ مارس ٢٠٠٧م، ص٢٦ بتصرف.

في تخريج "الإحياء"، والسخاوي في "المقاصد الحسنة"، والسيوطي في "الجامع الصغير"، وغيرهم من العلماء مثل علي القاري في "مرقاة المصابيح"، والعجلوني في "كشف الخفاء"، وعبد القادر الأرنؤوط في "جامع الأصول"، وشعيب الأرنؤوط في حاشيته على "سير أعلام النبلاء" للذهبي، والألباني في "السلسلة الصحيحة" برقم (٥٩٩)، و"صحيح الجامع" برقم (١٨٧٤)، و"المشكاة" برقم (٢٣٨)[١].

فأنَّى لحديث هذا سنده أن يُطعن فيه أو يُنكر؟!

فما علينا تجاه هذا إلا التصديق والإيمان والتسليم بما قاله النبي ﷺ حتى لو خالف ظاهره العقل ـ وهذا لن يحدث ـ لأن ما جاء به النقل الصحيح لا يخالف العقل السليم أبدًا.

وبعد أن أثبتنا صحة الحديث سندًا بقي أن نثبته متنًا، وإذا كان هذا سند الحديث فلا ريب في أن يكون متنه صحيحًا لا نكارة فيه، ولا مجال للطعن في صحته عقلًا أو نقلًا، ولا شذوذ في ألفاظه، بل لقد جاءت أحاديث أخري تؤكد صحته ومعناه.

ومن هذه الأحاديث:

- قال رسول الله ﷺ: "من سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سُنَّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن يَنْقُص من أوزارهم شيء"[٢].
- قول الرسول ﷺ: "يرث هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين"[٣].
- قال رسول الله ﷺ: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي"[٤].
- قال رسول الله ﷺ: "لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم في طاعته"[٥]، وقال ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى وهم على ذلك"[٦].
- قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب ﷺ: "لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم"[٧].

---

١. المرجع السابق، ص٢٥ بتصرف.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة، (٤/ ٦٤٤)، رقم (٢٣١٣).

٣. صحيح: أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب: الشهادات، باب: الرجل من أهل الفقه يُسأل عن الرجل من أهل الحديث فيقول: كفوا عن حديثه، (١٠/ ٢٠٩)، رقم (٢٠٧٠٠). وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح برقم (٢٤٨).

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، (٦/ ٥٧١٤)، رقم (٣٤٥٥). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، (٧/ ٢٩٠٦)، رقم (٤٦٩١).

٥. حسن: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الإيمان، باب: اتباع سنة رسول الله، (١/ ٥)، رقم (٨). وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٨).

٦. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الاعتصام، باب: قول النبي: "لا تزال طائفة"، (١٣/ ٣٠٦)، رقم (٧٣١١). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: قوله: "لا تزال طائفة من أمتي"، (٧/ ٢٩٩١)، رقم (٤٨٦٧).

٧. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجهاد والسير، باب: دعاء النبي إلى الإسلام والنبوة، (٦/ ١٣٠)، رقم (٢٩٤٢). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل علي ﷺ، (٩/ ٣٥٤٠)، رقم (٦١٠٦).

• قال ﷺ: "مثل أمتي مثل المطر لا يُدرَى أوله خير أم آخره"[١].

إن هذه الأحاديث وغيرها تؤكد صحة حديث تجديد أمر الدين سندًا ومتنًا، كما تدعو إلى تجديد الدين كل فينة وأخرى، وما علينا إلا السمع والطاعة والتصديق.

وبالنظر إلى الحديث نجد أنه يتكون من جملة خبرية واحدة، تتضمن نبأ من أنباء الغيب أخبر به من لا ينطق عن الهوى، وهو لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله، كما قال ﷻ: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ (الجن).

كما يهدف هذا الحديث إلى بعث الأمل في نفوس الأمة بأن جذوتها لن تخبو، وأن دينها لن يموت، وأن الله يقيض لها كل فترة زمنية ـ قرن من الزمان ـ من يجدد شبابها، ويحيي مواتها، أي أن الله تعالى لا يدع هذه الأمة، دون أن يهيئ لها من يوقظها من سبات، ويجمعها من شتات.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: "مثل أمتي مثل المطر، لا يُدرَى أوله خير أو آخره؟"[٢].

وخلاصة القول: أن حديث تجديد أمر الدين كل مائة سنة حديث صحيح سندًا ومتنًا، ولا مجال لإنكاره أو الطعن فيه، وليس فيه ما يخالف العقل.

١. حسن صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: الأمثال، باب: رقم (٦)، (٨/ ١٣٨)، رقم (٣٠٣٠). وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٨٦٩): حديث حسن صحيح.

٢. من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، د. يوسف القرضاوي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص١٠: ١٤.

ثانيا. التجديد مطلوب شرعًا، وهو ليس بمعنى التغيير المخالف، وليس كل تغيير يعد تجديدًا:

إن تجديد أمر الدين يعد مطلبًا من مطالب الشرع الحكيم؛ حيث إن هذا التجديد ليس إبطالًا للأحكام السابقة أو تغييرًا لها، وإنما هو إحياء لما نسي واندرس من الدين، فهو تجديد لحياة الدين، وإعادة للتمسك به.

"قال العلقمي في شرحه معنى التجديد: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما"[٣].

وقال شمس الحق العظيم آبادي: "يجدد لها دينها: أي يبين السنة من البدعة، ويكثر العلم، وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة ويذلهم"[٤].

وقيل: المراد من تجديد الدين للأمة: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة، والأمر بمقتضاهما، وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات[٥].

فقد علَّل السيوطي التجديد فقال: "وإنما كان التجديد علي رأس كل مائة سنة لانخرام[٦] علماء المائة غالبًا، واندراس السنن وظهور البدع، فيحتاج حينئذ إلى تجديد الدين، فيأتي الله من الخَلَفِ بعوض عن السلف"[٧].

فالتجديد مطلوب شرعًا، وقد دعا إليه النبي ﷺ في

٣. عون المعبود شرح سنن أبي داود، شمس الحق العظيم آبادي، مرجع سابق، (١١/ ٢٦٠).

٤. المرجع السابق، (١١/ ٢٦٠).

٥. السابق، (١١/ ٢٦٣) بتصرف.

٦. انخرام: ذهاب وموت.

٧. التنبئة، السيوطي، ص٦٣، نقلًا عن: حديث إن الله يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها، د. عبد العزيز مختار إبراهيم، مجلة الشريعة، مرجع سابق، ص٢٧.

غير حديث، والحديث الرئيسي عندنا في هذا الشأن قوله ﷺ: "من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سَنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء"[1]. ولهذا الحديث شاهد آخر، وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا. ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيء"[2].

يقول الإمام النووي: "هذان الحديثان صريحان في الحث على استحباب سن الأمور الحسنة وتحريم الأمور السيئة"[3] وهذا هو معني التجديد.

وإن للحديث الأول مناسبة وهي أمر النبي ﷺ الناس وحثهم على الصدقة، فقال: "تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة، فجاء رجل من الأنصار بِصُرَّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت. قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلَّل كأنه مُذْهَبَة " ثم ذكر الحديث[4].

ويقول الإمام النووي: "هذا الحديث فيه الحث على الابتداء بالخيرات، وسن السنن الحسنات، والتحذير من اختراع الأباطيل والمستقبحات، وكان الفضل العظيم للبادئ بهذا الخير، والفاتح لباب هذا الإحسان"[5].

لقد أحيا هذا الرجل سنة الصدقة التي قد اندثرت، وقد تهلل وجه النبي ﷺ لصنيعه هذا وفرح به، فاستحق هذا الرجل أن يسمَّى مجددًا، لأنه قد فعل شيئًا له أصل في الدين وهو الصدقة، ولكن الناس قد نسوا هذه السنة، فجاء فجددها وأحياها مرة ثانية.

مما سبق يتبيَّن أن التجديد ليس بمعني التغيير مطلقًا، وإنما هو إظهار ما خفي واندرس من علم الكتاب والسنة، ونشر العلم ونصرة أهله، ليعيد المجد للأمة ويجدد لها دينها، فالمجددون وُرَّاث الأنبياء، والأنبياء يُبْعَثون عن اندراس العلم وذهابه، ولذا قال النبي ﷺ: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي"[6].

ولقد قام العلماء العاملون بهذه المهمة ـ تجديد الدين ـ حق القيام منذ فجر الإسلام وإلى اليوم مدافعين عن دين الحق، ولذا فقد قال الإمام أحمد بن حنبل في مقدمة كتابه "الرد على الجهمية والزنادقة": الحمد لله الذي جعل في كل زمان وفترة من الرسل، بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويُبَصِّرُون بنور الله

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: العلم، باب: من سنَّ في الإسلام سنة حسنة، (٩/ ٣٧٨٩)، رقم (٦٦٧٥).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: العلم، باب: من سن في الإسلام سنة حسنة، (٩/ ٣٧٩٠)، رقم (٦٦٧٨).

٣. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٣٧٩٠).

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة، (٤/ ١٦٤٣، ١٦٤٤)، رقم (٢٣١٣).

٥. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٤/ ١٦٤٦).

٦. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، (٦/ ٥٧١)، رقم (٣٤٥٥). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، (٧/ ٢٩٠٦)، رقم (٤٦٩١).

أهل العمى. فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم[١]، والصلاة والسلام على من قال: "يرث هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين وتحريف الغالين "[٢] فالتجديد لا ينافي الأصالة، فالأصالة في لغتنا المتداولة ليست ضد الجدة والحدوث، وإنما هي ضد الزيف والدخيل والغش، فلا مانع أن نكون أصلاء ومجددين في الوقت ذاته، نبقي على الأصيل ونأتي بالجديد، فليست الأصالة هي التقوقع على القديم، ورفض كل جديد مهما يكن في القديم من ضرر، ومهما صَاحَبَ الجديد من نفع[٣]، فيجب علينا عدم المبالغة في الوقوف على القديم، وعدم المبالغة في التجديد الذي يُخِل بالأصول والمبادئ.

فالعلم إنما ينمو ويتكامل بإضافة اللاحقين إلى ما بناه السابقون، لا بهدمه أو تركه جملة، وهذه الإضافة قد تتخذ شكل التهذيب والتنقيح، أو الانتقاد والترجيح، أو التجديد والتكميل، أو التصحيح والتعديل، وهذا صادق في كل العلوم الكونية والإنسانية والدينية.

وليس يُقبل أو يُتصور من أحد يريد تفسير القرآن أن يهمل تفاسير الرواية والدراية ثم يمضي وحده، بل لا بد من العودة إلى المنابع، أي النصوص الثابتة في القرآن الكريم، وصحيح السنة، والتفقه فيها على ضوء المقاصد العامة للشريعة[٤].

إن عدم التجديد يحجم دور المسلمين المرتقب، والحكم عليهم بالعزلة والاغتراب، وإعاقة الحياة الإسلامية والتخلف عنها، وإظهار الإسلامي بمظهر العاجز عن مواجهة أسئلة الحضارة والعمران المستنير في زماننا هذا، والحق أن مشكلات الأقليات المسلمة لا يمكن أن تُواجَه إلا باجتهاد جديد، ينطلق من كليات القرآن الكريم وغاياته، وقيمه العليا، ومقاصد شريعته، ومنهاجه القويم، ويستنير بما صح من سنة وسيرة الرسول ﷺ في تطبيقاته للقرآن وقيمه وكلياته[٥].

إن شريعتنا الخالدة قادرة على مواجهة التطور، ومعالجة قضايا عصرنا، وقيادة ركب الحياة من جديد، على هدى من الله وبصيرة، ولكن بشروط يجب توافرها وتحققها جميعًا، إذا كنا صادقين في العودة إلى شريعة ربنا، جادين في حسن فهمها، وحسن تطبيقها، وأول هذه الشروط هو العودة إلى الاجتهاد والتجديد، فإن الشريعة لا تضيق بجديد، ولا تقف عاجزة أمام مشكلة بل عندها لكل مشكلة حل، ولكل داء دواء[٦].

---

١. الرد على الزنادقة والجهمية، أحمد بن حنبل، تحقيق: محمد حسن راشد، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٩٣هـ، (١/ ٦).

٢. صحيح: أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب: الشهادات، باب: الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث فيقول: كفوا عن حديثه، (١٠/ ٢٠٩)، رقم (٢٠٧٠٠). وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح برقم (٢٤٨).

٣. الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣م، ص٢٥، ٢٦ بتصرف.

٤. شريعة الإسلام صالحة في كل زمان ومكان، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص٧٨ بتصرف.

٥. "نحو التجديد والاجتهاد" مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، د. طه جابر العلواني، دار تنوير، القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص٦٣، ٦٤ بتصرف.

٦. شريعة الإسلام صالحة في كل زمان ومكان، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص٧٦: ٧٨ بتصرف.

والتجديد تجديدان، سني وبدعي:

أما التجديد السني: فيتمثل في إحياء السنن التي أُمِيْتَت، وإخماد البدع التي نبتت، وهو ما قام به المجددون في كل عصر ومصْر، وهو متعلق بالمصالح العامة، وما يحتاج إليه التشريع.

وأما التجديد البدعي التجريبي: فيتمثل في التلفيق بين ما جاء به الإسلام وما أفرزته الحضارة المادية الكافرة من إباحة حد الردة، والدعوة إلى التقريب بين الإسلام وغيره من الشرائع، وهذا لا يسمى تجديدًا وإنما هو تبديد للحضارة، وبهذا يتبين أن التجديد قد يقوم به شخص، أو يكون هناك عدة أشخاص يطلق عليهم مجددون، يقول القرضاوي: ولفظة "من" في هذا الحديث تصلح للجمع، كما تصلح للمفرد، فقد يكون المجدد واحدًا، وقد يكون أكثر من واحد، كما قال الذهبي وابن كثير وابن الأثير وغيرهم، وكما يشهد به التاريخ[1].

ويقول ابن حجر رحمه الله: "إنه لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة، وهو متَّجه، فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أنَّ جميع خصال الخير كلها في شخص واحد"[2].

كما يتبيَّن من الحديث "أن المجددين ليسوا في مكان واحد فقط، بل يجوز أن يجتمعوا في بلد واحد، ويجوز أن يكونوا في بلاد شتى، كما يجوز أن يكونوا في زمن واحد وأزمان متباعدة"[3]، وفي هذا يقول النووي: "ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد، وأن يكونوا في بعض منه دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولًا فأولًا، إلى أن لا يبقى فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله"[4].

فقد يقوم بالتجديد والإحياء جماعة أو مدرسة أو حركة: فكرية، أو تربوية، أو جهادية يتواصى أهلها بالحق والصبر، ويتعاونون على البر والتقوى.

وقد يقوم بمهمة التجديد أفراد أو مجموعات متناثرة، كل في موقعه ومجال اهتمامه واختصاصه، هذا في مجال العلم والفكر، وذاك في مجال السلوك والتربية، وثالث في مجال الحكم والسياسة، وآخرون في مجال خدمة المجتمع؛ ورابع في مجال الجهاد والمقاومة، وكلٌّ على ثغرة الإسلام: اتحدت أهدافهم ومبادئهم، وإن اختلفت مواقعهم وطرائقهم.

ويكون معنى "البعث" في الحديث: تهيئة الأسباب المواتية، وإتاحة الظروف المناسبة، وخلق المناخ الملائم؛ لظهور حركة التجديد للدين، والإحياء للأمة، وَفْقَ سنن الله ﷻ التي لا تتبدل[5].

---

١. الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص٢٣.

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٣/ ٣٠٨).

٣. حديث "إن الله يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها" رواية ودراية، د. عبد العزيز مختار إبراهيم، بحث منشور بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، السنة (٢٢)، العدد (٦٨)، صفر ١٤٢٨هـ/ مارس ٢٠٠٧م، ص٣٠.

٤. فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٣/ ٣٠٨).

٥. من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص٢٠.

ولقد اشترط العلماء للمجدد شروطًا وضوابط يجب معرفتها، فليس كل مجتهد يعد مجددًا وهذه الشروط باختصار تتمثل فيما يلي:

- العلم الشرعي القائم على الكتاب والسنة الصحيحة وَفْقَ فهم منهج السلف الصالح.
- أن يكون جامعًا من كل علم بنصيب مثل العلوم الشرعية، وعلوم الآلة.
- أن يكون ناصرًا للسنة وأهلها، قامعًا للبدعة وأهلها.
- أن يشهد له أهل الفضل والعلم بذلك.
- أن يكون ذا تأثير في أواسط الأمة في إحياء ما اندرس من معالم الدين.
- الالتزام بمنهج السلف الصالح في الاعتقاد والمنهج والسلوك، وهذا هو الضابط الأساسي الذي يبني عليه غيره، فمن المحال قطعًا أن يكون المجدد الموعود من غير طائفة أهل السنة والجماعة؛ وذلك للحديث "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك"[١]، وفي رواية: "علي الحق ظاهرين".
- أن تنقضي رأس المائة، وهو حي على قيد الحياة، مشهور بالعلم، ناشر له، والقول الراجح في رأس القرن أنه أوله[٢].
- أن يكون المجدد له نظر ثاقب وملكة، ونفاذ بصيرة، وسعة في الفهم والاستنباط، وقدرة على تمييز الصحيح من السقيم[٣].

أساليب التجديد وصوره:

إن للتجديد ثلاثة أساليب قد صنفها العلماء ليسير الناس عليها، ويكون مصباحًا مضيئًا لهم في خدمة الدين وهذه الأساليب هي[٤]:

١. التجديد بمعنى النشر والإحياء:

ويختص ذلك بإحياء ما اندرس من علم بالكتاب والسنة بنشره والتعريف به، وتقريبه، لا سيما إن كان مما صح كونه من غربة الإسلام، كما في الحديث: "بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء"[٥].

وقد تكون الغربة في بعض شرائع الإسلام، وقد تكون في بعض الأمكنة[٦].

ومن أمثلة التجديد بالنشر والإحياء إعادة صياغة العلوم القديمة بأسلوب معاصر يعود على الدارسين بالنفع والفائدة بصورة أكبر مما كانت عليها، ومنها حركة تقريب العلوم الشرعية بجميع فنونها، وحركة تحقيق المخطوطات.

ومنها أيضًا الجهود المتواصلة في كل عصر لتفسير

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الاعتصام، باب: قول النبي ﷺ "لا تزال طائفة..."، (١٣/ ٣٠٦)، رقم (٧٣١١). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي... (٧/ ٢٩٩١)، رقم (٤٨٦٧).

٢. عون المعبود شرح سنن أبي داود، شمس الحق العظيم آبادي، مرجع سابق، (١١/ ٢٦٢) بتصرف.

٣. حديث "إن الله يبعث لهذه الأمة..."، د. عبد العزيز مختار إبراهيم، مرجع سابق، ص٣٢:٣٥ بتصرف.

٤. انظر: التجديد في فقه المعاملات المالية المعاصرة، د. رياض منصور الخليفي، بحث بمجلة الشريعة، السنة (٢٣)، العدد (٧٣)، جمادى الأولى ١٤٢٩هـ، ص٢٣٨: ٢٤٠.

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، (٢/ ٥٦٥)، رقم (٣٦٥).

٦. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، (١٨/ ٢٩٨).

القرآن الكريم وبيان معانيه وأسراره، وإحياء اللغة العربية بالكلام والكتابة والخطابة، وتأليف الكتابة بالأساليب العصرية السهلة، ونشر الدعوة الإسلامية في العالم.

٢. التجديد يعني الإضافة والإثراء:

والمراد من هذا المعنى أن يتضمن التجديد الإضافة إلي ذات الشيء المجدد، أو إثراء مادته بالتفسير والإيضاح، بحيث يكون على حالة هي أصلح وأكثر إفادة ونفعًا في ظل تجدد بيئته وبساط حاله.

ومن أمثلة التجديد بالإضافة، تقرير النظريات العامة في أبواب فقهية معاصرة، تدعو الحاجة إلى التفصيل والتقسيم فيها، وتحريرها بما يناسب متطلبات العرف المعاصر؛ مثل نظريات العقد والضرر والضرورة والمصلحة، ومنها إفراد دراسات فقهية متخصصة بشأن قضايا معاصرة تمس إليها حاجة الناس أو ضرورتهم؛ مثل الدراسات المقارنة والمتخصصة في بيان الأحكام الشرعية لعمليات البنوك، وكذا عمليات الأسواق المالية (البورصة)، وعمليات التأمين وغيرها، وما قامت المجامع الفقهية الدولية، والهيئات، والمراكز العلمية والشرعية والمتخصصة إلا لالتماس دور التجديد بوسيلة الإضافة والإثراء بصورة رئيسة. ومنها كذلك تقرير القواعد وتحرير الضوابط الفقهية، ثم التطبيق المعاصر.

٣. التجديد بمعنى الحذف والإلغاء:

ومعناه أن يتم التجديد من خلال تنقيح موضوع التجديد، وتنقية محله، وذلك بحذف ما لحق به مما ليس منه بهدف إعادته إلى أصله الأحسن.

فهو بهذا يعد استدراكًا وتعقبًا بالتنقيح والتنقية للأمر الشرعي، وليس إلغاءً أو حذفًا لجزء ثابت مستقر في الشريعة، ومن أمثلته: نفي سائر أنواع البدع والمحدثات الداخلة على العقائد والعبادات بفعل العامة والجهال، وكذلك التمييز بين الصحيح وما خالفه من رويات الحديث، وفي هذا مصنفات خاصة.

وهكذا يتبين لنا من دراسة هذه الأساليب والصور أن التجديد غير مقتصر على ما يلحق بالعبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج فقط، وإنما التجديد متعدٍ لكل مناحي الحياة؛ فحياة الإنسان المسلم كلها عبادة لله ﷻ، وهذا واضح من قوله ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الذاريات) فالإنسان المجدد ليس المقصود به المجدد في علوم الشريعة فقط، بل إنه قد يكون مجددًا في العلوم الدنيوية أيضًا؛ لأن هذه العلوم يتعيَّن تعلُّمها في بعض الأوقات، ويصير فرض عين إذا لم يقم به بعض الأشخاص، وفروض العين في أهل الدين، وبهذا يصير التجديد في المعاملات والنواحي الاقتصادية والاجتماعية وغيرها تجديدًا للدين، وهذا واضح في حديث رسول الله ﷺ: "أنتم أعلم بأمر دنياكم"[1].

إن مطلب التجديد يمثل حاجة شرعية ملحَّة ودائمة على تغير الأزمنة والأحوال، وهناك أدلة لهذا التجديد ومؤيدات لمشروعيته، وهي:

- الأصل الشرعي المعوَّل عليه في إثبات مشروعية التجديد الحديث المذكور.

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفضائل، باب: وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي، (٨/ ٣٤٨٨)، رقم (٦٠١٣).

- التجديد أعم من الاجتهاد الأصولي من جهة أفراده القائمين به.
- التجديد أعم من القياس الأصولي من جهة أفراده القائمين به.
- الاستناد إلى مقتضى الضرورة العلمية تبعًا لتجدد حاجات الناس.
- الاستناد إلى مبدأ التعاون على البر وترك الإثم والعدوان.
- الاستناد إلى عموم مبدأ الدعوة إلى الخير.
- الاستناد إلى تحقيق مبدأ الشريعة.

وخلاصة القول: أن التجديد هو إحياء وإظهار لما اندرس من علم الكتاب والسنة الصحيحة ونشر للعلم، ونصر لأهله، وقمع للبدعة وأهلها، ونقل للعلم من جيل إلي جيل، صافيًا نقيًّا، والعودة بالمسلمين إلى ما كانوا عليه وَفق منهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم[١].

ومقتضى هذا التجديد والحفظ هو صلاحية الإسلام لإصلاح فساد كل زمان ومكان، وقيوميته بحل جميع المشاكل الصغرى والكبرى في جميع المجالات؛ إذ هو دين الله تعالى خالق الناس، ومدبر أمور العالم، وبهذا يتحقق قول النبي ﷺ: "مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أوله خير أم آخره"[٢] والتجديد يقتضي جملة أمور:

- الاحتفاظ بجوهر البناء القديم، والإبقاء على طابعه وخصائصه، بل إبراز العناية به.
- ترميم ما بلي منه، وتقوية ما ضعف من أركانه.
- إدخال تحسينات عليه لا تغير من صفته، ولا تبدل طبيعته، مثل تجميل مدخله، وتنظيف ساحته، وعمل حديقة من حوله[٣].

إن الكلام السابق يصور لنا الدين كأنه بناية، فإذا أردنا تغيير هذه البناية أزلناها من أصلها، أما إذا أردنا تجديدها فإننا نقيم ما طُمِس منها ونخرجه في صورة أفضل بإحيائه مرة ثانية، وهكذا الدين، فنحن نجدد الدين بإحياء ما درس منه، ولا نطالب بتغييره من الأصل، وإن ابتداع ما لم يكن في الدين يعد تغييرًا له، وهذا هو التجديد البدعي.

إن صنع أمة يحتاج إلى رجال أكفاء، ونقل الطباع أثقل من الجبال، ومن هنا جاء حديث المصطفى ﷺ عن ثواب هداية الرجل فيما رواه سهل بن سعد الساعدي قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب في حديث طويل: "فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم"[٤]، وكما قيل قديمًا: عمل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل في رجل.

لذا فقد قيَّض الله ﷻ لهذه الأمة من يأتي على رأس كل مائة سنة يجدد لها أمر دينها، ولما كان هذا الأمر مدار

---

١. حديث: "إن الله يبعث..."، د. عبد العزيز مختار إبراهيم، مرجع سابق، ص٢٢ بتصرف.

٢. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: الأمثال، باب: رقم (٦)، (٨/ ١٣٨)، رقم (٣٠٣٠). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٨٦٩).

٣. الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد، د. القرضاوي، مرجع سابق، ص٣٠ بتصرف.

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجهاد والسير، باب: دعاء النبي إلى الإسلام والنبوة، (٦/ ١٣٠)، رقم (٢٩٤٢). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل علي ﷺ، (٩/ ٣٥٤٠)، رقم (٦١٠٦).

اهتمام العلماء فقد أفردوا له المؤلفات والمصنفات، بل لقد وضعوها في منظومات، وقد ألف السيوطي منظومة تجمع أسماء المجددين وشروطهم.

يوضح لنا د. يوسف القرضاوي معنى التجديد فيقول: إن التجديد المراد هو تجديد الفهم له ـ أي الإسلام ـ والإيمان والعمل به، فالتجديد لشيء ما هو محاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر، بحيث يبدو مع قِدَمِه بحالة جيدة، وذلك بتقوية ما وَهَى منه، وترميم ما بلي، ورتق ما انفتق، حتى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى، فالتجديد ليس معناه تغيير طبيعة القديم، أو الاستعاضة عنه بشيء آخر مستحدث مبتكر، فهذا ليس من التجديد في شيء. ولنأخذ بذلك مثلًا في الحسيات، إذا أردنا تجديد مبنى أثري عريق، فيعني تجديده: الإبقاء علي جوهره وطابعه ومعالمه، وكل ما يُبْقي على خصائصه، وترميم كل ما أصابه من عوامل التعرية، وتحسين مداخله، وتسهيل الطريق إليه، والتعريف به، وليس من التجديد في شيء أن نهدمه، ونقيم عمارة ضخمة على أحدث طراز مكانه، وكذلك الدين لا يعني تجديده إظهار طبعة جديدة منه، بل يعني العودة به إلى حيث كان في عهد الرسول ﷺ وصحابته ومن بعدهم بإحسان، فتجديد الدين يعني إحياء الاجتهاد فيه، والرجوع إلى منابعه الأصلية، والتحرر من الجمود والتقليد، والنظر إلى التراث نظرة ناقدة للاستفادة من إيجابياته، وتفادي مواضع الخلل فيه، وبجوار هذا التجديد الفكري تجديد آخر وهو تجديد الإيمان بالدين، والتمسك بقيمه وأصوله، وتجديد الدعوة إليه، وفق حاجات العصر وظروفه كما جاء في الحديث: "إن الإيمان ليخْلَق في جوف أحدكم، كما يَخْلَق الثوبُ، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم"[1][2].

وفي النهاية، لا يحق لطائفة أو جماعة أو فرقة ـ مهما كانت ـ أن تدعي أن شيخها هو المجدد إلا إذا توافرت فيه الشروط السابق ذكرها، والكرامة عند الله أولًا وأخيرًا لا تتحقق إلا بالتقوى والعمل الصالح.

الخلاصة:

- إن الحديث الوارد في تجديد أمر الدين كل مائة عام حديث صحيح سندًا ومتنًا؛ إذ أخرجه الإمام أبو داود في سننه وغيره من رواة الحديث بطرق صحيحة مرفوعة إلى النبي ﷺ، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة.
- هناك شواهد كثيرة تعضد متن هذا الحديث، مما يؤكد صحته؛ إذ يبعث الأمل في نفوس الأمة بأن جذوتها لن تخبو، وأن دينها لن يموت، وأن الله يقيض لها كل فترة زمنية ـ قرن من الزمان ـ من يجدد شبابها، ويحيي مواتها؛ أي أن الله لا يدع هذه الأمة، دون أن يهيئ لها من يوقظها من سبات، ويجمعها من شتات.
- إن عملية التجديد في أصلها ظاهرة فطرية إيجابية مستمرة تتضمن معنى الاستواء والصلاح، ولا يزال هناك تجديد إلى يوم القيامة، فالفعل (يجدد) في الحديث بلفظ المضارعة دال على الاستمرار.
- إن الدين ثابت لا يتغير، وتجديده لا يعني

١. حسن: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب: الإيمان، (١/ ٤٥)، رقم (٥). وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٥٨٥).

٢. كيف نتعامل مع السنة النبوية، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص٥٦.

إزالته، بل إحياء ما خفي ومات منه، وعلى هذا فالتجديد الديني اسم جامع لكل ما يحقق السلامة للشريعة في واقعها، وينفي ما يخلُّ بها، وليس في هذا تغيير للمبادئ والتعاليم والقيم الثابتة.

- العلم إنما ينمو ويتكامل بإضافة اللاحقين إلى ما بناه السابقون، لا بهدمه أو تركه جملة، وهذه الإضافة قد تتخذ شكل التهذيب والتنقيح، أو الانتقاد والترجيح، أو التكميل والتصحيح والتعديل، وهذا صادق في كل العلوم الكونية والإنسانية والدينية.
- لقد وضع علماء السلف شروطًا وضوابط للمجدد، جاءت على وفق الكتاب والسنة، ولا يحق لأي فرقة الادعاء بأن إمامها هو المجدد إلا إذا توافرت فيه الشروط التي ذكرناها.
- ليس كل ابتكار يسمى تجديدًا، فالتجديد له شروطه وضوابطه، وهناك تجديدان: تجديد سني، وتجديد تحريفي، فالأول يدعو إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق، والثاني يدعو إلى الانحلال والرذيلة.
- ليس التجديد الديني موقوفًا علي العبادات فقط، إنما يتعدى معناه إلى كل ما يمس نواحي الحياة من عبادات ومعاملات وحدود وأحكام، فحياة الإنسان كلها لله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ (الأنعام).
- ليس في التجديد ما ينافي العقل، أو يثير الإحباط، أو يخالف القرآن، والحديث صحيح لا مطعن فيه، ورجاله رجال مسلم وكلهم ثقات عدول، وقد أوردنا من الأحاديث ما يؤكد معنى التجديد ومشروعيته.
- ليس معنى التجديد قلب الحقائق، ومواكبة التطور، ولكن الدين مهمته إصلاح ما أفسده كل زمان ومكان، فالدين لا يساير حاجات الناس، وإنما هو منهج متكامل تَمَّ يوم أن قال الله عز وجل على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣).
- إن الله عز وجل قد يجدد الدين بمجموعة من الناس، كل في مجال تخصصه، وليس تجديد الدين حكرًا على واحد بعينه.

الشبهة الثامنة عشرة

الطعن في أحاديث الفتنة من المشرق(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض منكري السنة في صحة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الواردة في بيان أن ظهور الفتن يكون من المشرق، ومن هذه الأحاديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم قام إلى جنب المنبر، فقال: "الفتنة هاهنا، الفتنة هاهنا، من حيث يطلع قرن الشيطان"، أو قال: "قرن الشمس". وكذلك ما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو مستقبل المشرق، يقول: "ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان". وقد فهم هؤلاء أن المقصود بالمشرق هنا هو الجزيرة العربية (نَجْد) لا غيرها.

ويستدلون على ذلك بأن أحاديث مجيء الفتن من

(*) مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مرجع سابق. ضلالات منكري السنة، د. طه حبيشي، مرجع سابق.

قبل الشرق ـ نَجْد ـ قد جاءت صريحة بذلك، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: "اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا، قالوا: وفي نجدنا يا رسول الله؟ فقال عبد الله بن عمر: أظنه قال في الثالثة: هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان"، ولم تظهر أي فتنة من أهل نجد، فكيف يكونون أهل الشر والفتنة. رامين من وراء ذلك إلى الطعن في السنة النبوية وإبطال أخبارها.

وجها إبطال الشبهة:

١) أحاديث رسول الله ﷺ الواردة في بيان أن الفتن ستظهر من الشرق أحاديث صحيحة في أعلى درجات الصحة سندًا ومتنًا، وقد ظهر من تلك الفتن الكثير، وهناك فتن لم تظهر بَعْدُ كخروج الدجال الأعور وغيرها.

٢) لقد أجمع علماء الحديث وشرَّاحه على أن المقصود من لفظ "نجدنا" في حديث رسول الله ﷺ ليس المقصود منها بلاد "نجد" المعروفة بهذا الاسم؛ لكن المقصود منها هو ما ارتفع من الأرض؛ وقد ذكر الحديث في المدينة، فمن كان في المدينة فالعراق نجده؛ وبذلك فالمقصود من تلك اللفظة هو (بلاد العراق).

التفصيل:

أولا. أحاديث مجيء الفتن من قِبل المشرق أحاديث صحيحة في أعلى درجات الصحة، وما ظهر منها دليل على صدق النبي ﷺ وعلى ما لم يظهر بعد:

لقد وردت عن النبي ﷺ أحاديث تبين أن المشرق سوف يكون مصدرًا لظهور الفتن والقلاقل؛ ومن هذه الأحاديث: أن النبي ﷺ قام إلى جنب المنبر، فقال: "الفتنة هاهنا، الفتنة هاهنا، من حيث يطلع قرن الشيطان"، أو قال: "قرن الشمس"[1].

وفي رواية أخرى أوردها الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول: "ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان"[2].

والحديثان صحيحان في أعلى درجات الصحة، ولهما شواهد من طرق أخرى كثيرة، منها:

- ما جاء في صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ أن رسول الله قام عند باب حفصة، فقال بيده نحو المشرق: "الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشمس" قالها مرتين أو ثلاثًا[3].
- وأورد مسلم عن ابن عمر أيضًا قال: "خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشة، فقال: رأس الكفر من هاهنا، من حيث يطلع قرن الشيطان" يعني: المشرق[4].
- وفي رواية أخرى لابن عمر رضي الله عنهما يقول: سمعت رسول الله ﷺ يشير بيده نحو المشرق،

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الفتن، باب: قول النبي ﷺ: "الفتنة من قبل المشرق"، (١٣/ ٤٩)، رقم (٧٠٩٢).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الفتن، باب: قول النبي ﷺ: "الفتنة من قبل المشرق"، (١٣/ ٤٩)، رقم (٧٠٩٣). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرن الشيطان، (٩/ ٤٠٠٧)، رقم (٧١٥٩).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرن الشيطان، (٩/ ٤٠٠٧)، رقم (٧١٦٠).

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرن الشيطان، (٩/ ٤٠٠٧)، رقم (٧١٦٢).

ويقول: "ها إن الفتنة هاهنا، ها إن الفتنة هاهنا، ها إن الفتنة ها هنا، حيث يطلع قرن الشمس"[١].

- وعن سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: "يا أهل العراق، ما أَسْأَلَكم عن الصغيرة، وَأَرْكَبَكُمْ للكبيرة! سمعت أبي - عبد الله بن عمر - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الفتنة تجيء من هاهنا - وأومأ بيده نحو المشرق - من حيث يطلع قرنا الشيطان، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض..."[٢].

والنبي ﷺ يوضح لنا - وهو الصادق المصدوق - أننا سوف يلحق بنا كثير من الشرور والفتن من قبل الشرق، وقد تواترت الأحاديث في هذا الشأن، وكلها أحاديث صحت نسبتها إلى النبي ﷺ، وقد ذكرت تلك الأحاديث في أصح كتب الأحاديث مثل صحيح البخاري، وصحيح مسلم وغيرهما.

كما أنه ﷺ لم يقصد بقوله: "الفتن من الشرق" بلدًا معينًا، وإنما المقصود الشرق كله على امتداده.

وقد بيَّن شرَّاح الحديث النبوي ذلك عند شرحهم لأحاديث الباب، فقد عقب ابن حجر على قول رسول الله ﷺ: "رأس الكفر نحو المشرق..."[٣] بقوله: "وفي ذلك إشارة إلى شدة كفر المجوس؛ لأن مملكة الفرس، ومن أطاعهم من العرب كانت من جهة المشرق بالنسبة إلى المدينة، وكانوا في غاية القسوة والتكبر والتجبر، حتى مَزَّق مَلِكُهم كتاب النبي ﷺ"[٤].

وذكر ابن حجر في الفتح أيضًا: "وقال غيره - يعني الخطابي: كان أهل المشرق يومئذ أهل كفر، فأخبر ﷺ أن الفتنة تكون من تلك الناصية، فكان كما أخبر النبي ﷺ، وأول الفتن كان من قِبَل المشرق، فكان ذلك سببًا للفرقة بين المسلمين، وذلك مما يحبه الشيطان ويفرح به، وكذلك البدع نشأت من تلك الجهة"[٥].

وقال ابن بطال: "وكذلك كانت الفتنة الكبرى التي كانت مفتاح فساد ذات البين، وهي مقتل عثمان ﷺ، وكانت سبب وقعة الجمل وصِفِّين، ثم ظهور الخوارج في أرض نجد والعراق وما وراءها من المشرق، ومعلوم أن البدع إنما ابتدأت من المشرق، وإن كان الذين اقتتلوا بالجَمَل وصفِّين بينهم كثير من أهل الشام والحجاز، فإن الفتنة وقعت في ناحية المشرق، وكان ذلك سببًا في افتراق كلمة المسلمين، وفساد نيات كثير منهم إلى يوم القيامة، وكان رسول الله ﷺ يحذر من ذلك ويعلمه قبل وقوعه، وذلك دليل نبوته"[٦].

وقال ابن حجر عند تعقيبه على قوله ﷺ الذي رواه أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: "أشرق النبي ﷺ على أُطُم من آطام المدينة[٧]، فقال: هل ترون ما أرى؟

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: الفتنة من المشرق... (٩/ ٤٠٠٧)، رقم (٧١٦١).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: الفتنة من المشرق... (٩/ ٤٠٠٨)، رقم (٧١٦٤).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: بدء الخلق، باب: خير مال المسلم غَنَمٌ يتبع بها شغاف الجبال، (٦/ ٤٠٣)، (٣٣٠١). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه، (١/ ٤٢٤)، رقم (١٨٢).

٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٦/ ٤٠٥).

٥. المرجع السابق، (١٣/ ٥١).

٦. شرح صحيح البخاري، ابن بطال، مرجع سابق، (١٠/ ٤٤).

٧. آطام: جمع أُطُم، وهي الحصون التي تبنى بالحجارة.

قالوا: لا، قال: فإني لأرى الفتن خلال بيوتكم كوقع القطر"[1].

فقال ابن حجر: "وإنما اختصت المدينة بذلك؛ لأن قتل عثمان رضي الله عنه كان بها، ثم انتشرت الفتن في البلاد بعد ذلك، فالقتال بالجمل وبصفّين كان بسبب قتل عثمان، والقتال بالنهروان كان بسبب التحكيم بصفّين، وكل قتال وقع في ذلك العصر إنما تولد عن شيء من ذلك، أو عن شيء تولد عنه، ثم إن قتل عثمان كان أشد أسبابه الطعن على أمرائه... وأول ما نشأ ذلك من العراق، وهي من جهة المشرق، فلا منافاة بين حديث الباب ـ الحديث السابق ـ وبين الحديث الآتي أن الفتنة من قبل المشرق"[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: وتجد الإسلام والإيمان كلما ظهر وقَوِي كانت السُّنَّة وأهلها أظهر وأقوى، وإن ظهر شيء من الكفر والنفاق ظهرت البدع بحسب ذلك... إلى أن قال: إنه لما انتشرت الدولة العباسية، وكان في أنصارها من أهل المشرق والأعاجم طوائف من الذين نعتهم النبي ﷺ حيث قال: "الفتنة هاهنا"؛ ظهر حينئذ كثير من البدع وعُرِّبتْ أيضًا إذ ذاك طائفة من كتب الأعاجم من المجوس الفرس، والصابئين الروم، والمشركين الهند..."[3].

ومن خلال ما سبق يتبين أن حديث ظهور الفتن من المشرق حديث صحيح، بل هو دليل على صدق الرسول ﷺ، فقد حدث ما يصدق ما أخبر به ﷺ ®.

ثانيًا. اتفق علماء الحديث على أن المقصود من لفظة: "نجدنا" في الحديث الشريف هو "بلاد العراق"، وليس بلاد "نجد" المعروفة بهذا الاسم:

إن ما يدعيه بعض الطاعنين بأن المقصود من تلك الأحاديث هو مجيء الفتن من "نجد" تحديدًا، وسندهم في ذلك قوله ﷺ: "اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا، قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا؟ قال: اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا. قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا ؟ فأظنه قال في الثالثة: هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان"[4].

وعلى هذا؛ فهم يظنون في الدعوة السلفية العظمى المُقامة في الجزيرة العربية هي تلك الفتن التي أشار إليها الحديث النبوي الشريف، وذلك كله كلام باطل، لا يقوم على دليل؛ وإنما فهمهم الخاطئ لهذا الحديث هو ما دعاهم إلى ذلك.

ولكي نبين ذلك لا بد أن نعرف المقصود بـ (نجد) في الحديث الشريف.

نقول: إن جميع العلماء على أن المقصود بـ "نجدنا" في الحديث الشريف ليس هو بلد بعينها سواء كانت نجد أو غيرها؛ إنما المقصود من لفظة "نجد": المكان المرتفع من الأرض، وهو خلاف الغور، ولم يأت شراح

---

1. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضائل المدينة، باب: آطام المدينة، (٤/ ١١٣)، رقم (١٨٧٨). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: نزول الفتن كمواقع القطر، (٩/ ٣٩٨٦)، رقم (٧٠١٢).
2. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٣/ ١٦).
3. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، (٤/ ٢٠) بتصرف.

® في **"صحة أحاديث الفتن وتواترها"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء الثالث (أبو هريرة).

4. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الفتن، باب: قول النبي ﷺ "الفتنة من قبل المشرق"، (١٣/ ٤٩)، رقم (٧٠٩٤).

الحديث بشيء غير ذلك، فقد جاء في معجم "الصحاح": "النجد ما ارتفع من الأرض، والجمع نجاد ونجود وأنجد"[١]، وهذا ابن حجر العسقلاني ينقل عن الإمام الخطابي قوله: "نجد من جهة المشرق، ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها، وهي مشرق أهل المدينة، وأصل نجد ما ارتفع من الأرض، وهو خلاف الغور؛ فإنه ما انخفض منها، وتهامة كلها من الغور ومكة من تهامة"[٢].

إن كلمة (نجد) المقصود بها العراق، وهذا ما صرح به الشيخ الألباني في تعليقه على لفظة "نجدنا" بعد أن ذكر روايات الحديث وصححه، فقال: "وإنما أفضت في تخريج هذا الحديث الصحيح وذكر طرقه وبعض ألفاظه؛ لأن بعض المبتدعة المحاربين للسنة والمنحرفين عن التوحيد يطعنون في الإمام محمد بن عبد الوهاب مجدد دعوة التوحيد في الجزيرة العربية، ويحملون الحديث عليه باعتباره من بلاد "نجد" المعروفة اليوم بهذا الاسم، وجهلوا أو تجاهلوا أنها ليست هي المقصودة بهذا الحديث، وإنما هي العراق، كما دل عليه أكثر طرق الحديث، وبذلك قال العلماء قديمًا كالإمام الخطابي، وابن حجر العسقلاني وغيرهم"[٣].

"وقد نص جمع من الحفاظ وشراح الحديث على أن المراد بنجد في الحديث نجد العراق، ومن هؤلاء الخطابي، والكرماني، وابن عبد البر، وأبو العباس ابن تيمية وابن حجر وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين"[٤].

ومما يؤكد ذلك ما رواه الطبراني في معجمه وغيره، عن سالم بن عبد الله عن أبيه، أن النبي ﷺ دعا، فقال: "اللهم بارك لنا في مَكَّتنا، اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم بارك لنا في شامنا، وبارك في صاعنا، وبارك لنا في مُدِّنا، فقال رجل: يا رسول الله! وفي عراقنا؟ فأعرض عنه، فرددها ثلاثًا، كل ذلك يقول الرجل: وفي عراقنا، فيعرض عنه، فقال: بها الزلازل والفتن، وفيها يطلع قرن الشيطان"[٥].

وعلق الألباني رحمه الله على الحديث بقوله: "(صحيح)، ورُوي بلفظة "نجدنا" مكان عراقنا، والمعنى واحد، أخرجه البخاري وغيره، ورُوي أيضًا بلفظ (مشرقنا) مكان عراقنا، وزاد في آخره: وبها تسعة أعشار الشر، ووردت الزيادة بلفظ آخر: "وبه تسعة أعشار الكفر وبه الداء العضال"... وذكر أيضًا أن بلاد نجد المعروفة اليوم بهذا الاسم ليست هي المقصودة بهذا الحديث، وإنما هو العراق، وما أحكم قول سلمان الفارسي لأبي الدرداء حينما دعاه أن يهاجر من العراق إلى الشام: أما بعد؛ فإن الأرض المقدسة لا تقدس أحدًا، وإنما يقدس الإنسان عمله"[٦].

---

١. الصحاح في اللغة، الجوهري، مادة: "نجد".

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٣/ ٥١).

٣. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، مرجع سابق، (٥/ ٣٠٥).

٤. الإعلام بأن نجد العراق يطلع منها قرن الشيطان، سعد السبيعي، مقال بأرشيف ملتقى أهل الحديث، بتاريخ ٦/ ٥/ ٢٠٠٣م، (١/ ١٣٤٤٥).

٥. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، كتاب: العين، باب: أحاديث عبد الله بن العباس، (١٢/ ٨٤٠١٢)، رقم (١٢٥٥٣). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٢٤٦).

٦. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، مرجع سابق، (٥/ ٣٠٢: ٣٠٥).

وقد عقب فضيلة الشيخ عبد العزيز عبد الله الراجحي على أحاديث الفتن من المشرق، بقوله: "وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ؛ فإن الفتن كلها جاءت من الشرق الأقصى والأدنى، الفتنة الشيوعية جاءت من الصين، والتتار والصليبيون جاءوا من الشرق من وراء خراسان، وقبل ذلك البدع، بدعة الجهمية والمعتزلة والخوارج، وكلها من الشرق، والدعوة إلى حزب البعث في العراق والشام، وكذلك فتنة الرافضة في العراق وإيران، وكذلك الدجال آخر الزمان خارج خلة بين الشام والعراق، وكذلك الشرق الأدنى ارتد العرب وبنو حنيفة، والتفُّوا حول مسيلمة وصدقوه في دعوى النبوة، وكذلك ربيعة ومضر أهل الإبل عندهم الكبر والخيلاء.

وليس معنى الأحاديث أن الفتن لا تأتي إلا من الشرق؛ بل إن الفتن تأتي من الشرق ومن الغرب، ولكن الفتن من الشرق أكثر"[1].

وقد دل الواقع التاريخي على هذا كله، فقد هبت من العراق رياح فتن كثيرة منها:

- الجماعة الذين تألبوا على قتل عثمان ﷺ، وقد استتبع ذلك حرب الجمل وصفين.
- قتل الحسين ﷺ شهيدًا بكربلاء بعد أن خذله الشيعة، وتخلوا عنه.
- تحزب الخوارج والحرورية.
- ظهور القدرية والجهمية والمعتزلة.
- فتنة ابن الأشعث وثورة الزنج.
- فتنة المختار الذي ادعى النبوة.
- ما جرى في ولاية الحجَّاج من القتال، وسفك الدماء والاعتزال، والنسك الفاسد، وحركة القرامطة من البصرة.
- غزو التتار للمسلمين في القرن السابع بقيادة هولاكو.

أما فتن العصر الحديث فمنها:

- قتال العراق وإيران الذي دام ثماني سنوات.
- غزو "صدام حسين" الكويت، وما جرى من بلايا ومحن للمسلمين.
- تسلط الرافضة على أهل السنة في العراق، وإراقة دمائهم.

أما الفتن التي تخرج في المستقبل إن شاء الله:

- المقتلة التي تقع عندما يُحسر الفرات عن جبل من ذهب.
- خروج الدجال ويأجوج ومأجوج[2].

وبعد؛ فقد تبيَّن أن لفظة "نجدنا" في الحديث الشريف ليس المقصود بها "نجد" المعروفة الآن بهذا الاسم؛ ولكن المقصود ما ارتفع عن الأرض، ومن كان بالمدينة كان نجده العراق، فالمقصود إذًا العراق؛ باتفاق جمهور علماء الحديث وشراحه.

وقولهم: إنه كان أولى بنبينا ﷺ أن يصرح بأن الفتن تظهر من الغرب وليس من الشرق، قول ضال؛ لأن الفتن من الشرق أكثر منها في الغرب، فمنها ما ظهر مثل: القتال بين عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما، وبين

1. باب الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان، مقال بموقع فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي. www.shrajhi.com

2. فقه أشراط الساعة، محمد إسماعيل المقدم، دار ابن الجوزي، القاهرة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص٢٨٢،٢٨١ بتصرف.

الخوارج وعليٍّ، وبين عليٍّ وعائشة رضي الله عنهما، وما نتج عن ذلك من ظهور طوائف عديدة ما زالت حتى يومنا هذا تسبب القلاقل والفتن والاضطرابات في البلاد، ومنها ما لم يظهر بعد: كخروج الدجال وغيرها من علامات الساعة الكبرى كما بيَّنا.

الخلاصة:

- إن الأحاديث التي جاءت عن النبي ﷺ في بيان مجيء الفتن من قبل المشرق أحاديث صحيحة سندًا ومتنًا؛ وقد أجمع علماء الحديث وشراحه على أن كثيرًا من هذه الفتن قد ظهر، وهناك فتن أخرى لم تظهر بعد كفتنة الدجال.
- لقد اتفق شرَّاح الحديث وعلماؤه على أن المقصود من لفظة: "نجدنا" في الحديث الشريف هي "بلاد العراق"، وليس "بلاد نجد" المعروفة بهذا الاسم؛ لأن النجد: هو ما ارتفع من الأرض، ومن كان بالمدينة فالعراق نجده.
- لقد ظهرت فتن كثيرة من العراق قديمًا وحديثًا، ومنها ما سيظهر في المستقبل مما يؤكد صدق النبي ﷺ فيما أخبر وبلغ.

الشبهة التاسعة عشرة

الطعن في أحاديث أشراط الساعة(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المشككين في الأحاديث النبوية الواردة بشأن علامات الساعة، مستدلين على زعمهم بأن هذه الأحاديث قد أخبرت عن بعض الغيبيات، مما يتعارض مع استئثار الله ﷻ بعلم الغيبيات، ويعارض قوله ﷻ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ (الأنعام:٥٩)، ويزعمون أن هذه الأحاديث تعارض النصوص الصريحة في القرآن والسنة، والتي تؤكد أن الساعة تأتي بغتة، فقد قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ (الأعراف: ١٨٧)، فكيف تصح مثل هذه الأحاديث التي تعتبر تمهيدًا للاستعداد للقيامة، مما ينفي أن تكون بغتة؟ وكيف يتحدث الرسول ﷺ عن علامات الساعة وقد قال لجبريل عليه السلام لما سأله عن الساعة: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل..."، مما ينفي أي علم للرسول فيما يتعلق بالساعة وقيامها، وعلى ذلك فإن كل حديث يدل على علم النبي ﷺ بالساعة أو بعلاماتها هو حديث باطل لمخالفته نصوص القرآن، بالإضافة إلى أن من يتأمل في هذه النصوص يجد بينها تناقضًا غريبًا، فمنها أحاديث تقول بأن أول أشراط الساعة نار تخرج من المشرق... وبعضها يثبت أن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها، وهذه الرواية الأخيرة فيها إشكال ثانٍ؛

(*) مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مرجع سابق. تحرير العقل من النقل، سامر إسلامبولي، مرجع سابق. ضلالات منكري السنة، د. طه حبيشي، مرجع سابق.

حيث ورد أنه بخروج الشمس من مغربها يُغلق باب التوبة، وهذا يُناقض ما ثبت بأن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان ويحكم بالإسلام، مما يؤكد أن الإيمان في زمنه سيكون نافعًا ومقبولًا، فكيف يصرح حديث طلوع الشمس بأن باب التوبة سيغلق، ولا تُقبل توبة تائب؟! ثم إن في بعض هذه الأحاديث مخالفة للواقع؛ فقد جاء في رواية: "تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر، فيقول: ياعبد الله، هذا يهودي ورائي فاقتله..."، وهذا كلام مخالف للعقل والواقع، فكيف ينطق الحجر ـ الجماد ـ ويتودد مع المسلمين في عصر العلم، مع أنه لم يُسبق أن عاون حتى الأنبياء؟ وهذا كله كفيل برد هذه الأحاديث الواردة بشأن أشراط الساعة. رامين من وراء ذلك إلى الطعن في السنة النبوية وإبطال أخبارها.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن الأحاديث الدالة على علامات الساعة هي مما صح عن رسول الله ﷺ، والإخبار بذلك هو مما عَلَّمه الله لرسوله ﷺ من أمور الغيب، وليس معناه إثبات علم الغيب للرسول ﷺ.

٢) إن قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ (الأعراف: ١٨٧) لا يعارض أحاديث أشراط الساعة؛ ذلك لأن القرآن نفسه قد أشار إليها في آياته، بل وذكر منها ما يوافق الأحاديث كخروج الدابة، ويأجوج ومأجوج، أما حديث: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل"، فالمقصود به وقت قيام الساعة لا أشراطها؛ بدليل أن النبي ﷺ قد بيّن في هذا الحديث بعضًا من علامات الساعة، وليس هناك وجه مقارنة، ولو كان سؤال جبريل الأول عن أشراط الساعة، لما قال له بعد أن أجاب عنه بنفي العلم عنه وعن جبريل عليه السلام: "أخبرني عن أماراتها".

٣) إن الأحاديث الواردة في أشراط الساعة لا يعارض بعضُها بعضًا، وليس طلوع الشمس من مغربها هو أول الآيات، والأولية المذكورة في الحديث: "إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس..."، فمعناه أولها بالنسبة إلى آيات معينة، فإنها بطلوعها من مغربها يُغلق باب التوبة ولا يقبل الإيمان، ولازم هذا أن يكون نزول عيسى عليه السلام قبلها؛ لأن بنزوله سيحكم بالإسلام، والعمل والإيمان مقبولان، ويلزم منه أسبقية خروج الدجال ويأجوج ومأجوج، وما ذكر من أن النار أول الآيات وآخرها، فالجمع بينهما بأن آخريتها باعتبار ما ذكر معها من الآيات، وأوليتها فباعتبار أنها أول الآيات التي لا شيء بعدها من أمور الدنيا، فلا تعارض إذن بين الأحاديث.

٤) إن تكلم الحجر مع المسلم في الحرب الفاصلة بين المسلمين واليهود، فإن هذا خاضع لقدرة الله ﷻ، ولا يعارض الواقع والعلم الحديث والتكنولوجيا، لأن ما أنتجه هذا العصر من مستحدثات يوحي بالاستغراب في أشياء كثيرة، وهذه قدرة البشر، فما بالك بقدرة خالق البشر؟! وقد وقع أمثال ذلك قديمًا للأنبياء مثل موسى عليه السلام ومحمد ﷺ، فقد حنّت الجمادات إليهم، وتحاورت معهم.

التفصيل:

أولا. إخبار الرسول ﷺ بأشراط الساعة هو مما علمه الله من الغيب:

إن علم الغيب هو مما استأثر الله ﷻ به، وقد أشار

الله ﷻ إلى ذلك في غير ما آية من القرآن الكريم، فقد قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ (الأنعام: ٥٩)، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان: ٣٤)، وقد تضافرت الأدلة على ذلك قرآنًا وسنة.

وعلى الرغم من ذلك فإن الله ﷻ قد يُعَلِّم بعض عباده شيئًا من الغيب، فقد قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ (الجن). ومن هذه الآية يُحمل كل غيب أخبر به رسول الله ﷺ سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وكل ما أخبر به فهو حق وصدق يجب الإيمان به عمومًا بدون تأويل.

فقد أخبر ﷺ عن أشياء سابقة وماضية، فثبت أنها طبق ما أخبر، وأخبر عن أمور ستحدث فوقعت وفق ما أخبر.

وأمثلة ذلك كثيرة ومتعددة، وبعض صور ذلك توافق فيها القرآن الكريم.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ (الروم). قال (أي ابن عباس): غُلبت وغَلبت.

قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر ﷺ، فذكره أبو بكر ﷺ لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أما إنهم سَيَغْلِبون. قال فذكره أبو بكر ﷺ لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلًا، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لنا كذا وكذا، فجعل أجلًا خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ، فقال: ألا جعلتها إلى دون. قال: أُراه العَشْر، قال سعيد بن جبير: والبضع ما دون العشر. ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾ (الروم) إلى قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾، قال: يفرحون بنصر الله"[1].

والنبي ﷺ قد أخبر عن علامات الساعة الصغرى، وقد وقع الكثير منها - إن لم تكن كلها - وأخبر بالعلامات الكبرى، وهي لم تقع بعد، وما وقع دليل على ما لم يقع.

وطبقًا لقول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ فإن إعلام الله بعض الغيب لبعض عباده واقع وحقيقة.

قال القرطبي: "قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه، لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات... وقال العلماء رحمة الله عليهم: لما تمدح سبحانه بعلم الغيب، واستأثر به دون خلقه، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم، مسند ابن عباس رضي الله عنهما، (١/ ٢٧٦)، رقم (٢٤٩٥). وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: صحيح على شرط الشيخين.

شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوَّتهم.

وفي التنزيل الحكيم حكى الله على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ (آل عمران: ٤٩)"[1].

وعلى هذا الأساس يحمل كل ما ورد عن النبي ﷺ من أخبار مستقبلية تتعلق باليوم الآخر، وأن ذلك مما أطلعه الله عليه، وليس فيه أدنى دليل على أن النبي ﷺ كان يعلم الغيب إلا ما علمه الله إياه.

ثم إن الأحاديث التي رُويت لنا في الأشراط الخاصة بيوم القيامة أحاديث صحيحة رويت في كتب الأثبات من المحدثين وأهل السنة، وهذا أكبر دليل على صدق رسول الله ﷺ.

ومن الأحاديث التي وردت بشأن الحديث عن القيامة عمومًا، ما رُوي أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه، وأعلمهم بالفتن وأصحابها إلى قيام الساعة؛ لأنه قد صح من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ أنه ﷺ لا يعلم الغيب على هذا النحو المفصل الشامل العجيب إلا بعلم من الله تعالى.

وقد جاء ذلك عنه ﷺ من طُرق متعددة عن عدد من الصحابة الكرام، منهم أبو زيد، وحذيفة، وعمر بن الخطاب، وأبو سعيد الخدري وغيرهم.

فأما حديث أبو زيد (عمرو بن أخطب) قال: "صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر، وصعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: فأعلمُنا أحفظُنا"[2].

وأما حديث حذيفة رضي الله عنه قال: "قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا، ما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل، إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه"[3]، وفي رواية أخرى: "أخبرني رسول الله ﷺ بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، فما منه شيء إلا وقد سألته، إلا إني لم أسأله: ما يُخرج أهل المدينة من المدينة"[4].

وأما حديث عمر رضي الله عنه، فقد رواه طارق بن شهاب، قال: سمعت عمر رضي الله عنه يقول: "قام فينا النبي ﷺ مقامًا، فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه"[5].

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (١٩/ ٢٧، ٢٨).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، (٩/ ٣٩٩٤)، رقم (٧١٣٤).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، (٩/ ٣٩٩٤)، رقم (٧١٣٤).

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: القدر، باب: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾، (١١/ ٥٠٣)، رقم (٦٦٠٤). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، (٩/ ٣٩٩٣)، رقم (٧١٣٠).

٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾، (٦/ ٣٣١)، رقم (٣١٩٢).

وبهذا الحديث يتبين لنا حدود علم رسول الله ﷺ بالغيب، لذلك فلنعلم أن قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (النمل: ٦٥) - ليس هو الغيب المنفي عن البشر؛ لأن إعلام الغيب للبشر مندرج تحت رِضَا الله عن المأذون لهم بإعلام الله الغيب لهم، أما الغيب المنفي عن البشر فهو المذكور في سورة لقمان: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (لقمان: ٣٤). وقد حكى الله ﷻ عن سيدنا عيسى عليه السلام قوله تعالى: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ (آل عمران: ٤٩)، وقال تعالى في حق يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ (يوسف: ٣٧).

وقال في حق رسول الله ﷺ: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ (الفتح: ٢٧).

ويظهر من ذلك أن الأحاديث التي تدل على الغيب من أقوى الأدلة على نبوة رسول الله ﷺ، وأنه يُوحى إليه من قِبَل الله تعالى، ولا دليل فيها على انفراده بعلم الغيب، بل ما علمه من الغيب إنما هو هبة من الله تعالى®.

® في "السنة مصدر أصيل في معرفة الغيب لكونها وحيًا" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الأولى، من الجزء الثامن (الإلهيات). وفي "اتفاق القرآن والسنة على اطلاع النبي على بعض الغيبيات" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السادسة عشرة، من هذا الجزء.

ثانيًا. القرآن والسنة هما الدعامتان الأساسيتان المثبتتان لأشراط يوم القيامة:

إن الحديث عن قضية "الإيمان بالمعاد" وما يحيط بذلك من أحداث عظام تبدأ من سكرة الموت حتى الانتهاء إلى المصير المحتوم بالجنة أو النار، لَهُو حديث لا يخضع لعالم الشهادة بأي سبب من الأسباب، بل هو يقع تحت الإيمان المطلق بعلم الغيب وحيثياته، وقد ضرب أقوام نصوص الشرع بعضها ببعض فقالوا: إن حديثًا عن هذا الموضوع يتطلب منا أن نؤمن بما هو متفق عليه في القرآن الكريم، ولا نُعنَى بأي قول مهما كان قائله، حتى ولو كان القائل هو رسول الله ﷺ، ثم يتجاوزون هذا النطاق إلى نطاق أفظع منه وأشد، فيقولون: إذا كانت هذه الأحاديث التي تناولت أشراط الساعة بهذا التفصيل، فماذا نفعل بقوله تعالى: ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ (الأعراف: ١٨٧)، فهذه الآية تثبت المباغتة مع وقوع الساعة، مع أن هذه الأحاديث تفيد إعلامًا بوقوعها مما يدعو إلى الاستعداد لها، وهو أيضًا منافٍ للحديث الصحيح الوارد عن رسول الله ﷺ، والذي يقول فيه عندما سأله جبريل عليه السلام عن الساعة: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل" إذن هذه الأحاديث مخالفة لصريح القرآن الكريم وصحيح السنة، فهي مردودة.

نقول: إن الإشكال يزول، والأمور تتضح من خلال التأمل الصائب لهذه النصوص كلها.

فلقد وردت في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تدل على صحة معاني أحاديث أشراط الساعة، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم

﴿ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) ﴾ (محمد).

"قوله: ﴿ بَغْتَةً ﴾ حال من الساعة، قال تعالى: ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ (الأعراف: ١٨٧)، والبغتة: الفجأة، وهو مصدر بمعنى المَرَّة، والمراد به هنا الوصف، أي: مباغتة لهم.

ومعنى الكلام: أن الساعة موعدهم، وأن الساعة قريبة منهم، فحالهم كحال من ينتظر شيئًا، فإنما يكون الانتظار إذا اقترب موعد الشيء، هذه الاستعارة تهكُّمِيَّة.

والفاء في قوله ﷻ: ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ (محمد: ١٨) فاء الفصيحة، كالتي في قول عباس بن الأحنف:

قالوا خراسانُ أقصى ما يُراد بنا

ثم القفول فقد جئنا خراسانا

وهذه الفاء الفصيحة تفيد معنى تعليل قرب مؤاخذتهم.

والأشراط: جمع شَرَط بفتحتين، وهو: العلامة والأمارة على وجود شيء أو على وصفه.

وعلامات الساعة هي علامات كونها قريبة، وهذا القرب يتصور بصورتين:

- إحداهما: أن وقت الساعة قريب قربًا نسبيًّا بالنسبة إلى طول مدة هذا العالم ومَنْ عليه من الخلق.
- والثانية: أن ابتداء مشاهدة أحوال الساعة يحصل لكل أحد بموته؛ فإن روحه إذا خلصت عن جسده شاهدت مصيرها مشاهدة إجمالية... ويفسر هذا حديث ابن عمر رضي الله عنهما: "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي. إن كان من أهل الجنة، فَمِن أهل الجنة. وإن كان من أهل النار، فمن أهل النَّار. يُقالُ: هذا مَقعْدك حتى يَبعثك الله إليه يوم القيامة "[1]، ونهاية حياة المرء قريبة وإن طال العمر.

والأشراط بالنسبة للصورة الأولى: الحوادث التي أخبر ﷺ أنها تقع بين يدي الساعة، وأولها بعثته ﷺ؛ لأنه آخر الرسل، وشريعته آخر الشرائع.

وبالنسبة للصورة الثانية أشراطها الأمراض والشيخوخة.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) ﴾ (محمد) تفريع على ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾، و"أنَّى" اسم يدل على الحالة، ويُضَمَّن معنى الاستفهام كثيرًا، وهو هنا استفهام إنكاري؛ أي: كيف يحصل لهم الذكرى إذا جاءتهم الساعة، والمقصود: إنكار الانتفاع بالذكرى حينئذٍ"[2].

ولا نعدم أن نجد القرآن الكريم قد أشار إلى بعض العلامات التي ذكرها النبي ﷺ. وهذا يصحح الأحاديث الواردة بهذا الشأن، فمنها: خروج الدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وهما من العلامات الكبرى، وانشقاق القمر وهو من الصغرى، وقد وقع في زمن النبي ﷺ، وإليه الإشارة في قوله ﷻ: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) ﴾ (القمر).

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: الميت يُعرض عليه مقعده بالغداة والعشيِّ، (٣/ ٢٨٦)، رقم (١٣٧٩). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوُّذ منه، (٩/ ٣٩٧٣)، رقم (٧٠٧٨).

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، (٢٦/ ١٠٣، ١٠٤).

أما دليل هاتين العلامتين الكبيرتين فقوله تعالى عن يأجوج ومأجوج في سورة الكهف: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)﴾ (الكهف)، وقال تعالى أيضًا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦)﴾ (الأنبياء). وقال عن خروج الدابة: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢)﴾ (النمل).

وهاتان العلامتان مذكورتان بالنص في حديث: "إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات..."[1].

وذكر من ضمن هذه العشرة خروج الدابة، ويأجوج ومأجوج.

إذن فما تأويل الشواهد التي استشهد بها الطاعن في رد أحاديث أشراط الساعة؟

نقول: إن استدلالهم بقول الله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ (الأعراف: ١٨٧) لا يصح حجة لهم لإبطال أحاديث علامات الساعة، وذلك أنهم اقتطعوا الجملة من السياق، ولم يفهموا ما قبلها وما بعدها، وذلك من أجل أن تتحقق شمولية فهم الآية بمجموعها، وإلا فلا يصح ما ذهبوا إليه؛ لأن نص الآية إنما يتحدث عن وقت قيام الساعة لا عن عدم الإخبار بمتعلقاتها، ولو كان قولهم صحيحًا لوقعت أمور في مستقبل الأمة ومصيرها، فيصبح ذلك أشد نكارة للإسلام؛ إذ كيف توصف رسالته بالعموم، وكتابه بالإفصاح عن كل شيء، ومع ذلك تقع أشياء هو لم يخبر بها؟! وهاك الآية كلها كما جاءت في كتاب الله ﷻ، وأقوال المفسرين حولها.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾ (الأعراف).

يقول القرطبي في تفسيره لهذه الآية: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ﴿أَيَّانَ﴾ سؤال عن الزمان؛ مثل متى. قال الراجز:

أيان تقضي حاجتي أيَّان

أما ترى لنجحها أوَانَا

وكانت اليهود تقول للنبي ﷺ: إن كنت نبيًّا فأخبرنا عن الساعة متى تقوم.

ورُوي أن المشركين قالوا ذلك لفرط الإنكار، و﴿مُرْسَاهَا﴾ في موضع رفع بالابتداء عند سيبويه، والخبر "أيَّان" وهو ظرف مبني على الفتح؛ بُني لأن فيه معنى الاستفهام. و ﴿مُرْسَاهَا﴾ بضم الميم، من أرساها الله، أي أثبتها، أي: متى مُثْبَتُها؟ أي: متى وقوعها؟

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ (الأعراف: ١٨٧) ابتداء وخبر؛ أي: لم يُبيِّنها لأحد؛ حتى يكون العبد أبدًا على حذر. ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾؛ أي: لا يُظهرها، والتجلية: إظهار الشيء. ﴿لِوَقْتِهَا﴾؛ أي: في وقتها ﴿إِلَّا هُوَ﴾.

ومعنى ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خفي علمها على أهل السماوات والأرض، وكل ما خفي علمه فهو ثقيل على الفؤاد. وقيل: كَبُرَ مجيئها على أهل السماوات والأرض. وقيل: عظم وصفُها على أهل السماوات

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في الآيات التي تكون قبل الساعة، (٩/ ٤٠٠٤)، رقم (٧١٥٣).

والأرض. وقال قتادة وغيره: المعنى لا تُطيقها السماوات والأرض لعظمها؛ لأن السماء تنشق، والنجوم تتناثر، والبحار تنضب. وقيل: المعنى ثقلت المسألة عنها. ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، مصدر في موضع الحال[1].

وقال ابن عاشور: "وجملة: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ مستأنفة، جاءت تكملة للإخبار عن وقت حلول الساعة؛ لأن الإتيان بغتة يُحقق مضمون الإخبار عن وقتها بأنه غير معلوم إلا لله، وبأن الله غيرُ مُظهره لأحد، فَدلَّ قوله: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ على أن انتفاء إظهار وقتها انتفاءٌ متوغل في نوعه، بحيث لا يحصل العلم لأحد بحلولها بالكُنْه ولا بالإجمال، وأما ما ذكر لها من أمارات في حديث سُؤال جبريل عن أماراتها فلا ينافي إتيانها بغتة؛ لأن تلك الأمارات ممتدةُ الأزمان بحيث لا يحصل معها تهيُّؤ للعلم بحلولها. و"البغتة" مصدر على زنة المرَّة من "البغْت" وهو المفاجأة؛ أي: الحصول بدون تهيؤ له"[2].

تلك بعض أقوال المفسرين حول هذه الآية الكريمة، وعرفنا أنها خاصة بوقت قيام الساعة، لا بما يسبقها من علامات، وكون النبي ﷺ يخبر بهذه العلامات، فلا يفهم منه أن قد علم وقتها وأخبر به، فيكون منافيًا لاستئثار علم الله بها، كلا؛ لأن الآية صريحة بميعاد قيامها.

أما استدلالهم بقول الرسول ﷺ لسيدنا جبريل عليه السلام في الحديث الطويل: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل"[3] فمرجعه أيضًا إلى سياق الحديث النبوي الشريف ومفهومه، وذلك في قول جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ: "متى الساعة؟"، فأجاب النبي ﷺ بنفي ذلك عن السائل والمسئول، أي: إذا كنت وأنت ملك لا تعلمها، فمن باب أولى أن لا أعلمها وأنا بشر، قال ابن حجر: "قوله: متى الساعة؟ أي: متى تقوم الساعة"[4].

وعليه يكون المقصود الحقيقي أن الإخبار بعلامات القيامة شيء، ونفي علم وقت وقوعها شيء آخر، ودليل ذلك ما جاء في سؤال جبريل الثاني عن الساعة، قال: فأخبرني عن أماراتها، ولو كان السؤال الأول كالثاني، لما اختلفت إجابة الرسول ﷺ عن السؤالين، فالإجابة عن الأول لما كان عن وقتها كانت بالنفي، والإجابة عن السؤال الثاني، لَمَّا كان عن أماراتها، كانت إجابة الرسول ﷺ وفقًا لما علَّمه الله عز وجل.

وبهذا الجمع الذي أوضحناه بين الآية الشريفة والحديث النبوي يتبين أنهما يتفقان تمام الاتفاق مع ما أخبر به الرسول ﷺ من أمارات للساعة.

وقد جاءت أحاديث كثيرة عن الساعة عَيَّن فيها الرسول ﷺ يوم وقوعها (وهو يوم الجمعة) ووصف جانبًا من كيفية وقوعها، فقال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "تقوم الساعة والرجل يَحْلُبُ اللِّقْحَة[5] فما يصل الإناء

1. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (٧/ ٣٣٥) بتصرف.
2. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، (٩/ ٢٠٤).
3. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل... (١/ ١٤٠)، رقم (٥٠). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، (١/ ٢٩٣)، رقم (٩٣).
4. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١/ ١٤٧).
5. اللِّقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

فيه حتى تقوم، والرجلان يتبايعان الثوب، فما يتبايعانه حتى تقوم، والرجل يلط في حوضه، فما يصدر حتى تقوم"[1].

كما صوَّر جانبًا من هولها، فقال: "فذاك حين يشيب الصغير، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ (الحج)..." الحديث[2].

وتحدث النبي ﷺ عن بعض أشراطها كما في حديث جبريل عليه السلام لما سأله: أخبرني عن أماراتها. قال: "أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان".

ويعد إخبار النبي ﷺ بهذه الأمور من قبيل الإعجاز المؤيد لصدقه ﷺ على مرِّ العصور، ولا يعد ذلك علمًا بالساعة؛ لأن علم الساعة من الأمور الغيبية التي لم ولن يشارك الله أحدٌ في العلم بها، وهذا ما ذكره النبي ﷺ في قوله: "تسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة"[3]، وزاد مسلم في رواية أخرى "وهي حية يومئذ"[4].

وبما أوردنا يتضح أن القرآن الكريم يقر أشراط الساعة ويذكر بعضها تعيينًا، كخروج يأجوج ومأجوج، وخروج دابة الأرض، وهذا نص الأحاديث كما أخبر بها رسول الله ﷺ، كما أنه ينفي أن يكون لأحد علم بوقت ميعادها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ (لقمان: ٣٤).

وهذا ما اتفقت عليه الأحاديث النبوية؛ حيث نفى الرسول ﷺ علمه بوقت قيام الساعة، مع أنه أخبر بعدد من العلامات التي تتقدمها، ولا يفهم من هذا الحديث أن الرسول ﷺ يعلم الغيب؛ لأنه نفى علمه لميقات الساعة، وأكد ذلك بنفيه عن جبريل عليه السلام، وذلك في قوله: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل".

أما إخفاء علم وقوعها والإخبار بعلامتها، فذلك والله أعلم من أجل ألا يؤخذ الناس على غفلة شاملة دون تعيين، فَعُيِّنَتْ لها علامات من أجل الاستعداد، ولم يُشر إلى وقت وقوعها صراحة، حتى لا يتكل الناس على الميعاد المحدد، فلا يذكرون الله إلا قريبًا منها، فتنتفي عبودية الله من الأرض... وغير ذلك من الحكم؛ ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ (الأحزاب).

وقد أنكر المغرضون حديثًا صحيحًا بحجة أنه يثبت - على حد زعمهم - علم النبي ﷺ بميقات الساعة، وهذا يخالف نصوص القرآن التي تؤكد على استئثار الله بعلم ميقات الساعة، كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ...﴾ (الأعراف: ١٨٧)، فمحال أن يعرف النبي ﷺ الغيب الذي استأثر الله بالعلم به، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ (الأنعام: ٥٩).

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (٩/ ٤٠٥٥)، رقم (٧٢٧٩).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: قوله: "يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين"، (٢/ ٧١٧)، رقم (٥٢١).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: قوله: "لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم"، (٩/ ٣٦٦٤)، رقم (٦٣٦٣).

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: قوله: "لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم"، (٩/ ٣٦٦٤)، رقم (٦٣٦٥).

وقد أكد الطاعنون زعمهم بأن تقدير النبي ﷺ لميقات الساعة قد جانب الصواب، وهذا محال على النبي ﷺ.

وهذا الافتراء الذي افتراه هؤلاء المغرضون لا يثبت أمام كل ذي لب أو من لديه أدنى فهم وعلم، وذلك للآتي:

١. قد ورد هذا الحديث في أصح كتب السنة، فقد ورد في صحيحي البخاري ومسلم بروايات عدة:

- **روايات البخاري:**

  - عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رجال من الأعراب جُفَاة يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متى الساعة؛ فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: إن يعش هذا لا يدركه الهَرَمُ حتى تقوم عليكم ساعتكم". قال هشام: يعني موتهم[1].
  - عن أنس بن مالك ﷺ أن رجلًا من أهل البادية أتى النبي ﷺ، فقال: "يا رسول الله، متى الساعة قائمة؟ قال: ويلك وما أعدت لها؟ قال: ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله، قال: إنك مع من أحببت، فقلنا: ونحن كذلك؟ قال: نعم، ففرحنا يومئذ فرحًا شديدًا، فمر غلام المغيرة ـ وكان من أقراني ـ فقال: إن أُخِّرَ هذا فلن يدركه الهرم حتى تقوم الساعة"[2].

- **روايات مسلم:**

  - عن هشام عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: "كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان، فقال: إن يعش هذا، لم يدركه الهرم، قامت عليكم ساعتكم"[3].
  - عن أنس ﷺ "أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ: متى تقوم الساعة؟ وعنده غلام من الأنصار، يقال له محمد، فقال رسول الله ﷺ: إن يعش هذا الغلام فعسى أن لا يدركه الهرم، حتى تقوم الساعة"[4].
  - عن أنس بن مالك، أن رجلًا سأل النبي ﷺ قال: متى تقوم الساعة؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ هنيهة، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أَزد شَنُوءَة، فقال: "إن عُمِّر هذا، لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة"[5].
  - عن أنس قال: "مَرَّ غلام للمغيرة بن شعبة، وكان من أقراني، فقال النبي ﷺ: "إن يؤخَّر هذا، فلن يدركه الهرم، حتى تقوم الساعة"[6].

٢. إضافة ضمير الخطاب إلى كلمة الساعة:

فلقد ذكر البخاري في أولى روايتيه قول النبي ﷺ: "حتى تقوم عليكم ساعتكم"، ونلاحظ أن هذا ما ذكره مسلم أيضًا في إحدى رواياته، وهذا يدل على أن النبي ﷺ لا يتكلم عن الساعة العظمى، بل يتحدث عن الساعة الصغرى، وهي أَجَلُ كل شخص كما قدره الله له، ويؤيد ذلك ما قاله القاضي عياض: "أراد بالساعة:

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الرقاق، باب: سكرات الموت، (١١/ ٣٦٩)، رقم (٦٥١١).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأدب، باب: ما جاء في قول الرجل ويلك، (١٠/ ٥٦٨)، رقم (٦١٦٧).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (٩/ ٤٠٥٥)، رقم (٧٢٧٥).

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (٩/ ٤٠٥٥)، رقم (٧٢٧٦).

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (٩/ ٤٠٥٥)، رقم (٧٢٧٧).

٦. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (٩/ ٤٠٥٥)، رقم (٧٢٧٨).

انقراض القرن الذين هم من عدادهم، ولذلك أضاف إليهم"[١].

٣. اتفاق شراح الحديث على أن المقصود بالساعة في هذا الحديث هو موت المخاطبين، وليس المقصود بالساعة هنا الساعة العظمى:

وفي هذا يقول ابن حجر: "وقال الإسماعيلي... المراد بالساعة ساعة الذين كانوا حاضرين عند النبي ﷺ، وأن المراد موتهم، وأنه أطلق على يوم موتهم اسم الساعة لإفضائه بهم إلى أمور الآخرة، ويؤيد ذلك أن الله استأثر بعلم وقت قيام الساعة العظمى كما دلت عليه الآيات والأحاديث الكثيرة"[٢].

ويقول الإمام النووي رحمه الله: "المراد "بساعتكم" موتهم، ومعناه يموت ذلك القرن أو أولئك المخاطبون"[٣].

وقال السيوطي في قول النبي ﷺ: "حتى تقوم الساعة": "أي ساعة المخاطبين بأن يموتوا"[٤].

وقال شمس الحق العظيم آبادي: "ساعتكم: أي قيامتكم، وهي الساعة الصغرى، والمراد موت جميعهم"[٥]، قال القاضي عياض رحمه الله: "ساعتكم": "يعني موتكم، بهذا فسر الحديث من سلف من أئمتنا كقوله: "من مات فقد قامت قيامته"، ومثله في الباب"[٦]®.

ثالثًا. أحاديث أشراط الساعة متعاضدة لا متنافرة:

رَوتْ كتب السنة المطهرة العديد من الأحاديث الدالة على قيام الساعة، وأول هذه الأحاديث ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثًا لم أنْسَهُ بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضُحَى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريبًا" [٧].

وثاني هذه الروايات ما رواه أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: "أما أَوَّلُ أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب" [٨].

وثالث هذه الروايات ما أخرجه الإمام مسلم عن حذيفة بن أسيد ﷺ: أن النبي ﷺ ذكر الآيات التي تكون قبل قيام الساعة، فقال في آخرها: "وآخر ذلك

---

١. عون المعبود شرح سنن أبي داود، شمس الحق العظيم آبادي، مرجع سابق، (١١/ ٣٤٠).

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٠/ ٥٧٢).

٣. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٤٠٥٦).

٤. الديباج على صحيح مسلم، السيوطي، تحقيق: أبي إسحاق الحويني، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، (٦/ ٢٦٨).

٥. عون المعبود شرح سنن أبي داود، شمس الحق العظيم آبادي، مرجع سابق، (١١/ ٣٤٠).

٦. مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي عياض المالكي، دار التراث، القاهرة، د. ت، (١/ ٧٠٤).

® في **"إخبار السنة بأشراط الساعة لا يتعارض مع القرآن في مجيئها بغتة"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية والعشرين، من هذا الجزء. وفي **"حدوث بعض أشراط الساعة يقطع بصدق النبي وحتمية قيام الساعة"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة العشرين، من هذا الجزء. وفي **"توجيه العلماء لحديث سؤال الأعراب عن وقت قيام الساعة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة العشرين، من هذا الجزء.

٧. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في خروج الدجال، (٩/ ٤٠٤٤)، رقم (٧٢٤٩).

٨. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾، (٨/ ١٥)، رقم (٤٤٨٠).

نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم"[1].

وظاهر هذه الأحاديث ـ في ظنهم ـ يوهم اضطرابًا بين أول آية تقع وآخر آية.

وحل هذا الإشكال والرد على هؤلاء يكون بالتالي:

قوله ﷺ: "أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها"، قال ابن كثير: "أي: أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج، فكل ذلك أمور مألوفة؛ لأن مشاهدته ومشاهدة أمثاله مألوف، فأما خروج الدابة على شكل غريب غير مألوف، ومخاطبتها الناس، ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر فأمرٌ خارج عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة، أول الآيات السماوية"[2].

يقول السيوطي قوله: "أول الآيات خروجًا" فإن قيل: طلوع الشمس من مغربها ليس أول الآيات؛ لأن الدخان والدجال قبله، قلنا: الآيات إما أمارات لقرب قيام الساعة، وإما أمارات دالة على وجود قيام الساعة وحصولها، ومن الأول خروج الدخان، وخروج الدجال ونحوهما، ومن الثاني ما نحن فيه من طلوع الشمس من مغربها، والرجفة، وخروج النار وطردها الناس إلى المحشر[3].

وهذا الكلام شامل ومفيد، لكن لا بد هنا من أن نذكر أقوال أهل العلم في حل الإشكال المتقدم ثم الراجح منه، وقد جمع هذه الأقوال د. سليمان الدبيخي، فقال:

"**القول الأول**: أن طلوع الشمس من مغربها أول الآيات الكائنة في زمان ارتفاع التوبة؛ لأن قبل طلوع الشمس من مغربها التوبة فيه مقبولة.

وإلى هذا ذهب القرطبي، وأشار إلى أن طلوع الشمس من مغربها هو أول تغير في العالم العلوي الذي لم يُشاهد فيه أي تغيير منذ أن خلقه الله تعالى.

القول الثاني: أن طلوع الشمس من مغربها أول الآيات الدالة على قيام الساعة ووجودها، وذلك أن الآيات إما أمارات دالة على قرب القيامة، أو على وجودها. ومن الأول الدجال ونحوه، ومن الثاني طلوع الشمس ونحوه، فأولية طلوع الشمس إنما هي بالنسبة إلى القسم الثاني، وإلى هذا ذهب الطيبي.

القول الثالث: أن طلوع الشمس من مغربها أول الآيات السماوية التي ليست مألوفة، وإلى هذا ذهب ابن كثير وابن أبي العز.

القول الرابع: ما ذهب إليه ابن حجر رحمه الله حيث قال: "الذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى ابن مريم عليه السلام، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوي وينتهي ذلك بقيام الساعة... وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التي تحشر الناس كما تقدم في حديث

---

1. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في الآيات التي تكون قبل الساعة، (٩/ ٤٠٠٣)، رقم (٧١٥٢).
2. النهاية في الفتن والملاحم، ابن كثير، مرجع سابق، (١/ ١٤٢).
3. شرح سنن ابن ماجه، السيوطي، مكتبة قديمي كتب خانة، باكستان، د. ت، ص٢٩٦.

أنس"[1]، قال مرعي بن يوسف: "هذا كلام في غاية التحقيق، جدير بأن يتلقى بالقبول، لما فيه من التدقيق، وقد قرره الحفاظ الأعلام وعلماء الإسلام.

واستحسن هذا الجمع البرزنجي، لكنه قال: لو قال: وينتهي ذلك بخروج الدابة، بدل قوله: بموت عيسى عليه السلام لكان أولى وأوضح"[2].

تلك هي أقوال أهل العلم في هذه المسألة، "والناظر في الأقوال المتقدمة في توجيه حديث: "إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها" يلاحظ أنها كلها تذهب إلى أن طلوع الشمس من مغربها ليس أول الآيات على الإطلاق، وأن وصفها بالأولية، إنما هو نسبي إضافي، أي: بالنسبة إلى آيات معينة، وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه، لأنه بعد طلوعها من المغرب ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ (الأنعام: ١٥٨)، ولازم هذا أن يكون نزول عيسى عليه السلام سابقًا لخروجها من مغربها؛ لأن الإيمان في زمنه نافع ومقبول، وباب التوبة مفتوح، ومعلوم أن خروج الدجال سابق لنزوله، وأن ظهور يأجوج ومأجوج ثم هلاكهم، يكون في زمنه، كما دل على ذلك حديث النواس بن سمعان عند مسلم، فهذه الآيات كلها متقدمة على طلوع الشمس من مغربها"[3].

قال ابن حجر: قال البيهقي: إن كان في علم الله أن طلوع الشمس سابق على خروج الدجال ونزول المسيح عيسى عليه السلام، احتمل أن يكون المراد نفي النفع عن أنفس القرن الذين شاهدوا ذلك، فإذا انقرضوا، وتطاول الزمان، وعاد بعضهم إلى الكفر، عاد تكليفه الإيمان بالغيب.

وإن كان في علم الله تعالى أن طلوع الشمس بعد نزول عيسى عليه السلام، احتمل أن يكون المراد بالآيات في هذا الحديث آيات أخرى غير الدجال ونزول عيسى؛ إذ ليس في الخبر نص على أنه يتقدم عيسى عليه السلام[4].

"وقال محمد صديق حسن القنوجي: والحاصل أن الأولية إضافية لا حقيقية.

وما ذكر من الأقوال في توجيه الحديث فكل ذلك محتمل، ولا تعارض بينها؛ إذ يمكن القول بمجموعها، فيقال: طلوع الشمس من مغربها هو أول الآيات السماوية التي ليست مألوفة، وذلك مُؤذن بتغير العالم العلوي، وانقطاع التوبة، وقيام الساعة"[5].

قال ابن حجر: "قال الحاكم أبو عبد الله: الذي يظهر أن طلوع الشمس يسبق خروج الدابة، ثم تخرج الدابة في ذلك اليوم، أو الذي يقرب منه، قلت: والحكمة في ذلك أن عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة، فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر تكميلًا للمقصود من إغلاق باب التوبة"[6].

وبما ذكر يرد على دعواهم بتناقض أحاديث أول الآيات ظهورًا، وكذلك يرد على معارضتهم هذه

---

١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١١/ ٣٦١).
٢. أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، د. سليمان الدبيخي، مرجع سابق، ص٥٧٨، ٥٧٩.
٣. المرجع السابق، ص٥٨٠.
٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١١/ ٣٦٢) بتصرف.
٥. المرجع السابق، (١١/ ٣٦١).
٦. أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، د. سليمان الدبيخي، مرجع سابق، ص٥٨٠.

الأحاديث بحديث نزول عيسى عليه السلام من السماء، وحكمه بشريعة الإسلام، وكان المرجَّح أن طلوع الشمس من مغربها ليس أول الآيات ظهورًا على الإطلاق.

أما ما يتعلق بأن أول هذه الآيات نار تحشر الناس، فقد أجاب عنه ابن حجر - كما تقدم - بأن المراد: أن النار أول الآيات المؤذنة بقيام الساعة.

وأولى من هذا الجواب ما دل النص عليه، حيث أخرج الإمام أحمد هذا الحديث بلفظ: "وأما أول شيء يحشر الناس فنار تخرج من قبل المشرق فتحشرهم إلى المغرب..."[1]، وهذا يؤيد ما تقدم من كون الأولية هنا نسبية لا مطلقة.

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه "أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الآيات التي تكون قبل قيام الساعة، فقال في آخرها: "وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم"[2].

قال ابن حجر: "وهذا في الظاهر يعارض حديث أنس، ثم قال: ويجمع بينهما: بأن آخريتها باعتبار ما ذكر معها من الآيات، وأوليتها باعتبار أنها أول الآيات التي لا شيء بعدها من أمور الدنيا أصلًا، بل يقع بانتهائها النفخ في الصور، بخلاف ما ذكر معها، فإنه يبقى بعد كل آية أشياء من أمور الدنيا"[3].

"ولكن الذي يظهر أن المراد بأوليتها ما تقدم في رواية الإمام أحمد: أنها أول ما يحشر الناس، وأما آخريتها فالمتعين ما ذكره الحافظ ابن حجر"[4].

إذن قيل: أول الآيات خروج الدجال، ثم نزول عيسى عليه السلام، ثم خروج يأجوج ومأجوج، ثم خروج الدابة، ثم طلوع الشمس من مغربها؛ فإن الكفار يسلمون في زمان عيسى عليه السلام حتى تكون الدعوة واحدة، ولو كانت الشمس طلعت من مغربها قبل نزول عيسى عليه السلام لم يكن الإيمان مقبولًا من الكفار[5].

وبهذا يزول الإشكال بين تلك الأحاديث كلها.

رابعًا. حديث مخاطبة الحجر للمسلم لا يخالف العلم والواقع:

لقد روى الإمام البخاري رحمه الله حديثًا يتناول حدثًا مما سيكون قبل قيام الساعة، ألا وهو قتال المسلمين لليهود، ويذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم خارقًا من خوارق العادات، ألا وهو حديث الحجر مع المسلم، وهذا الحديث نصه؛ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر، فيقول: يا عبد الله؛ هذا يهودي ورائي فاقتله"[6]، وفي رواية أبي هريرة: "لا تقوم الساعة حتى

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك، رقم (١٣٨٩٥). وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في الآيات التي تكون قبل الساعة، (٩/ ٤٠٠٣)، رقم (٧١٥٢).

٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٣/ ٨٨).

٤. أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، د. سليمان الدبيخي، مرجع سابق، ص٥٨٢.

٥. شرح سنن ابن ماجه، السيوطي، مرجع سابق، (١/ ٢٩٦).

٦. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجهاد والسير، باب: قتال اليهود، (٦/ ١٢١)، رقم (٢٩٢٥).

تقاتلوا اليهود..." فذكره[١].

وهذا الحديث يفيد إخبارًا بحادثة ستقع بين قيام الساعة، وهي مقاتلة المسلمين اليهود والانتصار عليهم، وأخبر النبي ﷺ بمعجزات ستقع في هذه الحرب النهائية، ومن تلك المعجزات معجزة مخاطبة الحجر للمسلم، ويكون الحجر في صف المسلم؛ إذ يقول له: يا مسلم: هذا يهودي ورائي فاقتله.

وهذا الحديث لم يعجب بعض الناس، فقالوا: كيف يحدث في عصر العلم والتقدم والتكنولوجيا أن يتكلم الحجر، ويتودد مع المسلم، وهذا لم يحدث لنبي من الأنبياء؟!

نقول: إن الحديث صحيح سندًا، وقد رواه الإمام البخاري رحمه الله وغيره من المحدِّثين، أما ما ذكر فيه من معجزة نطق الجماد ـ الحجر ـ فإننا يجب علينا أولًا أن نؤمن بقدرة الله المطلقة، وهو سبحانه بمقتضى حكمته قد جعل الكون يسير على قانون ونظام حتى لا تتيه الكائنات خلف المفاجآت، وهذا لا يعني أن القوانين الكونية تحكم الكون باستقلال عن قدرة الله وعن إرادته، وإنما ربنا ﷻ له ما يريد، وهو قادر على إنفاذه، ولكن القدرة تعمل وإلى جوارها الحكمة، فما كان مناسبًا للحكمة تعلقت به الإرادة وأوجدته، فإذا ما اقتضت حكمة الله ﷻ أن يكون كل شيء في الوجود على مقتضى قوانينه الضابطة سَيَّرَه الله وفقًا لهذه القوانين. أما حين تقتضي الحكمة أن يخرق الله عادة هذه القوانين لأمر يريده هو فَعَل.

وإذا كان هؤلاء ينكرون قدرة الله أن تُنْطِقَ الحجر فما القول في حادث الفيل الذي امتلك إرادةً صلبةً في وجه أبرهة وجنوده، فامتنع عن الذهاب إلى الكعبة لهدمها مع أنهم أَصْلَوْه سوء العذاب لدرجة أنهم عذبوه بالحديد المحمي في النار، وهو على موقفه في غاية الإصرار؟!

ولم يكن الفيل وحده، وإنما معه هذا الطير الأبابيل التي رمت القوم بحجارة من سجيل، ولم تكن هذه الأمور كلها في سِرِّيَّة، وإنما كانت من الإعلان بحيث رآها أبناء هذا الجيل بمكة، ورآها معهم جنود آثمون، رأوا الحديث بعيونهم، وذاقوا ويلاته حتى مات الكثيرون منهم.

ثم ما موقف العلم الذي تتحدثون عنه بالنسبة لعيسى عليه السلام الذي ولد بغير أب؟ أم أن منكري السنة سيقولون مع الآثمين: إنه ابن يوسف النجار؟!

وماذا سيقول العلم ساعة المخاض لمريم حين أُمرت ـ وهي في غاية الضعف والإعياء ـ أن تهز جذع النخلة من أسفل، فأسقطت النخلة لها رطبًا جنيًّا من غير أن تهتز، ومن غير أن تتمايل، فقط هي إشارة مريم إلى النخلة، واستجابةٌ منها لمريم كأن بها إحساسًا وحركة؟

وقد ألقى موسى عصاه بأمر الله، ثم نظر إليها تهتز كأنها جان، فولَّى مدبرًا ولم يُعقب.

فالأمر إذًا ليس أمرًا علميًّا أو تطبيقيًّا، وإنما الأمر كله هو أمر إيمان بالله وقدرته وحكمته وعلمه وإرادته.

ومن المعلوم أن آخر الزمان فيه من الأعاجيب ما فيه من خروج الدابة لا محالة بنص القرآن، وفيه نزول عيسى عليه السلام يؤازر المسلمين، ويكسر الصليب، ويقتل الدجال والخنزير، ويضع الجزية، وهو على ملة محمد نبينا ﷺ، وفي زمان نزول المسيح يمكِّن الله ﷻ

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجهاد والسير، باب: قتال اليهود، (٦/ ١٢١)، رقم (٢٩٢٦).

المسلمين من اليهود تمكينًا تامًّا؛ حتى يقول الحجر بلسان الحال أو المقال: "يا مسلم خلفي يهودي فاقتله" فإن قال بلسان الحال فالأمر يمر عاديًّا، وإن قال بلسان المقال فإنا قد آمنا وصدقنا بما قال النبي ﷺ والعصر عصر الأعاجيب[1].

ثم إنه في ظل هذا التقدم التكنولوجي المشهود بفعل البشر، حيث الكمبيوتر والإنترنت وما أشبهها من وسائل متعددة للاتصالات، أيستغرب حدث مثل نطق الحجر ومخاطبته الإنسان؟ وهاكم الأمثلة الكثيرة على إحساس الجماد قديمًا:

- ألم يحمل الحجر ثوب موسى عليه السلام ويجري به وسط الناس، وموسى عليه السلام خلفه يقول: ثوبي حجر[2]؟
- وكان هناك حجر يُسلم على رسول الله ﷺ في مكة[3].
- وقد حنَّ جذع النخلة إليه ﷺ[4].
- وقد تكلم ذراع الشاة في يديه ﷺ[5].

وفوق كل ذلك ما ذكرناه من كلام الدابة الذي هو من علامات الساعة، وذلك ليعلن للذين لا يؤمنون إلا بالمادة، ولا يدينون لله بغيب، أن المسألة ليست عقلية فقط، بل هي خاضعة لإرادة الله، فجاء الشرع الحنيف ليبين هذه الأمور للناس جميعًا ليعلموا أن شيئًا غير مستعصٍ على قدرة الله، ليحول الجماد إلى متكلم ينطق ويتودد ويتعاطف، ولا استغراب عندنا في ذلك، فهو واقع وملموس.

من خلال ما ذكرنا يتبين أن المسألة ـ أي تكلم الحجر ـ تخضع لمشيئة الله وقدرته، ولا تعارض بما ظهر من وسائل تكنولوجية حديثة، فالمسألة واقعة قديمًا وحديثًا، ولا حجة للمنكرين لما وراء المادة في نفي شيء صح عن رسول الله ﷺ.

الخلاصة:

- إن أحاديث أشراط الساعة صحيحة في أعلى درجات الصحة، وقد رويت من طرق متعددة عن النبي ﷺ، وهي توحي بمرادها، وليست دليلًا على علم رسول الله ﷺ الغيب؛ لأن ما أخبر به رسول الله ﷺ من غيب في الماضي أو الحاضر أو المستقبل إنما هو مما علمه الله إياه.
- لم يقتصر إعلام الله بالغيب على النبي محمد ﷺ فقط؛ لأن الله عز وجل جعل مقياس هبته الغيب لأحد من رسله هو الرضا التام، وقد رضي الله عز وجل عن كل الرسل، وإلا لما اختارهم لرسالته، وقد أعطى كل واحد حظه من الغيب إلا ما استأثر الله بعلمه، كالغيبيات الخمسة التي في نهاية سورة لقمان.
- لقد أشار القرآن الكريم بما يوحي أن للساعة علامات، فقال تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ (محمد: 18) فهذا يعطي إشارة

---

1. ضلالات منكري السنة، د. طه حبيشي، مرجع سابق، ص320: 322 بتصرف.
2. انظر: صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: رقم (28)، (6/ 502)، رقم (3404).
3. انظر: صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه، (8/ 3410)، رقم (5829).
4. انظر: صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة، (6/ 696)، رقم (3583).
5. انظر: صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الطب، باب: ما يذكر في سم النبي ﷺ، (10/ 255)، رقم (5777).

صريحة إلى أن للساعة أشراطًا، وهذا يعتبر دليلًا على ما ذكره النبي ﷺ من علامات للساعة.

- قد ذكر الله تعالى بعضًا من أشراط يوم القيامة كما ذكرها النبي ﷺ في أحاديثه، ومن تلك العلامات خروج الدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، مما يؤكد صحة الأحاديث الواردة في أشراط الساعة.

- المقصود بقوله: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل" أي: وقت قيامها، وليس فيها نفي من رسول الله ﷺ لعلمه بأشراط الساعة، وذلك أن جبريل عليه السلام قد سأله سؤالًا تابعًا لهذا السؤال يطلب فيه من رسول الله ﷺ أن يخبره ببعض علاماتها، وهذا يؤكد الاختلاف بين السؤالين المطروحين على رسول الله ﷺ ـ فالأول خاص بوقت وقوعها، والثاني بأماراتها.

- ليس إخبار الرسول ﷺ بأشراط الساعة علمًا منه بالغيب، كلا بل هو القائل: " تسألوني عن الساعة ـ أي: عن وقت قيامها ـ وإنما علمها عند الله"، وما أخبر به من علامات لها إنما هو مما علمه الله.

- إن طلوع الشمس من مغربها ليس أول الآيات ظهورًا؛ وذلك أنه بطلوعها يُغلق باب التوبة، ويصبح الإيمان والعمل غير نافعين، فتكون الأولية المذكورة في بعض الأحاديث أولية نسبية إضافية، لأن طلوع الشمس سوف يسبقها نزول عيسى عليه السلام وخروج يأجوج ومأجوج والدجال، وفي حياة عيسى عليه السلام سيكون الإيمان مقبولًا لأنه سيحكم بالإسلام.

- إن ما ذكر في الحديث الصحيح من أن النار أول الآيات ظهورًا، وفي حديث أنها آخرها، لا تعارض بينهما، لأنه يجمع بينهما بأن آخريتها باعتبار ما ذكر معها من آيات، أما أوليتها فباعتبار أنها أول الآيات التي لا شيء بعدها من أمور الدنيا أصلًا.

- إنَّ حديث تَكلُّم الحجر مع المسلم في الحرب الفاصلة بين المسلمين واليهود لا يتعارض مع العلم الحديث، لأن العلم فيه الكثير من الغرائب والعجائب، وقد تحدث الجماد مع رسول الله ﷺ في مواقف عديدة، كسلام الحجر عليه، وحنين الجذع إليه، وهذا أمر غير مستغرب للغاية؛ لأنه خاضع لقدرة الله المطلقة ومشيئته.

الشبهة العشرون

الطعن في أحاديث وقت قيام الساعة(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض منكري السنة في بعض الأحاديث الصحيحة التي وردت عن النبي ﷺ في وقت قيام الساعة. ومن هذه الأحاديث حديث رسول الله ﷺ الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه: "أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ متى تقوم الساعة؟ ــ وعنده غلام من الأنصار يُقَال له محمد ـ فقال رسول الله ﷺ: إن يعش هذا الغلام، فعسى أن لا يُدْركه الهَرَم حتى تقوم الساعة". وحديث رسول الله ﷺ الذي رواه الشيخان في صحيحيهما: عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "بعثت أنا والساعة كهاتين".

ويستدلون على طعنهم في الحديث الأول بأن

(*) تحرير العقل من النقل، سامر إسلامبولي، مرجع سابق. منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل، عزية علي طه، دار البحوث العلمية، الكويت، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

الملاحظ - كما يفهمون - من الحديث أن الجواب قد حدد قيام الساعة خلال فترة زمنية لا تتجاوز أن يبلغ الغلام سن الهَرَم، أي ما يقرب من ستين عامًا، وقد مضى على قول الحديث أكثر من ألف وأربعمائة عام، ولم تقم الساعة.

ومن المعلوم أن الله ﷻ قد اختص نفسه بعلم الساعة ولم يخبر به أحدًا؛ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ (لقمان:٣٤)، وأن الله ﷻ قد علَّم رسوله ﷺ الجواب عندما يسأل عن وقت قيام الساعة، فقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب:٦٣).

مما يؤكد أن هذا الحديث، وأي حديث يتعلق بتحديد وقت قيام الساعة باطل وكذب وافتراء على الله ورسوله ﷺ.

ويستدلون على طعنهم في الحديث الثاني بأن رسول الله ﷺ قد تحدث عن اقتراب الساعة وبيان علاماتها، بل إنه هنا أشار بإصبعيه لبيان قربها، وذلك متناقض مع واقع الحياة؛ حيث إنه من الواضح أن الساعة لم تأت طيلة القرون الطوال بعد موت النبي ﷺ. هادفين من وراء ذلك كله إلى رد هذين الحديثين؛ تمهيدًا للطعن في جميع أحاديث السنة.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن حديث رسول الله ﷺ: "... فعسى أن لا يدركه الهَرَم حتى تقوم الساعة" حديث صحيح في غاية الصحة؛ لإيراد الإمام مسلم له في صحيحه، ولصحة شواهده بطرقها المتعددة في الصحيحين، كما أنه ﷺ لم يقصد - أبدًا - من هذا الحديث قيام الساعة الكبرى؛ وإنما قصد قيام ساعة الأعرابي الذي سأله متى قيام الساعة؟ أي: موته؛ لعلم النبي ﷺ بجفاء الأعراب وقلة إيمانهم، فلو قال له: لا أدري، لارتاب في الدين.

٢) لقد أجمعت الأمة على صحة حديث: "بعثت أنا والساعة كهاتين"، وتلقته بالقبول؛ فقد اتفق الشيخان على صحته، وقد قصد النبي ﷺ بذلك المبالغة في قرب وقوع القيامة؛ فبعثة النبي ﷺ هي أول أشراط الساعة، التي لن تقوم الساعة إلا بوقوعها جميعًا.

التفصيل:

أولا. اتفاق العلماء على صحة حديث "... فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة" سندًا ومتنًا:

لقد استأثر الله ﷻ لنفسه بعلم الساعة ووقت قيامها، ولم يخبر به أحدًا من خلقه، لا نبيًّا مرسلًا ولا ملكًا موكلًا، فقد جاءت آيات قرآنية كثيرة بهذا المعنى؛ منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ (لقمان:٣٤). وقال تعالى أيضًا: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النازعات). وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (الأحزاب).

وقد وردت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في بيان استئثار الله ﷻ بوقت قيام الساعة، فمن تلك الأحاديث ما رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث طويل سُئل فيه النبي ﷺ: متى الساعة؟ فقال: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأَمَةُ رَبَّهَا، وإذا تطاول رعاة الإبل البُهْم في البنيان..."

الحديث[١].

قال الإمام النووي: "فيه أنه ينبغي للعالم والمفتي وغيرهما إذا سُئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، وأن ذلك لا يَنْقُصُه، بل يستدل به على ورعه وتقواه ووفور علمه"[٢].

وقد نقل الحافظ ابن حجر في "الفتح" عن القرطبي قوله: "مقصود هذا السؤال كفُّ السامعين عن السؤال عن وقت الساعة؛ لأنهم قد أكثروا السؤال عنها كما ورد في كثير من الآيات والأحاديث، فلما حصل الجواب بما ذكر هنا حصل اليأس من معرفتها، بخلاف الأسئلة الماضية فإن المراد بها استخراج الأجوبة ليتعلمها السامعون ويعملوا بها، ونبَّه بهذه الأسئلة على تفصيل ما يمكن معرفته مما لا يمكن"[٣].

وجاء في صحيح البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه: "أن رسول الله ﷺ قال: مفاتيح الغيب خمس: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ (لقمان)[٤].

فوقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله ﷻ؛ ولذلك نهى الله ﷻ عن الخوض في ذلك؛ وإنما يجب علينا أن نشغل أنفسنا بالاستعداد لذلك اليوم، والخشية من أهواله، وذلك ما أشار إليه رب العزة ﷻ بقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾ (النازعات).

أما ما يتعلق بحديث رسول الله ﷺ عن أنس ﷺ: "أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ: متى تقوم الساعة؟ وعنده غلام من الأنصار يقال له محمد ـ فقال رسول الله ﷺ: "إن يعش هذا الغلام، فعسى أن لا يدركه الهَرَم، حتى تقوم الساعة"[٥].

فالحديث صحيح ولا غبار عليه؛ فقد رواه الإمام مسلم في صحيحه، ولا مطعن في سنده على الإطلاق، وللحديث شواهد من طرق أخرى في الصحيحين.

فعن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رجال من الأعراب جُفَاة يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متى الساعة؟ فكان ينظر إلى أصغرهم، فيقول: إن يَعش هذا، لا يُدْرِكُه الهرم، حتى تقوم عليكم ساعتكم قال هشام: يعني موتهم"[٦].

وعن أنس ﷺ: "أن رجلًا سأل النبي ﷺ قال: متى تقوم الساعة؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ هُنَيْهة، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أَزْدِ شَنُوءَة، فقال: "إن عُمِّرَ هذا، لم يدركه الهَرَم حتى تقوم الساعة"[٧].

وورد في صحيح البخاري عن أنس ﷺ: "أن رجلًا

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل ﷺ النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام وعلم الساعة، (١/ ١٤٠)، رقم (٥٠). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان... (١/ ٣٠٧)، رقم (٩٩).

٢. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (١/ ٣٠١).

٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١/ ١٤٨).

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الأنعام، (٨/ ١٤١)، رقم (٤٦٢٧).

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (٩/ ٤٠٥٥)، رقم (٧٢٧٦).

٦. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الرقاق، باب: سكرات الموت، (١١/ ٣٦٩)، رقم (٦٥١١). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (٩/ ٤٠٥٥)، رقم (٧٢٧٥).

٧. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (٩/ ٤٠٥٥)، رقم (٧٢٧٧).

من أهل البادية أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، متى الساعة قائمة؟ قال: ويلك، وما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله، قال: إنك مع مَنْ أحببت، فقلنا ونحن كذلك؟ قال: نعم، ففرحنا يومئذ فرحًا شديدًا، فمرَّ غلام للمغيرة - وكان من أقراني - فقال: إن أُخِّرَ هذا فلن يدركه الهَرَمُ حتى تقوم الساعة"[1].

ومن الجدير بالذكر أنه لم يُؤْثَر عن أحد من علماء الحديث وشراحه أنه قال بالفهم الذي فهمه المدعي من الحديث خطأ، وإنما وجَّه العلماء هذا الحديث عدة توجيهات، منها:

قال ابن حجر رحمه الله: "وقال الإسماعيلي بعد أن قرر أن المراد بالساعة ساعة الذين كانوا حاضرين عند النبي ﷺ، وأن المراد موتهم، وأنه أطلق على يوم موتهم اسم الساعة لإفضائه بهم إلى أمور الآخرة، ويؤيد ذلك أن الله استأثر بعلم وقت قيام الساعة العظمى، كما دلت عليه الآيات والأحاديث الكثيرة، قال: ويحتمل أن يكون المراد بقوله: "حتى تقوم الساعة" المبالغة في تقريب قيام الساعة لا التحديد... وهذا عمل شائع للعرب يستعمل للمبالغة عند تفخيم الأمر وعند تحقيره، وعند تقريب الشيء وعند تبعيده، فيكون حاصل المعنى أن الساعة تقوم قريبًا جدًّا.

ثم قال ابن حجر: وبهذا الاحتمال الثاني جزم بعض شراح "المصابيح"، واستبعده بعض شراح "المشارق" وقال الداودي: المحفوظ أنه ﷺ قال ذلك للذين خاطبهم بقوله تأتيكم ساعتكم، يعني بذلك موتهم؛ لأنهم كانوا أعرابًا، فخشي أن يقول لهم: لا أدري متى الساعة فيرتابوا؛ فكلمهم بالمعاريض، وكأنه أشار إلى حديث عائشة رضي الله عنها الذي أخرجه مسلم: "كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان، فقال: إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم"[2].

قال عياض، وتبعه القرطبي: "هذه رواية واضحة تفسر كل ما ورد من الألفاظ المشكلة في غيرها"[3].

وقال ابن كثير معقبًا على الحديث السابق وما هو على شاكلته بقوله: "وهذا الإطلاق في هذه الرواية محمول على التقييد "بساعتكم" في حديث عائشة رضي الله عنها"[4].

ومما يؤكد ذلك ويعضده حديث جابر بن عبد الله، قال: "سمعت النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: تسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة"[5].

وجاء في صحيح مسلم عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر رضي الله عنهما: "وإنما قال رسول الله ﷺ: لا يبقى

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأدب، باب: ما جاء في قول الرجل: ويلك، (١٠/ ٥٦٨)، رقم (٦١٦٧).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (٩/ ٤٠٥٥)، رقم (٧٢٧٥).

٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٠/ ٥٧٢).

٤. معارج القبول، حافظ أحمد حكمي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، (٢/ ٥٩٢).

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: قوله ﷺ: "لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة"، (٩/ ٣٦٦٤)، رقم (٦٣٦٣).

ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد - يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن"[١].

مما سبق يتضح جليًّا أن النبي ﷺ لم يقصد بقوله "حتى تقوم الساعة" الساعة الكبرى "القيامة"؛ وإنما قصد بذلك ساعتهم هم أي موتهم، كما دلت على ذلك باقي الأحاديث في هذا الشأن.

فقد ذكر ابن حجر في "الفتح" ما يؤيد ذلك، فقال: "قال الداودي: هذا الجواب من معاريض الكلام؛ فإنه لو قال لهم: لا أدري ابتداءً مع ما هم فيه من الجفاء، وقبل تمكن الإيمان في قلوبهم لارتابوا، فعدل إلى إعلامهم بالوقت الذي ينقرضون هم فيه، ولو كان تمكن الإيمان في قلوبهم لأفصح لهم بالمراد"[٢].

وخلاصة القول في ذلك أن حديث النبي ﷺ: "... إن يعش هذا الغلام، فعسى ألا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة" هو حديث صحيح في أعلى درجات الصحة، فقد رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وله شواهد من طرق أخرى كثيرة، وكلها صحيحة سندًا، كما أن الحديث صحيح متنًا؛ لأن النبي ﷺ لم يقصد بقوله: "حتى تقوم الساعة" الساعة الكبرى "يوم القيامة"؛ وإنما قصد ساعة هذا الأعرابي الذي سأله متى الساعة؟ لعلمه ﷺ بجفاء الأعراب وقلة إيمانهم؛ فخشي أن يقول لهم: لا أعلم؛ فيرتاب الذين في قلوبهم مرض، وبذلك فإن طعنهم في هذا الحديث مردود وشبهتهم باطلة®.

ثانيًا. حديث "بعثت أنا والساعة كهاتين" صحيح في أعلى درجات الصحة، وقد أراد ﷺ بيان المبالغة في قرب وقوع الساعة:

إن حديث رسول الله ﷺ: "بعثت أنا والساعة كهاتين"[٣] حديث صحيح في أعلى درجات الصحة، فقد اتفق الشيخان على صحته، وأورداه في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك ؓ مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

وللحديث شواهد أخرى بطرق متنوعة، وكلها صحيحة في أعلى درجات الصحة.

فقد أورد البخاري عن سهل ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "بعثت أنا والساعة كهاتين؛ ويشير بإصبعيه فيمدهما"[٤].

وجاء في صحيح البخاري أيضًا عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: "بعثت أنا والساعة كهاتين، يعني إصبعين"[٥].

وقد أورد الإمام مسلم في صحيحه عن سهل؛

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: قوله ﷺ: "لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة"، (٩/ ٣٦٦٤)، (٦٣٦١).

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٠/ ٣٧١).

® في **"الفهم الصحيح لميقات الساعة في قول النبي: إن يعش هذا فلن يدركه الهرم حتى تقوم الساعة"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة عشرة، من هذا الجزء.

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الرقائق، باب: قول النبي ﷺ "بعثت أنا والساعة كهاتين"، (١١/ ٣٥٥)، رقم (٦٥٠٤). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (٩/ ٤٠٥٤)، رقم (٧٢٧٠).

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الرقائق، باب: قول النبي ﷺ "بعثت أنا والساعة كهاتين"، (١١/ ٣٥٥)، رقم (٦٥٠٣).

٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الرقائق، باب: قول النبي ﷺ "بعثت أنا والساعة كهاتين"، (١١/ ٣٥٥)، رقم (٦٥٠٥).

يقول: "سمعت النبي ﷺ يشير بإصبعيه التي تلي الإبهام والوسطى، وهو يقول: بعثت أنا والساعة هكذا"[1].

وجاء في صحيح مسلم أيضًا عن شعبة قال سمعت قتادة، وأبا التَّيَّاح يحدثان أنهما سمعا أنسًا ﷺ يُحدِّث؛ أن رسول الله ﷺ قال: "بعثت أنا والساعة هكذا"، وقرن شعبة بين إصبعيه، المُسَبِّحة والوسطى، يحكيه"[2].

وجميع تلك الأحاديث صحيحة ولا مطعن في سندها، أما من حيث المتن، فالحديث الشريف صحيح ولا غبار عليه، أما ما يدعيه بعض أعداء السنة من أن الحديث مردود؛ لمخالفته الواقع المشاهد من أن الساعة لم تأت بعد، بالرغم من إشارة النبي ﷺ بإصبعيه لبيان قربها، وقد مرَّت قرون طويلة ولم يتحقق ما صرَّح به النبي ﷺ - فهذا زعم باطل وادِّعاء مُفْتَرى؛ فالنبي ﷺ قد أكد في أكثر من حديث شريف على قرب مجيء الساعة، ووجوب الاستعداد لها بالعمل الصالح، والقرآن الكريم كذلك قد بين في أكثر من موضع قرب وقوع الساعة، فقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ (الأنبياء)، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ (القمر)، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾ (الأحزاب)، وقال تعالى أيضًا: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (النحل)، وقال تعالى في بيان مجيء أشراط الساعة: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ (محمد:١٨).

فقُربُ الساعة أمر مُسَلَّم به، ومؤكَّد من الكتاب والسنة، لكن وقت قيامها تحديدًا هذا ما استأثر به العليم الخبير لنفسه ﷻ؛ وذلك لحكم وفوائد عظيمة.

فقد قال الألوسي: "وإنما أخفى ﷻ أمر الساعة لاقتضاء الحكم التشريعية ذلك؛ فإنه أَدْعَى إلى الطاعة، وأَزْجَرُ عن المعصية، كما أن إخفاء الأجل الخاص بالإنسان كذلك، ولو قيل بأن الحكمة التكوينية تقتضي ذلك أيضًا لم يبعد، وظاهر الآيات على أنه ﷺ لم يعلم وقت قيامه، نعم علم ﷺ قربها على الإجمال"[3].

فليس معنى قوله ﷺ "بعثت أنا والساعة كهاتين" أن الساعة ستقوم على الفور، أو في وقت محدد يعلمه النبي ﷺ؛ وإنما أراد المبالغة في قرب الساعة، فبعثة النبي ﷺ هي علامة من علامات الساعة الصغرى.

وقد ذكر ابن حجر في تعليقه على هذا الحديث: "قال عياض وغيره: أشار بهذا الحديث - على اختلاف ألفاظه - إلى قلة المدة بينه وبين الساعة، والتفاوت إما في المجاروة وإما في قدر ما بينهما... وقال القرطبي في "المفهم": حاصل الحديث تقريب أمر الساعة وسرعة مجيئها... وقال القرطبي في "التذكرة": معنى هذا الحديث تقريب أمر الساعة، ولا منافاة بينه وبين قوله في الحديث الآخر: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل"؛ فإن المراد بحديث الباب أنه ليس بينه ﷺ وبين الساعة نبيٌّ، كما ليس بين السبابة والوسطى أصبع أخرى، ولا يلزم من ذلك علم وقتها بعينه، لكن سياقه يفيد قربها، وأن أشراطها متتابعة؛ كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (٩/ ٤٠٥٤)، رقم (٧٢٦٩).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (٩/ ٤٠٥٤)، رقم (٧٢٧١).

٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، مرجع سابق، (٩/ ١٣٤).

جَآءَ أَشۡرَاطُهَا ﴾ (محمد: ١٨).

وقال الضحاك: أول أشراطها بعثة محمد ﷺ، والحكمة في تقدم الأشراط إيقاظ الغافلين وحثهم على التوبة والاستعداد.

وقال الكرماني: قيل: معناه الإشارة إلى قرب المجاورة، وقيل: إلى تفاوت ما بينهما طولًا.

وعقَّب ابن حجر: "وقيل: المراد ليس بينهما واسطة، ولا معارضة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ (لقمان: ٣٤) ونحو ذلك؛ لأن علم قربها لا يستلزم علم وقت مجيئها معيَّنًا، وقيل: معنى الحديث أنه ليس بيني وبين القيامة شيء، هي التي تليني كما تلي السبابة الوسطى، وعلى هذا فلا تنافي بين ما دل عليه الحديث وبين قوله تعالى عن الساعة: ﴿ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام: ٥٩)"[١].

فدل كل ما سبق على أن المراد من الحديث هو المبالغة في قرب وقوع الساعة، وذلك لا يمنع من عدم العلم بوقت وقوعها؛ ولكن الذي علمه رسول الله ﷺ هو أشراطها وعلاماتها، وقد ذكرها النبي ﷺ وأكد على حتمية وقوعها في كثير من الأحاديث، فإخفاء وقت قيام الساعة لفائدة عظيمة، وتقديم الأشرطة والعلامات لفائدة عظيمة أيضًا، منها: إيقاظ الغافلين، وحثهم على التوبة والاستعداد.

نقل القرطبي رحمه الله عن العلماء قولهم: "والحكمة في تقديم الأشراط ودلالة الناس عليها تنبيه الناس عن رقدتهم، وحثهم على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة؛ كي لا يباغتوا بالحول بينهم وبين تدارك العوارض منهم، فينبغي للناس أن يكونوا بعد ظهور أشراط الساعة قد نظروا لأنفسهم، وانقطعوا عن الدنيا، واستعدوا للساعة الموعود بها، وتلك الأشراط علامة لانتهاء الدنيا"[٢].

وهذا ما جاء به حديث سيدنا جبريل عليه السلام السابق أنه قال لرسول الله ﷺ: "فأخبرني عن الساعة، فقال رسول الله ﷺ: ما المسئول عنها بأعلم من السائل؛ ولكن سأحدثك عن أشراطها...".

وقد تواترت أحاديث رسول الله ﷺ في بيان حتمية وقوع أشراط الساعة، وذكر منها أشراطًا صغرى؛ منها ما حدث في عهده ﷺ كبعثته - كما في الحديث موضوع الشبهة - وكذلك موته ﷺ، وكذلك ما حدث في زمان النبي ﷺ من انشقاق القمر، فقد أورد البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: "انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا"[٣].

ومنها ما ظهر بعد موته ﷺ وهي قسمان:

علامات صغرى وعلامات كبرى، فالصغرى كثيرة لا حصر لها، منها ما ورد في حديث رسول الله ﷺ مع جبريل عليه السلام من ذكر علامات الساعة وأماراتها، فقال: "... أن تلد الأَمَةُ رَبَّتَها، وأن ترى العراة الحفاة العالة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان"[٤].

---

١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١١/ ٣٥٧، ٣٥٨).

٢. التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط٣، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٧٠٩.

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التفسير، باب: سورة الانشقاق، (٨/ ٤٨٣)، رقم (٤٨٦٤).

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام، (١/ ١٤٠)، رقم (٥٠).

ومنها أيضًا ما جرى بين الصحابة من فتن عند مقتل عثمان، وكذلك خروج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى، وقد حدث ذلك في القرون السابقة، وغيرها من تلك العلامات التي أخبر عنها النبي ﷺ وظهرت بعد موته، ولا تزال تظهر حتى الآن كما أخبر الصادق المصدوق؛ وتبقى علامات الساعة الكبرى التي بيَّنها ﷺ كظهور المهدي، وخروج المسيح الدجال، ونزول عيسى ، وخروج يأجوج ومأجوج، ووقوع ثلاثة خسُفٍ واحد بالمشرق وثان بالمغرب وثالث بجزيرة العرب، ومنها الدخان، وطلوع الشمس من مغربها، وهدم الكعبة، وآخر ذلك خروج نار من أرض اليمن تحشر الناس.

فالساعة لها أشراط ومقدمات لا تقوم إلا بوقوع تلك المقدمات؛ وهذه العلامات منها ما يعايشه الناس، ومنها ما قد جاء وفرغ منه، ومنها ما هو مستقبل: أي تستقبله الناس ولم يأت بعد، فوقوع بعض تلك الأشراط دليل قاطع على صدق النبي ﷺ فيما بَلَّغ عن رب العزة، وفيه دليل ساطع على حتمية قيام الساعة بعد وقوع كل أشراطها التي وضحها رسول الله ﷺ ®.

الخلاصة:

- إن العلم بوقت قيام الساعة أمر غيبي قد استأثر به الله ﷻ ولم يُعْلِمه أحدًا من خلقه، لا ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا؛ وإنما أخبر الله ﷻ النبي ﷺ بعلامات ومقدمات قيام الساعة؛ ليكون ذلك مدعاة إلى المبادرة بالأعمال الصالحة، والتقرب إلى الله ﷻ بالطاعة.
- الحديث الوارد في سؤال الأعراب عن الساعة حديث صحيح في أعلى درجات الصحة؛ فقد رواه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما، وجاءت له شواهد كثيرة تؤكد على صحته عندهما.
- إن النبي ﷺ لم يقصد يوم القيامة بقوله: "حتى تقوم الساعة"؛ وإنما قصد ساعة هذا الرجل الأعرابي الذي سأله: متى الساعة؟ وقد سلك النبي ﷺ طريق التعريض في ذلك لعلمه بجفاء الأعراب، وقلة إيمانهم؛ إذ لو قال لهم: لا أدري، لارتابوا في الدين وضلوا.
- لقد أجمع علماء الأمة على صحة حديث رسول الله ﷺ: "بعثت أنا والساعة كهاتين" وأنه في أعلى درجات الصحة؛ لاتفاق الشيخين على صحته، ومقصد النبي ﷺ منه هو المبالغة في قرب وقوع الساعة، لأن بعثة النبي ﷺ هي أول أشراطها، وأشراط الساعة كثيرة لا تقوم الساعة إلا بوقوعها جميعًا.

الشبهة الحادية والعشرون

إنكار حديث "الجساسة"(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغرضين حديث "الجساسة"[1] الذي

® في "**علامات الساعة وأحداث الآخرة من قبيل العالم الغيبي الذي لا يصدق فيه إلا النقل**"، وفي "**دلالة القرآن الكريم على صحة أحاديث أشراط الساعة**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة عشرة، من هذا الجزء.

(*) دفاع عن السنة النبوية، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق. رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية ومنكري السنة، د. سيد حسين العفاني، مرجع سابق. موقف المدرسة العقلية الحديثة من الحديث النبوي الشريف، شفيق بن عبد الله شقير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١. سميت بذلك لتجسسها ونقلها الأخبار للدجال.

رواه الإمام مسلم في صحيحه: عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس، والذي جاء فيه أن الصحابي تميم الداري قد ركب سفينة في البحر مع ثلاثين من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهرًا في البحر، ثم ألجأهم إلى جزيرةٍ، فنزلوا فيها، وقابلوا هناك دابة غريبة الهيئة، تسمى الجسَّاسة، التي بدورها دَلَّتهم إلى رجلٍ داخل الجزيرة يريد أن يقابلهم، ألا وهو المسيح الدجال، ودار بينهم حديث طويل...

ويستدلون على إنكار هذا الحديث بأن في رواته الشَّعْبي، وهو يروي كثيرًا عن الصحابة الذين لم يرهم ولم يسمع منهم، كما يزعمون أن الحديث ما هو إلا من مَسِيحِيَّات تميم الداري التي نقلها من المسيحية.

كما أن الرواية فيها تصديق النبي ﷺ لتميم الداري، والنبي ﷺ كثيرًا ما كان يصدق المنافقين والكفار في أحاديثهم، والمعلوم أن هذا ليس أمرًا من أمور الدين التي يُعصم الأنبياء من تصديق الكاذب فيها.

وقد ساقوا هذه الأدلة؛ هادفين من وراء ذلك إلى إنكار هذا الحديث الصحيح، وتشكيك المسلمين فيما صح عن النبي ﷺ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد اتفق على صحة "حديث الجساسة" جمع كبير من علماء الأمة، فقد رواه الإمام مسلم في صحيحه، كما أخرجه غيره من أصحاب السنن والمسانيد.

وقد رَوى هذا الحديث ـ غير فاطمة بنت قيس ـ أبو هريرة، وعائشة، وجابر ﷺ، كما أن الإمام الشعبي لم ينفرد بروايته عنها، فلقد تابعه في ذلك أبو سلمة، ويحيى بن يعمر وغيرهما.

٢) لقد اتفق جل العلماء من الفقهاء والمحدثين على توثيق الإمام الشعبي والثناء عليه ثناءً بالغًا، لدرجة أنهم اعتبروا مُرْسَلَه عن الصحابة صحيحًا، لأنه سمع عن كثيرٍ منهم.

٣) لقد شهد بفضل تميم الداري ﷺ وصلاحه وتقواه الصحابة ﷺ ومن جاء بعدهم؛ مما ينفي عنه مظنة الكذب والدس في الدين.

٤) مما لا شك فيه أن حديث الجساسة من أمور الغيب التي هي أصل من أصول الدين، والنبي ﷺ معصوم من تصديق الكاذب فيها.

التفصيل:

أولا. حديث الجساسة حديث صحيح، فقد رواه الإمام مسلم في صحيحه، كما رواه أصحاب السنن والمسانيد بطرق أخرى غير طريق الشعبي:

لقد أورد الإمام مسلم في صحيحه حديثًا ذاع واشتهر بحديث الجساسة، والذي رواه من طريق الحسين بن ذكوان، عن ابن بريدة قال: حدثني عامر بن شراحيل الشعبي، شعْب هَمْدَان؛ أنه سأل فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس، وكانت من المهاجرات الأُوَل؛ فقال: "حدثيني حديثًا سمعتيه من رسول الله ﷺ. لا تُسنديه إلى أحد غيره، فقالت: لئن شئتَ لأفعلن، فقال لها: أجل، حدثيني. فقالت: نكحت ابن المغيرة... إلى أن قالت: فخرجت إلى المسجد. فصليت مع رسول الله ﷺ، فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: لِيَلْزم كل إنسان مصلَّاه، ثم

قال: أتدرون لِمَ جمعتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إني والله ما جمعتكم لرغبةٍ ولا لرهبةٍ. ولكن جمعتكم؛ لأن تميمًا الداري كان رجلًا نصرانيًّا، فجاء فبايع وأسلم، وحدثني حديثًا وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال، حدثني أنه ركب في سفينةٍ بحرية مع ثلاثين رجلًا من لخم وجُذام، فلعب بهم الموج شهرًا في البحر، ثم أرفئوا[1] إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في أَقْرُب السفينة، فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب كثير الشَّعْر، لا يدرون ما قُبُلُه من دبره من كثرة الشَّعْر، فقالوا: ويلك! ما أنت؟ فقالت: أنا الجسَّاسة، قالوا: وما الجسَّاسة؟ قالت: أيها القوم! انطلقوا إلى هذا الرجل في الدَّيْر؛ فإنه إلى خبركم بالأشواق. قال: لَمَّا سمَّت لنا رجلًا فَرِقْنَا منها[2] أن تكون شيطانةً، قال: فانطلقنا سراعًا حتى دخلنا الدَّيْر، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقًا، وأشده وثاقًا، مجموعة يداه إلى عُنُقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك! ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري، فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في سفينةٍ بحرية، فصادفنا البحر حين اغتلم[3]، فلعب بنا الموج شهرًا، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه فجلسنا في أقرُبها، فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلب كثير الشَّعْر، لا يُدرى ما قُبُلُه من دُبُره من كثرة الشَّعْر. فقلنا: ويلك! ما أنت؟ فقالت: أنا الجسَّاسة، قلنا: وما الجسَّاسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدَّيْر، فإنه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعًا، وفزعنا منها، ولم نأمن أن تكون شيطانة، فقال: أخبروني عن نخل بيْسان، قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ قلنا له: نعم، قال: أما إنه يوشك ألا تُثْمر. قال: أخبروني عن بحيرة الطَّبَريَّة، قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء، قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب، قال: أخبروني عن عين زُغَر[4]، قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم، هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها، قال: أخبروني عن نبي الأميِّين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب، قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم، قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على مَنْ يليه من العرب وأطاعوه، قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. قال: أما إن ذاك خير لهم أَنْ يطيعوه، وإني مخبركم عني؛ إني أنا المسيح، وإني أُوشِك أن يُؤذن لي في الخروج، فأخرج، فأسير في الأرض فلا أَدَع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطَيْبة فهما محرمتان علي - كلتاهما - كلما أردت أن أدخل واحدة، أو واحدًا منهما، استقبلني ملك بيده السيف صَلْتًا[5] يصدني عنها، وإن على كل نَقْب منها ملائكة يحرسونها، قالت: قال رسول الله ﷺ، وطعن بمِخْصَرَته[6] في المنبر: هذه طيْبة، هذه طيْبة، هذه طيْبة - يعني المدينة - ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟ فقال الناس: نعم. فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي

١. أرفئوا: التجئوا.

٢. فَرِقنا منها: خِفنا منها.

٣. اغتلم: هاج، وجاوز حدَّه.

٤. زُغَر: هي بلدة في الجانب القبلي من الشام.

٥. صلتًا: أي: مسلولًا.

٦. المِخْصَرة: ما يُتوكأ عليها كالعصا ونحوها، وقضيب يشار به في أثناء الخطابة والكلام.

كنت أحدثكم عنه، وعن المدينة ومكة. ألا إنه في بحر الشام، أو بحر اليمن، لا، بل من قبل المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو، وأومأ بيده إلى المشرق. قالت: فحفظت هذا من رسول الله ﷺ"[1].

ويكفي للحكم بصحة الحديث وروده في صحيح مسلم؛ الذي أجمعت الأمة على صحة كل ما ورد فيه، يقول الشيخ أحمد شاكر: "الحق الذي لا مرية فيه عند أهل العلم بالحديث من المحققين، أو ممن اهتدى بهديهم وتبعهم على بصيرة من الأمر - أن أحاديث الصحيحين صحيحة كلها، ليس في واحد منها مطعن أو ضعف"[2].

بالإضافة إلى ذلك فلم يتفرد الشعبي برواية حديث الجسّاسة، بل قد تابعه في روايته أبو سلمة في روايات كثيرة، من ذلك ما أورده أبو داود في سننه، قال: "حدثنا النفيلي، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن، حدثنا ابن أبي ذئب عن الزهري عن أبي سلمة عن فاطمة بنت قيس: أن رسول الله ﷺ أخَّر العشاء الآخرة ذات ليلةٍ ثم خرج فقال..."[3] الحديث.

وإضافة لما سبق فقد روى الحديث - غير فاطمة بنت قيس - أبو هريرة وعائشة وجابر ﷺ.

يقول الحافظ ابن حجر: "وقد توهم بعضهم أنه غريب - يقصد حديث الجساسة - فرده، وليس كذلك؛ فقد رواه مع فاطمة بنت قيس أبو هريرة وعائشة وجابر، أما أبو هريرة فأخرجه أحمد من رواية عامر الشعبي عن المحرز بن أبي هريرة عن أبيه بطوله... وأما حديث عائشة فهو في الرواية المذكورة عن الشعبي قال: "ثم لقيت القاسم بن محمد، فقال: أشهد على عائشة حدثتني بما حدثتك فاطمة بنت قيس"[4][5]، وأما حديث جابر فأخرجه أبو يعلى الموصلي بسنده قال: حدثنا أبو هشام الرفاعي، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا الوليد بن جَميع عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر قال: قام رسول الله ﷺ ذات يومٍ على المنبر، فقال: ..." وذكر الحديث[6].

وبالإضافة لما سبق فقد ذكر أهل العلم حديث الجساسة في كتبهم، بل وحكموا عليه بالصحة، ومن ذلك ما يلي:

قال ابن الأثير في "أسد الغابة" عن تميم بن أوس: "حدث عنه النبي ﷺ حديث الجسَّاسة، وهو حديث صحيح"[7].

وقال ابن عبد البر في الاستذكار: "ثابتٌ صحيح من

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قصة الجساسة، (٩/ ٤٤٠٤)، رقم (٧٢٥٢).

٢. الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير، أحمد شاكر، دار التراث، القاهرة، ط٣، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٢٩.

٣. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: الملاحم، باب: في خبر الجساسة، (١٠/ ٣١٥)، رقم (٤٣١٥). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٤٣٢٥).

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، رقم (٢٧١٤٥). وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: صحيح بطرقه.

٥. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٣/ ٣٤٠).

٦. حسن: أخرجه أبو يعلى في مسنده، تابع مسند جابر، (٤/ ١١٩)، برقم (٢١٦٤). وقال حسين سليم أسد في تعليقه على مسند أبي يعلى: رجاله رجال الصحيح.

٧. أسد الغابة، ابن الأثير، دار الفكر، بيروت، د. ت، (١/ ٢٥٦).

جهة الإسناد والنقل"[1].

ونخلص مما سبق إلى أن حديث الجسَّاسة صحيح لا مطعن فيه ولا مغمز؛ فقد رواه غير الشعبي عن فاطمة بنت قيس ـ أبو سلمةُ ويحيى بن يعمر، كما رواه غير فاطمة بنت قيس أبو هريرة وعائشة وجابر ﷺ، والحديث أخرجه مسلم، وأحمد، وأبو يعلى، وأصحاب السنن.

ثانيًا. توثيق علماء الحديث للشعبي والثناء عليه:

لقد اتفق جل العلماء ـ من المحدثين والفقهاء ـ على توثيق الإمام الشعبي والثناء عليه:

فقد أورد ابن سعد في طبقاته: "عن مكحولٍ قال: ما رأيت أحدًا أعلم بسنةٍ ماضيةٍ من الشعبي"[2].

وذكره أبو نعيم الأصفهاني في "الحلية" فقال: "حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا منجاب بن الحارث، حدثنا علي بن مسهر عن أشعب بن سوار، عن ابن سيرين، قال: قدمت الكوفة وللشعبي حلقة عظيمة، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ كثير...

وعن عاصم بن سليمان، قال: ما رأيت أحدًا أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجاز والآفاق من الشعبي"[3].

١. الاستذكار، ابن عبد البر، تحقيق: سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، (٨/ ٣٣٣).

٢. الطبقات الكبير، ابن سعد، تحقيق: د. علي محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م، (٨/ ٣٧٢).

٣. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني، دار الفكر، بيروت، د. ت، (٤/ ٣١٠).

وقال الخطيب البغدادي في تاريخه: قال ابن عيينة: "علماء الناس ثلاثة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه"[4].

وقد قال الحافظ المزي في تهذيبه: "قال أشعث بن سوَّار: نعى لنا الحسنُ الشعبيَّ، فقال: كان والله كبير العلم، عظيم الحلم، قديم السِّلم، من الإسلام بمكان...

وقال سعيد بن عبد العزيز، عن مكحول: ما رأيت أفقه من الشعبي.

وقال إسحاق بن منصور، عن يحيى بن معين، وأبو زرعة، وغير واحدٍ: الشعبي ثقة.

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة: سمعت يحيى بن معين يقول: إذا حدث الشعبي عن رجل فسمَّاه، فهو ثقة يحتج بحديثه.

وقال أحمد بن عبد الله العجلي: سمع من ثمانية وأربعين من أصحاب رسول الله ﷺ... ومرسل الشعبي صحيح، لا يكاد يرسل إلا صحيحًا"[5].

وذكره الذهبي في (السير) فقال: الشعبي: عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كِبَار؛ قَيْلٌ[6] من أقيال اليمن، الإمام، علَّامة العصر.

وقال عنه أيضًا: سمع من عدة من كبراء الصحابة، وحدث عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبي موسى الأشعري، وعدي بن حاتم، وأسامة بن زيد،

٤. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، (١٢/ ٢٢٩).

٥. تهذيب الكمال، الحافظ المزي، مرجع سابق، (١٤/ ٣٤، ٣٥).

٦. القَيْل: لقب يقال للملك من ملوك حمير.

وأبي مسعود البدري، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وعائشة، وجابر بن سمرة، وابن عمر..."[1] ذكر منهم خمسين، ومنهم فاطمة بنت قيس التي روت حديث الجسَّاسة.

"قال عليُّ بن القاسم عن أبي بكر الهذلي قال لي ابن سيرين: الزم الشعبيَّ، فلقد رأيته يُستفتى وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون...

وذكر ابن فضيل، عن ابن شُبْرُمة: سمعت الشعبي يقول: ما كتبتُ سوداء في بيضاء إلي يومي هذا، ولا حدثني رجل بحديث قط إلا حفظته، ولا أحببت أن يعيده علي... وقال ابن عيينة، عن داود بن أبي هند، قال: ما جالست أحدًا أعلم من الشعبي...

وقال أبو عاصم، عن ابن عون قال: كان الشعبي إذا جاءه شيء اتقاه"[2]، وهذا يدل على مدى تحريه ودقته البالغة.

وقد ساق الحافظ ابن حجر في "تهذيب التهذيب" نقولًا كثيرة للعلماء في توثيق الشعبي، منها قول أبي إسحاق الحبَّال: كان واحد زمانه في فنون العلم[3].

وعليه فقد تأكد لنا بعد سوق كل هذه الأقوال لأهل العلم والحديث في بيان علم الشعبي ومكانته المرموقة في مجال الرواية وغيرها من فنون العلم المتعددة - بطلانُ ما يدعيه هؤلاء المغرضون في شأنه.

ثالثًا. مكانة تميم الداري ﷺ الدينية بين الصحابة:

لقد شهد بفضل تميمٍ الدَّاري ﷺ وصلاحه وتقواه الصحابةُ ﷺ ومن جاء بعدهم:

فقد ذكر ابن سعد في طبقاته، قال: "أخبرنا عفان بن مسلم قال: حدثنا عبد الواحد بن زياد، قال: أخبرنا عاصم الأحول، قال: حدثنا محمد بن سيرين، قال: كان تميم الداري يقرأ القرآن في ركعة".

وقال أيضًا: "أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء، قال: أخبرنا خالج الحزَّاء، عن أبي قلابة، قال: كان تميم الداري يختم القرآن في سبع ليالٍ"[4].

وذكر الحافظ المزي في "تهذيب الكمال": "روى عنه النبي ﷺ حديث الجساسة، وهي منقبة شريفة جدًّا، ويدخل ذلك في رواية الأكابر عن الأصاغر"[5].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في "الإصابة" في ترجمة تميم ﷺ: "مشهور في الصحابة، كان نصرانيًّا وقدم المدينة فأسلم، وذكر للنبي ﷺ قصة الجساسة والدجال، فحدث النبي ﷺ عنه بذلك، وعُدَّ ذلك من مناقبه".

ثم نُقِل عن أبي نعيم أنه قال: كان راهب أهل فلسطين، وعابد أهل فلسطين، وهو أول من أسرج السراج في المسجد... وكان كثير التهجد بالليل، قام ليلة بآية حتى أصبح، وهي قول الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ (الجاثية: ٢١)[6].

ومن مناقبه ما ذكره في "الإصابة" أيضًا قال: "أخرج البغوي من طريق الجريري، عن أبي العلاء، عن

---

١. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (٤/ ٢٩٤: ٢٩٦).
٢. المرجع السابق، (٤/ ٣٠٠، ٣٠٣).
٣. تهذيب التهذيب، ابن حجر، مرجع سابق، (٥/ ٦٠).
٤. الطبقات الكبير، ابن سعد، مرجع سابق، (٦/ ٢٥٦).
٥. تهذيب الكمال، الحافظ المزي، مرجع سابق، (٤/ ٣٢٧).
٦. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي، نهضة مصر، القاهرة، د. ت، (١/ ٣٦٨) بتصرف.

معاوية بن حرمل: قدمت على عمر فقلت: يا أمير المؤمنين، تائب من قبل أن يُقدر عليّ، فقال: من أنت؟ فقلت: معاوية بن حرمل، خِتْن مسيلمة - أي صهره - قال: اذهب فانزل على خير أهل المدينة، قال: فنزلت على تميم الداري، فبينا نحن نتحدث إذ خرجت نار بالحَرَّة، فجاء عمر إلى تميمٍ فقال: يا تميم اخرج، فقال: وما أنا؟ وما تخشى أن يبلغ من أمري؟ فَصَغَّر نفسه، ثم قام فحاشها حتى أدخلها الباب الذي خرجت منه، ثم اقتحم في أثرها، ثم خرج فلم تضرَّه"[1].

ومما لا شك فيه أن لعمر بن الخطاب مكانةً عاليةً ومعرفة بالرجال عظيمة، فهو العبقري الملهم المحدث الذي لا يخفى عليه حال تميم ومنزلته من الصلاح والاستقامة والإخلاص، وهو القائل: "لست بالخبِّ[2]، والخبُّ لا يخدعني"، فكيف تتقبل العقول أن يُرْمَى مثل هذا بالكذب والدس والإفساد في الدين[3]؟!

وذكر الزركلي بعض فضائله، ومنها قوله: "روى له البخاري ومسلم ثمانية عشر حديثًا"[4]، وهذا يدل على ثقته عندهما، فلو كان متهمًا بشيءٍ ما رووا عنه.

ومن ثم فقولهم: إن الحديث من مسيحيات الصحابي تميم الداري قول باطل لا يصح، كما أنه لا يستند إلى دليلٍ يدعمه؛ فضلًا عن أن الصحابي تميم الداري قد أسلم وحسن إسلامه، وشهد له كثير من الصحابة بالفضل والصلاح والتقوى.

١. المرجع السابق، (٦/ ٣٠٢).
٢. الخِبُّ: المخادع.
٣. دفاع عن السنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٨٤.
٤. الأعلام، الزركلي، (٢/ ٨٧).

فهل يعقل بعد هذا كله أن يتهم هذا الصحابي الجليل التقي بالكذب والدس وإثارة الفتن في الدين؟!

رابعًا. حديث الجساسة من أمور الغيب التي عُصِم رسول الله ﷺ من تصديق الكاذب فيها:

مما لا شك فيه أن حديث الجساسة والدجال من أمور الدين الغيبية، وليس من أمور الدنيا - كما يدعي مثيرو الشبهة - يقول د. أبو شهبة: "قد حَدَّثَ به - يعني حديث الجساسة - النبي ﷺ على المنبر في جمع من الصحابة، واعتبره موافقًا لما كان يحدثهم به عن المسيح الدجال وغيره من أشراط الساعة الكبرى، فكيف يكون هذا من أشراط الساعة ولا يكون من أمور الدين"[5]؟! وهم يتساءلون كيف يكون هذا أمرًا غيبيًّا وقد علمه تميم؟!

وللإجابة عن هذا يقول المعلمي اليماني: والحكمة في كشف الله تعالى لتميم وأصحابه عما كشف لهم عنه أن يخبروا بذلك، فيكون موافقًا لما كان النبي ﷺ يخبر به، فيزداد المسلمون وثوقًا به، وهذا بيِّن في الحديث؛ إذ قال النبي ﷺ بعد ذكره لتميم: "وحدثني حديثًا وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال..." ثم قال: "ألا هل كنت حدثتكم بذلك؟". فقال الناس: نعم. فقال: "فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه، وعن المدينة ومكة"[6][7].

٥. دفاع عن السنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٨٣.
٦. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قصة الجساسة، (٩/ ٤٠٤٤: ٤٠٤٦)، رقم (٧٥٢٥).
٧. الأنوار الكاشفة، المعلمي اليماني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٣٦.

وفي هذا ردٌّ على قولهم: أن هذا الحديث لا يدخل تحت السنة التقريرية.

قال الحافظ ابن حجر في "الفتح": " وقد اتفقوا على تقرير النبي ﷺ لما يفعل بحضرته، أو يقال ويطلع عليه بغير إنكار دال على الجواز، لأن العصمة تنفي عنه ما يتحمل في حق غيره مما يترتب عليه الإنكار فلا يقر على باطل "[1].

وبهذا يتبيَّن أن حديث الجساسة أو الدجال من أمور الدين الغيبية، وهذه الأمور يُعْصم الأنبياء عن تصديق الكاذب فيها، فلو كان هذا الحديث كاذبًا لما سكت الوحي عن بيان الحق فيما أخبر به، كما حدث في كثير من الأحيان حينما كان المنافقون وأضرابهم يقولون خلاف ما يبطنون فينزل الوحي فاضحًا لهم ومبيِّنًا كذبهم[2].

وهذا يدفعنا إلى أن ننفي عنه ﷺ الافتراء بأنه كثيرًا ما كان يصدق المنافقين والكفار في أحاديثهم.

يقول المعلمي اليماني: "لم يثبت أن النبي ﷺ صَدَّق كاذبًا"[3]، ويؤكد هذا قول الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾ (التوبة).

قال الألوسي في تفسيرها: "إن المراد أنه ﷺ يسمع قول المؤمنين الخُلَّص ويصدقهم، ولا يصدق المنافقين وإن سمع قولهم"[4].

وبهذا تدفع شبه المغرضين، وتبقى الأحاديث النبوية الصحيحة نائية عن أي تحريف أو تشكيك®.

الخلاصة:

- إن حديث الجساسة حديث صحيح، أجمع على صحته علماء الحديث وأئمته، فقد رواه الإمام مسلم في صحيحه، كما رواه غيره بطرق أخرى غير طريق الإمام الشعبي، كطريق أبي سلمة، ويحيى بن يعمر، كما رواه غير فاطمة بنت قيس أبو هريرة وعائشة وجابر ﷺ.
- الإمام الشعبي ثقة في نفسه، ذو مكانة علمية وفضل عظيم، شهد له بذلك جمع كبير من علماء عصره، أمثال: ابن عمر ويحيى بن معين، وأبي زرعة، وغيرهم.
- إن تميمًا الداري ﷺ صحابي جليل عدَّله الله في كتابه كجميع الصحابة والنبي ﷺ في سننه، وشهد بفضله وصلاحه وتقواه الصحابة الكرام ﷺ ومن جاء بعدهم، مما ينفي عنه مظنة الكذب والدَّس في الدين، وبذلك يبطل قولهم: "إن الحديث من مسيحيات تميم الداري".
- إن حديث الجساسة من أمور الغيب التي يجب الإيمان بها؛ لأنها أصل من أصول الدين، محمد ﷺ معصوم من تصديق الكاذب في ذلك؛

١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٣/ ٣٣٥).

٢. دفاع عن السنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٨٤ بتصرف.

٣. الأنوار الكاشفة، المعلمي اليماني، مرجع سابق، ص١٣٥.

٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، مرجع سابق، (١٠/ ١٢٧).

® في **"صحة أحاديث الدجال ونزول عيسى وتواترها"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة). والوجه الأول من الشبهة الثانية والعشرين، من هذا الجزء.

فهو ﷺ لم يصدق كاذبًا قط.

الشبهة الثانية والعشرون

الطعن في أحاديث المسيح الدجال(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المشككين في الأحاديث الصحيحة التي جاءت بشأن خروج المسيح الدجال في آخر الزمان، ويقولون بضعفها كلها، وأن الدجَّال مجرد خرافة، ويستدلون على ذلك بالآتي:

- أن جميع الأحاديث الواردة في الدجال ضعيفة وموضوعة، علاوة على اختلافها اختلافًا شديدًا، سواء في تحديد مكان خروجه أو زمانه أو صفاته في نفسه، مما يدل على بطلانها جميعًا.
- لو أن الدجال حقيقة وخروجه من أشراط الساعة، لما أغفل القرآن ذكره، وقد ذكر ما هو أقل خطرًا منه.
- أن فكرة الدجال تتعارض مع إتيان الساعة بغتة، قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ (الأعراف: ١٨٧)، وكيف يتعوذ منه النبي ﷺ في بداية رسالته، ويأمر المسلمين بذلك مع العلم بعدم ظهوره إلا قبيل الساعة.
- أن فكرة الدجال تخالف سنة الله في خلقه، فليس من سنته تعالى أن يؤيد الكاذبين، ولا أن يعطيهم ما يفتنون الناس به، فكيف يعقل أن يهب اللهُ الدجالَ إحياء الموتى؟ أو يعطيه من القدرات ما لم يعطه أحدًا من الأنبياء، ثم يعاقب من يتبعه بجهنم؟!
- أنه لا يوجد دجال محدد يعرفه الخلق ليتَّقوا شره، فقد أخبر النبي ﷺ "أن هناك ثلاثين دجالًا كلهم يزعم أنه رسول الله"، بالإضافة إلى أن هناك تضاربًا بين حديث منعه دخول مكة والمدينة، وحديث رؤية النبي ﷺ له في منامه وهو يطوف بالبيت، كذلك لا يصح حديث أبي بكرة عن النبي ﷺ قال: "لا يدخل المدينة... ولها سبعة أبواب على كل باب ملكان"؛ لتعارضه مع الواقع المشاهد، فأين تلك الأبواب؟

رامين من وراء كل ذلك إلى إنكار أحاديث الدجال وظهوره آخر الزمان؛ ومن ثَمَّ إيهام تهافت السنة تمهيدًا لإنكارها.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد أجمع علماء الأمة ومحدثوها على تواتر أحاديث الدجال، وأنه يخرج آخر الزمان، قُبيل الساعة، وأن الله سيجري على يديه خوارق عظيمة؛ ليمتحن عباده وليميز المؤمن من المنافق، ولا يقدح في هذا التواتر ما وقع من اختلاف طفيف في بعض الروايات حول التفصيلات الجزئية؛ لأن حقيقة وجود الدجال وخروجه مجمع عليها في كل الروايات.

٢) لقد أشار القرآن الكريم إلى الدجال، ولكنه لم يصرح بذكره، وقد أكد على ذلك جمع من المفسرين والعلماء، علاوة على أن السنة وحدها تكفي دليلًا لإثبات حقيقة الدجال؛ لأن السنة حجة بنفسها، فهي

(*) مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مرجع سابق. دفاع عن السنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق. الإسلام وصياح الديك، جواد عفانة، مرجع سابق. رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية ومنكري السنة، د. سيد حسين العفاني، مرجع سابق.

وحي من عند الله.

٣) لا يتعارض العلم باقتراب الساعة مع مجيئها بغتة، فقد قال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ (القمر)، ولم يقل أحد أن هذا مناقض لقوله ﷻ: ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ (الأعراف:١٨٧)، والأحاديث الصحيحة في شأن الدجال لم تحدد مقدار الزمن بينه وبين الساعة، وعليه فلا تعارض بين خروجه وكونه من أشراط الساعة، وبين مجيئها بغتة، وقد استعاذ النبي ﷺ من خروجه؛ لعدم علمه بموعده أو بوقت قيام الساعة، وليعلِّم الأمة ضرورة الاستعاذة من كل شر حادث أو منتظر حدوثه.

٤) إن من سنة الله ﷻ أن يُمكِّن للطغاة في الأرض، وأن يذلل لهم كل الخوارق، ليمتحن قلوب العباد، ثم يأخذ الطغاة على غفلة، ويكشف زيف خوارقهم كما سيفعل مع الدجال، كما أن إحياء الموتى إنما هو لله وحده، ولكن قدرة الله ﷻ لها عمومية ليست لغيرها، وهي أن الله يقدر أن ينقل من الأسباب ويضعها في قدرة الضعيف فيصير بها قويًا قوة نسبية، ويكون الفعل أولًا وآخرًا لله وحده لا لغيره، وشتان بين خوارق الدجال الزائلة، وبين معجزات الأنبياء الخالدة، ثم إن ظهور الدجال لدليل ظاهر على صدق النبوة، وعلم من أعلامها، أليس هم الذين حذرونا منه منذ أمد بعيد؟!

٥) لا يقدح إخبار النبي ﷺ بوجود ثلاثين دجَّالًا في وجود الدجال الأكبر؛ لأنه اتصف عن غيره من الدجالين بأنه أعور يدعي الألوهية، وخروجه من أشراط الساعة، ومنع الله ﷻ له دخول مكة والمدينة، إنما يكون وقت فتنته، أي وقت خروجه، كما أن رؤيا النبي ﷺ له وهو يطوف غير لازمة الوقوع في الخارج، كما هي في المنام؛ لأن رؤيا الأنبياء وإن كانت وحيًا، فإن منها ما يقبل التأويل، والمقصود بالأبواب في الحديث الشريف إنما هي المداخل الرئيسية للمدينة، كما أنه من الممكن أن يكون للمدينة أبواب حقيقية ركبت على أسوار، وذلك وقت خروج الدجال آخر الزمان، دلَّ على ذلك قوله في الحديث: "يومئذ".

التفصيل:

أولا. إجماع جمهور المحدثين على تواتر أحاديث الدجال وصحتها، وأنه لا تضارب بين رواياتها:

لا يُنكر أحد أنه وضعت أحاديث كثيرة في الدجال، وصفته، ومتى يخرج، ومن أي مكان يخرج؟ ومع هذا فقد صحت فيه أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما، مما يثبت بدلالة قاطعة ظهور المسيح الدجال آخر الزمان.

فلقد روى البخاري ومسلم كثيرًا من أحاديث الدجال، وأفاضا في ذلك، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، حدثنا إسماعيل، حدثني قيس قال: "قال لي المغيرة بن شعبة: ما سأل أحد النبي ﷺ عن الدجال ما سألته، وإنه قال لي: ما يضرك منه؟ قلت: لأنهم يقولون: معه جبل خبز ونهر ماء، قال: بل هو أهون على الله من ذلك"[1].

وروى البخاري أيضًا: حدثنا سعد بن حفص، حدثنا شيبان عن يحيى عن إسحاق بن عبد الله بن أبي

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الفتن، باب: ذكر الدجال، (١٣/ ٩٦)، رقم (٧١٢٢).

طلحة عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: "يجيء الدجال حتى ينزل في ناحية المدينة، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات، فيخرج إليه كل كافر ومنافق"[1].

وذكر البخاري رحمه الله أيضًا: عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب: كافر"[2].

كما أورد الإمام مسلم أحاديث كثيرة في بيان ذكر الدجال وصفته وما معه، فأورد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال: "إن الله تعالى ليس بأعور، ألا وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عِنَبَةٌ طافئة"[3].

وكذلك روى أحاديث الدجال غير البخاري ومسلم من أصحاب الأحاديث المعتمدة الموثوق بها، وقد ذهب جمهور علماء الحديث إلى القول بتواتر أحاديث الدجال، فهي قطعية الثبوت، ولا مجال لإنكارها، ثم إن هؤلاء المشككين في أحاديث الدجال بأنها ضعيفة كلها؛ لم يذكروا إلا الأحاديث الموضوعة الضعيفة، وأغفلوا تلك الأحاديث الكثيرة التي صحت لدى علماء الحديث الثقات سندًا ومتنًا، وذهب علماء كثيرون إلى قطعية ثبوت خروج الدجال؛ منهم الإمام النووي، فقد ذكر في شرحه لصحيح مسلم: "قال القاضي: هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده، وأنه شخص بعينه، ابتلى الله به عباده، وأقدره على أشياء من مقدورات الله عز وجل من إحياء الميت الذي يقتله، ومن ظهور زهرة الدنيا، والخصب معه، وجنته وناره ونهرَيْه، واتباع كنوز الأرض له، وأمره السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، فيقع كل ذلك بقدرة الله عز وجل ومشيئته، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك، فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره، ويبطل أمره، ويقتله عيسى عليه السلام... - ثم قال الإمام النووي معقبًا: هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظَّار"[4].

كما صرح بتواتر أحاديث الدجال كثير من أهل العلم مثل ابن كثير، والسخاوي، والشوكاني، والكتاني، وغيرهم.

وقد عقد العلامة السفاريني في كتابه "لوامع الأنوار البهية" تنبيهات، وقال: "التنبيه الثالث: مما ينبغي لكل عالم أن يبث أحاديث الدجال بين الأولاد والنساء والرجال، وقد قال الإمام ابن ماجه سمعت الطنافس يقول: سمعت المحاربي يقول: ينبغي أن يدفع هذا الحديث - يعني حديث الدجال - إلى المؤدب حتى يعلمه الصبيان في الكُتَّاب"[5].

قال الكتاني: "أحاديث خروج المسيح الدجال ذكر غير واحد أنها واردة من طرق كثيرة صحيحة عن جماعة كثيرة من الصحابة، وفي "التوضيح" للشوكاني منها

---

1. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الفتن، باب: ذكر الدجال، (١٣/ ٩٦)، رقم (٧١٢٤).
2. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الفتن، باب: ذكر الدجال، (١٣/ ٩٦)، رقم (٧١٣١).
3. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه، (٩/ ٤٠٢٩)، رقم (٧٢٢٨).
4. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٤٠٣٣).
5. لوامع الأنوار البهية، شمس الدين السفاريني، مؤسسة الخافقين، دمشق، ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، (٢/ ١٠٦).

مائة حديث، وهي في الصحاح والمعاجم والمسانيد، والتواتر يحصل بدونها، فكيف بمجموعها؟! وقال بعضهم: أخبار الدجال تحتمل مجلدات، وقد أفردها غير واحد من الأئمة بالتأليف، وذُكر جملة وافرة منها في "الدر المنثور" لدى قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ ﴾ (غافر: ٥٦)"[1].

فإجماع جمهور علماء الحديث على تواتر أحاديث الدجال دليل قاطع على ثبوت ظهوره آخر الزمان، مما يظهر سقوط تلك الشبهة القائلة بضعف أحاديث الدجال؛ وذلك لأن الاختلاف الواقع فيها ليس اختلافًا في حقيقة وجوده أو أنه يأتي أم لا يأتي، بل هو اختلاف شيء من صفته الراجحة لذاته أو لفعله، فلا خلاف في أنه سيأتي، ولذلك فإن الشبهة المعارضة مردودة من أساسها[2]®.

ثانيًا. إشارة القرآن الكريم إلى ظهور الدجال في غير موضع دون التصريح بذكره:

لم يذكر القرآن الكريم كل شيء على وجه التفصيل، فالقرآن لم يذكر مثلًا عدد الركعات في الصلاة، ولا مواقيتها، ولا تفاصيل الزكاة، ولا مقادير الديات، ولا ما يجب على المسلم كَمْ حَجَّة في عمره، ولا ذكر أيضًا أن عيسى عليه السلام سوف ينزل ـ لا محالة ـ آخر الزمان، وغير ذلك.

وجاءت السنة ففصلت ما أجمله القرآن، وقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع على أن السنة والقرآن وحي من عند الله ﷻ فقال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ (النساء: ١١٣)، فجمهور المفسرين على أن الكتاب هو القرآن، كما أن الحكمة هي السنة.

فليس معنى عدم إشارة القرآن للدجال أن تنكر حقيقة الدجال من أساسها، فما جاءت به السنة الشريفة في غير موضع بشأن الدجال لهو دليل قاطع على ظهوره آخر الزمان، فقد تواترت الأحاديث على ذلك، فلا معنى لإنكار أحاديث الدجال بحجة عدم ذكر القرآن له.

علاوةً على أن من العلماء من ذكر أن القرآن الكريم أشار إلى الدجال في غير آية ضمنًا، ولم يصرح بذكر الدجال، فقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ ﴾ (الأنعام: ١٥٨)، فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه إلى النبي ﷺ قال: "ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض"[3].

وقد ذكر الحافظ بعض الحِكم من عدم التصريح بذكر الدجال في القرآن، فقال: "قد وقعت الإشارة في القرآن إلى نزول عيسى ابن مريم في قوله: ﴿ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦ ﴾ (النساء: ١٥٩)، وفي قوله

١. نظم المتناثر من الحديث المتواتر، الكتاني، دار الكتب السلفية، القاهرة، ط٢، ص٢٢٨، ٢٢٩.

٢. مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مرجع سابق، ص٧٤، ٧٥ بتصرف.

® في **"صحة أحاديث الدجال ونزول عيسى"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، (٢/ ٥٨٣)، رقم (٣٩١).

تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ (الزخرف: ٦١)، وصح أنه الذي يقتل الدجال، فاكتفى بذكر أحد الضدين عن الآخر، ولكونه يلقب بالمسيح كعيسى، لكن الدجال مسيح الضلالة وعيسى مسيح الهدى"[١].

وقد وقع في تفسير البغوي أن الدجال مذكور في القرآن في قوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ (غافر: ٥٧) وأن المراد بالناس هنا هو الدجال من إطلاق الكل على البعض[٢].

فإذا كان القرآن قد أشار إلى الدجال، بغير تصريح بذكر اسمه، فلا معنى لإثارة تلك الشبهة، بالإضافة إلى أن السنة حجة بنفسها - كما أوضحنا - وبذلك تسقط دعوى القائلين بإنكار أحاديث الدجال استنادًا لهذا الدليل الواهي.

ثالثًا. الإخبار بعلامات الساعة لا يعارض مجيئها بغتة:

يستند هؤلاء المشككون في دعواهم لإنكار أحاديث الدجال إلى معارضة الأحاديث - في ظنهم - لظاهر قوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ (الأعراف: ١٨٧)، وذلك قول شاذ لا يصح أبدًا، فمجيء الدجال إما أن يكون علامة على أن الساعة جاءت، أو على أنها قد اقتربت جدًّا، وعلى الأول يكون مجيء الدجال مجيئًا للساعة وهو يأتي بغتة، فهي مثله تأتي بغتة، ويكون مجيئه كمجيء جزء منها.

وعلى الثاني، فليس العلم باقترابها يمنع أن تأتي بغتة، ولا شك في هذا قال ﷻ: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾ (القمر)، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ (الأنبياء: ١)، فهل هذا يعارض قوله ﷻ: ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾؟!

كما أنهم إما أن يوافقوا على أن للساعة أشراطًا أو لا يوافقوا؛ فإن وافقوا فالاعتراض الذي أوجدوه على الدجال وارد على الأشراط التي آمنوا بها - وشرط الشيء علامته - فما كان جوابًا لهم هنا كان جوابًا هناك.

وإن قالوا: ليست لها أشراط، فقد خالفوا القرآن الذي أكد ذلك بقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ (النمل: ٨٢)، وقد ثبت ذلك في غير موضع في القرآن الكريم.

كما أن الذي ذكرته الأحاديث الصحيحة هو أن الدجال يجيء قبل الساعة، وليس فيها مقدار الزمن الذي بينه وبين الساعة، والروايات تدل على أن الزمن مجهول وأنه طويل، وهل العلم بأن قبل إتيان الشيء إتيان شيء آخر يمنع أن يكون إتيان الآخر بغتة ومجهولًا، وبعيدًا أيضًا، وصحابة رسول الله ﷺ كانوا يعلمون أن الساعة لن تقوم حتى يُتِمَّ الله دينه، ويظهره على الأديان كلها، وهذا الإظهار والإتمام لا بد أن يكون قبل الساعة، فهل خالف ذلك قول القرآن: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ (الأعراف: ١٨٧)؟!

فليست أحاديث الدجال هي التي تعارض القرآن؛ بل زعمهم هذا هو الذي يعارض القرآن؛ ومما لا شك فيه أن الشبهة التي تطعن في صميم القرآن شبهة باطلة داحضة[٣].

---

١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٣/ ٩٨).

٢. انظر: معالم التنزيل، البغوي، مرجع سابق، (٧/ ١٥٣).

٣. مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مرجع سابق، ص٧٠: ٧٢ بتصرف.

وقد ورد في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تدل على صحة معاني أحاديث أشراط الساعة - ومنها الدجال - وذلك مثل قوله: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ (محمد: ١٨)، وعليه فلا تعارض بين مجيء الساعة بغتة وبين أشراطها المتقدمة بين يديها.

وقوله: (بغتة) حال من الساعة، قال ﷻ: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ (الأعراف: ١٨٧)، والبغتة: الفجأة، وهو مصدر بمعنى المرة، والمراد به هنا الوصف، أي: مباغتة لهم.

ومعنى الكلام: أن الساعة موعدهم، وأن الساعة قريبة منهم، فحالهم كحال من ينتظر شيئًا ما، فإنما يكون الانتظار إذا اقترب موعد الشيء، هذه استعارة تهكمية.

والفاء في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ هي الفاء الفصيحة، التي تفيد معنى تعليل قرب مؤاخذتهم.

والأشراط جمع شَرَط، بفتحتين، هو العلامة والأمارة على وجود شيء أو على وصفه.

وعلامات الساعة هي علامات كونها قريبة، وهذا القرب يتصور صورتين:

- إحداهما: أن وقت الساعة قريب قربًا نسبيًّا بالنسبة إلى طول مدة هذا العالم، ومن يسكن عليه من الخلق.
- والثانية: أن ابتداء مشاهدة أحوال الساعة يحصل لكل أحد بموته، فإن روحه إذا خلصت عن جسده شاهدت مصيرها مشاهدة إجمالية... ويفسر هذا حديث ابن عمر: "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي..."[1]، ونهاية حياة المرء قريبة وإن طال العمر.

والأشراط بالنسبة للصورة الأولى: الحوادث التي أخبر النبي ﷺ أنها تقع بين يدي الساعة، وأولها بعثته؛ لأنه آخر الرسل - عليهم السلام - وشريعته آخر الشرائع. وبالنسبة للصورة الثانية أشراطها الأمراض والشيخوخة[2].

وعلى هذا فلا يتعارض إخبار الرسول ﷺ بعلامات الساعة مع قوله ﷻ: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ (الأعراف: ١٨٧) فالمقصود بها وقتها، لا ما يكون بين يديها من علامات.

وإن قيل: إذا كان ظهور الدجال من أشراط الساعة، وأنه سيظهر آخر الزمان لا محالة، فمن أي دجالٍ كان يتعوذ النبي ﷺ؟! نقول: إن التصريح بأن النبي ﷺ يعلم متى آخر الزمان، هذا غير صحيح، ولم يقل أحد به، فلم يعلم النبي ﷺ الساعة أبدًا، ومن ثم، فلا مانع من أن يتعوذ من فتنة الدجال وشره، وقد رُوي في صحيح مسلم حديث، ذكر فيه النبي ﷺ: "إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم..."[3]، بالإضافة إلى أن النبي ﷺ كان يقصد بذلك تعليم الأمة الاستعاذة من فتنة الدجال الكذاب.

إذن استعاذة رسول الله ﷺ من المسيح الدجال

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، (٣/ ٢٨٦)، رقم (١٣٧٩).

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، (٢٦/ ١٠٢: ١٠٤) بتصرف.

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه، (٩/ ٤٠٣١)، رقم (٧٢٣٩).

وتحذير أمته منه بأن يستعيذوا منه؛ فلأنه فتنة عظمى تظهر بين يدي الساعة، وعليه يحمل إنذار الرسل أقوامهم الدَّجالَ®.

رابعًا. من سنة الله أن يمكّن للطغاة في الأرض؛ ليمتحن قلوب عباده، ثم يأخذ الطغاة أخذ عزيز مقتدر، ليكشف حقيقتهم وكذبهم:

إن سنة الله تأبى أن يُعطى الكذاب الخوارق التي تؤيد دعواه الباطلة دون أن يقرنها بما يكشف حقيقتها وكذبه، أما أن يعطى الكفار والكذابين والدجالين شيئًا من ذلك، مع إظهار الدلائل على أنهم كاذبون ومضلون، فليس في هذا أي مخالفة لسنة الله.

ولقد أعطى الله الشياطين والسحرة وكبار الضالين قوة ومهارة في علوم الدنيا وصناعتها، ما لم يعط عباده المؤمنين، وأعطى أمم الكفر ما نراه من عزة وسلطان وسعة لم يكن بعضها اليوم للمؤمنين، بل قد أعطى الشيطان من السلطان على النفوس والعقول والتصرف فيها، والتغلب عليها شيئًا لم يعطه عباده الصالحين ولا رسله المقربين؛ حتى إن الشيطان ليجري من الإنسان مجرى الدم في جسمه، وقد أعطى الله ﷻ فرعون وقومه ملكًا لم يعطه موسى عليه السلام وقومه وأنصاره، ويؤكد ما ذهبنا إليه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (الأنعام)، وورد عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح أنه قال ﷺ: "... ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة، ولهم الدنيا"[1]؟!

وليس في هذا ما يدل على كرامة أو فضل، كما لا تدل الصحة والمال والشهرة في الدنيا على شيء من ذلك لصاحبها، وقد أخبر القرآن أن أعداء الله قد تمكنوا من رسله، فقتلوا منهم فريقًا، وأخرجوا فريقًا منهم من ديارهم، وعذَّبوا آخرين، وهذا غاية السلطان والتمكين، وليس هذا بمخالف لسنة من سنن الله، إلا أنه ﷻ لا بد أن يقيم الدلائل على أن هؤلاء الأقوياء المسلَّطين على ضلال مبين، وأنهم من أعوان الشيطان، وهذا ما سيفعله بالدجال.

ونحن نعلم أن من سنن الله أن يرسل رسله ليأخذوا الطغاة والبغاة، فكما أرسل الله ﷻ موسى عليه السلام لفرعون، وإبراهيم عليه السلام للنمرود، فسيرسل الله ﷻ عيسى عليه السلام ليخلص الدنيا من الدجال وسلطانه.

وسيعطي الله ﷻ الدجال من الخوارق ما يؤيد دعواه الباطلة، ثم يظهر الدلائل على كذبه وافترائه، وما ذلك إلا انسجامًا مع سنة الله ﷻ الذي يمكن للطغاة في الأرض؛ ليمتحن قلوب عباده، ثم يأخذ الطغاة المتكبرين أخذ عزيزٍ مقتدر؛ فذلك دليل على بطلان دعواهم وسقوطها.

كما أنهم اعتقدوا أن المسيح الدجال سيقوم بإحياء الموتى، والمختص بإحياء الموتى هو الله ﷻ، ويستشهدون على ذلك بحديث صحيح، جاء فيه أن رجلًا يخرج إلى الدجال، فيقول: "أشهد أنك الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله ﷺ حديثه، فيقول

® وفي "الفهم الصحيح لقوله تعالى عن الساعة: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة عشرة، من هذا الجزء.

[1]. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾، (٦/ ٢٣٠٩)، رقم (٣٦٢٦).

الدجال: أرأيتَ إن قتلتُ هذا ثم أحييتُهُ، هل تشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه، فيقول حين يحييه: والله ما كنت قط أشد بصيرةً مِنِّي اليوم، فيقول الدجال: أَقْتُلُه فَلا أُسَلَّطُ عليه"[1]، فقولهم: إن هذا الكلام مردود؛ لأن المسيح الدجال قد نسب إليه إحياء الموتى كما جاء عن عيسى ﷺ أنه يحيي الموتى، وإبراهيم ﷺ قد ذبح أنواع الطيور التي أمره الله بذبحها، ثم ناداها فقامت من مضجعها وغير ذلك كثير؛ وإحياء الموتى إنما هو لله وحده، ولكن قدرة الله لها عمومية ليست لغيرها، وهي أن الله يقدر أن ينقل من الأسباب ويضعها في قدرة الضعيف، فيصير بها قويًّا قوة نسبية، ويكون الفعل أولًا وآخرًا لله لا غير، فاعتقادهم أن المسيح سيقوم بممارسة إحياء الموتى، هذا اعتقاد باطل، كما أن الله ﷻ سوف يؤكد قدرته، وتفرده بإحياء الموتى عندما يسلب الدجال تلك القوة الخارقة (إحياء الموتى)، وعندئذ يبقى واضحًا جليًّا لكل من تُسَوِّل له نفسه التشكيك في قدرة الله ﷻ المتفرد بهذا الكون وبما فيه كل زمان ومكان.

ولا يُسَوَّى بين خوارق الدجال ومعجزات الأنبياء، فالله ﷻ قد أعطى الدجال كثيرًا من الخوارق الزائلة، وأظهر الدلائل على كذبه وزيفه، وأنه ضال وخبيث، مكتوب بين عينيه "كافر" وأصابه بالعور، وأحاطه بالنقصان من كل جانب، بالإضافة إلى أنه يدعي الألوهية لا النبوة.

وأما الأنبياء فأعطاهم الله المعجزات البيِّنات الصادقات، وأعطاهم ما يدل على أنهم صادقون، وعلى أن كل ما يدعون إليه حسن مقبول، وقد أعطى الله السحرة أشياء خارقة عجيبة وكذا المتنبئين، فقد أنزل الشياطين عليهم يساعدونهم في كثير من ضلالاتهم وإغوائهم، وما كان ذلك قادحًا في صدق الأنبياء.

فقد أخبر القرآن أن سحرة فرعون سحروا الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، فألقى موسى ﷺ عصاه، فإذا هي تبتلع كل ما يأفكون، فبان كذبهم وزيفهم، وخروا لله ساجدين، وكذلك يفعل الدجال، فإنه يعيث في الأرض فسادًا شأن المفسدين، حتى إذا نزل عيسى ﷺ قتله وأخزاه وأبان كذبه.

فالذي أعطاه الله الدجال ليس بمشابه ما أعطاه الأنبياء؛ لأنه لا يستحق ذلك، وما زاد أن يكون ساحرًا، أو يشبه الساحر، فقد ثبت في الصحيح أنه قال ﷺ في الدجال: "إن معه ماءً ونارًا، فناره ماء بارد، وماؤه نار، فلا تهلكوا"[2].

وهذا حال السحرة، ولا يُسوِّي بين ما أعطى الله محمدًا ﷺ وباقي الأنبياء، وما سوف يعطي الدجال ـ إلا من فسد عقله[3].

إذًا؛ خروج الدجال كما وصفت الأحاديث لا يقدح في الأنبياء ولا في صدقهم، بل هو معجزة من معجزات الأنبياء؛ فما من نبي إلا وحذَّر أمته الدجال، فخروج الدجال دليل على صدق النبوة، وليس العكس، وبذلك تسقط الشبهة.

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضائل المدينة، باب: لا يدخل الدجال المدينة، (٤/ ١١٤)، رقم (١٨٨٢).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه، (٩/ ٤٠٣٠)، رقم (٧٢٣٥).

٣. مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مرجع سابق، ص٧٣، ٧٤ بتصرف.

خامسًا. الدجالون كثيرون موجودون في كل زمان، كلهم يدعي النبوة، وآخرهم الأعور، وهو أخطرهم جميعًا:

لقد ورد عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح ـ في صحيح البخاري ـ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان، فيكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة، ولا تقوم الساعة حتى يُبْعث دجالون كذابون قريبًا من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله"[1]. "وقد جاء الواقع مؤيِّدًا لهذا الحديث كل التأييد، فمن هؤلاء الدجالين مَنْ ظهر كمسيلمة، والأسود العنسي في القديم، وغلام أحمد القادياني الذي ظهر في بلاد الهند في العصر الأخير، ومنهم من سيظهر حتى يكون آخرهم الدجال الأكبر، وهو الذي سيقتله عيسى عليه السلام"[2].

من ثم، فلا يقدح ذلك في إخبار النبي ﷺ: أن المسيح الدجال واحد، يظهر آخر الزمان، فهذا هو الدجال الأكبر، الذي ذاع واشتهر لخطره الداهم وفتنته الشديدة؛ لتأييد الله له بالخوارق الهائلة، والذي يميزه عن غيره من الكذابين الدجالين أنه لا يدعي النبوة فقط، بل يدعي الألوهية أيضًا، كما أن الذي سيتولى قتله وهزيمته هو عيسى عليه السلام، فكان هذا دليلًا على أنه الدجال الأكبر.

كما أن الله ﷻ قد أصابه بالعور؛ وأحاطه بالنقصان في ذاته، فمكتوب بين عينيه "كافر" لا يراها إلا المؤمن، أليست كل هذه أدلة على انفراد هذا الدجال عن بقية الدجالين الكذابين؟!

وبذلك تتهاوى هذه الشبهة أيضًا.

أما زعمهم أن هناك تعارضًا بين الأحاديث التي جاءت بشأن منع دخول الدجال المدينة ومكة المكرمة، ورؤية النبي ﷺ له يطوف بالبيت الحرام، فزعم باطل؛ لأنه لا تعارض يذكر فيها على الإطلاق، وقبل تفنيد دعواهم هذه نسوق الحديث الذي ذكر فيه طواف الدجال بالبيت: قال ﷺ: "إن الله ليس بأعور، ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عِنَبَةٌ طافية. وأَرَاني الليلةَ عند الكعبة في المنام، فإذا رجل آدَمُ[3] كأحسن ما يُرى من أُدْم الرجال، تُضرب لِمَّتُهُ[4] بين منكبيه، رَجِلُ الشعر[5]، يقطر رأسه ماءً، واضعًا يديه على مَنكبي رَجُلَين يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا المسيح ابن مريم، ثم رأيت رجلًا وراءه جَعْدًا قططًا[6]، أعور عين اليُمنى كأشبه من رأيت بابن قَطَن[7]، واضعًا يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ قالوا: المسيح الدجال"[8].

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، (٦/ ٧١٢)، رقم (٣٦٠٩).

٢. دفاع عن السنة، د. محمد محمد أبو شبهة، مرجع سابق، ص٢١٢.

٣. الآدم: الأسمر.

٤. لِمَّة: شعر رأسه، يقال له إذا جاوز شحمة الأذنين، وألَمَّ بالمنكبين: لمة، وإذا جاوزت المنكبين فهي جمة، وإذا قصرته عنها فهي وفرة.

٥. رَجِلُ الشعر: سرحه، فهو مسترسل.

٦. شديد جعودة الشعر، ويراد به الذم.

٧. رجل من خزاعة مات في الجاهلية اسمه عبد العزى بن قطن.

٨. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾، (٦/ ٥٥٠)، رقم (٣٤٣٩، ٣٤٤٠). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، (٢/ ٦٢٤)، رقم (٤١٩).

وجدير بالذكر أن هذا الحديث صحيح لا شك في ذلك، فقد رواه البخاري ومسلم، وجمع كبير من أئمة الحديث، ومن المتفق عليه أيضًا بين جمهور العلماء أن الدجال لن يتمكن من دخول مكة ولا المدينة، لتواتر الأحاديث في ذلك، وهذا التوهم رده بسيط جدًّا، فتحريم دخول مكة والمدينة عليه، إنما هو في زمن فتنته وخروجه، لا في الزمن السابق لذلك.

قال ابن حجر: "فيه دلالة على قوله ﷺ: "إن الدجال لا يدخل المدينة ولا مكة" ؛ أي: في زمن خروجه، ولم يرد بذلك نفي دخوله في الزمن الماضي"[1].

كما أن طواف الدجال بالبيت إنما هو رؤيا منام، كما هو صريح الحديث، ورؤيا الأنبياء وإن كانت وحيًا، إلا أن فيها ما يقبل التعبير، فرؤيا المنام لا يلزم وقوعها في الخارج كما كانت في الرؤيا، بل قد يكون لها تعبير وتأويل يخالف الظاهر منها، كما ثبت ذلك في عدد من الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، ومن ذلك:

حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: "بينا أنا نائم، أتيت بقدح لبن، فشربت منه حتى إني لأرى الري يخرج في أظفاري، ثم أعطيت فضلي؛ يعني: عمر، قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم"[2].

فإذا كان منع الدجال دخول مكة والمدينة، إنما يقع عند زمن فتنته وخروجه فقط، بالإضافة إلى أن رؤيا المنام لا يلزم وقوعها في الخارج كما كانت في الرؤيا، وإذا كان ذلك فلا تعارض على الإطلاق، وبالتالي تسقط دعوى القائلين بالتعارض.

أما عن تعجبهم بشأن الأبواب السبعة التي ذُكرت في الحديث الشريف، حيث قال رسول الله ﷺ: "لا يدخل المدينة رُعْب المسيح الدجال، ولها يومئذ سبعة أبواب، على كل باب ملكان"[3] ـ فتعجب لا مسوغ له؛ لأن المقصود بالأبواب هنا المداخل الرئيسة، وإن لم تكن على هيئة باب، ومن الممكن أيضًا أن يكون المقصود أن الملائكة يغطون سبع جهات، على كل جهة ملكان، فعبر عن الجهة بالباب، وهذا جائز في لغة العرب، وقد ورد حديث آخر يؤكد ما ذهبنا إليه من أن المراد بالأبواب هنا هو المداخل؛ فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ليس من بلدٍ إلا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، وليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة صافِّين يحرسونها، ثم ترجف المدينة ثلاث رَجَفَاتٍ، فيخرج الله كلَّ كافرٍ ومنافق"[4].

قال الحافظ في "الفتح": الأنقاب جمع نَقَب، قال ابن وهب: المراد بها المداخل، وقيل الأبواب، وأصل النقب الطريق بين الجبلين، وقيل: الأنقاب الطرق التي يسلكها الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ (ق: ٣٦)[5].

وبعد فقد تبيَّن أن الأبواب المراد بها المداخل أو

١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٦/ ٥٦٣).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التعبير، باب: اللبن، (١٢/ ٤١٠)، رقم (٧٠٠٦).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الفتن، باب: ذكر الدجال، (١٣/ ٩٦)، رقم (٧١٢٥).

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضائل المدينة، باب: لا يدخل الدجال المدينة، (٤/ ١١٤)، رقم (١٨٨١).

٥. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٤/ ١١٤).

الجهة أو الطريق بين جبلين؛ علاوة على أنه من الممكن أن يكون لها أبواب بالمعنى الحقيقي، ولكن عند وقت خروج الدجال وانتشار فتنته دلَّ على ذلك قوله: "يومئذ"، وعلى هذا تسقط تلك الدعوى وتزول.

الخلاصة:

- لقد أجمع علماء الأمة ومحدِّثوها على تواتر أحاديث الدجال تواترًا لا يدع مجالًا للشك، أما الأحاديث الضعيفة والموضوعة فلا يلتفت إليها، فقد صحت أحاديث كثيرة تثبت ظهور الدجال آخر الزمان، وقد أورد هذه الأحاديث كبار علماء الحديث الثقات أمثال البخاري ومسلم، وغيرهما.
- إن عدم إشارة القرآن الكريم للدجال لا يَقْوَى دليلًا على إنكاره، فتكفي السنة الصحيحة وحدها دليلًا قاطعًا على ظهور الدجال آخر الزمان، لأن السنة حجة بنفسها؛ فهي وحي كالقرآن، علاوة على أن جمعًا كبيرًا من علماء التفسير قد أكد أن القرآن الكريم قد أشار إلى الدجال في غير موضع، ولكن دون التصريح بذلك.
- لقد أكد القرآن في غير موضع أن للساعة أشراطًا، لا بد أن تقع قبيل مجيئها، وأكد أيضًا أن الساعة تأتي بغتة، فمن ينكر الدجال بحجة مخالفة القرآن في ذلك؛ أي: أن الساعة تأتي بغتة ـ فقد خالف القرآن في ذلك.
- لقد أكدت الأحداث التاريخية أن من سنة الله تعالى أنه قد يمكِّن للفاسقين والطغاة في الأرض، ليمتحن بذلك قلوب العباد، فيبين المؤمن من المنافق؛ ثم يأتي على الطغاة فيأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر؛ ليبين زيف خوارقهم وملكهم، فالطغاة: فرعون، والنمرود، وقارون وغيرهم من أكبر الأدلة على ذلك.
- إن تأييد الله للدجال بالخوارق الزائلة لا يقدح في صدق النبوة، فشتان بين خوارق الدجال الزائلة، ومعجزات الأنبياء الخالدات، كما أن ظهور الدجال آخر الزمان دليلٌ ساطع على صدق الأنبياء؛ فما من نبي إلا وحذّر أمته الدجال.
- إن الله بقدرته ينقل الأسباب ويضعها في قدرة الضعيف؛ فيصير بها قويًّا قوة نسبية، ويكون الفعل أولًا وآخرًا لله وحده لا لغيره، وإحياء الموتى للمسيح الدجال خير مثال على ذلك.
- إن اختلاف الروايات بشأن صفات الدجال، ومكان خروجه وزمانه ـ لا يقدح أبدًا في ظهوره آخر الزمان؛ فالخلاف ليس في كونه يأتي أو لا يأتي، فخروجه مجمع عليه.
- لم يكن النبي ﷺ يعلم متى آخر الزمان (أي: الساعة) قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ (الأعراف: ١٨٧)، ولا مانع من أن يتعوذ ﷺ من فتنة الدجال، في أخطر فتنة لذا كان المقصد من وراء ذلك تعليم الأمة الاستعاذة من فتنة الدجال، فلا معنى لهاتين الشبهتين.
- لقد أخبر النبي ﷺ أن الدجالين كثيرون، وهم قريب من ثلاثين، كلهم يدعي النبوة، منهم من ظهر، ومنهم من لم يظهر بعد، ومما لا شك فيه أن أشدهم خطرًا وفتنة هو آخرهم: الدجال الأعور، الذي يدَّعي الألوهية، ويُنْزِل له الله ﷻ عيسى عليه السلام؛ ليتمكن منه ويقتله، ويظهر زيف خوارقه الهائلة، فلا تعارض؛ فالدجال الأعور واحدٌ في خطره الفادح وخوارقه

الهائلة الزائفة، وذلك لا يمنع من وجود دجالين كذابين في كل زمان يعيثون في الأرض فسادًا.

- لا تعارض بين الحديثين بشأن عدم دخول الدجال مكة والمدينة ورؤية النبي ﷺ له في منامه يطوف بالبيت، فالمنع إنما يكون وقت ظهوره (أي: الدجال) آخر الزمان، وتفشِّي فتنته، أما قبل ذلك فلا، علاوة على أن هذا الحديث كان رؤيا رآها النبي ﷺ، والرؤيا لا يلزم وقوعها في الخارج كما كانت في المنام.
- إنه لا شك أن المراد بالأبواب السبعة المذكورة في الحديث؛ إنما هو المداخل الرئيسة للمدينة، كما أنه لا يستبعد أن يكون للمدينة ـ وقت خروج الدجال ـ أبواب حقيقة تركب على أسوار.

الشبهة الثالثة والعشرون

الطعن في أحاديث المهدي المنتظر(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المغرضين في صحة الأحاديث التي تثبت ظهور المهدي المنتظر آخر الزمان. ويستدلون على ذلك بأن كل الأحاديث التي وردت فيه ضعيفة، وما هي إلا أحاديث آحاد لا تفيد العلم، ولم يرد في القرآن أية إشارة إلى ظهور المهدي، بالإضافة إلى أن البخاريَّ ومسلمًا لم يرويا شيئًا من ذلك في صحيحيهما.

كما أن هناك أحاديث صحيحة تنكر فكرة المهدي، مثل قوله ﷺ: "لا مهدي إلا عيسى"، ويزعمون أن فكرة المهدي في نظرهم تخالف العقل السليم، وأنها أيضًا طالما أنتجت كثيرًا من الفتن والقلاقل التي لا يستوعبها كتاب مستقل، فضلًا عن أن فكرة المهدي تَحمِل الناس على التواكل وترك العمل. وبالإضافة إلى ذلك يرون أن أحاديث المهدي كلها من وضع الشيعة، ومن وضع كعب الأحبار ووهب بن منبه. وقد ساقوا هذه الأدلة كلها قائلين: إن وقوع الاضطراب والتناقض في أحاديث ظهور المهدي لَدليلٌ أكيد على بطلانها وزيفها. رامين من وراء ذلك إلى تشكيك المسلمين في صحة هذه الأحاديث الثابتة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن الأحاديث التي جاءت بشأن ظهور المهدي ليست كلها ضعيفة، كما زعموا؛ فقد أجمع جمهور علماء الحديث، منهم: ابن حجر المكي، والبيهقي، وابن كثير، وابن تيمية، والشوكاني على صحتها وتواترها عن ابن مسعود، وأم سلمة، وأبي سعيد، وعلي ﷺ، وقد خرَّجها كثيرٌ من الأئمة في كتبهم، بأسانيد قوية؛ ومن هؤلاء الأئمة، أبو داود، وأحمد، والترمذي، وغيرهم كثير.

٢) إن عدم إشارة القرآن الكريم للمهدي ليست دليلًا لإنكار ظهوره؛ فيكفي ورودها والتأكيد عليها في السنة النبوية الشريفة، إذ السنة حُجَّة بنفسها؛ فقد أكد القرآن حجيتها كثيرًا؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧)، فدلَّ ذلك على أن السنة حُجَّة كالقرآن الكريم.

٣) إن عدم ذكر الشيخين "البخاري ومسلم"

(*) المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة، د. عبد العليم عبد العظيم البستوي، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. المهدي المنتظر على الأبواب، محمد عيسى داود، دار المصطفى، القاهرة، ط٢١، ٢٠٠٣م.

لأحاديث المهدي في صحيحيهما، لا يُعَدُّ دليلًا على إنكار فكرة المهدي من أساسه؛ فإن الشيخين لم يستوعبا كل الصحيح في صحيحيهما، وذلك بشهادتهما -أي الشيخين - فضلًا عن إجماع علماء الحديث والفقه على ذلك، ناهيك أن جمعًا من علماء الحديث قد أقر بأن في الصحيحين أحاديث تتعلق بالمهدي، وإن لم تكن صريحة في ذكر المهدي.

٤) إن الزعم أن حديث: "ولا مهدي إلا عيسى" دليل على إنكار فكرة المهدي ليس صحيحًا؛ إذ تفرد ابن ماجه بذكر هذا الحديث دون سائر مُدوِّني السنة، وقد ضعَّفه كثير من علماء الحديث؛ منهم الإمام البيهقي، والذهبي، والحاكم، والشيخ الألباني، وعلى فرض صحة الحديث، فلا تعارض؛ إذ المعنى: لا مهدي كاملًا معصومًا إلا عيسى ﷺ، وعلى هذا تجتمع الأحاديث، ويرتفع التعارض.

٥) ليست الأحاديث التي وردت بشأن المهدي من وضع الشيعة؛ فشتان بين مهديهم المزعوم، وبين المهدي المنتظر الذي أخبرت عنه الأحاديث الصحيحة؛ فأحاديث الشيعة تنتهي إلى أئمتهم المزعومين أواخر القرن الثالث الهجري، أما أحاديث المهدي لدينا فهي تنتهي إلى رسول الله ﷺ، فعقيدة أهل السنة في المهدي في وادٍ، وعقيدة الشيعة في مهديهم في وادٍ آخر، فلا يصح نسبة أحاديث المهدي إلى الشيعة.

٦) إن القول بأن فكرة المهدي تخالف العقل السليم قول عارٍ من الصحة، فقولنا: إنه سيحكم في آخر الزمان خليفة عادل يملأ الأرض عدلًا بعد أن مُلئت ظلمًا، ويفتح الله عليه من الخيرات الكثير، فهذا ليس فيه ما يخالف العقل، بل نحن في الحقيقة نحتاج إلى هذا الحاكم بهذه الصفات النبيلة، ولعل في خلافة عمر بن عبد العزيز دليلًا عقليًّا على إمكانية تكرار هذه الخلافة.

٧) إن الفتن والقلاقل التي حدثت من جراء أدعياء المهدية لا تبيح لنا إنكار فكرة المهدي الذي اتفق علماء الأمة الثقات على ظهوره آخر الزمان، وإنما علاج ذلك هو التمسك بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله الكريم ﷺ، كما أن فكرة المهدي في حد ذاتها ينبغي أن تكون حافزًا ومشجعًا لنا لإعادة قوة الإسلام، ورفع راية الحق والعدالة تحت سمائه لا دافعًا على التواكل، وترك العمل كما يزعمون.

٨) إن القول بأن أحاديث المهدي كلها من وضع كعب الأحبار ووهب بن منبه قول غير صحيح؛ فكل الأحاديث الصحيحة التي ندافع عنها والواردة في المهدي ليس فيها رواية واحدة لكعب الأحبار، ولم يرو من طريق وهب بن منبه إلا رواية واحدة، وهو وإن كان من علماء التوراة، لكنه "ثقة" في روايته، ولم يتهم فيها، وقد وثَّقه العجلي، والنسائي، وأبو زرعة، وغيرهم.

التفصيل:

أولا. إجماع علماء الحديث على تواتر أحاديث المهدي وحجيتها:

المهدي: رجل يظهر آخر الزمان من أهل البيت، يؤيد الدين، ويُظهِر العدل، ويتبعه المسلمون، ويستولي على الممالك الإسلامية، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة على أثره، وقد اتفقت كلمة أهل العلم بإجماعٍ ظاهرٍ لا يُدرأ بتعارض صريح أو متأول - على أن حقيقة المهدي لا مراء فيها، وقد تواتر

عن رسول الله ﷺ أحاديث عديدة وصحيحة تخبر عن المهدي المنتظر، وأبانت هذه الأحاديث عن اسمه ووسمه، وأنه من نسل رسول الله ﷺ، وظهوره سيكون علامة كبرى من علامات يوم القيامة.

وقد روى أحاديث المهدي عن رسول الله ﷺ جمٌّ غفير من صحابة رسول الله ﷺ يصل عددهم إلى الثلاثين أو يزيدون، مما يفيد تواترًا معنويًّا لهذه الأحاديث، نذكر من هؤلاء الصحابة على سبيل المثال: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، والحسين بن علي، وعبد الله بن عباس، وابن مسعود، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله، وأبو هريرة، وأنس، وعمار بن ياسر، وأم حبيبة، وأم سلمة، وحذيفة بن اليمان، وعائشة، وتميم الداري، وغيرهم ﷺ.

وقد خرَّج أحاديث المهدي كثير من الأئمة في كتبهم منهم على سبيل المثال لا الحصر، أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والنسائي، وأحمد، وابن حبان، والحاكم، والطبراني، وأبو يعلى، والبزار، وابن أبي شيبة، ونعيم بن حماد، وغيرهم من علماء السنة.

وقد احتج جمهور العلماء بأحاديث المهدي كالثوري، والبربهاري، والبستوي، والحافظ الآبري، وأبو سليمان الخطابي، والبيهقي، وأبو بكر بن العربي، والقاضي عياض، والسهيلي، وابن الجوزي، وابن الأثير، والإمام المنذري، والقرطبي المفسر، والقسطلاني، وابن تيمية، والإمام المزي، والحافظ الذهبي، وابن القيم، والشاطبي، وابن حجر العسقلاني، والسخاوي، والسيوطي، والهيثمي، وغيرهم كثير من أهل العلم، مما يؤكد فعلًا تلقي الأمة لأحاديث المهدي المنتظر بالقبول، وعمل الأمة على ذلك واعتقادها[١].

- **بعض الأحاديث الواردة بشأن المهدي المنتظر:**

لقد تعددت الأحاديث التي صرحت بنزول المهدي، ونصَّت على هذا اللقب، ونذكر هنا جملة منها؛ لنثبت صحتها وتواترها عن النبي ﷺ، ومنها ما يأتي:

- عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلمًا وعدوانًا، قال: ثم يخرج رجل من عترتي - أو من أهل بيتي - يملؤها قسطًا وعدلًا، كما مُلئت ظلمًا وعدوانًا"[٢].

- عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "المهدي مِنَّا أهل البيت، يصلحه الله في ليلة"[٣].

- عن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "المهدي مِنِّي[٤]، أجلَى الجبهة[٥]، أقنى الأنف[٦]، يملأ

---

١. المهدي، محمد إسماعيل المقدم، الدار العالمية، الإسكندرية، ط١١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص٦٧: ٧١ بتصرف.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي سعيد الخدري، (٣/ ٣٦)، رقم (١١٣٣١). وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٣. حسن: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الفتن، باب: خروج المهدي، (٢/ ١٦٧)، رقم (٤٠٨٥). وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٤٠٧٥).

٤. مِنِّي: من نسلي وذريتي.

٥. جلاء الجبهة: انحسار مقدم الرأس من الشعر، أو نصف الرأس، أو هو دون الصلع.

٦. أقنى الأنف: مرتفع وسط قصبته وضيق منخراه بعكس الأفطس.

الأرض قسطًا وعدلًا، كما مُلِئَتْ ظلمًا وجورًا، ويملك سبع سنين"[1].

- عن عبد الله بن مسعود ، قال: "قال رسول الله ﷺ: لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي"[2].

- عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "المهدي من عترتي، من ولد فاطمة"[3].

- **أقوال أهل العلم في حقيقة المهدي:**

ومما يؤكد ذلك أيضًا أقوال العلماء التي تؤكد ظهور المهدي آخر الزمان؛ فقد قال الإمام البيهقي كما حكى عنه ابن حجر: "الأحاديث في التنصيص على خروج المهدي أصح ألبتة إسنادًا"[4].

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الأحاديث التي يُحتج بها على خروج المهدي أحاديث صحيحة، رواها أبو داود، والترمذي، وأحمد، وغيرهم، من حديث ابن مسعود وغيره، ثم ذكر شيخ الإسلام روايات ابن مسعود، وأم سلمة، وأبي سعيد، وعلي [5].

وقد ذكر أبو داود السجستاني أن سفيان الثوري كان يتكلم في بعض مَنْ خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسن، الملقب بالنفس الزكية على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، ثم قال: وسفيان يقول: "وإن مر بك المهدي وأنت في البيت فلا تخرج حتى يجتمع الناس عليه"[6]، ويفهم منه أن أمر المهدي كان شائعًا مسلمًا به عندهم.

"وقال أبو محمد البربهاري شيخ الحنابلة في وقته (ت: ٣٢٩هـ) في كتابه "شرح السنة": والإيمان بنزول عيسى ابن مريم ، ينزل فيقتل الدَّجال، ويتزوج، ويصلي خلف القائم من آل محمد ﷺ"[7].

وقال الإمام أبو الحسن الآبري: "وقد تواترت الأخبار، واستفاضت عن رسول الله ﷺ بذكر المهدي، وأنه من أهل بيته، وأنه يملك سبع سنين، وأنه يملأ الأرض عدلًا، وأن عيسى يخرج فيساعده على قتل الدجَّال، وأنه يؤم هذه الأمة، ويصلي عيسى خلفه"[8].

وقال الشيخ الفقيه ابن حجر المكي رحمه الله: "والذي يتعين اعتقاده ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة من وجود المهدي المنتظر، الذي يخرج الدجَّال وعيسى في زمانه، ويُصلِّي عيسى خلفه، وأنه المراد حيث أُطْلِقَ المهدي".

وقال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

---

١. حسن: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: المهدي، (١١/ ٢٥٢)، رقم (٤٢٧٧). وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٤٢٨٥).

٢. حسن صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في المهدي، (٦/ ٤٠٢)، رقم (٢٣٣١). وقال عنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٢٣٠): حسن صحيح.

٣. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: المهدي، (١١/ ٢٥١)، رقم (٤٢٧٦). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٤٢٨٤).

٤. تهذيب التهذيب، ابن حجر، مرجع سابق، (٩/ ١٢٦).

٥. انظر: منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، تحقيق: محمد أيمن الشبراوي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، (٨/ ١٣٥، ١٣٦).

٦. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني، مرجع سابق، (٧/ ٣١).

٧. شرح السنة، البربهاري، ص٧٣، نقلًا عن: المهدي، محمد إسماعيل المقدم، مرجع سابق، ص٨١.

٨. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ المزي، مرجع سابق، (٢٥/ ١٤٩).

"وقد ورد ما يدل على أن المهدي من ذرية الحسن ﷺ كما رواه أبو داود وغيره".

وقال العلامة محمد الخضر بن الحسين شيخ الأزهر الأسبق: "والخلاصة أن في أحاديث المهدي ما يُعد في الحديث الصحيح، وليس من الصواب إنكار الحق من أجل من أُلصق به من الباطل".

وقال الشيخ حسنين مخلوف مفتي الديار المصرية: "وننصح المسلمين بأن يتقبلوا الأحاديث الصحيحة بقلوب مطمئنة، ويؤمنوا بظهور المهدي في آخر الزمان إيمانًا صحيحًا، ويتركوا الأقوال التي تهدم هذه الأحاديث، بل لا تقدير لها ولا عقيدة عندهم بوجودها"[1].

تلك هي أقوال أهل العلم وآراء العلماء حول حقيقة المهدي المنتظر، ومنها يُعلم أن أحاديث ظهوره في آخر الزمان صحيحة، بل ومتواترة تواترًا معنويًّا.

ومن الجدير بالذكر أن الأحاديث التي جاءت في المهدي كثيرة، منها الصحيح والحسن والضعيف، ولا يتناولها إلا كلُّ ذي علم ودراسة بالحديث والفقه معًا، فإجماع العلماء على خروج المهدي آخر الزمان كما أوردنا هو دليل على إسقاط دعوى القائلين بضعف أحاديث المهدي على سبيل الإطلاق.

وقد استدل المشككون لإثبات ما يرمون إليه من إنكار أحاديث المهدي بأن الأحاديث التي جاءت في المهدي كلها أحاديث آحاد، لا تفيد علمًا، وجواب ذلك أنه على فرض التسليم بأن أحاديث المهدي آحادٌ، فإن حديث الآحاد حجة بنفسه في العقائد والأحكام، ويفيد العلم، ويقطع بصحته إذا تلقته الأمة بالقبول، أو عملت به، وهذا ما ذهب إليه أكثر أهل العلم بالأصول، وعامة الفقهاء من الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة، إلا فرقة تبعت أهل الكلام.

ذهب إلى ذلك جمع كثير من العلماء، كما يؤكد ذلك ما ورد في صحيح البخاري: لما أراد أبو بكر ﷺ أن يجمع القرآن حين استحرَّ القتل بالقرَّاء في وقعة اليمامة، قال لعمر وزيد رضي الله عنهما: من جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه، قال زيد بن ثابت: "فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب[2]، واللِّخَاف[3]، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ (التوبة: ١٢٨). حتى خاتمة براءة..."[4].

"فالصديق ﷺ اكتفى بشهادة اثنين في القرآن، الذي هو أصل الدين، وأساس اليقين، ومنكر شيء منه يُكفَّر بإجماع المسلمين، لعلمه بما كان عليه الصحابة من شدة التحرز والتيقظ والتثبت؛ بحيث إذا اجتمع اثنان منهم على رواية شيء لم يبق للوهم والخطأ فيه احتمال، فما ظنك بحديث يرويه جمع كبير من الصحابة، يتلقاه عنهم مثلهم من التابعين، ثم مثلهم من تابعي التابعين، وهلم جرًّا"[5]؟!

١. انظر: المهدي، محمد إسماعيل المقدم، مرجع سابق، ص٨٨: ٩٥.

٢. العُسب: جمع العسيب، وهو جريدة النخل المستقيمة يكشط خوصها.

٣. اللخاف: جمع اللخفة، وهي حجر أبيض عريض رقيق.

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: فضائل القرآن، باب: جمع القرآن، (٨/ ٦٢٧)، رقم (٤٩٨٦).

٥. المهدي، محمد إسماعيل المقدم، مرجع سابق، ص١٤٠.

فإن وجود الحديث في كتب متعددة من طرق مختلفة يفيد القوة، ويعرف به التواتر، وقد ثبت لنا فيما تقدم كثرة من خرَّج أحاديث المهدي من الأئمة، فضلًا عمَّن صححها، واعتقد موجبها.

وإن كان العلماء قد أجمعوا على تواتر أحاديث المهدي، فبهذا تسقط دعوى القائلين بأن أحاديث المهدي أحاديث آحاد، ليثبتوا ضعفها وعدم حجيتها®.

ثانيًا. حجية السنة النبوية ثابتة بالقرآن والسنة وإجماع الأمة، وإشارة القرآن للمهدي:

لا يعني عدم ذكر المهدي في القرآن عدم صحة هذا الخبر؛ لأن القرآن جاء مجملًا، ثم جاءت السنة مكملة له، مبينة ومفصلة لما جاء به، فما صحَّ منها ثبت كما ثبت القرآن؛ إذ السنة حجة في الدين لا شك في ذلك، والأدلة على ذلك كثيرة، منها ما جاء في القرآن، ومنها ما جاء في السنة، ومنها ما جاء من إجماع العلماء وأقوالهم، ومن الأدلة القرآنية التي تثبت حجية السنة ما يأتي:

- قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ (الحشر: ٧)، وفي ذلك تصريح من الله بأخذ كل ما أتى به النبي ﷺ، ومن ذلك إخباره بنزول المهدي.

- قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (آل عمران)، وهذه الآية توجب طاعة النبي ﷺ المطلقة.

- قوله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ (النساء)، فعُلِم من ذلك أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله ﷻ.

- قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ (النساء: ٥٩)، وهذا أمر صريح من الله ﷻ بالرجوع إلى قول النبي ﷺ فيما يختلف فيه المسلمون.

كما أنه يتعذر العمل بالقرآن وحده؛ فمثلًا قال الله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾، فالمراد هو وجوب الصلاة والزكاة؛ ولكن ما ماهية تلك الصلاة الواجبة؟ وما كيفيتها؟ وما وقتها؟ وما عددها؟ وما ماهية الزكاة؟ وعلى من تجب؟ وفي أي مال تجب؟... إلخ. لم توضح الآية ذلك.

فجاءت السنة مبينة ماهية الصلاة وكيفيتها ووقتها وعدد ركعاتها، وبينت ما تختص بها عامة.

كما أنه قد ثبت بأدلة القرآن والسنة: أن السنة وحي كالقرآن، فمن أدلة القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (النجم)، فأعاد الضمير إلى المصدر المفهوم من الفعل؛ أي: ما نطقه إلا وحي يوحى.

وقوله ﷻ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ (النساء: ١١٣).

قال ابن القيم رحمه الله: "والكتاب هو القرآن، والحكمة هي السنة، باتفاق السلف"[1]، وغير ذلك

® في "صحة أحاديث نزول المهدي آخر الزمان" طالع: الوجه الأول، من الشبهة العشرين، من الجزء الخامس (الأئمة والرواة).

١. الروح، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، (١/ ٧٥).

آيات كثيرة على أن السنة وحي يُوحى من عند الله كالقرآن.

هذه بعض الآيات التي تؤكد حجية السنة، ولزوم الإيمان بكل ما جاء فيها طالما أنه صحَّ عن النبي ﷺ، وهناك غيرها كثير، اكتفينا بذلك لدلالته على ما نريد، وأما الأدلة على حجيتها من السنة نفسها فكثيرة جدًّا، منها:

- عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله"[1].
- عن أبي رافع أن النبي ﷺ قال: "لا أُلْفِيَنَّ أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به، أو نهيت عنه، فيقول: ما ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه"[2]. وأحاديث أُخر عديدة، وبهذه الأحاديث الصحيحة بالإضافة إلى الآيات التي تثبت حجية السنة - انعقد الإجماع على أنه ﷺ كان يُوحى إليه غير القرآن، كما انعقد إجماع المجتهدين من السلف والخلف على حجية السنة.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: "أجمع الناس على أن من استبانت له سنة عن رسول الله ﷺ لم يكن له أن يَدَعَهَا لقول أحدٍ من الناس"[3].

فكل ما سبق دل دلالة قاطعة على حجية السنة النبوية الشريفة، وأنها وحي يُوحى من الله، لذلك وجب التصديق بكل ما صحَّ منها، ومن ذلك الأحاديث التي أخبرت بنزول المهدي.

ومع ما ذكرناه من أدلة قاطعة كافية على حجية السنة، وأن ما ثبت منها وجب التصديق به والتسليم له، فقد حكى بعض المفسرين ما يفيد أن هناك إشارة إلى المهدي، في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)﴾ (البقرة).

قال إمام المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله: "حدثنا عمرو، قال: حدثنا أسباط عن السدي قوله: أما خزيهم في الدنيا: فإنهم إذا قام المهدي، وفُتِحَت القسطنطينية، قتلهم، فذلك أخزى، وأما العذاب العظيم: فإنه عذاب جهنم الذي لا يخفف عن أهله، ولا يقضى عليهم فيها فيموتوا"[4].

وحكى ذلك أيضًا الإمام القرطبي[5]، والإمام ابن كثير[6].

نخلص من هذا إلى أن الأمر الذي ثبت بالأحاديث وجب الأخذ به طالما أنه صحَّ عن النبي ﷺ؛ لأن السنة حجة بذاتها بنص الكتاب والسنة وإجماع الأمة، ومن ثَمَّ وجب التصديق بأحاديث المهدي لثبوتها وصحتها، ولا يصح ردَّها بحجة عدم ذكره في القرآن، ومع ذلك فقد

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجهاد والسير، باب: يُقاتل من وراء الإمام ويُتَّقى به، (٦/ ١٣٥)، رقم (٢٩٥٧).

٢. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: السنة، باب: في لزوم السنة، (١٢/ ٢٣٣)، رقم (٤٥٩٣). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٤٦٠٥).

٣. أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، د. ت، (٢/ ٢٨٢).

٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، مرجع سابق، (٢/ ٥٢٥).

٥. انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (٢/ ٧٩).

٦. انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، (١/ ١٥٧).

أشار القرآن إلى ذلك، كما قال المفسرون®.

ثالثًا. عدم إيراد البخاري ومسلم لأحاديث المهدي ليس دليلا على عدم صحتها لديهم:

لقد أنكر بعض محاربي السنة الأحاديث التي وردت في إثبات ظهور المهدي آخر الزمان، واستدلوا على زعمهم هذا بأدلة كثيرة منها: أنها لم ترد لدى الشيخين البخاري ومسلم، وظن هؤلاء أنهما لم يخرجا أحاديث المهدي لِعِلَّة فيها عندهما، ولكن ذلك ليس بصحيح؛ فإن الشيخين لم يحيطا بجميع الأحاديث الصحيحة ولا ادعيا ذلك، فقد قال البخاري: "ما أدخلت في كتاب الجامع إلا ما صح، وتركت من الصحيح حتى لا يطول"[1].

كما ذكر ابن الصلاح في "مقدمته"، عند حديثه عن الصحيحين أنهما: لم يستوعبا الصحيح في صحيحيهما، ولا التزما ذلك ـ أي الاستيعاب"[2].

كما رُوي عن الإمام مسلم رحمه الله، أنه قال: "ليس كل شيء عندي صحيح وضعته هاهنا، إنما وضعت هاهنا ما أجمعوا عليه" ردًّا على من سأله عن حديث أبي هريرة ﷺ: "وإذا قرأ فأنصتوا" هل هو صحيح، فقال: "هو عندي صحيح" فقيل لِمَ لَمْ تضعْهُ هنا؟ فأجاب بذلك[3].

وقد أوضح النووي أن المراد بقول مسلم السابق؛ أي: ما لم تختلف الثقات فيه في نفس الحديث متنًا، ولا إسنادًا، إلا ما لم يختلف في توثيق رواته[4].

كما أنه قد ورد عن البخاري، أنه قال: "أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتي ألف حديث غير صحيح"[5]، وجملة ما في كتابه الصحيح سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون حديثًا، بالأحاديث المكررة، فدلَّ على أن المتروك من الصحيح كثير جدًّا قياسًا بالمذكور في الصحيح.

ناهيك عن أقوال العلماء والفقهاء في إثبات ما نرمي إليه من عدم اشتراط ورود جميع الصحيح في الصحيحين، فقد أكد ذلك ابن الأثير في "جامع الأصول"، والحاكم في "المستدرك" والإمام الحافظ في ألفيته، وغيرهم الكثير[6].

وليس أدل على ذلك من أن هناك أحاديث كثيرة جدًّا استدل بها العلماء وعملوا بها ولا توجد في الصحيحين، حتى في أمور العقائد، فمن الأحاديث التي استدل بها العلماء ولم ترد في الصحيحين: حديث العشرة المبشرين بالجنة، فهو في السنن، ومسند الإمام أحمد وغيره، وليس في الصحيحين، ومع ذلك اعتقدت

® في **"ليس في القرآن ما ينفي حجية السنة"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الأولى، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها). وفي **"الأدلة القرآنية على إثبات حجية السنة"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثامنة، من الجزء الأول (مصدر السنة وحجيتها)، والوجه الأول، من الشبهة الأولى، من الجزء الثامن (الإلهيات).

١. هدي الساري مقدمة فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، ص٩.

٢. علوم الحديث، ابن الصلاح، تحقيق: د. نور الدين عتر، المكتبة العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١٥.

٣. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٣/ ٩٧٨) بتصرف.

٤. المرجع السابق، (١/ ١١٩) بتصرف.

٥. هدي الساري مقدمة فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ص٥١٢.

٦. انظر: المهدي، محمد إسماعيل المقدم، مرجع سابق، ص١٤٧: ١٥١.

الأمة موجبه؛ لأنه صحيح، وقلَّ إن وُجِدَ مؤلَّف في العقائد - ولو مختصرًا - إلا وهو متضمن التنصيص على ذكرهم والشهادة لهم بالجنة؛ بناءً على الأحاديث الواردة في ذلك في غير الصحيحين.

فمن الخطأ البيِّن أن يتوهم أن عدم إخراج الشيخين أحاديث المهدي يدل على أنها لم تصح عندهما.

وفي الحقيقة، إن كلامهم هذا ليس له وجه صحة على إطلاقه، بل في الصحيحين أحاديث تتعلق بالمهدي، وإن لم تكن صريحة في ذكره، وقد وردت روايات صحيحة خارج الصحيحين تصرح بزيادة على ما فيهما، وزيادة الثقة مقبولة عند علماء الحديث، كما أنه لا ينبغي أن نعزل النصوص عن شرح العلماء الراسخين، وفهمهم لها.

فقد حمل أحاديث الصحيحين التي تشير إلى المهدي دون التصريح باسمه - كثير من العلماء، مثل: الحافظ أبي الحسن الآبُرِّي، وحكاه عنه القرطبي، والحافظ ابن حجر، والسخاوي، والسيوطي، والزرقاني، وغيرهم، وأقروه عليه، وذهب أيضًا إلى ذلك الطيبي، وأبو داود، وابن كثير، وابن القيم، وابن حجر الهيتمي، والكشميري، ومحمد صديق خان، ومحمد بن جعفر الكتاني[1].

فعن عبيد الله بن القبطية قال: "دخل الحارث بن أبي ربيعة، وعبد الله بن صفوان، وأنا معهم - على أم سلمة، أم المؤمنين رضي الله عنها فسألاها عن الجيش الذي يخسف به - وكان ذلك في أيام ابن الزبير - فقالت: قال رسول الله ﷺ: "يعوذ عائذ بالبيت، فيُبْعَث إليه بعثٌ، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم، فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارهًا؟! قال: يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته"[2].

قال الطيبي: "وهو المهدي؛ بدليل إيراد أبي داود هذا الحديث في باب المهدي"[3].

وبناءً على ما سبق يتأكد لنا أن عدم ورود أحاديث المهدي صراحة في الصحيحين، ليس دليلًا على عدم صحتها لديهما، فهما لم يخرِّجا إلا ما هو على شرطيهما؛ ناهيك عن ذكرهما لها دون التصريح باسم "المهدي"®.

رابعًا. حديث "لا مهدي إلا عيسى" ضعيف بشهادة جمع كبير من علماء الحديث:

هؤلاء المغرضون قالوا: إن هناك أحاديث تنكر وجود المهدي مستدلين على ذلك بما أخرجه ابن ماجه والحاكم عن أنس ﷺ مرفوعًا: "لا يزداد الأمر إلَّا شدة، ولا الدنيا إلا إدبارًا، ولا الناس إلا شحًّا، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس، ولا المهدي إلا

١. المرجع السابق، ص١٤٢ بتصرف.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: الخسف بالجيش الذي يؤم البيت، (٩/ ٣٩٨٤)، رقم (٧١٠٧).

٣. عون المعبود شرح سنن أبي داود، شمس الحق العظيم آبادي، مرجع سابق، (١١/ ٢٥٣).

® في **"عدم اشتمال الصحيحين على كل الأحاديث الصحيحة"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية والعشرين، من الجزء الثاني (تدوين السنة والوضع فيها)، والوجه الثاني، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء الثالث (أبو هريرة)، والوجه الثاني، من الشبهة الخامسة عشرة، من الجزء الحادي عشر (العبادات). وفي **"هدف البخاري من جمع صحيحه الانتقاء لا الحصر"** طالع: الشبهة الرابعة، من الجزء السادس (دواوين السنة). و في **"الاستدراكات على صحيحي البخاري ومسلم ليست أخطاء؛ بل هي إكمال للعمل على شرطهما"** طالع: الشبهة الثالثة عشرة، من الجزء السادس (دواوين السنة).

عيسى ابن مريم"[1].

ومن الجدير بالذكر أن هذا الحديث تفرد به ابن ماجه دون سائر أصحاب الكتب الستة، ورواه الحاكم عن أنس، وقال عقب روايته له: "إنما ذكرت هذا الحديث تعجبًا، لا محتجًا به في المستدرك على الشيخين رضي الله عنهما"[2].

"وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: هذا حديث تفرد به محمد بن خالد الجندي، قال أبو عبد الله الحافظ ـ يقصد الحاكم النيسابوري: ومحمد بن خالد رجل مجهول، واختلفوا عليه في إسناده... فرَجَعَ الحديث إلى رواية محمد بن خالد الجندي، وهو مجهول، عن أبان بن أبي عياش وهو متروك، عن الحسن، عن النبي ﷺ وهو منقطع، والأحاديث في التنصيص على خروج المهدي أصح إسنادًا، وفيها بيان كونه من عترة النبي ﷺ"[3].

وقال الذهبي عنه في سياق ذكره محمد بن خالد الجندي: "وهو خبر منكر أخرجه ابن ماجه"[4].

وقال الألباني في السلسلة الضعيفة: "منكر"[5].

١. ضعيف جدًّا: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الفتن، باب: الصبر على البلاء، (٢/ ١٣٤٠)، رقم (٤٠٣٩). وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٤٠٣٩): ضعيف جدًّا.

٢. المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، مرجع سابق، ص٤٨٨.

٣. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ المزي، مرجع سابق، (٢٥/ ١٤٩، ١٥٠).

٤. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الذهبي، مرجع سابق، (٣/ ٥٣٥).

٥. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، (١/ ١٧٥)، رقم (٧٧).

ومما يدلنا على نكارته معارضته لأحاديث صحيحة تثبت صفة المهدية لغيره عليه السلام:

منها أنه ﷺ دعا لأبي سلمة رضي الله عنه فقال: "اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين"[6].

وعلى فرض صحة حديثهم فلا يُعَدُّ دليلًا على عدم وجود مهدي غير عيسى عليه السلام، كما يزعمون، يقول ابن القيم رحمه الله مبينًا عدم التعارض بين هذا الحديث والأحاديث التي تثبت نزول المهدي: "عيسى أعظم مهدي بين يدي رسول الله ﷺ وبين الساعة، وقد دلت السُّنة الصحيحة عن النبي ﷺ على نزوله على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وحكمه بكتاب الله، وقتله اليهود والنصارى، ووضعه الجزية، وإهلاك أهل الملل في زمانه، فيصح أن يُقال: "لا مهدي في الحقيقة سواه"، وإن كان غيره مهديًّا، كما يقال: "لا علم إلا ما نفع"، و"لا مال إلا ما في وجه صاحبه"، وكما يصح أن يُقال: "إنما المهدي عيسى ابن مريم" يعني: المهدي الكامل المعصوم"[7].

وقال الإمام القرطبي ـ مؤيدًا ضعفه: "إسناده ضعيف، والأحاديث عن النبي ﷺ في التنصيص على خروج المهدي من عترته من ولد فاطمة ثابتة، أصح من هذا الحديث، فاحكم لها دونه... ويحتمل أن يكون

٦. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجنائز، باب: في إغماض الميت والدعاء له إذا حُضِر، (٤/ ١٥٢١)، رقم (٢٠٩٥١).

٧. المنار المنيف في الصحيح والضعيف، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٤٨.

قوله ﷺ: "لا مهدي إلا عيسى"؛ أي: لا مهدي كاملًا معصومًا إلا عيسى، وعلى هذا تجتمع الأحاديث، ويرتفع التعارض"[١].

كما أنه من جهة النظر، فإننا نقول: إن المهدي لم يأت ذكره إلا من جهة المعصوم ﷺ، فكيف يخبر عن أمرٍ أنه سيقع، وهو الصادق الذي لا ينطق عن الهوى، ثم ينفيه؟ ومن المعلوم أن النسخ لا يدخل الأخبار التي هي من هذا القبيل، وهذا متفق عليه بين أهل الأصول.

وبهذا، فالحديث الذي يُثبت عدم وجود مهدي إلا عيسى حديث ضعيف جدًّا لا يصح، فلا يقوى دليلًا على نفي وجود المهدي المنتظر، وعلى فرض صحته فلا ينفي وجود المهدي؛ إذ المعنى أنه لا مهدي كاملًا معصومًا إلا عيسى ﷺ ®.

خامسًا. شتان بين المهدي لدى أهل السنة والجماعة، ومهدي الشيعة المزعوم:

إن هؤلاء المغرضين يدعون أن الأحاديث التي جاءت في ذكر المهدي كلها من وضع الشيعة، أو أنها على الأقل يوجد في رواياتها من رُمي بالتشيع، ولذلك فلا تقبل هذه الروايات؛ لأنها تؤيد بدعتهم، والجواب على ذلك من عدة وجوه:

- أنه قد وردت صفات المهدي في اعتقاد أهل السنة في كثير من الأحاديث الصحيحة، من هذه الأحاديث ما ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "المهدي مني، أَجْلَى الجبهة، أقنى الأنف يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا، يملك سبع سنين"[٢]. وغيره كثير من الأحاديث التي تصف المهدي الذي يخرج آخر الزمان؛ فيملأ الأرض عدلًا بعد أن مُلئت ظلمًا.

فالمهدي اسمه محمد بن عبد الله، من أهل بيت النبي ﷺ من ولد فاطمة رضي الله عنها أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يصلحه الله في ليلة، يملك سبع سنين، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، وتنعم في عهده نعمة لم تنعمها قط، يُعطي المال صحاحًا، ويحثيه حثيًا، لا يعده عدًّا، ينزل عيسى ابن مريم فيصلي وراءه؛ مما يستلزم أن يكون المهدي معاصرًا لخروج الدجال؛ لأن عيسى ﷺ سيقتل الدجال بعد نزوله من السماء.

وأمَّا المهدي في اعتقاد الشيعة؛ فهو آخر الأئمة الاثني عشر المنصوص عليهم، وهم يعتقدون أن الإمامة مَنْصبٌ إلهي واجب على الله ـ معاذ الله ـ لا على العباد، وأنها ركن من أركان الإيمان، لا يصح إيمان عبد حتى يعتقد فيه على النحو الذي يقولون به، فهي تمام إيمانهم، وبناء إسلامهم، وركن أحكامهم.

وهم يغلون في أئمتهم غلوًّا شديدًا، فيعتقدون أنهم معصومون من الخطأ والسهو والنسيان منذ ولادتهم حتى موتهم[٣]. يقول الخميني: "وإن من ضروريات

---

١. التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٧٢٢، ٧٢٣.

® في "**صحة الأحاديث الواردة في المسيح الدجال ونزول عيسى وتواترها**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة)، والوجه الأول، من الشبهة الرابعة والعشرين، من هذا الجزء.

٢. حسن: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: المهدي، (١١/ ٢٥٢)، رقم (٤٢٧٧). وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٤٢٨٥).

٣. المهدي، محمد إسماعيل المقدم، مرجع سابق، ص١٧٩.

مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب، ولا نبي مرسل"[1].

وحكى الإمام ابن حزم رحمه الله اضطرابهم الشديد في شأن ذلك المهدي المولود الذي لم يخلق قط، ثم قال: "وكل هذا هوس، ولم يعقب الحسن المذكور لا ذكرًا ولا أنثى، فهذا أول نوك[2] الشيعة، ومفتاح عظيماتهم، وأخفها، وإن كانت مهلكة"[3].

فإذا كان الفرق بين المهدي عند الشيعة، والمهدي عند السنة كالفرق بين الثَّرىَ والثُّرَيَّا، فكيف يسوغ عاقل لنفسه أن يسوي بين الحق والباطل؟ ما لكم كيف تحكمون؟!

- إن دعوى اقتباس السنة التصديق بخروج المهدي من الرافضة لا تستند على دليل إلا الظن، وقد قال رسول الله ﷺ: "إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث"[4].
- إن أحاديث المهدي مدونة في كتب السنة الشريفة بأسانيد تنتهي إلى رسول الله عن طريق صحابته الكرام ﷺ، أما أحاديث الشيعة فهي تنتهي إلى أئمتهم المعصومين في زعمهم، وقد ينسبونها إلى رسول الله ﷺ.

وجدير بالذكر أن المهدي لدى الشيعة هو محمد بن الحسن العسكري، صاحب السرداب، أما المهدي عند أهل السنة فهو محمد بن عبد الله كما ذكرنا.

فعقيدة أهل السنة في المهدي في وادٍ، وعقيدة الشيعة في مهديهم في وادٍ آخر.

- ليس من الصحيح أن نرفض فكرة المهدي، لمجرد ادعاء طائفة شاذة منهم أن المهدي هو إمامهم الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري، فلا يجوز أن ندع حقًّا بباطل، كما أنه ادعى كثير من الدجالين النبوة، فهل يصح أن يحتج بمجرد ذلك على نفي صحة الاعتقاد في النبوة؟!

وقد انحرف قوم في باب صفات الله ﷻ حتى خرجوا إلى التشبيه والتجسيم، فهل يسوِّغ لنا هذا أن ننفي عن الله صفاته ونعطلها؟!

وعليه، فالحق في المهدي ما أخبر به الصادق المصدوق فيما صح عنه ﷺ وتواتر، أنه سيخرج آخر الزمان لا محالة، فيملأ الأرض عدلًا بعد أن مُلِئتْ ظلمًا، وهذا ما عليه جمهور العلماء[5].

فالإسلام بريء من خرافات هؤلاء الطائفة المغالين من الشيعة، وهم جماعة الرافضة منهم، وسُمُّوا بذلك لرفضهم إمامة وخلافة الصديق والفاروق وعثمان ﷺ، وقد اجتمعت الأمة على الحكم عليهم بالضلال، وعلى رأس الأمة أمير المؤمنين علي ﷺ. إذن فلا مقارنة بين المهدي المنتظر ومهدي الشيعة المزعوم.

سادسًا. عدم اشتمال فكرة المهدي الحقيقية على ما يخالف العقل السليم:

يدعي منكرو فكرة المهدي أنها تخالف العقل

1. الحكومة الإسلامية، الخميني، ص٥٢، نقلًا عن: المهدي، محمد إسماعيل المقدم، مرجع سابق، ص١٨٠.
2. النُّوكُ: الحُمْقُ.
3. الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الظاهري، مرجع سابق، (٥/ ٣٨).
4. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: النكاح، باب: لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع، (٩/ ١٠٥)، رقم (٥١٤٣).
5. المهدي، محمد إسماعيل المقدم، مرجع سابق، ص١٨١: ١٨٣ بتصرف.

السليم؛ حيث يزعمون أنها لا تتفق وسنة الله في خلقه، ولا تتفق والعقل الصحيح، ولعل تقدم الناس في عقلهم ومعارفهم، وتقدمهم في الحكم ونظامه، وما ينبغي أن يكون، يقضي على البقية الباقية من هذه الخرافة.

لكننا نؤكد أنه لا ينبغي أن ندع حقًّا بباطل؛ فمن خلال ما سقناه في هذا البحث يتبين لنا أن هذه الخرافات والتنبؤات التي يستبعدها العقل ويأباها الفكر كلها مما لا تصح نسبته إلى الرسول ﷺ، ولا إلى الصحابة، ولا إلى غيرهم من التابعين وأئمة المسلمين، وهم براء منها.

فكل ما ورد في شأن المهدي من هذه الخرافات هي في الأصل من وضع فرق شاذة تَدَّعي الإسلام، وهي بعيدة كل البعد عنه.

أما ما صح لدينا نسبته إلى الرسول ﷺ أو إلى أصحابه، فليس فيه شيء واحد يستبعده العقل السليم، ولا يحتاج التقدم العلمي والاجتماعي والسياسي إلى إنكار ذلك، بل إن التقدم في حاجة ماسة إلى مثل هذه القيم والأخلاق في الساسة والحكام.

فأي غرابة في قولنا: "سيتولى أمر المسلمين في أواخر الأيام رجل من عترة النبي ﷺ اسمه محمد بن عبد الله، فيحكم بالعدل، فيبارك له الله في حكمه، وتعيش الأمة الإسلامية في عصره في نعمة ورخاء؟!

وهذه الأمور ليست محصورة في المهدي؛ بل يجب أن يكون كل حاكم مسلم متصفًا بهذه الصفات النبيلة، وليس المهدي إلا أحد أولئك الذين يتأسون بالنبي ﷺ، قال الله تبارك و تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب: ٢١)، إذًا فليس المهدي عجيبة من عجائب الدهر[١].

سابعًا. المخرج من الفتن والقلاقل يكون بتصديق خروج المهدي، وليس إنكاره:

يزعم أيضًا هؤلاء الطاعنون أن فكرة المهدوية لم ينتج عنها إلا الفتن والقلاقل، وأنها تحمل الناس على التواكل وترك العمل، كما أن التصديق بخروج المهدي من القضايا النظرية في الدين التي لا يترتب عليها عمل، قال بعضهم: وكان من أثر ذلك الثورات المتتابعة في تاريخ المسلمين، ففي كل عصر يخرج داع أو دعاة كلهم يزعم أنه المهدي المنتظر، ويلتف حوله طائفة من الناس... ولو أحصينا عدد من خرجوا في التاريخ الإسلامي وادعوا المهدويَّة وشرحنا ما قاموا به من ثورات، وما سببوا من تشتيت للدولة الإسلامية وانقسامها وضياع وقتها لطال بنا القول، ولم يكفنا كتاب مستقل"[٢].

نقول: مما لا شك فيه أن كثيرًا من الفتن قامت من جرَّاء أدعياء المهدوية في عصور مختلفة، فهناك الشيعة بطوائفها، والسبئية، والكيسانية، والزيدية، والجارودية، والإمامية، والاثنا عشرية، وغيرهم كثير.

لكن السَّبب في ذلك ليس الفكرة السليمة الصحيحة التي أقرها علماء السنة الثقات، بل السبب هم أولئك الذين ضلوا الطريق والمتبعين لهم لجهالتهم، وبُعْدِهم عن التعاليم الإسلامية الصحيحة.

---

١. المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة، د. عبد العليم عبد العظيم البستوي، مرجع سابق، ص٣٧٨، ٣٧٩ بتصرف.

٢. انظر: المرجع السابق، ص٣٨٠.

وعلاج ذلك ليس هو إنكار فكرة المهدوية من أساسها، كما أن ادعاء النبوة كذبًا وزورًا لا يحملنا على إنكار النبوة من أساسها، وإنما مخرجنا الحقيقي من ذلك هو إيضاح الحقيقة وتجليتها للناس، كما هي في الواقع منزهة عن الشوائب العالقة والأكاذيب والافتراءات؛ وذلك لكي يكونوا على علم بالحقائق فلا يغتروا، فلا شك أن معرفة الرجل المسلم بحقائق دينه وعقيدته كفيلة بأن تنقذه من كل هذه الضلالات والأكاذيب والخرافات.

فالعلاج الوحيد للنجاة من الفتن هو التمسك بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، والاعتصام بحبله؛ فقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ (الحج)، وقال ﷺ: "احفظ الله يحفظك"[1]، وغير ذلك من الأدلة في الكتاب والسنة الصحيحة.

فزعمهم أن التكذيب بأحاديث المهدي يجلب الراحة والاطمئنان، والسلامة من القلاقل والفتن، جوابه أن العكس هو الصحيح، فإن الذي يجلب ذلك كله هو الإيمان بكل ما جاء عن الله تعالى، وكل ما ثبت عن رسوله ﷺ.

فأما الراحة والاطمئنان برد الأحاديث، فهو من باب قول النبي ﷺ في الفتن: "فأي قلب أُشربها..." الحديث[2]، وهو من جنس فرح أهل البدع ببدعهم، واطمئنانهم إليها، ووجدانهم الراحة في التمسك بها، وهذا من تلاعب الشيطان بهم، وتزيينه لهم سوء أعمالهم.

وليس صحيحًا ما ذهب إليه هؤلاء من أن هذه الفكرة "المهدوية" تحمل الناس على التواكل وترك العمل؛ بل هي على العكس من ذلك، فالواقع أن التاريخ الإسلامي الزاهر مليء بالحركات الإسلامية الصحيحة التي بذلت جهودًا عظيمة لإعلاء كلمة الله في المجتمع، وذلك لا يخفى على من له إلمام - ولو قليل - بالتاريخ الإسلامي، ونرى أن هذه الفكرة لا بد أن تكون من الحوافز والمشجعات لمثل هذه الحركات التي تريد رفع راية الحق والعدالة؛ فإن كانت الشريعة الغراء يمكن أن تنفذ في عصر المهدي المنتظر، فكذلك يمكن أن تنفذ قبل ذلك، فيجب على المسلمين أن يحاولوا ويبذلوا جهدهم في سبيله، ولئن وجد في المسلمين أناس أساءوا فهم هذه الفكرة، فخطؤهم راجع إليهم، وليس إلى الفكرة ذاتها[3].

وبذلك تسقط دعوى القائلين بحمل فكرة المهدي على التواكل وترك العمل.

أمَّا قولهم بأن التصديق بخروج المهدي من القضايا النظرية في الدين التي لا يترتب عليها عمل، فما يفيد في

---

١. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: رقم (٢٢)، (٧/ ١٨٥)، رقم (٢٦٣٥). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٥١٦).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: رفع الأمانة والإيمان عن بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب، (٢/ ٥٥٩)، رقم (٥٦٢).

٣. المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة، د. عبد العليم عبد العظيم البستوي، مرجع سابق، ص٣٨١ بتصرف.

ديني إذا صدقت به؟ وما يضرني إن كذبت به؟

فالجواب على ذلك من وجوه؛ منها:

الوجه الأول: أن الأمور العلمية الخبرية والتي يسمونها "الجانب النظري من الدين" يلزم تصديقها واعتقادها؛ لأنها أصل الدين، ولب الإسلام وجوهر التوحيد؛ ولذلك سميت الأوراق التي جمعها بعض أهل العلم في التوحيد "الفقه الأكبر" لأنه كذلك بالنسبة لفقه الفروع.

وهذه الأمور هي في الحقيقة عملية تُناط بالقلب، وعمل القلب فيها التصديق، المنافي للتكذيب، واليقين الخالي من شائبة الشك والريب، قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٢٥).

الوجه الثاني: أن الإيمان بهذه القضايا من مستلزمات الشهادة بأن محمد بن عبد الله ﷺ رسول الله، والتي تقتضي طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، قال رسول الله ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله"[1].

الوجه الثالث: أن التصديق بها من مقتضيات الإيمان باليوم الآخر؛ فالتصديق بأمارات الساعة من أركان الدين، كما ورد في حديث جبريل عليه السلام عندما أتى النبي فسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، وأمارات الساعة، وقال ﷺ في آخره: "إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم"[2].

الوجه الرابع: أن الإيمان بأشراط الساعة من مقتضيات الإيمان بالغيب، وقد جعل الله عز وجل أمر التصديق بالأخبار الغيبية فتنة ومحنة لعباده، ليميز الخبيث من الطيب، قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (العنكبوت).

وأي فتنة أعظم من أن يخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ بخبر، فيقول من ينتسب إلي دينه: ماذا يفيدني إن صدقت؟ وماذا يضرني إن كذبت؟!

فإنه يضيرك أن تكذب بخبر المعصوم ﷺ على الوجوه التي تقدمت، ويفيدك الإيمان به في خصال كثيرة؛ منها: زيادة إيمانك بمزيد التصديق وارتفاع وصف الجهالة عنك، ومحبة أهل الحق وموالتهم، والحمية من الشبهات التي قد تَلِمُّ بك كما ألمت بغيرك، فلم يملك لها دفعًا، فكل هذه الأمور الغيبية تدفع المرء إلى العمل؛ إذ العمل فرع عن العلم والتصور.

والدليل على ذلك إخبار النبي ﷺ بصفة الأعور للدجال، وما يجري من شأن الرجل المؤمن الذي يقتله الدجال ثم يحييه، فيقول المؤمن: "والله ما ازددت فيك إلا بصيرة"[3]، وأنت الأعور الدجال الذي حذرناه

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، (١/ ٣٤٨)، رقم (١٢٥).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبيَّ عن الإيمان والإسلام والإحسان، (١/ ١٤٠)، رقم (٥٠). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: الإيمان والإسلام والإحسان، (١/ ٢٩٢)، رقم (٩٣).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في صفة الدَّجَّال وتحريم المدينة عليه وقتله المؤمن وإحيائه، (٩/ ٤٠٤٠)، رقم (٧٢٤٣).

رسول الله ﷺ، فهذا الرجل قد قرأ الحديث ووعاه، فلما تحقق الخبر، وتأول الشاهد، أفاده علمه السابق، وكان عاصمًا له من فتنة الدَّجال[1].

وبعد ذلك فقد بان لنا ضعف وإسقاط تلك الدعوى، وتأكد لنا بما لا يدع مجالًا للريبة أن التصديق بخروج المهدي واجب على كل مسلم.

ثامنًا. لا يوجد شيء من أحاديث المهدي لكعب الأحبار، ورواية وهب بن منبه فيه صحيحة، وهو ثقة:

لقد زعم القوم أيضًا أن الأحاديث التي جاءت في المهدي كلها من وضع كعب الأحبار ووهب بن منبه، ولكن الحقيقة غير ذلك، فكل الآثار والأحاديث الواردة في باب المهدي ليست فيها رواية واحدة لكعب الأحبار، ولا رويت عن طريقه، وأما الآثار التي رويت عنه، فلم تصح أسانيدها إليه.

لكن توجد رواية واحدة فقط رُويت من طريق وهب بن منبه[2]، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم المهدي: تعالَ صل بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أمير بعض، تكرمة الله لهذه الأمة"[3].

ووهب بن منبه وإن كان من علماء التوراة والكتب السابقة، لكنه ثقة في روايته، ولم يتهم فيها، وقد وثَّقه العجلي، والنسائي، وأبو زرعة، وابن حبان، ولم يرد تضعيفه إلا من "الفَلاس" وحده، ولم يذكر سببًا، فهو جرح غير مفسر، والجرح غير المفسر لا يقبل بمقابل توثيق جمهور الأئمة؛ ولذلك لم يلتفت العلماء إلى قوله، فقال ابن حجر عنه: "ثقة"[4]، وقال الذهبي: "كان ثقة صادقًا كثير النقل من كتب الإسرائيليات"[5]، فلا شك أنه حجة في روايته وأخباره، أما إذا نقل عن الإسرائيليات فحكمه كحكم غيره.

وهذه الرواية هي الرواية الوحيدة التي رواها وهب بن منبه عن المهدي المنتظر، وهي - كما أثبتنا - صحيحة، وأن وهب بن منبه ثقة صادق فيما يرويه، فكيف يسوغ هؤلاء رد الأحاديث العديدة التي جاءت في شأن المهدي بحجة أنها رويت من طريق وهب بن منبه، وهو لم يرو إلا حديثًا واحدًا منها، وهي صحيحة بإجماع علماء الحديث؟!

وما ذكرناه يكفي دليلًا على إبطال القول بأن أحاديث المهدي من وضع كعب الأحبار ووهب بن منبه، وبذلك تسقط الدعوى.

الخلاصة:

- لقد أجمع العلماء على تواتر أحاديث المهدي تواترًا معنويًّا؛ بما لا يدع مجالًا للتشكيك في صحتها، منهم: الإمام الشوكاني، والفقيه ابن حجر المكي، والإمام البيهقي، وغيرهم كثير، كما خرجها كثير من الأئمة الثقات في كتبهم بأسانيد قوية، أمثال: الإمام أبي

---

١. المهدي، محمد إسماعيل المقدم، مرجع سابق، ص١٦٩، ١٧٠ بتصرف.

٢. المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة، عبد العظيم البستوي، مرجع سابق، ص٣٧٩، ٣٨٠.

٣. صحيح: أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده، كما ذكر ابن القيم في المنار المنيف في الصحيح والضعيف، ص١٤٧، رقم (٣٣٨). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٢٣٦).

٤. تقريب التهذيب، ابن حجر، مرجع سابق، ص١٠٤٥.

٥. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الذهبي، مرجع سابق، (٤/ ٣٥٢).

داود، وأحمد، والترمذي، وغيرهم كثير، وهذه الأحاديث مروية عن جمع غفير من الصحابة الكرام.

- عدم إشارة القرآن الكريم إلى المهدي ليس دليلًا على إنكار الأحاديث التي صحت عن النبي ﷺ بشأنه؛ فالسنة حجة بنفسها، وقد دل القرآن على ذلك في غير آية، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧)، بالإضافة إلى أن المفسرين قالوا بوجود إشارات إلى المهدي في القرآن الكريم.

- عدم ذكر الشيخين - البخاري ومسلم - لأحاديث المهدي في صحيحيهما لا يقوم دليلًا على إنكار الأحاديث التي جاءت بشأنه؛ فإن الشيخين لم يستوعبا كل الصحيح في صحيحيهما بشهادتهما (أي: البخاري ومسلم) فضلًا عن إشارة جمهور علماء الحديث إلى ذلك، على أن جمعًا من هؤلاء العلماء قد صرح بأن في الصحيحين أحاديث تتعلق بالمهدي، وإن لم تكن صريحة في ذكره.

- إن حديث "لا مهدي إلا عيسى" حديث ضعيف، تفرد بروايته ابن ماجه دون سائر أصحاب الكتب الستة، وقد ضعفه كثير من علماء الحديث منهم البيهقي، والحاكم، والألباني، ومع فرض صحته - وهذا لم يصح - فإنه لا تعارض بينه وبين أحاديث المهدي؛ إذ المعنى يكون: لا مهدي كاملًا معصومًا إلا عيسى، وعلى هذا تجتمع الأحاديث ويرتفع التناقض.

- ليست أحاديث المهدي كلها من وضع الشيعة، فشتان بين مهديهم المزعوم، وبين المهدي المنتظر لدى أهل السنة والجماعة الذي صح لديهم عن النبي ﷺ؛ فأحاديث الشيعة تنتهي إلى أئمتهم المعصومين أواخر القرن الثالث الهجري، أما أحاديث أهل السنة فتنتهي إلى رسول الله ﷺ؛ فعقيدة أهل السنة في المهدي في وادٍ، وعقيدة الشيعة في مهديهم في وادٍ آخر.

- ليس في فكرة المهدي ما يخالف العقل السليم، بل على العكس تمامًا؛ فما نرى مخالفة للعقل في أنه سيملك آخر الزمان خليفة عادل ينشر الأرض عدلًا وخيرًا، بعد أن مُلِئَت ظلمًا وشرًّا، يفتح الله عليه من الخيرات والبركات الكثير، فيعم الخير والنماء سائر الأمة الإسلامية، بل نحن في حاجة ماسة إلى هذا الحاكم العادل؛ أما تلك الخرافات التي ألصقها الجهلاء بالمهدي؛ فالمهدي بريء منها.

- إن الفتن والقلاقل والحروب التي حدثت من جراء أدعياء المهدية لا تبيح لنا إنكار فكرة المهدية على إطلاقها، فالفتن التي نتجت من ادعاء النبوة، لا تحملنا على إنكار النبوة - معاذ الله.

- كل الأحاديث والآثار التي وردت بشأن المهدي ليست فيها رواية واحدة لكعب الأحبار، ولا رويت عن طريقه، وأما الآثار التي رُويت عنه فلم يصح إسنادها إليه، وقد وردت رواية واحدة عن طريق وهب بن منبه، وهو ثقة، وثَّقه علماء ثقات، ولم يتهم في روايته، فهل نترك كل هذه الروايات الصحيحة بسبب رواية واحدة عن وهب بن منبه، وهي صحيحة أيضًا باتفاق العلماء؟!

الشبهة الرابعة والعشرون

إنكار أحاديث نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المغرضين في صحة أحاديث نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان، ويرون أنها لا تتعدى أن تكون خرافة دسها اليهود والنصارى في الدين الإسلامي.

مستدلين على ذلك بأنها أخبار آحاد تفيد الظن ولا تفيد اليقين، ولا يعتمد في العقائد على الظن، بالإضافة إلى أن القرآن ليست فيه إشارة إلى نزول المسيح عليه السلام كما قالت الأحاديث، بل إن هذه الأحاديث تتناقض مع قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (آل عمران: ٥٥)، وقوله تعالى حاكيًا عن عيسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (المائدة: ١١٧)، وقوله تعالى:﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الأنبياء). ويتساءلون كيف ينزل عيسى عليه السلام بعد النبي ﷺ والله تعالى يقول: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (الأحزاب: ٤٠)، وقد جاء في الحديث الصحيح: "لا نبي بعدي"؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد تعددت آيات القرآن الكريم التي تثبت نزول عيسى ابن مريم عليه السلام آخر الزمان، وأن الله رفعه إليه حيًّا، وأما الأحاديث التي جاءت بذلك فهي صحيحة متواترة، قال بتواترها أعلام الحديث؛ كابن كثير، والمباركفوري، والشوكاني، والغماري، والكشميري، وأحمد شاكر، والألباني، وقد جاوزت الأحاديث في ذلك سبعين حديثًا، فوجب تصديقها.

٢) لا تعارض مطلقًا بين قول الله تعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ وبين القول بنزول عيسى عليه السلام؛ لأن المعنى: إن رافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾؛ أي: لـمَّا رفعتني إلى السماء، وأما قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾؛ أي: قضى الله تعالى أن لا يُخلد في الدنيا بشر، وعيسى عليه السلام مهما طال عمره فسوف يموت.

٣) لا تعارض ألبتة بين أحاديث نزول عيسى عليه السلام وكون النبي ﷺ خاتم النبيين؛ فقد دلَّت هذه الأحاديث صراحة على نزوله حَكَـمًا مُقْسِطًا يحكم بشريعة الإسلام، وليس نبيًّا.

التفصيل:

أولا. الأحاديث الواردة في نزول عيسى عليه السلام متواترة، وقد أشار القرآن إلى نزوله في أكثر من موضع:

لقد جاء في نزول عيسى عليه السلام أكثر من خمسين حديثًا مرفوعًا، أكثرها من الصحاح. منها ما ورد في الصحيحين باتفاق، ومنها ما ورد في صحيح البخاري، ومنها ما ورد في صحيح مسلم، ومنها ما أخرجه أصحاب السنن والمسانيد والمعاجم وغيرها.

فمن الأحاديث التي أخرجها الشيخان في صحيحيهما: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن

(*) ضلالات منكري السنة، د. طه حبيشي، مرجع سابق. الإسلام وصياح الديك، جواد عفانة، مرجع سابق.

مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد"[١].

قال النووي في شرحه: قوله ﷺ: "فيكم" أي: في هذه الأمة، وإن كان خطابًا لبعضها ممن لا يدرك نزوله، وقوله ﷺ: "حَكَمًا" أي: ينزل حاكمًا بهذه الشريعة، لا ينزل نبيًّا برسالةٍ مستقلة وشريعة ناسخة، بل هو حاكم من حكام هذه الأمة.

وأما قوله ﷺ: "ويضع الجزية" فالصواب في معناه أنه لا يقبلها، ولا يقبل من الكفار إلا الإسلام، ومن بذل منهم الجزية لم يُكف عنه بها، بل لا يقبل إلا الإسلام أو القتل... وعلى هذا قد يقال: هذا خلاف حكم الشرع اليوم، فإن الكتابي، إذا بذل الجزية وجب قبولها، ولم يجز قتله ولا إكراهه على الإسلام. وجوابه: أن هذا الحكم ليس بمستمرٍّ إلى يوم القيامة، بل هو مقيد بما قبل عيسى عليه السلام وقد أخبرنا النبي ﷺ في هذه الأحاديث الصحيحة بنسخه، وليس عليه السلام هو الناسخ، بل نبينا ﷺ هو المبيِّن للنسخ، فإن عيسى يحكم بشرعنا. فدلَّ على أن الامتناع من قبول الجزية في ذلك الوقت هو شرع نبينا محمد ﷺ"[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم"[٣].

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: البيوع، باب: قتل الخنزير، (٤/ ٤٨٣)، رقم (٢٢٢٢). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم حكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ، (٢/ ٥٧٩)، رقم (٣٨٢).

٢. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٢/ ٥٨١).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأنبياء، باب: نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام، (٦/ ٥٦٦)، رقم (٣٤٤٩).

وروى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم: تعال صل لنا. فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أُمَراءُ تَكْرِمَةَ الله هذه الأمة"[٤].

وأخرج مسلم أيضًا في حديث طويل في الفتن عن عبد الله بن عُمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: "أَراني ليلة عند الكعبة، فرأيت رجلًا آدم كأحسن ما أنت راءٍ من أُدْم الرجال، له لِمَّةٌ[٥] كأحسن ما أنت راء من اللِّمَم. قد رَجَّلَهَا[٦] فهي تَقْطُرُ ماء، متكئًا على رَجُلَين - أو على عواتق رَجُلين - يطوف بالبيت، فسألت مَنْ هذا؟ فقيل: هذا المسيح ابن مريم..."[٧] الحديث.

وليس هذا فحسب، بل لقد حدد النبي ﷺ في أحاديثه المكان الذي سينزل فيه عيسى عليه السلام ويقتل الدجال.

من ذلك ما رواه النَّوَّاس بن سمعان أن النبي ﷺ ذكر الدجال فقال: "إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم... إلى أن قال: ثم ينزل عيسى ابن مريم عند

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ،(٢/ ٥٨٠)، رقم (٣٨٨).

٥. اللِّمَّة: الشعر المتدلي الذي جاوز شحمة الأذنين.

٦. رجَّلها: سرحها بمشط مع ماء أو غيره.

٧. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾، (٦/ ٥٥٠)، رقم (٣٤٣٩، ٣٤٤٠). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، (٢/ ٦٢٤)، رقم (٤١٨).

المنارة البيضاء شرقي دمشق، فيدركه عند باب لُدٍّ فيقتله"[1].

هذه بعض الأحاديث الصحيحة في نزول سيدنا عيسى عليه السلام آخر الزمان، وهناك غيرها العديد من الأحاديث الصحيحة أيضًا.

يقول الإمام الشوكاني رحمه الله: وقد ورد في نزول عيسى عليه السلام من الأحاديث تسعة وعشرون حديثًا، ثم سردها، وقال بعد ذلك: وجميع ما سقناه بالغ حد المتواتر كما لا يخفى على من له فضل اطلاع[2].

"قال القاضي رحمه الله: نزول عيسى عليه السلام وقتله الدَّجال حق وصحيح عند أهل السنة؛ للأحاديث الصحيحة في ذلك، وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطله، فوجب إثباته"[3].

وقال شمس الحق العظيم آبادي: "تواترت الأخبار عن النبي ﷺ في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء بجسده العنصري إلى الأرض عند قرب الساعة، وهذا هو مذهب أهل السنة"[4].

وذكر ابن حجر أن أبا الحسن الخسعي قال: "تواترت الأخبار بأن المهدي من هذه الأمة وأن عيسى يصلي خلفه"[5].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله معلقًا على أحاديث نزول عيسى عليه السلام: "فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة وابن مسعود، وعثمان بن أبي العاص، وأبي أمامة، والنوَّاس بن سمعان، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومجمع بن حارثة، وأبي شريحة، وحذيفة بن أسيد رضي الله عنه، وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه، من أنه بالشام، بل بدمشق عند المنارة الشرقية، وأن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح"[6]

وقال الغماري: "وقد ثبت القول بنزول عيسى عليه السلام عن غير واحد من الصحابة والتابعين وأتباعهم، والأئمة والعلماء من سائر المذاهب على مرِّ الزمان إلى وقتنا هذا، وقد تواتر هذا تواترًا لا شك فيه بحيث لا يصح أن ينكره إلا الجهلة الأغبياء؛ كالقاديانية ومن نحا نحوهم؛ لأنه نقل بطريق جمع عن جمع حتى استقر في كتب السنة التي وصلت إلينا تواترًا بتلقي جيل عن جيل".

وممن جمع الأحاديث في نزول عيسى عليه السلام الشيخ محمد أنور شاه الكشميري في كتابه "التصريح بما تواتر في نزول المسيح " فذكر أكثر من سبعين حديثًا[7].

وقال الشيخ أحمد شاكر: "نزول عيسى عليه السلام في آخر

---

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: الملاحم، باب: خروج الدجال، (١١/ ٢٩٩)، رقم (٤٣١١). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٤٣٢١).

٢. عون المعبود شرح سنن أبي داود، شمس الحق العظيم آبادي، مرجع سابق، (١١/ ٣٠٨) بتصرف.

٣. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٤٠٤٧، ٤٠٤٨).

٤. عون المعبود شرح سنن أبي داود، شمس الحق العظيم آبادي، مرجع سابق، (١١/ ٣٠٧).

٥. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٦/ ٥٦٩).

٦. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، (١/ ٥٨٢، ٥٨٣).

٧. عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى عليه السلام، الغماري، ص١٢، نقلًا عن: أشراط الساعة، عبد الله بن سليمان العقيلي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة، السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ، ص١٥٩

الزمان مما لم يختلف فيه المسلمون؛ لورود الأخبار المتواترة الصحاح عن النبي ﷺ بذلك... وهذا معلوم من الدين بالضرورة لا يؤمن من أنكره"[١].

وقال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: اعلم أن أحاديث الدجال، ونزول عيسى عليه السلام متواترة، يجب الإيمان بها، ولا تغتر بمن يدعي فيها أنها أحاديث آحاد فإنهم جهال بهذا العلم، وليس فيهم من تتبع طرقها، ولو فعل لوجدها متواترة، كما شهد بذلك أئمة هذا العلم؛ كالحافظ ابن حجر وغيره، ومن المؤسف حقًّا أن يتجرأ البعض على الكلام فيما ليس من اختصاصهم لا سيما والأمر دين وعقيدة[٢].

فدل ذلك على أن الأحاديث التي أخبرت بنزول عيسى عليه السلام آخر الزمان أحاديث متواترة وليست آحاد ـ مع العلم أن أحاديث الآحاد إن صحت وجب تصديقها؛ لذلك فهي تفيد اليقين لا الظن، وبهذا فلا حجة لهم في ردها؛ إذ لا يخفى على كل منصف أن نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض حَكَمًا مقسطًا بذاته الشريفة ثابت بالأحاديث الصحيحة.

هذا عن نزول عيسى ابن مريم آخر الزمان في الأحاديث، أما الزعم أن القرآن لم يذكر هذا الأمر فهو زعم باطل، فقد دلت الآيات القرآنية دلالة صريحة على نزول عيسى عليه السلام، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ (النساء).

وقد نقل ابن كثير عن الطبري ترجيحه لأولى الأقوال في تفسير هذه الآية: "وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلَّا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام ثم علَّق ابن كثير قائلًا: ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادَّعته اليهود من قتل عيسى وصلبه"[٣].

والآية بذلك صريحة في أن عيسى عليه السلام حيٌّ وقت نزول آية النساء هذه، فهل يُعقل أن يموت بعدها، ولم يتحقق ما أخبرت به الآية بعد؟!

وقول الله عز وجل عن عيسى عليه السلام: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (آل عمران).

قال الإمام الطبري: "قد كلَّمَهم عيسى في المهد، وسيكلمهم إذا قتل الدجال، وهو يومئذ كهلٌ"[٤].

"وقال أبو العباس: كلمهم في المهد حين برَّأ أمه فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ (مريم: ٣)، وأما كلامه وهو كهل فإذا أنزله الله تعالى من السماء، أنزله على صورة ابن ثلاث وثلاثين سنة وهو الكهل، فيقول لهم: "إني عبد الله "كما قال في المهد، فهاتان آيتان وحجتان"[٥].

وقال تعالى بعد ذكره عيسى عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ (الزخرف).

ذكر ابن كثير في تفسيره: أن المراد بذلك نزول

---

١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، مرجع سابق، هامش (٦/ ٤٦٠).

٢. انظر: تمام المنة في التعليق على فقه السنة، محمد ناصر الدين الألباني، دار الراية، الرياض، ط٣، ١٤٠٩هـ، ص٧٩.

٣. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، (١/ ٥٧٧).

٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، مرجع سابق، (٦/ ٤٢٠).

٥. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق،(٤/ ٩٠).

عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة.

ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: "وإنه لعَلَم للساعة" بفتح العين واللام؛ أي: أمارة ودليل على وقوع الساعة.

قال مجاهد: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ (الزخرف: ٦١) أي: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة.

وهكذا روي عن أبي هريرة، وابن عباس، وأبي العالية، وأبي مالك وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك وغيرهم"[1].

"فهذه الآيات الكريمة والنصوص الصحيحة الثابتة المتواترة عن رسول الله ﷺ تدل دلالة قاطعة على نزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء إلى الأرض عند قرب الساعة، ولا ينكر نزوله إلا ضال مضل، معاند للشرع، مخالف لكتاب الله وسنة رسوله، واتفاق أهل السنة"[2]®.

ثانيًا. لا تعارض بين نصوص القرآن والقول بنزول عيسى ابن مريم عليه السلام:

الذي عليه جُلُّ المحققين من أهل التفسير أن المسيح عيسى عليه السلام لم يمت، بل رفعه الله إليه حيًّا، وهذا لا يعارض قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾.

قال القرطبي في تفسيرها: "والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاةٍ ولا نوم، كما قال الحسن وابن زيد، وهو اختيار الطبري، وهو الصحيح عن ابن عباس، وقاله الضحاك"[3].

ونقل القرطبي أيضًا عن جماعةٍ من أهل المعاني - منهم الضحاك والفراء - أن القول في الآية "على التقديم والتأخير؛ لأن الواو لا توجب الرتبة (أي: الترتيب) والمعنى: إني رافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء؛ كقوله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ (طه)، والتقدير: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مُسمًّى لكان لزامًا[4].

وقال صالح بن فوزان: فهذا دليل على أنه لم يعن بذلك الموت.

إذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين، فإن الله يقبض أرواحهم، ويُعْرَجُ بها إلى السماء، فعلم أن ليس في ذلك خاصية، وكذلك قوله: ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (آل عمران: ٥٥)، ولو كان قد فارقت روحه جسده؛ لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء أو غيره من الأنبياء. وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ (النساء).

---

١. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، (٤/ ١٣٢).

٢. عون المعبود شرح سنن أبي داود، شمس الحق العظيم آبادي، مرجع سابق، (١١/ ٣١٢).

® في **"صحة أحاديث الدجال ونزول عيسى"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء الرابع (عدالة الصحابة). وفي **"حديث لا مهدي إلا عيسى إن صح لا يعارض وجود المهدي"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثالثة والعشرين، من هذا الجزء.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (٤/ ١٠٠).

٤. المرجع السابق، (٤/ ٩٩) بتصرف.

فقوله هنا: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ يبين أنه رفع ببدنه وروحه، كما ثبت في الصحيح أنه ينزل ببدنه وروحه؛ إذ لو أُريد موته لقال: وما قتلوه وما صلبوه بل مات.

ولذا قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ (آل عمران: ٥٥)؛ أي: قابضك، أي: قابض روحك وبدنك، يقال: توفيت الحساب واستوفيته، ولفظ التوفي لا يقتضي توفي الروح دون البدن ولا توفيهما جميعًا إلا بقرينة منفصلة[١].

وقد يُراد به توفي النوم، كقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ (الزمر)، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ (الأنعام: ٦٠)[٢].

وعلى أي حالٍ، فإن الترجيح في الآية لغير توفي الموت، وهو ما عليه جماهير المفسرين.

ومن ثم، فإن قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ (المائدة: ١١٧)، ليس المراد منه توفي الموت، وإنما المراد: فلما رفعتني إلى السماء حيًّا[٣]، "وهذا قول جمهور العلماء"[٤].

١. إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، د. صالح الفوزان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص١١.

٢. انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، (١/ ٣٦٦).

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (٦/ ٣٧٦، ٣٧٧) بتصرف.

٤. التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، مطبعة السعادة، القاهرة، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، (٤/ ٤٥٩).

قال الحسن: الوفاة في كتاب الله ﷻ على ثلاثة أوجه: وفاة الموت، وذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ (الزمر: ٤٢)؛ يعني وقت انقضاء أجلها، ووفاة النوم؛ قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ (الأنعام: ٦٠)؛ يعني الذي ينيمكم. ووفاة الرفع، قال الله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ (آل عمران: ٥٥)"[٥].

وأمَّا الآية الثالثة التي استُدِل بها على نفي أحاديث نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان لزعمهم أنها تدل على موته، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾ (الأنبياء)، فإنها لا تدل على موت عيسى عليه السلام، أو أنه لا ينزل آخر الزمان؛ إذ المراد منها: "أن الكفار كانوا يقدرون أن النبي ﷺ سيموت فيشمتون به في قولهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ۝٣٠﴾ (الطور)، فنفى الله عنه الشماتة بهذه الآية، ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾ أي: قضى الله تعالى أن لا يُخلد في الدنيا بشرٌ، لا أنت ولا هم"[٦].

وعلي ذلك، فلو كانت هذه الآية تدل على موت عيسى عليه السلام، لكانت الآيتان السابقتان أولى بهذا، فهما قد صرحا بلفظ التوفي لكن على التأويل، فلما أُمتنِع هذا دلَّ دلالةً واضحةً على أن هذه الآية لا تدل بحالٍ على موت عيسى عليه السلام قبل نزوله آخر الزمان، فضلًا عن أن الخطاب فيها عامٌّ.

٥. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (٦/ ٣٧٧).

٦. تفسير اللباب، ابن عادل، (١١/ ٢٩٠). وانظر: معالم التنزيل، البغوي، مرجع سابق، (٥/ ٣١٨).

ومن ثم، فالقول بأن أحاديث نزول عيسى عليه السلام تعارض القرآن هو قول باطل يخالف القرآن الكريم الذي أشار في العديد من آياته إلى نزول عيسى عليه السلام كما بيّنا سابقًا.

ثالثًا. لا تعارض بين أحاديث نزول عيسى عليه السلام وكون محمدٍ خاتم النبيين، ولا نبي بعده:

لا تعارض بين الأحاديث التي قالت بنزول عيسى ابن مريم آخر الزمان وبين الآيات والأحاديث التي أكدت أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، وأنه لا نبي بعده أبدًا؛ إذ إن عيسى عليه السلام سوف ينزل حكمًا عدلًا، يحكم بشريعة الإسلام، وليس نبيًّا مرسلًا، بل ويصلي خلف إمامٍ من أمة محمد ﷺ وهو المهدي المنتظر.

وقد ردَّ القاضي عياض على من أنكر أحاديث نزول عيسى عليه السلام من المعتزلة والجهمية ومَنْ وافقهم - لزعمهم أنها تعارض قوله تعالى: ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (الأحزاب:٤٠)، وقوله ﷺ: "لا نبي بعدي"[1]، فقال: هذا استدلال فاسد؛ لأنه ليس المراد بنزول عيسى عليه السلام أنه ينزل نبيًّا بشرع ينسخ شرعنا، ولا في هذه الأحاديث ولا في غيرها شيء من هذا، بل صحت الأحاديث أنه ينزل حَكَمًا مقسطًا يحكم بشرعنا، ويُحيي من أمور شرعنا ما هجره الناس[2].

قال الحافظ ابن حجر: قال ابن الجوزي: لو تقدم عيسى إمامًا لوقع في النفس إشكالٌ، ولقيل: أتراه تقدم نائبًا أو مبتدئًا شرعًا، فصلى مأمومًا لئلا يتدنس بغبار الشبهة في قوله ﷺ: "لا نبي بعدي"[3].

وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أنه سوف ينزل حَكَمًا مقسطًا، يصلي خلف إمام من هذه الأمة - وهو المهدي المنتظر - تكرمة لها، فقد رُوي عن جابر بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم: تعال صَلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة"[4].

ففي هذا الحديث دلالة صريحة على أنه سوف ينزل حكمًا لا نبيًّا، وبذلك فإن نزوله لا يتعارض مع الآيات والأحاديث التي أكدت أنه لا نبي بعد محمد ﷺ، وأنه خاتم النبيين والمرسلين، وعليه فقد انعقد الإجماع على نزول عيسى عليه السلام.

"قال السفاريني في شرح عقيدته: نزول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة، وإنما أنكر ذلك الفلاسفة والملاحدة ومن لا يُعتد بخلافه، وقد انعقد الإجماع على أنه ينزل ويحكم بهذه الشريعة المحمدية"[5].

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأنبياء، باب: ما ذُكر عن بني إسرائيل، (٦/ ٥٧١)، رقم (٣٤٥٥). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، (٧/ ٢٩٠٦)، رقم (٤٦٩١).

٢. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٤٠٤٨) بتصرف.

٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٦/ ٥٧٠) بتصرف.

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ، (٢/ ٥٨٠)، رقم (٣٨٨).

٥. إقامة البرهان في الرد على من أنكر خروج المهدي والدجال، حمود بن عبد الله التويجري، ص١٣.

فهل بعد هذا البيان الشافي الكافي يحق لمدعٍ أن يردَّ أحاديث نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان، والتي ثبت تواترها، أو أن يزعم تعارضها مع الآية الكريمة: "وخاتم النبين"، وحديث: "لا نبي بعدي"؟!

الخلاصة:

- أجمع علماء الأمة على تواتر الأحاديث الواردة في نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان، فقد جاء في نزوله أكثر من سبعين حديثًا، أكثرها من الصحاح، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال، حتى لا يقبله أحد".
- لقد أشار القرآن الكريم في العديد من آياته إلى نزول عيسى عليه السلام، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) ﴾ (الزخرف)، قال جمهور المفسرين: المراد بذلك نزول سيدنا عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: "وإنه لعَلَم للسَّاعة" - بفتح العين واللام - أي: أمارة ودليل على قرب السَّاعة.

ومن الآيات التي نصت على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) ﴾ (النساء)؛ أي لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام، وأيضًا قوله تعالى: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٤٦) ﴾ (آل عمران)؛ أي: قد كلمهم عيسى في المهد، وسيكلمهم إذا قتل الدجال وهو يومئذ كهل.

- لا تعارض بين أحاديث نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان والقرآن الكريم، ففي قوله تعالى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ (آل عمران:٥٥)، قد ذكر جمهور المفسرين أن المراد بالتوفي - هنا - ليس الموت، وإنما هو رفع عيسى عليه السلام حيًّا إلى السماء، وقال البعض: المراد بالتوفي: النوم، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ (الأنعام:٦٠)، وقال بعضهم: الآية على التقديم والتأخير، والمعنى إني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء؛ لأن لا تُوجب الرتبة. وأمَّا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (المائدة: ١١٧)، فإن المراد: فلمَّا رفعتني إلى السَّماء حيًّا، وهو قول الجمهور.
- أمَّا قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ (٣٤) ﴾ (الأنبياء) فإنه لا يدل من قريبٍ أو بعيدٍ على نفي أحاديث نزول عيسى عليه السلام، فضلًا عن أن الخطاب في الآية عامٌّ.

الشبهة الخامسة والعشرون

دعوى تعارض الأحاديث في شأن الفئة التي تقوم عليها الساعة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن هناك تعارضًا بين الأحاديث الدالة على بقاء مَنْ يقوم بالحق إلى قيام

(*) أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، د. سليمان الدبيخي، مرجع سابق.

الساعة، وبين الأحاديث التي تدل على أنه لا يبقى عند قيام الساعة أحد من المؤمنين فضلًا عن القائمين بالحق، مستدلين على ذلك بما جاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة". وقوله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله". وقوله ﷺ: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق". ويتساءلون: كيف نصدق هذه الأحاديث وهي متعارضة متناقضة؟! هادفين من وراء ذلك إلى تشكيك المسلمين في هذه الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن الأحاديث الواردة بشأن الفئة التي تقوم عليها الساعة صحيحة في أعلى درجات الصحة، فقد رواها الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما وغيرهما من رواة السنن، ولها شواهد عديدة تؤيدها.

٢) إن الطائفة التي لا تزال على الحق ظاهرة تستمر كذلك إلى حين قرب قيام الساعة، ثم يرسل الله تعالى ريحًا باردة طيبة لا تدع مؤمنًا إلا قبضته، حتى إذا خلت الأرض من الأخيار، ولم يبق إلا الأشرار قامت عليهم الساعة؛ وعلى هذا فلا تعارض بين الأحاديث في هذا الشأن.

التفصيل:

أولا. الأحاديث الواردة في شأن الفئة التي تقوم عليها الساعة في أعلى درجات الصحة:

إن الأحاديث الواردة في شأن الفئة التي تقوم عليها الساعة أحاديث صحيحة في أعلى درجات الصحة؛ حيث رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما، كما جاءت بطرق وروايات صحيحة في كثير من كتب السنن. فمن هذه الأحاديث ما رواه البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة ﷺ أنه ﷺ قال: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون"[1].

وما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة"[2].

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "لن يبرح هذا الدين قائمًا، يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة"[3].

كما أن لهذه الأحاديث شواهد في مصادر السنة الأخرى، منها: ما رواه الإمام ابن ماجه في سننه عن معاوية بن قرة، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: "لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة"[4].

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق"، (١٣/ ٣٠٦)، رقم (٧٣١١). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق"، (٧/ ٢٩٩١)، رقم (٤٨٦٨).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق"، (٧/ ٢٩٩٢)، رقم (٤٨٧١).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: قول النبي ﷺ "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق"، (٧/ ٢٩٩٢)، رقم (٤٨٧٠).

٤. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب: اتباع سنة رسول الله ﷺ، (١/ ٥)، رقم (٦). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٦).

وعن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة"[1].

وهذه الأحاديث تبين لنا وجود طائفة من الأخيار الصالحين يتتابعون في عصور هذه الأمة إلى قبيل قيام الساعة، وهذا أمر واقع صحيح، ومنصوص عليه، ولا شك في ثبوته، كما تؤكد هذه الأحاديث أيضًا أن هذه الطائفة موجودة على مر العصور والأيام، ولم ينقطع وجودها في أي عصر من العصور، فوجه الأرض لا يخلو من الصالحين الثابتين على أوامر الله ﷻ، المتباعدين عن نواهيه، الحافظين لأمور الشريعة، يستوي عندهم معاونة الناس، ومخالفتهم إياهم، فهم ظاهرون إلى قرب يوم القيامة.

وقد أُختُلِف في هذه الطائفة؛ فقيل: هم أهل العلم بالآثار، وقال الإمام أحمد: "إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري مَنْ هم"[2]؟!

"قال القاضي عياض: إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث"[3].

وقال الإمام النووي: "ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونوا متفرقين في أقطار الأرض.

وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة؛ فإن هذا الوصف ما زال - بحمد الله تعالى - من زمن النبي ﷺ إلى الآن، ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور في الحديث"[4].

قال القاضي عياض: "لا تزال هذه الطائفة على الصفة التي وصفها النبي ﷺ بها إلى أن يقبضهم الله فيمن يقبض من المؤمنين قرب الساعة؛ وإذ أظهرت أشراطها فقد حان يومها وقرب وقتها"[5].

أما الأحاديث الواردة في قيام الساعة على شرار الخلق، فهي أيضًا أحاديث صحيحة ثابتة عن النبي ﷺ، فمنها ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله"[6].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس"[7].

ونستنتج من هذا كله أن الأحاديث التي دلت على وجود طائفة قائمة على الحق حتى قيام الساعة، والأحاديث التي دلت على أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، وأنها لا تقوم حتى لا يقال في الأرض: الله الله - أحاديث صحيحة في أعلى درجات الصحة، ولا مطعن في ثبوتها عن النبي ﷺ.

---

١. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب: الفتن والملاحم، رقم (٨٣٨٩). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٥٦).

٢. شرف أصحاب الحديث، الخطيب البغدادي، تحقيق: عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٦١.

٣. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٧/ ٢٩٩٣).

٤. المرجع السابق، (٧/ ٢٩٩٣).

٥. إكمال المُعْلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، مرجع سابق، (١/ ٤٥٩).

٦. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: ذهاب الإيمان آخر الزمان، (٢/ ٥٦٧)، رقم (٣٦٨).

٧. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (٩/ ٤٠٥٤)، رقم (٧٢٦٨).

ثانيًا. لا تعارض بين أحاديث صفة الفئة التي تقوم عليها الساعة:

الجمع هو إحدى طرق إزالة التعارض بين الأحاديث التي ظاهرها التعارض؛ لأن الجمع بين الدليلين أولى من إهمال أحدهما - كما يقول الأصوليون - وقد جمع أهل العلم بين أحاديث الفئة التي تقوم عليها الساعة، وبيَّنوا أنه ليس ثمة تعارض بين هذه الأحاديث، ولكنهم اختلفوا في تأويلها على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن الساعة كما تقوم على الأشرار فهي أيضًا تقوم على الأخيار، والتنصيص على الأشرار في قوله ﷺ: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس"، وقول النبي ﷺ: "إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء"[1]؛ لأن الساعة تقوم في الأكثر والأغلب على شرار الناس، وإلى هذا ذهب ابن بطال فقال: "وقوله ﷺ: "إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء" فإنه وإن كان لفظه العموم فالمراد به الخصوص، ومعناه أن الساعة تقوم في الأكثر والأغلب على شرار الناس؛ بدليل قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة حتى يأتي أمر الله"[2].

فدل هذا الخبر على أن الساعة تقوم أيضًا على قوم فضلاء، وأنهم في صبرهم على دينهم كالقابض على الجمر"[3].

القول الثاني: أن هذه الأحاديث خرجت مخرج العموم، والمراد بها الخصوص، وذلك أن شرار الناس الذين تقوم عليهم الساعة يكونون في موضع، والطائفة التي تقاتل على الحق لا يضرهم من خالفهم يكونون في موضع آخر، فتنزل هذه الأحاديث على أنها في موضع دون موضع، وإلى هذا القول ذهب أبو جعفر الطبري، فقال: "ولا معارضة بينهما بحمد الله، بل يحقق بعضها بعضًا، وذلك أن هذه الأحاديث خرج لفظها على العموم، والمراد منها الخصوص، ومعناه لا تقوم الساعة على أحدٍ يُوحِّد الله إلا بموضع كذا، فإن به طائفة على الحق، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس بموضع كذا"[4].

القول الثالث: أن الطائفة المذكورة في قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين" تستمر على هذه الصفة إلى قبيل قيام الساعة، ثم يبعث الله ﷻ ريحًا طيبة لا تدع مؤمنًا إلا قبضته حتى لا يبقى على وجه الأرض إلا شرار الناس، فتقوم القيامة عليهم؛ قال الإمام النووي بعد ذكره لحديث: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس"، وقوله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله"، وقوله ﷺ: "لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله"[5]: "وهذه كلها وما في معناها على ظاهرها، وأما الحديث الآخر "لا تزال طائفة من أمتي

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الفتن، باب: ظهور الفتن، (١٣/ ١٧) معلقًا بصيغة الجزم.

٢. صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: التاريخ، باب: إخباره ﷺ عما يكون في أمته من الفتن والحوادث، رقم (٦٧١٤). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان.

٣. شرح صحيح البخاري، ابن بطال، مرجع سابق، (١٠/ ١٣، ١٤) بتصرف.

٤. المرجع السابق، (١/ ١٥٥).

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: ذهاب الإيمان آخر الزمان، (٢/ ٥٦٧) رقم (٣٦٩).

ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة" فليس مخالفًا لهذه الأحاديث؛ لأن معنى هذا أنهم لا يزالون على الحق حتى تقبضهم هذه الريح اللينة قرب القيامة، وعند تظاهر أشراطها، فأطلق في هذا الحديث بقاءهم إلى قيام الساعة على أشراطها، ودنوها المتناهي في القرب"[1].

وقال الحافظ ابن حجر بعد ذكر حديث: "لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله": "والجمع بينه وبين حديث "لا تزال طائفة" حمل الغاية في حديث "لا تزال طائفة" على وقت هبوب الريح الطيبة التي تقبض روح كل مؤمن ومسلم فلا يبقى إلا الشرار فتهجم الساعة عليهم بغتة"[2].

وذكر د. سليمان الدبيخي أن هذا القول ذهب إليه القاضي عياض، وأبو عباس القرطبي، وأبو عبد الله القرطبي، والنووي، وابن حجر،والبرزنجي، والسفاريني، وغيرهم[3].

وهذا هو القول الراجح، وهو أيضًا رأي جمهور العلماء، وقد دل على ذلك كثير من الأحاديث منها:

ما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الرحمن بن شماسة قال: "كنت عند مسلمة بن مُخَلَّدٍ وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال عبد الله: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر من أهل الجاهلية، لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم، فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر، فقال مسلمة: يا عقبة اسمع ما يقول عبد الله، فقال عقبة: هو أعلم، وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك، فقال عبد الله: أجل، ثم يبعث الله ريحًا كريح المسك، مَسُّها مَسُّ الحرير، فلا تَتْرُكُ نفسًا في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة"[4].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله بعد سياقه هذه القصة: "هذا أولى ما يُتمسَّك به في الجمع بين الحديثين المذكورين"[5].

وقال البرزنجي: "قول ابن عمرو هذا في مقابلة ما رواه عقبة كالصريح فيما قلناه، والله أعلم"[6].

ومما يؤيد ذلك ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا يذهب الليل والنهار حتى تُعْبَدَ اللَّات والعُزَّى، فقلت: يا رسول الله، إنْ كنت لأظن حين أنزل الله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (التوبة) أن ذلك تامًّا، قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحًا طيبة فَتَوَفَّى كل من في قلبه مثقال حَبَّةٍ من خردلٍ من إيمان، فيبقى مَنْ لا خير فيه، فيرجعون إلى دين

١. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٢/ ٥٢٦).

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٣/ ٢٢).

٣. انظر: أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، د. سليمان الدبيخي، مرجع سابق، ص٥٦٥، ٥٦٦.

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم"، (٧/ ٢٩٩٢، ٢٩٩٣)، رقم (٤٨٧٤).

٥. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١٣/ ٣٠٧).

٦. الإشاعة لأشراط الساعة، البرزنجي، تحقيق: موفق فوزي الجبر، دار النمر، دمشق، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص٢٧١.

آبائهم"[1].

وقوله ﷺ كما جاء عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في حديث خروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وفيه: "ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كَبِد جبل لَدَخَلَتْه عليه حتى تَقْبضَه قال: سمعتها من رسول الله ﷺ. قال: فيبقى شرار الناس في خفَّة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ رزقهم، حَسَنٌ عيشهم. ثم ينفخ في الصُّور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتًا[2]، ورفع لِيتًا..." الحديث[3].

وما جاء عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ في حديث طويل جاء فيه: "فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبةً، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة"[4].

وكل هذه الأحاديث تدل بما لا يدع مجالًا للنزاع أو الإشكال على صحة القول الأخير من أن الساعة لا تقوم إلا على الشرار فقط؛ قال الإمام القرطبي: "هذا غاية في البيان في كيفية انقراض هذا الخلق وهذه الأزمان، فلا تقوم الساعة وفي الأرض من يعرف الله، ولا من يقول: "الله الله"[5].

وخلاصة ما سقناه يتبين أنه لا تعارض بين هذه الأحاديث، وأن الطائفة التي تقوم على الحق تظل حتى قبيل قيام الساعة، ثم تأتي ريح طيبة فتأخذ أرواح المؤمنين، ولا تبقي إلا شرار الخلق، وهؤلاء هم الذين تقوم عليهم الساعة.

الخلاصة:

- الأحاديث الواردة في الفئة التي تقوم عليها الساعة صحيحة، بل وفي أعلى درجات الصحة، فقد وردت في الصحيحين وغيرهما من كتب السنن.
- لقد جمع أهل العلم بين هذه الأحاديث بما يزيل الإشكال، وينفي تعارضها، فقالوا: إن المقصود أن الساعة كما تقوم على الأشرار فهي أيضًا تقوم على الأخيار، ولكنها تقوم في الأغلب والأكثر على شرار الناس، ورأى بعض العلماء أن هذه الأحاديث يقصد بها أن شرار الناس الذين تقوم عليهم الساعة يكونون في موضع، وخيارهم في موضع آخر، فخرجت مخرج العموم، وأريد بها الخصوص.
- وذهب أكثر أهل العلم إلى أن المعنى المقصود بالأحاديث التي دلت على وجود طائفة قائمة على الحق ـ أنه لا يزال هناك طائفة من المؤمنين ظاهرين على الحق، وقائمين على أمر الله عز وجل لا يضرهم من خالفهم

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى تَعْبُدَ دوسٌ ذا الخَلَصَةِ، (٩/ ٤٠٠٨)، رقم (٧١٦٦).

٢. اللِّيت: صفحة العنق، وأصغى؛ أي: أمال.

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في خروج الدجال ومكثه في الأرض...، (٩/ ٤٠٤٣)، رقم (٧٢٤٧).

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه، (٩/ ٤٠٣٢، ٤٠٣٣)، رقم (٧٢٣٩).

٥. التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي، مرجع سابق، ص٧٩٨.

إلى قُبيل قيام الساعة، ثم يبعث الله ﷻ ريحًا طيبة لا تذر مؤمنًا أتت عليه إلا قبضت روحه، فلا يبقى على وجه الأرض إلا شرار الناس فقط، فعليهم تقوم الساعة كما دلّت على ذلك أحاديث في صحيح مسلم، وهذا هو القول الراجح.

الشبهة السادسة والعشرون

الطعن في حديث دنوِّ الشمس من الخلق يوم القيامة(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المغرضين في الحديث الذي رواه الإمام مسلم حول دنوِّ الشمس من الخلق يوم القيامة، والذي جاء فيه: حدثني سليم بن عامر، حدثني المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل... قال: فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى حقْويه[1]، ومنهم من يُلجمه العرق إلجامًا، قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه".

زاعمين أن كلا من سنده ومتنه ضعيف، ويستدلون على هذا بأن راوي الحديث (سليم بن عامر) لم يدرك المقداد بن الأسود، فكيف سمع منه؟! كما أن متنه يعارض القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ (إبراهيم: ٤٨)، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ ﴾ (التكوير)، وقوله ﷻ: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ (الزمر: ٦٩).

ويتساءلون: كيف يصرح الحديث بدنوِّ الشمس من الخلق يوم القيامة، مع أن هذه الآيات تثبت عدم وجودها - أصلًا - يوم القيامة؟! رامين من وراء ذلك إلى الطعن في السنة النبوية من خلال التشكيك في ثوابت الدين وزعزعة العقيدة في قلوب المسلمين.

وجها إبطال الشبهة:

١) حديث دنو الشمس من الخلق يوم القيامة حديث صحيح متفق على صحته، وليس هناك انقطاع في سنده عند الإمام مسلم، فقد أثبت علماء الجرح والتعديل إدراك سليم بن عامر للمقداد بن الأسود رضي الله عنه وروايته عنه، فالسند متصل لا انقطاع فيه ولا ضعف.

٢) إن القرآن الكريم لم يُشر من قريبٍ ولا من بعيدٍ إلى عدم وجود الشمس يوم القيامة، وإنما كل ما أشار إليه وذكره - كما قال جلُّ المفسرين - أن الشمس ستكوَّر؛ أي: تلفُّ ويُرمى بها في النار تبكيتًا لعبَّادها، فيذهب ضوؤها، وهذا بالطبع لن يكون إلا بعد دنوِّها من الخلق، وإلَّا فما سبب بعض الأهوال التي سيعاينها الناس حينها، كما دلَّ على ذلك حديث الشفاعة العامة؟!

التفصيل:

أولا. حديث دنو الشمس متفق على صحته؛ لوروده في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة بأسانيد قوية صحيحة، ولا انقطاع في سنده عند الإمام مسلم:

لقد "سلك الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه طرقًا

(*) الحق أبلج والباطل لجلج، جواد عفانة، دار جواد للنشر، الأردن، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م. الإسلام وصياح الديك، جواد عفانة، مرجع سابق.

١. الحَقْوُ: الخصر.

بالغة في الاحتياط والإتقان والورع والمعرفة، وذلك مُصَرِّح بكمال ورعه، وتمام معرفته، وغزارة علومه، وشدة تحقيقه بحفظه، وتشدده في هذا الشأن، وتمكنه من أنواع معارفه، وتبريزه في صناعته، وعلوِّ محلِّه في التمييز بين دقائق علومه لا يهتدي إليها إلا أفراد في الأعصار"[1].

وفي فضل صحيح مسلم رُوي عن مكي بن عبدان أحد حفاظ نيسابور، أنه قال: "سمعت مسلم بن الحجاج يقول: لو أن أهل الحديث يكتبون مائتي سنة الحديث، فمدارهم على هذا المسند - يعني صحيحه - قال: وسمعت مسلمًا يقول: عرضت كتابي هذا على أبي زُرْعة الرازي، فكل ما أشار أن له علة تركته، وكل ما قال: إنه صحيح، وليس له علة خرَّجته"[2].

ومن ثم، فقد تلقته الأمة بالقبول، واتفق العلماء على أنه أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى وصحيح البخاري[3].

وعليه، فلا يحق لأحدٍ أن يطعن في صحة حديث دنوِّ الشمس من الخلق يوم القيامة الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه بقوله: حدثنا الحكم بن موسى - أبو صالح - حدثنا يحيى بن حمزة عن عبد الرحمن بن جابر، حدثني سليم بن عامر، حدثني المقداد بن الأسود قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميلٍ. قال سليم بن عامر: فوالله! ما أدري ما يعني بالميل، أمسافة الأرض، أم الميل الذي تُكتحل به العين؟ قال: فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حَقْوَيْه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا. قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه"[4].

كما أن هذا الحديث قد رواه الإمام الترمذي في سننه بهذا الإسناد من طريق ابن المبارك، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن سُليم بن عامر، عن المقداد بن الأسود ﷺ، قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا كان يوم القيامة أُدنيت الشمس من العباد حتى تكون قيد مَيْلٍ أو اثنتين، قال سليم بن عامر: لا أدري أي الميلين عَنَى؟ أمسافة الأرض أم الميل الذي يُكحل به العين؟ قال: فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق بقدر أعمالهم: فمنهم مَنْ يأخذه إلى عقبه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه إلجامًا، فرأيت رسول الله ﷺ يشير بيده إلى فيه؛ أي: يلجمه إلجامًا"[5].

وعلَّق الإمام الترمذي على هذا الحديث، بقوله: "وفي الباب عن أبي سعيد وابن عمر، وهذا حديث حسن صحيح"[6].

هذا ما يؤكد أن الحديث صحيح لا علة فيه ولا

---

١. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (١/ ١٢٦).

٢. المرجع السابق، (١/ ١١٧، ١١٨).

٣. المرجع السابق، (١/ ١١٦) بتصرف.

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في صفة يوم القيامة، (٩/ ٣٩٦٩)، رقم (٧٠٧٣).

٥. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: صفة القيامة، باب: رقم (٢)، (٧/ ٨٩)، رقم (٢٥٣٦). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٤٢١).

٦. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، مرجع سابق، (٧/ ٩٠).

طعن في ثبوته عن النبي ﷺ، أما الدَّعوى التي دبَّجها أعداء السنة النبوية لإبطال هذا الحديث، والتشكيك في ثوابت السنة ورواتها، فهي دعوى باطلة لا دليل عليها، ولا حجة تقوم بها. فلو كان هناك انقطاع في سند هذا الحديث لما غفل عنه جهابذة المحدثين ومحققوهم، ولَما كان له مكان في صحيح الإمام مسلم، أو تصحيح عند الإمام الترمذي وغيرهم من علماء الحديث قديمًا وحديثًا.

أما دعواهم فملخصها أن هناك انقطاعًا في سند هذا الحديث بين سليم بن عامر والمقداد بن الأسود، زاعمين أن سليم بن عامر لم يدرك المقداد بن الأسود ولم يسمع منه، فهذا في عصر والآخر في عصر آخر، فكيف يسمع منه؟!

وبهذا فالحديث ضعيف مردود منقطع الإسناد لا يمكن قبوله، بل يُطعن به في الأئمة الثقات في علم الحديث، على مرادهم من هذا القول.

وهذه دعوى - كما قلنا - باطلة متهافتة، لا دليل عليها، فبمجرد الرجوع إلى كتب الرجال وعلم الجرح والتعديل تتهاوى هذه الشبهة، ويظهر زيفها، فليس هناك انقطاع ألبتة في سند الحديث، بل هو متصل تمام الاتصال، فإن سليم بن عامر قد روى عن المقداد بن الأسود ﷺ، وسمع منه كثير من الأحاديث وأثبت العلماء صدق روايته عنه وإدراكه له.

فقد ذكره المزي، فقال: سُليم بن عامر الكَلَاعيُّ الخبائِرِيُّ، أبو يحيى الحِمْصِيُّ، والخبائر هو ابن سواد بن عمرو بن الكلاع بن شُرَحبيل بن حمير، روى عن أوسط البَجَليِّ، وتميم الداري، وجُبير بن نفير، وشرحبيل بن السِّمط، وأبي كرب بن عبد كُلال، والمقداد بن الأسود، والمقداد بن معد كرب، وأبي الدرداء، وأبي هريرة... قال معاوية بن صالح، عن يحيى بن معين: سليم بن عامر كَلاعي، وهو يقول: استقبلت الإسلام من أوَّله، وزعم انه قُرىء عليه كتاب عمر.

وقال أحمد بن عبد الله العجلي: شاميٌّ تابعيٌّ ثقة. وقال أبو حاتم: لا بأس به. وقال يعقوب بن سفيان: ثقة مشهور. وقال النسائي: ثقة. وذكره ابن حبان في كتاب الثقات. وقال شعبة، عن يزيد بن خُمير: سمعت سُليم بن عامر وكان قد أدرك النبي ﷺ، وفي رواية: وكان قد أدرك أصحاب النبي ﷺ، وهو الصحيح"[1].

وذكره الإمام الذهبي، فقال: "سُليم بن عامر الكلاعي الخبائري الحمصي، حدَّث عن أبي الدرداء، وتميم الدَّاري، والمقداد بن الأسود، وعوف بن مالك، وأبي هريرة، وعمرو بن عبسة، وطائفة... وثقه أحمد بن عبد الله العجلي، وقال أبو حاتم: لا بأس به، روى شعبة، عن يزيد بن خمير، قال: سمعت سليم بن عامر، وكان قد أدرك النبي ﷺ... وقال أبو القاسم بن عساكر: شهد فتح القادسية"[2].

وقد ذكره الحافظ ابن حجر في "التهذيب"، فقال: "سُليم بن عامر الكلاعي الخبائري أبو يحيى الحمصي، والخبائر من حمير. روى عن أبي أمامة، وعبد الله بن الزبير، وعوف بن مالك، والمقداد بن الأسود، والمقدام بن معدكرب، وأبي الدرداء، وأبي هريرة، وعمرو بن عبسة... قال ابن معين: كان يقول: استقبلت الإسلام من أوَّله، وزعم أنه قُرئ عليه كتاب عمر، وقال

١. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ المزي، مرجع سابق، (١١/ ٣٤٤:٣٤٦).

٢. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مرجع سابق، (٥/ ١٨٥).

العجلي: شامي تابعي ثقة، وقال أبو حاتم: لا بأس بـه، وقال يعقوب بن سفيان: ثقة مشهور"[1].

وعلى هذا فقد أثبت علماء الجرح والتعديل رواية سليم بن عامر عن المقداد بن الأسود ﷺ، وقد ثبت أن سليم بن عامر قد روى عن جمع كبير من الصحابة، وأنه كان متقدمًا في الإسلام، فهو كما قال: استقبلت الإسلام من أوَّله، فهو وإن لم يدرك النبي ﷺ إلا أنه أدرك الصحابة ﷺ، وروى عن جمع منهم، وأدرك المقداد بن الأسود ﷺ، وسمع منه كما قطع بذلك أهل العلم برجال الحديث ومروياتهم.

وعلى هذا فالحديث متصل الإسناد لا انقطاع فيه ولا ضعف، وقد قطع بصحته أهل العلم بالحديث ورجاله وأسانيده، بل كفى بوروده في صحيح الإمام مسلم دليلًا على ثبوته وصحته.

تبقى هذه الدعوى كما قلنا خائرة العزم، عَيِيَّة البنيان، متهافتة الرأي، لا تقف على حجة مقنعة، أو دليل قاطع، وإنما هي وهم في عقول أصحابها، ورجم بالغيب دون تثبت، فالحديث صحيح ثابت عنه ﷺ، ولا طعن فيه، فرواته كلهم ثقات، واتصالهم ثابت دون ريب، ولا انقطاع في إسناده.

وقد أخرج هذا الحديث كذلك الإمام البخاري من طريق آخر في صحيحه، فقال: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عبيد الله بن أبي جعفر قال: سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر قال: سمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: "إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمدٍ ﷺ"[2].

وللحديث شواهد متعددة: منها ما أخرجه ابن حبان في صحيحه، قال: "أخبرنا ابن سلم، قال: حدثنا حرملة، قال: حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني عمرو بن الحارث أن أبا عشانة حدثه أنه سمع عقبة بن عامر يقول: ... وذكر الحديث بلفظ قريب منه"[3].

ومنها ما أخرجه أحمد في مسنده: "حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا الحسن بن سوار، حدثنا ليث بن سعد عن معاوية بن صالح أن أبا عبد الرحمن حدَّثه عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: ... وذكر الحديث بنحوه"[4].

ونخلص مما سبق إلى أنَّ حديث دنوِّ الشمس من الخلق يوم القيامة حديث صحيح؛ لوروده في صحيح مسلم وغيره من كتب السنة بأسانيد قوية صحيحة®.

ثانيًا. لا تعارض ألبتة بين حديث دنوِّ الشمس من الخلق يوم القيامة، وبين القرآن الكريم:

إن حديث دنو الشمس بما يتضمنه من وصف لبعض الأمور الغيبية من أهوال يوم القيامة، حق لا

---

١. تهذيب التهذيب، ابن حجر، مرجع سابق، (٤/ ١٤٦، ١٤٧).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الزكاة، باب: من سأل الناس تكثرًا، (٣/ ٣٩٦)، رقم (١٤٧٥).

٣. صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب: إخباره ﷺ عن البعث وأحوال الناس في ذلك، (١٦/ ٣٢٤)، رقم (٧٣٢٩). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان.

٤. إسناده قوي: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي عن النبي ﷺ، (٥/ ٢٥٤)، رقم (٢٢٢٤٠). وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده قوي.

® في **"صحة حديث جريان الشمس وسجودها تحت العرش"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة عشرة، من هذا الجزء.

ريب فيه، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ (النجم). فالنبي ﷺ - في الحديث - يصف اقتراب الشمس من الناس يوم القيامة حتى قُرابة ميل.

فالشمس - إذًا - ستكون موجودة، ولكِنَّا لا نعلم عن طبيعتها شيء، ومن الإيمان باليوم الآخر أن نؤمن بِدُنوِّ الشمس من الخلائق بمقدار ميل، الأمر الذي لو قسناه بعقولنا لدفعنا لإنكاره؛ حيث لو دنت الشمس من الأرض بمقدار شبرٍ واحد عن موضعها الآن لنتج عنه احتراق البشر، فما بالك بمسافة ميل بينها وبينهم؟!

ولهذا يجب أن نضع نُصب أعيننا: أنَّ وظيفة المؤمن - وهذه قاعدة يجب أن تُبنى عليها عقيدتنا - التسليم بما ورد من أخبار الغيب، وألَّا يسأل عن كيفية حدوثه؛ فهو أمرٌ يفوق ما تتصوَّره عقولنا؛ فأحوال الآخرة تختلف عن أحوال الدنيا، فلا تُقاس عليها؛ لأنه لو صحَّ القياس عليها لكان الموت أسرع من عرق الناس إلى آذانهم وأفواههم، ومن بلوغ العرق في الأرض سبعين باعًا.

ومن ثم، فلا يحق لمدَّعٍ أن يطعن أو يشكك في هذا الحديث بدعوى تعارضه مع القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ (إبراهيم: ٤٨)، وقوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ (الزمر: ٦٩)، وقوله تعالى: ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ ﴾ (القيامة)، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ ﴾ (التكوير)، وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ ﴾ (المرسلات).

وإليك أقوال المفسرين في تفسير هذه الآيات:

يقول الإمام الرَّازي في تفسير الآية الأولى: وتبديل السماوات بانتثار كواكبها وانفطارها، وتكوير شمسها، وخسوف قمرها وكونها أبوابًا، وأنها تارة تكون كالمهل وتارة تكون كالدهان"[1].

وسيتضح هذا التفسير أكثر عندما نأتي للحديث عن تكوير الشمس.

وأما عن الآية الثانية، فيقول الشوكاني: "المعنى: أن الأرض أضاءت وأنارت بما أقامه الله من العدل بين أهلها، وما قضى به من الحق فيهم، فالعدل نور والظلم ظلمات، وقيل: إن الله يخلق نورًا يوم القيامة يلبسه وجه الأرض، فتشرق به غير نور الشمس والقمر، ولا مانع من الحمل على المعنى الحقيقي؛ فإن الله سبحانه هو نور السماوات والأرض"[2].

وجاء في تفسير المنار: "أن الله تبارك وتعالى إذا جاء يوم القيامة للفصل بين عباده وأشرقت بنوره الأرض، وليس إشراقها لشمسٍ ولا قمرٍ، فإن الشمس تكوَّر والقمر يُخسف، ويذهب نورها، وحجابه تبارك وتعالى النور"[3].

وأما عن الآية الكريمة الثالثة، فيقول السمرقندي: "جمع الشمس والقمر، يعني: سُوِّي بينهما في ذهاب نورهما"[4].

وقال القرطبي: "أي جُمع بينهما في ذهاب ضوئهما، فلا ضوء للشمس، كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه"[5].

---

١. مفاتيح الغيب، الرازي، (٩/ ٢٧١) عند تفسيره لهذه الآية.
٢. فتح القدير، الشوكاني، دار الفكر، بيروت، د. ت، (٤/ ٤٧٦).
٣. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، (٩/ ١٤٩).
٤. بحر العلوم، نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٧م، (٣/ ٥٢٠).
٥. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (١٩/ ٩٦).

وأما عن الآية الرابعة، فيقول الإمام الطبري: قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾، إنما معناه: جُمع بعضها إلى بعض، ثم لُفَّت فرُمي بها، وإذا فعل ذلك بها ذهب ضوؤها؛ فإن التكوير في كلام العرب: جمع بعض الشيء إلى بعض، وذلك كتكوير العمامة، وهو لفها على الرأس، وكتكوير الكارة، وهي جمع الثياب بعضها إلى بعض، ولفُّها[1].

وقد ذكر هذا التفسير جلُّ المفسرين من أمثال القرطبي[2] وابن كثير[3] والألوسي[4] وغيرهم.

وأما عن الآية الخامسة، فيقول ابن جرير الطبري: "قوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾، يقول: فإذا النجوم ذهب ضياؤها، فلم يكن لها نور ولا ضوء"[5].

وقد أكد ذلك علماء الفلك فقالوا: إن الشمس في نهايتها ستتحول إلى عملاقٍ أحمر، ولم يكتفوا بهذا، بل زادوا على ذلك بأن قالوا: ستعود الشمس وتنكمش على نفسها بشكلٍ نجمٍ صغيرٍ جدًّا، وبعد ذلك تموت نهائيًّا بانطفاءٍ كاملٍ... وهذا هو المعنى الدقيق للتكوير في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ (التكوير)، لأن تكوير الشمس يعني انكماشها على نفسها وانطفاء لهيبها[6].

ومن خلال ما سبق يتبيَّن لكل مدَّعٍ أن القرآن الكريم لم يُشر من قريبٍ ولا من بعيدٍ إلى عدم وجود الشمس يوم القيامة، وإنما كل ما ذكره أن الشمس ستكوَّر أي تُلفُّ ويُرمى بها في النار فيذهب ضوؤها، وهذا بالطبع لن يكون إلا في يوم القيامة، كما جاء في أصح الكتب بعد كتاب الله ﷻ ما رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "الشمس والقمر مكوَّران يوم القيامة"[7].

وقد أخرج الطحاوي في شرح مشكل الآثار من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "الشمس والقمر ثوران مكوَّران في النار يوم القيامة"[8].

يقول الخطابي فيما حكاه عنه ابن حجر في "الفتح": "ليس المراد بكونهما في النار تعذيبهما بذلك، ولكنه تبكيت لمن كان يعبدهما في الدنيا ليعلموا أن عبادتهم لهما كانت باطلًا"[9].

ومن ثم، فإن هذين الحديثين يصرحان بوجود الشمس يوم القيامة، مع بيان ما سيحدث لها ـ هي

١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، مرجع سابق، (٢٤/ ٢٣٨) بتصرف.

٢. انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (١٩/ ٢٢٧).

٣. انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، (٤/ ٤٧٥).

٤. انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، مرجع سابق، (٢٢/ ٢٠٨).

٥. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، مرجع سابق، (٢٤/ ١٢٩).

٦. انظر: الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، مروان وحيد شعبان، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٢٤٠: ٢٤٢.

٧. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة الشمس والقمر... (٦/ ٣٤٣)، رقم (٣٢٠٠).

٨. صحيح: أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار، باب: بيان مشكل ما رُوي عن رسول الله ﷺ من قوله: "الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة"، (١/ ١٧٠)، رقم (١٨٣). وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح مشكل الآثار: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٩. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٦/ ٣٤٦).

والقمر - من إطفاء نورهما تمامًا، ثم إلقائهما في النار تبكيتًا لعبَّادهما، وهذا بالطبع لن يكون إلا بعد أن تدنو الشمس من رءوس الخلائق حينها؛ إذ إن الوقوف سيطول، ويتمنَّى الناس أن يُصار بهم ولو إلى النار؛ لما يرونه من أهوالٍ عظيمة، وحينها يستغيثون بالله تعالى ليبدأ الحساب، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان في صحيحيهما[1] فلا يُؤذن لهم، فيُدلُّون على نوحٍ ثم إبراهيم إلى أن يأتوا النبي محمد ﷺ، فيقول: أنا لها، فيذهب تحت العرش ويسجد طالبًا من الله تعالى الشفاعة في أن يبدأ الحساب، فيُستجاب له.

يقول ابن عثيمين: ورد في يوم القيامة أشياء متغايرة، ومعلوم أن مقدار هذا اليوم خمسون ألف سنة، كما جاء في القرآن الكريم، وهذه المدة كافية لأن تتغير فيها الأمور؛ فتدنو الشمس من الخلائق، وتكوَّر بعد ذلك وتُلقى في النار إهانة لعابديها... فكل ما أتاك من اختلافات في اليوم الآخر فإنما ذلك لطول مدته وتغير الأحوال فيه[2].

وخلاصة القول: أنه لا تعارض ألبتة بين حديث دنوِّ الشمس من الخلق يوم القيامة وبين القرآن الكريم®.

الخلاصة:

- إن حديث دنو الشمس من الخلق يوم القيامة حديث صحيح، بل هو في أعلى درجات الصحة؛ فقد رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما، ورواه أيضًا غيرهما من الأئمة من طرقٍ عديدة، وبأسانيد قوية صحيحة.
- ليس هناك انقطاع في سند حديث دنوِّ الشمس عند مسلم، فقد أثبت علماء الجرح والتعديل إدراك سليم بن عامر للمقداد بن الأسود رضي الله عنه وروايته عنه، وعلى هذا فالحديث صحيح متصل الإسناد لا انقطاع فيه ولا ضعف.
- من المسلَّم به في عقيدة الإسلام هو التسليم بما ورد من أمور الغيب من أخبارٍ صحيحة، مع عدم السؤال عن كيفيتها؛ لأنها أمور تفوق ما يتصوَّره العقل.
- القرآن الكريم لم يشر من قريب ولا من بعيدٍ إلى عدم وجود الشمس يوم القيامة، وإنما كل ما أشار إليه ذكره - كما قال جلُّ المفسرين - أن الشمس ستكوَّر؛ أي: تُلفُّ ويُرمى بها في النار، فيذهب ضوؤها، وذلك بعد دنوِّها من الخلق في أرض المحشر، كما صرح بذلك حديثا البخاري والطحاوي.

وكيف لا تكون الشمس موجودة يوم القيامة، والله تعالى سيلقي بها - هي والقمر - في نار جهنم؛ تبكيتًا لعبَّادهما؟!

- إن ما ورد في يوم القيامة من أحاديث صحيحة تحكي ما سيحدث للناس حينها من الكرب والمعاناة الشديدة، وغير ذلك من الأهوال - ليدل دلالة قاطعة

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التوحيد، باب: كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، (١٣/ ٤٨١)، رقم (٧٥١٠). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، (٢/ ٦٧٦)، رقم (٤٧١).

٢. دروس وفتاوى الحرم المدني، ابن عثيمين، ص١٧٦ بتصرف.

® في **"إثبات العلم الحديث لحركة الشمس وتأكيده لما جاء في القرآن والسنة عنها"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة عشرة، من هذا الجزء.

على وجود الشمس، بل ودنوها من الخلق.

الشبهة السابعة والعشرون

الطعن في أحاديث عذاب القبر ونعيمه(*)

مضمون الشبهة:

يطعن منكرو السنة في صحة أحاديث عذاب القبر، ويقولون: إنها خرافة لم تظهر إلا في نهاية القرن الثاني الهجري في حديثين عند مالك، ثم ظهرت واضحة عند البخاري ومسلم في القرن الثالث الهجري، ولم ينته القرن الخامس حتى نشر البيهقي كتابه (إثبات عذاب القبر).

ويستدلون على ذلك بأن هذه الأحاديث تعارض القرآن والعقل، فضلًا عن تعارضها فيما بينها. كما يستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾ (غافر). ويقولون: لو كان الميت يحيا في قبره للزم أن يحيا ثلاث مرات ويموت ثلاثًا، وهذا خلاف النص، ويعارض قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (آل عمران:١٨٥) فكلٌّ يحاسب يوم القيامة وفقط، وقوله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ (إبراهيم: ٢٧)، فالقول الثابت للأحياء في الدنيا أو يوم القيامة، وليس هناك دليل على أنه في القبر، وهذه الآيات في جملتها تنفي وجود عذاب في القبر.

ومن الأحاديث التي يستدلون بها، ويقولون: إنها ناسخة لأحاديث عذاب القبر ومتعارضة معها قول النبي ﷺ: "لا عذاب دون يوم القيامة"، كما أنها أخبار آحاد لا يؤخذ بها في العقائد، ورجالها ضعفاء.

ومن الأدلة العقلية التي يوردونها: أن النبي ﷺ بشر، وعذاب القبر غيب لم يطلع عليه بشر، فكيف يخبر النبي أصحابه بهذه الأمور، ولو كان عذاب القبر له أصل لرأى النباش في القبور آثارًا للعقاب على الميت، فيشاهد عليه أثر الضرب أو ضم الأضلاع واختلافها، وكيف يكون هناك مَيْتَان بجوار بعضهما أحدهما يُعَذَّب والآخر يُنَعَّم؟ وهل كل ميت يُعذب، أم أن العذاب واقع على المقبور فقط؟ وكيف تتسع الأرض وتضيق، وقد أخبر الله أنها هامدة؟ فما القبر إلا موضع ليواري سوأة الميت.

رامين من وراء ذلك إلى إنكار عذاب القبر ونعيمه، ومن ثم الطعن في السنة النبوية.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تثبت حقيقة عذاب القبر ونعيمه، وقد فسرها العلماء بما يفيد أن هناك حياة برزخية لها أحكامها الخاصة بها، وأنها فيها امتحان وسؤال وجزاء، فمن ثَبَّتَه الله جازاه بالنعيم في القبر، ومن كان غير ذلك بقي في العذاب إلى يوم القيامة بما لا يعارض الأحاديث الصحيحة الواردة في

(*) لا عذاب في القبر، جواد عفانة، جمعية عمال المطابع التعاونية، الأردن، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م. الحق أبلج والباطل لجلج، جواد عفانة، مرجع سابق. دور السنة في إعادة بناء الأمة، جواد عفانة، مرجع سابق، الإسلام وصياح الديك، جواد عفانة، مرجع سابق.

هذا المعنى.

٢) الأحاديث الواردة في عذاب القبر ونعيمه أحاديث صحيحة متواترة، غير منسوخة، ومن خلالها أجمع العلماء قديمًا وحديثًا على ثبوت عذاب القبر ونعيمه، ولم ينكر ذلك إلا جاحد لا يؤمن بالغيب، ولا يسلم لله ورسوله.

٣) إن الشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول، وعليه فإن العقل الصريح لا ينكر عذاب القبر ونعيمه بدعوى أنه غير محسوس؛ ذلك لأن حياة البرزخ من الغيبيات التي يجب الإيمان بها مطلقًا دون اعتراض، وقد أعطانا الله صورة محسوسة لذلك، وهي صورة النائم الحالم.

التفصيل:

أولا. إثبات القرآن حقيقة عذاب القبر بما لا يعارض الاحاديث الواردة في هذا الشأن:

إن عقيدة أهل السنة والجماعة قائمة على الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، والقبر من الحقائق والغيبيات التي تتعلق بركن اليوم الآخر، فلا بد لكل مؤمن بالله ﷻ أن يؤمن بحقيقة القبر وما يحدث فيه من عذاب ونعيم؛ فالمنكر لعذاب القبر ونعيمه مُنكر لجزء من أركان الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالغيب من أول الصفات التي امتدح الله ﷻ بها عباده المؤمنين فقال: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (البقرة).

ولقد أثبت القرآن الكريم حقيقة عذاب القبر ونعيمه بما يتفق مع ما جاءت به السنة النبوية في هذا المعنى دون تعارض أو اختلاف؛ فقد جاءت آيات عديدة في هذا الشأن، ثم بينها ووضحها المفسرون على أنها تثبت عذاب القبر وتؤكده، ومن هذه الآيات:

- قول الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (آل عمران).

يقول الألوسي: "﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٨٥)؛ أي: تعطون أجزية أعمالكم وافية تامة، ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (آل عمران: ١٨٥)؛ أي: وقت قيامكم من القبور، فالقيامة مصدر والوحدة لقيامهم دفعة واحدة، وفي لفظ التوفية إشارة إلى أن بعض أجورهم من خير أو شر تصل إليهم قبل ذلك اليوم...وقيل: النكتة في ذلك أنه قد يقع الجزاء ببعض الأعمال في الدنيا، ولعل من ينكر عذاب القبر تتعين عنده هذه النكتة"[1].

ويقول البقاعي رحمه الله: "﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ ﴾ أي: تعطون ﴿ أُجُورَكُمْ ﴾ على التمام جزاء على ما عملتموه من خير وشر ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، وأما ما يكون قبل ذلك من نعيم القبر ونحوه فبعضٌ لا وفاء"[2].

ويقول الزمخشري: "كلمة التوفية تزيل الوهم، لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم،

١. روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، (٤/ ١٤٦).
٢. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (٢/ ١٥٠) عند تفسيره لهذه الآية.

وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور[1].

ويقول السعدي: "﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (آل عمران: ١٨٥)؛ أي توفية الأعمال التامة، إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ"[2].

وهذه الآية قد احتج بها الطاعنون على أنه لا عذاب في القبر، وقالوا: إن توفية الأجور يوم القيامة وفقط، والكل يحاسب يوم القيامة، وقد رد المفسرون بالكلام السابق على هذا الطعن، وأوضحوا أن هناك عذابًا في القبر، وهو جزء من العذاب الأوفى والأكبر يوم القيامة.

- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) ﴾ (الأنعام)، "وهذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة ـ وهم الصادقون ـ أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صَحَّ أن يقال لهم: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ﴾"[3] فدل ذلك على أن المراد به عذاب القبر، وفي هذا يقول الشيخ صديق حسن: "﴿الْيَوْمَ﴾؛ أي: اليوم الذي تقبض فيه أرواحكم، أو أرادوا باليوم: الوقت الذي يعذبون فيه الذي مبدؤه عذاب القبر"[4].

وقد استهل الإمام البخاري الحديث عن عذاب القبر بترجمة فقهية بليغة تكفي للرد على من أنكر عذاب القبر، وقد سمَّى هذه المقدمة "باب ما جاء في عذاب القبر، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ (الأنعام: ٩٣) هو الهوان، والهَوْن: الرِّق. وقوله تعالى: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) ﴾ (التوبة)، وقوله تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ (غافر)"[5].

يقول ابن حجر رحمه الله تعليقًا على تبويب البخاري: "قوله: (وقوله تعالى) بالجر عطفًا على عذاب القبر؛ أي ما ورد في تفسير الآيات المذكورة، وكأن المصنف قدم ذكر هذه الآيات لينبه على ثبوت ذكره في القرآن، خلافًا لمن رده، وزعم أنه لم يرد ذكره إلا من أخبار الآحاد، فأما الآية التي في الأنعام، فروى الطبراني وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ ﴾ (الأنعام: ٩٣)، قال: هذا عند الموت، والبسط: الضرب، يضربون وجوههم

---

١. الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية، القاهرة، د. ت، (١/ ٤٨٥).

٢. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٥٩.

٣. حوارات اليوم الآخر في القرآن والسنة، سيد محمود سعيد، المكتب المصري، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٣٥.

٤. فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان، مرجع سابق، (٢/ ٤٠٧).

٥. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٣/ ٢٧٤).

وأدبارهم. ويشهد له قوله تعالى في سورة القتال: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾ (محمد)، وهذا وإن كان قبل الدفن فهو من جملة العذاب الواقع قبل يوم القيامة، وإنما أضيف العذاب إلى القبر لكون معظمه يقع فيه، ولكون الغالب على الموتى أن يُقبروا، وإلا فالكافر ومن شاء الله تعذيبه من العصاة يعذب بعد موته ولو لم يدفن، ولكن ذلك محجوب عن الخلق إلا من شاء الله"[1].

• قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ (التوبة).

اتفق المفسرون قديمًا وحديثًا في تفسير هذه الآية على أن العذاب الأول في الدنيا، بالحدود أو الجوع، والعذاب الثاني هو عذاب القبر، ومن ذلك ما أورده الإمام الطبري رحمه الله من آثار في تفسير هذه الآية، ومنها قوله: "وقوله: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾، يقول: سنعذب هؤلاء المنافقين مرتين، إحداهما في الدنيا، والأخرى في القبر"[2].

وقال آخرون: بالحدود وعذاب القبر، وقال غيرهم: بالجوع وعذاب القبر.

"قال مجاهد في قوله: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾: يعني القتل والسبي، وقال في رواية: بالجوع وعذاب القبر، ثم يُردون إلى عذاب عظيم، وقال ابن جريج: عذاب الدنيا وعذاب القبر.

وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا وعذاب في القبر"[3].

وقال ابن إسحاق: هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام، ودخولهم فيه من غير حسبة، ثم عذاب القبر"[4].

فاختلفوا بذلك في عذاب المرة الأولى، ولكنهم اتفقوا على أن عذاب المرة الثانية هو عذاب القبر.

• قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (إبراهيم).

روى الإمام الطبري رحمه الله بسنده إلى البراء بن عازب في قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (إبراهيم:٢٧)، قال: "التثبيت في الحياة إذا أتاه الملكان في القبر فقالا له: مَنْ ربك؟ فقال: ربي الله، فقالا له: ما دينك ؟ قال: ديني الإسلام، فقالا له: من نبيك؟ قال: نبيي محمد ﷺ، فذلك التثبيت في الحياة الدنيا"[5].

ويقول القرطبي رحمه الله: "روى النسائي عن البراء قال: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (إبراهيم: ٢٧)، نزلت في عذاب القبر... وقيل: يثبتهم الله في الدارين جزاء لهم على القول الثابت، وقال القفال وجماعة: ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

---

١. المرجع السابق، (٣/ ٢٧٥، ٢٧٦).
٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، مرجع سابق، (١٤/ ٤٤١).
٣. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، (٢/ ٣٨٥).
٤. معالم التنزيل، البغوي، مرجع سابق، (٤/ ٨٩).
٥. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، مرجع سابق، (١٦/ ٥٨٩).

ٱلدُّنْيَا ﴾؛ أي في القبر؛ لأن الموتى في الدنيا إلى أن يبعثوا، ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾؛ أي عند الحساب"[1].

وعلى هذا فلا يحق الاعتراض بأن الآية لم يأت فيها لفظ القبر، وقد فسرها المفسرون بأن عذاب القبر ورد فيها ضمنًا.

- قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (طه).

روى الإمام الطبري رحمه الله بسنده إلى أبي سعيد الخدري قال في قول الله تعالى: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قال: عذاب القبر.

وروى عنه أيضًا أنه قال في تفسيرها: يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، وقال أيضًا: المعيشة الضنك: عذاب القبر، إنه يسلط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تنينًا تنهشه وتخدش لحمه حتى يبعث، وكان يقال: لو أن تنينًا منها نفخ الأرض لم تنبت زرعًا[2].

- قوله تعالى:﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (السجدة).

روى الطبري رحمه الله بسنده عن مجاهد في هذه الآية الكريمة، أنه قال: "الأدنى في القبور وعذاب الدنيا"[3].

"وقال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة: يعني به عذاب القبر"[4] ويقول السعدي: "وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلالتها ظاهرة، فإنه قال:﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ (السجدة: ٢١)؛ أي: بعض وجزء منه، فدلَّ على أن ثَمَّ عذابًا أدنى قبل العذاب الأكبر وهو عذاب النار[5].

- قوله تعالى:﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾ (غافر)، وقوله ﷻ:﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (البقرة).

روى الطبري رحمه الله بسنده إلى السدي في قوله: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ (غافر:١١)، "قال: أُميتوا في الدنيا، ثم أحيوا في قبورهم، فسئلوا أو خوطبوا، ثم أميتوا في قبورهم، ثم أحيوا في الآخرة"[6].

وما قاله ابن كثير والبغوي وغيرهما من المفسرين رحمهم الله هو عين ما قاله الطبري رحمه الله، والآيتان متشابهتان، كما قال ابن عباس وقتادة والضحاك.

ويروي الطبري أيضًا في تفسير آية البقرة بسنده إلى أبي صالح أنه قال: "يحييكم في القبر ثم يميتكم"[7].

ولقد طعن بعض المشككين في عذاب القبر مستدلين بهاتين الآيتين وقالوا: لو كان الإنسان يحيا في

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (٩/ ٣٦٢، ٣٦٣).

٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، مرجع سابق، (١٨/ ٣٩٣).

٣. المرجع السابق، (٢٠/ ١٩١).

٤. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، (٣/ ٤٦٢).

٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، (١/ ٦٥٦).

٦. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، مرجع سابق، (٢١/ ٣٦١).

٧. المرجع السابق، (١/ ٤١٩).

قبره للزم أن يحيا ثلاث مرات، ويموت ثلاثًا، وهذا خلاف النص.

والحق أن هذا الطعن مردود بلا شك، ويؤيد ذلك ما أورده الطبري رحمه الله بسنده إلى ابن عباس في تفسير آية البقرة قال: "كنتم ترابًا قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم، فهذه إحياءة، ثم يميتكم، فترجعون إلى القبور، فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه إحياءة، فهما ميتتان وحياتان"[1].

وكذلك ما أورده الطبري بسنده إلى قتادة في هذه الآية، قال: "كانوا أمواتًا في أصلاب آبائهم، فأحياهم الله وخلقهم، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما حياتان وموتتان"[2].

والذي يقرأ كلام الطبري رحمه الله الذي رواه عن السدي، يظن أن هناك حياة ثالثة وموتة ثالثة، مع أنه يقول: إنما هما حياتان وموتتان، وقد فَصَّل ابن حجر هذا التعارض والإشكال وأوضحه بقوله: "إن المراد بالحياة في القبر للمسألة ليست الحياة المستقرة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن وتدبيره وتصرفه، وتحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء، بل هي مجرد إعادة لفائدة الامتحان الذي وردت به الأحاديث الصحيحة، فهي إعادة عارضة، كما حيي خلق لكثير من الأنبياء لمسألتهم لهم عن أشياء ثم عادوا موتى"[3].

فحياة القبور وما فيها من نعيم أو عذاب تختلف عن حياة الدنيا وحياة الآخرة، فهي حياة برزخية لا طاقة للعقل في إدراكها، ولا يمكنه أن يصل إلى كيفيتها، وإنما يتوقف الإيمان بهذه الحياة على النصوص الواردة، قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (المؤمنون).

- قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ (غافر).

إن هذه الآية هي أعظم دليل على عذاب القبر ونعيمه، ولا يظنن ظان أن هذه الآية خاصة بآل فرعون فقط، وإنما هي لعموم من كُتِبَ عليه العذاب في القبر، ويقول ابن مسعود: أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود يعرضون على النار كل يوم مرتين، تغدو وتروح إلى النار، ويقال: يا آل فرعون هذه منازلكم حتى تقوم الساعة[4].

يقول الإمام القرطبي رحمه الله: "والجمهور على أن هذا العرض في البرزخ، واحتج بعض أهل العلم في تثبيت عذاب القبر بقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ (غافر:٤٦) ما دامت الدنيا. كذلك قال مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب، كلهم قال: هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا؛ ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ (غافر)"[5] ؟

- قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا

---

١. السابق، (١/ ٤١٩).
٢. السابق، (١/ ٤٢٠).
٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٣/ ٢٨٤).
٤. معالم التنزيل، البغوي، مرجع سابق، (٧/ ١٥٠).
٥. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (١٥/ ٣١٨، ٣١٩).

﴿يَعۡلَمُونَ ٤٧﴾ (الطور).

يقول الإمام الطبري رحمه الله: "حدثنا إسماعيل بن موسى الفزاري، قال: أخبرنا شريك، عن أبي إسحاق، عن البراء: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ (الطور: ٤٧)، قال: عذاب القبر، وقال حدثني عليٌّ بسنده إلى ابن عباس: وقوله: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ (الطور:٤٧)، يقول: عذاب القبر قبل عذاب يوم القيامة، وعن قتادة أن ابن عباس كان يقول: إنكم لتجدون عذاب القبر في كتاب الله: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ (الطور:٤٧)"[1].

- قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارًا﴾ (نوح: ٢٥)، والفاء تدل في اللغة العربية على الترتيب والتعقيب، أو تدل على السرعة، فدخول النار في الآية عقب الغرق مباشرة، ويكون في البرزخ وليس في يوم القيامة[2].

ويقول الشيخ صديق حسن خان في تفسيرها: "قيل: عذاب القبر، وعلى هذا هو على بابه، كقوله ﷻ في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ (غافر: ٤٦)"[3].

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾ (البقرة)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ (آل عمران).

وهذه الآية دليل على أن الشهداء يحيون حياة برزخية في قبورهم، ولكن هذا ليس خاصًّا بالشهداء فقط دون غيرهم، ودليل ذلك ما أورده الإمام الطبري رحمه الله: "فإن قال لنا قائل: وما في قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ﴾ (البقرة: ١٥٤) من خصوصية الخبر عن المقتول في سبيل الله الذي لم يعم به غيره، وقد علمت تظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه وصف حال المؤمنين والكافرين بعد وفاتهم، فأخبر عن المؤمنين أنهم يُفتحُ لهم من قبورهم أبوابٌ إلى الجنة يشمون منها رَوْحها، ويستعجلون الله قيام الساعة، ليصيروا إلى مساكنهم منها، ويجمع بينهم وبين أهاليهم وأولادهم فيها، وعن الكافرين أنهم يُفتحُ لهم من قبورهم أبوابٌ إلى النار ينظرون إليها، ويصيبهم من نتنها ومكروهها، ويسلط عليهم فيها إلى قيام الساعة من يقمعهم فيها، ويسألون الله فيها تأخير قيام الساعة، حذرًا من المصير إلى ما أعد الله لهم فيها، مع أشباه ذلك من الأخبار، وإذا كانت الأخبار بذلك متظاهرة عن رسول الله ﷺ، فما الذي خصَّ به القتيل في سبيل الله، مما لم يعم به سائر البشر غيره من الحياة؟ وسائر الكفار والمؤمنين غيره أحياء في البرزخ، أما الكفار فمعذبون بالمعيشة الضنك، وأما المؤمنون فمنعمون بالروح والريحان ونسيم الجنان"[4].

إن كلام الإمام الطبري رحمه الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: إقرار ورد وسؤال، أما الإقرار فهو أن عذاب القبر واقع لكل كافر، ونعيمه واقع لكل مؤمن، وهذا

---

١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، مرجع سابق، (٢٢/ ٤٨٧).

٢. حوارات اليوم الآخر، سيد محمود سعيد، مرجع سابق، ص٣٥ بتصرف.

٣. فتح البيان، صديق حسن خان، مرجع سابق، (٧/ ٢٢٠).

٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، مرجع سابق، (٣/ ٢١٦).

لا شك فيه، وقد أثبتناه بأدلة الكتاب السابقة، وسنثبته ـ إن شاء الله تعالى ـ بأدلة السنة النبوية والأدلة العقلية.

أما الرد فكان على من ظن أن الحياة البرزخية في القبور مقصورة على الشهداء فقط، وأما السؤال فهو عن المزية التي اختص الله بها الشهداء، وقد قلنا أن الحياة البرزخية في القبر تكون للمؤمنين والكافرين.

وقد أجاب الإمام رحمه الله عن هذا السؤال بقوله: "إن الذي خص الله به الشهداء في ذلك، وأفاد المؤمنين بخبره عنهم ـ تعالى ذكره ـ إعلامه إياهم أنهم مرزوقون من مآكل الجنة ومطاعمها في برزخهم قبل بعثهم، ومنعَّمون بالذي ينعم به داخلوها بعد البعث من سائر البشر، من لذيذ مطاعمها الذي لم يُطعمها الله أحدًا غيرهم في برزخه قبل بعثه، فذلك هو الفضيلة التي فضلهم بها وخصهم بها عن غيرهم، والفائدة التي أفاد المؤمنين بالخبر عنهم، فقال تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (آل عمران)"[1].

وقد جاءت عدة آثار من آيات قرآنية وأحاديث نبوية تثبت فضل هؤلاء الشهداء ودرجتهم ومنزلتهم عند الله ﷻ.

وخلاصة القول: أن عذاب القبر ونعيمه، ثابتان بنصوص القرآن الكريم الصريحة في هذا الشأن، وهذا ما أكدت عليه السنة النبوية ووافقته دون اختلاف أو تعارض، كما سيأتي بيانه، ولا مجال للطعن في هذه الحقائق الغيبية.

ثانيًا. أحاديث القبر (عذابه ونعيمه) أحاديث صحيحة متواترة غير منسوخة:

إن ما قيل بأن أحاديث عذاب القبر خرافات وخزعبلات لهو قول باطل ومردود وليس عليه أي دليل صحيح، وإن ما يُسَطِّر من صفحات سوداء في إنكار عذاب القبر لهي سطور مردودة على أصحابها، لأن ما أوردناه من آيات قرآنية دالة على إثبات عذاب القبر فيه الكفاية في هذا الشأن، ولتأييد هذه الأدلة نتبعها بأدلة من كلام النبي ﷺ.

أما عن الأحاديث فهي:

- ما رواه البخاري عن حفص بن عمر عن شعبة عن علقمة بن مرثد عن سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "إذا أُقعِدَ المؤمنُ في قبره أُتِي، ثم شَهِدَ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ (إبراهيم: ٢٧)، حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة بهذا، وزاد: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (إبراهيم: ٢٧)، نزلت في عذاب القبر"[2].

وهذا الحديث خبر آحاد مداره على صحابي واحد هو البراء بن عازب ، ومع أنه خبر آحاد إلا أن الإمام البخاري بدأ به ما جاء في عذاب القبر من أحاديث؛ ولذا فقد بدأنا به، ومن المعلوم عندنا أن خبر الآحاد ما دام صحيحًا فإنه معمول به في العقائد.

- جاء في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ "أنه مر بقبرين يُعذَّبان، فقال: إنهما

---

١. المرجع السابق، (٣/ ٢١٦).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر... (٣/ ٢٧٤)، رقم (١٣٦٩).

ليعذبان، وما يعذبان في كبير؛ أما أحدهما، فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم أخذ جريدةً رطبة، فشقها بنصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، فقالوا: يا رسول الله لِمَ صنعت هذا؟ فقال: لعله أن يُخَفِّفَ عنهما ما لم ييبسا"[1].

• وفي صحيح مسلم عن زيد بن ثابت ﷺ، قال: "بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له، ونحن معه، إذْ حادت به، فكادت تُلقيه، وإذا أَقْبُرٌ ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ فقال رجل: أنا، قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال: ماتوا في الإشراك، فقال: إن هذه الأمة تُبْتَلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يُسمِعَكم من عذاب القبر الذي أسمع منه..."[2] الحديث.

• وفي الصحيحين عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ، قال: "خرج النبي ﷺ وقد وجبت الشمس، فسمع صوتًا، فقال: يهودُ تُعَذَّبُ في قبورها"[3].

• وفي الصحيحين كذلك عن عائشة رضي الله عنها: "أن يهودية دخلت عليها، فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذكِ الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: نَعَمْ، عذاب القبر. قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلَّى صلاةً إلا تعوَّذ من عذاب القبر"، زاد غندر: "عذاب القبر حق"[4].

• وفي صحيح الإمام مسلم، عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: "إذا تشهَّد أحدكم فليستعذ بالله من أربع؛ يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال"[5].

هذه بعض الأحاديث التي وردت بشأن العذاب في القبر، وهي كلها في غاية الصحة سندًا ومتنًا، وبها أجمع المحدِّثون على ثبوت ذلك.

• وقد ذكرت لنا كتب السنة الصحاح حديثًا جمع بين فتنة القبر وعذابه ونعيمه معًا، فعن البراء بن عازب ﷺ، قال: "خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَـمَّا يلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله وكأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت في الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثًا. ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: الجريدة على القبر، (٣/ ٢٦٤)، رقم (١٣٦١). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الطهارة، باب: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، (٢/ ٨٣٥)، رقم (٦٦٣).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، (٩/ ٣٩٧٣)، رقم (٧٠٨٠).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: التعوذ من عذاب القبر، (٣/ ٢٨٤)، رقم (١٣٧٥). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار، (٩/ ٣٩٧٤)، رقم (٧٠٨٢).

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر، (٣/ ٢٧٤)، رقم (١٣٧٢). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب التعوذ من عذاب القبر، (٣/ ١١٦٧)، رقم (١٢٩٨).

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: ما يستعاذ منه في الصلاة، (٣/ ١١٦٩)، رقم (١٣٠١).

الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض. قال: فيصعدون بها فلا يمرون - يعني بها - على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح لهم، فيشيِّعه من كل سماء مُقَرَّبُوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عِلِّيِّين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى. قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادي منادٍ في السماء: أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة. قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي. قال: وإنَّ العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه مَعهم المسوح[1]، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى يُنْتَهَى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ (الأعراف: ٤٠)، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى؛ فتطرح روحه طرحًا، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ (الحج)، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري؛ فينادي منادٍ من السماء: أن كذب؛ فافرشوا له من النار،

١. المُسوح: الثياب الخشن.

وافتحوا له بابًا إلى النار؛ فيأتيه من حرِّها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: مَنْ أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة"[1].

- ومما يدل دلالة واضحة على ما أثبتته الأحاديث السابقة من وجود حياة برزخية منعَّمة أو معذَّبة ـ ما جاء عن النبي ﷺ بأنه كان يُعلِّم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: "السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون"[2].

- وقد جاء في حادثة عين أمام الصحابة ﷺ مخاطبة النبي ﷺ الأموات من الكفار بأسمائهم، فقد روى ثابت البناني عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدرٍ ثلاثًا، ثم أتاهم، فقام عليهم فناداهم، فقال: يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا، فسمع عمر ﷺ قول النبي ﷺ. فقال: يا رسول الله كيف يسمعوا، وأنَّى يجيبوا وقد جَيَّفوا؟ قال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا، ثم أمر بهم فسحبوا، فألقوا في قليب بدر"[3].

- وقال الرسول ﷺ: "إن الميت يعذَّبُ في قبره ببكاء أهله"[4].

وتلك جملة من الأحاديث ذكرناها للتأكيد على هذه الحقيقة الغيبية التي لا يعلم حقيقتها إلا علَّام الغيوب، وباستقصاء الأدلة في هذه الحياة البرزخية لم نجد الأدلة فيها مجردة عن التمثيل وإثبات الحقيقة لهذا الأمر، بل وجدنا من الأدلة قرآنًا أو سنة أمثلة واضحة تعطينا صورة جلية وحقيقية لهذا الأمر مثل:

- حال أهل فرعون، فقد أخبر القرآن عن حالهم بعد موتهم.
- الميتان اللذان أخبر عنهما الرسول ﷺ أنهما يعذبان في القبر.
- موتى المشركين في غزوة بدر.

وبهذه الأدلة كلها أجمع العلماء قديمًا وحديثًا على تواتر أحاديث ثبوت عذاب القبر ونعيمه.

يقول ابن أبي العز الحنفي في شرحه العقيدة الطحاوية: "وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلًا، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا يتكلم في كيفيته؛ إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذه الدار... واعلم أن عذاب

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما، رقم (١٨٥٥٧). وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجنائز، باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، (٤/ ١٥٦٩)، رقم (٢٢٢٠).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار... (٩/ ٣٩٧٦)، رقم (٧٠٩٠).

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المغازي، باب: قتل أبي جهل، (٧/ ٣٥١)، رقم (٣٩٧٨). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجنائز، باب: الميت يعذب ببكاء أهله عليه، (٤/ ١٥٢٨)، رقم (٢١٢١).

القبر وعذاب البرزخ حق، فكل مَنْ مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قُبر أو لم يُقبر، أكلته السِّباع أو احترق حتى صار رمادًا، ونُسف في الهواء، أو صلب أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور، وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك، فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلوٍّ ولا تقصير"[1].

وبدليل المخالفة ثبتت أيضًا فتنة القبر، وذلك فيما رُوي عن رسول الله ﷺ فيمن يعصمون من فتنة القبر وعذابه؛ فطالما هناك من لا يتعرض لذلك (بالنص)، فهذا النص ذاته دليل على وقوع الفتنة والعذاب على غيره بمفهوم المخالفة، فضلًا عما ذكرنا من أحاديث، ومن هؤلاء المعصومين:

- **الشهيد**: فقد روى المقدام بن معديكرب، قال: قال رسول الله ﷺ: "للشهيد عند الله ست خصال: يُغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُحلَّى حُلَّة الإيمان، ويزوَّج من الحور العين، ويُشفَّع في سبعين إنسانًا من أقاربه"[2].

- **الذي مات مرابطًا في سبيل الله**: ففي الحديث عن فضالة بن عُبيد، عن النبي ﷺ، قال: "كل ميت يُختم على عمله إلا الذي مات مرابطًا في سبيل الله، فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر"[3].

- **الذي يموت بداء البطن**: وقد ثبت في حديث يرويه عبد الله بن يسار، قال: "كنت جالسًا وسليمان بن صرد وخالد بن عرفطة، فذكروا أن رجلًا توفي مات ببطنه، فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهداء جنازته، فقال أحدهما للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: من يقتله بطنه، فلن يعذب في قبره؟ فقال الآخر: بلى"[4]

وهذه الأحاديث أيضًا مما تؤكد حقيقة عذاب القبر ونعيمه؛ لأن نفي النبي ﷺ عذاب القبر عن أحد بعينه يثبت لغيره بدليل المخالفة.

ومن خلال تلك الأدلة السابقة قرآنًا وسنة أجمع المسلمون على ثبوت عذاب القبر ونعيمه؛ "فكل المسلمين يقولون في صلاتهم: أعوذ بالله من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ولو أن عذاب القبر غير ثابت، ما صح أن يتعوذوا بالله منه؛ إذ لا تعوذ من أمر ليس موجودًا، وهذا يدل على أنهم يؤمنون به"[5].

وإذا قال قائل: هل عذاب القبر أو نعيمه يكون على الروح دون البدن؟ نقول: لقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن العذاب والنعيم يقع على الروح والجسد معًا، تنعم الروح وتعذَّب منفردة عن البدن، وتعذب متصلة بالبدن، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال

١. شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، تحقيق: محمد محمود حجازي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٣٢٤، ٣٢٥.

٢. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الجهاد، باب: فضل الشهادة في سبيل الله، (٢/ ٩٣٥)، رقم (٢٧٩٩). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٢٧٩٩).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه، رقم (٢٣٩٩٦). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٤. صحيح: أخرجه النسائي في سننه، كتاب: الجنائز، باب: من قتله بطنه، (١/ ٣٣٦، ٣٣٧)، رقم (٢٠٦٤). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٢٠٥٢).

٥. شرح العقيدة الواسطية، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، السعودية، ط٣، ١٤١٦هـ، (٢/ ١٢٢).

مجتمعين، كما يكون للروح منفردة عن البدن.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "فاعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها: أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا، فيحصل له معها النعيم أو العذاب"[1].

أما دعوى نسخ أحاديث عذاب القبر ونعيمه بقول النبي ﷺ: "لا عذاب فيما دون يوم القيامة"، فدعوى باطلة، وذلك بنص الحديث نفسه؛ فقد جاء عن عائشة رضي الله عنها: "أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئًا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاكِ الله عذاب القبر. قالت: فدخل رسول الله ﷺ عليَّ. فقلت: يا رسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال: لا. وعَمَّ ذاك؟ قالت: هذه اليهودية لا نصنع إليها من المعروف شيئًا إلا قالت: وقاكِ الله عذاب القبر، قال: كذبت يهود، وهم على الله ﷻ كُذُبٌ، لا عذاب دون يوم القيامة. قالت: ثم مكث بعد ذاك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملًا بثوبه محمَّرة عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته: أيها الناس، أظلتكم الفتن كقطع الليل المظلم، أيها الناس لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا وضحكتم قليلًا، أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر؛ فإن عذاب القبر حق"[2].

ففي هذا الحديث أنكر النبي ﷺ قول اليهودية في عذاب القبر، وذلك قبل أن ينزل عليه شيء في عذاب القبر لأمته، ثم أعلم بذلك في آخر الأمر، فأقرها وأمر الناس بالتعوذ[3]، وقد وردت في البخاري ومسلم روايات تؤكد على استمراره ﷺ على التعوذ من عذاب القبر - بعد أن أوحى الله له بأمره - فمن هذه الروايات ما ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "... فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلَّى صلاة إلا تعوَّذ من عذاب القبر"[4].

وبناء على ما سبق تبين صحة أحاديث عذاب القبر ونعيمه، وثبوت حقيقة ذلك الأمر، لدلالة هذه الأحاديث عليها فهي مخرجة في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة وعليه فرجاله ثقات غير مطعون فيهم، وقد أجمع العلماء على تواتر هذه الأحاديث وثبوت عذاب القبر ونعيمه بالروح والجسد معًا®.

ثالثًا. التسليم بغيبيات حياة البرزخ من مقتضيات الإيمان بالله تعالى، والعقل لا مجال له في إدراكها:

إن العقل لم يكن في يوم من الأيام حاكمًا على الشرع

---

1. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، (٤/ ٢٨٤).
2. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، رقم (٢٤٥٦٤). وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
3. مشكاة المصابيح، التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، (١/ ٥٣٧) بتصرف.
4. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر، (٣/ ٢٧٤، ٢٧٥)، رقم (١٣٧٢). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب التعوذ من عذاب القبر، (٣/ ١١٦٧)، رقم (١٢٩٨).

® في **"عدم انفراد مسلم بحديث: يعذب الميت في قبره"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الحادية عشرة، من الجزء السادس (دواوين السنة). وفي **"ضمة القبر وضغطته لا تسمى عذابًا"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة، من الجزء الثامن (الإلهيات).

والدين، فعقيدة أهل السنة والجماعة مبنية على أصل الاتباع، فالأصل عندنا القرآن والسنة، وصحيح المعقول يوافق صريح المنقول، ومن المستحيل شرعًا أن يأتي النقل الصريح بما يخالف العقل الصحيح أبدًا، وإن تَوهَّم العقل حدوث ذلك. وهذا لن يحدث - فما علينا إلا التسليم بما جاء به الله ﷻ في كتابه أو أورده النبي ﷺ في سنته.

وقد أوردنا لإثبات عذاب القبر ونعيمه أدلة كافية من القرآن والسنة، ولكن لا بد من إيراد الأدلة العقلية، لعل الطاعن في القرآن، أو المنكر للسنة يقتنع بهذه الأدلة إن كان له قلب، وخاصة من أنكر حقيقة عذاب القبر ونعيمه الثابتة في الكتاب والسنة والتي لا مراء فيها، ولا مجال للطعن في صحتها، ومن هذه الأدلة العقلية ما يأتي:

- أن عذاب القبر ونعيمه غيب، والإيمان بالغيب من الصفات الأساسية للمؤمن، ولقد أخبر الله ﷻ أن رسول الله ﷺ لا يعلم الغيب فقال ﷻ على لسان نبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ (الأعراف: ١٨٨)، فالنبي ﷺ لا يعلم الغيب حقيقة، ولا يعلمه بتفاصيله إلا ما أطلعه الله ﷻ عليه؛ فلقد أخبر الله ﷻ نبيه ﷺ ببعض الأشياء ليُعْلِم بها أمّته وينذرهم، فأراه بعض الأشياء الدالة على عذاب القبر، مثل حديث اللذين يعذبان في قبريهما، وسماعه لأهل قليب بدر، وهذه الأشياء من خصائص النبي ﷺ.
- أن إيمان العبد بالله وملائكته واليوم الآخر يستلزم إيمانه بعذاب القبر ونعيمه، وبكل ما يجري فيه؛ إذ الكل من الغيب فمن آمن ببعض الغيبيات لزمه عقلًا الإيمان ببعضها الآخر.
- أن الراقد في القبر مثل النائم، فالنائم يرى من الرؤيا ما يُسَرُّ له، فيتلذذ بها، وينعم بتأثيرها في نفسه الأمر الذي يأسف له إن هو استيقظ، كما أنه قد يرى الرؤيا مما يكره فيستاء لها ويغتم، الأمر الذي يجعله يحمد مَنْ أيقظه، فهذا النعيم أو العذاب في النوم يجري على الروح حقيقة وتتأثر به وهو غير محسوس، ولا مشاهد لنا، ومع ذلك لا ينكره أحد، فيكف يُنكر إذًا عذاب القبر أو نعيمه وهو نظيره تمامًا؟!
- أن الله ﷻ قد حجب عنا معرفة ما يحدث للميت؛ شفقة بنا، ورحمة بأهل الميت، حتى لا نترك دفن موتانا، ولا يحدث حرجًا لأهل الميت، وقد قال ﷺ: "إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها، فلولا ألا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه..."[1].
- أن عدم رؤيتنا لما يحصل للميت من عذاب أو نعيم لا يعني عدم وجوده، فقدرة الله ﷻ ليس لها حدود، فهو قادر سبحانه على أن يعذب أو ينعم من مات محروقًا، أو مات مأكولًا، فالله لا يعجزه شيء، وهو على كل شيء قدير، وعلى هذا فالعذاب للمقبور وغير المقبور.
- أن للتعذيب - بصفة عامة - الآن أنواعًا أخرى لا تترك آثارًا في الجسد، كالتعذيب الكهربائي مثلًا، أو التعذيب النفسي، فليس شرطًا في التعذيب أن يظهر على

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه... (٩/ ٣٩٧٣)، رقم (٧٠٨٠).

الميت أثرٌ لاختلاف الأضلاع أو ضم القبر، ولسنا في حاجة إلى دليل على قدرة الله ﷻ.

- إن ما استدلوا به من أدلة عقلية على إنكار عذاب القبر يعد إقحامًا منهم للعقل في أمر لا طاقة له به، ولا مدخل له فيه، لأن عذاب القبر ونعيمه أمر غيبي لا عهد للعقول به في هذه الدار، ولا يمكنها أن تصل إلى كيفيته، وإنما يتوقف الإيمان فيه على النصوص الواردة، وإن كان العقل لا يمنع وقوعه، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول: ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول[1].

- إذا ما عرف الإنسان هذا العالم الروحاني الذي هو فوق الحواس، ووراء المادة سهل عليه الجواب عن الإشكالات على عذاب القبر ونعيمه، وعلم أن موت هذا الجسم الترابي ليس بمانع أن تُعَذَّب الروح أو تُنَعَّم، وأن تسعد وتشقى، وإن لم ير ذلك، كما لا يرى الروح نفسها، وأنه إذا لم يبصر هذا العذاب والنعيم فليس دليلًا على فقدهما في الواقع، كما أنه لا يرى الأرواح ذاتها، ولم يكن ذلك دليلًا على عدمها، وكما لم يعد عدم رؤيته لعقله وفهمه وشعوره وإدراكه ورضاه وغضبه، وسائر انفعالاته دليلًا على فقدان هذه الأمور في أنفسها، ومن ظن عدم إحساس الأمر برهانًا على عدم الأمر نفسه قال: إن هذه غير موجودة لأنها غير محسة، وهذا خلاف إجماع العقلاء[2].

- ليس كل ما لا يُحَسُّ بأحد الحواس غير موجود، فمثلًا الميكروبات لا تُرى إلا بالميكروسكوب، وكذلك النطفة المنوية مملوءة بالحيوانات الحية المتحركة، ونحن لا نحس ذلك ولا نبصره، ويقررون أنها تعذب وتنعم، وتموت وتقتل، وتمشي وتروح وتجيء، ولا نرى من ذلك شيئًا، فلا غرابة في عذاب القبر وإن لم نره[3].

- أن علماء النبات قد حققوا أن للنبات شعورًا بالآلام وبالموت، فما لنا ننكر مثله للأموات أو للأرواح التي انتقلت من دار إلى دار؟! وإن النائم الذاهب في النوم إلى حد الهمود قد يكون في جسمه وفي لحمه ودمه من الحيوانات والأمراض، ما يمزق لحمه، ويمتص دمه، وينخر عظامه، وما قلنا: إن هذا باطل لأننا لا نحسه ولا نراه، وإن النائم أيضًا قد يجد أشد الآلام، ويعاني العذاب الشديد وهو نائم ساكن، ونحن لم نر من ذلك شيئًا، وقد يرى أنه يضرب ويعذب فيقوم فزعًا، وقد يجد في بدنه مواقع الضرب والآلام، وما أنكرنا شيئًا منه؛ لأننا لم نبصره، بل قد يكون الإنسان في أشد العذاب في نفسه وجسمه، وهو جالس أمامنا كأنه ليس به شيء، وكأنه لا يحس شيئًا[4].

- "لنفرض أن الله لم يخلق للإنسان حاسة السمع فلم يسمع مسموعًا، فهل يكون فقداننا للمسموعات دليلًا على عدمها، وعلى أنها غير موجودة؟ اللهم لا. وهل الأصم ينكر وجود الأصوات؟ إن إنكار الأصم للأصوات؛ لأنه لم يسمعها كإنكار هؤلاء عذاب القبر لأنهم لم يحسوه، ولم يروه، أو لنفرض أن النوع الإنساني

1. السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام مناقشتها والرد عليها، د. عماد السيد الشربيني، دار اليقين، مصر، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، (٢/ ٢٩٠) بتصرف.
2. مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مرجع سابق، ص١٦، ١٧.
3. المرجع السابق، ص١٧ بتصرف.
4. السابق، ص١٧، ١٨ بتصرف.

خُلق فاقد الحواس الخمس، فلم يحس شيئًا من الموجودات، لا سمعيًّا، ولا مرئيًّا، ولا مطعومًا، ولا ملموسًا، ولا مشمومًا، فهل تكون هذه الأشياء غير موجودة؛ لأنه لم يحسها بحواسه الخمس؟! وهل يكون فقده لحواسه دليلًا على فقد ما يدرك بها؟! اللهم لا، إذًا لا يكون عدم إحساس هؤلاء لعذاب القبر دليلًا على فقده في الواقع"[1].

وبهذه الأدلة العقلية يتضح أن الإنسان لا يعرف ما في القبور إلا إذا دخلها ـ يعرف هل فيها نعيم أو جحيم ـ وما ورد من السؤال في القبر، والاختلاف للأضلاع، والضغطة للميت، كل ذلك حق يجب الإيمان به، ولو لم يُدفن الإنسان في القبر، ولو نسفته الريح وأكلته السباع والحيتان، فإن الله يجمعه، وينال جسده من العذاب أو من النعيم ما يناله صاحب القبر، يجب أن يفهم هذا كله على مراد الله ومراد رسوله ﷺ من غير غلو ولا تقصير.

- **إمكانية وقوع عذاب القبر ونعيمه حسِّيًّا:**

بعد أن ذكرنا أدلة عقلية على ثبوت فتنة القبر، وأن ذلك لا يتعارض مع قوانين مصداقية العقل البشري القاصر عن إدراك ذاته، فضلًا عن إدراك غيبيات لم يكشف عن علمها وحسها عبقري أو عالم له في عالم المادة يد طولى.

لكن مع ذلك فقد كشف الحس، والواقع المشاهد عن أشياء هي لصاحب العقل المفكِّر دليل على كل غيب ديني له خبر في القرآن أو السنة، وليس له إحساس مادي.

فمثلًا نحن اليوم علمنا من أسرار الكون ما كانت أسماعنا وأبصارنا عاجزة عن سماعه ورؤيته.

- فالموجات الصوتية المنبعثة والمنتشرة في جميع أجواء الأرض لا نراها بأعيننا، ولا نسمعها بآذاننا، ولا نمسها بأيدينا، ولا نتذوقها بألسنتنا، ولا نشمها بأنوفنا، ولا يستطيع كتاب أن يأتي بها، وإنما يستطيع أن يلتقطها جهاز صغير هو (الراديو) ففيه وسيلة استقبال هذه الموجات والتقاطها من الأجواء وترجمتها، وإذا بك تفتحها فتسمع موجة آتية من جدة، فتحولها فتأتي موجة من الرياض، وتحولها فتأتي موجة من أمريكا، ومن لندن، ومن أقصى الأرض، مَنْ التقط هذه الموجات رغم أنك لا تراها وهي موجودة؟! التقطها الراديو.
- والجاذبية الموجودة الآن ـ وهي قانون من قوانين الكون ـ قد جعل الله ﷻ كل ما على الأرض مجذوبًا إليها، وهذه حكمة منه؛ لأنه لو لم يجعل الجاذبية في خصائص الأرض لما أمكن لأحد أن يثبت على هذه الأرض إلا بوثاق، ولكن الله وضع هذا القانون وهو أن كل ما على الأرض يجذب إليها، أين الجاذبية؟ هل نراها بأعيننا؟ هل رأينا حبالها وهي تربط الإنسان وتسحبه؟ هي موجودة لكننا لا نراها، وليس كل ما لا نراه غير موجود.
- والكهرباء الآن تسري في السلك الكهربائي ولا نراها، رغم أن السلك الكهربائي هذا والكهرباء موجودة منذ خلق الله الأرض، لكن ما اكتُشفت إلا على سبيل المصادفة، اخترعها شخص وهو يدير جهازًا عبر تحويله، فإذا به يحس شيئًا في يده، فقوي السلك وخرجت الكهرباء، وطورها الإنسان حتى أصبحت عمادًا من أعمدة الحضارة الحديثة.

فكثير من الأشياء لا يمكن أن نراها، ولا أن نلمسها

---

١. السابق، ص١٨.

بجوارحنا بالرغم من وجودها. فَقِسْ عليه فتنة القبر![1].

ومن الواقع التاريخي المحسوس ذكر لنا الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى قصة العلاء بن الحضرمي وقد جهز الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ جيشًا واستعمله عليه، وكان في الجيش أنس بن مالك، فقاتلوا وانتصروا، ثم أصيب ابن الحضرمي في مقتله، فقال أنس: "فحفرنا له وغسلناه ودفناه، فأتى رجل بعد فراغنا من دفنه، فقال: من هذا؟ فقلنا: هذا خير البشر، هذا ابن الحضرميِّ. فقال: إن هذه الارض تلفظ الموتى، فلو نقلتموه إلى ميل أو ميلين، إلى أرض تقبل الموتى. فقلنا: ما جزاء صاحبنا أن نعرضه للسباع تأكله؟ قال: فاجتمعنا على نبشه، فلما وصلنا إلى اللحد إذا صاحبنا ليس فيه، وإذا اللحد مَدَّ البصر نور يتلألأ. قال: فأعدنا التراب إلى اللحد ثم ارتحلنا"[2].

فإن قيل: لو كان عذاب القبر له أصل لرأى النباش أثر ذلك عليه من الضم والضرب، وكيف يكون ميتان في قبر واحد وأحدهما يُعذب والآخر ينعَّم... إلخ.

نقول: إن الله ﷻ جعل الدُّور ثلاثًا: دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار، وجعل لكل دار أحكامًا تختص بها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان، والأرواح تبعًا لها، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح، وإن أضمرت النفوس خلافه.

وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تبعًا لها، فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا فتألمت بألمها والتذت براحتها، وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب، تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها وعذابها، والأرواح حينئذٍ هي التي تباشر العذاب والنعيم، فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفية، والأبدان كالقبور لها، والأرواح هناك ظاهرة، والأبدان خفية في قبورها، تجري أحكام البرزخ على الأرواح فتسري إلى أبدانها نعيمًا أو عذابًا، كما تجري أحكام الدنيا على الأبدان فتسري إلى أرواحها نعيمًا أو عذابًا، فأحِط بهذا الموضع علمًا، واعرفه كما ينبغي، يُزل عنك كل إشكال يُورد عليك من داخل وخارج.

وقد أرانا الله سبحانه بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك أنموذجًا في الدنيا من حال النائم؛ فإن ما ينعم به أو يعذب في نومه يجري على روحه أصلًا، والبدن تبع له، وقد يقوى حتى يؤثر في البدن تأثيرًا مشاهدًا، فيرى النائم في نومه أنه ضُرب فيصبح وأثر الضرب في جسمه، ويرى أنه قد أكل وشرب فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب في فيه، ويذهب عنه الجوع والظمأ.

وأعجب من ذلك أنك ترى النائم يقوم في نومه ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان، وهو نائم لا شعور له بشيء من ذلك، وذلك أن الحكم لما جرى على الروح استعانت بالبدن من خارجه، ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحس، فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع، فهكذا في البرزخ بل أعظم، فإن تجرد الروح هنالك أكمل وأقوى وهي متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع، فإذا كان يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم

---

١. دروس للشيخ سعيد بن مسفر، الدرس التاسع والعشرين، ص٧ بتصرف.

٢. البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، (٣/ ٦٠٦).

والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهرًا باديًا أصلًا"[1].

إذن هذه الأشياء هي من الغيبيات التي حُجب عنا علمها؛ وبذلك يختبر الله المؤمن من المكذب، وليس لمحض العقل دخل فيها عدا التسليم، بما يدركه العقل، فالله غيب وفوق كل الغيوب، ومع ذلك العقل أقَرَّ بوجوده جل في علاه، وأكبر من مسائل القبر الغيبية قد أثبتها العقل مع إلغاء قوانينه في التصريف بالحواس، إلا ما أحسه فقاس عليه الغيب، كأمر النوم المشابه لأمر الموت!! ثم إن تنعيم الميت أو تعذيبه يحصل له إذا كان مقبورًا أو غير مقبور، "فأكيل السبع، والغريق تأكله دواب البحر، والمحرَّق، والمصلوب، والمعلق، لو كان على ما يُقَدَّر مَنْ يظن أنه لا عذاب إلا في القبر المعهود لما كان لهؤلاء فتنة، ولا عذاب قبر، ولا مساءلة، ونعوذ بالله من هذا، بل كل ميت فلا بد له من فتنة، وسؤال، وبعد ذلك سرور أو نكد إلى يوم القيامة"[2]، ودليل ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال: "كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مُتُّ فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذَرُّوني في الريح، فوالله لئن قَدَر الله عليَّ ليعذِّبني عذابًا ما عَذَّبه أحدًا، فلما مات فُعِلَ به ذلك، فأمر الله الأرض، فقال: اجمعي ما فيك منه، فَفَعَلَتْ، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خَشْيَتُك، فغفر له"[3].

أما عن اتساع قبر الميت مَدَّ البصر، فلا وجه للطعن فيه؛ لأن الأمر ليس واقعًا تحت مدارك الأنظار للأحياء، فهذا عالم برزخي لا يعلم حقيقته إلا الله، فكما يُضَيَّق القبر على المقبور، فإنه يوسَّع أيضًا، ولا مجال للعقل البشري في هذا الشأن إنما هو من خصوصيات الحياة البرزخية كما قدمنا.

ومما سبق يتبين أن عذاب القبر ونعيمه إنما هو خاص بالحياة البرزخية الواقعة تحت الإيمان بالغيب الذي هو أعلى مراتب الإيمان، ومع ذلك فإن العقل يقره ولا ينكره للأدلة والشواهد التي ذكرناها.

الخلاصة:

- إن المسائل الغيبية في ديننا كثيرة، وهي مما يجب الإيمان بها والتسليم بمقتضاها، وذلك أن الإيمان بالغيب من أعلى مراتب الإيمان التي يتصف بها المؤمن التقي.
- لقد جاءت آيات قرآنية عديدة تثبت نعيم القبر وعذابه، وذلك بمعرفة أقوال المفسرين، وتأويلاتهم للآيات القرآنية في إثبات حياة البرزخ حياة مستقلة عن حياة الدنيا والآخرة.
- لا يلزم من حياة المرء في قبره أن يحيا ثلاث مرات ثم يموت ثلاث مرات، وإنما هي حياتان وميتتان، كما قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ (غافر: ١١)، فالإنسان يموت في الدنيا، ثم يحيا في القبر فيُسأل، ثم يموت في القبر ثم يحيا يوم القيامة، وهذه الآية دليل قوي على حياة البرزخ.
- إن قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ (آل عمران: ١٨٥)، لا ينفي أي حساب قبل

---

١. الروح، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ص٦٣، ٦٤.

٢. الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل، ابن حزم الظاهري، مرجع سابق، (٤/ ١١٨).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: رقم (٥٤)، (٦/ ٥٩٤)، رقم (٣٤٨١).

يوم القيامة، لأن التوفية تعني تكميل الأجور لا ابتدائها، فالتكميل يكون يوم القيامة، أما ما يكون في القبر فهو بعضٌ لا كُلٌّ.

- أما التثبت المذكور في قول الحق سبحانه: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ (إبراهيم: ٢٧)، فالمقصود به في الدنيا إذا أتاه الملكان في القبر وسألاه الأسئلة الثلاثة، وأما في الآخرة فيعني به ما يكون يوم القيامة.

- لقد جاءت السنة النبوية بأدلة كثيرة صحيحة صريحة في إثبات عذاب القبر ونعيمه، وهي من المتواتر المجمع على صحته بين المحدثين؛ لأنها مخرَّجة في كتب السنة الصحيحة عن العلماء الأثبات غير المطعون في كتبهم، كالبخاري ومسلم.

- لقد وردت أحاديث صحيحة عن النبي ﷺ ينفي فيها عذاب القبر عن أناس بعينهم، كالغريق والشهيد والمبطون، مما يعطي دلالة واضحة بطريق المخالفة على ثبوت عذاب القبر ونعيمه.

- إن قول الرسول ﷺ: "لا عذاب دون يوم القيامة"، ليس ناسخًا لأحاديث عذاب القبر ونعيمه، بل هو منسوخ بها، فقد جاء في الرواية عن أحمد رحمه الله أن عائشة رضي الله عنها لما أخبرت النبي ﷺ بقول الخادمة اليهودية: "وقاكِ الله عذاب القبر" قال النبي ﷺ لها: "كذبت يهود؛ لا عذاب دون يوم القيامة"، ثم أثبتت الرواية بعد ذلك خروج النبي ﷺ للناس وحثهم على أن يستعيذوا بالله من عذاب القبر... إلخ، فهذا يؤكد نسخ القول الأول، وثبوت عذاب القبر والاستعاذة منه.

- إن ما أخبر به النبي ﷺ من غيب، كعذاب القبر ونعيمه، يجب على العقل التسليم به؛ لأنه لا يسلم في دينه إلا من سلَّم لله ورسوله، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه، وذلك أن ما أخبر به النبي ﷺ من غيب إنما هو مما أوحاه الله إليه، ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) ﴾ (الجن).

- يمكن تشبيه العذاب أو النعيم الواقع على الميت بالنائم الذي يرى أنه يتألم أو يتنعم، فهذا الألم أو النعيم إنما يقع على الروح حقيقة وتتأثر به، وهذا أمر لا ينكره أحد مع أنه غير محسوس، فكيف ينكر ما يكون في القبر؟!

- لقد أورد الحافظ ابن كثير واقعة حقيقية تصلح دليلًا على اتساع القبر للميت، وذلك في قصة العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه لما مات، مما يؤكد أن أمر القبور قد يقع تحت الحس البشري أحيانًا، وهذا يؤكد ثبوت الحياة البرزخية بكل صفاتها، التي ذُكرت في الأحاديث النبوية، من حيث الضم، والضيق والاتساع، والنعيم والعذاب.

- ليس شرطًا في الميت لكي يُعذَّب أو ينعَّم أن يكون مقبورًا بل كل ميت يقع عليه هذا الأمر سواءً كان مقتولًا أو محروقًا أو مصلوبًا أو غريقًا... إلخ، ذلك لما حكاه النبي ﷺ عن قصة الرجل الذي لم يعمل خيرًا قط، ولما اقترب أجله أمر أبناءه أن يحرقوه بعد موته ويذروه في البحر في يوم عاصف فجمعه الله... إلى آخر القصة. مما يدل دلالة واضحة وأكيدة على ثبوت ذلك الأمر ومصداقيته.

- إن الشرع لا يأتي بما تحيله العقول، بل قد يأتي بما

تحار فيه، فيجب التسليم والإذعان، ولا نقحم العقول في غير مجالها؛ وذلك لأن العقول قد تضل كما يقول الإمام فخر الدين الرازي:

نهايةُ إقدامِ العقولِ عِقالُ

وأكثرُ سَعْيِ العالمينَ ضلالُ

الشبهة الثامنة والعشرون

الطعن في حديث "إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه"(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المتوهمين في حديث: "إن الميِّت ليعذب ببكاء أهله عليه"؛ بحجة معارضته لقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الزمر:٧)، واستحالة الجمع بين مدلول الحديث ومدلول الآية، وإنكار طائفة من العلماء - على رأسهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها له؛ فلقد ورَد أنه حين بلغها الحديث ردَّته، وقالت: "حسبكم القرآن"، كما أن الحديث ينهَى عن البكاء على الموتى، وهو أمر يخالف فعل النبي ﷺ حين دمعت عيناه، وكثر بكاؤه على ولده إبراهيم حين مات، حتى قال ﷺ: "إن العين تدمع، والقلب يحزن...".

(*) مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مرجع سابق. تحرير العقل من النقل، سامر إسلامبولي، مرجع سابق. دور السنة في إعادة بناء الأمة، جواد عفانة، مرجع سابق. تحرير علوم الحديث، عبد الله بن يوسف الجديع، مؤسسة الريان، بيروت، ط٣، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م. مختلف الحديث بين الفقهاء والمحدثين، نافذ حسين حماد، دار النوادر، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

وهم يرمون من وراء ذلك إلى تشكيك المسلمين في السنة المطهرة بإيهامهم بوجود تعارض بين القرآن والسنة الصحيحة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لا تعارض بين الحديث والآية؛ فالميت الذي يُعذَّب ببكاء أهله عليه هو من أوصى بأن يناح عليه بعد موته، أو كانت هذه سنته، فيستحق العذاب بموجب ما أوصى به.

٢) إنكار أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - للحديث، وحكمها على الراوي بالتخطئة أو النسيان، أو أنه سمع بعضًا ولم يسمع بعضًا - بعيد؛ لأن الرواة لهذا المعنى من الصحابة كثيرون، وهم جازمون، فلا وجه للنفي مع إمكان حمله على محمل صحيح.

٣) المراد بالبكاء هنا النَّوْح؛ وهو البكاء بصياح وعويل، وهذا منهي عنه، أما دموع العين وحزن القلب فمباح، وعليه فلا وجه للقول بتعارض هذا الحديث مع فعل النبي ﷺ.

التفصيل:

أولا. لا تعارض بين الحديث والآية؛ لأن الحديث محمول على من أوصى بالنواح عليه:

لا يصح الاعتقاد بوجود تعارض بين نصوص القرآن الكريم والسنة الصحيحة؛ نظرًا لوحدة المصدر، فكلاهما من عند الله، كما أنه لا يمكن أن يتعارض كلام رسول الله ﷺ مع كتاب الله أبدًا، وهو المبيِّن عن الله وحيه.

إن التعارض الحقيقي بين القرآن والسنة غير موجود على أرض الواقع؛ إذ لو كان موجودًا، وعجز العلماء

عن الجمع بين الحديث والآية؛ لخرج الناس من دين الله أفواجًا، وما فكّر أحدٌ في الدخول فيه.

وإذا كان العلماء قد جمعوا بين الحديث والآية، وأماطوا لِثام الوهم عن وجه الحقيقة، فإذا هي واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، فإن من الواجب على المشككين والطاعنين في سنة النبي الأكرم ﷺ الإذعانَ والتسليمَ بِصدْق الرسالة، ورد العلم إلى أهله بدلًا من التخبط فيه دون هدى أو بصيرة، مما يؤدي إلى إثارة شكوك المسلمين تجاه سنة النبي ﷺ المعصوم، فلزمهم الرجوع لأهل العلم؛ لمقتضى قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ (النساء:٨٣).

وهذا الاشتباه يرجع تاريخه إلى واقعة خلافيَّة في فهم الحديث بين الصحابة ﷺ، تحديدًا بين عمر بن الخطاب وابنه رضي الله عنهما من جهة، وبين أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من جهة أخرى، فما حقيقة هذه الواقعة؟ وما هي أسباب الخلاف؟

يروي لنا الإمام البخاري في صحيحه هذه القصة في أكثر من حديث في كتاب الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: "يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته" فيروي من طريق ابن جريج عن ابن أبي مليكة قال: "توفيت ابنةٌ لعثمان ﷺ بمكة، وجئنا لنشهدها، وحضرها ابن عمر وابن عباس ﷺ وإني لجالس بينهما - أو قال: جلست إلى أحدهما، ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي فقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لعمرو بن عثمان: ألا تنهى عن البكاء؟ فإن رسول الله ﷺ قال: "إن الميت لَيُعذَّب ببكاء أهله عليه".

- فقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قد كان عمر ﷺ يقول بعض ذلك، ثم حَدَّث قال: صَدَرْتُ مع عمر ﷺ من مكة، حتى إذا كنا بالبيداء إذا هو بركْب تحت ظل سَمُرةٍ، فقال: اذهب فانظر مَنْ هؤلاء الركب. قال: فنظرت فإذا صهيب، فأخبرته، فقال: ادعه لي. فرجعت إلى صهيب فقلت: ارتحل، فالحق بأمير المؤمنين. فلما أصيب عمر دخل صهيب يبكي، يقول: واأخاه، واصاحباه. فقال:عمر ﷺ: يا صهيب أتبكي عليَّ، وقد قال رسول الله ﷺ: إنَّ الميت يعذَّب ببعض بكاء أهله عليه.

- قال ابن عباس: فلما مات عمر ﷺ ذكرتُ ذلك لعائشة رضي الله عنها فقالت: رحم الله عمر! والله ما حدَّث رسول الله ﷺ أن الله لَيُعذِّب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن رسول الله ﷺ قال: إن الله ليزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه، وقالت: حسبكم القرآن: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الزمر: ٧). قال ابن عباس رضي الله عنهما عند ذلك: والله ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ (النجم)، قال ابن أبي مليكة: والله ما قال ابن عمر رضي الله عنهما شيئًا"[1].

ورُوي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "إنما مرَّ رسول الله ﷺ على يهودية يبكي عليها أهلها، فقال: إنهم ليبكون عليها، وإنها لتعذب

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: "يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النَّوح من سنته"، (٣/ ١٨٠، ١٨١)، رقم (١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجنائز، باب: الميت يعذب ببكاء أهله عليه، (٤/ ١٥٢٧)، رقم (٢١١٦، ٢١١٧).

في قبرها"[١].

وروي عن أبي بردة عن أبيه قال: "لما أُصيب عمر رضي الله عنه جعل صهيب يقول: واأخاه. فقال عمر: أَمَا علمت أن النبي ﷺ قال: إن الميِّت ليعذب ببكاء الحي؟"[٢].

هذه الروايات هي ملخص القضية، ومفادها أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بلغها حديث عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما: "إن الميت يعذب..." الحديث. فاستشكل الأمر عليها؛ لمعارضته لظاهر قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الزمر: ٧)، فتأولت الحديث وخصصته، ولم ترده؛ لإقرارها بصدق عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما.

والحق أن الإمام البخاري استطاع أن يحل ما أشكل على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما بوَّب في صحيحه لهذا الحديث في كتاب الجنائز بعنوان "باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النَّوح من سنته"، ثم احتج لذلك فقال: "لقول الله تعالى: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (التحريم: ٦)، وقال النبي ﷺ: "كلكم راع ومسئول عن رعيته". فإذا لم يكن من سنته، فهو كما قالت عائشة رضي الله عنها: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وهو كقوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾ (فاطر: ١٨)، وما يرخص من البكاء من غير نَوْح، وقال النبي ﷺ: "لا تُقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها"؛ وذلك لأنه أوَّل من سن القتل"[٣].

ويبين ابن حجر العسقلاني كلام الإمام البخاري بقوله: "مَنْ كانت طريقته النوح على الميت يكون قد نهج لأهله تلك الطريقة، فيؤاخذ على فعله الأول، وحاصل ما بحثه المصَنِّف في هذه الترجمة أن الشخص لا يعذب بفعل غيره إلا إذا كان له فيه تسبُّب، فمن أثبت تعذيب شخص بفعل غيره فمراده هذا، ومن نفاه فمراده ما إذا لم يكن له فيه تسبب أصلًا، وقد اعترض بعضهم على استدلال البخاري بهذا الحديث؛ لأن ظاهره أن الوزر يختص بالبادئ دون من أتى بعده، فعلى هذا يختص التعذيب بأول من سن النوح على الموتى، والجواب أنه ليس في الحديث ما ينفي الإثم عن غير البادئ، فيستدل على ذلك بدليل آخر، وإنما أراد المصنف بهذا الحديث الرد على من يقول: إنَّ الإنسان لا يعذب إلا بذنب باشره بقوله، أو فعله، فأراد أن يبين أنه قد يعذب بفعل غيره إذا كان له فيه تسبب"[٤].

ثم يقول ابن حجر: "وقد جمع كثير من أهل العلم بين حديثَي عمر وعائشة بضروب من الجمع: أوَّلها: طريقة البخاري كما تقدم توجيهها، ثانيها: وهو أخص من الذي قبله ما إذا أوصى أهله بذلك، وبه قال المزني وإبراهيم الحربي وآخرون من الشافعية وغيرهم، حتى قال أبو الليث السمرقندي: إنَّه قول عامة أهل العلم،

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: "يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه..."، (٣/ ١٨١)، رقم (١٢٨٩).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: "يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه..."، (٣/ ١٨١)، رقم (١٢٩٠).

٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٣/ ١٨٠).

٤. المرجع السابق، (٣/ ١٨٣).

وكذا نقله النووي عن الجمهور قالوا: وكان معروفًا للقدماء حتى قال طرفة بن العبد:

إذا مت فانعيني بما أنا أهله

وشُقِّي عليَّ الجيب يا ابنة معبد

واعترض بأن التعذيب بسبب الوصية يستحق بمجرد صدور الوصية، والحديث دال على أنه إنما يقع عند وقوع الامتثال. والجواب أنه ليس في السياق حصر، فلا يلزم من وقوعه عند الامتثال أن لا يقع إذا لم يمتثلوا مثلًا. ثالثها: يقع ذلك أيضًا لمن أهمل نَهْي أهله عن ذلك، وهو قول داود وطائفة، ولا يخفى أن محله ما إذا لم يتحقق أنه ليست لهم بذلك عادة، ولا ظن أنهم يفعلون ذلك. قال ابن المرابط: إذا علم المرء بما جاء في النهي عن النوح، وعرف أن أهله من شأنهم يفعلون ذلك، ولم يُعْلمهم بتحريمه، ولا زجرهم عن تعاطيه، فإذا عُذِّب على ذلك عذب بفعل نفسه لا بفعل غيره بمجرده"[1].

وفي تأكيد ما ذهب إليه البخاري وغيره يقول الإمام البغوي في شرح السنة: "وفسر المزني هذا الكلام، فقال: بلغني أنهم كانوا يوصون بالبكاء عليهم وبالنياحة، وهي معصية، ومَنْ أمر بها فَعُمِلَت بعده كانت له ذنبًا، فيجوز أن يزاد بذنبه عذابًا، كما قال الشافعي، لا بذنب غيره.

قال رحمه الله: ويمكن تصحيح رواية عمر على هذا التأويل، وقد ذكره بعض أهل العلم، وذلك أنهم كانوا يوصون أهليهم بالبكاء عليهم والنوح، وذلك موجود في أشعارهم، قال قائلهم:

إذا مت فانعيني بما أنا أهله

وشُقِّي عليَّ الجيب يا ابنة معبد

فالميت تلزمه العقوبة لبكاء أهله بما تقدم من أمره ووصيته في حياته، وكذلك إذا كان النوح من سنته، أو كان يفعله أهله، فلا ينهاهم عنه، فيعاقب بعد موته بها؛ إذ كان عليه كَفُّهم عنه، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ (التحريم: ٦)... قال ابن المبارك: أرجو إن كان ينهاهم في حياته أن لا يكون عليه من ذلك شيء"[2].

وإضافة لما سبق بيانه يقول الإمام محمد بن إبراهيم الوزير اليماني: "من تأوَّل ذلك - يعني الحديث - بالوصية ونحوها؛ منهم البخاري في "الصحيح"، والخطابي، وحكاه عنه ابن الأثير في "شرح غريب حرف الميم"، والنواوي في "رياض الصالحين"، وفي "الروضة" ذكره في كتاب الجنائز منها، وقال في "شرح مسلم" في كتاب الجنائز منه: إنه قول الجمهور، وإنه الصحيح. قال: وقالوا: فأما من بكى عليه أهله من غير وصية منه فلا يعذب؛ لقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾"[3].

وليس هذا القول (أي: قول الجمهور والإمام البخاري) هو القول الأوحد في الجمع بين الحديث والآية، لكنه القول الراجح عند معظم العلماء إلا الإمام ابن القيم الذي اختار رأي شيخه - شيخ الإسلام الإمام

---

١. السابق، ص١٨٤.

٢. شرح السنة، البغوي، مرجع سابق، (٥/ ٤٤٢، ٤٤٣).

٣. العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير اليماني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، (٣/ ١٨٧، ١٨٨).

ابن تيمية - الذي حمل الحديث على ما يتألم به الميت، ويتعذب به من بكاء الحي عليه.

قال ابن القيم: "إن المراد بالحديث: ما يتألم به الميت ويتعذب به من بكاء الحي عليه، وليس المراد: أن الله تعالى يعاقبه ببكاء الحي عليه، فإن التعذيب هو من جنس الألم الذي يناله بمن يجاوره مما يتأذى به ونحوه. وقال النبي ﷺ: "السفر قطعة من العذاب"[1]، وليس هذا عقابًا على ذنب، وإنما هو تعذيب وتألم، فإذا وُبِّخ الميت على ما يناح به عليه لحقه من ذلك تألم وتعذيب"[2].

وهذا القول ليس قول ابن تيمية رحمه الله وحده، إنما هو قول محمد بن إبراهيم حجر وغيره، وإليه ذهب القاضي عياض، قال ابن الوزير اليماني: "وقالت طائفة: إنه يعذب بسماعه لبكاء أهله؛ لأنه يَرِقُّ لهم. وإلى هذا ذهب محمد بن جرير وغيره، وقال القاضي عياض: وهو أولى الأقوال"[3].

والحق أن الراجح هو ما قررناه مسبقًا، وهو أولى الأقوال. أما قول شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن جرير الطبري وغيرهما، والذي انتصر له القاضي عياض، ورجَّحه ابن القيم فقول مرجوح لعدة أسباب، أهمها أن هذا الفهم ليس فهم عمر بن الخطاب ولا فهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما للحديث، وهما أشهر رواته، بل المنقول عنهما يفيد وقوع العذاب لا التوبيخ على الميت، وقولهما حجة يدفع أي قول معارض؛ لأن الراوي أدرى بمرويه.

السبب الثاني: أن معنى الألم النفسي أو العذاب الذاتي تأثرًا بحالة الألم عند الآخر معنى ضعيف وغير معقول؛ لأن فعل "يعذب" في الحديث مبني لما لم يسمَّ فاعله، وهذا يفيد وقوع العذاب على الميت (المعذَّب) من قبل غيره.

والسبب الأخير هو ما صح من أحاديث النبي ﷺ التي تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك وقوع العذاب على الميت من قبل الملائكة؛ بسبب بكاء الحي عليه، منها ما روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الميت يعذب ببكاء الحي إذا قالوا: واعضداه! واكاسياه! واناصراه! واجبلاه! ونحو هذا يُتَعْتَعُ ويقال: أنت كذلك؟! أنت كذلك"[4]؟!

ويُتَعْتَعُ، من تعتعت الدابة في الرمل: إذا ساخت فيه وارتطمت، وتعتع فلان في كلامه: تردد في عِيٍّ[5].

وعليه فإن الميت يتعتع؛ أي: يسيخ في الرمل حتى يرتطم ويتردد في كلامه، والميت - في الحقيقة - لا يتتعتع من تلقاء نفسه، إنما يقع ذلك من قبل غيره؛ لأن الفعل مبني لما لم يسمَّ فاعله، فأي تعذيب يقع على الميت حتى

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العمرة، باب: السفر قطعة من العذاب، (٣/ ٧٢٨)، رقم (١٨٠٤). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: السفر قطعة من العذاب واستحباب تعجيل المسافر إلى أهله... (٧/ ٢٩٩٥)، رقم (٤٨٧٨).

٢. عون المعبود شرح سنن أبي داود مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية، شمس الحق العظيم آبادي، مرجع سابق، (٨/ ٢٨٠).

٣. العواصم والقواصم، ابن الوزير اليماني، مرجع سابق، (٣/ ١٨٨).

٤. حسن: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في أن الميت يعذب بما نيح عليه، (١/ ٥٠٨)، رقم (١٥٩٤). وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (١٥٩٤).

٥. المعجم الوسيط، مادة: "تعتع".

يتتعتع ومن يقوم بذلك؟

يجيب عن هذا السؤال ما رواه موسى ابن أبي موسى الأشعري أخبره عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: "ما من ميت يموت فيقوم باكيهم فيقول: واجبلاه! واسيِّداه! أو نحو ذلك، إلا وكل به ملكان يلهزانه: أهكذا كنت[1]؟!

فيلهزانه من اللهز: وهو الضرب بجُمع الكفِّ، يقال: لهز فلان فلانًا أي: ضربه بجُمْعِ كفه في رقبته ولهازمه[2].

إن هذه الرواية توضح وتجيب عمَّا سألناه مسبقًا، وبالجمع بينها وبين الرواية السابقة تتضح معالم وأبعاد الصورة؛ لنرى أن الميت يعذب ببكاء الحي ونواحه عليه؛ حيث يعذبه ملكان من الملائكة يضربانه بجمع كفيهما في رقبته ولهازمه، فيسيخ في الرمل كما تسيخ الدابة حتى يرتطم، ويقولان له: أهكذا كنت؟

هذه هي الصورة التي يرسمها الحديث بوضوح، وكلا الحديثين حسن صحيح، يقويهما ما روي في صحيح الإمام البخاري رحمه الله من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: "أغمي على عبد الله بن رواحة، فجعلت أخته عمرة تبكي: واجبلاه، واكذا واكذا، تُعَدِّد عليه، فقال حين أفاق: ما قلتِ شيئًا إلا قيل لي: آنت كذلك"[3]؟

وعن النعمان بن بشير أيضًا قال: "أُغمي على عبد الله بن رواحة... بهذا. فلما مات لم تبكِ عليه"[4].

ونخرج من هذا إلى أن الميت يقع عليه عذاب من قبل الملائكة؛ لبكاء أهله ونواحهم عليه كما قال الجمهور، وكما قال البخاري، وكما فهم الصحابة ورواة الحديث، وعلى رأسهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله رضي الله عنهما.

وبما سبق تتضح صحة ما رجحناه، يستوي في ذلك قول البخاري أو قول الجمهور، فكلاهما قريب من الآخر، إلا أن الإمام ابن القيم يرد كلا القولين ويضعفهما بحجة:

- أن لفظ الحديث عام، والجمهور والبخاري خصصا الحديث.
- أن عمر والصحابة رضي الله عنهم فهموا منه حصول ذلك، وإن لم يوص به، فكيف يتم تقييده بالوصية[5]؟

وقول الإمام ابن القيم فيه نظر، وهو مردود؛ لأن العرب كانوا يوصون ويتواصون بذلك، يعني ذلك أن النواح على الميت كان عادة وتبعة عند العرب، ويشهد لذلك قول طرفة بن العبد:

إذا مت فانعيني بما أنا أهله

وشُقِّي عليَّ الجيب يا ابنة معبد

"قال الخطابي: يشبه أن يكون هذا من حيث أن العرب كانوا يوصون أهاليهم بالبكاء والنوح عليهم،

1. حسن: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: الجنائز، باب: كراهيته البكاء على الميت، (٤/ ٧٢)، رقم (١٠٠٨). وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (١٠٠٣).
2. المعجم الوسيط، مادة: لهز.
3. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المغازي، باب: غزوة مؤتة من أرض الشام، (٧/ ٥٨٩)، رقم (٤٢٦٧).
4. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المغازي، باب: غزوة مؤتة من أرض الشام، (٧/ ٥٨٩)، رقم (٤٢٦٨).
5. انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية، شمس الحق العظيم آبادي، مرجع سابق، (٨/ ٢٧٩).

وإشاعة النعي في الأحياء، وكان ذلك مشهورًا في مذاهبهم، وموجودًا في أشعارهم كثيرًا. قال: تلزمه العقوبة في ذلك بما تقدم من أمره إليهم وقت حياته"[١]. وعليه قال الجمهور: "فخرج الحديث مطلقًا حملًا على ما كان معتادًا لهم"[٢].

ويقول الإمام ابن حجر العسقلاني: "الحديث وإن كان دالًّا على تعذيب كل ميت بكل بكاء، لكن دلت أدلة أخرى على تخصيص ذلك ببعض البكاء... وتقييد ذلك بمن كانت تلك سنته، أو أهمل النهي عن ذلك، فالمعنى على هذا أن الذي يعذب ببعض بكاء أهله من كان راضيًا بذلك بأن تكون تلك طريقته... إلخ، ولذلك قال المصنف: (فإذا لم يكن من سنته)؛ أي كمن كان لا شعور عنده بأنهم يفعلون شيئًا من ذلك، أو أدَّى ما عليه بأن نهاهم - فهذا لا مؤاخذة عليه بفعل غيره، ومن ثمَّ قال ابن المبارك: إذا كان ينهاهم في حياته ففعلوا شيئًا من ذلك بعد وفاته لم يكن عليه شيء"[٣].

وعليه "فمن كانت طريقته النوح فمشى أهله على طريقته، أو بالغ فأوصاهم بذلك عُذِّب بصنعه، ومن كان ظالمًا فندب بأفعاله الجائرة عذِّب بما ندب به، ومن كان يعرف من أهله النياحة فأهمل نهيهم عنها، فإن كان راضيًا بذلك التحق بالأول، وإن كان غير راض عذِّب بالتوبيخ، كيف أهمل النهي"[٤]؟

وبذلك نكون قد جمعنا بين الحديث والآية دون أن تشوب هذا الجمع شائبة، أو تُثار حوله شبهة أخرى، فما من شك لدينا الآن - وقد قدمنا البراهين والأدلة - أن النياحة على الميت كانت عادة جاهلية عربية، سادت أقطار الجزيرة العربية، وظلت قائمة حتى بعد بعثة النبي ﷺ، وستستمر حتى قيام الساعة، يقول النبي ﷺ: "أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة"[٥].

من أجل ذلك جاء حديث النبي ﷺ على العموم؛ لأنها عادة للعرب مشهورة يتواصون بها، ولما تغيرت الحال حين تقلصت هذه العادة إلى حد بعيد؛ بسبب انتشار آداب الإسلام وأخلاقه، وأصبح حكم الحديث مختصًّا بفئة قليلة كان لا بد من تخصيص للحديث، وإنا لنشهد بالبراعة للإمام البخاري حين بوَّب الحديث في جامعه الصحيح في كتاب الجنائز بقوله: باب: قوله ﷺ: "يعذب الميت ببعض بكاء أهله إذا كان ذلك من سنته"، ثم قوله بعد التبويب: فإذا لم يكن من سنته فهو كما قالت عائشة: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾. وبذلك نكون قد جمعنا بين الحديث والآية وفق ما قاله وأقره جمهور علماء الأمة، ونكون قد أجبنا على من يثير هذه الشبهة وغيرها من الطاعنين في سنة النبي الكريم ﷺ.

ثانيًا. إنكار أم المؤمنين عائشة للحديث، وحكمها على الراوي بالتخطئة أو النسيان أو أنه سمع بعضًا ولم يسمع بعضًا - رأي بعيدٌ:

إن إنكار أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها للحديث

---

١. العواصم والقواصم، ابن الوزير اليماني، مرجع سابق، (٣/ ١٨٨).

٢. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٤/ ١٥٣٣).

٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٣/ ١٨٢).

٤. المرجع السابق، (٣/ ١٨٥).

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجنائز، باب: التشديد في النياحة، (٤/ ١٥٢٩)، رقم (٢١٢٥).

كان نتيجة لعدم استطاعتها الجمع بين الحديث والآية، وهو ما أدى إلى استشكال الأمر عليها؛ لذا نسبت ابن عمر رضي الله عنهما إلى التخطئة والنسيان؛ لجواز ذلك عليه.

ولقد ردت أم المؤمنين رضي الله عنها الحديث؛ لظنها مخالفته لقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الزمر:٧)، "وإن كان هذا التعارض الذي ذكرته عائشة لا يقوى على ردِّ الحديث"[1]، إلا أن أم المؤمنين ردَّت الحديث، وتأولته على الكافرين لا على المؤمنين.

بداية نريد أن نجيب عن رأي أم المؤمنين ومَنْ تابع قولها بما قاله الحافظ ابن قيم الجوزية: "إن المعارضة التي ظنتها أم المؤمنين رضي الله عنها بين روايتهم وبين قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ غير لازمة أصلًا، ولو كانت لازمة لزم في روايتها أيضًا: أن الكافر يزيده الله ببكاء أهله عذابًا، فإن الله سبحانه لا يعذب أحدًا بذنبِ غيره الذي لا تَسَبُّب له فيه. فما تجيب به أم المؤمنين من قصة الكافر يجيب به أبناؤها عن الحديث الذي استدركته عليهم"[2].

لقد أصابت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في أكثر من موضع في التعليق على بعض الأحاديث؛ لأنها كانت معها زيادة علم، أما في هذه القصة فيقرر كبار أهل العلم أنها تأولت الحديث؛ لذا لن يجد من يوافقها الرأي؛ يرد به ردًّا على كلام الإمام ابن القيم رحمه الله الذي عرضناه آنفًا.

يقول عمار بن ياسر ﷺ ـ وكان من أنصار عليٍّ ﷺ ـ فيما رواه الإمام البخاري من طريق أبي مريم عبد الله بن زياد الأسدي، قال: "لما سار طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة، بعث عليٌّ عمار بن ياسر وحسن بن علي، فقدما علينا الكوفة، فصعدا المنبر، فكان الحسن بن علي فوق المنبر في أعلاه، وقام عمار أسفل من الحسن، فاجتمعنا إليه، فسمعت عمارًا يقول: إن عائشة قد سارت إلى البصرة، والله إنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم؛ ليعلم إياه تطيعون أم هي"[3].

لذا يجب أن نوافق أم المؤمنين رضي الله عنها متى كانت على الحق، كما يسوغ لنا أن نخالفها إذا اجتهدت فأخطأت، فلها أجر الاجتهاد، ولا يجب علينا متابعتها فيما أخطأت فيه؛ وذلك لأنها بشر تصيب وتخطئ، ولأننا مأمورون باتباع الحق حيثما ذهب، والحق لا يُعرف بنسبته إلى أحد، فالحق لا يعرف بالرجال، وإنما يعرف الرجال بالحق، وإن ما استُشْكِلَ من الحديث على أم المؤمنين رضي الله عنها، والذي قالت على إثره ما قالت، فقد أثبتنا في الوجه السابق صحته، وقمنا بالجمع بينه وبين الآية، لكن ما يتبقى أمامنا هو قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهل هو مسند إلى النبي ﷺ أو هو اجتهاد منها؟ ربما "كان ذلك من السيدة عائشة رضي الله عنها... محاولة للتوفيق بين الكتاب والسنة، وتكون هي لا تقصد الجزم بقولها: "إنما قال رسول الله كذا" بل تعني أن خبر ابن عمر لا يُقبل لمعارضته صريح القرآن، وأن ابن عمر لعله فهم خطأ، فروى بالمعنى،

---

١. أصول منهج النقد عند أهل الحديث، عصام أحمد البشير، مؤسسة الريان، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص٥٣.

٢. عون المعبود شرح سنن أبي داود مع شرح الحافظ ابن القيم، شمس الحق العظيم آبادي، مرجع سابق، (٨/ ٢٧٩).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الفتن، باب: الفتنة التي تموج موج البحر، (١٣/ ٥٨)، رقم (٧١٠٠).

ولعل رسول الله قال كذا، فتورد عائشة عدة احتمالات للصيغة الصحيحة لحديث النبي ﷺ بالاجتهاد"[١].

ففي رواية قالت: "إنما مر النبي ﷺ على قبر، فقال: إن صاحب القبر يعذب وإن أهله يبكون عليه، ثم قرأت: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الزمر:٧)"[٢].

وفي رواية خصتها بالكافر، قالت: "أما والله ما تحدثون هذا الحديث عن كاذبين مكذبين ولكن السمع يخطئ، ولكن رسول الله ﷺ قال: "إن الله ليزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه"[٣].

"لاحظ أن عائشة في هذه الرواية وافقت ابن عمر على التعليل، ولكنها خصت ذلك بالكافر، بينما في الرواية السابقة قالت: إنه يعذب بخطيئته وذنبه.

وفي رواية تخص ذلك أكثر بامرأة يهودية، قالت: "يغفر الله لأبي عبد الرحمن، أما إنه لم يكذب، ولكنه نسي أو أخطأ، إنما مر رسول الله ﷺ بيهودية يبكي عليها أهلها، فقال: "إنهم ليبكون عليها، وإنها لتعذب في قبرها"[٤].

كل ذلك يجعل الأمر محتملًا بين اختلاف الرواة واختلاف عائشة في إيرادها عدة احتمالات لتوجيه الحديث"[٥].

وبناءً على ما سبق يمكننا القول بأن ما ورد عن أم المؤمنين في المسألة كان اجتهادًا منها، يقوِّي ذلك تعدد التأويلات التي حملت عليها الحديث، والتي لا يمكن جمعها هي والآية معًا، فعلى أي وجه بُنِيَ استنكار أم المؤمنين للفظ الحديث كما رواه ابن عمر؟!

ومما يقوي ما أثبتناه قول الإمام الشافعي: "ولا حجة بتوهين الحديث إذا ذهبوا إلى أنه يخالف ظاهر القرآن وعمومه إذا احتمل القرآن أن يكون خاصًّا"[٦].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "والأحاديث الصريحة التي يرويها مثل عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وأبي موسى الأشعري وغيرهم لا ترد بمثل هذا. وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لها مثل هذا نظائر ترد الحديث بنوع من التأويل لاعتقادها بطلان معناه، ولا يكون الأمر كذلك، ومن تدبر هذا الباب وجد هذا الحديث الصحيح الصريح يرويه الثقة، لا يردُّه أحد بمثل هذا إلا إذا كان مخطئًا"[٧].

"نستطيع أن نؤيد عائشة رضي الله عنها في قولها: إن ابن عمر أخطأ أو نسي في روايته لهذا الحديث لو أنه انفرد بروايته، ولكنه لم ينفرد"[٨].

"الحق أن ابن عمر رضي الله عنهما لم يخطئ ولم ينس، بل حفظ شيئًا لم تحفظه عائشة، ولم ينفرد بهذا الحديث،

---

١. منهج الصحابة في الترجيح، محمود عبد العزيز محمد، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٤٣.

٢. صحيح: أخرجه النسائي في سننه، كتاب: الجنائز، باب: النياحة على الميت، (١/ ٣٠٧)، رقم (١٨٦٦). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (١٨٥٥).

٣. صحيح: أخرجه النسائي في سننه، كتاب: الجنائز، باب: النياحة على الميت، (١/ ٣٠٧)، رقم (١٨٦٨). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (١٨٥٨).

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجنائز، باب: الميت يعذب ببكاء أهله عليه، (٤/ ١٥٢٩)، رقم (٢١٢٢).

٥. منهج الصحابة في الترجيح، محمود عبد العزيز محمد، مرجع سابق، ص١٤٤.

٦. اختلاف الحديث، الشافعي، دار الفكر، بيروت، ط١، ص٣٧.

٧. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، (٢٤/ ٣٧١).

٨. التعارض في الحديث، د. لطفي الزغير، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م، ص٥٢.

بل رواه جماعة من الصحابة غيره فيهم عمر بن الخطاب... ورواه عن عمر، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وأنس بألفاظ متقاربة"[1].

وروي أيضًا عن عمران بن حصين ﷺ كما روي عن المغيرة بن شعبة ﷺ في الصحيحين بلفظ قريب.

لذلك قال العلامة ابن القيم رحمه الله عن هذا الحديث: "هذا أحد الأحاديث التي ردَّتها عائشة واستدركتها ووهَّمت فيه ابن عمر، والصواب مع ابن عمر، فإنه حفظه ولم يتهم فيه، وقد رواه عن النبي ﷺ أبوه عمر بن الخطاب، وهو في الصحيحين، وقد وافقه من حضره من جماعة الصحابة"[2].

يقول الإمام القرطبي: "نزعت عائشة رضي الله عنها بهذه الآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الزمر:٧) في الرد على ابن عمر حيث قال: "إن الميت ليعذب ببكاء أهله".

وقال علماؤنا: وإنما حملها على ذلك أنها لم تسمعه، وأنه معارض للآية، ولا وجه لإنكارها، فإن الرواة لهذا المعنى كثير، كعمر وابنه عبد الله، والمغيرة بن شعبة، وقيلة بنت مخرمة، وهم جازمون بالرواية، فلا وجه لتخطئتهم، ولا معارضة بين الآية والحديث؛ فإن الحديث محمول على ما إذا كان النوح من وصية الميت وسنته"[3].

١. جامع الأصول، ابن الأثير، (١١/ ٩١: ٩٩)، نقلًا عن: جناية الشيخ محمد الغزالي على الحديث وأهله، أشرف عبد المقصود بن عبد الرحيم، مكتبة الإمام البخاري، مصر، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص١٢٨.

٢. عون المعبود شرح سنن أبي داود مع شرح الحافظ ابن القيم، شمس الحق العظيم آبادي، مرجع سابق، (٨/ ٢٧٧).

٣. الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبي، مرجع سابق، (١٠/ ٢٣١).

ومما سبق يتبين لنا أن الأسباب التي ردَّت من أجلها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الحديث غير معتبرة وغير صحيحة؛ منها أن السبب الذي بَنَت عليه بطلان رواية ابن عمر وأبيه عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يلزم بطلان روايتها أيضًا، ومنها أن الخطأ والنسيان الذي تصورته في رواة الحديث الذي أنكرته لم يقع؛ لأن عمر وابنه لم ينفردا برواية الحديث، بل رواه جماعة من الصحابة جازمين به، فكيف ننسبهم جميعًا إلى النسيان والخطأ. أضف إلى ذلك أن أحاديث الثقات لا ترد لمجرد تأويل متأوِّل كائنًا من كان[4].

نخلص من ذلك إلى أن أم المؤمنين استشكلت الحديث ولم تستطع الجمع بينه وبين الآية، فاجتهدت فأخطأت، ونحن نحمل قسمها على غلبة الظن، ولذلك نظائر عند الصحابة[5].

كما نؤكد أن عددًا من الصحابة غير قليل روى هذا الحديث عن النبي ﷺ وهم جازمون على معناه، فلا وجه للاعتراض.

ثالثًا. المقصود من البكاء في الحديث، هو النواح وهو مَنْهِيٌّ عنه:

يستشهد بعض ضعفاء العقل بهذا الحديث على حرمة البكاء عامة بهدف إسقاط الحديث، متجاهلين أن القرآن أُنزل بلسان عربي وفق قوانينهم ورؤاهم البلاغية، والعرب تعبر عن عموم الشيء وتريد جزأه على طريقة المجاز المرسل؛ لذا تجد أن الله سبحانه يقول

٤. انظر: جناية الشيخ الغزالي، أشرف عبد المقصود، مرجع سابق، ص١٣٥.

٥. انظر: منهج الصحابة في الترجيح، محمود عبد العزيز محمد، مرجع سابق، ص١٤٠ وما بعدها.

عن قوم نوح: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ (نوح).

والله يخاطب العربي بكتابه الخاتم، ويقرر عربية القرآن في غير ما موضع؛ منها قوله ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (يوسف).

إن من غير المعقول أن يضع الرجل أصابعه كلها في أذنه، لكن الله سبحانه عبَّر بالكل وأراد الجزء، عبر بالأصابع وأراد الإصبع، كما أطلق النبي ﷺ البكاء، وأراد النواح، ودلت على ذلك قرائن عدة من طرق الأحاديث وألفاظها كما ذكرنا؛ ولأن كلام الله سبحانه وتعالى وكلام نبيه ﷺ يجري وفق طرائق البلاغة العربية، لم نجد من الأوائل من يقول: إن البكاء هنا ليس النواح، ولكن هذا ظهر بعد فساد السليقة العربية، وانتشار الجهل والعجمة.

من أجل ذلك وضع بعض أئمة الحديث الكبار هذا الحديث "إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه "تحت باب النواح، فقد بوَّب له النووي في "رياض الصالحين" بقوله: "باب جواز البكاء على الميت بغير ندب ولا نياحة"[1].

ويبوب له الإمام أبو داود في سننه بقوله: "باب في النوح"[2].

ومما يؤكد ذلك ما رواه البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "من نيح عليه يعذب بما نيح عليه"[3].

ومما يؤكد حمل البكاء في الحديث على هذا المعنى (النواح) ما رواه أيضًا الإمامان البخاري ومسلم عن النبي ﷺ: "... إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه أو يرحم"[4].

لذا نهى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أم المؤمنين حفصة بنت عمر حين عوَّلت عليه، فقال: "يا حفصة، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: المعوَّل عليه يعذب"[5].

وبعد هذا لم يبق إلا أن ننقل لك رأي جمهور علماء الإسلام الذي نقله الإمام النووي في المسألة: "وأجمعوا كلهم - على اختلاف مذاهبهم - على أن المراد بالبكاء هنا (أي: في الحديث) البكاء بصوت ونياحة، لا مجرد دمع العين"[6].

ويؤكد الإمام ابن قدامة ما ذهبنا إليه بقوله: "لا بد من حمل البكاء في هذه الأحاديث على البكاء غير المشروع، وهو الذي معه ندب ونياحة"[7].

---

١. رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، النووي، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٢٤٦.

٢. عون المعبود شرح سنن أبي داود، شمس الحق العظيم آبادي، مرجع سابق، (٨/ ٢٧٧).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: ما يكره من النياحة على الميت، (٣/ ١٩١)، رقم (١٢٩١). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجنائز، باب: الميت يعذب ببكاء أهله عليه، (٤/ ١٥٢٥)، رقم (٢١٠٨).

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: البكاء عند المريض، (٣/ ٢٠٩)، رقم (١٣٠٤). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجنائز، باب: البكاء على الميت، (٤/ ١٥٢٤)، رقم (٢١٠٢).

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجنائز، باب: الميت يعذب ببكاء أهله عليه، (٤/ ١٥٢٦)، رقم (٢١١٢).

٦. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٤/ ١٥٣٤).

٧. المغني، ابن قدامة، مرجع سابق، (٣/ ٤٩٥).

أما البكاء على الميت قبل الدفن وبعده، بلا رفع صوت، أو قول قبيح، أو ندب، أو نواح فهو جائز باتفاق علماء الأمة[1].

قال الخرقي رحمه الله: والبكاء غير مكروه إذا لم يكن معه ندب ولا نياحة، يدل على ذلك ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أنس ﷺ قال: "شهدنا بنت رسول الله ﷺ، ورسول الله جالس على القبر فرأيت عينيه تدمعان..."[2].

وروى البخاري أيضًا من طريق أسامة بن زيد ﷺ قال: "أرسلَت ابنةُ النبي ﷺ إليه: إنَّ ابنًا لي قُبِضَ، فَأْتنا، فأَرسل يُقْرِئُ السلام، ويقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكلٌّ عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت، ورجال، فرُفع إلى رسول الله ﷺ الصبيُّ ونفسه تَتَقَعْقَعُ[3]، قال: حسبته أنه قال: كأنها شنٌّ[4]، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء"[5].

وروى البخاري أيضًا عن أنس بن مالك ﷺ قال:

"دخلنا مع رسول الله ﷺ علي أبي سيفٍ القين - وكان ظئرًا[6] لإبراهيم عليه السلام (ابن النبي ﷺ) - فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشَمَّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك - وإبراهيم يجود بنفسه - فجعلَتْ عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف ﷺ: وأنت يا رسول الله؟ فقال: يا ابن عوف إنها رحمة. ثم أتبعها بأخرى فقال ﷺ: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يَرضى رَبُّنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون"[7].

واشتكى سعد بن عبادة شكوى له؛ فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود ﷺ فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله، فقال: "قد قضى. قالوا: لا يا رسول الله، فبكى النبي ﷺ فلما رأى القوم بكاء النبي ﷺ بكوا، فقال: ألا تسمعون، إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم"[8].

فنأخذ من هذه الأحاديث دلالة صريحة على جواز البكاء على الميت دون صوت أو نواح.

وبعد كل هذا أعتقد أننا لسنا في حاجة لأدلة جديدة، فالنبي ﷺ عبر بالبكاء وأراد منه النواح؛ لذا روى البخاري الحديث بلفظ: "ببعض بكاء أهله"، وبه بوب الباب في كتابه "الجامع الصحيح" فعبَّر النبي ﷺ

---

١. المرجع السابق، (٣/ ٤٨٧).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: من يدخل قبر المرأة، (٣/ ٢٤٨)، رقم (١٣٤٢).

٣. قعقع الشيءُ: أحدث صوتًا عند التحريك، وتقعقع: تحرَّك واضطرب.

٤. الشَّنُّ: القِرْبَةُ الخَلَقَة اليابسة.

٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: "يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه..."، (٣/ ١٨٠)، رقم (١٢٨٤).

٦. الظئر: المُرضع، وأطلق هنا على أبي سيف؛ لأنه كان زوج المرضعة.

٧. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ "إنا بك لمحزونون"، (٣/ ٢٠٦)، رقم (١٣٠٣).

٨. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: البكاء عند المريض، (٣/ ٢٠٦)، رقم (١٣٠٤).

بالبكاء إذن وأراد النواح؛ لأنـه يخاطـب العـرب وفـق بلاغتهم التي لم تشبها عجمة، ففهموا منه ما أراد، ومـا وجدنا أحدًا ـ لا من الـصحابة، ولا مـن التـابعين، ولا من العلماء ـ اعترض على هذا الفهـم وفـق مـا تقتـضيه البلاغة من حمل الكل على الجزء، زد على ذلك أنه لم يقل أحد منذ عصر الصحابة إلى اليوم: إن البكاء على الميـت محرم بموجب هذا الحديث، وإنه ليحق لنـا أن نتـسائل في النهاية ونقول: هل يوجد مانع لغوي من حمل البكاء في الحديث على النواح وهو جزء منه؟!

الخلاصة:

- إن حديث تعذيب الميت ببكاء أهله عليه محمول على من أوصى بالنواح عليه، أو كان ذلك من سـنته، أو من سنة أهله، وعلم به، ولم ينههم عنه؛ لذا فلا تعارض بينه وبين الآية.
- الحديث يدل على وقوع العذاب من قبل الملائكة على الميت؛ لبكاء أهله عليه إذا كان ذلـك مـن سـنته أو وصيته.
- لقد خرج الحديث مطلقًا حملًا على ما كان معتادًا عند العرب، وخصص بمن أوصى؛ لاخـتلاف العـصر ومغايرة الواقع، ولما كان معتادًا عند العرب، وفي بدايـة الإسلام.
- إن المعارضة التي ظنتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بين رواية الصحابة والآية غـير لازمـة أصـلًا، ولو كانت لازمة للزم في روايتها أيضًا أن الكافر يزيـده الله عذابًا ببكاء أهله.
- ما ورد عـن أم المـؤمنين رضي الله عنهـا في الـرد على الحديث كان اجتهادًا منها، وما ورد عنها من قَـسَمٍ محمول على غلبة الظن عندها.
- لم ينفرد برواية الحديث عمر بن الخطـاب وابنـه عبـد الله رضي الله عـنهما، ولكــن رواه مجموعـة مــن الصحابة، وهم جازمون على معناه.
- إن القول بحرمة البكاء لم يقل به أحد مـن رواة الحديث، ولا من علمائه، ولا من شراحه، بل حمل أهـل العلم البكاء في الحديث على النواح.
- للحديث روايات أخرى بلفظ "النواح" ـ كما في رواية المغيرة بن شعبة ﷺ ـ تثبت أن المقصود بالبكاء في الحديث النواح، لا البكاء عمومًا.
- لم يحرِّم النبي ﷺ البكاء، وإنما حرَّم النواح، أمـا تحريم البكاء فلم يرد عنه ﷺ، ولم يقل به أحد.

الشبهة التاسعة والعشرون

إنكار أحاديث سماع الموتى لكلام النبي ﷺ(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغرضين الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في سماع الموتى لكلامه ﷺ، ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عـنهما أنه قال: اطلـع النبـي ﷺ عـلى أهـل القليـب[٢] فقـال: "وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا، فقيل له: تدعو أمواتًا؟ فقال: ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون".

(*) دور السنة في إعادة بناء الأمة، جواد عفانة، مرجع سابق.
١. القليب: البئر التي لم تبن جوانبها بالحجارة.
٢. القليب: البئر التي لم تبن جوانبها بالحجارة.

ويزعمون أن هذا كلام باطل لا يصح، وهو أشبه بالخرافات، ويستدلون على بطلان هذا الحديث بأنه من المعلوم بداهةً أن السمع والبصر والنطق من صفات الأحياء وليس الأموات، وليس أحدهما كالآخر. كما أن الحديث يعارض ما جاء به القرآن الكريم، وذلك في قوله ﷻ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ (فاطر). ومثله أيضًا قوله ﷻ: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (النمل).

رامين من وراء ذلك إلى الطعن والتشكيك في السنة النبوية.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن المقصود بنفي السماع في قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ (فاطر)، وقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (النمل:٨٠)، هو سماع الكفار الذين ختم الله على قلوبهم، فلا يسمعون الحق سماع اهتداء وانتفاع، وهذا لا يتعارض مع صحة حديث قليب بدر.

٢) لقد فصَّلَ العلماء القولَ في مسألة سماع الموتى، فجاء على ثلاثة آراء: فذهب بعض العلماء إلى إطلاق السماع؛ مستدلين بحديث القليب وحديث سماع الميت قرع نعال مشيِّعيه، وذهب فريق آخر من العلماء إلى أن السماع يكون في حال دون حال ووقت دون وقت؛ مستدلين بما سبق من أحاديث، وذهب فريق ثالث إلى نفي السماع مطلقًا إلا ما ورد النص بتخصيصه، كما في حديث القليب وحديث سماع الميت قرع نعال مشيعيه، وهذا هو الراجح.

التفصيل:

أولا. اختلاف مفهوم سماع الموتى في الآيات عنه في الأحاديث:

إن الأخبار التي جاءت في قليب بدر، ونداء النبي ﷺ إياهم، وما أخبر أنهم يسمعون كلامه - أخبار ثابتة توجب العمل والمحاسبة. أما الآيتان اللتان اُستُدِلَّ بهما على ردِّ ما ثبت في الحديث، فقد أجاب أهل العلم عنها بعدة أجوبة:

أما الآية الأولى وهي قوله ﷻ: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (النمل).

قال الشنقيطي: "اعلم أن التحقيق الذي دلت عليه القرائن القرآنية، واستقراء القرآن أن معنى قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ لا يصح فيه من أقوال العلماء إلا تفسيران:

الأول: أن المعنى ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾؛ أي: لا تسمع الكفار الذين أمات الله قلوبهم، وكتب عليهم الشقاء في سابق علمه - إسماع هدىً وانتفاع؛ لأن الله كتب عليهم الشقاء، فختم على قلوبهم، وعلى سمعهم، وجعل على قلوبهم الأكنة، وفي آذانهم الوقر، وعلى أبصارهم الغشاوة، فلا يسمعون الحق سماع اهتداء وانتفاع.

ومن القرائن القرآنية الدالة على ما ذكرنا، أن الله تبارك وتعالى قال بعده: ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (النمل).

فاتضح بهذه القرينة أن المعنى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾؛ أي: الكفار الذين هم أشقياء في علم الله إسماع هدى وقبول الحق، ما تسمع من ذلك الإ سماع

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾، فمقابلته ﷻ بالإسماع المنفي في الآية عن الموتى بالإسماع المثبت فيها، لمن يؤمن بآياته، فهو دليل واضح على أن المراد بالموتى في الآية موت الكفر والشقاء، لا موت مفارقة الروح للبدن...

التفسير الثاني: هو أن المراد بالموتى الذين ماتوا بالفعل، ولكن المراد بالسماع المنفي في قوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (النمل: ٨٠) خصوص السماع المعتاد الذي ينتفع صاحبه به، وأن هذا مَثَلٌ ضُرِبَ للكفار، والكفار يسمعون الصوت، لكن لا يسمعون سماع قبول بفقه واتباع، كما قال ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ (البقرة: ١٧١)، فهكذا الموتى الذين ضرب بهم المثل لا يجب أن يُنفى عنهم جميع أنواع السماع، كما لم يُنفَ ذلك عن الكفار، بل قد انتفى عنهم السماع المعتاد الذي ينتفعون به، وأما سماع آخر فلا"[1].

والتفسير الأول هو الذي عليه أغلب المفسرين.

وأما الثاني، فقد قال به ابن تيمية وغيره[2].

أما الآية الثانية، وهي قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ (فاطر)، فالقول فيها كالقول في الآية المتقدمة.

قال القرطبي: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾؛ أي: الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم؛ أي: كما لا تسمع من مات، كذلك لا تُسمع من مات قلبه... أي: هم بمنزلة أهل القبور في أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه"[3].

ويقول ابن كثير: "قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾؛ أي: كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار - بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة، لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم"[4].

ويؤكد ذلك الطاهر ابن عاشور فيقول: "استُعِير ﴿مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ للذين لم تنفع فيهم النُذُر، وعبر عن الأموات بـ ﴿مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾؛ لأن من في القبور أغرق في الابتعاد عن بلوغ الأصوات؛ لأن بينهم وبين المنادي حاجز الأرض، فهذا إطناب أفاد معنى لا يفيده الإيجاز بأن يقال: وما أنت بمسمع الموتى"[5].

ثانيًا. توجيهات أهل العلم وأقوالهم في مسألة سماع الموتى:

كان لأهل العلم عدة توجيهات وتفسيرات لمسألة سماع الموتى من الأحياء، فهل الأمر في ذلك على الحقيقة في كل وقت، أم هو في وقت دون وقت، أم أن الأصل عدم السماع، وما جاء في ذلك هو من باب خصوصيات النبي ﷺ؟ وهم في ذلك على ثلاثة أقوال، كالآتي:

القول الأول: جعل السماع هو الأصل، وذهب إلى

---

١. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، (٦/ ٤١٦: ٤٢١).

٢. انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، (٤/ ٢٩٨).

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (١٤/ ٣٤٠).

٤. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، (٣/ ٥٥٢).

٥. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، (٢٢/ ٢٩٥، ٢٩٦).

هذا القول كل من: ابن مفلح، والشنقيطي، وهو ظاهر كلام قوام السنة الأصبهاني، وغيرهم.

قال الشنقيطي: "اعلم أن الذي يقتضي الدليل رجحانه هو أن الموتى في قبورهم يسمعون كلام من كلَّمهم... وإيضاح كون الدليل يقتضي رجحان ذلك، مبني على مقدمتين:

الأولى منهما: أن سماع الموتى ثبت عن النبي ﷺ في أحاديث متعددة ثبوتًا لا مطعن فيه، ولم يذكر النبي ﷺ أن ذلك خاص بإنسان ولا بوقت.

والمقدمة الثانية: أن النصوص الصحيحة عنه ﷺ في سماع الموتى لم يثبت في الكتاب ولا في السنة شيء يخالفها، وتأويل عائشة رضي الله عنها بعض الآيات على معنى يخالف الأحاديث المذكورة، لا يجب الرجوع إليه؛ لأن غيره في معنى الآيات أولى بالصواب منه، فلا ترد النصوص الصحيحة عن النبي ﷺ بتأوُّل بعض الصحابة بعض الآيات"[1].

القول الثاني: أن الأموات يسمعون في الجملة، لكنهم يسمعون في حال دون حال، وفي وقت دون وقت.

قال ابن تيمية بعد ذكره لبعض النصوص، كحديث القليب وغيره:

"فهذه النصوص وأمثالها تبين أن الميت يسمع في الجملة كلام الحي، ولا يجب أن يكون السمع له دائمًا، بل قد يسمع في حال دون حال، كما قد يُعرض للحي، فإنه قد يسمع أحيانًا خطاب من يخاطبه، وقد لا يسمع لعارض يعرض له، وهذا السمع سمع إدراك، لا يترتب عليه جزاء، ولا هو السمع المنفي بقوله ﷻ: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (النمل: ٨٠)، فإن المراد بذلك سمع القبول والامتثال، فإن الله جعل الكافر كالميت الذي لا يستجيب لمن دعاه، وكالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفقه المعنى، فالميت وإن سمع الكلام وفقه المعنى لا يمكنه إجابة الداعي، ولا امتثال ما أمر به ونهى عنه، فلا ينتفع بالأمر والنهي، وكذلك الكافر لا ينتفع بالأمر والنهي، وإن سمع الخطاب، وفهم المعنى، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ (الأنفال:٢٣)"[2].

واستدلَّ أصحاب القولين السابقين على قولهم بسماع الموتى بعدة أدلة، أهمها:

- حديث القليب والذي أخرجه الشيخان في صحيحيهما من حديث أبي طلحة رضي الله عنه: "أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش، فقُذِفوا في طَوِيٍّ[3] من أطواء بدر، خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليالٍ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فَشُدَّ عليها رحلها، ثم مشى واتَّبَعَه أصحابه، وقالوا: ما نُرَى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الرَّكِي[4]، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، أيسُّركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟

١. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، مرجع سابق، (٦/ ٤٢٢).

٢. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، (٢٤/ ٣٦٤، ٣٦٥).

٣. الطَّوِي: هو البئر التي طويت وبنيت بالحجارة لتثبت ولا تنهار.

٤. شفة الرَّكي: طرق البئر.

قال: فقال عمر: يا رسول الله ما تُكلِّم مِنْ أجسادٍ ولا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم".

قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخًا وتصغيرًا ونقمة وحسرة وندمًا[1].

- واستدلُّوا بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "العبد إذا وضع في قبره وتُوُلِّي وذهب أصحابه - حتى إنه ليسمع قرع نعالهم - أتاه ملكان فأقعداه..."[2].

- واستدلُّوا أيضًا بمشروعية السلام على أهل القبور بصيغة الخطاب للحاضر، وهذا ثابت في أحاديث صحيحة كثيرة، كحديث أبي هريرة رضي الله عنه: "أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون..."[3].

قال ابن تيمية: "فهذا خطاب لهم، وإنما يخاطب من يسمع".

وقال الشنقيطي في "أضواء البيان": "وخطابه ﷺ لأهل القبور بقوله: "السلام عليكم"، وقوله: "وإنا إن شاء الله بكم" ونحو ذلك يدل دلالة واضحة على أنهم يسمعون سلامه؛ لأنهم لو كانوا لا يسمعون سلامه وكلامه لكان خطابه لهم من جنس خطاب المعدوم ولا شك أن ذلك ليس من شأن العقلاء، فمن البعيد جدًّا صدوره منه ﷺ"[4].

القول الثالث: أن الأصل عدم السماع، وأما حديث القليب وغيره مما ورد فهو مستثنى من هذا الأصل، فيكون من قَبِيل تخصيص العموم، وهذا ما ذهب إليه قتادة والقاضي وأبو يعلى، والمازري، وابن عطية، وابن الجوزي، وأبو عبد الله القرطبي والشوكاني، والألوسي وابنه نعمان، والألباني، وغيرهم[5].

قال قتادة: "أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخًا وتصغيرًا ونقمةً وحسرة وندمًا"[6].

ونقل الإمام النووي عن المازري قوله في تعليقه على حديث القليب، قال: "قال بعض الناس: الميت يسمع عملًا بظاهر هذا الحديث. ثم قال النووي: ثم أنكره المازري، وادَّعى أن هذا خاص في هؤلاء"[7].

وقال أبو عبد الله القرطبي: "اعلم رحمك الله أن عائشة رضي الله عنها قد أنكرت هذا المعنى، واستدلت بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ (النمل:٨٠)، وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ (فاطر) ولا تعارض بينهما؛ لأنه جائز أن يكونوا يسمعون في وقت ما، فإن

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المغازي، باب: قتل أبي جهل، (٧/ ٣٥٠، ٣٥١)، رقم (٣٩٧٦). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، (٩/ ٣٩٧٦)، رقم (٧٠٩١).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال، (٣/ ٢٤٤)، رقم (١٣٣٨). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، (٩/ ٣٩٧٤)، رقم (٧٠٨٣).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الطهارة، باب: استحباب إطالة الغرة والتَّحْجيل في الوضوء، (٢/ ٧٦٢)، رقم (٥٧٣).

٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، مرجع سابق، (٦/ ٤٢٥، ٤٢٦).

٥. أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، د. سليمان الدبيخي، مرجع سابق، ص٧٠٣.

٦. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٧/ ٣٥١).

٧. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٣٩٧٨).

تخصيص العموم صحيح إذا وجد المخصِّص، وقد وجد هنا بما ذكرناه، وقد تقدم[1]، وبقوله ﷺ: "إنه ليسمع قرع نعالهم" وبالمعلوم من سؤال الملكين للميت في قبره وجوابه لهما. وغير ذلك مما لا ينكر"[2].

"وهذا القول قريب من سابقه ـ أي: القول بسماع في حال دون حال ـ فإن كلًّا منهما لم يطلق القول: بالسماع، إلا أن القول السابق جعل السماع أصلًا، استنادًا إلى ما ورد من الأحاديث، وأما أصحاب هذا القول فقد جعلوا عدم السماع أصلًا إلا ما ورد من الأحاديث؛ استنادًا إلى ما ورد من الآيات وغيرها، ولم يستثنوا من ذلك إلا ما ورد النص بإثباته"[3].

قال الألباني: "وخلاصة البحث والتحقيق: أن الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال أئمة الحنفية وغيرهم... على أن الموتى لا يسمعون، وأن هذا هو الأصل، فإذا ثبت أنهم يسمعون في بعض الأحوال، كما في حديث خفق النعال، أو أن بعضهم سمع في وقت ما، كما في حديث القليب، فلا ينبغي أن يجعل ذلك أصلًا، فيقال: إن الموتى يسمعون، كما فعل بعضهم، كلا فإنها قضايا جزئية، لا تشكل قاعدة كلية يعارض بها الأصل المذكور، بل الحق أنه يجب أن تستثنى منه، على قاعدة استثناء الأقل من الأكثر، أو الخاص من العام كما هو المقرر في علم أصول الفقه"[4].

يقول د. سليمان الدبيخي: وعمدة هؤلاء فيما ذهبوا إليه أمران:

الأمر الأول: الآيات الواردة في نفي سماع الموتى، والتي منها:

الآيتان اللتان استدلت بهما عائشة رضي الله عنها على قولها بعدم سماع الموتى، وهما قوله ﷻ: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (النمل)، وقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ (فاطر)، وذلك كما روى الإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "وقف النبي ﷺ على قليب بدر، فقال: هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ ثم قال: إنهم الآن يسمعون ما أقول. فذكر لعائشة، فقالت: إنما قال النبي ﷺ: إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق. ثم قرأت: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ حتى قرأت الآية"[5]، وفي رواية أخرى: "ثم قرأت: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾"[6].

فقالوا: لا شك عند كل من تدبر الآيتين وسياقهما أن المعنى المراد منهما هو: تشبيه الكفار الأحياء بحال الموتى وأهل القبور، فهما واردتان في حق الكفار على ما تقدم بيانه، لا نتنازع في هذا، بل نقول: على هذا جرى علماء التفسير، لكن ذلك لا يمنع الاستدلال بهما على عدم سماع الموتى؛ لأن الموتى لـمَّا كانوا لا يسمعون حقيقة، وكان ذلك معروفًا عند المخاطبين، شبه الله

١. يعني حديث القليب.
٢. التذكرة في أمور الموتى وأحوال الآخرة، القرطبي، مرجع سابق، ص١٦٤.
٣. أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، د. سليمان الدبيخي، مرجع سابق، ص٧٠٥.
٤. الآيات البينات في عدم سماع الأموات، الألوسي، تحقيق: الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ص٤١.

٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المغازي، باب: قتل أبي جهل، (٧/ ٣٥١)، رقم (٣٩٨٠، ٣٩٨١).
٦. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المغازي، باب: قتل أبي جهل، (٧/ ٣٥١)، رقم (٣٩٧٩).

تعالى بهم الكفار الأحياء في عدم السماع، فدل هذا التشبيه على أن المشبه بهم - وهم الموتى في قبورهم - لا يسمعون، كما يدل مثلًا تشبيه زيد في الشجاعة بالأسد على أن الأسد شجاع، بل هو في ذلك أقوى من زيد، ولذلك شبه به، وإن كان الكلام لم يسق للتحدث عن شجاعة الأسد نفسه، وإنما عن زيد، وكذلك الآيتان السابقتان وإن كانتا تحدثتا عن الكفار الأحياء وشبهوا بموتى القبور، فذلك لا ينفي أن موتى القبور لا يسمعون، بل إن كل عربي سليم السليقة لا يفهم من تشبيه موتى الأحياء بهؤلاء إلا أن هؤلاء أقوى في عدم السماع منهم، كما في المثال السابق.

قالوا: ومما يؤكد عدم سماع الأموات: تمام الآية الأولى: ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (النمل)، فقد شبه الله موتى الأحياء من الكفار بالصم أيضًا، فهل يقتضي في المشبه بهم ﴿ الصُّمَّ ﴾ أنهم يسمعون أيضًا، ولكن سماعًا لا انتفاع فيه؟! أم أنه يقتضي أنهم لا يسمعون مطلقًا، كما هو الحق الظاهر الذي لا خفاء فيه؟

قالوا: وفي التفسير المأثور ما يؤيد هذا، فقد قال الطبري في تفسيره: وقوله: ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ يقول: وكما لا تقدر أن تُسمع الصمَّ - الذين قد سلبوا السمع - الدعاء، إذا هم ولوا عنك مدبرين، كذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء - الذين قد سلبهم الله فهم آيات كتابه - لسماع ذلك وفهمه، ثم روى بإسناده عن قتادة أنه قال: "هذا مثل ضربه الله للكافر، فكما لا يسمع الميت الدعاء، كذلك لا يسمع الكافر ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾، يقول: لو أن أصمَّ ولى مدبرًا ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع، ولا ينتفع بما يسمع"[1].

قالوا: وبهذا يتبين صحة فهم عائشة رضي الله عنها للآية، وتَوَجُّه اعتراضها، لولا أنه في مقابلة النص، وقد وافقها على هذا الفهم عمر ﷺ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أنس ﷺ، "أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثة أيام، حتى جيفوا، ثم أتاهم فقام عليهم، فقال: يا أمية بن خلف، يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا، قال: فسمع عمر صوته، فقال: يا رسول الله، أتناديهم بعد ثلاث، وهل يسمعون؟ يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ﴾ (النمل: ٨٠)، فقال ﷺ: "والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا""[2].

فعمر ﷺ فهم من عموم الآية دخول أهل القليب فيه، فأشكل عليه مخاطبة النبي ﷺ لهم، فبين النبي ﷺ أنهم يسمعونه، ولم ينكر عليه فهمه للآية.

قال ابن رجب: وقد وافق عائشة على نفي سماع الموتى كلام الأحياء، طائفة من العلماء، ورجحه القاضي أبو يعلى من أصحابنا... واحتجوا بما احتجت به عائشة، وبأنه يجوز أن يكون ذلك معجزة مختصة بالنبي ﷺ دون غيره، وهو سماع الموتى كلامه[3].

---

١. انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، مرجع سابق، (١٩/ ٤٩٥).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، حديث أنس بن مالك ﷺ، رقم (١٤٠٩٦). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٣. انظر: أهوال القبور، ابن رجب الحنبلي، ص١٣٢.

ومما استدلوا به أيضًا على عدم سماع الموتى، قول الله تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾ (فاطر).

فقالوا: هذه الآية صريحة في نفي السمع عن أولئك الذين كان المشركون يدعونهم من دون الله تعالى، وهم موتى الأولياء والصالحين، الذين كان المشركون يمثلونهم في تماثيل وأصنام لهم، يعبدونهم فيها، وأخبر أن المعبودين يتبرءون من عابديهم يوم القيامة، فهم محشورون جميعًا كما قال الله ﷻ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ (١٧) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا (١٨) ﴾ (الفرقان).

وقال أيضًا: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) ﴾ (سبأ).

الأمر الثاني: أن هذه المسألة من الأمور الغيبية التي لا يجوز الخوض فيها إلا بنص، ولم يرد ما يدل على أن الموتى يسمعون مطلقًا، فيجب الوقوف عند حدود ما ورد.

وأما أدلة أصحاب القولين السابقين، فقد أجاب عنها بعضهم بما يأتي:

- أما حديث القليب فقالوا: إنه وإن دل على سماع المشركين للنبي ﷺ حين مناداته لهم، إلا أنه لا يدل على عموم هذا السماع في كل وقت وحين، ومما يؤيد هذا ما جاء في رواية ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "إنهم الآن يسمعون ما أقول"، فقوله: "الآن" قيدٌ يفهم منه أنهم لا يسمعون في غير هذا الوقت، وعلى هذا يكون هذا الحديث حجة في كون الأصل في الموتى عدم السماع.

ومما يدل على هذا أيضًا ـ من نفس الحديث ـ أن النبي ﷺ أقر عمر وغيره من الصحابة على ما كان مستقرًّا في نفوسهم واعتقادهم من أن الموتى لا يسمعون، فلم ينكر ذلك عليهم، وإنما بين لهم ما كان خافيًا عليهم من شأن أهل القليب، وأنهم سمعوا كلامه حقًّا.

- وأما حديث أنس ﷺ: "إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان..."، فهو محمول على أنه في أول الوضع؛ أي أن هذا السماع خاص بهذا الوقت، وبقية الحديث يشعر بهذا، فإن روحه تعاد حينئذ استعدادًا لسؤال الملكين[1].

قال المناوي عند شرحه هذا الحديث: وعورض بقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ (٢٢)﴾ (فاطر)، وأجيب: بأن السماع في حديثنا مخصوص بأول الوضع في القبر مقدمة للسؤال[2].

وقال الشيخ ابن عثيمين: "إنه وارد في وقت خاص،

١. انظر: الآيات البينات، الألوسي، مرجع سابق، ص٥٦: ٥٩.
٢. انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، (٢/ ٥٠٥).

وهو انصراف المشيعين بعد الدفن"[١].

وأما استدلالهم بمشروعية السلام على أهل المقابر بصيغة المخاطب، فالجواب عنه: أنه لا يلزم من السلام عليهم أن يسمعوا، ولهذا كان المسلمون يسلمون على النبي ﷺ في حياته في التشهد وهو لا يسمعهم قطعًا، وهذا شائع في العربية، فإن العرب تسلم على الدار وتخاطبها، على بعد المزار.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن مثل هذا الخطاب يقصد منه استحضار المخاطب في القلب، ثم قال بعد ذكر السلام في التشهد: "والإنسان يفعل مثل هذا كثيرًا، يخاطب من يتصور في نفسه، وإن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب"[٢].

وقال القاضي عياض تعليقًا على الحديث السابق في سلام النبي ﷺ على أهل المقابر: يحتمل أن يحيوا له حتى يسمعوا كلامه، كما سمعه أهل القليب، ويحتمل أن يفعل ذلك مع موتهم ليبين ذلك لأمته[٣].

وقال ابن عطية: هذا كله غير معارض للآية، لأن السلام على القبور إنما هو عبادة، وعند الله الثواب عليها، وهو تذكير للنفس بحالة الموت، وبحالة الموتى في حياتهم[٤].

- **ترجيح الرأي الثالث:**

والراجح عند أهل العلم أن أهل القليب قد سمعوا كلام النبي ﷺ، كما دلت الروايات الصحيحة الصريحة المتعددة، كقوله ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: "إنهم الآن يسمعون ما أقول"، وقوله ﷺ: "والذي نفس محمد بيده ما أنتم لما أقول بأسمع منهم".

وأما اعتراض عائشة رضي الله عنها على ذلك، فقد قال عنه أهل العلم: إن ذلك وَهْمٌ منها؛ لأن ابن عمر لم ينفرد بذلك، بل وافقه عليه غيره من الصحابة، كعمر وأبي طلحة رضي الله عنهما وهما ممن شهد بدرًا.

قال ابن تيمية: وأهل العلم بالحديث والسنة اتفقوا على صحة ما رواه أنس وابن عمر، وإن كانا لم يشهدا بدرًا، فإن أنسًا روى ذلك عن أبي طلحة، وأبو طلحة شهد بدرًا... والنص الصحيح عن النبي ﷺ مقدم على تأويل من تأول من أصحابه[٥].

وقال ابن كثير: والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة[٦].

وقال ابن حجر: وقد خالفها الجمهور في ذلك، وقبلوا حديث ابن عمر، لموافقة من رواه غيره"، وبتأمل رواية عائشة رضي الله عنها نجد أنها قد اعترضت بأمرين:

أحدهما: أنها قالت: إنما قال النبي ﷺ: "إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق"، والجواب عنه: أنه إن كانت قد سمعت هذا من النبي ﷺ بهذا اللفظ، فإنه لا يعارض رواية ابن عمر وغيره؛ لأن العلم لا ينافي السماع، ومن جاز عليه العلم جاز

١. القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد صالح العثيمين، (١/ ٢٠٧).

٢. انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، تحقيق: أحمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط٢، ١٣٦٩هـ، ص٤١٦.

٣. انظر: الآيات البينات، الألوسي، مرجع سابق، ص٩٧.

٤. انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، (٥/ ١٧٦).

٥. انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، (٤/ ٢٩٧).

٦. انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، (٣/ ٤٣٨).

عليه السماع.

قال البيهقي: العلم لا يمنع من السماع.

وقال الإسماعيلي: وأما جوابها بأنه إنما قال: "إنهم ليعلمون" فإن كانت سمعت ذلك، فلا ينافي رواية "يسمعون" بل يؤيدها.

وقال السهيلي: إذا جاز أن يكونوا في تلك الحالة عالمين، جاز أن يكونوا سامعين.

وأما اعتراضها الثاني: فهو احتجاجها بالآية، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ﴾ (النمل:٨٠) وقد تقدم الجواب عنها بأن الجمع ممكن، وذلك بتخصيص الآية بحديث القليب وغيره مما ورد، وعلى هذا فلا تعارض بين الآية والحديث.

قال الإسماعيلي: كان عند عائشة من الفهم والذكاء وكثرة الرواية، والغوص على غوامض العلم ما لا مزيد عليه، لكن لا سبيل إلى رد رواية الثقة إلا بنص مثله يدل على نسخه، أو تخصيصه أو استحالته، فكيف والجمع بين الذي أنكرته وأثبته غيرها ممكن[1]؟!

وقال الخطابي: تأويل قتادة في هذا أحسن من رأي عائشة رضي الله عنها وادِّعائها على ابن عمر الغلط، وحديث أبي طلحة يؤكد ما رواه ابن عمر[2].

فالأصل في مسألة سماع الموتى هو عدم السماع، فلا يثبت منه إلا ما ورد النص بإثباته - على ما جاء في القول الثالث، لقوة أدلتهم، وإجابتهم على أدلة المخالفين؛ لأن أحوال البرزخ من عالم الغيب الذي لا يجوز لأحد أن يقول فيه برأيه أو اجتهاده، بل يتعين فيه الوقوف عند حدود ما ورد.

قال ابن عطية: "قد صح أن النبي ﷺ قال: "ما أنتم بأسمع منهم" فيشبه أن قصة بدر هي خرق عادة لمحمد ﷺ، في أن رد الله إليهم إدراكًا سمعوا به مقاله، ولولا إخبار رسول الله ﷺ بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقي من الكفرة، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين منهم[3].

وقال ابن التين: لا معارضة بين حديث ابن عمر والآية؛ لأن الموتى لا يسمعون بلا شك، لكن إذا أراد الله إسماع ما ليس من شأنه السماع لم يمتنع، كقوله ﷻ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأحزاب)، وقوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (فصلت)[4].

وقال الألباني: اعلم أن كون الموتى يسمعون أو لا يسمعون، إنما هو أمر غيبي من أمور البرزخ التي لا يعلمها إلا الله ﷻ، فلا يجوز الخوض فيه بالأقيسة والآراء، وإنما يوقف فيه النص إثباتًا ونفيًا[5].

وهذا القول هو ما أفتت به اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في المملكة العربية السعودية، حيث قالت: الأصل أن الموتى عمومًا لا يسمعون نداء الأحياء من بني آدم، ولا دعاءهم، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا

١. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٧/ ٣٥٤).

٢. انظر: أعلام الحديث، الخطابي، مرجع سابق، (٣/ ١٧٠٨).

٣. المحرر الوجيز، ابن عطية، مرجع سابق، (٥/ ١٧٦).

٤. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٣/ ٢٧٧).

٥. انظر: الآيات البينات، الألوسي، مرجع سابق، هامش ص٢٠، ٢١.

أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ (فاطر)[1].

ولا يخفى ما في هذا القول من إغلاق الباب على القبوريين، الذين يتشبثون بهذا الحديث وأمثاله، لإثبات جواز الاستغاثة بالموتى والتوسل بهم، بحجة أنهم يسمعون دعاءهم ونداءهم.

قال الشيخ الألباني رحمه الله: ومن المعلوم أن الاعتقاد بأن الموتى يسمعون، هو السبب الأقوى لوقوع كثير من المسلمين اليوم في الشرك الأكبر، ألا وهو دعاء الأولياء والصالحين، وعبادتهم من دون الله ﷻ، جهلًا وعنادًا... فإذا تبين أن الصواب أن الموتى لا يسمعون، لم يبق حينئذ معنى لدعاء الموتى من دون الله تعالى[2].

وعلى فرض أنهم يسمعون فإنهم لا يقدرون على الإجابة، كما قال ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ (الأحقاف)، وقال أيضًا: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ (فاطر).

قال السعدي: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ ﴾؛ لأنهم ما بين جماد وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم، ﴿ وَلَوْ سَمِعُواْ ﴾ على وجه الفرض والتقدير ﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ﴾؛ لأنهم لا يملكون شيئًا، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده، ولهذا قال: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾[3].

وقال الشيخ عبد الله أبو بطين: فالمتصف بعدم سماع الدعاء، وعدم الاستجابة، أو المتصف بأحدهما ممتنع دعاؤه شرعًا وعقلًا[4].

وأما القول الأول، وهو أن الموتى يسمعون مطلقًا فقول بعيد؛ إذ لا يوجد نص صحيح صريح يدل على العموم والإطلاق، وقد قال الألباني: لم أر فيها ـ أي: في هذه المسألة ـ من صرح بأن الميت يسمع سماعًا مطلقًا عامًّا، كما كان شأنه في حياته، ولا أظن عالمًا يقول به، وإنما رأيت بعضهم يستدل بأدلة يثبت بها سماعًا لهم في الجملة[5].

وأما القول الثاني، وهو أنهم يسمعون في الجملة، أي: في وقت دون وقت، وحال دون حال، فإنه وإن لم يكن بعيدًا عن هذا القول ـ الذي تقدم ترجيحه ـ إلا أنه جعل السماع أصلًا، والأولى مراعاة ما ورد من النصوص في ذلك، فحيث جاءت الآيات واضحة في نفس السماع مطلقًا: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (النمل: ٨٠)، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ (فاطر) ـ ولم يرد مثل

١. انظر: فتاوى اللجنة الدائمة، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرازق الدويش، المجموعة الأولى، (١/ ٤٧٢).

٢. انظر: الآيات البينات، الألوسي، مرجع سابق، هامش ص١٠، ١١.

٣. انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ص٦٨٦.

٤. انظر: تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود جرجيس، عبد الله أبو بطين، تحقيق: عبد السلام بن برجس العبد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، (١/ ٩٤).

٥. الآيات البينات، الألوسي، مرجع سابق، ص٣٧.

هذا في الإثبات، فتعين القول: بأن الأصل عدم السماع، وما ورد من الإثبات في ذلك فهو مُخَصِّصٌ له.

وقد يكون مراد بعضهم بقوله: إنهم يسمعون في الجملة؛ أي: فيما ورد الدليل بإثباته، وهذا ما عبر به الألوسي حيث قال: والحق أن الموتى يسمعون في الجملة... فيقتصر على القول بسماع ما ورد السمع بسماعه[1].

وعلى هذا، يكون الخلاف مع من كان هذا مراده لفظيًّا، مع عدم الموافقة على مثل هذا التعبير، لما فيه من الإبهام، فقد يفهم منه أن الأصل هو السماع؛ أي: أنهم يسمعون في غالب أحوالهم، ولا يخفى ما في هذا من قلب الحقائق(٢).

فحديث أهل القليب فيه تحديد السماع بمدة وجيزة، وذلك فيما أخرجه البخاري وأحمد من حديث أنس ﷺ الذي تضمن لفظ "الآن"؛ أي: أنهم الآن يعلمون حين تبوَّءوا مقاعدهم، ومثل ذلك في الحديث الذي أخرجه الشيخان في سماع الميت لقرع النعال، وفيه: "إن الميت ليسمع قرع نعال مشيعيه"؛ أي: الوقت الذي يلي دفن الميت مباشرة، وليس في هذا الحديث والذي قبله ما يدعو إلى إطلاق القول بسماع الموتى، أو حتى تخصيصه بالأولياء والصالحين، كما يدعيه بعض غلاة الصوفية وغيرهم.

والذين استدلُّوا بحديث أهل القليب على إثبات سماع الأولياء والصالحين من بعد موتهم، رغم أن الحديث الذي استدلُّوا به متعلق بسماع طواغيت قريش خطاب النبي ﷺ - كان يفترض بهم أن يستدلوا بالصالحين، وليس بما حصل لأبي جهل والوليد بن المغيرة؛ لأن السماع الذي يريدون أن يثبتوه متعلق بكرامة المستمع لا بعقوبته وخزيه.

وفي هذا إبطال الاستمداد بالموتى، وطلبهم، والاستعانة بهم، وهو المراد من نفي السماع عنهم؛ لأن الميت إذا ثبت أنه لا يسمع، وأنه هو المشبه به في الآيات بطل الاستمداد به؛ لاستحالة إجابته.

وكما تقرر أن الأحاديث التي جاءت ودلَّت على إمكانية سماع الأموات للأحياء، إنما هي تخصيص لما نفته الآيات الكريمة، فلا تعارض بين الأحاديث والآيات.

ورغم ما سبق، كان هناك مَنْ أنكر الأحاديث واعتبرها خرافات تناقض العقل والقرآن، وأخذ يجحد بآيات الله البينات، وينكر النصوص الثابتة عن النبي ﷺ جحودًا من عنده، وبدلًا من أن يراجع توجيهات العلماء وأقوالهم في المسألة أخذها تكأة للتشكيك في دين الله وسنة نبيه ﷺ.

وبعدما عرضنا ما يكفي لبيان الوجه الحق في المسألة، حتى أصبح واضحًا جليًّا لكل مَنْ حاول أن يبذل عقله، ويتحرَّى الحق فيها - تبيَّن دحض ادعاءات المغالين في دعاء الأموات من ناحية، وكذلك زالت شبهة الجاحدين للنصوص الثابتة عن رسول الله ﷺ من ناحية أخرى.

الخلاصة:

- لقد ذهب جُلُّ المفسرين إلى أن قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٢٢﴾ (فاطر)، وقوله تعالى:

١. انظر: المرجع السابق، ص٤٠.

٢. أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، د. سليمان الدبيخي، مرجع سابق، ص٧٠٥: ٧١٦ بتصرف.

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (النمل:٨٠) المقصود بهم الكفار الذين لم يستجيبوا لكلام الله تعالى ورسوله ﷺ؛ فهؤلاء أشبه ما يكونون بالأموات الذين لا يسمعون ولا يستفيدون بالكلام، فالسماع هنا سماع انتفاع واهتداء.

- إن حديث القليب حديث صحيح ثابت عن النبي ﷺ؛ لأن ابن عمر لم ينفرد به كما يدعون، وإنما رواه عمر وأبو طلحة رضي الله عنهما وقد ورد في الصحيحين، وعند الإمام أحمد، فكيف يدعون بطلانه؟!

- لقد ذهب العلماء في توضيح مسألة سماع الموتى إلى ثلاثة أقوال:

  - فذهب بعضهم إلى أن السماع أصل، وأن جميع الموتى يسمعون الأحياء، واستدلوا بحديث القليب، وأنه عام، ولم يخصص وقتًا دون وقت، ولا شخصًا دون شخص، ولم يرد ما ينفيه أو يعارضه. وهذا ما ذهب إليه الشنقيطي وابن مفلح وغيرهما.

  - وذهب بعض آخر من العلماء إلى أن سماع الموتى يكون في حال دون حال، وفي وقت دون وقت، واستدلوا بحديث قليب بدر، وحديث سماع الميت قرع النعال بعد الانتهاء من الدفن، وحديث إلقاء السلام على أهل القبور عند دخولها. وهذا ما ذهب إليه ابن تيمية وغيره من العلماء.

  - وذهب فريق ثالث إلى نفي السماع مطلقًا، إلا ما ورد النص بتخصيصه، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾. كما ذهبوا إلى أن حديث قليب بدر، وتكليم النبي ﷺ لهم خاص بالنبي ﷺ؛ لأن هناك بعض الروايات التي تذكر قوله: "إنهم الآن يسمعون". وأما حديث سماع الميت قرع نعال مشيعيه؛ فذلك لأن الروح قد رُدَّت إلى الجسد استعدادًا لحساب الملكين في القبر. وأما حديث إلقاء السلام عند دخول المقابر، فللعظة والعبرة في أحوال الموتى، ولم يأتِ نص عام في إطلاق سماع الموتى.

والراجح من خلال عرض الآراء حول هذه المسألة هو نفي السماع مطلقًا إلا ما ورد النص بتخصيصه، كما حدث في تكليم النبي ﷺ لقتلى المشركين في بدر، وحديث سماع الميت قرع نعال مشيعيه.

الشبهة الثلاثون

توهم صحة حديث "سماع الحيِّ من الميِّت"(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين صحة الحديث الذي رواه الإمام الترمذي في سننه من طريق يحيى بن عمرو بن مالك النُّكْـرِي، عن أبيه، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خِبَاءه على قبرٍ وهو لا يحسَب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ضربتُ خبائي، وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فقال النبي ﷺ: هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب

(*) دفاع عن السنة المطهَّرة، علي إبراهيم حشيش، مرجع سابق.

القبر". زاعمين أن هذا الحديث حجة لإثبات صحة الاعتقاد في سماع الأحياء كلام الأموات مطلقًا، بل إن علي الحيِّ أن يذهب إلى قبر الميت؛ ليتعلَّم منه أمور دينه. رامين من وراء ذلك إلى حشو السنة الصحيحة بالآثار والأكاذيب الباطلة، وتشويه عقائد المسلمين وثوابتهم.

وجه إبطال الشبهة:

إن قصة الرجل الذي سمع ميتًا يقرأ سورة من القرآن قصة باطلة منكرة، ولا شاهد لها؛ فقد ذكرها الترمذي والأصفهاني، وقالا: حديث غريب، وراوي الحديث يحيى بن عمرو الذي تفرَّد بروايته ضعيف باتفاق جل علماء الحديث، كما أنه لم يثبت سماع الأحياء من الأموات إلا ما اختص الله به نبيه محمدًا ﷺ.

التفصيل:

إنه ليس صحيحًا ما يدَّعيه بعض المغالطين من أن الحديث الذي أورده الإمام الترمذي في سننه بشأن سماع رجلٍ من أصحاب رسول الله ﷺ إنسانًا ميتًا يقرأ - وهو في القبر - سورة "الملك" حتى ختمها - حديث صحيح؛ فالرواية ضعيفة منكرة، ولم تصح نسبتها إلى النبي ﷺ؛ فقد رواها الإمام الترمذي من طريق يحيى بن عمرو بن مالك النُّكْرِيِّ عن أبيه عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خِبَاءه على قبرٍ، وهو لا يحسَب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة "الملك" حتى ختمها، فأتى النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله ضربتُ خبائي وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فقال النبي ﷺ: هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر"[1].

ثم قال الترمذي بعد ذكره الحديث: "هذا حديث غريب من هذا الوجه".

وذكره أبو نعيمٍ من الطريق نفسه في "حلية الأولياء"، وعقَّب عليه بقوله: "غريب من حديث أبي الجوزاء، لم نكتبه مرفوعًا مجوَّدًا إلا من حديث يحيى بن عمرو عن أبيه"[2].

وبالنظر في سند الحديث نجده واهيًا؛ لضعف يحيى بن عمرو بن مالك؛ فقد ضعَّفه جمهور العلماء.

"قال عباس الدوري عن يحيى بن معين، وأبو زرعة، وأبو داود، والنسائي، وأبو بشر الدولابي: ضعيف... وروى له أبو أحمد بن عدي هذا الحديث وأحاديث أُخر، ثم قال: وهذه الأحاديث التي ذكرتها عن يحيى بن عمرو بن مالك عن أبيه عن أبي الجوزاء عن ابن عباس كلها غير محفوظة، تفرَّد بها يحيى بهذا الإسناد. وأحاديث أخر مما لم أذكرها، وليس تلك بمحفوظة أيضًا"[3].

وأورده الإمام الدارقطني في كتابه "الضعفاء والمتروكين"[4].

---

١. ضعيف: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الملك، (٨/ ١٦١)، رقم (٣٠٥٢). وضعفه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٨٩٠).

٢. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني، مرجع سابق، (٣/ ٨١).

٣. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ المزي، مرجع سابق، (٣١/ ٤٧٨، ٤٧٩).

٤. انظر: كتاب الضعفاء والمتروكين، الدارقطني، تحقيق: صبحي البدري السامرَّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص١٧٨.

وقال د. بشار عواد معروف - محقق "تهذيب الكمال": "وضعفه الساجي والعقيلي، وأحمد بن حنبل، والذهبي، وابن حجر، فلا يحتاج بعد إلى مزيد بيان"[١].

وقد ضعَّف هذا الحديث المحدث الشيخ الألباني عند حكمه على أحاديث سنن الترمذي.

وقال في موضع آخر عن يحيى بن عمرو راوي الحديث: "أبوه عمرو بن مالك صدوق له أوهام، وابنه يحيى ضعيف"[٢].

والناظر فيما قلناه سابقًا يتبين أن الحديث لم يصح عن رسول الله ﷺ، فهو حديث ضعيف جدًّا.

هذا، ولا يحاولنَّ أحد البحث عن شواهد تعضِّد تلك الرواية؛ فالشواهد سواء كانت مرفوعة أو موقوفة فإنها تدور حول فضل سورة تبارك "الملك"، وليست لهذه القصة المنكرة الغريبة التي معنا[٣]، والتي نشم منها رائحة التوسل بالأموات لا العظة أو التعلم كما توهم بعضهم.

لذا، فعلينا ألا ننساق وراء هذه الأباطيل وخاصةً إذا كانت لدينا أحاديث أخرى صحيحة تغنينا عن تلك الأحاديث الواهية التي تضلُّ المؤمنين ولا تنفعهم.

ولقد جاء في فضائل سورة تبارك "الملك" أحاديث صحيحة، منها:

- "أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾ (السجدة)، و﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ (الملك:١)"[٤].
- أن النبي ﷺ قال: "سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر"[٥]. وقد أورده الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة، وقال عنه: "وسائر الرجال موثوقون معروفون؛ فالسند حسن، وقد أخرجه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي"[٦].
- أن النبي ﷺ قال: "إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غُفِرَ له، وهي ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾"[٧].

وقال الترمذي بعد ذكر الحديث: "حديث حسن".

فكل ما سبق يؤكد بطلان تلك القصة ونكارتها.

وكلام الأموات في القبور ثابت بالسنة الصحيحة، فحديث المَلَكين ثابت ومتواتر في كتب السنة، فهو شاهد لذلك؛ فقد رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالكٍ ﷺ عن النبي ﷺ قال: "العبد إذا وضع في قبره وتُوُلِّي، وذهب أصحابه، حتى إنه ليسمع قرع

١. تهذيب الكمال، الحافظ المزي، مرجع سابق، هامش (٣١/ ٤٧٨).

٢. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، مرجع سابق، (٣/ ١٣٢).

٣. دفاع عن السنة المطهرة، علي إبراهيم حشيش، مرجع سابق، ص٢٣٤ بتصرف.

٤. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الملك، (٨/ ١٦٢)، رقم (٣٠٥٤). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٧١٠).

٥. صحيح: أخرجه أبو الشيخ في طبقات الأصبهانيين، برقم (٢٦٤). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١١٤٠).

٦. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، مرجع سابق، (٣/ ١٣١).

٧. حسن: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الملك، (٨/ ١٦١، ١٦٢)، رقم (٣٠٥٣). وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٨٩١).

نعالهم، أتاه ملكان فأقعداه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك في النار، أبدلك الله به مقعدًا من الجنة. قال النبي ﷺ: فيراهما جميعًا، فأما الكافر - أو المنافق - فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس..."[1] الحديث.

أمَّا عن سماع الناس لأصوات أهل القبور فغير صحيح ولا دليل عليه، إلا مَنْ خصَّه الله ﷻ بذلك، والأدلة ظاهرة في تخصيص النبي ﷺ بذلك دون غيره.

فقد أورد الإمام مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قال: "... إن هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورها، فلولا أن تدافنوا لدعوت الله أن يُسْمِعَكم من عذاب القبر الذي أَسْمَعُ منه..."[2] الحديث.

ومما يدل على اختصاص النبي ﷺ بذلك دون غيره من الناس ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس ﷺ، قال: "بينما نبي الله ﷺ في نخل لنا لأبي طلحة يتبَرَّز لحاجته، قال: وبلال يمشي وراءه - يُكرِّمُ نبي الله ﷺ أن يمشي إلى جنبه - فمر نبي الله ﷺ بقبرٍ، فقام حتى لَمَّ إليه بلال، فقال: ويحك يا بلال! هل تسمع ما أسمع؟ قال: ما أسمع شيئًا، قال: صاحب القبر يُعذَّب، قال: فسُئِل عنه فَوُجِد يهوديًّا"[3].

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال، (٣/ ٢٤٤)، رقم (١٣٣٨).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه... (٩/ ٣٩٧٣)، رقم (٧٠٨٠).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ، رقم (١٢٥٥٢). وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

خلاصة القول؛ أن تلك الرواية التي جاءت فيها قصة رجلٍ سمع صوت إنسانٍ ميِّتٍ يقرأ قرآنًا وهو مقبور - رواية ضعيفة السند، لم تصح عن النبي ﷺ؛ فقد تفرَّد بروايتها يحيى بن عمرو بن مالك النُّكريُّ، وهو ضعيف باتفاق جل علماء الحديث.

كما أن شواهد تلك الرواية كلها تدور حول فضل سورة تبارك "الملك"، ولا ذكر لتلك القصة المكذوبة فيها؛ مما يؤكد نكارتها وبطلانها.

ومما يدلُّ على بطلان تلك القصة أيضًا أنه لم يثبت سماع الأحياء أصوات أهل القبور إلا ما اختصَّ به الله ﷻ نبيه ﷺ، ولا دليل مطلقًا على سماع أحدٍ شيئًا من ذلك غير النبي ﷺ ®.

الخلاصة:

- الحديث الذي جاء فيه أن صحابيًّا سمع رجلًا ميِّتًا يقرأ سورة "الملك" وهو في القبر - حديث ضعيف مردود لم تصح نسبته إلى النبي ﷺ؛ فقد حكم عليه علماء الحديث بالضعف؛ لضعف سنده.
- إن يحيى بن عمرو بن مالك النُّكري - راوي الحديث - ضعيف باتفاق علماء الحديث؛ فقد ضعَّفه كل من: الدارقطني، وابن حجر، والذهبي، وأحمد بن حنبل، والساجيُّ، والعقيلي، وضعَّفه المحدِّث الشيخ الألباني، وغيرهم من العلماء.
- ليس للقصة التي جاءت في هذا الحديث شواهد

® في **"معجزات النبي وخصوصياته"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السابعة عشرة، من الجزء الثامن (الإلهيات). و في **"توجيهات العلماء وتفسيراتهم لمسألة سماع الموتى من الأحياء وأدلتهم على ذلك"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة والعشرين، من هذا الجزء.

تقوِّيها وتعضِّدها؛ بل الشواهد تدور حول فضل سورة تبارك "الملك" فقط، أما هذه القصة فمنكرة غريبة، يُشَمُّ منها رائحة التوسل بالأموات، وليس مجرد التعليم، كما توهم بعض الناس.

- إن مسألة سماع الحي من الميت لم تصح إلا عن النبي ﷺ، فأحاديث سماع النبي ﷺ أصوات المقبورين يعذبون كثيرة في كتب السنة بأسانيد صحيحة، ومن ادَّعى ذلك لغير النبي ﷺ فلا دليل معه مطلقًا.
- لذا فعلينا أن ننقي أذهاننا من تلك الأباطيل، وأن نتمسك بالسنة الصحيحة التي نقلها لنا سلفنا الصالح عن رسول الله ﷺ؛ ففيها النفع والفائدة، وأن نبتعد عن تلك القصص الباطلة المنكرة، خاصةً تلك الروايات التي من شأنها أن تُبنى عليها الأحكام في مسائل العقائد.

الشبهة الحادية والثلاثون

دعوى تعارض الأحاديث في حكم مرتكبي الكبائر وعصاة الموحدين ومصيرهم(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المغرضين تعارض الأحاديث الواردة بشأن مرتكبي الكبائر وعصاة الموحدين؛ حيث جاءت بعض الأحاديث تحكم بدخول هؤلاء العصاة الجنة وإن ماتوا دون توبة، ولم يفعلوا خيرًا قط في حياتهم، وأن ارتكاب الكبائر لا يؤثر في الإيمان، على حين أن بعض الأحاديث الأخرى قطعت بعدم دخول أصحاب المعاصي ومرتكبي الكبائر الجنة، كما أفادت بأنهم قد يَصِلون إلى حد الكفر، والتخليد في النار بهذه الذنوب.

ويستدلون على ذلك بمجموعة من الأحاديث، منها:

- قول النبي ﷺ: "ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق...."الحديث.
- قوله ﷺ: "لا يدخل النار رجل في قلبه مثقال ذرة من إيمان".
- قوله ﷺ: "من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة"، ونحو ذلك من الأحاديث التي جاءت في دخول أهل الكبائر والعصاة الجنة لمجرد موتهم على التوحيد.

ويزعمون أنها تناقض ما رُوي عن النبي ﷺ بما يفيد دخول هؤلاء النار، ووصولهم إلى حد الكفر والتي منها:

- قوله ﷺ: "لا يدخل الجنة قاطع رحم".
- قوله ﷺ: "لا يدخل الجنة نمَّام".
- قوله ﷺ: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...".
- قوله ﷺ: "من اقتطع حق امرئ مسلم فقد أوجب الله تعالى له النار، وقد حرم عليه الجنة، فقال له الرجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: وإن

(*) تحرير العقل من النقل، سامر إسلامبولي، مرجع سابق. دور السنة في إعادة بناء الأمة، جواد عفانة، مرجع سابق. التعارض في الحديث، د. لطفي بن محمد الزغير، مرجع سابق.

كان قضيبًا من أراك".

- قوله ﷺ: "سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر".

ويتساءلون أليس هذا تناقضًا بَيِّنًا بين الأحاديث النبوية، وكيف يمكن لنا قبول هذه الأحاديث على ما فيها من هذا التعارض الشديد. رامين من وراء ذلك إلى هدم السنة النبوية، وتشكيك المسلمين في عقائدهم وثوابتهم.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن الأحاديث النبوية الواردة في حكم مرتكبي الكبائر وعصاة الموحدين لا تعارض بينها ولا تناقض؛ إذ اتفقت كلمة أهل السنة وعلماء السلف - رغم اختلاف الفرق والمذاهب في هذه المسألة - على أن أصحاب الكبائر والعصاة من أهل التوحيد أمرهم في الآخرة إلى الله، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، ولا يخرجون من الإيمان بكبائرهم، ولا يخلدون في النار إذا دخلوها، ومصيرهم في النهاية إلى الجنة، وبهذا الفهم القويم تتفق الأحاديث وتتكامل وينتفي ما توهم فيها من تعارض.

٢) إن لأهل العلم ومحققي السنة آراءً واحتمالاتٍ وتأويلاتٍ صحيحة في الأحاديث التي توهم المغرضون تعارضها، والتي تفيد بأن أصحاب المعاصي والكبائر تُحرَّم عليهم الجنة ولا يدخلونها ومصيرهم إلى النار، فأوَّلوا ذلك بأن هذه الأحاديث إما محمولة على من يستحلُّ هذه المعاصي ولا يعتقد تحريمها، أو أنها محمولة على بعض الجنان دون بعض، أو أن هذه الأحاديث من باب الوعيد الذي يقف تنفيذه على شرط مشيئة الله، فيغفر لمن يشاء ويرحم مَنْ يشاء.

التفصيل:

أولا. اتفاق علماء السنة على أن مرتكبي الكبائر وعصاة الموحدين أمرهم في الآخرة إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، ولا يخلدون في النار ألبتة:

لقد جاء الإسلام دينًا قويًا شاملًا لكل جوانب الخير والنفع للإنسان في عاجل أمره وآجله، وحرص كل الحرص على أن يتحقق التوحيد الخالص عند المرء المسلم، وأن يكون مثالًا للتقوى، ونموذجًا للاستقامة، ومن هنا خط له الطريق وأوضح له السبيل، وبيَّن له طريق الهداية والرشاد، ووضَّح له طريق الغواية والضلال، وحذره من الشرور، وحثه على فعل الخيرات، وإقامة الحدود، وأُقيمت العقوبات، وخُطت الجزاءات، فكانت النار جزاءً للعصاة والكافرين، وكانت الجنة ثوابًا للطائعين الموحدين.

وعلى هذا ترددت أعمال المرء في حياته بين الصواب والخطأ، والطاعة والمعصية، إما أن يقترب من طريق الهداية (الإيمان)؛ فيتحقق له الخير والنجاة، وإما أن يقترب من طريق الغواية والضلال (الكفر)، فيزلَّ في سبل الضلال والهلاك.

وهكذا تتنوع أعمال المسلم بين صغائر ملمات، وكبائر مهلكات، والصغائر تكفِّرها الطاعات والأعمال الصالحات، كما جاءت بذلك الأخبار والروايات.

قال تبارك و تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (هود: ١١٤)، وقال أيضًا: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ (النساء: ٣١)، وكما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ (النجم: ٣٢).

وقال ﷺ: "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر"[1]. وعلى هذا فصغائر الذنوب أمرها يهون إذا قرنها الاستغفار، ولحقتها الصلاة، وإقامة الطاعات والخيرات.

أما كبائر الذنوب: فالحديث حولها أثار جدلًا وخلافًا، وتنوعت فيها الآراء، واختلفت فيها المذاهب، وتضاربت فيها الأقوال، وهدى الله فيها أهل الحق إلى الحق بإذنه، على نحو ما سنذكر بإذن الله.

فما مصير صاحب الكبيرة إذن؟ هل هو من أصحاب النار المخلدين فيها؟ أم من أصحاب الجنة المنعمين فيها؟ وكيف يعاقب على ذنوبه ويلقى جزاء عصيانه في الآخرة؟ وهل يفارق الإيمان بمعصيته ويصبح من الكافرين؟ أم هو بها لا يزال من المؤمنين الموحدين؟

تساؤلات عدَّة واستفهامات مترددة حاول كثير من العلماء - على اختلاف مذاهبهم - الإجابة عنها، وتحديد الصواب فيها، وذلك على ما جاءت به الأحاديث في هذا الشأن، فاختلفت الآراء وتفرقت المذاهب، وهدى الله أهل السنة من بينهم إلى الجمع بين الأحاديث، ونفي التعارض عنها، والتوفيق إلى القول الحق في هذه المسألة.

مذاهب الناس في حكم مرتكبي الكبيرة وعصاة الموحدين:

ذهب العلماء في حكم مرتكبي الكبائر والعصاة من الموحدين مذاهب شتى، واتخذوا فيها مواقف مختلفة وآراء متعددة، وخرج كثير منهم فيها عن حد الاعتدال، فذهبت الخوارج إلى أن مرتكب الكبيرة خالد مخلد في النار؛ قد خرج عن الإيمان، وفارق الإسلام. وذهبت المرجئة والجهمية إلى أنه مؤمن في أعلى درجات الإيمان ما دام على التوحيد مصدقًا بها قلبه؛ بمعنى: أنه لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. وقالت المعتزلة: إنه في منزلة بين المنزلتين، لا هو بمؤمن ولا هو بكافر.

وقد توسط أهل السنة بين هذه المذاهب جميعًا، فحكموا بأن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وفعل الخيرات، وينقص بالمعاصي وفعل المنكرات، فهم لا ينفون عن مرتكب الكبيرة اسم الإيمان على الإطلاق، ولا يعطونه على الإطلاق، فهو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، ومصيره في الآخرة إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، إلا أنه لا يخلد في النار إذا دخلها، وإنما يخرج منها إلى الجنة مهما طال به المقام ما دام أنه مات على أصل الإيمان، وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله تصديقًا بالجنان ونطقًا باللسان.

وهذا ما أكد عليه الإمام ابن تيمية عند حديثه عن هذه المسألة، فقال: "الناس في الفاسق من أهل الملة - مثل الزاني والسارق والشارب ونحوهم - ثلاثة أقسام: طرفين ووسط:

أحد الطرفين: أنه ليس بمؤمن بوجه من الوجوه، ولا يدخل في عموم الأحكام المتعلقة باسم الإيمان، ثم مِنْ هؤلاء مَنْ يقول: هو كافر كاليهودي والنصراني، وهو قول الخوارج، ومنهم من يقول: ننزله منزلة بين المنزلتين، وهي منزلة الفاسق، وليس هو بمؤمن ولا

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الطهارة، باب: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، (٢/ ٧٤١)، رقم (٥٤١).

كافر، وهم المعتزلة، وهؤلاء يقولون: إن أهل الكبائر يخلدون في النار، وإن أحدًا منهم لا يخرج منها، وهذا من مقالات أهل البدع التي دل الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان على خلافها...

والطرف الثاني: قول من يقول: إيمانهم باقٍ كما كان لم ينقص، بناء على أن الإيمان هو مجرد التصديق والاعتقاد الجازم وهو لم يتغير، وإنما نقصت شرائع الإسلام، وهذا قول المرجئة والجهمية ومَنْ سلك سبيلهم، وهو أيضًا قول مخالف للكتاب والسنة وإجماع السابقين والتابعين لهم بإحسان...

فالقول الوسط الذي هو قول أهل السنة والجماعة أنهم لا يسلبون الاسم على الإطلاق ولا يعطونه على الإطلاق، فنقول: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن عاصٍ، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، ويقال: ليس بمؤمن حقًّا، أو ليس بصادق الإيمان"[1].

كما نقل الإمام أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة موقفهم في هذه المسألة فقال: "ولا يكفِّرون أحدًا من أهل القبلة بذنب يرتكبه كنحو الزنا والسرقة وما أشبه ذلك من الكبائر، وهم بما معهم من الإيمان مؤمنون، وإن ارتكبوا الكبائر... ويقرون بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ولا يقولون: مخلوق ولا غير مخلوق، ويقولون: أسماء الله هي الله، ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار، ولا يحكمون بالجنة لأحد من الموحدين حتى يكون الله ﷻ ينزلهم حيث شاء، ويقولون: أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم، ويؤمنون بأن الله ﷻ يخرج قومًا من الموحدين من النار على ما جاءت به الروايات عن رسول الله ﷺ"[2].

وهذا ما أكد عليه الإمام الطحاوي بقوله: "وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون، إذا ماتوا وهو موحدون، وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين مؤمنين، وهم في مشيئته وحكمه، إن شاء غفر لهم، وعفا عنهم بفضله، كما ذكر ﷻ في كتابه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨)، وإن شاء عذبهم في النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يبعثهم إلى جنته، وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته، ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته الذين خابوا من هدايته، ولم ينالوا من ولايته"[3].

هذه هي آراء العلماء وأصحاب الفرق والمذاهب في حكم مرتكبي الكبائر وعصاة الموحدين ومصيرهم في الآخرة، ويبرز فيها رأي أهل السنة رأيًا وسطًا معتدلًا لا إفراط فيه ولا تفريط، حيث يجمع كلام النبي ﷺ ويوفق بينه في حسن فهمٍ واكتمال بيانٍ، وبهذا الفهم الواعي والرأي الراجح تظهر الأحاديث النبوية الصحيحة الواردة في هذا الباب حول مرتكب الكبيرة لا تعارض بينها ولا تناقض؛ لأن الإنسان ما دام لديه أصل الإيمان، ومات على كلمة التوحيد قولًا باللسان وتصديقًا بالجنان، فهو لا يخرج من دائرة الإيمان وإن ارتكب كل الآثام، وإنما هو مؤمن عاصٍ، مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته لا يخلد في النار يوم القيامة إذا دخلها،

---

١. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، (٧/ ٦٧٠: ٦٧٣).

٢. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن الأشعري، تحقيق: هلموت ريتر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، (١/ ٢٩٣، ٢٩٤).

٣. شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، مرجع سابق، ص٢٩٦، ٢٩٧.

وأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

وقد استدل أهل السنة على موقفهم هذا بأدلة كثيرة منها:

ما جاء في الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ﷺ: "أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله، فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه، فبايعنا على ذلك"[1].

فهذا الحديث دليل على أن أصحاب الذنوب والعصاة أمرهم في الآخرة مردود إلى الله إن شاء عفا عنهم، وإن شاء عذبهم على قدر ذنوبهم، إلا أنهم لا يخلدون في النار بهذه الكبائر التي فعلوها.

ومنها ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: "يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا مَنْ كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسوَدُّوا، فيلقون في نهر الحيا ـ أو الحياة، شك مالك[2] ـ فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية"[3]؟

وكذلك ما جاء عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: "يخرج من النار مَنْ قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شَعِيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بُرَّةٍ من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذَرَّةٍ من خير"، قال أبو عبد الله: قال أبان: حدثنا قتادة، حدثنا أنس عن النبي ﷺ "من إيمان" مكان "من خير"[4].

فهذان الحديثان ـ وما جاء في معنيهما ـ من الأدلة القاطعة على أنه لا يخلد في النار موحد، فيُعذب العصاة في النار على قدر ذنوبهم ما شاء الله لهم أن يعذبوا، ثم يخرجون من النار في حينٍ من الأحيان، ويدخلون الجنة، ولا يخلدون في النار ما داموا على التوحيد، بل يخرجون منها برحمة أرحم الرحمين ثم بشفاعة الشافعين. والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وهذا ما يؤكده قول النبي ﷺ: "لَقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله؛ فإنه من كان آخر كلمته لا إله إلا الله عند الموت دخل الجنة يومًا من الدهر، وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه"[5].

وهذا مقام يطول الحديث فيه ويعظم تفصيله إلا أننا نخرج من هذا العرض بأن عصاة الموحدين وأصحاب الكبائر لا يخرجون من دائرة الإيمان بمعاصيهم، ولا يخلدون في النار إذا دخلوها، وإنما هم مؤمنون ناقصو الإيمان، أمرهم إلى الله في الآخرة، إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم، ثم يدخلون الجنة ما دام لديهم أصل

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الإيمان، باب: بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، (١/ ٨١)، رقم (١٨).

٢. مالك: هو أحد رواة الحديث.

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان في الأعمال، (١/ ٩١)، رقم (٢٢).

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الإيمان، باب: زيادة الإيمان ونقصانه، (١/ ١٢٧)، رقم (٤٤).

٥. صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: الجنائز، باب: المريض وما يتعلق به، (٧/ ٢٧٢)، رقم (٣٠٠٤). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان.

الإيمان وكلمة التوحيد، وإن لم يفعلوا من الطاعات شيئًا، وبهذا يرتفع التعارض المتوهم في أحاديث هذا الباب، فهم بتوحيدهم مستحقون الجنة وبمعاصيهم وكبائرهم يعذبون في النار بمشيئة الله ﷻ ®.

ثانيًا. الأحاديث الصحيحة التي استدل بها المتوهمون لا تعارض فيها ولا تناقض، ولأهل العلم أقوال وتأويلات صحيحة فيها:

إن الأحاديث التي استدل بها هؤلاء المتوهمون على أنها متعارضة متضاربة ـ عند التحقيق فيها، ومطالعة آراء أهل العلم وعلماء السنة حولها نجد أنها متفقة مترابطة تمام الترابط لا تعارض فيها ولا اضطراب.

فقد ذكر العلماء توجيهات عديدة للأحاديث التي نصت على دخول أصحاب الكبائر وعصاة الموحدين النار وعدم دخولهم الجنة، والتي منها:

- ما رُوي عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يدخل الجنة قَتَّات[1]"[2]، وفي رواية: "نَمَّام".
- وحديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "مَنْ اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة، فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا؟ قال: وإن كان قضيبًا من أراك"[3].
- وحديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: "ومن ادَّعى إلى غير أبيه، وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام"[4].
- وحديث جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يدخل الجنة قاطع رحم"[5].
- وحديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من قتل نفسًا معاهدة بغير حقها فقد حرم الله ﷻ عليه الجنة أن يشمَّ ريحها"[6].

إلى غير ذلك من الأخبار والأحاديث التي جاءت في هذا المعنى وذلك السياق، والتي تبدو متعارضة مع الأحاديث التي جاء فيها دخول أصحاب الكبائر والعصاة الجنة ما داموا على التوحيد، وإن لم يفعلوا خيرًا قط. ومن هذه الأحاديث:

- قوله ﷺ: "لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان"[7].
- وقوله ﷺ: "من مات يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صادقًا من قلبه دخل الجنة"[8].

® في **"عقيدة أهل السنة والجماعة في غفران الذنوب"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة العاشرة، من الجزء الثامن (الإلهيات). وفي **"مغفرة ذنب الموسمة لا ينافي العدل الإلهي"** طالع: الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الثامن (الإلهيات).

١. القَتَّات: الذي يتسمَّع كلام الناس من حيث لا يعلمون.

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأدب، باب: ما يكره من النميمة، (١٠/ ٤٨٧)، رقم (٦٠٥٦).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: وعيد من اقتطع حق مسلم بيمينٍ فاجرة بالنار، (٢/ ٥٤٩)، رقم (٣٤٦).

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الفرائض، باب: من ادَّعى إلى غير أبيه، (١٢/ ٥٤)، رقم (٦٧٦٦).

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها، (٩/ ٣٦٨٦)، رقم (٢٨٤).

٦. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة رضي الله عنه، رقم (٢٠٥٤٢). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٧. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، (٢/ ٤٨٣)، رقم (٢٦٠).

٨. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، رقم (٢٢٠٥٦). وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

○ وعن أبي ذر ﷺ قال: "أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض وهو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فقال: ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر"[١].

لقد أجاب العلماء عن هذا التعارض المتوهم وردُّوه، وجمعوا بين هذه الأحاديث، فإن أصحاب الكبائر والمعاصي من أهل التوحيد يدخلون الجنة ولا يخلدون في النيران إذا دخلوها، على نحو ما ذكرنا في الوجه الأول.

أما الأحاديث التي ذكرت أن هؤلاء العصاة لا يدخلون الجنة، بل تحرم عليهم، فقد ذكر العلماء لها عدة توجيهات من أهمها:

- أنها محمولة على من يستحلُّ هذه الكبائر مع علمه بالتحريم، فهذا كافر مخلد في النار، ولا يدخل الجنة أصلًا، بل يكون في حكم المرتد، ويقتل حدًّا إن أصر على فعله مع علمه التام به.
- أنها محمولة على أن مرتكب الكبيرة جزاؤه أن لا يدخل الجنة وقت دخول الفائزين إذا فتحت أبوابها لهم، بل يؤخر عنهم، ويدخل في مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.
- أن هذه النصوص من باب الوعيد الذي توعَّد الله به عباده، وأن هذا الوعيد جزاء مرتكب الكبيرة حقًّا، إلا أن الله تكرم عليه، وأخبر أنه لا يخلد في النار موحد في قلبه مثقال ذرة من خير[٢].

وعلى هذا فإذا كان أصحاب هذه المعاصي والكبائر مستحلين لها، ولا يعتقدون تحريمها وماتوا على هذا، فهم بهذا لا يدخلون الجنة، ويخلدون في النار؛ لأنهم بهذا كافرون أصلًا، أما الذين لا يستحلون هذه المعاصي من أهل التوحيد، فهم بإذن الله مستحقون الجنة وإن عُذِّبُوا في النار، وأمرهم في مشيئة الله.

وقد تكون هذه الأحاديث من باب الوعيد، كما يقول الشيخ صالح آل الشيخ: "دخول أهل الكبائر في النار هذا وعيد، وهذا الوعيد يجوز إخلافه من الرب؛ وذلك أن مرتكب الكبيرة إذا تاب في الدنيا تاب الله تعالى عليه، وإذا طُهِّرَ بحدٍّ أو نحوه كتعزير، فإنه يكون كفارة له.

فإذًا يكون مرتكب الكبيرة من أهل الوعيد إلا في حالات:

- **الحال الأولى**: أن يكون تائبًا كما ذكرنا لك؛ لأن التوبة تَجُبُّ ما قبلها، قال الله تعالى في آخر سورة الزمر: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر:٥٣)، وقد أجمع أهل التأويل والتفسير: أنها نزلت في التائبين، فمن تاب تاب الله عليه، فلا يلحق التائب وعيد؛ لأنه قد محيت عنه زلته وخطيئته بالتوبة.
- **الحال الثانية**: أن يُطهر من تلك الكبيرة إما بحد كمن شرب الخمر مثلًا فأقيم عليه الحد، فهو طهارة وكفارة له، وكذلك مَنْ قَتَلَ مسلمًا فقتل، أو مَنْ قتلَ

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: اللباس، باب: الثياب البيض، (١٠/ ٢٩٤)، رقم (٥٨٢٧).

٢. انظر: السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، (٢/ ٢٤٤، ٢٤٥).

مسلمًا خطأ فدفع الدية، فإن هذا كفارة له، أو سرق فقطعت يده فهو كفارة له، أو قذف فأقيم عليه حد القذف فهو كفارة له، أو زنى إلى آخره، أو كان تعزيرًا أيضًا فإنه طهارة.

يعني أن ما يُقام على المسلم من حَدٍّ أو تعزير من عقوبة في الدنيا فإنها من جنس العقوبة في الآخرة تطهره من هذا الذنب.

- **الحال الثالثة:** بعض الذنوب الكبائر تكون لها حسنات ماحية، مثل الصدقة في حق القاتل، قال ﷻ: ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ (المائدة:٤٥)، ومثل الجهاد العظيم فإنه ينجي من العذاب الأليم، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (الصف)، والعذاب الأليم هو لمن فعل الكبيرة؛ لأنه وعيد شديد.
- **الحال الرابعة:** أن يغفر الله ﷻ له ذلك لأسباب متعددة...
- **الحال الخامسة:** أن يغفر الله ﷻ له بعد أن صار تحت المشيئة... إن شاء الله غفر لهم، وإن شاء عذبهم في النار، ثم يخرجون لا يخلدون"[1].

كما يشترط لعدم خلود مَنْ لم يُغفر له ممن لم يتب عن الكبائر والمعاصي في النار شرطان، وهما:

- أن يكون مات على التوحيد، فهو شرط عام في دخول الجنة، وعدم الخلود في النار، فكل موحد لا بد أن يخرج من النار.
- أَلَّا يكون مستحلًا لهذه الكبيرة، فقد يكون موحدًا في الأصل، ويكون من جهة أخرى مستحلًا لكبيرة بعينها، فهو بهذا يخرج عن أهل الإيمان؛ لأن حقيقة الموحد هو أنه غير مستحل لشيء من محارم الله تعالى.

وهذا بقيد: أن تكون الكبيرة مما أجمع على تحريمه، وأن يكون المستحل لها غير متأول[2].

وعلى هذا يزول التعارض المتوهم في الأحاديث، فالذي تحرَّم عليه الجنة ويخلد في النار من العصاة ومرتكبي الكبائر، هم الذين يستحلون هذه الذنوب، ويعتقدون عدم تحريمها، أو أن الأمر من باب الوعيد الذي توعد الله به ـ العصاة، وهذا الوعيد هو جزاؤهم الذي يستحقونه إلا أن الله تكرم عليهم، وأخبر بأنه سيغفر لهم، ويخرجهم من النار ويدخلهم الجنة بعد دخول الداخلين.

وقد علق الإمام النووي على حديث: "من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة"[3] قائلًا: "وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرًّا عليها دخل الجنة أولًا، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرًّا عليها، فهو تحت المشيئة، فإن عُفي عنه دخل أولًا، وإلا عُذِّبَ، ثم أخرج من النار وخُلِّد في الجنة"[4].

وقد ذكر الإمام ابن خزيمة رحمه الله أن هذه الأخبار

---

١. إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دروس صوتية مسجلة، ص٤٤١ بتصرف.
www.said.net

٢. انظر: المرجع السابق، ص٤٤٢.

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة، (٢/ ٤٨٧)، رقم (١٢٦٦).

٤. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٢/ ٤٩٠).

التي جاءت في أن أصحاب الكبائر والمعاصي لا يدخلون الجنة، ويُحرَّمون عليها؛ إنما هي على أحد معنيين:

"أحدهما: لا يدخل الجنة؛ أي بعض الجنان، إذ النبي ﷺ قد أعلم أنها جنان في جنة، واسم الجنة واقع على كل جنة منها، فمعنى هذه الأخبار التي ذكرنا: من فعل كذا لبعض المعاصي حرم الله عليه الجنة، أو لم يدخل الجنة، معناها: لا يدخل بعض الجنان التي هي أعلى وأشرف وأنبل وأكثر نعيمًا وسرورًا وبهجة وأوسع، لا أنه أراد: لا يدخل شيئًا من تلك الجنان التي هي في الجنة... والمعنى الثاني: ما قد أعلمت أصحابي ما لا أُحصي من مرة: أن كل وعيد في الكتاب والسنة لأهل التوحيد؛ فإنما هو على شريطة؛ أي: إلا أن يشاء الله أن يغفر ويصفح ويتكرم فلا يعذب على ارتكاب تلك الخطيئة؛ إذ الله ﷻ قد أخبر في مُحْكَم كتابه أنه قد يشاء أن يغفر ما دون الشرك من الذنوب في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء:٤٨)"[1].

نخلص من هذه الآراء والأقوال إلى أن الأحاديث النبوية التي جاءت في حكم عصاة الموحدين، وأصحاب الكبائر لا تعارض بينها ولا تناقض، بل هي متوافقة متكاملة، وما توهم منه أنه شديد التعارض إنما هو محمول على عدة معان مقبولة عند أهل العلم، منها أن يكون صاحب المعصية مستحلًّا لمعصيته، أو أن هذه الأحاديث من باب الوعيد المشروط بمشيئة الله تعالى أن يغفر ويصفح ويتكرم فلا يعذب مَنْ مات على التوحيد، أو أنها محمولة على بعض الجنان دون بعض، أو لا يدخلون الجنة في أول الداخلين. وكلها تفسيرات مقبولة صحيحة يرتفع معها التعارض المتوهم في الأحاديث، وتذهب أوهام المغرضين أدراج الرياح.

وقد وردت أحاديث تفيد أن مرتكب الكبيرة قد يصل إلى مرحلة الكفر - وهو ما يوهم منه تأييد مذهب المعتزلة والخوارج - ومنها بعض الأحاديث التي تعارض الأحاديث التي مرَّت آنفًا، مثال ذلك: ما ورد عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن"[2]، وما ورد عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: "سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر"[3].

فكما يُفهم من النصَّين: أن مرتكب إحدى الكبائر ليس بمؤمن، والحديث الثاني نصَّ على أن قتال المسلم كفر، والقتال كبيرة من الكبائر، فعلى هذا مرتكب الكبيرة كافر، وهو ما يُفهم من أن الكفر هو الارتداد؛ لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء: ٤٨).

فما المقصود بالحديثين عند ذلك، وكيف نفهمهما؟

بالنسبة للحديث الأول فقد جاء حلُّ إشكاله في

١. كتاب التوحيد، ابن خزيمة، تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، مكتبة الرشد، الرياض، ط٥، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، (١/ ٥٥٤، ٥٥٥).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: المظالم، باب: النُّهْبَى بغير إذن صاحبه، (٥/ ١٤٣)، رقم (٢٤٧٥).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: بيان قول النبي ﷺ: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر"، (١/ ٤٤٦)، رقم (٢١٧).

ألفاظه، وهو قوله: "حين يزني"، وقوله: "حين يسرق"؛ أي في لحظة الزِّنى، وفي لحظة السرقة، لا أنَّ مُسمَّى الإيمان يزول عنه كُليًّا وينتقل إلى مُسمَّى الكفر، فإن هذا لا يكون إلا باستحلال فاعل ذلك لما يصنع.

ويصدِّق هذا ما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إذا زنى الرجل خرج منه (عنه) الإيمان كان عليه كالظُّلَّة، فإذا انقلع (أقلع) رجع إليه الإيمان"[1]، أما قوله ﷺ: "سبابُ المسلم فسوقٌ وقتاله كفر" فيجب ألَّا يُحمل على ظاهره، ولا سيما إذا كان قتاله متأولًا، وليس مستحلًّا له[2].

قال الحافظ ابن حجر: "قوله: "وقتاله كفر" إن قيل: هذا وإن تضمن الرد على المرجئة، لكنَّ ظاهره يقوي مذهب الخوارج الذين يُكفِّرون بالمعاصي. فالجواب: إن المبالغة في الرد على المبتدع اقتضت ذلك، ولا متمسك للخوارج فيه؛ لأن ظاهره غير مراد، لكن لما كان القتال أشد من السباب ـ لأنه مفضٍ إلى إزهاق الروح ـ عبر عنه بلفظ أشد من لفظ الفسق وهو الكفر، ولم يُرد حقيقة الكفر التي هي الخروج عن الملة، بل أطلق عليه الكفر مبالغة في التحذير، معتمدًا على ما تقرر من القواعد أن مِثْل ذلك لا يُخرج عن الملة، مثل حديث الشفاعة، ومثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء: ٤٨)... أو أنه أطلق عليه الكفر لشبهه به؛ لأن قتال المؤمن من شأن الكافر.

وقيل: المراد هنا الكفر اللغوي وهو التغطية، لأن حق المسلم على المسلم أن يعينه وينصره، ويكف عنه أذاه، فلما قاتله كان كأنه غطى على هذا الحق...

ومثل هذا الحديث قوله ﷺ: "لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض"[3] ففيه هذه الأجوبة، ونظيره قوله تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ (البقرة: ٨٥) بعد قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ ﴾ (البقرة: ٨٥) فدلَّ على أن بعض الأعمال يطلق عليه الكفر تغليظًا.

وأما قوله ﷺ فيما رواه مسلم: "لعن المسلم كقتله"[4] فلا يخالف هذا الحديث، لأن المشبه به فوق المشبه، والقدر الذي اشتركا فيه بلوغ الغاية في التأثير: هذا في العِرض، وهذا في النفس"[5].

إذًا فصرف الحديث عن ظاهره ليس من باب التشهي، أو تأييد مذهب معيَّن، بل لما تقتضيه محكمات الآيات، ومتواترات الأحاديث، فما كان من متشابه يُردُّ إلى المحكم؛ ليفهم على ضوئه، والحديث من النوع المتشابه الذي يفهم مع ضمِّه للأحاديث الأخرى

---

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (بشرح عون المعبود)، كتاب: السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقائصه، (١٢/ ٢٩٥)، رقم (٤٦٧٦). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٤٦٩٠).

٢. التعارض في الحديث، د. لطفي بن محمد الزغير، مرجع سابق، ص٢٢٩، ٢٣٠ بتصرف.

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الفتن، باب: قول النبي ﷺ: "لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض"، (١٣/ ٢٩)، رقم (٧٠٧٧).

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن مَنْ قتل نفسه بشيء عذب به في النار... (٢/ ٥١٣)، رقم (٢٩٦).

٥. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١/ ١٣٨).

الكثيرة المحكمة. وبديهيٌّ أن الله لا يغفر الكفر، إذًا اقتضى أن يكون المراد بالكفر ليس كفر الردة.

ولزيادة التوضيح أنقل هذه الفقرات عن أحد علماء السلف، وهو أبو القاسم عبيد بن سلام إذ قال: وإن الذي عندنا في هذا الباب كله أن المعاصي والذنوب لا تزيل إيمانًا، ولا توجب كفرًا؛ ولكنها إنما تنفي من الإيمان حقيقته وإخلاصه الذي نعت الله به أهله.

وقال: وأما الآثار المرويات بذكر الكفر والشرك ووجوبها بالمعاصي، فإن معانيها عندنا لا تُثبِتُ على أهلها كفرًا ولا شركًا يزيلان الإيمان عن صاحبه، إنما وجوهها أنها من الأخلاق والسنن التي عليها الكفَّار والمشركون.

وقال: وأما الفرقان الشاهد عليه في التنزيل فقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (المائدة)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "ليس بكفر ينقل عن الملة"[١].

وقد بيّن ابن منده أن هذا القتال كفرٌ لا يبلغ به الشرك، فقال: ذكر ما يدل على أن مواجهة المسلم بالقتال أخاه كفرٌ لا يبلغ به الشرك والخروج من الإسلام، ثمَّ روى حديثًا عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار"[٢].

فالحديث سمَّى القاتل والمقتول مسلمين، ولهذا ترجم ابن منده بقوله الذي مر آنفًا"[٣].

وقد ترجم البخاري عند روايته هذا الحديث فقال: باب: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ (الحجرات: ٩)، فسمَّاهم المؤمنين، وغرض البخاري الرد على من يُكفِّر المسلم بالمعصية.

فالمؤمن إذا ارتكب معصية لا يكفر، بدليل إبقاء المولى عز وجل اسم المؤمن؛ فقال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الحجرات)، وقوله ﷺ: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما" فسماهما مسلمين مع التوعد بالنار[٤].

وبهذا التفصيل يتضح أنه لا تعارض بين الأحاديث الواردة في حكم مرتكب الكبيرة، وأن الفهم الصحيح لمعاني الأحاديث وفق مبادئ التشريع الإسلامي، وفي ضوء النصوص الصريحة الصحيحة يُحبط أي محاولة لنزع الثقة في السنة. وينفي هذا الطعن بالتعارض بين الأحاديث السابقة، ويكون الصواب أن مرتكب الكبيرة لا يكفر بكبيرته، بل هو مؤمن ناقص الإيمان، إلا أن يتوب، وإذا مات على ذلك ودخل النار فإنه لا يخلد في النار®.

١. أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المائدة، (٢/ ٣٤٢)، رقم (٣٢١٩).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الديات، باب: قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ... ﴾، (١٢/ ١٩٩)، رقم (٦٨٧٥).

٣. انظر: التعارض في الحديث، د. لطفي محمد الزغير، مرجع سابق، ص٢٣٠: ٢٣٢. الإيمان، ابن منده، تحقيق: علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ، (٢/ ٥٨٦).

٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١/ ١٠٧) بتصرف.

® في **"توجيهات العلماء للأحاديث التي ظاهرها تكفير العاصي بكبيرته ومعصيته"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والثلاثين، من هذا الجزء.

الخلاصة:

- لقد حرص الدين الإسلامي كل الحرص على حفظ كلمة التوحيد وحمايتها من صنوف البدع، وخرافات الشرك، وأوهام الضلال، وحرَّم كل ما يخالف مقتضيات هذه الكلمة أو ينحرف عنها، ومن هنا وضعت الحدود وأقيمت العقوبات لكل من يخالف هذه الكلمة والخروج عن أمر الله ﷻ ونهيه.

- تتنوع معاصي الإنسان وذنوبه بين صغائر ململمات وكبائر مهلكات، فالصغائر تكفرها الطاعات والعبادات، والأعمال الصالحات وملازمة الاستغفار، أما الكبائر فتكفرها التوبة، وإقامة الحدود، ولا تخرج صاحبها من الملة ما دام لديه أصل الإيمان، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، إقرارًا باللسان وتصديقًا بالجنان.

- اختلفت الفرق والمذاهب الإسلامية في حكم مرتكب الكبائر والعصاة اختلافًا كبيرًا، وقام بينهم جدال حول هذه المسألة، فمن قائل: إن مرتكبي الكبيرة خالد مخلد في النار، ومن قائل: إنه في منزلة بين المنزلتين، لا هو بمؤمن ولا كافر، ومن قائل: إنه مؤمن في أعلى درجات الإيمان، فلا تضر مع الإيمان معصية، وكلها آراء مخالفة للكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

- لقد اتفقت كلمة أهل السنة والجماعة وعلماء السلف على أن مرتكبي الكبائر من عصاة الموحدين لا يخرجون عن الإيمان ولا يكفرون بمعاصيهم، وإنما هو مؤمن ناقص الإيمان، مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته؛ لأن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، وأمرهم في الآخرة إلى الله، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، إلا أنهم لا يخلدون في النار مهما طال بهم المقام، ويخرجون منها يومًا من الأيام ما داموا على التوحيد.

- إن هذا الفهم الصحيح لأهل السنة في حكم مرتكبي الكبائر وعصاة الموحدين ينفي عن الأحاديث النبوية التي جاءت في هذا الباب ما تُوُهِّم فيها من تعارض، بل تتكامل فيها الأحاديث وتتفق تمام الاتفاق، فأصحاب الكبائر بتوحيدهم مستحقون الجنة، وبمعاصيهم وكبائرهم يعذبون في النار ما شاء الله أن يعذبوا ثم يدخلون الجنة، وإن شاء الله غفر لهم ابتداءً ورحمهم من عذاب النار.

- إن الأحاديث التي جاء فيها أن أصحاب الكبائر يدخلون النار، وتُحرَّم عليهم الجنة محمولة على معانٍ عدة منها: أن يكون صاحب الكبيرة مستحلًّا لها لا يعتقد تحريمها، مع علمه بالتحريم، فهو بهذا يصبح من الكافرين، ولا يدخل الجنة أبدًا، أو أن هذه الأحاديث من باب الوعيد الذي توعد الله به العاصين، وهذا الوعيد مشروط بمشيئة الله تعالى، إن شاء عذب وإن شاء رحم وغفر، وقد وعد الله تعالى بمغفرة جميع الذنوب إلا الشرك، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (النساء:١١٦). أو أنها محمولة على بعض الجنان دون بعض، فلا يدخلون الجنة الأعلى منزلة والأشرف مكانًا. أو أنها محمولة على عدم دخولهم الجنة في أول الداخلين، وكلها تفسيرات مستقيمة مقبولة يرتفع معها التعارض المتوهم في الحديث.

- إن الأحاديث التي تفيد أن مرتكب الكبيرة قد يصل إلى مرحلة الكفر، مثل قوله ﷺ: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن..." ليس المقصود بها نفي الإيمان، كما أن الحديث جاء بلفظ: "حين" أي ينفي عنه الإيمان في حال الزنا والسرقة والمعصية فقط، لا ينفي عنه الإيمان كليَّةً.
- إن الحديث الذي جاء فيه "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر" لا يُحمل فيه لفظ الكفر على ظاهره (أي: الخروج عن الإيمان) وإنما هو من باب المبالغة في العقاب والتحذير؛ لعظم الذنب، مع العلم أنه يُرد إلى القواعد الثابتة بأن هذا الفعل لا يخرج من الملة وإنما أطلق عليه كفر؛ لأن قتال المؤمن من شأن الكافر، أو أنه أيضًا محمول على من يستحلّ هذه الذنوب.

الشبهة الثانية والثلاثون

دعوى تعارض الأحاديث الواردة في مآل الأطفال الموتى (*)

مضمون الشبهة:

يواصل المغرضون زعمهم ودعواهم حول أحاديث النبي ﷺ فيدعون تعارض الأحاديث الواردة في مصير أطفال المسلمين والمشركين بعد موتهم؛ إذ جاءت بعض الأحاديث تؤكد على دخولهم جميعًا الجنة دون تخصيص، على حين أن بعضها جاء يشكك في دخول أطفال المشركين الجنة ويقطع لهم بالنار. ويستدلون على ذلك بمجموعة من الأحاديث، منها:

- قوله ﷺ: "أولاد المشركين خدم أهل الجنة".
- وقوله ﷺ: "ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنة؟ النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والصديق في الجنة، والمولود في الجنة...." الحديث.
- وقوله ﷺ: "أطفال المؤمنين في جبل يكفلهم إبراهيم وسارة حتى يردوهم إلى آبائهم يومِ القيامة".
- وحديث إبراهيم الخليل عليه السلام حين رآه النبي ﷺ في الجنة، والذي جاء فيه: "والشيخ في أصل الشجرة، والصبيان حوله أولاد الناس: وقالوا: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: وأولاد المشركين".

فهذه الأحاديث تؤكد أن أطفال المؤمنين والمشركين سيدخلون الجنة على السواء، وهذا ما يعارضه ـ في زعمهم ـ الأحاديث الآتية:

- ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: تُوفِّي صبيٌّ، فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة، فقال رسول الله ﷺ: "أو لا تدرين أن الله خلق الجنة وخلق النار، فخلق لهذه أهلًا، ولهذه أهلًا".
- وما جاء عن الصعب بن جثَّامَة رضي الله عنهما قال: "مر بي النبي ﷺ بالأبواء أو بودَّان، وسُئل عن أهل الدَّار يُبيَّتون من المشركين، فيُصاب من نسائهم وذراريهم، قال: هم منهم".
- وما جاء عن الصحابي أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: "سئل النبي ﷺ عن ذراري المشركين. فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين".
- ويقوُّون حجتهم بطعنهم في حديث: "إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع يوم طبع كافرًا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا". فهو بهذا كافر

(*) العواصم والقواصم، ابن الوزير اليماني، مرجع سابق. تحرير العقل من النقل، سامر إسلامبولي، مرجع سابق.

مصيره إلى النار.

- وكذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها: "أنها سألت رسول الله ﷺ عن أولاد المسلمين: أين هم؟ قال: في الجنة، وسألته عن أولاد المشركين: أين هم يوم القيامة؟ قال: في النار، فقلت: لم يدركوا الأعمال، ولم تجر عليهم الأقلام؟ قال: ربك أعلم بما كانوا عاملين، والذي نفسي بيده، لو شئت أسمعتك تضاغيهم في النار"، وغيرها من الأحاديث التي جاءت في هذا المعنى. ويتساءلون: أليس هذا تعارضًا واضحًا بين الأحاديث الواردة في هذا الشأن؟! كما أنها أيضًا - في زعمهم - تخالف وتعارض ما جاء في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤)، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء).

هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في ثوابت السنة وأحكامها، وتشكيك المسلمين في عقائدهم، وبيان التعارض بين النصوص الشرعية؛ مما يؤدي إلى إسقاط حكمها وحجيتها.

وجها إبطال الشبهة:

١) لقد اتفقت كلمة أهل السنة وإجماع الأمة على أن الموتى من أطفال المسلمين في الجنة، واختلفوا في أطفال المشركين بين قائل بأن مصيرهم النار، ومتوقف في مصيرهم، وبين قائل بأن مصيرهم الجنة، والرأي الأخير هو الراجح، وعليه جمهور أهل العلم؛ حيث إن أولاد أهل الكتاب وغيرهم من أهل الشرك والملل المختلفة - فضلًا عن أطفال المسلمين - مشمولون بقوله ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة..."، فهم في الجنة إذا ماتوا قبل البلوغ؛ لأنهم ماتوا قبل التكليف الشرعي، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء). وقال ﷺ: "رفع القلم عن ثلاث - ذكر منهم: الصبي حتى يحتلم...".

٢) إن الأحاديث التي استدل بها المتوهمون على دخول أطفال المشركين النار أحاديث يشوبها الضعف والوهم، مما لا تُقام بها حجة، ولا تقطع بحكم في هذه المسألة، وما صح منها فلأهل العلم فيه توجيه ورأي، فحديثا عائشة السابقان لا حجة فيهما أيضًا لأنه ﷺ إنما قالهما قبل أن يوحى إليه أنهم في الجنة، وأما قوله: "هم منهم" فلا يقصد به الكفر، وإنما يُقصد به في الحكم والمعاملة في أمور الدنيا. كما أن حديث الغلام الذي قتله الخضر ليس فيه دليل على أنه في النار، فربما كان الغلام بالغًا وقتها، وأما طبعه كافرًا، فهذا من باب علم الله المسبق بأنه سيكون كافرًا، وهذا لا يقطع بأنه في النار، فإنه لو طال به العمر لكان كافرًا من أصحاب الجحيم، إلا أنه مات طفلًا، فأصبح من أهل الجنة بموته قبل التكليف، وهذا من رحمة الله المطلقة به وبوالديه.

التفصيل:

أولا. اتفاق جمهور أهل العلم على أن مآل الأطفال الموتى - من المسلمين والمشركين - هو الجنة:

لقد ضرب الإسلام أعظم مثال لمبادئ العدل والرحمة والتسامح، واقتضى الصراط المستقيم في الثواب والعقاب، وألزم الإنسان المسئولية الكاملة عن أفعاله، واختياره لطريق الحق والرشاد أو طريق الغي والضلال، وقد وهبه العقل المميز، والإدراك الواعي؛ ليكفل له حرية الاختيار، ويجعله أهلًا للتكليف والعمل، والثواب والعقاب، ولهذا خرج المجنون،

والنائم، والصبي عن التكليف والاختيار. فخرجوا أيضًا من دائرة الثواب والعقاب، وصار أمرهم إلى رحمة الواحد الغفار.

وفي صدد هذا البيان تتجلى صورة الإسلام واضحة جلية في الحكم على الموتى من الأطفال، وبيان حالهم ومصيرهم سواء كانوا من أبناء المسلمين أو من أبناء المشركين، فإلى أي مصير يصير هؤلاء الأطفال الذين ماتوا صغارًا قبل سن بلوغهم؟ هل يعذبون في النيران أم ينعمون في الجنان؟

لقد كان لأهل العلم في هذه القضية آراء وأقوال وتفسيرات وترجيحات في ضوء النصوص الشرعية الصحيحة التي جاءت في هذه المسألة. فمنهم من ذهب إلى أنهم في النار، ومنهم من توقف في الحكم عليهم، وذهب فريق من أهل السنة إلى أنهم يمتحنون في الآخرة، فمن أطاع منهم أدخله الله الجنة، ومن عصى عذبه، وهؤلاء اتفقوا جميعًا على أن الأطفال من أبناء المسلمين في الجنة، وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن أبناء المسلمين والمشركين في الجنة على السواء.

فقد قال الإمام ابن حزم (ت: ٤٥٦): "اختلف الناس في حكم من مات من أطفال المسلمين والمشركين ذكورهم وإناثهم، فقالت الأزارقة من الخوارج: أما أطفال المشركين ففي النار. وذهبت طائفة إلى أنهم يوقد لهم يوم القيامة نار ويؤمرون باقتحامها، فمن دخلها منهم دخل الجنة، ومن لم يدخلها منهم أدخل النار. وذهب آخرون إلى الوقوف فيهم، وذهب جمهور الناس إلى أنهم في الجنة، وبه نقول"[١].

وقال الإمام النووي: "أجمع مَنْ يُعْتَدُّ به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة؛ لأنه ليس مكلفًا، وتوقف فيه بعض من لا يعتد به... وأما أطفال المشركين ففيهم ثلاثة مذاهب:

قال الأكثرون: هم في النار تبعًا لآبائهم، وتوقفت طائفة فيهم، والثالث - وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون: أنهم من أهل الجنة، ويستدل له بأشياء منها حديث إبراهيم الخليل ﷺ حين رآه النبي ﷺ في الجنة، وحوله أولاد الناس، قالوا: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: وأولاد المشركين، رواه البخاري في صحيحه[٢]. ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء)"[٣].

وقال الإمام ابن عبد البر: "وقد أجمع العلماء على ما قلنا من أن أطفال المسلمين في الجنة، فأغنى ذلك عن كثير من الاستدلال، ولا أعلم عن جماعتهم في ذلك خلافًا، إلا فرقة شذت من المجبرة، فجعلتهم في المشيئة، وهو قول شاذ مهجور مردود بإجماع الجماعة... وقد اختلف العلماء في أطفال المشركين"[٤].

وقد ذكر الإمام ابن كثير هذا الخلاف الوارد عن العلماء حول أطفال المشركين، وذكر أقوالهم الثلاثة فيهم: بأنهم في الجنة، أو أنهم مع آبائهم في النار، أو التوقف فيهم، ثم علق قائلًا: "وَلْيُعْلَم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، فأما ولدان المؤمنين فلا

---

١. الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، مرجع سابق، (٤/ ١٢٧).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التعبير، باب: تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، (١٢/ ٤٥٧)، رقم (٧٠٤٧).

٣. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٣٧٧٦).

٤. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر، مرجع سابق، (٦/ ٣٤٨).

خلاف بين العلماء، كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفرَّاء الحنبلي عن الإمام أحمد أنه قال: لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة.

وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذي نقطع به إن شاء الله ﷻ"[1].

ومن خلال هذه الأقوال السابقة يتبين أن أهل العلم جميعًا اتفقوا على أن أطفال المسلمين مصيرهم إلى الجنة يوم القيامة، وإنما وقع الخلاف بينهم حول أطفال المشركين، وكان الرأي الراجح في هذا الخلاف أنهم في الجنة أيضًا لأنهم ليسوا مكلفين وغير محاسبين على أفعالهم.

- **أدلة العلماء على أن أطفال المسلمين في الجنة:**

وأما إجماعهم على أن أطفال المسلمين في الجنة، يخلدون فيها، فقد استدلوا على ذلك بكثير من الأدلة من الكتاب والسنة، ومنها:

○ قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ (الطور).

قال ابن كثير: "يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه: أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يُلحقهم بآبائهم في المنزلة. وإن لم يبلغوا عملهم؛ لتَقَرَّ أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك؛ ولهذا قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ (الطور: ٢١).

قال الثوري، عن عمرو بن مُرَّة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لتقر بهم عينه"[2].

○ قوله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ (المدثر).

جاء عن علي بن أبي طالب أن أصحاب اليمين هم أطفال المسلمين، قال ابن عبد البر: ولا مخالف له في ذلك من الصحابة[3].

أما عن الأحاديث التي استدلُّوا بها فمنها:

○ عن أبي حسان قال: قلت لأبي هريرة: "إنه قد مات لي ابنان، فما أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تُطيِّب به أنفسنا عن موتانا. قال: نعم صغارهم دعاميص[4] الجنة، يَتَلَقَّى أحدهم أباه، أو قال: أبويه، فيأخذ بثوبه، أو قال: بيده، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك[5] هذا، فلا يتناهى، أو قال: فلا ينتهي، حتى يدخله الله وأباه الجنة"[6].

قال القرطبي: "في هذا الحديث ما يدل على أن صغار أولاد المؤمنين في الجنة، وهو قول أكثر أهل العلم، وهو الذي تدل عليه أخبار صحيحة، وظاهر

---

١. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، (٣/ ٣١، ٣٢).

٢. المرجع السابق، (٤/ ٢٤١).

٣. انظر: التمهيد، ابن عبد البر، مرجع سابق، (٦/ ٣٥١).

٤. دعاميص: جمع دعموص، وهو دويبة صغيرة تكون في الماء لا تفارقه.

٥. صنفة الثوب: طرفه وحاشيته.

٦. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل من يموت له ولد فيحتسبه، (٩/ ٣٧٥١)، رقم (٦٥٧٨).

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾"[1].

○ عن معاوية بن قُرَّة عن أبيه: "أن رجلًا كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابن له، فقال له النبي ﷺ أتحبه؟ فقال: يا رسول الله أحبك الله كما أحبه، ففقده النبي ﷺ، فقال: ما فعل ابن فلان؟ قالوا: يا رسول الله مات، فقال النبي ﷺ لأبيه: أما تحب أن لا تأتي بابًا من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟ فقال الرجل: يا رسول الله، أله خاصة أم لكلنا؟ قال: بل لكلِّكم"[2].

قال البيهقي: "ذلك فيمن وافى أبواه يوم القيامة مؤمنين أو أحدهما، فيلحق بالمؤمن ذريته، كما جاء به الكتاب، ويستفتح له، كما جاءت به السنة، ويحكم لها بأنها كانت ممن جرى له القلم بالسعادة"[3].

إن ما تقدم من أحاديث يدل دلالة ظاهرة على أن أطفال المؤمنين في الجنة ولا شك، وهناك أيضًا جملة من الأحاديث الواردة في فضل من يموت له ولد أو أكثر فيحتسبه، وهذه الأحاديث تدل بدورها على أن هؤلاء الأطفال في الجنة، وإن كانت لا تصرح صراحةً واضحةً بذلك، ومن هذه الأحاديث:

○ حديث أبي سعيد الخدري ﷺ "أن النبي ﷺ قال لنسوة من الأنصار: ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابًا من النار، فقالت امرأة: واثنين؟ فقال: واثنين"[4]، فمن المستحيل عقلًا أن يكون هؤلاء الأطفال حجابًا للأم من النار وهم فيها، فَلَزِمَ من ذلك أن يكونوا في الجنة ليحموها من النار.

○ عن أبي هريرة ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: "لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تَحِلَّة القسم. قال أبو عبد الله: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ (مريم:٧١)"[5].

○ عن أنس ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "ما من الناس من مسلم يتوفى له ثلاث لم يبلغوا الحِنْث[6] إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم"[7].

○ عن البراء ﷺ قال: لما توفي إبراهيم ؑ قال رسول الله ﷺ: "إن له مرضعًا في الجنة"[8].

قال ابن عبد البر: "في هذه الأحاديث دليل على أن أطفال المسلمين في الجنة لا محالة - والله أعلم - لأن الرحمة إذا أنزلت بآبائهم من أجلهم استحال أن يُرحموا من أجل من ليس بمرحوم، ألا ترى إلى قوله ﷺ: "بفضل رحمته إياهم"[9].

"وهذا معنى قول الإمام أحمد: هو يُرجى لأبويه،

---

١. التذكرة في أمور الموتى وأحوال الآخرة، القرطبي، مرجع سابق، ص٥٩٨.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكيين، مسند معاوية بن قرة، رقم (١٥٥٩٥). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٣. الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، البيهقي، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ص١٦٨.

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: هل يجعل يوم للنساء على حده، (١/ ٢٣٦)، رقم (١٠١).

٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: فضل من مات له ولد فاحتسب، (٣/ ١٤٢)، رقم (١٢٥١). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل من يموت له ولد فيحتسبه، (٩/ ٣٧٥٠)، رقم (٦٥٧٣).

٦. الحِنْث: بلوغ الصبي الحُلُم.

٧. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: فضل من مات له ولد فاحتسب، (٣/ ١٤٢)، رقم (١٢٤٨).

٨. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المسلمين، (٣/ ٢٨٨) رقم (١٣٨٢).

٩. التمهيد، ابن عبد البر، مرجع سابق، (٦/ ٣٤٨).

كيف يُشك فيه"[1]؟

وقال النووي: "هذه الأحاديث دليل على كون أطفال المسلمين في الجنة"[2].

وقال ابن القيم: "هذه الأحاديث أكثرها في الصحيح، وكلها صحيحة، وهذا القول في أطفال المسلمين هو المعروف من قواعد الشرع، حتى إن الإمام أحمد أنكر الخلاف فيه، وأثبت بعضهم الخلاف، وقال: إنما الإجماع على أولاد الأنبياء خاصة"[3].

أما مَنْ توقف عن هذه المسألة ـ مما لا يُعتد به ـ لحديث عائشة رضي الله عنها في قصة الصبي من الأنصار، فقد أجاب العلماء بأنه ﷺ لعله نهى عائشة عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع، فإنكار النبي ﷺ على عائشة رضي الله عنها إنما كان لشهادتها للطفل المعين بأنه في الجنة، كالشهادة للمسلم المعين، فإن الطفل تبع لأبويه، فإذا كان أبواه لا يُشهد لهما بالجنة، فكيف يُشهد للطفل التابع لهما؟!

والإجماع إنما هو على أن أطفال المسلمين من حيث الجملة مع آبائهم، فيجب التفرقة بين المعين والمطلق.

إن آخر ما نود أن نختتم به الكلام في إثبات دخول أطفال المؤمنين الجنة ما بَوَّبه الإمام البخاري في صحيحه فقال: باب ما قيل في أولاد المسلمين، وذكر في ترجمة هذا الباب الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: "من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث كان له حجابًا من النار أو دخل الجنة"[4].

وعلى هذا يمكن لنا القطع بأن أطفال المسلمين الذين ماتوا قبل البلوغ في الجنة، وهذا ما أجمع عليه أهل العلم، ونصت عليه النصوص السابقة صراحة.

- **أدلة العلماء على أن أطفال المشركين في الجنة.**

ذكرنا آنفًا أنه ورد في مصير أطفال المشركين أقوال ثلاثة، مَنْ ذهب إلى أنهم في النار تبعًا لآبائهم، ومَنْ توقف في الأمر ولم يقطع لهم بشيء، ومن ذهب إلى أنهم في الجنة، وهذا الرأي الأخير هو الصحيح والراجح؛ فهو ما عليه جمهور أهل العلم ومحققو السنة، وقد استدلوا على ذلك بمجموعة من الأدلة، من أهمها:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الإسراء).

فهذه الآية نص في عدل الله تبارك وتعالى، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسل[5]، وتبليغه الحق والبيان، فإن هو أعرض وكفر فالنار والعذاب مثوًى له، وإن أطاع واتبع فالجنة داره ومقامه، فلما كان المولود لا يتوجَّه إليه تكليف، ولا تُقام عليه حجة، فلا يستحق عذابًا في النار ولا يدخلها بهذا، وقد قال النبي ﷺ: "رُفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق"[6].

---

١. أحكام أهل الذمة، ابن القيم، تحقيق: يوسف أحمد البكري وشاكر توفيق العاروري، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، (٢/ ١٠٧٥).

٢. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٣٧٥٣).

٣. أحكام أهل الذمة، ابن القيم، مرجع سابق، (٢/ ١٠٨٣).

٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٣/ ٢٨٨).

٥. انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ص٢٨.

٦. صحيح: أخرجه النسائي في سننه، كتاب: الطلاق، باب: مَنْ لا يقع طلاقه من الأزواج، (٢/ ٥٦١)، رقم (٣٤٤٥). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٣٤٣٢).

وبهذا فالصبي ما دام لم يبلغ فهو غير مكلف، ولا تُجرى عليه الأقلام، ولا يُعذب في النيران، وقد وردت آيات أخرى كثيرة في هذا المعنى؛ منها قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ (٨) قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ (٩)﴾ (الملك).

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (٧١)﴾ (الزمر).

وقال تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧)﴾ (فاطر).

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله لا يدخل أحدًا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه. فإذا كان الطفل خارجًا عن هذا التكليف، وبعيدًا عن إقامة الحجة، فلا يُعذب دون ذنب أو عمل، أو حجة وبلاغ. قال الإمام النووي: "ولا يتوجه على المولود التكليف، ويلزمه قول الرسول: "حتى يبلغ". وهذا متفق عليه"[1].

- ومن الأدلة التي استدلوا بها أيضًا قول رسول الله ﷺ، فيما رواه عنه سَمُرة بن جندب في حديث طويل جاء في آخره: "... وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم ﷺ، وأما الوِلْدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة، قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: وأولاد المشركين"[2].

فهذا الحديث من الأدلة القاطعة في دخول أولاد المسلمين وأولاد المشركين الجنة على السواء، ولا يحتج هنا بأن الحديث عبارة عن رؤيا، لأن رؤيا الأنبياء حق، قال العلامة ابن الوزير اليماني: "وسؤالهم هذا - أي عن أولاد المشركين - وجوابه عليهم كان في اليقظة، ولو لم يكن في اليقظة، لكانت الرؤيا وحدها حجة صحيحة، لما في سياقها من الأدلة، لأنها رؤيا حق، ولأن رؤيا الأنبياء صلوات الله عليهم حق، وخصوصًا نبيُّنا ﷺ، لأنه قد صح عنه ﷺ أنه قال: "تنام عيناي ولا ينام قلبي"[3][4].

فهذا الحديث يعد دلالة واضحة على أن كل طفل مات على الفطرة فهو في الجنة، وأن أطفال المسلمين وأطفال المشركين في الجنة على السواء.

وقد علق ابن حزم على هذا الحديث قائلًا: "فارتفع الإشكال وصح بالثابت من السنن وصحيحها أن جميع من لم يبلغ من أطفال المسلمين والمشركين ففي الجنة، ولا يحِلُّ لأحد تعدي ما صح بالقرآن والسنة"[5].

---

١. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٣٧٧٦).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التعبير، باب: تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، (١٢/ ٤٥٧، ٤٥٨)، رقم (٧٠٤٧).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما، (١/ ٢٢٠)، رقم (١٩١١). وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٤. العواصم والقواصم، ابن الوزير اليماني، مرجع سابق، (٣/ ١٦٨).

٥. الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، مرجع سابق، (٣/ ١٦٨).

o ومن أهم الأدلة التي استدلوا بها على هذه المسألة ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يُمجِّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جَدْعَاء؟ ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (الروم: ٣٠)"[١].

وفي لفظ آخر: أن النبي ﷺ قال: "ما من مولود إلا يُلِدَ على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه وينصرانه ويشرِّكانه، فقال رجل: يا رسول الله! أرأيت لو مات قبل ذلك؟قال: الله أعلم بما كانوا عاملين"[٢].

وللحديث روايات متعددة بزيادات عدَّة. ذكرها الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما. وهذه الأحاديث تدل دلالة واضحة على أن الله عز وجل فطر الناس على التوحيد الخالص والاعتراف له بالربوبية، ولم يرض لهم غير هذا، فإذا خرج الإنسان إلى الحياة طفلًا فهو على التوحيد والعبادة الحقة، إلا أنه يتأثر ببيئته وأسرته، وما عليه والداه، وبهذا يقع التغيير على هذه الفطرة الخالصة، فيهوِّده أبواه أو ينصِّرانه أو يُمجِّسانه أو يشركانه... إلخ. إلا أن الطفل في هذا الوقت غير مكلف؛ لأن الحجة غير قائمة عليه؛ لأنه لم يختر الشرك بإرادته، ولم يعقل ذلك بعقله، فهو ليس مسئولًا عن الكفر الذي كان والداه سببًا فيه، فالله تعالى لا يحاسبه على هذا حتى يبلغ، وتقام عليه الحجة، ولذلك جاء في هذه الأحاديث ما يؤكد ذلك، ومنها قوله ﷺ: "ليس من مولود يولد إلا على هذه الفطرة حتى يُعَبِّر عنه لسانه".

وفي رواية: "ما من مولود يولد إلا على هذه الملة، حتى يُبيِّنَ عنه لسانه"[٣].

وهذا معناه أنه لا يحاسب عن فعله واعتقاده حتى يبلغ ويعقل، ويجادل عن حجته، وقد استدل الإمام ابن القيم بهذه الأحاديث على أن الفطرة هي الإسلام فقال:

"ويدل أيضًا على أن الفطرة هي فطرة الإسلام، ليست الفطرة العامة التي فُطِر عليها من الشقاوة والسعادة، لقوله: "على هذه الفطرة" وقوله: "على هذه الملة".

وسياقه أيضًا يدلُّ على أنها هي المرادة؛ لإخباره بأن الأبوين هما اللذان يغيرانها، ولو كانت الفطرة هي فطرة الشقاوة والسعادة لقوله: "على هذه الفطرة" لكان الأبوان مقدرين لها، ولأن قراءة قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (الروم: ٣٠) عقب الحديث: صريح في أن المراد بها فطرة الإسلام؛ ولأن تشبيه المولود في ولادته عليها بالبهيمة الجَمْعاء، وهي الكاملة الخلق، ثم تشبيهه إذا خرج عنها بالبهيمة التي جدعها أهلها فقطعوا أذنها: دليل على أن الفطرة هي الفطرة المستقيمة السليمة، وما يطرأ على المولود من التهويد والتنصير بمنزلة الجدع

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يُصَلَّى عليه... (٣/ ٢٦٠)، رقم (١٣٥٨، ١٣٥٩). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، (٩/ ٣٧٧٢)، رقم (٦٦٣١).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، (٩/ ٣٧٧٣)، رقم (٦٦٣٤).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، (٩/ ٣٧٧٣)، رقم (٦٦٣٥).

والتغيير في ولد البهيمة، ولأن الفطرة حيث جاءت مطلقة معرفة باللام لا يراد بها إلا فطرة التوحيد والإسلام، وهي الفطرة الممدوحة، ولهذا جاء في حديث الإسراء: "لما أخذ النبي ﷺ اللبن، قيل له: أصبت الفطرة"[1]، ولما سمع النبي ﷺ المؤذن يقول "الله أكبر الله أكبر" قال: "على الفطرة"[2]، وحيث جاءت الفطرة في كلام رسول الله ﷺ فالمراد بها فطرة الإسلام لا غير، ولم يجئ قط في كلامه مرادًا بها فطرة الشقاوة وابتداء الخلقة في موضع واحد"[3].

وقد علّق الإمام النووي على هذه الأحاديث مرجحًا معناها. فقال: "والأصح أن معناه: أن كل مولود يولد متهيئًا للإسلام، فمن كان أبواه أو أحدهما مسلمًا استمر على الإسلام في أحكام الآخرة والدنيا، وإن كان أبواه كافرَين جرى عليه حكمهما فيتبعهما في أحكام الدنيا، وهذا معنى: "يهودانه وينصرانه ويمجسانه"، أي: يحكم له بحكمهما في الدنيا. فإن بلغ استمر عليه حكم الكفر ودينهما، فإن كانت سبقت له سعادة أسلم، وإلا مات على كفره، وإن مات قبل بلوغه فهل هو من أهل الجنة أم النار أم يتوقف فيه ؟ ففيه المذاهب الثلاثة السابقة قريبًا. الأصح أنه من أهل الجنة، والجواب عن حديث: "الله أعلم بما كانوا عاملين" أنه ليس فيه تصريح بأنهم في النار، وحقيقة لفظه: الله أعلم بما كانوا يعملون لو بلغوا ولم يبلغوا؛ إذ التكليف لا يكون إلا بالبلوغ"[4].

وعلى هذا فإن كل مولود يموت قبل بلوغه فهو على فطرة الله التي هي الحق والتوحيد الخالص، ولا يضره في ذلك أنه ولد لأبوين مسلمين أو كافرين. فهو بهذه الصبغة الخالصة مؤمن خالص يستحق الجنة، ولا ذنب له حتى يعذب في النار.

- ومن الأدلة التي استدلوا بها أيضًا على دخول أطفال المشركين الجنة: قول النبي ﷺ: "أولاد المشركين خدم أهل الجنة"[5].

فهذا الحديث أيضًا فيه دلالة عظيمة على أن أولاد المشركين سيدخلون الجنة ويخلدون فيها، قال ابن حزم: "وقد قال قوم: إن الصبيان هم خدم أهل الجنة، وقد ذكر الله تعالى الولدان المخلدين في غير موضع من كتابه، وأنهم خدم أهل الجنة، فلعلهم هؤلاء"[6].

وعلى هذا فإن الراجح في كلام أهل العلم أن أطفال المسلمين والمشركين سيدخلون الجنة لا فرق بينهم في ذلك، وهذا ما عليه جمهورهم، وإن ذهب فريق آخر إلى أنهم يمتحنون في الآخرة، إلا أن الأدلة أقوى مع جمهور أهل العلم، وهو الراجح في المسألة. والله أعلم.

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأشربة، باب: شرب اللبن... (١٠/ ٧٣)، رقم (٥٦١٠). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله إلى السماوات وفرض الصلوات، (٢/ ٦٠٨)، رقم (٤١٧).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الصلاة، باب: الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر... (٣/ ٩٤٨)، رقم (٨٢٤).

٣. عون المعبود شرح سنن أبي داود، شمس الحق العظيم آبادي، مرجع سابق، (١٢/ ٣١٨).

٤. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٣٧٧٦، ٣٧٧٧).

٥. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، (٣/ ٣٠٥)، رقم (٢٩٩٦). وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم (٢٥٨٦).

٦. الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، مرجع سابق، (٤/ ١٣٥).

ثانيًا. الأحاديث التي استدل بها الواهمون على إثبات زعمهم أحاديث ضعيفة لا تقوم بها حجة، وما صح منها فلأهل العلم فيه توجيه ورأي:

انتهى بنا الكلام في الوجه السابق إلى القول بأن جميع أطفال المسلمين في الجنة، وهذا ما عليه إجماع الأمة، وأن أطفال المشركين على القول الراجح في الجنة أيضًا وقد دللنا على ذلك بأدلة كثيرة ترجح هذا الرأي وتؤكده.

وإذا كان ذلك كذلك، فإن المتوهمين يعرضون حجتهم جلية بمجموعة من الأحاديث يدعون تعارضها مع هذه الأدلة السابقة، حيث جاءت تشكك في دخول الأطفال الذين ماتوا قبل البلوغ الجنة، وتنص على أن أطفال المشركين في النار، وقد يبدو لصاحب النظرة العجلى أن هذا التعارض موجود حقًّا بين هذه الأحاديث، إلا أن الأمر إذا أُخذ بالدقة والنظرة الفاحصة المتأملة ظهر غير ذلك، وبدت الأحاديث متفقة لا تعارض فيها ولا خلاف.

فإن لكل حديث من الأحاديث التي يُظَنُّ بها تعارض ـ وِجْهة تزيل هذا التعارض، أما الدليل الرئيس الذي يستدل به من زعموا هذا الزعم، فهو حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: "توفي صبي، فقلت طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، فقال رسول الله ﷺ: أو لا تدرين أن الله خلق الجنة وخلق النار، فخلق لهذه أهلًا، ولهذه أهلًا"[1]، وله شاهد آخر عنها. قالت: "دُعِي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار. فقلت: يا رسول الله طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة! لم يعمل السوء ولم يُدركه. قال: أو غير ذلك، ياعائشة! إن الله خلق للجنة أهلًا. خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم"[2].

فالنبي ﷺ لم يجزم لهذا الطفل بالجنة، مع أنه مسلم، وهناك أحاديث أخرى تفيد أن أطفال المؤمنين في الجنة، ولإزالة هذا الإشكال قد سلك أهل العلم في هذا الحديث عدة مسالك، والراجح منها أن هذا الحديث إنما يدل على أنه لا يُشهد ولا يُقطع لأحد من أطفال المؤمنين بعينه بالجنة؛ لأنه من علم الغيب، كما أن الطفل المسلم تابع لأبويه، والقطع له بذلك قطع لأبويه بالإيمان، مع أنهما قد يكونان ممن يظهر الإسلام وهما على خلافه.

"وهذا لا يخالف إطلاق القول: بأن أطفال المؤمنين في الجنة؛ لأن هناك فرقًا بين الإطلاق والتعيين، فكما أنه لا يلزم من الشهادة لعموم المؤمنين في الجنة الشهادة لمعين منهم بذلك، فكذلك أطفال المؤمنين"[3].

وقد جاء عند البخاري من حديث أم العلاء رضي الله عنها: "أنها شهدت لعثمان بن مظعون ﷺ لما مات، فقالت: شهادتي عليك لقد أكرمك الله، فأنكر عليها النبي ﷺ وقال: وما يدريك أن الله أكرمه؟ فقلت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ فقال: أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي، قالت: فوالله لا أُزكي أحدًا

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، (٩/ ٣٧٧٥)، رقم (٦٦٤٣).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، (٩/ ٣٧٧٥)، رقم (٦٦٤٤).

٣. أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، د. سليمان الدبيخي، مرجع سابق، ص٦٥٤.

بعده أبدًا"[١].

قال ابن القيم: "وسر المسألة: الفرق بين المعين والمطلق في الأطفال والبالغين"[٢].

وقد ذكر الإمام النووي قول العلماء في حديث عائشة رضي الله عنها السابق، فقال: "وأجاب العلماء بأنه لعله نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع، كما أنكر على سعد بن أبي وقاص في قوله: "أعطه إني لأراه مؤمنًا، قال: أو مسلمًا..." الحديث[٣].

ويحتمل أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة، فلما علم قال ذلك في قوله ﷺ: "ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم" وغير ذلك من الأحاديث. والله أعلم"[٤].

وقد أجاب الإمام ابن حزم رحمه الله عن حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها السابق، وما جاء عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: "سُئل النبي ﷺ عن ذراري المشركين. فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين"[٥].

فقال: "وهذان الخبران لا حجة لهم في شيء منهما، إلا أنهما إنما قالهما رسول الله ﷺ قبل أن يوحى إليه أنهم في الجنة، وقد قال تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ (الأحقاف: ٩) قبل أن يخبره الله تعالى بأنه قد غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر... كما أمره الله أن يقول: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ (الأنعام: ٥٠)، فحكم كل شيء من الدين لم يأت به الوحي أن يتوقف فيه المرء، فإذا جاء البيان فلا يحل التوقف عن القول بما جاء به النص، وقد صح الإجماع على أن ما يعمله الأطفال قبل بلوغهم من قتل، أو وطأ أجنبية، أو شرب خمر، أو قذف، أو تعطيل صلاة، أو صوم فإنهم غير مؤاخذين في الآخرة بشيء من ذلك ما لم يبلغوا، وكذلك لا خلاف في أنه لا يؤاخذ الله ﷻ أحدًا بما لم يفعله، بل قد صح عن رسول الله ﷺ أنَّ "... من هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم تُكتب"[٦] فمن المحال المنفي أن يكون الله ﷻ يؤاخذ الأطفال بما لم يعملوا مما لو عاشوا بعده لعملوه، وهو لا يؤاخذهم بما عملوا، ولا يختلف اثنان في أن إنسانًا بالغًا مات ولو عاش لزنا أنه لا يؤاخذ بالزنا الذي لم يعمله، وقد أكذب الله ﷻ من ظن هذا بقوله الصادق: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾ (غافر: ١٧)، وبقوله سبحانه: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: الدخول على الميت، (٣/ ١٣٧)، رقم (١٢٤٣).

٢. بدائع الفوائد، ابن القيم، مرجع سابق، (٣/ ٦٧٩).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الإيمان، باب: إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل، (١/ ٩٩)، رقم (٢٧). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه، (٢/ ٥٦٩)، رقم (٣٧١). ولفظه عند مسلم هو: عن عامر بن سعد عن أبيه، قال: "قَسَمَ رسول الله ﷺ قسْمًا. فقلت: يا رسول الله: أعط فلانًا فإنه مؤمن، فقال النبي ﷺ: أو مسلم. أقولها ثلاثًا، ويردِّدها عَلَيَّ ثلاثًا: أو مسلم، ثم قال: "إني لأعطي الرجل وغيره أحبُّ إِلَيَّ منه؛ مخافة أن يكبه الله في النار".

٤. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق (٩/ ٣٧٧٦).

٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين، (٣/ ٢٨٩)، رقم (١٣٨٤).

٦. صحيح مسلم (بشرح مسلم)، كتاب: الإيمان، باب: إذا همَّ العبد بحسنة كُتبت، وإذا همَّ بسيئة لم تُكتب، (٢/ ٥٤٠)، رقم (٣٣٠).

تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (النمل)، فصح أنه لا يُجزى أحد بما لم يعمل ولا مما لم يَسِنَّ، فصح أن قول رسول الله ﷺ: "الله أعلم بما كانوا عاملين" ليس فيه أنهم كفار، ولا أنهم في النار، ولا أنهم مؤاخذون بما لو عاشوا لكانوا عاملين به مما لم يعملوه بعد"[1].

وقال الإمام النووي: "والجواب عن حديث: "الله أعلم بما كانوا عاملين": أنه ليس فيه تصريح بأنهم في النار، وحقيقة لفظه: والله أعلم بما كانوا يعملون لو بلغوا ولم يبلغوا؛ إذ التكليف لا يكون إلا بالبلوغ"[2].

هذا هو الفهم الصحيح لنصوص السنة النبوية، وحقائق الشرع الحكيم، فلا يمكن بحال أن تتعارض نصوصه أو تتناقض أقواله، ومن خلال هذا التفسير البيِّن، والتوضيح الكامل لهذين الحديثين الصحيحين - يثبت أنه لا تعارض بينها وبين الأحاديث الواردة في القطع لهم بالجنة، والتأكيد على دخولها، وإنما تتكامل الأحاديث وتتوافق، ولا يشوبها تعارض أو خلاف.

أما حديث الصحابي الصعب بن جَثَّامة ﷺ قال: "مَرَّ بي النبي ﷺ بالأبواء[3] - أو بودَّان - فَسُئل عن أهل الدَّار يُبَيَّتون من المشركين فيُصاب من نسائهم وذراريهم، قال: هم منهم"[4].

فقد قال فيه ابن عبد البر: "وأما قوله ﷺ: "من آبائهم"، فمعناه حكمهم حكم آبائهم، لا دية فيهم ولا كفارة، ولا إثم فيهم أيضًا لمن لم يقصد قتلهم"[5].

وقال الإمام النووي: "فقال: "هم من آبائهم"؛ أي: لا بأس بذلك؛ لأن أحكام آبائهم جارية عليهم في الميراث وفي النكاح، وفي القصاص والديات وغير ذلك، والمراد إذا لم يتعمدوا من غير ضرورة... وفيه: أن أولاد الكفار حكمهم في الدنيا حكم آبائهم، وأمَّا في الآخرة ففيهم إذا ماتوا قبل البلوغ ثلاثة مذاهب: الصحيح أنهم في الجنة"[6].

وقال الإمام ابن حزم: "وأما احتجاجهم بقول رسول الله ﷺ: "هم من آباءهم" فإنما قاله ﷺ في الحكم في الدين، ولله تعالى أن يفرق بين أحكام عباده، ويفعل ما يشاء لا معقب لحكمه، وأيضًا فلا متعلق لهم بهذا اللفظ أصلًا؛ لأنه إنما فيه أنهم من آبائهم، وهذا لا شك فيه أنهم توالدوا من آبائهم، ولم يقل ﷺ: إنهم على دين آبائهم"[7].

وعلى هذا، ومن خلال هذه التفسيرات السابقة، تبين أن المقصود بالحديث أن أطفال المشركين يأخذون أحكام آبائهم في الدنيا فقط، كأحكام الدية والقصاص والميراث والنكاح، فهذه الأحكام تسري عليهم كما تسري على آبائهم. من منظور أهل الدنيا، أما أحكام الآخرة من جنة ونار فهي إلى الله تبارك وتعالى.

---

١. الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، مرجع سابق، (٤/ ١٣٢، ١٣٣).

٢. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٣٧٧٧).

٣. الأبواء: جبل بين مكة والمدينة.

٤. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجهاد والسير، باب: أهل الدار يبيتون فيصاب الولدان والذراري، (٦/ ١٧٠)، رقم (٣٠١٢). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجهاد والسير، باب: جواز قتل النساء والصبيان في البيات من غير تعمد، (٧/ ٢٧١٦)، رقم (٤٤٦٨).

٥. التمهيد، ابن عبد البر، مرجع سابق، (١٦/ ١٤٦).

٦. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٧/ ٢٧١٦، ٢٧١٧).

٧. الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، مرجع سابق، (٤/ ١٣١).

ولا يظنَنَّ ظان أن الإسلام يبيح قتل النساء والأولاد، بل لقد نهى الإسلام عن ذلك، ووصايا الخلفاء والأمراء المسلمين عند الحروب والمعارك خير شاهد على ذلك، أما إذا قتلوا بلا قصد فلا إثم في ذلك، ولذا جاءت ألفاظ الحديث بالبناء للمجهول، يُبيتون، ويُصاب.

وأما حديث: "لو شئت لأسمعتك تضاغيهم في النار"[1]، فحديث ضعيف؛ لأن فيه أبا عقيل يحيى بن المتوكل، وقد ضعفه جمهور الأئمة ويحيى بن معين[2]، وعلى هذا فلا يجوز الاحتجاج به.

وخلاصة القول أن الأحاديث الواردة بأنهم في النار بالتصريح، "فقد أجاب العلماء عنها بأنها كلها ضعيفة، وممن قال بضعفها على الإطلاق، ولم يستثن شيئًا الحافظ ابن الجوزي"[3]، ويؤيد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث الصحيحة، والآيات القرآنية التي يظهر فيها عدل الله ورحمته، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الإسراء: ١٥)، وقال ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء)، وعلى هذا يرتفع التعارض المتوهم بين أحاديث النبي ﷺ ويثبت فيها الصحيح، وتتفق النصوص الشرعية دون تناقض أو خلاف، ونقطع لأطفال المؤمنين بالجنة، وكذلك لأطفال المشركين على الراجح عند أهل العلم، والكل تحت مشيئة الله وإرادته، ولا يجوز التعيين لأحد بالجنة أو النار.

أمّا حديث طبع الغلام الذي قتله الخضر كافرًا، فهو حديث صحيح، وليس فيه ظلم للغلام، وقد ظهرت العلل والأسباب التي أباحت قتل الخضر لهذا الطفل:

يقول ﷻ في قصة موسى والخضر: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ (الكهف)، وعن أبي بن كعب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الغلام الذي قتله الخضر طُبِعَ يوم طُبِعَ كافرًا، ولو عاش لأرهق والديه طغيانًا وكفرًا"[4].

إن من يقرأ الآية السابقة يظن أن الإسلام يُقرُّ قتل الأطفال والغلمان الصغار، وحاشا للإسلام أن يقر هذا أو يفعله، وما وصايا ونصائح الملوك والأمراء عند الخروج للغزوات والحروب عنا ببعيد، وكانت أول هذه الوصايا والنصائح بعدم قتل الأطفال والنساء، بل إن الأمر أكبر من ذلك في النهي عن قتل الحيوانات وقطع الأشجار، وعدم هدم دور عبادة العدو، فحاشا الإسلام أن يكون مريقًا لدماء البشر فضلًا عن الأطفال.

والإيمان بالقضاء والقدر من أركان الإيمان، فللقدر مراتب منها: الإيمان بكتابة المقادير في اللوح المحفوظ، ويتبع هذه الكتابة تقديرات خمس، ومن هذه التقديرات كتابة التقدير العمري، ويكون هذا عند خلق النطف في الأرحام، ومن هذا يقول النبي ﷺ: "إن أحدكم يُجْمَعُ خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقة

---

١. ضعيف: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث عائشة رضي الله عنها، رقم (٢٥٧٤٣). وضعفه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٢. العواصم والقواصم، ابن الوزير اليماني، مرجع سابق، (٣/ ١٧١).

٣. المرجع السابق، (٣/ ١٧٠).

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، (٩/ ٣٧٧٥)، رقم (٦٦٤٢).

مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يُرْسَلُ الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بِكَتْب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها"[1].

فلقد كتب الله ﷻ عنده أن هذا الغلام طُبع كافرًا، ولو كبر هذا الغلام سيظل على كفره الذي به يرهق أبويه، بل قد يكون سببًا في كفرهما؛ لأن الوالدين قد يقعا في الحرام من أجل إسعاد أولادهما، ولقد أعطى الله ﷻ الخضر علمًا أن هذا الغلام سيصير كافرًا، لذا فقد قتله الخضر حتى لا يكون سببًا في كفر والديه.

يقول القرطبي رحمه الله: "قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ (الكهف: ٨٠)، وقد جاء في صحيح الحديث أنه طبع كافرًا، هذا يؤيد ظاهره أنه غير بالغ، ويحتمل أن يكون خبرًا عنه مع كونه بالغًا"[2].

وقد قال الإمام النووي ـ معلقًا على هذا الحديث الذي جاء عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرًا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا" ـ "وأما غلام الخضر فيجب تأويله قطعًا؛ لأن أبويه كانا مؤمنين، فيكون هو مسلمًا، فيتأوَّل على أن معناه: أن الله أعلم أنه لو بلغ لكان كافرًا، لا أنه كافر في الحال: ولا يجري عليه في الحال أحكام الكفار"[3].

يقول د. ياسر برهامي: "فقد علم الله ﷻ أن الغلام لو كَبُرَ لكفر ولتابعه والداه فأرهقهما طغيانًا وكفرًا، فرحم الله ﷻ الوالدين، والظاهر أنه رحم الغلام بموته صغيرًا دون البلوغ، فمات مسلمًا على الفطرة لأبوين مسلمين، ولو كبر لكفر ولأرهق والديه طغيانًا وكفرًا، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما: "وأما الغلام فطبع يوم طبع كافرًا" فهو ليس كافرًا في تلك اللحظة، ولو كبر لكان كافرًا، أما وهو صغير فهو على الفطرة لم يبلغ الحنث كما قال موسى ؑ، وإنما أنكر عليه الخضر عدم صبره عن معرفة الحكمة التي من أجلها شرع الله ﷻ له قتله في تلك الحال، فالله ﷻ علم ما كان وما سيكون، لكن هذا العلم الأوَّل، أو العلم السابق على أفعال العباد لا يحاسب اللهُ العباد بناء عليه، فهو لا يحاسبهم إلا على ما وقع منهم من أفعالهم التي فعلوها باختيارهم، ولا يعاقبهم على أفعالهم قبل أن تقع منهم، فهو ﷻ قد علم أن الكفار سيكفرون، ويقتلون المؤمنين ويحاربون الرسل، ومع ذلك لم ينزل بهم العقاب، ولا أنزله بقوم قط قبل أن يكفروا وقبل أن يرسل إليهم الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء)... فالعلم السابق بأن فلانًا سيعصي أو سيكفر أو سيفسق أو سيظلم، هذا العلم لا يحاسب الله ﷻ أحدًا عليه، ولا يحاسبه أنه لو أعطاه كذا لكفر مثلًا، فيعاقبه على ذلك مقدمًا، فلا يحاسبهم على

---

1. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التوحيد، باب: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، (١٣/ ٤٤٩)، رقم (٧٤٥٤). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: القدر، باب: كيفية خلق الآدمي... (٩/ ٣٧٥٩)، رقم (٦٥٩٩).
2. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (١١/ ٣٦).
3. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٣٧٧٧).

ما لم يحدث"[١].

وعلى هذا يتضح جليًا أن الأحاديث الواردة في هذا الباب متفقة تمام الاتفاق، لا تعارض بينها ولا اختلاف، وأن الأطفال جميعًا مصيرهم الجنة بإذن الله®.

الخلاصة:

- لقد اتفقت كلمة أهل السنة وإجماع الأمة على أن أطفال المسلمين الذين ماتوا قبل البلوغ والتكليف الشرعي في الجنة بنصوص الشرع القاطعة في هذا الشأن.

- ذهب أهل العلم في مصير أطفال المشركين إلى ثلاثة مذاهب: الأول: أنهم في النار تبعًا لآبائهم، وتوقفت طائفة فيهم، أما الرأي الراجح فيهم فهو أنهم في الجنة، وهو قول جمهور أهل العلم، واستُدل عليه بأحاديث منها حديث "كل مولود يولد على الفطرة"، و"أن إبراهيم عليه السلام في روضة وحوله أولاد الناس من المسلمين والمشركين"، فهؤلاء الأطفال ماتوا قبل البلوغ، ولم يكلفوا بعمل، ولم يُحاسبوا على فعل، وقد ماتوا على التوحيد الخالص والفطرة الحقة، فهم في الجنة بإذن الله.

- إن الأحاديث التي استدل بها المغرضون على أن أطفال المشركين في النار، أحاديث ضعيفة واهية لا تقوم بها حجة، ولا يصح بها دليل.

- إن حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الذي جاء فيه "الله أعلم بما كانوا عاملين" لا حجة فيه على أن أطفال المشركين كفار في النار؛ لأنهم لم يعملوا ولم يكلفوا، فالله أعلم بعملهم إذا بلغوا، ولكنهم ماتوا قبل البلوغ والتكليف فمصيرهم إلى الجنة بإذن الله.

- إن الحديث الذي جاء فيه: "هم من آبائهم" لا حجة للمتوهمين فيه؛ لأن مقصد النبي ﷺ من هذا القول أنهم مثل آبائهم في أحكام الدنيا؛ إذ يسري عليهم ما يسري على آبائهم في أحكام الدية، والقصاص، والنكاح، والميراث، وغيرها، أما أحكام الآخرة فهي موكولة إلى الله وحده.

- إن حديث الغلام الذي قتله الخضر لا يدل دلالة قاطعة على دخول الأطفال النار، فالله تبارك وتعالى بعلمه وقدرته علم أن هذا الطفل سيكون كافرًا وسيرهق أبويه طغيانًا وكفرًا في كبره وبلوغه، أما الغلام وقد مات طفلًا، فهو لم يكفر ولم يرتكب الذنب والإثم، وبهذا لا يجري عليه أحكام الكفار ولا يعذب في النار، وإنما مصيره إلى الجنة بإذن الله الواحد الغفار.

- إن المولود يولد على الفطرة، وفطرة الله التي خلق الناس عليها هي الإسلام، وأما التبديل والكفر فيقع من الخَلق أنفسهم، ويصير إليه الطفل بسبب أبويه إلا أنه لا ذنب له في هذا، ولا يُسأل عنه، وبهذا فهو على الإيمان، ويسكن بفضل الله الجنان.

- إن الحكم للموتى من الأطفال بالجنة، هو حكم عام يشملهم جميعًا، إلا أنه لا يجوز الحكم لمعين بجنة ولا بنار، فالإنسان قد يعمل بعمل أهل الجنة فيما هو ظاهر للناس فقط، وهو من أهل النار والعكس، فالكل تحت مشيئة الله وقدرته، إن شاء عذب، وإن شاء غفر.

- إن الحكم بدخول الموتى من الأطفال الجنة، لهو

---

١. المنة شرح اعتقاد أهل السنة، د. ياسر برهامي، دار الخلفاء الراشدين، الإسكندرية، د. ت، ص٣٣٥، ٣٣٦.

® في **"توجيهات العلماء لأحاديث دخول أهل الكبائر والعصاة النار وتحريم الجنة عليهم"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الحادية والثلاثين، من هذا الجزء.

خير دليل على عدل الله تبارك وتعالى وعفوه وفضله؛ إذ إنه حرَّم الظلم على نفسه، وجعله بين الناس محرمًا، فالله لا يظلم الناس شيئًا، قال تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (فصلت)، وبهذا فهو لا يعذب أحدًا إلا بعد بلوغه الحجة الكاملة، وبعد إرسال الرسل؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الإسراء)، ولهذا كان من الحكم العادل ألا يُعذِّبَ الأطفال دون حجة أو بلاغ، وبهذا لا تتعارض الأحاديث ولا تتناقض، ويثبت الحق الصادق، وتتوافق نصوص الشرع، وتذهب أهواء المغرضين سدى، وتتبدد أحلامهم ومضات الظلام.

الشبهة الثالثة والثلاثون

إنكار حديث الكتابي فداء للمسلم من النار(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغرضين حديث رسول الله ﷺ الذي يُبيِّن فيه أنَّ الكتابيين[1] يكونون فداءً للمسلمين يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: "إذا كان يوم القيامة دفع الله ﷻ إلى كلِّ مسلمٍ يهوديًا أو نصرانيًا، فيقول: هذا فكاكك من النار".

مستدلين على إنكارهم للحديث بأنَّه يتصادم مع حقيقة ثابتة في الدين؛ وهي أن مقياس دخول الجنة هو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، ولن يكون أحدٌ فكاكَ الآخر من النار، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (البقرة). والحديث بزعمهم يكرِّس مقولة اليهود والنصارى التي حكاها القرآن، قال تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ (البقرة: ١١١). وهم يرمون من وراء ذلك كله إلى إنكار الحديث، والتشكيك في كُلِّ ما ثبتت صحته عن النبي ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) لقد أجمع علماء الأمة على صحة حديث الكتابي فداء للمسلم من النار سندًا ومتنًا؛ فأورده الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه ـ مع علمنا بمكانته الفُضلى بين علماء الأثر ـ ومما يؤكد صحة الحديث من جهة أخرى اتفاق معناه مع ما جاء من حديث أبي هريرة ﷺ: "ما منكم من أحد إلا وله منزلان..."، كما أورد الإمام مسلم أيضًا روايات عدة للحديث في صحيحه ـ مع بقاء متن الحديث صحيحًا مستقيمًا بالاتفاق ـ وهي بمثابة دعمٍ للحديث؛ إذ تجعل منه طودًا عظيمًا، لا سبيل لتقويضه.

٢) هذا الحديث لا يتفق مع مقولة اليهود والنصارى؛ إذ إنَّ أهل الكتاب بشركهم وفتنتهم وحسدهم على الدين هو موقف الظالم لهم، فينطبق عليهم مع المسلمين قاعدة الظالم والمظلوم بين المسلمين وبعضهم المُوجِبة لأخذ الحسنات من الظالم وإعطائها للمظلوم، وطرح سيئات المظلوم على الظالم، فيصير كلُّ ظالمٍ فكاكًا لكل مظلوم.

(*) تحرير العقل من النقل، سامر إسلامبولي، مرجع سابق.

١. يعني: أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى.

التفصيل:

أولا. صحة حديث الكتابي فداء للمسلم من النار سندًا ومتنًا:

إن حديث الكتابي فداء للمسلم من النار حديث صحيح ثابت عن النبي ﷺ؛ فقد أخرجه مسلم في صحيحه، وكفى بهذا دليلًا على صحته، وإذا ما نظرنا في سلسلة الرواة وجدت أنَّ جميعهم من الثقات أصحاب الدقة والحذر بدءًا بأبي موسى، ووصولًا لأبي شيبة، فقد قال رحمه الله: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو أسامة عن طلحة بن يحيى، عن أبي بُردة، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا كان يوم القيامة، دفع الله ﷻ إلى كل مسلم يهوديًّا أو نصرانيًّا، فيقول: هذا فكاكك من النار"[1].

وهذا الحديث صحيح ولم يطعن فيه أحد بأية شبهة سواءً في سنده أو في متنه، كما أنه قد ورد أيضًا في صحيح مسلم وغيره بروايات أخرى تعضد هذه الرواية وتقويها، ومن هذه الروايات:

- عن قتادة أن عونًا وسعيد بن بردة حدثاه أنهما شهدا أبا بُردة يحدِّث عمر بن عبد العزيز، عن أبيه عن النبي ﷺ قال: "لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهوديًّا أو نصرانيًّا، قال: فاسْتَحْلَفه عمر بن عبد العزيز بالله الذي لا إله إلا هو! ثلاث مرات؛ أنَّ أباه حدَّثه عن رسول الله ﷺ، قال: فحلفَ له"[2].
- وكذلك قوله ﷺ: "يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى"[3].
- وهَاك رواية أخرى للحديث صحَّحها الألباني وهي:

"إذا كان يوم القيامة بُعثَ إلى كلِّ مؤمن بملك معه كافر، فيقول الملك للمؤمن: يا مؤمن! هاك هذا الكافر، فهذا فداؤك من النار"[4].

وهذه الأحاديث تؤكد الحديث الشريف الذي معنا: أن الكتابي يكون فداءً للمسلم من النار يوم القيامة، ولا غرابة في ذلك؛ وهذا لا يتصادم مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

قال النووي في شرحه الحديث: ومعنى هذا الحديث ما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ: "ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإذا مات، فدخل النار، ورث أهل الجنة منزله"[5]؛ لاستحقاقه ذلك بكفره، ومعنى "فكاكك من النار": أنك كنت مُعرَّضًا لدخول النار، وهذا فكاكك؛ لأنَّ الله ﷻ قدَّر لها عددًا يملؤها، فإذا دخلها الكفار بكفرهم وذنوبهم صاروا في معنى الفكاك للمسلمين[6].

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: التوبة، باب: توبة القاتل وإن كثر قتله، (٩/ ٣٨٦٨)، رقم (٦٨٧٨).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كَثُر قتله، (٩/ ٣٨٦٨)، رقم (٦٨٧٩).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كَثُر قتله، (٩/ ٣٨٦٩)، رقم (٦٨٨١).

٤. صحيح: أخرجه الطبراني في مسند الشاميين، مسند يزيد بن سعيد بن ذي عصوان العنسي، (٣/ ٤٠٣)، رقم (٢٥٥٤). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٣٨١).

٥. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الزهد، باب: صفة الجنة، (٢/ ١٤٥٣)، رقم (٤٣٤١). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٤٣٤١).

٦. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٣٨٧١) بتصرف.

أمَّا عن مجموعة الروايات الأخرى للحديث، فهي تؤكد صحة هذا الحديث ومتنه؛ ففي الرواية الأولى: "فاستحلفه عمر بن عبد العزيز أنَّ أباه حدَّثه" فهو لزيادة الاستيثاق والطمأنينة، وهذا دليلٌ على صحة الحديث؛ إذ يُوضح لنا خوف علمائنا والأئمة وأولي الأمر، وحرصهم البالغ على تحرِّي الصدق بكلِّ ما وصلنا عن النبي ﷺ.

أمَّا عن الرواية الثانية: "يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين..."، فمقصودها أنَّ استحقاق الكافرين دخول النار بعيدٌ عن أي ظلمٍ وبهتان، فقد استحقوا ذلك؛ لكفرهم وصدِّهم عن سبيل الله بشتَّى الطرق.

وقد عقب النووي رحمه الله على تلك الرواية قائلًا: فمعناه أن الله تعالى يغفر تلك الذنوب للمسلمين، ويسقطها عنهم، ويضع على اليهود والنصارى مثلها بكفرهم وذنوبهم، فيدخلهم النار بأعمالهم لا بذنوب المسلمين... وقوله "ويضعها" مجاز، والمراد: يَضَعُ عليهم مثلها بذنوبهم، فكان إسقاط ذنوب المسلمين - بعفو الله ورحمته- وإبقاء ذنوب الكافرين شبيهٌ بِمَنْ حُمِّل إثم الفريقين؛ لكونهم حُمِّلوا الإثم الباقي، وهو إثمهم، ومن المحتمل أن يكون المراد آثامًا كان الكفار سببًا فيها بأن سنُّوها، وجعلوها سُنَّةً متَّبعة[1].

أمَّا عن مسألة إبدال المسلم بالكافر، ودخوله الجنة بعد أن كاد يُلقى في النار؛ هو إبدالٌ مجازي، يوضحه حديث أبي هريرة السابق: "ما منكم من أحدٍ إلا وله منزلان، منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات، فدخل النار ورث أهل الجنة منزله".

من خلال ما سبق يتبين صحة حديث فداء المسلم بالكتابي يوم القيامة؛ فقد أخرجه مسلم في صحيحه، مع ذكره شواهد كثيرة تؤيده وتعضده، بالإضافة إلى الحديث الذي رواه الطبراني وابن عساكر وصححه الألباني، فإنه أيضًا يؤكد صحته، وهذا الحديث إنما هو تفسير لقوله ﷺ: "ما منكم من أحد إلا وله منزلان..." كما قدمنا شرحه.

ثانيًا. فداء المسلم بالكتابي من النار يوم القيامة هو جزاء ما جناه ضد الإسلام:

وبعد أن أثبتنا صحة الحديث وبيان شواهده كان لزامًا علينا توضيح معنى الحديث؛ فالحديث يقول: "إذا كان يوم القيامة دفع الله ﷻ إلى كلِّ مسلم يهوديًّا أو نصرانيًّا، فيقول: هذا فكاكك من النار"[2]، "قوله هذا: "فكاكك من النار" بفتح الفاء؛ أي: خلاصك منها ومعافاتك، ومنه فكاك الرقبة: تخليصها من الرِّق، وفكاك الرهن: تخليصه من عهد الارتهان وإطلاقه لربه، وفكوا العاني؛ أي: افدوا الأسير وخلِّصوه من الأسر"[3].

ولهدم الدعوى أيضًا يجب أن نحيط علمًا - كما ذكرنا آنفًا - بمعاني الروايات الأخرى للحديث، وإبراز دورها في عملية النقض.

لقد ذكر القرطبي في "التذكرة" بعد إيراده ما رواه الإمام مسلم من أحاديث تخصُّ فداء المسلمين بالكتابيين - في صحيحه، فقال: "قال علماؤنا رحمة الله

١. المرجع السابق، (٩/ ٣٨٧١) بتصرف.

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كَثُر قتله، (٩/ ٣٨٦٨)، رقم (٦٨٧٨).

٣. مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي عياض، مرجع سابق، (٢/ ٣٠١).

عليهم هذه الأحاديث ظاهرها الإطلاق والعموم، وليست كذلك؛ وإنما هي في ناس مذنبين تفضَّل الله ﷻ عليهم برحمته ومغفرته، فأعطى كُلَّ إنسان منهم فكاكًا من النار من الكفار.

واستدلوا بحديث أبي بُردة عن أبيه عن النبي ﷺ، قال: "يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها لهم، ويضعها على اليهود والنصاري"...ومعنى قوله: "ويضعها على اليهود والنصاري" أنه يضاعف عليهم عذاب ذنوبهم، حتى يكون عذابهم بقدر جرمهم، وجُرم مذنبي المسلمين، لو أُخذوا بذلك؛ لأنه تعالى لا يأخذ أحدًا بذنب أحد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤)، وله سبحانه أن يضاعف لمن يشاء العذاب، ويُخفِّف عمَّن يشاء بحكم إرادته ومشيئته؛ إذ لا نَسأل عن فعله.

قالوا: وقوله في الرواية الأخرى: "لا يموت رجل مسلم إلَّا أدخل الله مكانه يهوديًّا أو نصرانيًّا"، فمعنى ذلك: أنَّ المسلم المذنب لَّما كان يستحق مكانًا من النار بسبب ذنوبه، وعفا الله عنه، وبقي مكانه خاليًا منه، أضاف الله تعالى ذلك المكان إلى يهودي أو نصراني؛ ليُعذَّب فيه زيادةً على تعذيب مكانه الذي يستحقه بحسب كفره، ويشهد لهذا قوله ﷺ في حديث أنس للمؤمن الذي يثبت عنه السؤال في القبر، فيقال له: "انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة"[1].

قلت (أي: القرطبي): قد جاءت أحاديث دالة على أن لكل مسلم ـ مذنبًا كان أو غير مذنبٍ ـ منزلين: منزلًا من الجنة، ومنزلًا من النار، وذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ (المؤمنون)؛ أي: يرث المؤمنون منازل الكفار، ويجعل الكفار في منازلهم في النار على ما يأتي بيانه، وهو مقتضى حديث أنس عن النبي ﷺ: "إنَّ العبد إذا وُضِعَ في قبره..." الحديث.

إلا أن هذه الوراثة تختلف، فمنهم من يرث ولا حساب، ومنهم من يرث بحسابه وبمناقشته، وبعد الخروج من النار حسب ما تقدم من أفعال الناس"[2].

يقول علي بن نايف الشحود (الباحث بالقرآن والسنة): "ليس هناك تعارض؛ فاليهود والنصارى مكانهم معروف بموجب أفعالهم في ظل الآيات القرآنية، ويجب على الذين عاشوا ليعاصروا آخر الرسل أن يؤمنوا بالرسل السابقين، ومن كفر فمكانه حتمًا إلى النار، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الإسراء:١٥)، تعني: أن الإنسان يُحاسب على أفعاله التي هي من اختياره، وليس لأحد دخل فيها، فيستحق هذا العقاب إذن، فاليهود والنصارى مصيرهم النار؛ لكفرهم بالرسل كافة، ولا تتبدل أماكنهم هكذا ظلمًا؛ لأن الله تبارك وتعالى ليس بظلام للعبيد، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ (آل عمران)؛ وإنما المقاعد من النار التي كانت محددة للناس، يستقر عليها أصحابها حسب أفعالهم، والتي هي من اختيارهم، فهكذا يحدث الاستبدال: الكافر يأخذ مكان الذي أسلم، والذي كان مكانه موجودًا

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر، (٣/ ٢٧٥)، رقم (١٣٧٤).

٢. التذكرة في أمور الموتى وأحوال الآخرة، القرطبي، مرجع سابق، ص٤٩٥: ٤٩٧.

لولا إسلامه"[1].

وقد أفرد الشيخ رفاعي سرور بحثًا في هذا الموضوع، وقد جاء فيه: "وقد أورد ابن ماجه في سننه: "إن الميت يصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح في قبره غيرَ فَزِعٍ ولا مشعوف، ثم يقال له: فيم كنت؟ فيقول: كنت في الإسلام، فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: محمد رسول الله ﷺ، جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له: هل رأيت الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحد أن يرى الله، فيُفرج له فرجة قِبلَ النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا، فيُقال له: انظر إلى ما وقاك الله! ثم يفرج له فرجة قِبلَ الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك، ويقال له: على اليقين كنت، وعليه مت، وعليه تُبعث إن شاء الله، ويُجلس الرجل السوء في قبره فزعًا مشعوفًا، فيقال له: فيم كنت؟ فيقول: لا أدري، فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولًا فقلته، فيُفرج له قِبَل الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: انظر إلى ما صرف الله عنك، ثم يفرج له فرجة قِبلَ النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا، فيقال له: هذا مقعدك، على الشك كنت، وعليه مُتَّ، وعليه تُبعث إن شاء الله تعالى"[2].

ويتضح أنَّ موضوع الاختبار هو الإيمان بنبوة رسول الله ﷺ، وهو القضية الفاصلة بين المسلمين وأهل الكتاب.

كما نلاحظ أنَّ النعيم لن يكون دخول الجنة فقط؛ ولكنه أيضًا النجاة من النار، وأنَّ العذاب لن يكون دخول النار فقط؛ ولكنه أيضًا الحرمان من الجنة، وهذا هو معنى نسبية الجزاء بين أهل الجنة وأهل النار، وعلى أساس هذه النسبية يكون تحديد مصير كل طرف بالنسبة للطرف الآخر من حيث العمل، ومن حيث الجزاء، وبذلك يكون كل من يدخل النار فكاكًا لكل من يدخل الجنة.

وكما تبيَّن أن من يدخل الجنة يرث مقعد الكافر، فكل من يدخل النار يرث مقعد المؤمن، إذن فكلُّ الكافرين فداءٌ لكلِّ المؤمنين، وهذا هو المعنى العام للعلاقة بين أهل الجنة وأهل النار، ومن هنا فإنك لا تجد في القرآن الكريم: (أصحاب الجنة) و(أصحاب النار)، إلا وتجد نسبية العلاقة بين أهل الجنة وأهل النار، وهو ما جاء في سورة الأعراف؛ حيث تجد تكرار هذا التعبير فيها؛ لكون الموضوع الأساسي للسورة هو تلك المقارنة، يقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الأعراف)، وكذلك قوله: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (الأعراف).

ثم نأتي للمعنى الخاص للعلاقة بين عمل أهل الجنة وأهل النار، أو قل: العلاقة الخاصة بين المسلمين وأهل الكتاب - وهم اليهود والنصاري - فأصبحت العلاقة هي علاقة اختصاص بين المسلم والكتابي، كما أنَّ اختصاص العلاقة هو الذي تقوم عليه نسبية الجزاء في الجنة والنار، وهذا الاختصاص هو أنَّ أهل الكتاب

---

١. المفصَّل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، علي بن نايف الشحود، مرجع سابق، (١٠/ ٣٥٦، ٣٥٧).

٢. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الزهد، باب: ذكر القبر والبلى، (٢/ ١٤٢٦)، رقم (٤٢٦٨). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٤٢٦٨).

والمسلمين كانوا مخاطبين بالعمل لله؛ وفقًا لما ورد في الحديث الذي رواه ابن عمر، أنَّ النبي ﷺ قال: "ألا إنَّما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أُوتي أهل التوراة التوراة، فعملوا حتى انتصف النهار، ثم عَجَزوا فأُعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أوتينا القرآن، فعملنا إلى غروب الشمس، فأعطينا قيراطين قيراطين، فقال أهل الكتابين: أي ربنا، لِمَ أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطًا قيراطًا، ونحن كنا أكثر عملًا منهم؟ قال الله تعالى: هل ظلمتكم من أجوركم من شيء؟ قالوا: لا، قال: فهو فضلي أُوتيه من أشاء"[1].

وهذا الحديث يُثبت العلاقة في الجزاء بين المسلمين وأهل الكتاب، وقد أتت هذه النسبية من مخاطبة الله ﷻ لأهل الكتاب والمسلمين؛ للعمل لله ﷻ، ثم تخلِّي أهل الكتاب عنه، واستجابة المسلمين له، وقد نشأ عن موقف أهل الكتاب بالتخلي من العمل لله الانحراف عن التوحيد وصولًا إلى الشرك، وهو الموضوع الأساسي الفاصل في دخول الجنة والنار، فيصير التوحيد بسبب ذلك موضوعًا للمقارنة المحقِّقة لنسبية الجزاء بين المسلم المُوحِّد، والكتابي المشرك؛ فيكون دخول المسلم الجنة بثباته على التوحيد؛ وذلك لعدَّة أسباب:

وهي أنَّ المفاصلة العقيدية في دخول الجنة والنار هي نفسها المفاصلة العقيدية بين المسلمين وأهل الكتاب، بدليل قوله ﷺ في سؤال القبر؛ فيقال له: "هل رأيت الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحدٍ أن يرى الله".

وقد زعم اليهود والنصارى تجسد الله ورؤيته في الدنيا، مثلما قالوا في العُزَير والمسيح: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (التوبة)، فأصبح أهل الكتاب فتنة للمسلمين في دينهم وعقيدتهم، حتى أصبح ثبات المسلم على التوحيد له علاقة بشرك أهل الكتاب وفتنتهم للمسلم عن دينه، يقول تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (البقرة).

ومن الآيات السابقة نلاحظ الربط القرآني بين رغبة أهل الكتاب في ارتداد المسلمين عن دينهم، كما نلاحظ أمر الله ﷻ إلى المسلمين بالثبات على الدين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وفعل الأعمال التي يدخلون بها

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، (٩/ ٦)، رقم (٦١٣٣). وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

الجنة، وزعم أهل الكتاب أنه لن يدخل الجنة أحد غيرهم، والقاعدة الحاكمة للجميع هي قول الله عز وجل: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) ﴾ (البقرة).

فأهل الكتاب بشركهم وتحريفهم وحربهم وفتنتهم للمسلمين وحسدهم على الدين. هو موقف الظالم حتى ينطبق عليهم مع المسلمين قاعدة الظالم والمظلوم الواجبة لأخذ الحسنات من الظالم، وإعطائها للمظلوم، وطرح سيئات المظلوم على الظالم، فيصير كل ظالم فكاكًا لكل مظلوم، سواء على المستوى الفردي، كما قال رسول الله ﷺ: "فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار" [1].

أو المستوى الأُممي كما بين المسلمين وأهل الكتاب؛ حيث أخذ أهل الكتاب والمسلمون حكم الظالم والمظلوم الوارد في الحديث.

ومن هنا جاء قول النبي ﷺ: "يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى"[2].

وفوق كل ما تقدم يكون من أسباب وضع الذنوب على أهل الكتاب دعوتهم إلى الضلال، وهي قاعدة عامة في الحساب والجزاء كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور مَنْ تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا"[3].

يقول النووي: "وهذا الحديث من قواعد الإسلام، وهو أن كل من ابتدع شيئًا من الشرِّ كان عليه مثل وزر كل من اقتدى به في ذلك العمل مثل عمله إلى يوم القيامة، وهو موافق للحديث الصحيح "من سن في الإسلام سنة حسنة... ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة"[4]، وللحديث الصحيح: "من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله"[5]، وللحديث الصحيح: "وما من داع يدعو إلى هدى، وما من داع يدعو إلى ضلالة" الحديث[6][7].

وبذلك يكون تفسير الفداء هو أن الذنوب التي فعلها المسلمون اتِّباعًا لأهل الكتاب في ضلالهم يكون على المسلم فيها وزر الاتباع، وعلى الكتابي وزر الدعوة للضلال؛ لأن من دعا إلى ضلال فعليه وزره ووزر من عمل به، لا ينقص من أوزارهم شيء، فيغفر الله للمسلم وزر الاتباع إن شاء، ويُبقي على الكتابي وزر

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، (٩/ ٣٧٠٦)، رقم (٦٤٥٧).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، (٩/ ٣٨٦٩)، رقم (٦٨٨١).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، (٩/ ٣٧٩٠)، رقم (٦٦٧٨).

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، (٩/ ٣٧٨٩)، رقم (٦٦٧٤).

٥. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإمارة، باب: فضل إعانة الغازي في سبيل الله... (٧/ ٢٩٦١)، رقم (٤٨١٦).

٦. أخرجه مالك في موطئه، كتاب: القرآن، باب: العمل في الدعاء، ص٧٣، رقم (٥١٣).

٧. شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٦/ ٢٦١٠) بتصرف.

الدعوة إلى الضلال"[١].

علمنا مما سبق أنَّ يوم القيامة سيكون بيد كلِّ مسلم يهودي أو نصراني؛ يكون فكاكًا له من النار، ولا يلزم أن يكون عدد الكافرين مساويًا لعدد المسلمين؛ فعدد الكافرين أكثر بكثير؛ كما جاء في الحديث الصحيح: "... من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار، وواحد في الجنة..."[٢] الحديث.

فأمة الإسلام هي أكثر الأمم دخولًا الجنة، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه: "أما ترضون أن تكونوا رُبع أهل الجنة؟ قال: فكبرنا، ثم قال: أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قال: فكبرنا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وسأخبركم عن ذلك، ما المسلمون في الكفار إلَّا كشعرةٍ بيضاء في ثور أسود، أو كشعرةٍ سوداء في ثورٍ أبيض"[٣].

"وهذا الحديث يدلُّ على كثرة أمَّة الإسلام؛ فهي آخر الأمم، ومن سيبقى إلى يوم القيامة، وقد جاء في السنن، والمسند: أنَّ صفوف أهل الجنة مائة وعشرون؛ ثمانون من هذه الأمة، فتكون هذه الأمة ثُلثي أهل الجنة، وهو من فضل الله يؤتيه من يشاء"[٤].

نخلص مما سبق إلى أن هناك تضادًّا واضحًا معروفًا بين الجنة والنار، وأن كل إنسان له مكان في الجنة ومكان في النار، والمؤمن والكافر سواء، فالمؤمن يقيه الله شر النار، ويستقر في مكانه في الجنة، أما الكافر؛ فبسبب كفره وسيئاته، وصده عن سبيل الله، وإشاعة الفتن والفواحش بين المسلمين، فقد سلبه الله منزله الذي كان أُعد له في الجنة، وأورده منزله الذي أعده له في النار، فصار بذلك أمر المسلم والكتابي كأمر الظالم والمظلوم الموجب لأخذ الحسنات من الظالم، وإعطائها للمظلوم، وطرح سيئات المظلوم على الظالم، سواء على المستوى الفردي أو الأممي، فمن ذلك يتضح جليًّا أن الحديث صحيح، يتفق مع القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام:١٦٤)؛ ولذلك تسقط الشبهة وتتلاشى.

الخلاصة:

- إن الحديث النبوي الوارد في أن الكتابي فكاك للمسلم من النار حديث صحيح في غاية الصحة سندًا ومتنًا؛ فقد رواه الإمام مسلم في صحيحه بإسناد قوي، وأورد للحديث شواهد بنفس المعنى بطرق أخرى، وأورد ابن عساكر والطبراني بإسناد صحيح حديثًا يقوي هذا الحديث ويدعم معناه.
- لقد تواترت أحاديث رسول الله ﷺ في بيان أن لكل إنسان منزلين في الآخرة، أحدهما في الجنة والآخر في النار، فالمؤمن يُدخله الله ﷻ الجنة، فيظل منزله في النار خاليًا، والكتابي يورده الله ﷻ النار، فيظل منزله في الجنة خاليًا.
- يورد الله ﷻ الكتابي النار؛ بسبب كفره وصده

١. رد شبهة الكتابي فداء للمسلم من النار، الشيخ رفاعي سرور، مقال منشور في منتدى افتراءات حول الإسلام والرد عليها، بتاريخ: ٢٤/ ٤/ ٢٠٠٨.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث عمران بن حصين ﷺ، رقم (١٩٩١٥). وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: حديث صحيح وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين.

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: كون هذه الأمة نصف أهل الجنة، (٢/ ٧١٥)، رقم (٥١٨).

٤. شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين، (١/ ٤٩١).

المسلمين عن سبيل الله، وبسبب اجتهاده في إشاعة الفتن والمعاصي بين المسلمين، وحسده على الدين؛ ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ (النحل).

- إن موقف أهل الكتاب ـ بشركهم وتحريفهم وحربهم وفتنتهم للمسلمين وحسدهم على الدين ـ هو موقف الظالم؛ حيث ينطبق عليهم مع المسلمين قاعدة الظالم والمظلوم الموجبة لأخذ الحسنات من الظالم وإعطائها المظلوم، وطرح سيئات المظلوم على الظالم، فيصير كل ظالم فكاكًا للمظلوم، سواء على مستوى الفرد، أو الأمة جميعًا.

الشبهة الرابعة والثلاثون

الطعن في حديث "يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملح"(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المشككين في الحديث الثابت عن رسول الله ﷺ، والذي فيه: "أن الموت يؤتى به يوم القيامة على هيئة كبش أملح، ثم يُذبح بين الجنة والنار". مستدلين على ذلك بأن هذا الحديث يخالف صريح العقل؛ لأن الموت عَرَضٌ، والعرض لا ينقلب جِسمًا، فكيف يُذبح؟! هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في هذا الحديث، والادِّعاء بأنه يخالف العقل، ومن ثم التشكيك في السُّنَّة.

وجه إبطال الشبهة:

إن حديث "يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح..." حديث صحيح متفق على صحته، بل له شواهد ومتابعات في كتب السُّنة الأخرى، وما أخبر عنه فهو من الغيبيات التي أخبر بها النبي ﷺ، وهي مما يجب التصديق بها، سواءً أقَبِلَها العقل؛ أم عجز عن إدراكها، وما يحتويه هذا الحديث ليس بمستغرب عن العقول، فإن العقل له حدود لا يتخطاها، والعقل نفسه الذي يُعترض به على هذا الحديث هل يستطيع أن يدرك نفسه؟ أو يدرك الروح التي تسري في الجسد؟ وحياتنا كلها مليئة بهذه الأشياء التي لا يدركها العقل، مثل الكهرباء، فهل يُستبعد أن يحول الله المعاني إلى موادٍ فيجعل الموت على هيئة كبش ويذبح؟!

التفصيل:

نظرًا لسوء فهم بعض الناس، فإنهم عارضوا أحاديث الغيب بعقولهم، والمتأمل الحصيف يعلم أن لعقله حدودًا، كما أن للحواس ذاتها حدودًا، فمن حكَّم عقله فيما لا مجال للعقل فيه، فقد برئت منه الإنسانية المفطورة على عجز الإنسان أمام قوانين الغيب، وإن الفلاسفة لما بحثوا في الكون مثَّلوا الحقيقة الكبرى بجماعة يجلسون في بيت، ثم طُرِقَ بابه، فتخيل كل واحد من الجالسين حقيقة معينة وصفة مميزة لهذا الطارق، إلا أنهم اتفقوا اتفاقًا تلقائيًا أن هناك طارقًا، ولله المثل الأعلى.

لقد اتفق جلُّ العقلاء على وجود خالق إلا أنهم اختلفوا في حقيقته، فمن أجل أن يخفف الله عن العقل

(*) كيف نتعامل مع السنة النبوية، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق. تحرير علوم الحديث، عبدالله بن يوسف الجديع، مرجع سابق.

البشري القاصر أرسل الرسل فعرَّفتهم بحقيقة الخالق، وذلك بذكر أسمائه الحسنى وصفاته العلا، فإذا آمنا بالله ﷻ وهو (الغيب الأول)، فيجب أن نؤمن بكل غيب أخبر به الله ورسوله على هذه الصورة من الإيمان بالغيب. ومن تلك الغيبيات الواقعة في يوم القيامة حادثة ذبح الموت بين الجنة والنار؛ ليراه أهلهما، ويُعلن الخلود في كلتيهما.

وهؤلاء زعموا أن مثل هذا شيءٌ فوق العقل، وهو أن يُحوِّل الله الموت - وهو معنى - إلى مادةٍ لكي يُجرى عليه الذبح، وعلى هذا يكون ذلك مستحيلًا؛ لعدم موافقته صريح العقل.

ونحن نقول: إن هذا الحديث صحيح متفق عليه، لم يُطعن فيه بأية شبهة سندًا ولا متنًا بين نقاد الحديث.

فعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت - وكلهم قد رآه - ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت، وكلهم قد رآه. فيُذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة، خلود فلا موت. ويا أهل النار، خلود فلا موت. ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩)﴾ (مريم)"[1].

وباتفاق الشيخين على هذا الحديث فهو صحيح في أعلى درجات الصحة سندًا ومتنًا، ومع ذلك فقد رواه غيرهما من المحدثين، مما يعضد رواية الشيخين له؛ فقد رواه الترمذي[2]، وأحمد[3]، وأبو يعلى[4]، وابن حبان[5]،والبغوي، والآجري، وعبد بن حُميد بطرق مختلفة وألفاظ متنوعة يعضد بعضها بعضًا، ويعضد الكل رواية الشيخين عن أبي سعيد الخدري ﵁، وبهذا فالحديث صحيح في أعلى درجات الصحة. هذا من ناحية ثبوت الحديث عن رسول الله ﷺ.

أما من ناحية ما اشتمل عليه الحديث من ذبح الموت، فإنه من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله، ولذا لا بد من الانقياد والتسليم لكل ما جاء به الله ﷻ؛ فإن أول صفة وصف الله ﷻ بها عباده المتقين في القرآن هي الإيمان بالغيب، فقال ﷻ عن كتابه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة)، وأركان الإيمان - كما وضَّحها لنا النبي ﷺ - هي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، والإيمان باليوم

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التفسير، باب: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾، (٨/ ٢٨٢)، رقم (٤٧٣٠). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، (٩/ ٣٩٥٧)، رقم (٧٠٤٨).

٢. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (بشرح تحفة الأحوذي)، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة مريم، (٨/ ٤٧٨)، رقم (٣٣٦٦). وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٥٢٣).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، (٨/ ١٩٠)، رقم (٥٩٩٣). وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

٤. صحيح: أخرجه أبو يعلى في مسنده، مسند أنس بن مالك ﵁، (٥/ ٢٧٨)، رقم (٢٨٩٨). وصححه حسين سليم أسد في تعليقه على مسند أبي يعلى برقم (١١٧٥).

٥. صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب: صفة النار وأهلها، (١٦/ ٥١٥)، رقم (١١٧٥). وصححه الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان برقم (٧٤٧٤).

الآخر من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله ﷻ، وأمور الغيب من الأشياء التي أخفاها الله عن كل الناس، فلم يُطْلع عليها لا ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا، فما علينا إلا تمام الإقرار والتصديق، والإذعان والاستسلام والخضوع، لما جاء به الله ﷻ، أو بلَّغ عنه رسول الله ﷺ.

قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ (لقمان: ٣٤)، وعلم الساعة يُقصد به يوم القيامة ووقت قيامها، وما سيحدث فيها من معجزات وخوارق لطاقة الإنسان العقلية والبدنية، فلقد أخبرنا رسول الله عن أشياء تحدث للإنسان، ولولا أنها ثابتة بآيات قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة، لعجز العقل أن يصدقها، ولكن كل شيء عنده بمقدار، وما ذلك على الله بعزيز.

إن يوم القيامة مليء بالمعجزات وخوارق العادات التي لا تعد ولا تحصى، وكلها ثابتة بالقرآن والسنة، ومنها: أن يكون الإنسان طوله ستون ذراعًا، وأن يكون ضرس الكافر مثل جبل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام، وما بين منكبيه مسيرة ثلاث، وأن يمشي على وجهه، وعندما سُئل النبي عن ذلك، أخبرهم بأن الله ﷻ الذي أمشاه على قدمه في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة، فالله ﷻ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والأمر كله بيده، ومتوقف على قدرته، وليس لنا أن نُحَكِّم عقولنا فيما دَبَّره الله تعالى، فهو لا يُسئل عما يفعل وهم يُسْئلون.

يقول د. محمد السيد الجليند: "لقد أنكر المعاندون للوحي قضية البعث واليوم الآخر جملةً وتفصيلًا، وكان الحوار حولها مع أنبيائه ورسله إحدى محارات العقول، كما كان إحدى مُثارات الشبه والشكوك، ولقد لخص القرآن موقف المنكرين للبعث في آيات كثيرة، جاءت في صيغ متنوعة، وبأسلوب استفهامي متعدد، تتفاوت دلالته بين الإنكار والرفض أحيانًا"[1]، وكذلك موقف المنكرين لليوم الآخر وما يحدث فيه، مُلخص في أقوالهم الباطلة التي أوردها القرآن والسنة أيضًا، فالقرآن والسنة أتيا بمحارات العقول، ولم يأتيا بمحالاتها، أي: أتيا بما يُحَيِّر العقل، ولا يستطيع الإنسان إدراكه، إلا إذا أنعم الله عليه بنعمة التصديق التي تَقِرُّ في قلبه، ثم يصدقه عمله بعد ذلك، ولم يأتيا بما يستحيل على العقل فهمه من الأشياء المحالة الفهم.

وإذا علمنا أن الوحيين قد يأتيان بما يُحيِّر العقل، عرفنا أن للعقل حدوده وإمكانياته، بل ومجالاته التي لا يمكنه - بل لا يجوز له - تجاوزها، فلا يجوز للعقل الاعتراض على شيء ثابت في القرآن والسنة، ثم يَدَّعي مُدَّعٍ أن هذا الذي جاء به القرآن، أو جاءت به السنة يخالف العقل؛ لأن القاعدة المعروفة عندنا أن صريح المعقول موافق لصحيح المنقول، وأن العقل الصحيح السليم لا يخالف النقل الصحيح ألبتة، وقد كفانا الإمام ابن تيمية هذا المجال في مصنفه الثمين « درء تعارض العقل والنقل".

وخلاصة القول: أنه لا يجوز للعقل التعدي إلى أشياء قد كفاه النقل إثباتها.

ولما كان العقل له حدوده التي يجب الوقوف عندها، كان لا بد له من مطلب أساسي للمعرفة بعالم الغيب، ألا وهو اليقين، وفي هذا يقول د. الجليند: "واليقين هنا مطلب أساسي لهذا اللون من المعرفة بعالم الغيب؛ لأن

---

١. الوحي والإنسان: قراءة معرفية، د. محمد السيد الجليند، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٣٦.

العقل يتخيل أمورًا وعوالم كثيرة، لا نصيب لها من الواقع، والخيال العلمي له دوره المعرفي في عالم الشهادة، ولا سبيل إلى إنكاره، لكي ينبغي أن نعرف هنا أنه لما غابت الحواس عن العقل تخلف عنه العلم اليقيني بعالم المحسوسات؛ لأن روافد المعرفة الحسية أصبحت مفقودة بالنسبة له، فانتقل المستوى المعرفي للشخص من اليقين إلى التخيل. هذا في عالم الشهادة، أما في عالم الغيب، فإن الأمر يختلف تمامًا عن ذلك؛ لأن الحواس لا تناله أصلًا، ولا سبيل لها إليه، وبالتالي فإن روافد العقل التي تزوده بالمعرفة بعالم الغيب مفقودة، والتخيل العقلي هنا ليس مطلوبًا؛ لأن مطلوب المعرفة هنا هو اليقين الجازم الذي لا مجال فيه للتخيل"[(١)].

ومن الملاحظ أن كل المعارف الحسية المتنوعة ترتبط بالواقع الحسي، وتبدأ منه وتعود إليه بسبب ما، أما المعارف العقلية الخالصة، فلا علاقة لها بالمحسوسات أصلًا، لا بدءًا ولا نهاية، وإنما هي إدراك عقلي عن الحسيات ولواحقها.

ولكن هناك لون آخر من المعرفة يتعلق بما وراء المحسوسات، يتعلق بعالم الغيب، وليس التعرف على هذا العالم معزولًا عن العقل، ولا منقطع الأسباب بالعالم الحسي، كما يخيل للبعض أن يزعم ذلك، ولكنه يختلف عن منهجه في التعرف علي عالم المحسوسات أو عالم الشهادة.

إن الخلاف فقط خلاف في المنهج والوسائل، وإذا أحسن الباحث توظيف المنهج العلمي في التعرف على عالم الشهادة، والتعرف على وظيفة هذا العالم، وأهداف وجوده ومقاصده، والغاية الإلهية من وجوده، فإن ذلك يقوده بالضرورة إلى التعرف إلى عالم الغيب وقضاياه.

ويوضح لنا د.الجليند أيضًا أهمية الوحي في اليقين بهذا الغيب، فيقول: ولما كان هذا العلم عزيز المنال على كثير من العقول، صعب التحصيل؛ لكثرة ارتباط العقل بالمحسوسات، كان دور الوحي في التعرف عليه مهمًّا وضروريًّا؛ ليقود العقل إلى ما غاب عنه؛ وليقرب إليه ما بَعُد عنه؛ وليكشف له عما وراء حُجُب المحسوسات، وليست حاجة العقل إلى الوحي هنا تعني الطعن في العقل أو التقليل من شأنه، كما يحاول البعض أن يصور القضية، وكأنها صراع بين العقل والوحي، لا؛ إن القضية ليست طعنًا في العقل، ولا تهوينًا من شأنه، إنما فقط توزيع وظائف، إنما أشبه بوضع كل أداة من أدوات المعرفة في مكانها المناسب لها، ومحاولة الإفادة منها في مكانها، وبوضعها الطبيعي المخلوقة من أجله[(٢)].

وهكذا يوضح لنا فضيلة الدكتور أن لكل شيء مهمته ووظيفته، فالعقل له وظيفته في عالم الشهادة والمحسوسات، والوحي له وظيفته في عالم الغيب، فعالم الشهادة هو المقابل الشرعي للعالم الحسي والمحسوسات لدى علماء المناهج أو المعرفة الحسية.

فالمريض لا يسوغ له أن يمتنع عن تناول الدواء الذي وصفه الطبيب بدعوى أنه لم يجربه قبل ذلك بنفسه، والأعمى لا يسوغ له أن ينكر ضوء الشمس بحجة أنه لم يره بنفسه، وهكذا يتواتر العلم لدى العامة والخاصة بكل ما ثبت صدقه مما جرَّبه غيرنا، ولم تدركه

---

١. المرجع السابق، ص٨٠.

٢. السابق، ص٤٦، ٤٧ بتصرف.

حواسنا، وأصبح العلم به والعمل بمقتضاه لازمًا لنا لزوم ما جربناه بأنفسنا وأدركناه بحواسنا، ولا فرق في ذلك بين ما جربه الشخص بحواسه، وما جربه غيره، فالأخذ بكل منها ضرورة عقلية كمصدر من مصادر المعرفة.

ومما ينبغي أن يعلم أن هناك أمورًا كثيرة يقتصر العلم بها على مجرد الإخبار عنها فقط؛ لأن الحواس لا تنالها بسبب غيابها عن الحواس، وليس لنا طريق إلى العلم بها إلا الخبر المتواتر، وهذا يشمل علمنا بتاريخ الإنسانية كله، فإنه لم ينقل إلينا إلا عن هذا الطريق، ومن العبث إنكار تاريخ الأمم الماضية بدعوى عدم التجريب أو عدم السماع به[1].

وقياسًا على الكلام السابق، فإن هناك أشياء لا تستطيع الحواس أن تدركها أو تصدقها بسبب غيابها عنها، ومن هذه الأشياء الإتيان بالموت يوم القيامة على هيئة كبش أملح وذبحه.

ومن الأشياء التي يحسها الإنسان ويدركها ويراها بعينه، لكنه لا يستطيع تفسيرها، ولا يعرف حقيقتها الموت، فالإنسان يرى الموت أمامه كل يوم، لكنه لا يستطيع أن يُفَسِّر حقيقة الروح وكيفية خروجها، فجسم الميت أمامنا كجسم الحي، تُرى ماذا ينقصه؟! إنه لا ينقصه شيء، لكنها الحقيقة التي أخفاها الله ﷻ عن أعيننا وعن عقولنا فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ (الإسراء: ٨٥)، فما علينا إلا الإيمان والتصديق، وكذلك من الأشياء التي نستخدمها في حياتنا، وهي مباحة لنا: استخدام الكهرباء، فأنت ترى المصباح مضيئًا، وتراه مظلمًا، فما حقيقة هذا الضوء؟ إنها الكهرباء، فأنا أسألك هل رأيتها؟ بالطبع لا، هل تعرف كيف تسير؟ هل رأيت سيرها؟ بل أين عقلك هذا الذي تفكر به؟ هل تستطيع أن تمسكه بيدك؟!

وخلاصة الكلام: أن للعقل حدودًا لا يحق له أن يتخطاها قيدَ أُنملة، وما عليه في هذه الحالة إلا أن يصدق ويوقن، ويؤمن إيمانًا جازمًا راسخًا لا شك فيه، حالُه ﴿ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا ﴾ (البقرة: ٢٨٥) و ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا ﴾ (آل عمران: ٧)؛ لأننا إذا أطلقنا لعقلنا العنان، فإننا نستنكر أشياء أقرها الإسلام، وَنُحَرِّم على أنفسنا أشياء أحلها لنا الإسلام، والكلام السابق ما كان إلا مقدمة لإثبات أن حديث إتيان الموت على هيئة كبش يوم القيامة ليذبح من أحاديث الغيب التي تتعلق باليوم الآخر، والتي يجب الإيمان بها، وإن خالفت العقل، فالعقل له حدوده ومجالاته.

وقد ذكر الشيخ عبد الله بن يوسف الجُديع هذا الحديث تحت عنوان "مخالفة العقل" في مبحث التعليل بالمخالفة، فقال عن الحديث: "إنما يوجد في بعض الحديث ما لم تستوعب بعض العقول فهمه، تارة للجهل، وتارة للهوى، والبدعة، وبغض السنن، ووقع مثل ذلك عن طوائف من الناس ردوا بمحض العقول نصوصًا تتصل بالغيب، كبعض نصوص الصفات واليوم الآخر، مما لم تنفرد به السنة الصحيحة، وإنما له في القرآن نظائر، وهذا مما لا يجوز أن يكون العقل فيه حاكمًا على النَّص... والذي ألجأ إلى ظن مخالفة صريح العقل قياس الغيب على الشهادة، وأمر الآخر غيب، وقَصَّ علينا ربنا تبارك وتعالى من شأنه، وكذلك نبيه ﷺ

---

١. السابق، ص٧٨، ٧٩ بتصرف.

ما لا يأتي على القياس، ولا تتصوره العقول، والله تعالى يخلق ما يشاء، ويحيل ما يشاء إلى ما يشاء، وليس في قدرته مستحيل، والوقف عند النص هو اللائق هنا دون التأويل، وهكذا في جميع ما تظن به العقول أنه لا يأتي على مقاييسها من أخبار الثقات المتْقِنين، فإن بابه كباب هذا الحديث، أو يكون وجهه خفي على مُدَّعي معارضته للعقول"[1].

قال ابن حجر: ذكر مقاتل والكلبي في تفسيرهما لقوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ (الملك: ٢)، أن خلق الموت في صورة كبش لا يمر على أحد إلا مات، وخلق الحياة على صورة فرس لا يمر على شيء إلا حيي.

قال القرطبي: الحكمة في الإتيان بالموت هكذا الإشارة إلى أنهم حصل لهم الفداء، كما فُدِي ولد إبراهيم بالكبش، وفي (الأملح) إشارة إلى صفتي أهل الجنة والنار؛ لأن الأملح ما فيه بياض وسواد[2].

ونظرًا لأن عقيدة أهل السنة تقر أن الموت مخلوق وذلك لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ (الملك: ٢)، فإنه يجوز تشبيه هذا المخلوق بأي شيء، وليس على الله ببعيد أن يجعله مثل الكبش، بل إن الله قادر على أن يجعله أقل من ذلك، وإنما جعله كبشًا لعلة يعلمها الله عز وجل.

يقول ابن حجر: "قال القاضي أبو بكر بن العربي: استشكل هذا الحديث لكونه يخالف صريح العقل؛ لأن الموت عرض، والعرض لا ينقلب جسمًا فكيف يُذبح؟! فأنكرت طائفة صحة الحديث ودفعته، وتأولته طائفة، فقالوا: هذا تمثيل، ولا ذبح هناك حقيقة، وقالت طائفة: بل الذبح على حقيقته، والمذبوح متولي الموت، وكلهم يعرفه؛ لأنه الذي تولى قبض أرواحهم قلت (أي: ابن حجر): وارتضى هذا بعض المتأخرين"[3].

أما قول الطائفة الأولى فمردود؛ لأن الحديث صحيح سندًا ومتنًا؛ فهو في أصح كتابين بعد كتاب الله تعالى، وقول الطائفة الثانية مردود أيضًا؛ لأنه لا مجاز في الغيبيات، بل هي حقائق ثابتة بالقرآن والسنة، والراجح هو قول الطائفة الثالثة؛ لأن الموت حقيقة، والذبح حقيقة، والموت مخلوق، وليس ببعيد أن يأتي به الله على أي صورة شاء.

وقد نقل الحافظ ابن حجر في الفتح عن قائل لم يعينه: "لا مانع أن ينشئ الله من الأعراض أجسادًا يجعلها مادة لها، كما ثبت في صحيح مسلم في حديث: "إن البقرة وآل عمران تجيئان كأنهما غمامتان"[4]، ونحو ذلك من الأحاديث"[5].

ومن هذه الأحاديث أيضًا قول النبي ﷺ: "الذين يذكرون من جلال الله من تسبيحه وتحميده وتهليله - يتعاطفن حول العرش، لهن دوي كدوي النحل يذكرون بصاحبهن"[6]، وقول النبي ﷺ كذلك في

---

١. تحرير علوم الحديث، عبد الله بن يوسف الجديع، مرجع سابق، (٢/ ٧٠٨، ٧٠٩).

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١١/ ٤٢٧).

٣. المرجع السابق، (١١/ ٤٢٨).

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، (٤/ ١٣٩٤)، رقم (١٨٤٣).

٥. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (١١/ ٤٢٩).

٦. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث النعمان بن بشير، رقم (١٨٣٨٨). وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

حديث عذاب القبر الطويل، حينما يتكلم العمل ويقول: "أنا عملك الصالح، أنا عملك الخبيث"[1].

ويقول الشيخ أحمد شاكر في الرد على مثل هذه الشبهة: "وكل هذا تَكَلُّفٌ وتهجم على الغيب الذي استأثر الله بعلمه، وليس لنا إلا أن نؤمن بما ورد كما ورد، لا ننكر ولا نتأول، والحديث صحيح، ثبت معناه أيضًا من حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري، ومن حديث أبي هريرة عند ابن ماجه وابن حبان، وعالم الغيب الذي وراء المادة لا تدركه العقول المقيدة بالأجسام في هذه الأرض، بل إن العقول عجزت عن إدراك حقائق المادة التي في متناول إدراكها، فما بالها تسمو إلى الحاكم على ما خرج من نطاق قدرتها ومن سلطانها؟! وها نحن أولاء في عصرنا ندرك تحويل المادة إلى قوة، وقد ندرك تحويل القوة إلى مادة، بالصناعة والعمل، من غير معرفة بحقيقة هذه ولا تلك، وما ندري ماذا يكون من بعد، إلا أن العقل الإنساني عاجز وقاصر، وما المادة والقوة والعرض والجوهر إلا اصطلاحات لتقريب الحقائق، فخير للإنسان أن يؤمن ويعمل صالحًا، ثم يدع ما في الغيب لعالم الغيب؛ لعله ينجو يوم القيامة"[2].

إن الذي يتأمل هذا الحديث يجد فيه من الفوائد العقدية، والمعاني الباطنة ما يستحق الوقوف أمامها، فمن فوائده العقدية:

- عدم فناء الجنة والنار.
- إثبات الخلود في الجنة للمؤمنين، وفي النار للكافرين.
- تسمية يوم القيامة يوم الحسرة؛ لتحسر الكافرين على تفريطهم في حق الله.
- ذبح الموت دلالة على الخلود الأبدي، والذبح للموت نفسه، وليس لملك الموت. والقول أن الذبح لملك الموت هو من الاستدراك الفاسد على الله ورسوله، والتأويل الباطل الذي لا يوجبه عقل ولا نقل، وسببه إنما هو قلة الفهم عن مراد الله ورسوله ﷺ.

ومن المعاني الجيدة في هذا الحديث: أن الفناء والنعيم ضدان يؤثر الأول منهما على كمال الثاني، فكلما ظن المتنعم أو دار في خَلَدِه أن ما هو فيه من النعيم سوف يذهب وينقضي، آلمه ذلك ونغَّص عليه نعيمه، وكذلك المعذَّب إذا ظن أنه سيأتي عليه يوم ينتهي عذابه، فإن عذابه يهون، وصبره يعظم، ورجاءه يخفف ما هو فيه من ألم وشقاء.

وزيادة في نعيم المؤمنين وعذاب الكافرين قضى الله بذبح الموت ذبحًا حِسِّيًّا أمام الجميع ـ أهل الجنة وأهل النار ـ وذلك ليدفع كل معاني الأمل من نفوس الكافرين في النجاة، وليقطع كل الظن في الفناء مما ينغص عيش أهل الجنة، ويذهب كمال نعيمهم، فيفرح أهل الجنة فرحًا عظيمًا، ويشقى أهل النار شقاءً مريعًا، فلا نجاة لهم في حاضرهم، ولا نجاة لهم في مستقبلهم، فيعذبون حِسِّيًّا بما هم فيه من العذاب، ويعذبون معنويًا بانقطاع الرجاء من النجاة.

وخلاصة القول: أنه لا يصح لأي شخص أن يطلق لعقله العنان، وأن يجعله يتدخل فيما يعجز عنه، فعقل

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث النعمان بن بشير، رقم (١٨٥٥٧). وقال الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح.

٢. المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م، هامش (٨/ ١٩٠، ١٩١).

الإنسان قاصر لا شك في ذلك مهما أوتي من علم، فصدق الله العظيم؛ إذ يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥)، كما يجب إلزام العقل بالوقوف عند حدود الله، وعدم تعديها، قال الله عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ (البقرة: ٢٢٩)، وبهذا يتبين عدم تعارض حديث إتيان الموت على صورة كبش أملح مع العقل الصحيح؛ لأنه كما قلنا: إن صريح المعقول يوافق صحيح المنقول، والحديث الذي تناولناه في أعلى درجات الصحة فهو متفق عليه، ونسأل الله عز وجل أن يعطينا عقولًا صحيحة تعي ما يقال وما تسمع عن ربها عز وجل، ورسولها ﷺ[*].

الخلاصة:

- إن حديث إتيان الموت يوم القيامة على هيئة كبش أملح، ثم ذبحه أمام أهل الموقف، حديث صحيح متفق عليه سندًا ومتنًا، فهو في أعلى درجات الصحة؛ حيث إنه ورد في أصح كتابين ـ الصحيحين ـ بعد كتاب الله عز وجل.
- حديث إتيان الموت على هيئة كبش من أحاديث اليوم الآخر، أي الغيبيات التي لا يجوز استخدام المجاز فيها، ولا العقل إلا إذا كان صحيحًا، كما لا يجوز تأويلها إلا بمراد الله عز وجل ومراد رسول الله ﷺ.
- ذبح الموت يوم القيامة حقيقة، والمذبوح هو الموت، وليس ملك الموت كما يفهم بعض الناس خطأً، والموت مخلوق كما هو معلوم، وذبحه دليل على الخلود الأبدي.
- إن النقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح، وهناك كثير من الأشياء الغائبة عنا لا نحسها ولا نلمسها، ومع ذلك لا ننكرها؛ لأننا لو أنكرناها لعشنا في ظلام وضلال، ومن ذلك: الروح، والعقل، والكهرباء، ولك أن تتخيل إذا أنكر المنكر وجود العقل ماذا سيحدث؟!
- إن اليقين مطلب أساسي لمن يريد أن يبحث في عالم الغيب؛ وذلك لأن الوحي هو آلة هذا العالم الغيبي، أما عالم الشهادة فآلته الحواس والعقل يوافق ذلك وَيَقْبله؛ لأنه يراه ويشاهده ويحسه.
- إن كل ما على الأرض فانٍ، ولن يبقى إلا وجه الله، وحتى يعلمنا أنه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ (القصص: ٨٨)، ولذا فقد أمات الموت.
- من رحمة الله عز وجل أنه أدام الجنة للمؤمنين، فلا تفنى أبدًا، وأدام النار للكافرين فلا تفنى أبدًا.
- لقد سمَّى الله عز وجل يوم القيامة يوم الحسرة؛ وذلك لتحسر الكافرين على تفريطهم في حق الله عز وجل.
- إن ذبح الموت ذبحًا حسِّيًّا أمام أهل الجنة وأهل النار زيادة في نعيم المؤمنين، ونكاية في عذاب الكافرين، حتى لا يظن المؤمن أن النعيم سينتهي، ولا يظن الكافر أن العذاب سينتهي؛ ولذا قال ﷺ: "خلود فلا موت".

---

[*] في **"الإيمان بالغيب من لوازم العقيدة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الأولى، من هذا الجزء. في **"وجوب الإيمان بما أخبر عنه النبي من الغيبيات"** طالع: الشبهة الخامسة، من هذا الجزء.

الشبهة الخامسة والثلاثون

دعوى أن أحاديث "النيل والفرات من الجنة" تخالف الواقع(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المشككين في الأحاديث التي ذكرت أن النيل والفرات من الجنة، والتي جاءت في الصحيحين وغيرهما من كتب السنن، فقد روى البخاري في صحيحه في حديث المعراج الطويل أن النبي ﷺ قال: "ثم رُفِعتْ لي سدرة المنتهى، فإذا نبقُها[1] مثل قِلال هَجَر[2]، وإذا ورقُها مثل آذان الفِيَلة. قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان ياجبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات". وروى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: "أربعة أنهار من الجنة: النيل والفرات وسيحان وجيحان".

ويستدلون على بطلان هذه الأحاديث بأنها تخالف الواقع المشاهد؛ إذ ثبت أن نهر النيل يتدفق من الحبشة لا من الجنة كما تقول الأحاديث، ويتساءلون: هل الجنة في الحبشة حتى ينبع منها النيل؟ وكذلك الفرات فهو نابع من الأرض لا من الجنة. ويزعمون أن هذه الأحاديث أخذها أبو هريرة عن كعب الأحبار، فهي من الإسرائيليات المدسوسة على الإسلام. رامين من وراء ذلك إلى الطعن في الأحاديث الصحيحة.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن الأحاديث التي جاء فيها أن "النيل والفرات من الجنة" صحيحة في أعلى درجات الصحة، فقد اتفق عليها الشيخان، ولا تُعَارض الواقع في شيء؛ إذ إنها جاءت على سبيل التشبيه، بأنها تشبه الجنة في صفتها وعذوبتها وكثرة خيراتها، أو أن أصل النيل والفرات في الجنة، ولهما مادة من الجنة، وهذا الأخير لا يمنعه العقل، بل يشهد له ظاهر النصوص، وهو المعتمد.

٢) إن الحديث الذي رواه الصحابي أبو هريرة عن النيل والفرات لا يشبه حديث كعب في شيء، والأقرب للصحة أن يكون حديث كعبٍ تفسيرًا لحديث أبي هريرة ، عملًا بقول الله : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ... ﴾ (محمد: ١٥) فدل هذا على بطلان القول أنه من الإسرائيليات.

التفصيل:

أولا. صحة حديث "النيل والفرات من الجنة"، وعدم مخالفته الواقع:

إن حديث النيل والفرات من الجنة صحيح في أعلى درجات الصحة؛ فقد رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، فهو متفق على صحته عندهما، وكل ما في الصحيحين هو صحيح بإجماع الأمة على ذلك.

وقد روى البخاري هذا الحديث: عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة في باب المعراج في حديث طويل أن النبي ﷺ حدَّثه عن ليلة أُسْرِي به قال:

(*) كيف نتعامل مع السنة النبوية، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق. مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مرجع سابق. الأنوار الكاشفة، عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، مرجع سابق.

١. النبق: هو ثمر السدر.

٢. قِلال هَجَر: القِلال جمع قُلَّة، وهي القِرَبْ، وهَجَر: بلدة معروفة.

"... ثم رُفِعَت لي سدرة المنتهى، فإذا نَبِقُها مثل قِلال هَجَر، وإذا ورقُها مثل آذان الفِيَلة. قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات..."[١] الحديث.

وروى مسلم أيضًا في صحيحه عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه أنه قال: "... وحَدَّث نبي الله ﷺ أنه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران، ونهران باطنان، فقلت: ياجبريل ما هذه الأنهار؟ فقال: أما النهران الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات..." الحديث[٢].

وروى أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "سيحان وجيحان[٣] والنيل والفرات وكلٌّ من أنهار الجنة، قال عبد الله: قال أبي: قال أبو أسامة: كلٌّ من أنهار الجنة"[٤].

فكان من هذه الروايات أن النبي ﷺ قاله حقيقة، وهو صحيح دون أدنى شك في ذلك من ناحية سنده، أما متنه فهو لا يعارض الواقع في شيء، وما كان لنبي الله أن ينطق بشيء يخالف الحقيقة أبدًا، وهو الذي قال عنه الله عز وجل: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (النجم).

أما ما ادعاه المشككون من تعارض ما جاء به الحديث مع الواقع، فهذا من الجهل الصارخ؛ إذ لو تواضع هؤلاء قليلًا - كما يقول د. القرضاوي - ورجعوا إلى شراح الأحاديث، أو سألوا العلماء المتضلعين لَبانَ لهم الحق كالصبح لذي عينين، ولكن الكبر والغرور من أعظم الحجب عن رؤية الحقيقة[٥].

وقد ذهب شراح الحديث في ذلك مذاهب عدة، فقال بعضهم: الحديث ليس على حقيقته، وإنما الكلام على سبيل التشبيه، وأن هذه الأنهار تشبه أنهار الجنة في صفتها وعذوبتها، وكثرة خيراتها ونفعها للناس، وهو تأويل مقبول ومستساغ لغة وشرعًا، ومن تتبع كلام العرب في الجاهلية وصدر الإسلام يجد من أمثال ذلك الشيء الكثير، فتلك الأنهار لبركتها أضيفت إلى الجنة، كما تقول في اليوم الطيب: هذا يوم من أيام الجنة، وكما قال ﷺ: "... واعلموا أنَّ الجنة تحت ظلال السيوف"[٦]

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: مناقب الأنصار، باب: المعراج، (٧/ ٢٤٢)، رقم (٣٨٨٧).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات، (٢/ ٦٠٥، ٦٠٦)، رقم (٤٠٩).

٣. قال الإمام النووي: اعلم أن سيحان وجيحان غير سيحون وجيحون، فأما سيحان وجيحان المذكوران في هذا الحديث اللذان هما من أنهار الجنة في بلاد الأرمن، فجيحان نهر المصيصة، وسيحان نهر أَذَنَة، وهما نهران عظيمان جدًا... وأما قول الجوهري في "صحاحه": جيحان نهر بالشام، فغلط... فالاتفاق على أن سيحون وجيحون غير سيحان وجيحان، فسيحون وجيحون ببلاد خراسان. انظر: شرح صحيح مسلم، النووي، مرجع سابق، (٩/ ٣٩٥١).

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة، (١٨/ ٢٠٠)، رقم (٩٦٧٢). وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

٥. كيف نتعامل مع السنة النبوية، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص١٨٦ بتصرف.

٦. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجهاد والسير، باب: كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخَّر القتال حتى تزول الشمس، (٦/ ١٤٠)، رقم (٢٩٦٦). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجهاد والسير، باب: كراهة تمني لقاء العدو، (٧/ ٢٧١٢)، رقم (٤٤٦١).

ومثل قوله ﷺ: "الحجر الأسود من الجنة"[1].

وقال بعضهم: "إن في الكلام حذفًا، والتقدير من أنهار أهل الجنة، ففيه تبشير من النبي ﷺ أن الله سينجز له وعده، وسينصره، وسيظهر له دينه على الأديان حتى يبلغ مواطن هذه الأنهار الأربعة وغيرها ـ إذ ذكرها على سبيل التمثيل لا الحصر ـ وهذا ما كان، فلم يمض قرن من الزمان حتى امتد سلطان الإسلام من المحيط الأطلسي إلى بلاد الهند"[2].

قال ابن حزم عند تعليقه على حديث الروضة وهذا الحديث: "وهذان الحديثان ليس على ما يظنه أهل الجهل من أن تلك الروضة قطعة منقطعة من الجنة، وأن هذه الأنهار مهبطة من الجنة، هذا باطل وكذب؛ لأن الله ﷻ يقول في الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩)﴾ (طه)، فهذه صفة الجنة بلا شك، وليست هذه صفة الأنهار المذكورة ولا تلك الروضة، ورسول الله ﷺ لا يقول إلا الحق، فصح أن كون تلك الروضة من الجنة إنما هو لفضلها، وإن الصلاة فيها تؤدي إلى الجنة، وإن تلك الأنهار لبركتها أضيفت إلى الجنة، كما تقول في اليوم الطيب: هذا من أيام الجنة، وكما قيل في الضأن: إنها من دواب الجنة"[3].

وعليه فقد جاء هذا الحديث على سبيل التمثيل، "فقد مُثل له ﷺ النيل والفرات هنالك تمثيلًا، كما مثلت له الجنة والنار في عرض الحائط وهو قائم يصلي... وكما مثل له عيسى ابن مريم والمسيح الدجال، أحدهما يتبع الثاني، وكما مثل له موسى ﵇ وهو راكب حاجًّا ينحدر من الوادي. وأمثاله كثير... وقد ذهبت طوائف من العلماء إلى أن ذلك كله على سبيل التمثيل والتصوير، فكذلك حديث النيل والفرات مُثِّلا له ﷺ في السماء قرب سدرة المنتهى فرآهما، فهذا الرأي يساير الحس والعقل والشرع واللغة، ولا يخالف منها واحدًا، فلزم حمل الخبر عليه ولا مندوحة عنه. ولله سر في تمثيل هذين النهرين له ﷺ في تلك الليلة العظيمة"[4].

فإن قيل: كيف طريق الجمع بين رواية: "إن النيل والفرات عند سدرة المنتهى أصلهما في السماء السابعة" ورواية: "أنهما في السماء الدنيا لذكره عنصرهما، وهو أصلهما؟"

ففي رواية مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ: رأى في أصل سدرة المنتهى أربعة أنهار، نهران باطنان، ونهران ظاهران، فسأل عنهما جبريل فقال: "... أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات..."الحديث.

وجاء في رواية شريك بن عبد الله عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ: "... فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان، فقال: ما هذان النهران ياجبريل؟ قال: هذان النيل والفرات عنصرهما..."[5].

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك، رقم (١٣٩٧٤). وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٢. دفاع عن السنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص١٤٣.

٣. المحلى، ابن حزم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار التراث، القاهرة، د. ت، (٧/ ٢٨٣، ٢٨٤).

٤. مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مرجع سابق، ص٨٨.

٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: التوحيد، باب: قوله ﷻ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، (١٣/ ٤٨٦)، رقم (٧٥١٧).

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: "وظاهر هاتين الروايتين متغاير، والجمع بينهما أنه رأى هذين النهرين عند سدرة المنتهى مع نهري الجنة، ورآهما في السماء الدنيا دون نهري الجنة، وأراد أن أصل نبعهما - النيل والفرات - من تحت سدرة المنتهى، ومقرهما في السماء الدنيا، ومنها ينزلان إلى الأرض، والعنصر هو الأصل. أما الباطنان فهما السلسبيل والكوثر"[1].

"قال الحافظ ابن دحية: ولنا في التأويل وجهان سديدان:

أحدهما: أن يكون محمولًا على ظاهره، ويكون معناه: أنه لما رأى عند سدرة المنتهى هذين النهرين مع نهري الجنة، وذلك في السماء السابعة، ورأى في السماء الدنيا هذين النهرين دون نهري الجنة كان لاختصاصهما بسماء الدنيا أصل من حيث الاختصاص، وهو الامتياز لهما دون نهري الجنة، سمى ذلك الامتياز والاختصاص عُنْصُرًا، أي عنصر امتيازهما، واختصاصهما، فهذا وجه سديد.

والوجه الثاني: أن يكون عنصرهما مبتدأ يتعلق به خبر سابق، لم يتقدم له ذكر من حيث اللفظ، لكن من حيث العهد، ويكون معناه: هذا النيل والفرات، فيتم الكلام، ثم يكون عنصرهما ما كنت رأيت عند سدرة المنتهى يا محمد، فاكتفى بالعهد السابق عن إعادة الكلام، وهذا وجه سديد أيضًا. وقد صح الجمع بين الحديثين، فلم يتعارضا ولم يتنافيا ولم يتناقضا"[2].

١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٧/ ٢٥٤).

٢. السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، (٢/ ٥٩، ٦٠).

وأما قول رسول الله ﷺ فيما روى الإمام مسلم: "سيحان، وجيحان، والفرات، والنيل، كلٌّ من أنهار الجنة"[3].

فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "فُجِّرَت أربع أنهار من الجنة: الفرات، والنيل، وسيحان، وجيحان"[4].

قال الحافظ ابن حجر: فلا تغاير هاتين الروايتين ما قبلهما؛ لأن المراد بهما أن في الأرض أربعة أنهار أصلها في الجنة، وحينئذ لم يثبت لسيحون وجيحون أنهما ينبعان من أصل سدرة المنتهى، فيمتاز النيل والفرات عليهما بذلك، وأما الباطنان المذكوران في الحديث الطويل، فقد تبين - من قبل - أنهما السلسبيل والكوثر، فهما غير سيحون وجيحون[5].

ولا يلزم من هذا أن يكون أصل السدرة في الأرض، فإن المراد بكونهما - النيل والفرات - يخرجان من أصلها غير خروجهما بالنبع من الأرض.

والحاصل أن أصلها في الجنة، والنيل والفرات يخرجان أولًا من أصلها، ثم يسيران إلى أن يستقرا في الأرض، ثم ينبعان، واستدل به على فضيلة ماء النيل والفرات لكون منبعهما من الجنة، وكذا سيحان، وجيحان.

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: ما في الدنيا من أنهار الجنة، (٩/ ٣٩٥١)، رقم (٧٠٢٨).

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ، (١٣/ ٢٧٣)، رقم (٧٥٣٥). وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

٥. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، (٧/ ٢٥٤، ٢٥٥) بتصرف.

ثانيًا. الحديث الوارد في أن النيل والفرات من أنهار الجنة ليس من الإسرائيليات في شيء:

إن الزعم بورود حديث "النيل والفرات من الجنة" في التوراة في "سفر التكوين" لا يُعَدُّ دليلًا على أنه مأخوذ من الإسرائيليات؛ إذ ليس في العقل ولا في الشرع ما يمنع من أن تتوافق الرسالات في بعض التشريعات، وما حُرِّف من الكتب السماوية السابقة لا يعني تحريف جميعها، والقرآن الكريم بحكم أنه سالم من التحريف والتبديل، فهو المهيمن على الكتب السماوية السابقة، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه فهو باطل، وليس العكس كما يزعم هؤلاء.

يقول د.محمد أبو شهبة: "وبقليل من التأمل يتبين لنا أن ادعاء تأثر أبي هريرة فيما رواه كعب بعيد، ولا يعدو أن يكون تظننًا وتخمينًا، فالحديثان متغايران، والأقرب أن يكون كلام كعب تفسيرًا لحديث أبي هريرة على ضوء ما فهمه من قول المولى ﷻ: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ... ﴾ (محمد: ١٥)"[1].

وهذا ما أكده د.عماد الشربيني قائلًا: "وحديث كعب يقول: أربعة أنهار من الجنة، وصفها الله ﷻ في الدنيا، النيل نهر العسل في الجنة، والفرات نهر الخمر في الجنة، وسيحان نهر الماء في الجنة، وجيحان نهر اللبن في الجنة"، وهو متغاير تمامًا عن حديث أبي هريرة الذي معنا، والأقرب أن يكون كلام كعب تفسيرًا لحديث أبي هريرة على ضوء ما فهمه من قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ (محمد: ١٥)"[2].

وبناء على ما سبق فإن الأحاديث التي دلَّت على أن النيل والفرات من أنهار الجنة أحاديث صحيحة في أعلى درجات الصحة، لا يشك أحد أنها خرجت من مشكاة النبوة، وهي لا تخالف العقل أو الواقع في شيء؛ إذ المقصود أنهما يشبهان أنهار الجنة في صفتها، وعذوبتها، وكثرة خيراتها، فقوله ﷺ محمول على التشبيه لا على الحقيقة؛ ورأى بعض الأئمة أن النيل والفرات اللذين قصدهما النبي ﷺ في الحديث هما نهران في الجنة غير النهرين اللذين في الدنيا، وبهذا يزول الإشكال في الحديث.

ونختم حديثنا بكلمة طيبة للدكتور محمد أبو شهبة عن هذا الحديث إذ يقول: "وأيًّا كان التأويل، فالحديث مستساغ لغة وشرعًا، وقد كان الصحابة - بذكائهم، وصفاء نفوسهم، وإحاطتهم بالظروف والملابسات التي قيل فيها هذا الحديث وأمثاله يدركون ما يريده النبي ﷺ من مثل هذا الحديث الذي قد يُشْكَل ظاهره على البعض، ولذلك لم يؤثر عن أحد منهم - على ما كانوا عليه من حرية الرأي والصراحة في القول - استشكال مثل هذا الحديث"[3].

الخلاصة:

- إن الأحاديث القائلة بأن النيل والفرات من أنهار الجنة أحاديث صحيحة في أعلى درجات الصحة، فقد رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما في أكثر من

---

١. دفاع عن السنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص١٤٣.

٢. السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، (٢/ ٦١).

٣. دفاع عن السنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص١٤٣.

موضع، فهي أحاديث متفق على صحتها إلى جانب رواية أصحاب السنن والمسانيد لها في كتبهم.

- إن حديث "النيل والفرات من أنهار الجنة" لا يخالف الواقع في شيء، فالمقصود بقوله ﷺ: "النيل والفرات من أنهار الجنة"؛ أي تشبه أنهار الجنة في صفتها وعذوبتها ونفعها، فأضيفت صفة الجنة إليهما، كما نقول مثلًا: العجوة من الجنة لفضلها، وكذلك هذا يوم من أيام الجنة لفضله وغير ذلك.
- رأى بعض العلماء أن المقصود بالحديث: أنهار أهل الجنة، ففيه تبشير للنبي ﷺ أن الله سيفتح عليه تلك البلاد، وتصبح هذه الأنهار للمسلمين الذين يسكنون الأرض التي فيها هذه الأنهار.
- لقد أجمع المحققون من أهل العلم مثل الحافظ ابن دحية، والحافظ النووي، والحافظ ابن حجر رحمهم الله على أن الأرض بها أربعة أنهار أصلها من الجنة، أي لها مادة من الجنة، وظاهر النصوص يدل على هذا، وهو المعتمد عند أهل السنة، ولا يعني هذا أن سدرة المنتهى في الأرض كما توهم بعض الناس، بل إن حاصل هذا أن أصل هذه الأنهار من الجنة، ومنبعها في الأرض.
- إن الزعم بأن أبا هريرة أخذ هذا الحديث عن كعب الأحبار زعم باطل؛ إذ إن هناك اختلافًا بيِّنًا بينهما، والصحيح أن قولَ كعبٍ جاء تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (محمد: ١٥)، وليس في العقل ولا في الشرع ما يمنع أن تتوافق الشرائع في بعض التشريعات، وما حُرِّف من الكتب السماوية السابقة لا يعني تحريف جميعها، والقرآن الكريم بحكم أنه سالم من التحريف والتبديل؛ فهو المهيمن على الكتب السماوية السابقة، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه فهو باطل.

الشبهة السادسة والثلاثون

توهم صحة حديث "طوبى شجرة في الجنة "(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض من ليس له باع في صنعة الحديث صحة حديث: "طوبى شجرة في الجنة، غرسها الله بيده، ونفخ فيها من روحه، تنبت الحلي والحلل، وإن أغصانها لتُرى من وراء سور الجنة"، ويستدلون على هذا بما ورد عن بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ (الرعد) بأن طوبى شجرة في الجنة.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن حديث "طوبى شجرة في الجنة" باطل سندًا لعِلَلٍ كثيرة في إسناده؛ إذ في رجال إسناده من عُرف بالوضع والكذب مثل: محمد بن زياد اليشكري، وفرات بن أبي الفرات، كما أن الحديث باطل متنًا برواياته المتعددة التي تدل على أنه من وضع الشيعة.

٢) جمهور المفسرين على أن طوبى تعني: الثواب العظيم الجزيل الذي أعده الله للمؤمنين في الجنة، فهل خفي هذا الحديث ـ على فرض صحته ـ على جميع

(*) دفاع عن السنة المطهرة، علي حشيش، مرجع سابق.

المفسرين، أم أنهم خالفوا تفسير الرسول ﷺ؟ أما من فسَّرها بأنها شجرة، فقد اعتمد على هذا الحديث الباطل.

التفصيل:

أولا. بطلان حديث:"طوبى شجرة في الجنة" سندًا ومتنًا:

إن حديث: "طوبى شجرة في الجنة" أخرجه الطبري في تفسيره عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ (الرعد)، قال: حدثنا الحسن بن شبيب، قال: حدثنا محمد بن زياد الجزري عن فرات بن أبي الفرات عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: "﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ (الرعد): شجرة غرسها الله بيده، ونفخ فيها من روحه، نبتت بالحلي والحُلل، وإن أغصانها لترى من وراء الجنة"[١].

يقول الشيخ أحمد شاكر عند تخريجه لهذا الحديث في حاشية التفسير: "وهذا خبر هالك الإسناد، وحَسْبُه ما فيه من أمر محمد بن زياد، ولم أجده عند غير الطبري، والحسن بن شبيب بن راشد شيخ الطبري، قال ابن عدي: حدث عن الثقات بالبواطيل، ووصل أحاديث هي مرسلة"[٢].

لذلك قال الألباني موافقًا الشيخ أحمد شاكر عند تخريج هذا الحديث في "ضعيف الجامع "(٤/ ١٣):

١. موضوع: أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، (١٦/ ٤٤٣). وقال الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٣٨٣٠): موضوع.

٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، مرجع سابق، هامش (١٦/ ٤٤٣).

أخرجه ابن جرير عن قرة بن إياس، ثم ذكر أنه "موضوع".

ويظهر هلاك هذا الإسناد بآفته "محمد بن زياد".

قال البخاري في محمد بن زياد: "صاحب ميمون بن مهران، قال لي عمرو بن زرارة: كان محمد بن زياد يُتَّهم بوضع الحديث"[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عبد الرحمن، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل، فيما كتب إلي، قال: سألت أبي عن محمد بن زياد قال: كان أعور كذابًا خبيثًا، يضع الأحاديث. حدَّثنا عبد الرحمن، حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا عمرو بن علي أن محمد بن زياد صاحب ميمون بن مهران كان كذابًا متروك الحديث"[٤].

ويتضح الإجماع على ترك محمد بن زياد من الرجوع إلى "تهذيب التهذيب" لابن حجر؛ حيث يقول: "قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألته - يعني أباه - عن محمد بن زياد كان يحدث عن ميمون ابن مهران، فقال: كَذَّاب خبيث يضع الحديث.

وقال أبو داود: سمعت أحمد يقول: ما كان أجرأه، يقول: حدثنا ميمون بن مهران في كل شيء.

وقال إبراهيم بن الجُنيد عن ابن معين: ليس بشيء، كذاب.

وقال محمد بن عثمان بن أبي شيبة: سمعت ابن معين يقول: كان ببغداد قوم كذابون يضعون الحديث، منهم

٣. التاريخ الكبير، البخاري، مؤسسة الرسالة الثقافية، بيروت، د. ت، (١/ ٨٣).

٤. الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م، (٧/ ٢٥٨).

محمد بن زياد كان يضع الحديث... وقال الجوزجاني: كان كذابًا، وقال أبو زرعة: كان يكذب... وقال أبو حاتم العجلي: متروك الحديث، وذكره ابن البرقي في طبقة الكذَّابين.

وقال الإمام ابن حبان: كان ممن يضع الحديث على الثقات، ولا يحل ذكره في الكتب إلا على وجه القدح فيه"[1].

وذكر الذهبي في "الميزان"، فقال عنه: "قال أحمد: كذاب أعور، يضع الحديث. وروى إبراهيم بن الجُنَيد وغيره عن ابن معين: كذاب. وقال ابن المديني: رُمِيتُ بها كتبتُ عنه، وضعَّفه جدًّا، وقال أبو زرعة: كان يكذب. وقال الدارقطني: كذاب"[2].

وقال الخطيب البغدادي: "قال أبو عيسى الترمذي: محمد بن زياد صاحب ميمون بن مهران: ضعيف في الحديث جدًا، أخبرنا البرقاني، أخبرنا أحمد بن سعيد بن سعد، حدثنا عبد الكريم بن أحمد بن شعيب النسائي، حدثنا أبي قال: محمد بن زياد يروي عن ميمون بن مهران، متروك الحديث"[3].

وإذا كان محمد بن زياد علة في إسناد الحديث، فإن هناك علة أخرى متمثلة في فرات بن أبي الفرات، تَرْجَمَ له الذهبي في "الميزان "فنقل عن يحيى بن معين أنه قال: "ليس بشيء. وقال ابن عدي: الضعف يَتَبَيَّن على رواياته"[4].

وإلى جانب هذه العلة توجد علة ثالثة تتمثل في الحسن بن شبيب، الذي قال عنه ابن عدي: "حدث بالبواطل عن الثقات"، وساق في ترجمته أحاديث من بواطيله[5].

هذا فيما يتعلق بإسناد الحديث، أما إذا عدنا إلى متن الحديث وجدنا أثر الوضع ظاهرًا واضحًا؛ وذلك إذا تتبعنا الروايات المتعددة للمتن، كما ذكر القرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ (الرعد) قال أبو جعفر محمد بن علي: سُئِل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾، قال: "طوبى شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة، ثم سُئِلَ عنها مرة أخرى، فقال: "شجرة أصلها في دار عَلِيٍّ وفروعها في الجنة"، فقيل له يا رسول الله: سُئِلت عنها فقلت: "أصلها في داري وفروعها في الجنة"، ثم سئلت عنها فقلت: شجرة أصلها في دار عليٍّ وفروعها في الجنة، فقال النبي ﷺ: إن داري ودار علي غدًا في الجنة واحدة في مكان واحد".

وقد قال عنه الشيخ علي حشيش: حديث غير صحيح، لم أقف له على أصل... وأثر الوضع ظاهر على الحديث، ولم يكن هذا إلا من وضع الرافضة، وإلا لماذا لم يكن أصلها في دار أبي بكر أو في دار عمر؟! وكما يقول ابن القيم في كتابه "المنار المنيف": "وأما ما وضعه الرافضة في فضائل عليٍّ فأكثر من أن يُعَد. قال الحافظ أبو يعلَى الخليلي في كتاب "الإرشاد": وضعت الرافضة في فضائل علي ﷺ وأهل البيت ثلاثمائة ألف حديث، ولا تستبعد هذا فإنك لو تتبعت ما عندهم من ذلك

١. تهذيب التهذيب، ابن حجر، مرجع سابق، (٩/ ١٥١).
٢. ميزان الاعتدال، الذهبي، مرجع سابق، (٣/ ٥٥٢،٥٥٣).
٣. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، مرجع سابق، (٥/ ٢٨١).
٤. ميزان الاعتدال، الذهبي، مرجع سابق، (٣/ ٣٤٣).
٥. المرجع السابق، (١/ ٤٩٥).

لوجدت الأمر كما قال"[1].

هذا فضلًا على أن الحديث بهذا السند مردود بالسقط الظاهر من الإسناد في أوله وآخره، فلم يُوجد إلا راوٍ واحد، هو أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين، قال الحافظ ابن حجر في "التقريب": من "الرابعة"[2]، جلُّ رواياته عن كبار التابعين، وبذلك يصبح الحديث مرسلًا، فضلًا على أنه معلق[3].

ثانيًا. آراء المفسرين في تفسير كلمة "طوبى":

إذا عدنا إلي التفاسير فإننا نجد أنها أجمعت على أن كلمة "طوبى" معناها: منزلة ومكانة طيبة، قال القرطبي: "قال ابن عباس: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾: فرح لهم وقرة عين، وعنه أيضًا أن "طوبى" اسم الجنة بالحبشية، وقال سعيد بن جُبير، قال الربيع بن أنس: هو البستان بلغة الهند. قال القشيري: إن صح هذا فهو الوفاق بين اللغتين. وقال قتادة: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾: حسنى لهم. وقال عكرمة: نعمى لهم. وقال إبراهيم النخعي: خير لهم، وعنه أيضًا: كرامة من الله لهم. وقال الضحاك: غبطة لهم. وقال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة؛ لأن طُوبى فُعْلَى من الطَّيب؛ أي العيش الطَّيِّب لهم، وهذه الأشياء ترجع إلى الشيء الطيب. وقال الزجاج: طوبى فُعْلى من الطِّيب، وهي الحالة المستطابة لهم"[4].

ويقول صاحب الكشاف: "ومعنى طوبى لك: أصبت خيرًا وطيبًا، وهي مصدر من طاب كَبُشْرَى وزُلْفى، والواو في طوبى منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها كموقن وموسر"[5].

قال صاحب التحرير والتنوير: "وطوبى: مصدر من طاب طيبًا إذا حَسُنَ، وهي بوزن البُشْرَى والزُّلْفى، قُلبت ياؤها واوًا لمناسبة الضمة. أي لهم الخير الكامل؛ لأنهم اطمأنت قلوبهم بالذكر، فهم في طيب حال: في الدنيا بالاطمئنان، وفي الآخرة بالنعيم الدائم، وهو حسن المآب، وهو مرجعهم في آخر أمرهم"[6].

"فطوبى إذن كلمة عربية وردت عن العرب بمعنى إصابة الخير والطيب؛ فقد جاء في "لسان العرب" عن قتادة، أنها كلمة عربية، وتقول العرب: طوبى لك إن فعلت كذا وكذا، وأنشد:

طوبى لمن يستبدل الطَّوْدَ بالقُرى

ورِسلًا بيقطين العراق وفومها"[7]

يقول الشيخ الشعراوي: "وطوبى من الشيء الطيب؛ أي: سيلاقون شيئًا طيبًا في كل مظاهره: شكلًا ولونًا وطعمًا ومزاجًا وشهوة، فكل ما يشتهيه الواحد منهم سيجده طيبًا، وكأن الأمر الطيب موجود لهم"[8].

ويقول صاحب التفسير الوسيط: طوبى: مصدر كَبُشْرَى وزُلْفى من الطيب، وأصله طُيْبى، فقلبت الياء واوًا لوقوعها ساكنة إثر ضمة، كما قلبت في موقن

1. المنار المنيف في الصحيح والضعيف، ابن القيم، مرجع سابق، ص١١٦.
2. تقريب التهذيب، ابن حجر، مرجع سابق، ص٨٧٩.
3. انظر: دفاع عن السنة المطهرة، علي حشيش، مرجع سابق، ص٧٥،٧٦.
4. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (٩/ ٣١٦).
5. الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، (٢/ ٣٥٩).
6. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، (٧/ ١٣٨).
7. محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، (٦/ ٢٢٨).
8. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، (١٢/ ٧٣٢٩).

وموسر من اليقين واليسر، وهذا بيان للثواب الجزيل الذي أعده سبحانه للمؤمنين الصادقين[١].

وهكذا وجدنا أن هذا الحديث موضوع من حيث السند والمتن، ووجدنا أن جمهور المفسرين على تفسير طوبى بالشيء الطيب الحسن الذي أعده الله ﷻ لعباده المؤمنين في الجنة، ومن ثم فلا داعي لترديد هذه الأحاديث الموضوعة، التي نُسبت للنبي ﷺ كذبًا وبهتانًا، ونحن نعلم عقوبة من يقول بالكذب على الرسول ﷺ، وهي أن يتبوأ مقعده من النار.

الخلاصة:

- إن حديث "طوبى شجرة في الجنة "حديث باطل، وقد استدل علماء الحديث على وضعه بوجود علة في الإسناد، تتمثل في محمد بن زياد الجزري، الذي عرفه علماء الحديث بأنه كان من الوضاعين، وكان من الكذابين، وهذا ما قال به جُلُّ علماء الحديث: البخاري، ومسلم، وأحمد بن حنبل، وابن حجر وغيرهم.
- لقد وُجدت علة أخرى في الإسناد وتتمثل في فرات بن أبي الفرات، الذي عُرف عنه الكذب، وكذا الحسن بن شبيب الذي حدَّث بالأباطيل عن الثقات، ومن هذا يتضح فساد القول بصحة الحديث.
- إن الناظر إلى متن الحديث برواياته المتعددة يجد أنه موضوع، من وضع الشيعة في فضائل علي ؓ، وقد عُرف عنهم أنهم كانوا أكثر الناس وضعًا للحديث، فقد كانوا يبغون من ذلك إظهار فضائل علي ؓ وأهل بيته الكرام، وقد اعترف بعضهم بذلك.

١. التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، مرجع سابق، (١٢/ ٦٧) بتصرف.

- إذا عدنا إلى التفاسير، فإننا نجد أن جمهور المفسرين على أن كلمة "طوبى" تعني مكانة عظيمة طيبة، أعدها الله - تبارك وتعالى - للمؤمنين في الجنة.
- لا داعي للقول بما ذهب إليه بعض المفسرين من أنها شجرة في الجنة، كما ورد في الحديث الذي ثبت بطلانه؛ إذ لا تجوز روايته لأحد من الناس إلا على سبيل القدح فيه، كما قال ابن كثير، فهل مثل هذا يُستدل به؟!

الشبهة السابعة والثلاثون

توهم صحة حديث "الجنة تحت أقدام الأمهات"(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن في السنة النبوية أحاديث صحيحة قد صنفها بعض العلماء مع الأحاديث الموضوعة، ويستدلون على ذلك بحديث: "الجنة تحت أقدام الأمهات، مَنْ شئن أدخلن، ومن شئن أخرجن"، ويزعمون أنه حديث صحيح، صنفه العلماء في الأحاديث الموضوعة. هادفين إلى إلباس الباطل لباس الحق بنشر الأحاديث الموضوعة على أنها صحيحة.

وجه إبطال الشبهة:

إن حديث "الجنة تحت أقدام الأمهات..."حديث موضوع بإجماع العلماء؛ لوجود موسى بن محمد بن عطاء الكذاب في سنده، لذلك وجب تركه وعدم الاستشهاد به، لا سيما وأن في القرآن الكريم والسنة

(*) دفاع عن السنة المطهرة، علي حشيش، مرجع سابق.

الصحيحة ما يغني عنه في الحث على طاعة الوالدين؛ وذكر فضائلهما، فلماذا الأخذ بما لم يصح عن النبي ﷺ وفيما صحَّ غنية عن غيره؟!

التفصيل:

إن حديث "الجنة تحت أقدام الأمهات..." بلفظه هذا، حديث موضوع ومنكر، أخرجه ابن عدي في "الكامل" عن موسى بن محمد بن عطاء، حدثنا ميمون عن ابن عباس مرفوعًا، وقال: "هذا حديث منكر"[1]، وموسى بن محمد أحد رواة هذا الحديث مجروح، ومعروف بأنه وضَّاع ومنكر الحديث، ومن ذلك:

ما ذكره الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال، قال عنه: "كذبه أبو زرعة وأبو حاتم، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال الدارقطني وغيره: متروك.

وقال ابن حبان: لا تحلُّ الرواية عنه؛ كان يضع الحديث، وقال ابن عدي: كان يسرق الحديث"[2].

وقال ابن حبان: "كان يدور بالشام ويضع الحديث على الثقات، ويروي ما لا أصل له عن الأثبات، لا تحلُّ الرواية عنه ولا كتابة حديثه إلا على سبيل الاعتبار للخواص"[3]. وذكره الدارقطني في المتروكين[4].

"وقال عبد الرحمن سألت أبي عنه، فقال: رأيته عند هشام بن عمار، ولم أكتب عنه، وكان يكذب ويأتي بالأباطيل، وقال موسى بن سهل الرملي: أشهد عليه أنه كان يكذب. وسُئل أبو زرعة عن أبي طاهر المقدسي، فقال: أتيته فحدث عن الهيثم بن حميد وفلان وفلان، وكان يكذب"[5].

"ولما ذكره العقيلي في الضعفاء، قال يحدث عن الثقات بالبواطيل والموضوعات، وقال: منكر الحديث، وأخرج حديثي ابن عباس، وقال في كلٍّ منهما: منكر، وقال ابن يونس: روى عن مالك موضوعات، وهو متروك الحديث، وقال عبد الغني بن سعيد: ضعيف، وقال أبو نعيم الأصبهاني: لا شيء. وقال ابن إسماعيل بن أبي قرة: كان يضع الحديث على مالك والموقري"[6].

وبهذا يتبين أن الحديث فيه مَنْ هو موصوف بالكذب، وأنه منكر الحديث ومتروك، ويحدث عن الثقات بالبواطيل، ويضع الحديث، ولا تحل الرواية عنه ولا كتابة حديثه.

وبهذا التخريج والتحقيق - بعيدًا عن الأهواء - يتضح لنا أن هذا الحديث بلفظه موضوع، وذلك بقول أئمة هذا العلم، منهم: الإمام الحافظ ابن عدي، والإمام العقيلي، والإمام أبو حاتم، والإمام أبو زرعة، والإمام الدارقطني، والإمام ابن حبان، والإمام الذهبي، والإمام ابن حجر، وقد أخذ الشيخ الألباني بأقوال هؤلاء الأئمة الحُفَّاظ، وقال: "إن الحديث موضوع"، وأورده في سلسلة الأحاديث

١. الكامل في ضعفاء الرجال، ابن عدي، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ/ ١٩٩٨م، (٦/ ٣٤٨).

٢. ميزان الاعتدال، الذهبي، مرجع سابق، (٤/ ٢١٩).

٣. كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، ابن حبان، مرجع سابق، (٢/ ٢٤٣).

٤. انظر: كتاب الضعفاء والمتروكين، الدارقطني، مرجع سابق، ص١٦٣.

٥. الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم الرازي، مرجع سابق، (٨/ ١٦١).

٦. لسان الميزان، ابن حجر، تحقيق: غنيم بن عباس غنيم، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، (٧/ ١٨٨، ١٨٩).

الضعيفة والموضوعة [1].

وإذا كان هذا الحديث موضوعًا بهذا الشكل الذي بيّناه فلا يصح أن يحتج به لا سيما وأن هناك من القرآن والسنة ما يُغني عن ذلك، ويؤدي نفس المعنى، لكنه صحيح من قول الله حقًّا، ومن قول نبيه ﷺ صدقًا.

ومن الآيات الكثيرة الواردة في تكريم الله للوالدين - لا سيما للأم - وفي بيان فضلهما: قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (الإسراء). وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (لقمان). وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ (الأحقاف: ١٥)، وهكذا نجد أن الله ﷻ قد أعلى ورفع من شأن الأم وأعلى مكانتها، وربط الإحسان إليها وطاعتها بطاعته ﷻ وقرنها بها.

وكذلك فإن هناك الكثير من الأحاديث النبوية الصحيحة والتي لا مجال فيها لشك، تدعو إلى إعلاء شأن الأم والوالدين عمومًا ورفع مكانتها وحسن الجزاء والثواب لمن أطاعها وأحسن إليها، ومن ذلك ما رُوي عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: الصلاة على وقتها، قلتُ: ثم أي؟ قال: ثم برُّ الوالدين، قلتُ: ثم أي؟ قال: ثم الجهاد في سبيل الله" [2].

ومنها أيضًا ما روي عن النبي ﷺ قال: "رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف. قيل: مَنْ يا رسول الله؟! قال: رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة" [3].

ومنها أيضًا: ما رُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: "أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أُبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى، فقال: فهل من والديك أحد حيٌّ؟ قال: نعم، بل كلاهما. قال: فتبتغي الأجر من الله تعالى؟ قال: نعم. قال: فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما" [4].

ومنه أيضًا: ما روي عن أبي هريرة قال: "جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، مَنْ أحق الناس بُحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم مَنْ ؟ قال: أمك، قال: ثم مَنْ؟ قال: أمك، قال: ثم مَنْ؟ قال: أبوك" [5].

وفي رواية: "يا رسول الله، مَن أحقُّ بحسن

---

١. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الألباني، مرجع سابق، (٢/ ٥٩).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل الصلاة لوقتها، (٢/ ١٢)، رقم (٥٢٧). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، (٢/ ٤٦٦)، رقم (٢٤٨).

٣. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة، (٩/ ٣٦٨٢)، رقم (٦٣٩٠).

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به، (٩/ ٣٦٧٧)، رقم (٦٣٨٧).

٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأدب، باب: مَنْ أحق الناس بحسن الصحبة؟ (١٠/ ٤١٥)، رقم (٥٩٧١). صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به، (٩/ ٣٦٧٦)، رقم (٦٣٨٠).

الصحبة؟ قال: أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك، ثم أدناك أدناك"[1].

وينبغي أن نعلم أن هناك رواية قريبة جدًّا في اللفظ والمعنى تغني عن هذه الرواية الموضوعة المنكرة، وهي: حديث معاوية بن جاهمة السلمي: "أن جاهمة جاء النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو، وقد جئت أستشيرك، فقال: هل لك أم؟ قال: نعم. قال: فالزمها، فإن الجنة تحت رجليها"[2].

والذي نريد أن نقوله هنا: إن السنة النبوية الصحيحة فيها كفاية لكل ما نحتاج إليه، فلماذا نأخذ الضعيف أو الموضوع ونترك الصحيح؟!

إن بيان الموضوع للناس هو دفاع عن السنة الصحيحة حتى لا يدخلها غير الصحيح، وهذا ما حدث في موضوعنا هذا.

وفي النهاية فإن حديث "الجنة تحت أقدام الأمهات" حديث موضوع ينبغي أن لا يُستشهد به؛ لا سيما وأن القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة مليئان بذكر فضل الأم والوالدين عمومًا، والتذكير بأنها طريق الأبناء إلى الجنة.

الخلاصة:

- إن حديث "الجنة تحت أقدام الأمهات" بهذا اللفظ حديث موضوع مكذوب على النبي ﷺ سندًا؛ وذلك لأن موسى بن محمد بن عطاء أحد رواته كذاب، كان يضع الحديث، ويروي ما لا أصل له عن الأثبات، لذلك لا تحل الرواية عنه ولا كتابة حديثه.

- لقد حكم على هذا الحديث بالوضع الحافظ ابن عدي والإمام العقيلي، والإمام أبو زرعة، والإمام الدارقطني، والإمام ابن حبان، والإمام الذهبي، والإمام ابن حجر، وذكره الشيخ الألباني في "سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة" وقال: هذا حديث موضوع.

- وعليه فما دام هذا الحديث موضوعًا، فلا حاجة إلى الاستناد إليه والاستشهاد به، لا سيما وأن هناك من الكتاب والسنة ما يُغني عنه، فقد ذكر القرآن الكريم الإحسان للوالدين - خاصة الأم - بعد الأمر بعبادته وحده، وحثَّ على ذلك في مواطن عدِّة.

- أما السنة المطهرة الصحيحة فقد أكثرت من بيان فضل الأم والوالدين عمومًا وحضَّت على طاعتهما، فقد بيَّن النبي ﷺ أن مَنْ أحق الناس بحسن الصحبة الأم، وكرر ذلك ثلاث مرات، ثم فضل خدمة الوالدين على الجهاد، وقال للرجل الذي طلب منه أن يأذن له في الجهاد وله أم: جاهد فيها، فإن الجنة تحت رجليها؛ فهي السبيل لدخول الإنسان الجنة إذا برَّها.

- الرسالة التي نريد إبلاغها هنا أن الأحاديث الموضوعة التي ليست من قول النبي يجب تركها وتنقية السنة منها، فالصحيح فيه كفاية عن غيره. وهذا من الدفاع عن سنة الحبيب ﷺ ببيان الصحيح من غيره.



---

1. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به، (٩/ ٣٦٧٦)، رقم (٦٣٨١).

2. حسن صحيح: أخرجه النسائي في سننه، كتاب: الجهاد، باب: الرخصة في التخلف لمن له والدة، (٢/ ٥٠٣)، رقم (٣١١٧). وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٣١٠٤): حسن صحيح.

المصادر والمراجع

- إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة، الشيخ: حمود بن عبد الله التويجري، دار الصميعي، الرياض، ط٢، ١٤١٤هـ.
- أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، د. سليمان بن محمد الدبيخي، دار المنهاج، الرياض، ط١، ١٤٢٧هـ.
- أحكام أهل الذمة، ابن القيم، تحقيق: يوسف أحمد البكري وشاكر توفيق العاروري، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- اختلاف الحديث، الشافعي، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- اختلاف الحديث، الشافعي، دار الفكر، بيروت، ط١.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الاستذكار، ابن عبد البر، تحقيق: سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- أسد الغابة، ابن الأثير، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- الإسلام وصياح الديك، جواد عفانة، دار جواد، الأردن، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- الأسماء والصفات، البيهقي، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة، د. ت.
- الإشاعة لأشراط الساعة، البرزنجي، تحقيق: موفق فوزي الجبر، دار النمر، دمشق، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- أشراط الساعة، عبد الله بن سليمان العقيلي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة، السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ.
- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، د. ت.
- أصول منهج النقد عند أهل الحديث، عصام أحمد البشير، مؤسسة الريان، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، د. صالح الفوزان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- الاعتصام، الشاطبي، دار المعرفة، بيروت، د. ت.
- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، البيهقي، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١.

- إعجاز القرآن فيما تخفيه الأرحام، كريم نجيب الأغر، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، مروان وحيد شعبان، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- أعلام الحديث، الخطابي، تحقيق: محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، جامعة أم القرى، د. ت.
- أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، د. ت.
- الأعلام، الزركلي.
- إقامة البرهان في الرد على من أنكر خروج المهدي والدجال، حمود بن عبد الله التويجري.
- اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، تحقيق: أحمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط٢، ١٣٦٩هـ.
- آكام المرجان في أحكام الجان، بدر الدين أبو عبد الله الشبلي.
- إكمال المُعْلم بفوائد مسلم، عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- الأنوار الكاشفة، المعلمي اليماني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- أهوال القبور، ابن رجب الحنبلي.
- الآيات البينات في عدم سماع الأموات، الألوسي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤.
- الإيمان، ابن منده، تحقيق: علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ.
- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، أحمد شاكر، دار التراث، القاهرة، ط٣، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- بحر العلوم، نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٧م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٩٨م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، دار التقوى، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- بدائع الفوائد، ابن القيم، تحقيق: هشام عطا وآخرين، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- التاريخ الكبير، البخاري، مؤسسة الرسالة الثقافية، بيروت، د. ت.
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود جرجيس، عبد الله أبو بطين، تحقيق: عبد السلام بن برجس العبد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

- التأويل: دراسة موضوعية في الأحاديث النبوية، د. محمد رأفت سعيد، دار الوفاء، مصر، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، تحقيق: أبي المظفر سعيد بن محمد السناري، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم، تحقيق: طه يوسف شاهين، دار الطباعة المحمدية الأزهرية، القاهرة، ط١، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
- التبيان فيما جَدَّ من أمر الجان، فوزي بن عبد العزيز الإبشاني الأثري، دار الدعوة الإسلامية، مصر، ط١، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥م.
- تحرير العقل من النقل، سامر إسلامبولي، مطبعة الأوائل، دمشق، ٢٠٠١م.
- تحرير علوم الحديث، عبد الله بن يوسف الجديع، مؤسسة الريان، بيروت، ط٣، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت.
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط٣، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- التعارض في الحديث، د. لطفي الزغير، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م.
- التعليقات الحسان على كتاب الفرقان، صالح آل الشيخ.
- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطبعة أخبار اليوم، القاهرة، د. ت.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م.
- تفسير اللباب، ابن عادل.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٣٤٢هـ.
- التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، مطبعة السعادة، القاهرة، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: أبي الأشبال صغير أحمد شاغف الباكستاني، دار العاصمة، السعودية، ط١، ١٤١٦هـ.
- تلبيس إبليس، ابن الجوزي، تحقيق: صلاح عويضة، دار المنار، القاهرة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

- التلخيص الحبير، ابن حجر، مؤسسة قرطبة، مصر، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- تمام المنة في التعليق على فقه السنة، الألباني، دار الراية، الرياض، ط٣، ١٤٠٩هـ.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، مؤسسة قرطبة، القاهرة، د. ت.
- التنبئة، السيوطي.
- تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- جامع الأصول، ابن الأثير.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م.
- جناية الشيخ محمد الغزالي على الحديث وأهله، أشرف عبد المقصود بن عبد الرحيم، مكتبة الإمام البخاري، مصر، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
- جهود الإمام محمد رشيد رضا في خدمة السنة، د. يوسف عبد المقصود إبراهيم، دار التأليف، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، تحقيق: علي حسن ناصر وآخرين، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ.
- الحديث حجة بنفسه، الألباني.
- الحق أبلج والباطل لجلج، جواد عفانة، دار جواد للنشر، الأردن، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- الحكومة الإسلامية، الخميني.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- حوارات اليوم الآخر في القرآن والسنة، سيد محمود سعيد، المكتب المصري، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- دفاع عن السنة المطهرة، علي إبراهيم حشيش، دار العقيدة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

- دفاع عن السنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- دليل الفالحين لطريق رياض الصالحين، الشافعي الأشعري المكي، دار البيان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- دور السنة في إعادة بناء الأمة، جواد موسى محمد عفانة، جمعية عمال المطابع التعاونية، الأردن، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- الديباج على صحيح مسلم، السيوطي، تحقيق: أبي إسحاق الحويني، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- الرد على الزنادقة والجهمية، أحمد بن حنبل، تحقيق: محمد حسن راشد، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٩٣هـ.
- الروح، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية ومنكري السنة، د. سيد حسين العفاني، دار العفاني، مصر، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، النووي، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- السماء في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، ط٤، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- السنة المطهرة، د. سيد أحمد رمضان المسير، مكتبة الإيمان، القاهرة، ط٣، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام مناقشتها والرد عليها، د. عماد السيد الشربيني، دار اليقين، مصر، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، دار السلام، القاهرة، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- سنن ابن ماجه، ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، د. ت.
- سنن الدارمي، عبد الله أبو محمد الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت،ط١، ١٤٠٧هـ.
- السنن الكبرى، البيهقي.
- سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن علي النسائي، جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، د. ت.

- سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.
- شرح صحيح البخاري، ابن بطال، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، د. ت.
- شرح السنة، البربهاري.
- شرح السنة، البغوي، تحقيق: زهير الشاويش وشعيب الأرنؤوط، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، تحقيق: محمد محمود حجازي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- شرح العقيدة الواسطية، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، السعودية، ط٣، ١٤١٦هـ.
- شرح العمدة في الفقه، ابن تيمية، تحقيق: د. سعود صالح العطيشان، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٣هـ.
- الشرح الممتع على زاد المستقنع، ابن عثيمين، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ.
- شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين.
- شرح سنن ابن ماجه، السيوطي، مكتبة قديمي كتب خانة، باكستان، د. ت.
- شرح مشكل الآثار، الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- شرف أصحاب الحديث، الخطيب البغدادي، تحقيق: عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- شريعة الإسلام صالحة في كل زمان ومكان، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- الصحاح في اللغة، الجوهري.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- صحيح ابن خزيمة، ابن خزيمة النيسابوري، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
- صحيح مسلم بشرح النووي، النووي، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني.

- صحيح وضعيف سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني.
- صحيح وضعيف سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني.
- صحيح وضعيف سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني.
- الضعفاء الصغير، البخاري.
- ضلالات منكري السنة، د. طه حبيشي، مطبعة رشوان، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٩م.
- الطبقات الكبير، ابن سعد، تحقيق: د. علي محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- ظلال الجنة في تخريج السنة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، ابن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.
- عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى عليه السلام، الغماري.
- علاقة الإنسان بالمَلَك والشيطان، د. حبيب الله حسن أحمد.
- علوم الحديث، ابن الصلاح، تحقيق: د. نور الدين عتر، المكتبة العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير اليماني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
- عون المعبود شرح سنن أبي داود مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية، شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، محمد بن أحمد السفاريني، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٦م/ ٢٠٠٥م.
- فتاوى اللجنة الدائمة، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرازق الدويش.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرين، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- فتح القدير، الشوكاني، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الظاهري، تحقيق: د. محمد إبراهيم نصر ود. عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- فقه أشراط الساعة، محمد إسماعيل المقدم، دار ابن الجوزي، القاهرة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

- الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- في نقد الحاجة إلى الإصلاح، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥م.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- قذائف الحق، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- قضية الألوهية بين الدين والفلسفة، د. محمد السيد الجليند، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد صالح العثيمين.
- الكامل في ضعفاء الرجال، ابن عدي، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ/ ١٩٩٨م.
- كتاب التوحيد، ابن خزيمة، تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، مكتبة الرشد، الرياض، ط٥، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- كتاب الضعفاء والمتروكين، الدارقطني، تحقيق: صبحي البدري السامرَّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- كتاب الضعفاء والمتروكين، النسائي.
- كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، ابن حبان، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، سوريا، ط٢، ١٤٠٢هـ.
- الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية، القاهرة، د. ت.
- الكواكب الدراري بشرح صحيح البخاري، الكرماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ.
- كيف نتعامل مع السنة النبوية، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- لا عذاب في القبر، جواد عفانة، جمعية عمال المطابع التعاونية، الأردن، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- لسان الميزان، ابن حجر، تحقيق: غنيم بن عباس غنيم، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- اللعاب الأخير في مجال إنكار سنة البشير النذير، د. طه حبيشي، مطبعة رشوان، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- لوامع الأنوار البهية، شمس الدين السفاريني، مؤسسة الخافقين، دمشق، ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، السنة (٢٢)، العدد (٦٨)، صفر ١٤٢٨هـ/ مارس ٢٠٠٧م.
- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، مصر، ط٣، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

- مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين، ابن عثيمين.
- محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- المحرر الوجيز، ابن عطية.
- المحلى، ابن حزم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار التراث، القاهرة، د. ت.
- مختلف الحديث بين الفقهاء والمحدثين، نافذ حسين حماد، دار النوادر، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م.
- مسند أبي داود الطيالسي، أبو داود الفارسي الطيالسي، دار المعرفة، بيروت.
- مسند أبي يعلى الموصلي، أبو يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة قرطبة، القاهرة، د. ت.
- مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي عياض المالكي، دار التراث، القاهرة، د. ت.
- مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م.
- مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.
- المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- معارج القبول، حافظ أحمد حكمي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- معالم التنزيل، البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرين، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ود. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢م.
- مفاتيح الغيب، الرازي.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان، د.ت.

- المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، علي بن نايف الشحود.
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١١هـ.
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن الأشعري، تحقيق: هلموت ريتر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣.
- من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، د. يوسف القرضاوي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- المنار المنيف في الصحيح والضعيف، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- المنة شرح اعتقاد أهل السنة، د. ياسر برهامي، دار الخلفاء الراشدين، الإسكندرية، د. ت.
- منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، تحقيق: محمد أيمن الشبراوي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- منهج الصحابة في الترجيح، محمود عبد العزيز محمد، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل، عزية علي طه، دار البحوث العلمية، الكويت، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- المهدي، محمد إسماعيل المقدم، الدار العالمية، الإسكندرية، ط١١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
- المهدي المنتظر على الأبواب، محمد عيسى داود، دار المصطفى، القاهرة، ط٢١، ٢٠٠٣م.
- المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة، د. عبد العليم عبد العظيم البستوي، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي، د. أحمد شوقي إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
- موسوعة الإعجاز العلمي في سنة النبي الأمي، حمدي عبد الله الصعيدي، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.
- الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية، د. أحمد مصطفى متولي، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الموطأ، الإمام مالك، جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، د. ت.
- موقف المدرسة العقلية الحديثة من الحديث النبوي الشريف، شفيق بن عبد الله شقير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، د. ت.

- نحو التجديد والاجتهاد "مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية"، د. طه جابر العلواني، دار تنوير، القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي.
- نظم المتناثر من الحديث المتواتر، الكتاني، دار الكتب السلفية، القاهرة، ط٢.
- النهاية في الفتن والملاحم، ابن كثير، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، دار الجيل، بيروت، د. ت.
- نيل الأوطار، الشوكاني، تحقيق: عبد المنعم إبراهيم، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- الوحي والإنسان: قراءة معرفية، د. محمد السيد الجليند، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٢م.



موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الثالث: السنة النبوية

المجلد الخامس

ج ١٠

شبهات حول أحاديث العقيدة (٣)

(السمعيات)

إعداد

نخبة من كبار العلماء



العنوان:

موسوعة بيان الإسلام
الرد على الافتراءات والشبهات
القسم الثالث: السنة النبوية
المجلد الخامس (ج١٠)

إعداد:

نخبة من كبار العلماء

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

الترقيم الدولي: 977-14-4428-X

رقم الإيداع: 2011/17880

الطبعة الأولى: يناير 2012

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

تليفون: 33466434 - 33472864 02

فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com